

الأب سهيل قاشا

الأب جورج رحمة

## السريان أعمدة الحضارة الإسلامية



دار سائر المشرق

# السريان

أعمدة الحضارة الإسلامية

الأب سهيل قاشا

الأب جورج رحمة



الطبعة الأولى  
٢٠١٨

بالتعاون مع اللجنة الثقافية في الرابطة السريانية

© دار سائر المشرق للنشر والتوزيع  
جديدة المتن - نهر الموت  
رقم الهاتف والفاكس ٠١-٩٠٠٦٢٤

info@entire-east.com  
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-109-1

## هل يدرك المسلمون تاريخهم؟

ما زلنا نصرّ، «نحن السريان»، رغم كلّ ما أصابنا، عبر التاريخ، أن لنا بصمةً لا تمحى، في الشرق في الحضارة وفي الهوية.

ربما لأنه لم يبقَ لنا إلاّ الماضي، نتغنّى به. نسكّر على بطولات، على مساهمات، على ترجمات، على لغة مقدّسة، على انتشار.

ربّما من فرط مآسينا، مذابح من «سيفو» إلى «سيميل»، من «العثمينة إلى «داعش»، نفتش عن بصيص نور من أمس.

وربما من تهجيرنا وهجراتنا، من خسارة الأرض والأوطان والعلم والحلم والمستقبل، من ذوباننا في صقيع الدنيا، نتمسك بما قد يجمعنا وهو التراث.

هكذا، آلينا على أنفسنا في المركز الثقافي السرياني التابع للرابطة السريانية، أن نطبع وننشر ونسوّق لأيّ كتاب فيه روحنا.

فكيف إذا كان من نتاج أبوين لهما معنا قصص حوار وعقل وتقدير، وهما من هما، في الفكر والفلسفة والدين واللاهوت والأدب والكتابة والعقيدة الأب الدكتور جورج رحمة الراهب الماروني السرياني الأنطوني ابن دير الأحمر من أرز الرب، والذي سرقه الموت ونحن في طور إعداد الكتاب للطباعة، والأب سهيل قاشا المتصوّف السرياني الكاثوليكي ابن بغديدا الرابضة هناك، في سهل نينوى في بلاد الرافدين تنتظر مصيرها في رسم حدود بالدم.

وهما سيّد المنابر والغزّاران في العطاء وكرّمتها الرابطة السريانية سابقاً على إصدارات  
عدة.

نحن روح الشرق، ملحّه وسكّره وإذا لم يع العالم العربي والإسلامي جوهر وجودنا  
وحضورنا ورسالتنا، وإذا لم تدخل في عقله قيم التنوع والتعدّد واحترام كلّ إنسانٍ وكلّ  
جماعةٍ على قاعدة المساواة، وإذا لم يتغيّر الشرق وينتهي من كلّ فكرٍ أحاديٍّ إلغائيٍّ يبشّر  
بالحقّد والكراهية ورفض الآخر وتكفيره، تكون المنطقة في طريقها إلى جهنم.

ليس هيئاً أن تحمل كلّ هذا التراث، وأن تكون ساهمت كشعبٍ في الحضارة الإسلامية.  
إنه عنوان مثير «السريان أعمدة الحضارة الإسلامية». فهل يدرك المسلمون تاريخهم؟

حبيب أفرام

ميلاد ٢٠١٧

## شكرٌ وتقدير

نقدّم جزيل الشكر وعمق التقدير للسرياني العصامي، الشّمس  
الإنجيلي الملقونو كريم شاهان المحترم لقيامه بتصحيح الأخطاء  
المطبعة وضبط أسماء الأعلام والأماكن في الكتاب.

س.ق.

## الإهداء

إلى أرواح جمهرةٍ من الكتّاب والوزراء، النقلة والنسّاخ،  
المؤلفين والمترجمين، الأطباء والكحّالين، علماء الفلك والحكّماء،  
الفلاسفة والمنطقيّين، من السريان الميامين، المذكورين في طيّات  
هذا الكتاب، تخليدًا لذكراهم وإعجابًا بما أتجوه في ميدان  
الفكر والمعرفة، واعتزازًا بأعمالهم الحضارية في ميدان الإبداع  
والاكتشاف والابتكار العلمي والمعرفي وخاصة على عهد  
الدولة الأموية (٦٦١-٧٥٠م) والدولة العباسية (٧٥٠-  
١٢٥٨م).

وما زال أحفادهم بعد أولادهم على الدرب يسرون، مجدًا لله  
وللأمة.

س.ق.

## المقدّمة

إرتأينا والأب جورج رحمة الموقّر كتابة دراسة علميّة أكاديميّة عن دور السريان في بروز ورقي الحضارة العربية في عهدها الأموي والعبّاسي التي ولدت ونضجت في أكناف علماء السريان وأدبائهم ورفعوا راياتها في الخافقين، وإلى اليوم يُذكرون ويُشكرون.

وقد كتب الأب جورج رحمة الفصلين الخامس والسادس والفصول الباقية من قلم الأب سهيل قاشا.

لدى نشوء الدولة العربية الإسلامية، بعد سقوط الدولة الفارسية شرقاً، والبيزنطية الرومية غرباً، وقيام الدولة الأموية (٦٦١-٧٥٠م)، والدولة العبّاسية (٧٥٠-١٢٥٨م)، أبقى الخلفاء المسلمون على العنصر السرياني ليوصل عمله الفكري.

السريان كما هو معلوم، من العنصر الآرامي الذي دخل إلى العراق وبلاد الشام في الألف الثاني قبل الميلاد، وأقاموا دويلات (إمارات) في جنوب العراق (إمارة فراث ميشان) وفي بلاد الشام (إمارة حلب، وإمارة دمشق). والمعروف المشهور عن السريان الآراميين أنهم قومٌ يحبّون السلام، فاشتهروا في ميدان الفكر والتجارة.

وبعد اعتناقهم المسيحية في صدر القرن الأول، اهتموا في الحياة الأدبية والعلمية، فنبع منهم الشعراء والأدباء والكتّاب أمثال: مار أفرام السرياني (٣٧٣م)، وبرديصان، ونرساي، ويعقوب السروجي (٥٢١م)، وإسحق الأنطاكي، ويعقوب الرهاوي، ورابولا وغيرهم الكثيرون.

إلى جانب ذلك، اهتموا بالترجمة. فترجموا الكثير من التراث اليوناني والرومي والفارسي والهندي - وهذا ما فصلناه في سطور هذا الكتاب - فصارت لهم منزلة عظيمة



في الدولتين الأموية والعبّاسية. وعلى أكتافهم بُنيت حضارة الفكر والعلم والمعرفة، وبالحق والحقيقة صاروا هم أعمدة الحضارة الإسلامية، خاصة عندما نالوا من الخلفاء والأمراء التشجيع لأمانتهم وإخلاصهم، فنشأت بالفعل حركة علمية مزدهرة حملوا لواءها طيلة الفترة التي قاربت الستة قرون (٦٦١-١٢٥٨م).

هناك مصطلح «علوم الأوائل» يطلق على الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق والكيمياء، وهي العلوم التي نُقل أكثرها من اللغات المختلفة كالسريانية واليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية.

إن تراث الأمم التي سبقت العرب والمسلمين كان يتمثل عند مجيء الإسلام بالفرس واليونان والهنود والروم ورثة الإغريق. وفي القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) وما بعده، تُرجم هذا التراث العلمي إلى العربية، بواسطة السريان عن طريق السريانية أول الأمر، ثم عن طريق اليونانية مباشرة بعد ذلك.

درّس السريان العلوم اليونانية باللغتين السريانية واليونانية وأسّسوا قبيل الإسلام عددًا كبيرًا من المدارس أكثرها في ما بين النهرين، أشهرها مدرسة الرها، ومدرسة قنسرين على الفرات، ومدرسة نصيبين في الجزيرة، (ويروى أن عدد تلامذتها كانوا ٨٠٠ طالب).

وهناك مدرسةٌ أخرى هي مدرسة جنديسابور للطب في خوزستان، أسّسها كسرى أنوشروان سنة (٥٣١-٥٧٩م)، وقد ظلّت إلى العصر العبّاسي وأدرك كثيرٌ من أطبائها الدولة العبّاسية كآل بختيشوع. ومن درس فيها من العرب: الحارث بن كلدة.

وقد أنشئت هذه المدارس لدراسة اللاهوت، والفلسفة والطب. وكان علماءها ينقلون إلى لغتهم السريانية كثيرًا من الكتب اليونانية الشهيرة في الطب والفلسفة وعلم الفلك والمنطق والرياضيات لكبار علماء الإغريق أمثال: أرسطو، وإبقراط، وأفلاطون، وفيثاغورس، وجالينوس. ومن أشهر المترجمين في هذا الدور: سرجيس الراسعيني السرياني وهو من أطباء العراق، ويعقوب الرهاوي.

ولما اشتد الاضطهاد على العلماء في عهد الرومان انتقلوا إلى العراق حيث نشروا علوم اليونان. ولما جاء الإسلام واستقر العرب في البلدان المفتوحة، أخذوا يتعلّمون اللغات الأجنبية،

فاستطاعوا هم وأقصد بهم السريان أن ينقلوا الشيء الكثير إلى اللغة العربية. وقد بدأت الترجمة من اللغة السريانية وكانت سهلة لما بين اللغتين من تقارب وتشابه في الألفاظ والقواعد.

بدأت من أيام الأمويين ونشطت في العصر العباسي. كان يموج بالأطباء والفلاسفة والمنجمين والحسابين من الأمم المختلفة. وكان السريان ينقلون بعض الكتب الطبية إلى لغتهم أثناء نقلها إلى العربية. ومن بين الأسر السريانية النسطورية الشهيرة التي كان لها دورٌ مهمٌ في النقل آل بختيشوع وهم أطباء الخلفاء العباسيين في عصرهم الأول، الذين خدموا البلاط العباسي أكثر من ثلاثة قرون، وآل حنين بن إسحق وابنه إسحق، وآل ماسويه، وسلمويه.

يروى أن عدد المنجمين ناهز المئة. وعدد الأطباء رسا في بغداد على الألف، في حين لم يكن في أوروبا طبيب واحد، بمواصفاتهم. ولا بد من الإشارة إلى أن السريان أضافوا كثيراً من المعلومات على تلك النقول، إضافة إلى الشروحات التي وضعوها وتصويب بعض الهفوات والأخطاء في ما درسوه من الكتب اليونانية.

في حين أن العرب حينما حاولوا دراسة الفكر اليوناني بمعزلٍ عن السريان، وقعوا في الأخطاء حيث لم تكن الفلسفة التي نقلوها ولا سيمًا الإلهية منها يونانية بحتة، بل مشوبة بكثيرٍ من آرائهم. فقد التبس على العرب أفلاطون اليوناني شيخ أرسطو، وأفلوطين الإسكندري فنسبوا إلى أحدهما ما كان للثاني.

كما أن أكثر الفلسفة التي نُقلت إلى العربية كانت لأتباع أرسطو. وكانت مختلطة بشروح الإسكنداريين، فنسبت آراءهم إلى أرسطو، لأنهم لم يفقهوا الفلسفة جيدًا عملاً بقولهم: «من تفلسف يوماً تزندق دهرًا». فانحصرت الفلسفة والحال هذه، عند السريان المسيحيين الذين شرحوا كتب أرسطو بعد ترجمتها إلى السريانية ثم إلى العربية. وأضافوا إلى الأفكار اليونانية الأفكار المسيحية ونتج من ذلك دراسة اللاهوت.

واختصارًا تقسم أدوار الترجمة الفلسفية والطبية مع العلوم الفلكية والتنجيم والكحالة وغيرها إلى:

الدور الأول: من خلافة أبو جعفر المنصور سنة (١٣٦هـ/ ٧٥٣م) إلى نهاية خلافة هارون الرشيد (١٩٣هـ/ ٨١٨م) ويتميز بترجمة العلوم العملية كالطب والفلك.

ومن أشهر النقلة فيه جيورجيس بن جبرائيل بختيشوع، ويوحنا بن ماسويه.

الدور الثاني: من سنة (١٩٨هـ/ ٨٢٣م) إلى (٣٠٠هـ/ ٩١٢م) ويتميز بترجمة كتب الرياضيات، والفلسفة والمنطق.

ومن أشهر المترجمين فيه: يحيى بن البطريق، وقسطا بن لوقا البعلبكي المتوفي سنة (٢٢٠هـ/ ٨٣٥م)، وأيضًا حنين بن إسحق العبادي النسطوري (٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، وابنه إسحق بن حنين (٢٩٨هـ/ ٩١٠م)، وحبيش بن الأعسم ابن أخت حنين.

الدور الثالث: بعد سنة (٣٠٠هـ/ ٩١٢م). ويتميز بترجمة الكتب في مختلف العلوم وحتى في الآداب أيضًا.

ومن أشهر المترجمين فيه: متى بن يونس، وسنان بن ثابت بن قرة (٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، ويحيى بن عدي التكريتي (٣٦٤هـ/ ٩٧٤م).

والنتيجة كانت تطور الحركة العلمية في الدولة العباسية، وبلغت أوج عظمتها على أيدي المفكرين السريان الشرقيين والغربيين في كل مجالات المعرفة وميادينها. وبحق إذن نالوا شرف المرتبة التي تبوأها أجدادهم وأبناؤهم وأحفادهم «السريان أعمدة الحضارة الإسلامية».

دير الصليب للراهبات

برمانا/ ٢٦ حزيران ٢٠١٧

ك  
ن

و  
ع

\*\*\*\*\* الفصل الأول \*\*\*\*\*

السريان وحركة الترجمة  
في الدولة العربية الإسلامية

ل

## مقدمة

كان الطابع العربي هو ما يميّز الدولة الإسلامية في عهد الأمويين<sup>١</sup> (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م) فقد ظلّت الدولة الأموية عربية المظهر، ولم يبعد الخلفاء الأمويون عن هذا الطابع إلا في المجالات التي دفعتهم الظروف إليها دفعًا. ولم يكن بدّ إذن من أن تواجههم مشكلاتٍ نتيجة لما يمارسون من نشاط جديد. كلّ ذلك جعلهم يلجأون إلى ذوي الخبرة في ما جدّ من أمور، فهم لم يناقضوا أنفسهم حين استمدوا العون من كلّ قادرٍ عليه من أهل الثقافات اليونانية والسريانية، مما أتاح للعقلية العربية أن تلقح بلقاح جديد حملة إليها السريان على وجهٍ خاص.

يقول ج<sup>٢</sup> ليفي دلافيدا: «في هذا العصر بدأت الثقافة المسيحيّة في صبغتها الأرمنيّة البيزنطيّة تتسرّب إلى المسلمين وهذا هو الذي انتهى إلى تكوين المدنية الخاصة التي امتاز بها الإسلام».

لقد توفّرت في الدولة الأموية كلّ العوامل التي تساعد على قيام مراكز ثقافية تعنى بالنشاط العقلي وتمثّلت هذه المراكز بصورة واضحة في كلّ من البصرة والكوفة. فلم تكد تضي مئة سنة على خروج العرب من صحرائهم حتى أصبح العراق مركزًا لأعظم نشاطٍ فكري في ذلك العصر، إذ بالنظر إلى ما اتّصف به المجتمع العربي الجديد من قوّة فنية، وعزم متوقّد، تقاطر أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان وأقصاها إلى مدن العراق الممصرّة حديثًا مثل البصرة والكوفة<sup>٣</sup>.

١. يقول الجاحظ: «إن دولة بني مروان كانت عربية إعرابية، وفي أجنادٍ شامية» (البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٩٧).

٢. دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢، ص ٦٧٢.

٣. نجلاء عزّ الدين، العالم العربي، ترجمة محمّد عوض إبراهيم، ص ١٢.

يقول ف. بارتولد: «صارت الكوفة والبصرة مركزين نشيطين للحياة العلمية، ولم يكن في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) مدينة تستطيع منافستها، ففيها وضعت علوم العقائد والفقهاء من قبل الأعاجم الذين أسلموا وتلاميذهم. ثم نشأت في كلتا المدينتين مدرسة للنحويين واللغويين، فكانت مجادلاتٌ ومناقشاتٌ بين البصريين والكوفيين»<sup>١</sup>.

ويقول دي بور: «إن المقر الأكبر للثقافة العقلية كانت في البصرة والكوفة حيث التقى عربٌ، وفرسٌ، ونصارى ومسلمون، ويهودٌ ومجوس. وهنا حيث ازدهرت التجارة والصناعة، يجب أن نلتمس بواكير العقل الدنيوي، تلك البواكير التي نشأت من مؤثراتٍ مسيحية مصطبغة بالفلسفة اليونانية في دورها الشرقي»<sup>٢</sup>.

ويشير المستشرق جب إلى الأثر السرياني في بيئة البصرة بقوله: «ولما كانت مدينة البصرة في واقع الأمر المركز الرئيسي لدراسات الأدب العربي في مبدأ الأمر، فهذا يشير إلى أن أحد العوامل التي عملت على تشجيع تلك الدراسات كانت أكاديمية جنديسابور، ومع أن تلك الأكاديمية وجدت في الأراضي الفارسية، فلم تكن مركزاً للدراسات السريانية، وكان أغلب قوادها من العلماء النساطرة»<sup>٣</sup>.

ويذهب الأستاذ حامد عبدالقادر إلى أن الثقافة السريانية قد وفدت إلى الكوفة والبصرة من الحيرة، لا من جنديسابور، فيقول: «وقد استقى الحيريين معارفهم اليونانية من اللغة السريانية، وحلت الكوفة والبصرة في العصر الإسلامي المزدهر محلّ الحيرة»<sup>٤</sup>.

أما أوليري، فيرى أن «البصرة قد أعجبت بالثقافة الإغريقية الوافدة إليها من الحيرة على احتمال، ومن جنديسابور على احتمالٍ آخر»<sup>٥</sup>.

ولقد توقّرت عدة أسباب ضاعفت من الاهتمام بالدراسات اللغوية كلّ من البصرة والكوفة، ومن ذلك «ما وجد من الهوة الواسعة التي كانت تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم،

١. تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ص ٧١.

٢. تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٧.

٣. راجع د. صلاح المنجد، المتتقى من دراسات المستشرقين هـ. أ. ر.، جب، خواطر في الأدب العربي، ص ١٣٠.

٤. الإسلام ظهوره وانتشاره.

٥. أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ترجمة تمام حسان، ص ٢١٩.

فتفصل بين لغة القرآن الفصيحة، ولغة الكلام اليومية التي كانت تخالطها السريانية والفارسية وغيرها من اللغات واللهجات<sup>١</sup>. وتبدو ملامح التأثير السرياني بشكل واضح في دراسات اللغويين، فالخوارزمي في مفاتيح العلوم يعقد فصلاً<sup>٢</sup> «في وجوه الإعراب على مذهب الفلاسفة اليونانيين» يقول فيه: «الرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة، وكذلك الضم وإخوته المذكورة. والكسرة وإخوته عندهم ياء ناقصة، والفتح وإخوته عندهم ألف ناقصة».

وإذا كان المسلمون قد تأثروا بالسريان في ما اتخذوه لضبط لغتهم وإعرابها، فإن السريان كانوا وراء المنهج الذي اتخذته النحاة لكتبهم، ذلك أنهم كانوا يشتغلون بالفلسفة والعلوم اليونانية في مدرسة جنديسابور، ولقد أدى ذلك إلى أن أصبحت المعارف اليونانية منتشرة بين الفرس شائعة فيهم. وابن خلدون في مقدمته يذكر أن «أصحاب صناعة النحو، كسيبويه والفارسي من بعده، فالزجاج من بعدهما، كلهم عجم في أنسابهم، وإنما رُبوا في اللسان العربي، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً»<sup>٣</sup>.

لذلك ليس غريباً أن نراهم عند وضعهم كتبهم المشهورة يسلكون مسلكاً فلسفياً يتعلّق بالمنطق، ومن ذلك أن أرسطاطاليس قال: إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء إذ لا بدّ لكلّ شيء مخلوق أن يكون واقعاً في زمانٍ من الأزمنة، وفي مكانٍ من الأماكن، فهما كالوعاء، وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً، أي وعاء، ومن مذهب أرسطاطاليس في المنطق تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وتعريف الكلام عند نحاة اليونان هو تركيب كلمات تفيد معنى تاماً، وهذا لا يباثل تعريف الكلام عند نحاة العرب، إذ الكلام عندهم لفظ مركّب مفيد يحسن السكوت عليه، والصرف عند اليونان هو تحويل آخر الكلمة من حرفٍ إلى آخر، ويضاهيه تعريف الإعراب عند نحاة العرب...، ويقال للصرف عند اليونان كليس ومعناه إمالة الشيء أي صرفه<sup>٤</sup>.

١. فيليب حتي، تاريخ العرب، ج ١، ص ٣٠١.

٢. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٣١، ط. الشرق.

٣. ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٤٤، ط. مصطفى محمد.

٤. جويدي، محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب، ص ٨٥.

لعلنا بعد ذلك نستطيع أن ننظر في قول أحد الباحثين المعاصرين: «لولا علمنا أن الذي ترجم كتاب الشعر هو متى بن يونس المتوفي سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م، ويحيى بن عدي سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م، لا يهتّم النحاة بالنقل عن أرسطو، لأن النحاة اشتغلوا بتدوين علمهم قبل ظهور الكتاب بأكثر من قرن من الزمان، بل استوى نحوهم علمًا قائمًا بذاته قبل ظهور كتاب الشعر بأكثر من قرن»<sup>١</sup>.

وهكذا استجلبت البيئات العلمية علميًا كانت حتى ذلك الحين تكاد تكون غريبة على العقلية العربية مما دفع إلى تسميتها بالعلوم الدخيلة. ولقد كان السريان هم القنطرة التي عبرت عليها هذه العلوم لتصل إلى العرب.

يقول جوستاف جرونباوم: «وكانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بواكير صدر الإسلام مرضية مقبولة»<sup>٢</sup>.

ويقول ف. بارتولد: «وكان المسيحيون أحسن حالًا تحت حكم المسلمين في الأزمنة الأولى لحاجة الفاتحين إلى هذا العنصر المسيحي المتفوق على العرب حضارة»<sup>٣</sup>.

لقد كان انتقال الخلافة من الحجاز إلى سوريا من العوامل التي فتحت الباب أمام السريان ليسهموا بجهودهم في بناء الدولة الإسلامية. كما كان لهذا الانتقال أثره في تطوّر الحضارة، إذ وجد العرب أنفسهم حكمًا لمنطقة كانت ولاية رومانية خاضعة لقانون روماني كامل التطور وإدارة منظمّة جدًّا، فأبقوا كلّ هذا كما كان؛ كذلك كانت دمشق، وهي العاصمة الرسمية لسوريا مدينةً إغريقية جزئيًّا، كما كانت مقرّ الأساقفة المسيحيين، وكانت بها مدرسة ظلّت تحتفظ بشهرتها حتى وقت الفتح العربي... «ولقد خضع معاوية وخلفاؤه من بعده في دمشق للعبادات اليونانية، فحوّل الخلفاء الأمويون جمهورية المدينة الدينية العربية إلى إمبراطورية حقيقية في سوريا... فصبّوا الدنانير الذهبية على نسق الدراهم

١. د. إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، ص ١١٧.

٢. جوستاف جرونباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٢٢٢.

٣. بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ص ٥١.

٤. أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٠٦.

٥. أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢١٠.



البيزنطية، وجعلوا الخلافة وراثية بعد أن كانت انتخابية، واستعملوا عمّالاً كثيرين من اليونان والسرّيان، وأسندوا إلى المسيحيين مركز الوزير الأول<sup>١</sup>.

يقول ج. ليفي دلافيدا: «لقد انتفع معاوية في إدارة البلاد الداخلية بخبرة المسيحيين أكثر مما انتفع أسلافه، وكان قد اتصل بالمسيحيين اتصالاً وثيقاً أيام ولايته في الشام في عهد عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان، وعرف مبلغ علمهم ومقدرتهم العملية»<sup>٢</sup>.

ويقول أوليري: «ظلّت الكتابة في السنوات العشرين الأولى أو ما يزيد عنها باللغة الإغريقية، وكان الموظّفون المدنيون جميعاً من المسيحيين على وجه التقريب»<sup>٣</sup>.

ويبدو أن هذه الظاهرة بعد أن تفسّدت كانت لا تجد قبولاً من الرأي العربي العام.

يقول جوستاف جرونيباوم: «كان تعيين غير المسلمين في مناصب الحكم يعدّ أمراً غير قانوني، وأن المعيّنين كانوا يتولون مناصبهم على مضضٍ من الناس، وأن دوائر الأتقياء كانت تحارب دائماً مثل ذلك التراخي في التصرفات من جانب بعض حكامهم»<sup>٤</sup>.

ويذكر أوليري أنه: «في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كانت ثمة غيرة عظيمة لأن المسيحيين احتكروا جميع الوظائف الإدارية، وحاول الخليفة أن يستخدم العرب في أمكنتهم، ولكن التغيير لم يكن ناجحاً، وأكثر ما استطاع عبد الملك أن يفعله هو أن يحوّل الكتابة من الإغريقية إلى العربية، وأن يكتب العربية على النقود».

## حركة الترجمة وجهود السرّيان

إن إصرار الباحثين وإجماعهم على أن أولية الترجمة إلى اللغة العربية معقود لخالد بن يزيد<sup>٥</sup> ومن عاونوه من علماء النساطرة، يجب أن لا نجدنا فنصرف النظر عن المرحلة التي

١. ماكس فانتاجو، المعجزة العربية، ص ١٣٩.

٢. دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٢، ص ٦٧١.

٣. أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٠٦.

٤. جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، ص ٢٣٠-٢٣١.

٥. إنه الشخصية الإسلامية الأولى التي عملت بمشورة علماء السرّيان فأقدمت على الاشتغال بالكيمياء. قال عنه دي بور أنه: «اشتغل بالكيمياء بإرشاد راهب نصراني» وتحدّث عنه ابن النديم فقال إنه كان يسعى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة، ومحبّة العلوم. خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصّح في العربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة. وكان ما نقل يتضمن كتباً في الطب، ويضم كتباً في النجوم. (أنظر دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٢٩، وابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٢، طبعة الاستقامة. وأنظر ص ٥١١ من المرجع نفسه، والجاحظ في البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٢٨، ورسائل الجاحظ، ص ٩٣، طبعة السندوي).

تسبق عصره، فالواقع أن الترجمة كانت معروفة قبله، ولكن الذي استحدثه خالد هو أنه بذل جهدًا مقصودًا لنقل معارف علمية بحثة لا تستلزمها الحياة الجارية.

ولعل الباحث يجد الدليل على صحّة هذا الرأي في ما ذكره ابن إسحق وهو بصدّد الحديث عن بناء الكعبة على عهد محمّد إذ يقول: «حدث أن قريشًا وجدوا في الركن كتابًا بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأ لهم رجل من اليهود فإذا هو: أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبة أملاك حنفاء، لا تزول حتى يزول أخشباها، مبارك لأهلها في الماء واللبن»<sup>١</sup>.

وخير برهان ما ورد في سيرة ابن هشام عن ورقة بن نوفل عمّ خديجة زوجة محمّد «كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»<sup>٢</sup>. وجاء في صحيح مسلم أن القسّ ورقة «كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب»<sup>٣</sup> هذه وغيرها من الروايات تشير إلى أن القسّ ورقة كان ينقل الإنجيل من العبرانية إلى العربية.

وفي صدر الدعوة الإسلامية اتخذ محمّد من يقوم المترجم بينه وبين من يشاء الكتابة لهم من الملوك والحكام.

يقول المسعودي<sup>٤</sup>: كان الخزرجي يكتب إلى الملوك ويحيب بحضرة النبي. كذلك كان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية. تعلّم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن.

ولقد كانت رغبة محمّد في تأمين الدعوى الإسلامية دافعًا لكي يوجّه فريقًا من الصحابة لتعلّم هذه اللغات ودراستها حتى يستطيعوا أن يؤدوا عنه ما يريد لأهلها. يقول

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠٨، وأيضًا أنظر: برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٩١.

٢. صحيح البخاري يشرح الكرمان، ج ١، ص ٣٨-٣٩.

٣. صحيح مسلم، ج ١، ص ٧٨-٧٩.

٤. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٤٦.

زيد بن ثابت<sup>١</sup>: «أمرني رسول الله أن أتعلّم السريانية. قال إني لا آمن يهود على كتابي، فما مرّ بي نصف شهر حتى تعلمت وحذقت فيه. فكنت أكتب له إليهم وأقرأهم».

نخلص من كلّ ذلك إلى أن البيئة الإسلامية في هذه الفترة شأنها شأن أي بيئة اجتماعية أخرى يتوقّف فيها هذا التفاعل المستمر لا يمكن أن تخلو ممن يعرف غير لغة أهلها خاصة والظروف هنا قد فتحت المجال لأصحاب هذه الألسن الأجنبية أن يجدوا لأنفسهم مجالاً بين ظهري القوم.

## السريان والترجمة قبل الإسلام

ليس من مصادفات العصر أن نجد الرواد الأوائل الذين يضطلعون بعبء الترجمة والنقل سرياناً، إذ أن هذا الأمر الطبيعي الذي كان لا بدّ أن يحدث، ذلك لأن هؤلاء كانوا قد قطعوا في هذا الطريق شوطاً بعيداً. فقد مارسوا الترجمة قبل ظهور الدولة الأموية بكثير، فمنذ القرن الرابع الميلادي شرع السريان<sup>٢</sup> في نقل الكتب اليونانية إلى السريانية في مدرسة الرها. فترجمت في هذا القرن مجموعات من الحكم.

وفي القرن الخامس<sup>٣</sup> الميلادي شرح بروبوس كتب أرسطو المنطقية وإيساغوجي لفورفوروريوس. كذلك ممن نقلوا علوم اليونان في هذه الفترة من اليونانية إلى السريانية سرجيس الراسعيني<sup>٤</sup> اليعقوبي المتوفي سنة ٥٢٦م، وقد كان رئيساً لأطباء رأس العين، غير أنه اشتغل بالفلسفة، وكتب مقالات شتى، وترجم كتباً كثيرة فلسفية وطبيّة من اللغة اليونانية إلى السريانية<sup>٥</sup>.

١. برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج ٣، ص ٤٣٥، ط ١٢٩٢هـ.

٢. جويدي، محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب، ص ٨٢.

٣. راجع النقل عن اليونانية في القرن الخامس للدكتور مراد كامل، تاريخ الأدب السرياني، ص ١٢١-١٢٥.

٤. سركيس (سرجيس) هذا هو الرشمعيني (الراسعيني) الفيلسوف الطيب الشهير الذي كتب مقالات شتى وترجم كتباً كثيرة فلسفية طبيّة من اليونانية إلى الكلدانية (السريانية) (أنظر السمعي، المكتبة الشرقية، ج ٢، ص ٣٢٣). والظاهر أن هذا الفاضل (مار أباً) جادل الطيب وحمله إلى نبد المذهب الأريوسي، فإنه لم يلبث أن انحاز إلى الكاثوليك (الخلقيدونيين) وحارب معهم البدعة المونوفيزية بشدة لا مزيد عليها (أنظر لآبور ص ١٦٨)، وانطلق إلى أنطاكية سنة ٥٣٥م، وسعى بازيوس أسقف رأس العين اليعقوبي لدى أفرام البطريرك الذي كان ألدّ عدو للمونوفيزيين. وذهب من هناك إلى رومية وأتى بإغابيطوس البابا إلى القسطنطينية وبمساعده وهتمته طرد البابا من تلك المدينة كل المونوفيزيين (دوفال، الآداب السريانية، ص ٣٦٥-٣٦٦) وراجع عنه أيضاً، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥١، وتاريخ كلدو وآثور لطران إدي شير، ج ٢، ص ١٧٢، والذي يضيف: أن بعض النساطرة كانوا من أخص تلاميذ سرجيس منهم تودور أسقف مرو.

٥. إدي شير، تاريخ كلدو وآثور، ج ٢، ص ١٧٢.

ويذكر ابن أبي أصيبعة: «أنه أول من نقل كتب اليونان إلى اللغة السريانية»<sup>١</sup>.

كما يذكر جويدي: «أنه أول من علّم أبناء وطنه فلسفة أرسطو طاليس<sup>٢</sup>، وقد ترجم سرجيس كتاب الطب لجالينوس<sup>٣</sup> الذي يعتبر أساس دراسات الطب في الأواسط الطبيّة الشرقية»<sup>٤</sup>.

وفي مصر نشط السريان قبل الفتح الإسلامي، وبدأ نشاطهم خاصة في الإسكندرية وفي الأديرة التي اتخذوها لأنفسهم، وبسببهم عرفت مصر اللغة السريانية وإن ظلت محصورة في محيط هذه الطائفة. وكان لهم نشاطٌ علمي ملحوظ، فقد ترجم أحد أساقفتهم نسخة الترجمة السبعينية من الكتاب المقدّس إلى اللغة السريانية. كما ترجم جاسيوس<sup>٥</sup> مقالات أهرودن القس الطبيّة من اليونانية إلى السريانية.

ولقد كانت الترجمة من اليونانية إلى السريانية بالغة الدقة حتى أن «من يجيد اللغتين يجد أنه من المستحيل أن يفرّق بين الأصل والترجمة السريانية»<sup>٦</sup>، غير أن «مطابقة» الترجمة للأصل تبدو في كتب المنطق والعلم الطبيعي أكثر مما تبدو في كتب الأخلاق أو ما بعد الطبيعة، فقد حذفوا كثيرًا من غوامض هذين العلمين، أو فهموه على غير وجهة، وأحلوا عناصر مسيحية محلّ ما هو وثني<sup>٧</sup>، فلقد اصطبغت النظريات الفلسفية في ذهنهم بصبغة مسيحية ولا سيّما نظريات أفلاطون الذي مثّلوه في أديرتهم في صورة راهبٍ شرقي.

ولقد أدى هذا الالتحام المباشر بين السريان وعلوم اليونان إلى أن أصبحت الثقافة اليونانية تعيش في كيان هؤلاء القوم، وتخالط عقولهم، مما جعلهم يتمكّنون منها، ويصبحون معلمين لها فيما بعد، حين ينقلونها إلى العرب.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ١، ص ١٠٩.

٢. جويدي، محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة، ص ١٨٢.

٣. عيسى إسكندر معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ٤.

٤. د. كامل مراد، تاريخ الأدب السرياني، ص ١٦٧.

٥. عيسى إسكندر المعلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ٤، راجع د. مراد كامل، تاريخ الأدب السرياني، ص ١٩١. وأقرن ذلك بقول ابن أبي أصيبعة: «أن أهرودن القس ألف كتابًا بالسريانية» (عيون الأنباء، ج ١، ص ١٠٩).

٦. نقلًا عن خودابخش، الحضارة الإسلامية، ترجمة الدكتور علي الخربوطي، ص ١٥٧.

٧. دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٢٠.

ولقد كان دورهم في العصر الإسلامي امتدادًا طبيعيًا لما قاموا به قبل ذلك، فقد واصلوا العمل في الترجمة، وصاروا بذلك «واسطة لاقتباس العرب علوم اليونان كالمنطق والفلسفة وعلم الفلك وغيرها من العلوم الطبيعية»<sup>١</sup>.

## الترجمة في العهد الأموي

قام يحيى النحوي<sup>٢</sup>، «توفي قبل منتصف القرن الثامن الميلادي»، الملقب بالبطريق بدور كبير في نقل العلم المسيحي والآراء اليونانية إلى الإسلام، ولقد كان نصرانيًا فيلسوفًا، فأراد عامل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إزعاجه عن فارس وتخريب ديره، فكتب يحيى قصته إلى أمير المؤمنين وطلب منه الأمان، فكتب محمد بن الحنفية له كتاب الأمان بأمر أمير المؤمنين<sup>٣</sup>.

وعلى الرغم من أن يوحنا كان يكتب اليونانية إلا أنه لم يكن إغريقيًا إذ كان سريانيًا يتكلم السريانية في بيته، ويعرف فضلًا عن هاتين اللغتين، اللغة العربية، وقد مكّنه هذا من أن يبصر المسلمين بطبيعة الفكر اليوناني وبخاصة الفلسفة، وذلك من خلال المناظرات والجدل.

يقول ألفريد جيوم إنه: «كان يتجادل مع العرب حول معنى اصطلاح لفظي «كلمة» و«الروح» اللذين نسبا للمسيح في القرآن هل هما مخلوقان أم غير مخلوقين»<sup>٤</sup>.

١. جويدي، محاضرات أدبيات للجغرافيا والتاريخ، ص ٨٢.

٢. هو غير يحيى النحوي الذي تزعم بعض الروايات أن له دورًا في قصة عمرو بن العاصي مكتبة الإسكندرية.

٣. البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٣٩.

٤. الإسلام، ص ١٢٤، ترجمة الدكتور محمد مصطفى هدارة.

وقد ذكر سويتمان أنه «قد بقي لنا قدر كبير مما كتبه، وإذا كان هناك شك حول بعض الكتب التي تحمل اسمه، فمن المؤكد أنها إذا لم تكن قد كتبت فإنها من وضع تلميذه ثيودور»<sup>١</sup>.

ويبدو أن يوحنا كان على خلافٍ مع أهل مذهبه إذ كان يموّه عليهم<sup>٢</sup> مما أثار حفيظتهم عليه، وهموا بقتله فدفعه ذلك إلى أن يصنّف كتباً يردّ فيها على أفلاطون وأرسطو، كذلك وضع كتباً دافع فيها عن المسيحية، وجادل فيها المسلمين.

ولقد ظهر تأثير يوحنا في المسلمين واضحًا، يقول البيهقي «إن أكثر ما أورده الإمام حجّة الإسلام الغزالي -رحمه الله- في تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوي»<sup>٣</sup>.

وكما ساهم يحيى النحوي في نقل الفلسفة اليونانية إلى المسلمين، كان له أيضًا دوره في نقل المعارف الطبيّة إليهم، ولقد أشار البيهقي<sup>٤</sup> إلى أن خالدًا بن يزيد بن معاوية قد أخذ الطبّ منه، ولا غرابة في أن يحيى النحوي قد جمع بين الدراسات الفلسفية والطبيّة، فقد كانت سمة العصر أن يجمع الحكماء بين الطبّ والفلسفة. فقد ذكر ابن أبي أصيبعة<sup>٥</sup> «إن النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي قد اطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلّم من أبيه أيضًا ما كان يعلم من الطبّ وغيره».

ويبدو أن المسلمين كانوا يولون الدراسات الطبيّة عناية فائقة منذ وقتٍ مبكر. يقول صاعد الأندلسي<sup>٦</sup>: «كانت العرب في صدر الإسلام لا تعنى بشيء من العلم إلّا بلغتها، ومعرفة أحكام شريعتهأ حاشا صناعة الطبّ، فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًا إليها...»<sup>٧</sup>.

١ . Islam and Christian, p. 64 .

٢ . البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٣٩ .

٣ . البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٣٩ .

٤ . البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٤٠ .

٥ . ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١١٣ .

٦ . صاعد الأندلسي (أبو القاسم أحمد) (١٠٢٩-١٠٧٠) مؤرّخ أندلسي وُلد في المريّة، قرطبي الأصل، وُلّي قضاء المالكية في طليطلة. اشتهر بكتابه «طبقات الأمم» في تاريخ الأجناس والحضارات. وله مقالات أهل الملل والنحل وإصلاح حركات النجوم.

٧ . صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٤، ط. محمد مطر.

ولقد استمد الطبّ العربي العلمي مقوماته من اليونان والفرس، غير أن الصبغة اليونانية غلبت عليه. وفي مقدمة الأطباء العرب الحارث ابن كلدة<sup>١</sup>، وأصله من ثقيف من أهل الطائف، رحل إلى أرض فارس، وأخذ الطبّ عن أهل تلك الديار من أهل جنديسابور النصارى وغيرها في الجاهلية قبل الإسلام، وأجاد في هذه الصناعة، وقد أدرك الحارث الإسلام، وكان محدّ بأمر من كان به علة أن يأتيه فيستوصفه<sup>٢</sup>.

ويطالعنا البيهقي بخبرٍ يؤكد ذلك في قوله: «أمر رسول الله سعد بن أبي وقاص بأن يأتيه فيستوصفه في مرض نزل به»<sup>٣</sup>. وقد بقي حتى أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان الأموي.

ولقد كانت المادة الطبيّة التي احتكّت بها العقلية العربية قد خرجت من أيدي أصحابها، ونعني بهم اليونان، وتلقفها الدارسون والشارحون الذين يعرفون اليونانية والسريانية، وشارك الأطباء السريان في هذه الدراسة بنصيبٍ وافر، وكان لهم دورهم في النقل والترجمة.

وقد اشتهر منهم في العصر الأموي ابن آثال، قال عنه ابن أبي أصيبعة «كان من الأطباء المتميّزين في دمشق، نصراني المذهب، ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه، وأحسن إليه، وكان كثير الانتقاد له، والاعتقاد فيه، والمحادثه معه ليلاً ونهاراً»<sup>٤</sup>. كذلك كان من أطباء بني أمية، أبو الحكم الدمشقي<sup>٥</sup>، وهو طبيبٌ من أهل دمشق، سيّره معاوية بن أبي سفيان مع ولده يزيد طبيباً إلى مكّة.

١. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١١١. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٠٩-١١٠. ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٦.

٢. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٥٦. يذهب عيسى المعلوف إلى أنه نسطوري من الطائف، ص ٥.

٣. أخبار الحكماء، ص ١١٢.

٤. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ١، ص ١١٦.

٥. أنظر تفاصيل أخباره وجهود أسرته في خدمة الدولة الأموية ثم العباسية عند القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٢٣-١٢٤. وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١١٩.

وفي عهد عبد الملك بن مروان اختصّ بخدمة الحجاج بن يوسف الثقفي ثاودون<sup>١</sup> وتياذوق<sup>٢</sup> الطبيبان. أما ثاودون فله كتّاش كبير عمله لابنه. وأما تياذوق (توفي سنة ٩٠هـ/٧٠٨م)، فقد كان أحد الأطباء السريان المشهورين، وقد تلقى العلم على يديه تلاميذ أجلة كفرات بن شحنتاتا<sup>٣</sup> الذي خدم الحجاج وهو حدث، وامتد به العمر حتى أدرك الدولة العباسية، وعمل في صحبة عيسى بن موسى ولي العهد في أيام المنصور، وكان يشاوره في كل أمر ينويه.

وفي أيام الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٦١-١٠١هـ/٦٨١-٧٢٠م) زاد الاهتمام بالدراسات اليونانية.

ومن الذين شاركوا في ذلك الطبيب عبد الملك بن أبجر الكناني الذي قال عنه ابن أبي أصيبعة<sup>٤</sup>: «وكان طبيباً عالماً ماهراً، وكان في أول أمره مقيمًا في الإسكندرية لأنه كان المتولي التدريس بها... فلما استولى المسلمون على البلاد وملكوا الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبدالعزيز، وكان حينئذ أميرًا قبل أن تصل الخلافة إليه، وصحبه، فلما أفضيت الخلافة إلى عمر، وذلك في صفر سنة ٩٩هـ/٧١٧م، نقل التدريس إلى أنطاكيا وحرّان وتفرّق في البلاد، وكان عمر بن عبدالعزيز يستطبه ويعتمد عليه في صناعة الطب».

ومن الذين اشتغلوا بالترجمة في العهد الأموي، الطبيب البصري ماسرجويه، وهو سرياني<sup>٥</sup> اللغة، يهودي المذهب، وقد اعتقد العرب أن أصله سرياني<sup>٦</sup> ولقد نقل من السريانية إلى العربية<sup>٧</sup>.

١. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٩٤. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧٦.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٢١. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧٤. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ٢، ص ٢٧٠. حرّف الراجب الأصفهاني اسمه إلى «بياذوق» محاضرات الأدباء والشعراء، ص ٢٠٢.

٣. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٦٩. عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ١٣. يذهب الدكتور أحمد عيسى في «التهديب في أصول التعريف» إلى أن فرات بن شحنتاتا سرياني اللغة يهودي المذهب.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١١٦. خودابخش، الحضارة الإسلامية، ص ١٥٣. إستبعد ماكس مايرهوف أن يكون عبد الملك بن أبجر رئيسًا لإحدى المدارس في الإسكندرية. كذلك يرى أن أكثر الفروض احتمالًا إننا بإزاء طبيبين يشتركان في نفس الاسم، عمل أولهما طبيبًا لعمر بن عبدالعزيز، بل وكان صديقًا له، أما الثاني فقد اشتهر أيضًا بمعارفه الطبية، وقد ذكر ابن حجر أنه توفي بعد سفيان الثوري المتوفي سنة ١٦١هـ/٧٧٨م، أي بعد عصر عمر بن عبدالعزيز بكثير (ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، ص ٦٥، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١١٦-١١٧).

٥. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٩٢. د. فيليب حتّي، تاريخ العرب، ج ١، ص ٢٢٠.

٦. د. مراد كامل، تاريخ الأدب السرياني، ص ١٧١.

٧. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٠٤.



وذكر الففطي<sup>١</sup> أنه تولّى في أيام مروان في الدولة مروانية تفسير كتاب أهرن القس بن أعين إلى العربية، ووجد عمر بن عبدالعزيز في خزائن الكتب، وأمر بإخراجه ووضعه في مصلاه، واستخار الله في إخراجه إلى المسلمين لينفع به، فلما تمّ له في ذلك أربعون يومًا أخرجه إلى الناس وبثّه في أيديهم، وهذا على عكس ما يذهب إليه الدكتور محمد كامل حسين في قوله<sup>٢</sup>: «وكتب أهرن القس مقالاته الطبيّة التي يجمعها، كتّاش (مجمّع) في الطبّ الذي ترجم إلى اللغة العربية بأمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز».

والدكتور التيجاني الماحي في قوله<sup>٣</sup>: «إن ماسرجويه تولّى لعمر ابن عبدالعزيز ترجمة كتاب أهرن القس في الطبّ». وعيسى المعلوف في قوله<sup>٤</sup>: «إن ماسرجويه عربّ كتّاش القس أهرن بن أعين في السريانية في خلافة مروان بن الحكم بإشارة عمر ابن عبدالعزيز. وكيفما كان الأمر فمما لا شك فيه أن ماسرجويه نقل كتّاش أهرن وكان ثلاثين مقالة<sup>٥</sup>، فراد عليها مقالتين، وبذلك يعتبر ماسرجويه الكاتب الأول<sup>٦</sup> لمؤلّف علمي بلغة الإسلام، ولما سرجويه من الكتب كتاب قوى الأطمعة ومنافعها ومضارها، وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها.

## حركة الترجمة في العصر العبّاسي

لما جاء العصر العبّاسي كان المسلمون قد أمضوا في التمدن: «ورأوا أن حياة الحضارة لا بدّ أن تسند إلى العلم، فبالية الدولة تحتاج إلى حسابٍ دقيق، وعيشة الحضارة المركّبة تحتاج إلى أدويةٍ مركّبة، وعلاجٍ مركّب»<sup>٧</sup>. وكانت جنديسابور حتى ذلك الحين ما زالت مركزًا

١. الففطي، أخبار الحكماء، ص ٢١٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٦٣.

٢. د. محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر، ص ٢١.

٣. د. التيجاني الماحي، تاريخ الطب عند العرب، ص ٤٦.

٤. عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ١٢.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ١، ص ١٠٩. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ١٥٧. الففطي، أخبار الحكماء، ص ٥٧.

٦. د. فيليب حتّي، تاريخ العرب، ج ١، ص ٣٢٠.

٧. د. فيليب حتّي، تاريخ العرب، ج ١، ص ٣١٥.

للثقافة ومصدرًا للإشعاع العلمي، كما كانت تموج بالعلماء، وترخر بالأطباء، فأخذت الأنظار تتجه إليها تسائلها العون، وتناشدها المساعدة. وكان الخليفة أبو جعفر المنصور قد أدركه ضعفًا في معدته، وأصابه سوء استمراء، وعجز معالجوه عن مداواته، فجمع الأطباء، وقال لهم: «أريد من الأطباء في سائر المدن طبيبًا ماهرًا»، قالوا: «ما في عصرنا أفضل من جورجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور، فإنه ماهر في الطب، وله مصنّفات جليلة، فتقدّم المنصور بإحضاره، فأنفذه العامل بجنديسابور إلى حضرة الخلافة بعد أن امتنع عن الخروج... ولم يزل جورجيس يتلطف له في تدبيره حتى يرى المنصور، وعاد إلى الصحة، وفرح به فرحًا شديدًا، وأمر أن يُجَاب إلى كلِّ من يسأل»<sup>١</sup>.

وقد ظلَّ جورجيس<sup>٢</sup> في خدمة المنصور حتى تقدّمت به السن، وبنى له مستشفى<sup>٣</sup> على طريقة مستشفى آل بختيشوع بجنديسابور<sup>٤</sup>.

وعندما جاء المهدي استقدم بختيشوع بن جيورجيس<sup>٥</sup> من جنديسابور ليعالج ابنه الهادي، ولكن الخيزران عزَّ عليها أن يستدعيه المهدي، ولا يستطبُّ أبا قريش طبيبها الذي كان يعرف بعيسى الصيدلاني<sup>٦</sup>، فكان ذلك سببًا في أن يعيده المهدي إلى جنديسابور.

وفي أيام الرشيد أصابه صداعٌ شديد، وعجز أطبأؤه عن مداواته، فاستخدم بختيشوع لذلك الأمر وقال: «بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم، وله يسمعون ويطيعون»<sup>٧</sup>.

وقد ذكر صاعد الأندلسي أن «بختيشوع له تأليف في الطبِّ معروفة، منها كتاب التذكرة، وقد عمله لابنه جبرائيل<sup>٨</sup> وبعد موت بختيشوع، خلفه جبرائيل، وقد قام على

١. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٠٩-١١٠، ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢١٤، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٨٢٣.

٢. إسرائيل وفتسون، اللغات السامية، ص ١٤٦.

٣. عيسى معلوف، تاريخ الطبِّ عند العرب، ص ١٨.

٤. عيسى معلوف، تاريخ الطبِّ عند العرب، ص ٦.

٥. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧١.

٦. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٠.

٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٢٦-١٢٧. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٦.

٨. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٤٠. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧١.

علاج جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي. كذلك برئت جارية للرشيد بحيلة<sup>١</sup>، لطيفة استعان بها، كما شفى على يديه من مرض ألمّ به مما دفعه إلى أن يقربه منه، ويرفع مكانته لديه.

ولقد كان النجاح الذي أحرزه هؤلاء الأطباء أثره في المكانة التي وصلوا إليها، ذلك لأن الخلفاء ورجال الدولة، وكانوا يعظّمونهم لقدر علمهم لا لدينهم<sup>٢</sup>.

وقد ذكر القفطي أن «يحيى بن خالد البرمكي أحب جبرائيل عندما عالجته مثل نفسه، وكان لا يصبر عنه ساعة، ومعه يأكل ويشرب»<sup>٣</sup>.

كذلك ذكر ابن أبي أصيبعة أن الرشيد عندما شفى قرب جبرائيل منه، ورفع مكانته لديه حتى أنه قال لأصحابه: «كلّ ما كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأنّي أفعل كلّ ما يسألني فيه ويطلبه مني»<sup>٤</sup>. وقد ظلّ جبرائيل على هذه المكانة العالية في عهد المأمون «فكان كلّ من تقلّد عملاً لا يخرج إلى عمله بعد أن يلقي جبرائيل ويكرمه»<sup>٥</sup>.

يقول حاجي خليفة «إن أول من عنى من العبّاسيين بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور<sup>٦</sup> وقد دفعته العناية إلى أن يرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب منه ما لديه من الكتب اليونانية، فأجابه إلى طلبه، وأرسلها له، ومن بينها كتاب إقليدس»<sup>٧</sup>.

وقد ذكر السيوطي «إن المنصور أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية باللغة العربية»<sup>٨</sup>.

وقد أسّس الرشيد دار الحكمة، كما أرسل رسله إلى الإمبراطورية الرومانية لطلب المخطوطات، ووضع يوحنا بن ماسويه أميناً على ترجمتها<sup>٩</sup>.

١. عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ١٣.

٢. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٩٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٢٧.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٢٧.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٢٩.

٥. حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ٣٤. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٥. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣٥.

٦. ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠١.

٧. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٠.

٨. أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٤٠.

ولما جاء المأمون، كانت حركة الترجمة قد بلغت ذروتها من حيث النشاط والدقة. فزاد الاهتمام بدار الحكمة، وأرسل إلى «ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة، المدخرة ببلاد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلّمًا صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوا إليه أمرهم بنقله فنقل»<sup>١</sup>.

وإذا كانت الحاجة وحدها هي التي دفعت إلى نقل المعارف الطبيّة، فإن الأمر نفسه قد حدث في ترجمة الكتب الفلسفية والمنطقية. ولقد كان عزوف المسلمين عن ترجمة الكتب الفلسفية في صدر الإسلام واجتهاد الخلفاء في ألا يشيع شيء منها مبنياً على إحساسهم بأن بعض مبادئها قد لا تتفق ان المأمون مغرماً بتعريب الكتب وتحريرها وإصلاحها»<sup>٢</sup>.

ويقول صاعد الأندلسي، لما أفضت الخلافة إلى عبدالله المأمون طمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت به همته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة»<sup>٣</sup>.

ويقول صاحب فوات الوفيات: «لما كبر المأمون عنى بعلوم الأوائل ومهر في الفلسفة»<sup>٤</sup>.

ويقول الدكتور (أحمد الرفاعي): «إن هذا الميل إلى الفلسفة والمنطق عند المأمون كان من آثاره حركة نقل وتأليف عنفية قوية»<sup>٥</sup>.

ولقد تولّد ميل الخلفاء إلى الفلسفة من الظروف التي لا بست نشأتهم وحياتهم. فالرشيد تلقى ثقافته في مرور موطن الدراسات الرياضية والفلكية، وكان يستوزر جعفر

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٧.

٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٠٩.

٣. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٨. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ص ٢٤. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦.

٤. فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٣٩.

٥. د. أحمد الرفاعي، عصر المأمون، ص ٣٧٨.

بن برمك الذي كان يشجع الترجمة، ويعين المترجمين من أمثال جبرائيل بن بختيشوع، كما تربي المأمون في بيت الرشيد ويأشرف البرامكة، ويذكر أوليري، أنه يكون المأمون تلقى ثقافته في مرو في محيط الهيليزية المحدثه، طبق القواعد الفلسفية على العقائد الإسلامية<sup>١</sup>.

وقد أولع ذلك العصر بما أولع به الخلفاء، فعمل ذلك على تنشيط حركة النقل والترجمة، و«من عنى بإخراج الكتب محمد وأحمد بنو موسى بن شاكر، وهؤلاء القوم من تناهى في طلب العلوم القديمة، وبذل فيها الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم، فأحضرها النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة، وكان الغالب عليهم من العلوم: الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم»<sup>٢</sup>. وأبلغ من اهتمامهم بأمر الترجمة أنهم كانوا «يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحق، وحبش بن الحسن، وثابت بن قرة، وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة»<sup>٣</sup>.

## الترجمة والمترجمون

بقي أن نلقي بعض الضوء وبإيجاز كبير على أهم المترجمين وما يترجمون من التراث اليوناني والسرياني ليكمل الموضوع لدى المطالع الكريم:

### يوحنا بن البطريق:

عاش في أيام المنصور، واختلف في تاريخ وفاته ما بين عامي (٧٩٨م وعام ٨٠٦م)، وكان ممن يُقرأ عليهم كتاب إقليدس، وغيره من كتب الهندسة، وله نقل من اليونان<sup>٤</sup>. ذكره القفطي فقال: «كان أميناً على الترجمة، حسن التأدية للمعاني، ألكن اللسان في العربية،

١. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٨. حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ٣٤. ابن العربي، تاريخ الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٢-٣٩٣. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٠٨. تاريخ أبي الفدا، ج ٢، ص ٥٢. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٦٤.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٧.

٤. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٧، طبعة الاستقامة.

وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطبّ، وهو تولى ترجمة كتب أرسطاطاليس خاصة وترجم من كتب أبقراط مثل حنين<sup>١</sup> وغيره.

ومن الكتب التي نقلها كتاب الأربعة في علم النجوم<sup>٢</sup>. «استخرجه في أيام المنصور، ثم نقله ثانياً إبراهيم بن الصلت، وأصلح هذه النسخة حنين بن إسحق».

ويرى أوليري<sup>٣</sup> أن يوحنا وضع ترجمة عربية لمؤلف في التنجيم لبطليموس، وقد كتب عمر بن الفرخان المتوفي حوالي سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م، تعليقا على هذا الكتاب، وشرحه محمد بن جابر بن سنان سنة ٩٢٩م، وربما كان هذا هو كتاب الأربعة في علم النجوم.

ويروى أن يوحنا بن البطريق أخرج قصة طيماوس لأفلاطون، وأنه ترجم أيضاً كتاب أرسطو في الآثار العلوية وكتاب الحيوان ومختصراً له في النفس<sup>٤</sup>.

### جورجيس بن جبرائيل<sup>٥</sup>:

عاش في صدر الدولة العباسية، يقول عنه ابن أبي أصيبعة إنه: «أول من ابتدأ في نقل الكتب الطبية إلى اللسان العربي عندما استدعاه المنصور ليعالجه<sup>٦</sup>، من ضعف أدركه في معدته وسوء استمرار وقلّة شهوة، وقد برئ المنصور على يديه، وعادت إليه صحته، ففرح به فرحاً شديداً، وأمر أن يجاب إلى كلّ ما يسأل<sup>٧</sup>.

وقد نقل جورجيس للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربية، وقد عرف من كتبه كُنَاشه<sup>٨</sup>، ونقله حنين بن إسحق من السرياني إلى العربي.

١. الففطي، أخبار الحكماء، ص ٢٤٨. ط. السعادة، ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٩.

٢. جريدي، محاضرات أدبيات، ص ١١.

٣. أوليري، مسالك الثقافة، ص ٤٧، ٢٣٩.

٤. دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٢٢. أشار الففطي إلى ترجمته لهذه الكتب بقوله لابن البطريق هذا الكتاب «الآثار العلوية» كتاب الحيوان وهو تسع عشرة مقالة نقله ابن البطريق، أخبار الحكماء، ص ٣١.

٥. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٦.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٠٣، ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، ص ٥٥.

٧. الففطي، أخبار الحكماء، ص ١١٠.

٨. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٢٥.

ولقد كان نجاح جورجيس في علاج المنصور دافعًا للخلفاء العباسيين على أن يستقدموا أفراد أسرته لكي يباشروا علاجهم، ومن أفراد هذه الأسرة ونعني بها أسرة آل بختيشوع الذين وفدوا إلى بغداد.

### بختيشوع بن جورجيس:<sup>١</sup>

تخرّج على أبيه، استخلفه في مارستان جنديسابور فارقه تلبية لأمر الخليفة<sup>٢</sup>، وذكر القفطي أن بختيشوع هذا كان نصرانيًا في أيام أبي العباس السفّاح وصحبه وعالجه وعاش إلى أيام الرشيد، وكان ضليعًا في صناعة الطبّ.

وذكر ابن العبري في تاريخه<sup>٣</sup>: قيل أن الرشيد مرض من صداع لحقه. فقال ليحيى بن برمك، هؤلاء الأطباء ليسوا يفهمون شيئًا، وينبغي أن تطلب لي طبيبًا ماهرًا، فقال له: «بختيشوع بن جورجيس. فأرسل في طلبه إلى جنديسابور فأكرمه وخلع عليه خلعة سنة ووهب له مالًا وافرًا»<sup>٤</sup>.

ولبختيشوع من الكتب كُنّاش مختصر، وكتاب التذكرة وقد عمله لابنه جبرائيل.

### جبرائيل بن بختيشوع:

كان طبيبًا حاذقًا نبيلًا له مصنّفات في الطب وخدم الرشيد ومن بعده<sup>٥</sup>. أخذ الطب عن والده. ومرض جعفر بن يحيى فعالجه بختيشوع، ولما تماثل للشفاء قال له أريد طبيبًا ماهرًا، فقال له: لست أعرف من هؤلاء الأطباء أصدق من ابني جبرائيل، فقال له جعفر أحضرني<sup>٦</sup>، فلما أحضره شكّا إليه مرضًا كان يخفيه فدبّره في مدة ثلاثة أيام وبرئ فأحبه جعفر مثل نفسه، وكان مشهورًا بالفضل جيد التصرف في مداواة وحظيًا عند الخلفاء رفيع المنزلة

١. أخباره في القفطي، أبناء الحكماء، ص ٧١. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٤٠.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٦.

٣. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٣٠.

٤. فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٣٨٣.

٥. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٣٢.

٦. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٣١-١٣٢.

عندهم كثير الإحسان إليه، وحصل من جهتهم من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء، وقال فثيون: وكان محل جبرائيل يقوى في كل وقت. وكان جبرائيل صنيعه البرامكة. وكان يقول للخليفة المأمون: هذه النعمة لم أفدها منك ولا من أبيك، هذه من يحيى بن خالد<sup>١</sup>. وقد اهتم بأمر الترجمة إلى العربية، كما شجع تهذيب الترجمات السريانية.

## يوحنا بن ماسويه<sup>٢</sup>

كان ممن قدموا من جنديسابور، ومن هذا الوقت تقريباً بدأت مدرسة الطب فيها تفقد أهميتها لأن كبار الأطباء قد ذهبوا إلى قصور الخلفاء في بغداد أو سُر من رأى (سامراء)<sup>٣</sup>.

وكان يوحنا سريانياً نسطورياً، وقد ولّاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدت بأنقرة وعمورية، وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها، ووضعها أميناً على الترجمة، ورتب له كتاباً حُذِّقاً يكتبون بين يديه<sup>٤</sup>. وقد أقام يوحنا مستشفى في بغداد، كذلك جعله الخليفة المأمون في سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م، رئيساً لبيت الحكمة.

وقد ألف يوحنا كتباً كثيرة بلغت ثمانية وعشرين كتاباً منها كتاب البرهان وكتاب دغل العين، وعربية هذا الكتاب ركيكة مع استعمال اصطلاحات إغريقية وسريانية وفارسية<sup>٥</sup>.

وكان يوحنا، يعقد مجلساً للنظر، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة، وكان يدرّس، ويجتمع إليه تلاميذ كثيرون<sup>٦</sup> وقد تتلمذ عليه حنين بن اسحق فترة من الزمان. وتوفي يوحنا عام ٢٤٣هـ / ٨٥٧م.

١. الجشيارى، كتاب الوزراء، ص ٣٢٦. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٣٢.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٥-٤٢٦.

٣. ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، ص ٥٦.

٤. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٤٩.

٥. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٤٩. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٥.

٦. أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٤٦.

٧. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٧.



## قسطا بن لوقا البعلبكي:

مسيحي النحلة، من أصل يوناني، ولذا يعدّ من الفلاسفة اليونانيين المتأخرين، وكان له ولع بالعدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية، كما كان ماهراً في الطب.

وقد ذكر ابن العبري أنه «دل إلى بلاد الروم، وحصل من تصانيفهم الكثير، وعاد إلى الشام<sup>٢</sup>. كما ذكر القفطي أنه استدعي إلى العراق ليترجم كتباً ويستخرجها من لسان اليونان إلى لسان العرب»<sup>٣</sup>، كما أسند إليه الإشراف على ترجمة المراجع الإغريقية في بغداد<sup>٤</sup>.

وكان قسطا جيد النقل لأنه كان «فصيحا باللغة اليونانية جيد العبارة العربية»<sup>٥</sup>. ويشير ماكس مايرهوف إلى ما نقله فيقول: «إنه ترجم كثيراً من المؤلفات الطبيّة والرياضية والفلكية، كما ترجم إلى جانبها مؤلفات فلسفية صحيحة أو منحولة»<sup>٦</sup>.

وقد أصلح<sup>٧</sup> قسطا نقولاً كثيرة، كما ألف رسالة قصيرة في الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اليونانية وبقيت في أيامنا، وقد ذكرنا الباحثون وانتفعوا بها<sup>٨</sup>.

## حنين بن إسحق<sup>٩</sup>:

كان أبوه نصرانياً من العبّاديين بالحيرة، وكان يشتغل بالصيرفة فلما نشأ حنين أحب العلم ودرس الطبّ في مدرسة جنديسابور، وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه في بغداد<sup>١٠</sup>،

١. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٣٠.

٢. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٩. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٤.

٣. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٧٣.

٤. إبراهيم العدوي، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص ١٧٠.

٥. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٤.

٦. ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، ص ٥٩.

٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٤٤٤.

٨. دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٢٤.

٩. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٢. (وُلد سنة ٨١٣م، وتوفي سنة ٨٧٣م).

١٠. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٢٠.

غير أن يوحنا أنكّر عليه تعلّم الطبّ لأنه من أهل الحيرة<sup>١</sup> «ولأن هؤلاء الجنديسابوريين كانوا يعتقدون أنهم أهل هذا العلم، ولا يخرجونه عنهم وعن أولادهم»<sup>٢</sup>.

ويرى ماكس مايرهوف أن حينئذٍ كره من أستاذه ما جبل عليه من غطرسة وكبرياء<sup>٣</sup>، وصمّم على تعلّم اللغة اليونانية لأنه رأى فيها خير مساعد له على إرواء غلته من الثقافة الطبية، وقد اندفع بقوة في هذا الاتجاه، حتى إنه رضي أن يتعلّم الطبّ حتى يحكم اللسان اليوناني إحكاماً لا يكون في دهره من يحكمه إحكامه<sup>٤</sup> فسافر إلى بلاد الروم<sup>٥</sup>، وهناك «أحكم اللغة اليونانية، وتوصّل في تحصيل كتب الحكمة غاية إمكانه»<sup>٦</sup>.

وكما تعلّم حنين اللغة اليونانية بإحساس الحاجة إليها، تعلّم اللغة العربية، والفارسية إضافة إلى لغته السريانية، وبذلك أصبح متمكناً من أربع لغات أعانته على النقل والترجمة.

وحوالي سنة ٢١١هـ/٨٢٦م، اتصل حنين بجبرائيل بن بختيشوع طبيب المأمون فامتدح ذكاهه. «قال يوسف الطبيب دخلت يوماً على جبرائيل بن بختيشوع فوجدت عنده حينئذٍ، وقد ترجم له بعض التشريح وجبرائيل يخاطبه بالتبجيل ويسمّيه الربّان. فأعظمت ما رأيت، وتبيّن ذلك جبرائيل مني، فقال لي لا تستكثر هذا مني في أمر هذا الفتى، لئن مدّ له في العمر ليفضحن سرّ جيس»<sup>٧</sup>.

ولقد بلغ من سرور جبريل وإعجابه بروعة ترجماته أن قدّمه لأبناء موسى الثلاثة، وقد كانوا من رعاة العلم الأثرياء، يقول القفطي فيهم، «ومن عنى بإخراج الكتب من بلاد الروم محمّد وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر المنجم، وقد بذلوا في ذلك الرغائب

١. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٠.

٢. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٢٠.

٣. ماكس مايرهوف، مقدمة كتاب العشر مقالات في العين، ص ١٥.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٥.

٥. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١١٩.

٦. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٠.

٧. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٠. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٣٠. وسرجيس هذا هو الراسعيني ممن نقل علوم اليونانيين إلى السرياني.

وأحضر والضرائب منها في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقى والطب وغيرها<sup>١</sup>. فاحتضنه هؤلاء وكانوا أصحاب الفضل في إظهار مواهبه كما كانوا يجزلون له العطاء<sup>٢</sup>، وقدّموه بدورهم إلى الخليفة المأمون، فعيّنه عميدًا لبيت الحكمة<sup>٣</sup>.

ويذكر ابن أبي أُصَيْبَةَ: «أن المأمون أحضره، وكان فتى وأمره ينقل ما يقدر عليه من كتب اليونانيين إلى العربي وإصلاح ما ينقله غيره. فامتثل أمره<sup>٤</sup>، وقام بما أسند إليه خير قيام. وظل يوالي النقل بهمة وإقتدار حتى أيام الخليفة المتوكّل (٢٢٢-٢٤٧هـ/ ٨٣٦-٨٦١م).

يقول ابن العبري: «ولم يزل أمره (حنين) يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعًا للعلم، ومعدنًا للفضائل. واتصل خبره بالخليفة المتوكّل فأمر بإحضاره<sup>٥</sup>، «واختاره للترجمة وائتمنه عليها، وجعل له كتابًا تحارير عالمن بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفّح ما ترجموا<sup>٦</sup>».

ولقد كان ميل حنين إلى الطب وممارسته<sup>٧</sup> له دافعًا له على أن يهتمّ «بنقل الكتب الطبيّة وخصوصًا كتب جالينوس حتى أنه في أغلب الأمر لا يوجد شيء من كتب جالينوس إلّا ينقل حنين أو بإصلاحه لما نقل غيره<sup>٨</sup>» كإسطفان بن باسيل وموسى بن خالد، ويحيى بن هارون.

ولقد ذكر ماكس مايرهوف أن حنينًا ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتابًا، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين<sup>٩</sup>.

١. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٤.

٢. أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٤٩.

٣. ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات، ص ١٦.

٤. ابن أبي أُصَيْبَةَ، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٦.

٥. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥١.

٦. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١١٨.

٧. ابن أبي أُصَيْبَةَ، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٧.

٨. ابن أبي أُصَيْبَةَ، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٨.

٩. ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات، ص ٢٨.

كذلك ذكر أنه كان يؤلّف الكتب بالسريانية أو يترجمها إليها لعلماء النصارى وأطبائهم. بينما كان يؤلّف الكتب العربية ويترجمها إليها لعلماء المسلمين<sup>١</sup>.

ويذكر سوبتمان<sup>٢</sup>: أن حينئذ كان يترجم إلى اللغة السريانية، ثم ينقل ابنه إسحق ما يترجمه إلى اللغة العربية. ويقرر أوليري «أن بعض ترجمات حنين قد نقّحها فيما بعد كتاب متأخرون»<sup>٣</sup>.

ولقد استطاع حنين بفضل تضلعه في اليونانية أن يوضح معاني كتب جالينوس ويلخصها<sup>٤</sup>، أحسن تلخيص، ويكشف ما استغلق منها<sup>٥</sup>، ويقدم لها، فمن ذلك ما فعله في كتاب الفصد إذ «نقله من اليونانية إلى العربية وهذبّه، وزاد فيه مقدمة في ما يجب على الطبيب اعتماده في الصنعة والعلاج، وتلاه بكلام جالينوس في الفصد»<sup>٦</sup>.

ولم ينحصر نشاط حنين في نطاق ترجمة الكتب الطبيّة، فقد قيل أنه عربّ كتاب إقليدس<sup>٧</sup>، وكتاب بطليموس (المجسطي) أكبر كتبه الفلكية، وأصلحها ونقّحها.

كذلك عربّ حنين عددًا كبيرًا من كتب أبقراط وأرسطو، كما «جعل المنهج الكامل في مدرسة طب الإسكندرية في متناول أيدي الطلاب العرب، واشتمل على مجموعة مختارة من كتب جالينوس<sup>٨</sup> فأفاد الأمة العربية إفادة جزيلة<sup>٩</sup>، إذ لولا ذلك التعريب الذي قام به حنين وغيره من المترجمين، لما انتفع أحد بتلك الكتب لعدم المعرفة بلسان اليونان، لا جرم كلّ كتاب لم يعرفه باق على حاله، ولا ينتفع به إلا من عرف تلك اللغة»<sup>١٠</sup>.

١. ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات، ص ٣٧.

٢. Islam an Christian theology, V.1, P. 88.

٣. أوليري، علوم اليونان وسبل انتقالها، ترجمة د. وهيب كانل، ص ٢٢٨.

٤. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٤١.

٥. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١١٨.

٦. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٩٢.

٧. تاريخ أبي الفداء، ج ٢، ص ٥٢، طبع القسطنطينية ١٢٨٦هـ.

٨. أوليري، مسلك الثقافة الإغريقية، ص ٢٤٩.

٩. دائرة المعارف للبيستاني، مجلد ٧، ص ٢٥٣، مادة «حنين».

١٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٠٠، طبعة بولاق، ١٢٩٩هـ.

ولم يشأ حين أن يقف عند حقل النقل والتعريب، فقد أحس قدرته على التأليف في هذه الموضوعات التي طالما اشتغل بالترجمة فيها، وقد أورد القفطي قائمة كاملة لمؤلفاته، وقد كانت باللغتين السريانية والعربية، وكانت كتبه الطبيّة صورة منعكسة لكتب أطباء اليونان التي استفد في ترجمتها أهم قسط من نشاطه في حياته العلمية. وقد ذكر ماكس مايرهوف أن أهم كتبه: <sup>٢</sup> تفسير كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس، وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية، وكتاب «المسائل في الطب» وهو مقدمة للطب العام على هيئة أسئلة وأجوبة، ثم كتاب «العشر مقالات في العين» وكتاب «المسائل في العين».

### إسحق بن حنين:

كاد يلحق في صحّة النقل من اللغة اليونانية، والسريانية إلى العربية، وقد خلفه<sup>٣</sup> على الترجمة، وكان بارعاً ومقدماً في العلوم الرياضية، كما تميّز في صناعة الطب.

وُلد عام ٢٩٨هـ / ٩١٠م، وقيل عام ٢٩٩هـ / ٩١١م، في الحيرة ونشأ وتعلّم في بغداد. وقد نقل إسحق من الكتب اليونانية إلى اللغة العربية كتباً كثيرة إلا أن جلّ عنايته كانت مصروفة إلى نقل الكتب الحكمية. يشير ابن خلكان إلى ذلك أيضاً بقوله: «إن الذي يوجد من تعريبه في كتب الحكمة من كلام أرسطاطاليس وغيره أكثر مما يوجد من تعريبه لكتب الطب»<sup>٤</sup>. ويعلل ابن العبري ذلك بقوله، إن نفس إسحق كانت أميل إلى الفلسفة<sup>٥</sup>.

ومن المؤلفات التي نقلها إلى اللغة العربية أصول الهندسة لإقليدس، وأصلحه فيها بعد ثابت بن قرّة، وكتاب المعطيات لإقليدس أيضاً ثم كتاب المجسطي لبطليموس، وقد أصلحه كذلك ثابت بن قرّة.

١. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١١٩-١٢٠.

٢. مقدمة العشر مقالات في العين، ص ٣٣-٣٩.

٣. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٤١.

٤. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٨٢.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٨.

٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٨٢.

يقول القفطي: «أصلح ثابت النسخة التي نقلها إسحق بن حنين من المجسطي إلى العربي إصلاحًا قضى فيه حق من سأله ذلك أو حق إسحق»<sup>١</sup>.

ويذهب ماكس مايرهوف إلى أن السبب في أن ما ترجمه إسحق قد أصلحه غيره يرجع إلى أن «معلوماته في اللغة العربية كانت قليلة جدًا بحيث أنه لم يتمكن من حسن الترجمة»<sup>٢</sup>، غير أن ابن النديم يقول «وكان فصيحًا بالعربية يزيد على أبيه في ذلك»<sup>٣</sup>، والقفطي<sup>٤</sup> يردّد ما قاله ابن النديم بنفس ألفاظه، ويبدو لي أن تفوّق إسحق على أبيه في العربية لا يعني أنه كان يتقنها إذ أن معرفة حنين بالعربية كانت قاصرة في مستهل حياته.

وقد نقل اسحق بن حنين من كتب أرسطو المقولات، والجدل، والعبارة، والخطابة. ولا نستطيع أن نتبيّن أي هذه الكتب نقل عن السريانية، وأيها نقل مباشرة عن اليونانية<sup>٥</sup>. كذلك لا نعرف على وجه التحقيق إذا كان بعض هذه الترجمات قام به إسحق أو أبوه حنين، ومرّد ذلك إلى أنها كانا يشتغلان معًا.

### ثابت بن قرة:

وُلد سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، بحرّان، وتوفي سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م، كان من الصابئين من أهل حرّان وقد تناهت إليهم زعامتهم.

عمل في المبدأ صرافًا بسوق حرّان، ثم انتقل إلى بغداد، لخلاف بينه وبين أبناء دينه<sup>٦</sup> فأدخل رئاسة الصابئة إلى أرض العراق، فثبتت أحوالهم، وعلت مراتبهم وبرعوا وقد قدّمه محمّد بن موسى إلى المعتضد فاتخذه صديقًا له وأدخله في جملة المنجّمين<sup>٧</sup>.

١. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٨٣.

٢. ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات في العين، ص ٣١.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٩.

٤. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٥٧.

٥. دائرة المعارف الإسلامي، مجلد ٢، ص ٩٨، مادة (إسحق).

٦. ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، ص ٧٢.

٧. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٦٥.

وقد اشتغل ثابت بعلوم الأوائل فمهر فيها، وأعانتته على ذلك خبرته بلغات ثلاث هي الإغريقية والسريانية والعربية، وغلب عليه الاتجاه الفلسفي والرياضي، ولعل ذلك يرجع إلى ما اشتهر به الصابئة عامة في هذه العلوم.

يقول عنه صاعد الأندلسي إنه «فيلسوف متوسّع في العلوم، متفنّن في ضروب الحكم، متقلّداً لجوامع الفلسفة، له تآليف حسنة في المنطق، والعدد والهندسة والنجوم وغير ذلك»<sup>١</sup>.

وقد بلغت تآليفه مقدار عشرين تأليفاً<sup>٢</sup>، ومن الكتب التي ألفها بالسريانية كتابه «في السكون بين حركتي الشريان»<sup>٣</sup> وقد نقله إلى العربية عيسى بن أسيد، وأصلح ثابت العربي. كذلك يذكر ابن العبري أنه ألف «بالسريانية» في ما يتعلّق بمذهب الصابئة في الرسوم والفروض والسنن وتكفين الموتى ودفنهم»<sup>٤</sup>.

ويُعد البيهقي من تصانيفه كتاب الذخيرة وهو كتاب نادر في الطبّ، ويستدل مما أورده القفطي<sup>٥</sup> من كتب ثابت أنه كان على قدر كبير من النشاط إذ أنه لم يترك ناحية من نواحي معارف عصره إلّا وألّف فيها كتاباً، أو أصلح فيها ترجمة، أو نقل فيها شيئاً رآه جديراً بالنقل. ولقد ذكر ماكس مايرهوف أن ثابت بن قرّة قد أصلح عدداً كبيراً من مترجمات إسحق بن حنين الفلسفية والرياضية، ويوجد حتى اليوم عدد من المخطوطات العربية وعليها التعليقات الخاصة بها تصحيحاً لها»<sup>٦</sup>.

١. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٤١.

٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٥.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢١٨، ج ١.

٤. ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٦٥.

٥. البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٢١.

٦. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٨١-٨٤، ثبت مفصل لكتب ثابت بن قرّة.

٧. ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، ص ٥٩.

ومن الترجمات التي أصلحها «النسخة التي نقلها إسحق بن حنين من المجسطي لبطليموس إلى العربية. ثم أنه نقل هذا الكتاب نقلًا جيدًا، وأصلحه وأوضحه<sup>١</sup>. كما أنه اختصر جزءًا كبيرًا منه، كذلك اختصر كتاب إقليدس<sup>٢</sup> الذي عرّبه حنين بن إسحق أيضًا فهذّبه ونقّحه، وأوضح ما كان مستعجبًا منه.

ولقد كان لثابت كثيرٌ من التلاميذ، وكان أحدهم مسيحيًا ويدعى عيسى بن أسيد، وقد ترجم عيسى هذا<sup>٣</sup> إلى العربية، مؤلفات ثابت التي وضعها بالسريانية، وكان يتولى النقل بحضوره.

### حبيش بن الأعمس:

وقيل حبيش بن الحسن الدمشقي، وهو ابن أخت حنين بن إسحق، وأحد تلاميذه ومنه تعلّم صناعة الطب.

يقول البيهقي، وحبيش كان من الأطباء المتقدمين، والمهندسين، وله تصانيف كثيرة في الطب، وكان مصيبًا في المعالجات<sup>٤</sup>. وقد استطاع حبيش «بفضل حذب حنين عليه أن يصبح أحد مشاهير المترجمين»<sup>٥</sup>. فاشتغل بالنقل من اليوناني والسرياني إلى العربي، وكان يسلك مسلك حنين في نقله إلا أنه كان يقصر عنه<sup>٦</sup>، وبالرغم من ذلك فقد كان حنين يقدمه<sup>٧</sup> ويعظّمه ويرضى نقله، وقد نسب أكثر ما نقله حبيش إلى حنين.

ويقول القفطي: «كثيرًا ما يرى الجهال شيئًا من الكتب القديمة مترجمًا بنقل حبيش فيظن الغرّ منهم أن الناسخ أخطأ في الاسم، ويغلب على ظنه أنه حنين وقد صحف فيكشطه، ويجعله لحنين»<sup>٨</sup>.

١. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٨٣.

٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٥ و ٢٥٣.

٣. أنظر ترجمته لدى القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٦٤، وابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٤.

٤. البيهقي، تاريخ الحكماء الإسلام، ص ١٩.

٥. ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات في العين، ص ١٧.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٠٢.

٧. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٨. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٢.

٨. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٢٢. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٣. ويرى مايرهوف أن هذا الخلط مرده إلى تشابه اسم حنين وحبيش في الكتابة الخطية أيام كانت الحروف لا تنقط، فكانا يرسنان هكذا «حس» و«حسن»، ونحن نرى هشاشة هذا الرأي وضعفه لأن النقاط كانت تستعمل منذ أواسط العصر الأموي. وأما دي بور فيرى أنها كانا يشتغلان معًا ولهذا فإن كتبًا كثيرة تنسب للواحد منهم تارة وللآخر تارة أخرى، وهذا أيضًا مردود لأنه لماذا هذا الخلط بين حنين وابن أخته حبيش وليس مع الآخرين؟



## متى بن يونس:

كان ببغداد في خلافة الرازي بعد سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، كان حكيماً نصرانياً من أهل دير قتيامن نشأ في إسكول (معهد) مرماري. شرح كتب أرسطو، وكان أكثر اهتمامه بالمنطق، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره<sup>٢</sup> وكان يطنب في الكلام بقصد التعليم والتفهيم. ولعل من أهم الكتب التي ترجمها كتاب سوفطيقا<sup>٣</sup> لأرسطو، ومعناه الحكمة المموّهة، وقد نقله إلى السرياني.

كما ترجم أيضاً كتاب الشعر لأرسطو، يذكر ذلك في حديثه ابن النديم عن كتب أرسطو، فيقول: «الكلام عن أبو طيقا ومعناه الشعر، نقله أبو بشر متى بن يونس من السرياني إلى العربي»<sup>٤</sup>.

## سنان بن ثابت بن قرّة:

كان عالماً بالعدد والهندسة<sup>٥</sup>، وكان طبيياً مقدماً كأبيه، وقد وكل إليه المقتدر امتحان أطباء بغداد سنة ٣١٩هـ/ ٩٣٢م، وقد نقل إلى العربية نواميس هرمس والصور والصلوات التي يصلي بها الصابئون<sup>٦</sup> كما أصلح كثيراً من الترجمات التي كانت تترجم من السريانية إلى العربية<sup>٧</sup>. من ذلك إصلاحه كتاب أفلاطون في الأصول الهندسية، وقد زاد في هذا الكتاب شيئاً كثيراً<sup>٨</sup> وقد توفي سنان بن ثابت مسلماً ببغداد<sup>٩</sup>، عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م.

١. البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٢٨.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٨٢.

٣. القفطي، أخبار الحكماء.

٤. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٣.

٥. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٤١.

٦. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٣٣.

٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٢٤.

٨. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٢٣.

٩. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٤.

## يحيى بن عدي التكريتي:

كان نصرانياً، يعقوبي النحلة، قرأ على أبي بشر مَتَّى بن يونس، وعلى أبي نصر الفارابي، وقد انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وكان ينسخ بيده<sup>١</sup>، فكتب كثيراً من الكتب. وله تصانيف وتفاسير ونقول كثيرة من ذلك كتاب «طوييقا» لأرسطاطاليس، يقول ابن النديم في معرض الحديث عن كتب أرسطو، الكلام على «طوييقا»، «الجدل» نقل إسحق هذا الكتاب إلى السريانية، ونقله يحيى بن عدي<sup>٢</sup>. وقد بقيت لنا ترجمة أبي بشر مَتَّى<sup>٣</sup>، كما نقل سوفسطيقا لأرسطو إلى العربية أيضاً.

## أبو علي عيسى بن زرعة:

وُلد سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م، وتوفي سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م<sup>٤</sup>. كان نصرانياً يعقوبياً، اشتغل بالمنطق في بغداد، وكان متقدماً فيه، كما برع في الفلسفة ذكره ابن النديم فقال إنه: «كان ينقل من السريانية إلى العربية، وأكثر نقله يدخل في دأشرة الفلسفيات<sup>٥</sup> وكان جيد النقل، ومما نقله كتاب الحيوان لأرسطاطاليس، والقفطي يشير إلى ذلك بقوله، ونقله (كتاب الحيوان) أبو علي بن زرعة إلى العربية وصحّحه، وملكت منه نسخة<sup>٦</sup>.

١. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٩٧.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٦٣.

٣. نظراً لردائها، فإن الدكتور عبدالرحمن بدوي يظن أن الخبر عن يحيى بن عدي وأنه نقله خبر صحيح. (أنظر تصدير فن الشعر لأرسطو، ص ٥٠، مطبعة مصر).

٤. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٣١٥.

٥. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٨٣.

٦. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٣١.

ك  
ج

و  
ع

\*\*\*\* الفصل الثاني \*\*\*\*

السريان وتعريب التراث اليوناني  
أيام الدولة العبّاسية

ل

يعتبر بلا منازع كتاب «الفهرست» لابن النديم البغدادي الذي وضع كتابه عام ٩٨٧م، المصدر الأول في خوض هذا الموضوع، إذ كان ابن النديم متصلاً اتصالاً وثيقاً بأغلب علماء عصره وفلاسفته، يورد هو نفسه أسماءهم مع أعمالهم في كتابه هذا «الموسوعة».

ولقد كان فهرست ابن النديم منهلاً أصيلاً استقى منه من جاء بعده من الباحثين بمضمار هذا الميدان أمثال صاعد الأندلس (ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) في كتابه «طبقات الأمم» والقفطي (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) في كتابه «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» وابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) في كتابه «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» وغيرهم أمثال ابن جلجل والبيهقي وآخرين.

ونحن نقل هنا ما أورده ابن النديم في «الفهرست» أسماء المترجمين من اليونانية إلى العربية وهم:

- ١- إسطفان، ونقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة (السيمياء).
- ٢- البطريق، وكان أيام المنصور وأمره بترجمة الكتب القديمة.
- ٣- أبو زكريا يحيى بن البطريق، وكان في جملة الحسن بن سهل.
- ٤- الحجاج بن يوسف بن مطر، وهو الذي نقل للمأمون المجسطي وإقليدس.
- ٥- عبدالمسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي (ابن ناعمة).
- ٦- سلام الأبرش من المترجمين القدماء في أيام البرامكة ويوجد من ترجمته السماع الطبيعي.
- ٧- حبيب بن بهرنير، مطران الموصل، فسّر للمأمون عدة كتب.
- ٨- ذوربا بن ماجوه الناعمي الحمصي.
- ٩- هلال بن أب هلال الحمصي.

- ١٠- تذارى.
- ١١- فثيون.
- ١٢- أبو نصر بن ماري بن أيوب.
- ١٣- باسيل المطران.
- ١٤- أبو نوح (إبراهيم) بن الصلت.
- ١٥- أسطاط.
- ١٦- هيرون.
- ١٧- إسطفان بن باسيل.
- ١٨- إين رائطة التكريتي.
- ١٩- ثيوفيل الرهاوي.
- ٢٠- شملي.
- ٢١- عيسى بن نوح.
- ٢٢- قويري واسمه إبراهيم ويكنى أبا إسحق.
- ٢٣- تادروس السنقل.
- ٢٤- دريع الراهب.
- ٢٥- هيابتيون.
- ٢٦- صليبا.
- ٢٧- أيوب الرهاوي.
- ٢٨- ثابت بن قمع.
- ٢٩- أيوب وسمعان فسرا زيغ بطليموس لمحمد بن خالد بن يحيى بن برمك وغير ذلك من الكتب.

- ٣٠- باسيل وكان يخدم (طاهر بن الحسين) ذا اليمينين.
- ٣١- ابن شهدي الكرخي يترجم من السريانية إلى العربية، وكانت ترجمته رديئة فمما ترجم كتاب الأجنّة لسقراط.
- ٣٢- أبو عمرو ويوحنا بن يوسف الكاتب أحد المترجمين وترجم كتاب أفلاطون في آداب الصبيان.
- ٣٣- أيوب بن القاسم الرّقي ترجم من السريانية إلى العربية وما ترجمه كتاب إيساغوجي.
- ٣٤- مر لاحي، جيد المعرفة بالسريانية، عفتي الألفاظ ينقل بين يدي علي بن إبراهيم الدهكي من السريانية إلى العربية ويصلح ترجمته ابن الدهكي.
- ٣٥- داد يشوع كان يترجم لإسحق بن سليمان بن علي الهاشمي

### من السريانية إلى العربية.

- ١- قسطا بن لوقا البعلبكي جيّد الترجمة، فصيح اللسان اليوناني والعربي والسرياني، وقد ترجم وأصلح نقولاً كثيرة.
- ٢- حنين بن إسحق العبادي من الحيرة.
- ٣- إسحق بن حنين العبادي من الحيرة.
- ٤- ثابت بن قرّة الحرّاني.
- ٥- حبّيش بن الأعسم الدمشقي.
- ٦- عيسى بن يحيى.
- ٧- الدمشقي.
- ٨- إبراهيم بن الصلت أبو النوح.
- ٩- إبراهيم بن عبدالله.

١٠- يحيى بن عدي التكريتي.

١١- سنان بن ثابت بن قرّة.

١٢- عيسى بن اسحق بن زرعة.

١٣- أبو بشر متىّ يونس، من دير فُني تفقه في مدرسة مار ماري على يد أساتذة عظام وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره.

١٤- يوحنا بن ماسويه.

١٥- آل بختيشوع وهم السريان النساطرة، أطباء ومترجمين أمثال: سرجيوس وابنه بختيشوع وجبرائيل وكثيرون.

١٦- سرجيوس الراسعيني، من مدينة راس العين في الجزيرة. ترجم كتبًا كثيرة وكان متوسطًا في النقل وحين كان يصلح نقله.

١٧- الجائليق طيمثاوس الأول النسطوري.

١٨- أبو الفرج ابن الطيّب النسطوري.

١٩- أما ما أنجز هؤلاء وغيرهم من عمل فهو بارز في قائمة الكتب التي ترجموها من اليونانية أو الفارسية أو السريانية وحتى الهندسية إلى العربية تعتبر نواة النهضة الفكرية التي حدثت إبان العهد الأموي والعباسي، وإن مدارس الترجمة هذه قد لعبت دورًا رئيسيًا في عملية ازدهار الحضارة الإسلامية...

## الكتب الفلسفية المترجمة

### أولاً: كتب أفلاطون

١- كتاب السياسة، نقله أو ترجمه حنين بن إسحق.

٢- كتاب المناسبات، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.

- ٣- كتاب النواميس، ترجمه حنين بن إسحق ويحيى بن عدي.
- ٤- كتاب طيماوس، ترجمه ابن البطريق وأصلحه حنين بن إسحق.
- ٥- كتاب أفلاطون إلى أبقرات، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٦- كتاب التوحيد، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٧- كتاب الحسّ واللذة، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٨- كتاب أصول الهندسة، ترجمه قسطا بن لوقا البعبيكي.

### ثانياً: كتب أرسطاطاليس

- ١- كتاب قاطيغورياس<sup>١</sup> ومعناه المقولات، ترجمه حنين بن إسحق<sup>٢</sup>.
- ٢- كتاب باري أمينياس ومعناه العبارة، ترجمه حنين بن إسحق إلى السريانية وترجمه ابنه اسحق إلى العربية<sup>٣</sup>.
- ٣- كتاب أنالوطيقا الأولى وهو تحليل القياس، ترجمه ثيودورس إلى العربية، ويقال إنه عرضه على حنين بن إسحق فأصلحه، ونقل حنين قطعة منه إلى السريانية.
- ٤- كتاب أنالوطيقا، وهو البرهان، مقالتين لأرسطاطاليس، ترجمه حنين إلى السريانية، وترجمه أيضًا إسحق بن حنين إلى السريانية، وترجمه متى إلى العربية وكذلك ترجمه يحيى بن عدي إلى العربية<sup>٤</sup>.
- ٥- كتاب لوغيقا وهو الجدل لأرسطاطاليس، ترجمه إسحق بن حنين إلى السريانية، وترجمه يحيى بن عدي من السريانية إلى العربية. وترجم دمشق من سبعة مقالات، وترجم إبراهيم بن عبدالله الثامنة.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦١.

٢. القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٥.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٢.

٤. القفطي، أخبار العلماء، ص ٣٦.



- ٦- كتاب سوفسطيقا وهو الحكمة المموّهة لأرسطاطاليس ترجمه ابن ناعمة وأبو بشر متى إلى السريانية وترجمه يحيى بن عدي إلى العربية.
- ٧- كتاب ريطوريقا وهو الخطابة لأرسطو<sup>١</sup> قيل إن اسحق بن حنين نقله إلى العربية، وكذلك ترجمه إبراهيم بن عبدالله.
- ٨- كتاب أبوطيقا، وهو الشعر لأرسطو<sup>٢</sup> ترجمه أبو بشر متى بن يونس من السريانية إلى العربية وكذلك ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٩- كتاب السماع الطبيعي لأرسطو ترجمه حنين بن إسحق من اليونانية إلى السريانية، وترجمه من السريانية إلى العربية يحيى بن عدي التكريتي<sup>٣</sup>. وهذا الكتاب عبارة عن مقالة قصيرة.
- ١٠- كتاب السماع الطبيعي لأرسطو، ترجمه أبو روح الصائبي، وحنين بن إسحق وقسطا بن لوقا وأبو ناعمة عبدالمسيح الذي أكمل ترجمته.
- ١١- كتاب السماع الطبيعي<sup>٤</sup> إن الكتاب وهو ثماني مقالات لأرسطو، المقالة الأولى من كلام أرسطو في مقالتين والموجود منها مقالة والبعض الآخر نقلها أبو روح الصائبي وأصلح هذا النقل يحيى بن عدي التكريتي. والمقالة الثانية وترجمها من اليونانية إلى السريانية حنين بن إسحق وترجمها من السريانية إلى العربية يحيى بن عدي. وترجم الثالثة قسطا بن لوقا والظاهر موجود نقل الدمشقي. والمقالة الخامسة ترجمها قسطا بن لوقا.
- ١٢- كتاب الأفرديسي يعني الإسكندر لأرسطو<sup>٥</sup> فسّره أبو زكريا يحيى بن عدي التكريتي في ثلاثمائة ورقة<sup>٦</sup>.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٣.

٢. القفطي، أخبار العلماء، ص ٣٨.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٤.

٤. القفطي، أخبار العلماء، ص ٣٤. وراجع جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ١٧٢-١٨٣.

٥. القفطي، أخبار العلماء، ص ٣٥.

٦. ومن فسّر هذا الكتاب من المسلمين أو نصر الفارابي.

- ١٣- كتاب السماع والعلم لأرسطو، وهو أربع مقالات، ترجم هذا الكتاب ابن البطريق، وأصلحه حنين بن إسحق وترجم أبو بشر متى بعض المقالة الأولى.
- ١٤- كتاب الكون والفساد لأرسطو<sup>١</sup> ترجمه حنين بن إسحق من اليونانية إلى السريانية، وترجمه إسحق بن حنين إلى العربية وترجمه أيضًا إسحق الدمشقي إلى العربية.
- ١٥- كتاب الآثار العلوية لأرسطو ترجمه أبو بشر متى ويحيى بن عدي التكريتي<sup>٢</sup>.
- ١٦- كتاب النفس لأرسطو وهذه ثلاث مقالات ترجمها حنين بن إسحق إلى السريانية ونقله إسحق نقلًا ثانيًا إلى العربية.
- ١٧- كتاب الحيوان لأرسطو وهو<sup>٣</sup> تسع عشرة مقالة ترجمها ابن البطريق. ويوجد نقل سرياني أجود من العربي ونقله ابن زرعة إلى العربية.
- ١٨- كتاب الحروف بالإلهيات لأرسطو ترجمه إسحق ونقل حرف مو ونقل هذا الحرف أبو زكريا ابن يحيى بن عدي، ونقل حنين مقالة منها إلى السريانية.
- ١٩- كتاب الأخلاق لأرسطو وهو إثنتا عشرة مقالة فسره فرفوروس ترجمه إسحق بن حنين.
- ٢٠- كتاب في السكون بين حركتي الشريان، مقالتان<sup>٤</sup>. ترجم إلى السريانية ونقله إلى العربية عيسى بن أسيد النصراني وأصلحه ثابت العربي وذكر قوم أن المترجم لهذا الكتاب هو حبش بن الحسن، وفيه ردّ على الكندي.
- ٢١- كتاب الحسّ والمحسوس<sup>٥</sup>. ترجمه بن بكوس (باكوس) وقيل أيضًا ترجمه أبو بشر متى بن يونس.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٥. القفطي، أخبار العلماء، ص ٤٠.

٢. القفطي، أخبار العلماء، ص ٤١.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٦٦.

٤. القفطي، أخبار العلماء، ص ١١٦.

٥. ابن النديم، الفهرست، ص ١٦٧.

٢٢- كتاب ما وراء الطبيعة لثامرسطس، ترجمه أبو زكريا يحيى بن عدي التكريتي.  
وذكر ابن العبري أن يحيى بن عدي ترجمه من السريانية إلى العربية<sup>١</sup>.

٢٣- كتاب المرآة، ترجمه الحجاج بن مطر.

٢٤- كتاب آثولوجيا، ترجمه حمصي بن نعيمة وراجعه الكندي.

٢٥- كتاب بركليس في تفسير فادن في النفس، ترجمه من السريانية إلى العربية أبو علي  
بن زرعة<sup>٢</sup>.

٢٦- كتاب الآراء الطبيعية لفارطرخس وهو خمس مقالات ترجمه قسطا بن لوقا.

٢٧- كتاب تفسير أرسطو في الهالة وقوس قزح أثافوريطس، ترجمه ثابت بن قرّة.

ولكتب أرسطو شرح وتعليق لبعض تلامذته أو من جاء بعده كثاوفرستس  
وديدوخس بركليس والإسكندر الأفروديسي وفرفوريس وأمونيوس وثامسطيوس  
ونيقولاوس وبلوتارخس ويحيى النحوي وغيرهم.

ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة وكلها في الفلسفة وفروعها.

وقد ترجم الكثير منها إلى العربية وذكروا الجالينوس في جملة كتبه الطبيّة الآتي ذكرها  
بضعة كتب في الفلسفة والأدب وهي:

### ثالثاً: كتب إقليدس

١- كتاب الأسطروسيا لإقليدس ومعناه أصول الهندسة. ترجمه الحجاج بن يوسف  
بن مطر مرتين إحداهما تسمى بالهاروني والثانية المأموني وعليها يعول. وترجمه  
إسحق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرّة الحرّاني.

٢- المخروطات، ثمان مقالات (أبلوينوس) ترجمه أربعة أشخاص: الأولى بيد عدي أحمد  
بن موسى بن هلال الحمصي، والأوخر ثابت بن قرّة الحرّان ونقلت إلى العربية.

١. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٥٠٦.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٧.

٣- شرح أرشيميديس في الكرة الأسطوانة (أبو طوفوس) ترجمها ثابت بن قرّة إلى العربية.

٤- كتاب الأشكال الكروية، وهو كتاب في معرفة كمية تميّز الأجرام المختلطة عمله ثابت بن قرّة وخرج منه إلى العربي شيء يسير.

٥- المجسطي (بطليمُس) فهو ثلاث عشرة مقالة، عُني بتفسيره وترجمه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك. قيل إن الحجاج ابن مطر نقله أيضًا، أما الذي عمله التبريزي أصلح ثابت بن قرّة الكتاب له بالنقل القديم. نقل إسحق الكتاب<sup>١</sup>. وذكره القفطي: «وأول من عني بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن برمك ونقله الحجاج بن يوسف بن مطر.

٦- كتاب تفسير بطليمُس في سطح الكرة<sup>٢</sup> نقل بيس الرومي ونقل ثابت بن قرّة إلى العربية.

٧- مفسّر كتاب أغراض المخروطات.

٨- المجسطي إبراهيم بن سنّان<sup>٣</sup>.

٩- إقليدس في الهندسة نقله من اليونانية إلى العربية ثابت بن قرّة الحرّاني تّفحه وهذّبه.

### رابعًا: كتب أبقراط

١- كتاب عهد أبقراط: بتفسير جالينُس، ترجمه حنين بن إسحق إلى السريانية وأضاف إليه شيئًا من جهته. وترجمه حبيش بن الأعسم وعيس بن يحيى إلى العربية بمقالة واحدة.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٧.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٥. أخبار العلماء، ص ٩٧.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٠.

٢- كتاب الفصول بتفسير جالينس، ترجمه حنين بن إسحق إلى العربية لمحمد بن موسى (سبع مقالات).

٣- كتاب مقدمة المعرفة بتفسير جالينس، ترجمه أيضًا حنين بن إسحق إلى العربية ثم ترجم عيسى التفسير إلى العربية.

٤- كتاب الأمراض الحادة بتفسير جالينس، وهو خمس مقالات والذي ترجم منه ثلاث مقالات ترجمها عيسى بن يحيى.

٥- كتاب الكسر بتفسير جالينس، ترجمه حنين بن إسحق إلى العربية لمحمد بن موسى (أربع مقالات).

٦- كتاب إبيديميا أو الأمراض الوافدة، وفسره جالينس، يتكوّن الكتاب وتفسيره من سبع كتب الأول في ثلاث مقالات، والثاني في ثلاث مقالات، والثالث في ست مقالات والرابع والخامس والسابع لم يفسرها جالينوس وأما السادس ففسره في ثمان مقالات، وفسر ذلك إلى العربية عيسى بن يحيى.

٧- كتاب الأخلاط، بتفسير جالينس، ثلاث مقالات ترجمها عيسى بن يحيى إلى العربية لأحمد بن موسى.

٨- كتاب قاطيطون (قاطيطريون) أي حانوت الطبيب بتفسير جالينوس ثلاث مقالات ترجمها بن إسحق إلى العربية لمحمد بن موسى والتفسير لحبيش بن الحسن.

٩- كتاب الطبيعة الأنسان، ثلاث مقالات، فسر النص حنين بن إسحق وترجمه إلى العربية والتفسير عيسى بن يحيى.

١٠- كتاب الماء والهواء، ترجمه حنين بن إسحق وعيسى بن يحيى.

### خامسًا: كتب أفلاطون:

١- كتاب السياسة، ترجمه حنين بن إسحق.

٢- كتاب المناسبان، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.

- ٣- كتاب النواميس، ترجمه حنين بن إسحق ويحيى بن عدي التكريتي.
- ٤- كتاب طيباوس، ترجمه ابن البطريق، وأصلحه حنين بن إسحق.
- ٥- كتاب أفلاطون إلى أبقراط، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٦- كتاب التوحيد، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٧- كتاب الحسّ واللذة ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٨- كتاب أصول الهندسة، ترجمه قسطا بن لوقا.

### سادسًا: كتب جالينوس<sup>١</sup>

كان لجالينوس شأنٌ كبيرٌ عند العرب فترجموا معظم كتبه إلى العربية ولخصوها وفسروها. وقد ذكرها ابن أبي أصيبعة مطولاً في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ووضع مضمون بعضها. وأشار إلى أن أطباء الإسكندرية قد اختاروا من بين هذه المجموعة من الكتب ستة عشر كتاباً ورتّبوها سبع مرات بحيث يتدرج المبتدئ من مرتبة إلى أخرى بنظامٍ محكم ويشتاق إلى المزيد وهي:

- ١- كتاب الفرق، ترجمه حنين بن إسحق (مقالة).
- ٢- كتاب الصناعة، ترجمه حنين بن إسحق (مقالة).
- ٣- كتاب طوثرن في النبض، ترجمه حنين بن إسحق (مقالة).
- ٤- كتاب إغلوثن في التآني لشفاء الأمراض، ترجمه حنين بن إسحق (مقالتان).
- ٥- كتاب المقالات الخمس في التشريح، ترجمه حنين بن إسحق.
- ٦- كتاب الاستقصاء، ترجمه حنين بن إسحق (مقالة).
- ٧- كتاب المزاج، ترجمه حنين بن إسحق (ثلاث مقالات).

١. وُلد جالينوس في آسيا الصغرى عام ١٣١م، وتوفي في روما عام ٢٠١م، ألف جالينوس عددًا كبيرًا من الكتب الشاملة لجميع أقسام الطب في زمانه. كما ألف كتبًا فلسفية وكان اعجاباه بأبقراط عظيمًا ففسّر أهم كتبه.

- ٨- كتاب القوى الطبيعية، ترجمه حنين بن اسحق (ثلاث مقالات).
- ٩- كتاب العلل والأمراض، ترجمه حنين بن اسحق (ست مقالات).
- ١٠- كتاب تعرّف علل الأعضاء الباطنية، ترجمه حنين بن إسحق (ست مقالات).
- ١١- كتاب النبض الكبير، ترجم حبيش ست مقالات منه بأربعة أقسام وترجم حنين بن إسحق مقالة واحدة إلى العربية.
- ١٢- كتاب الحميات، ترجمه حنين بن إسحق (مقالتان).
- ١٣- كتاب البحران، ترجمه حنين بن إسحق (ثلاث مقالات).
- ١٤- كتاب أيام البحران، ترجمه حنين بن إسحق (ثلاث مقالات).
- ١٥- كتاب تدبير الأصحاء، ترجمة حبيش (ست مقالات).
- ١٦- كتاب حيلة البرء، ترجمة حبيش إلى العربية وأصلح حنين ست مقالات منه. والكتاب أربع عشرة مقالة وأصلح الثمان الأواخر محمد بن موسى. أما ما بقي من كتب جالينوس الطبيّة فإليك أسماءها مع أسماء مترجميها:
- ١٧- كتاب اختلاف التشريح ترجمة حبيش بن الأعمس إلى العربية (مقالتان).
- ١٨- كتاب التشريح الكبير: خمس عشرة مقالة، لم يذكر حنين بن إسحق في فهرسته من ترجمه إلى اللغة العربية، ولا ابن النديم.
- ١٩- كتاب تشريح الحيوان الميت، ترجمه حبيش بن الأعمس إلى العربية (مقالة).
- ٢٠- كتاب تشريح الحيوان الحيّ، ترجمه حبيش بن الأعمس إلى العربية (مقالتان).
- ٢١- كتاب في علم أبقرات بالنشريح، ترجمه حبيش بن الأعمس إلى العربية وهو خمس مقالات.
- ٢٢- كتاب علم أرسطاطاليس في التشريح، ترجمه حبيش بن الأعمس إلى العربية وهو ثلاث مقالات.

- ٢٣- كتاب تشريح الرحم، ترجمه حبش بن الأعسم إلى العربية (مقالة واحدة).
- ٢٤- كتاب حركات الصدر الرثة، ترجمه إسطفان بن باسيل إلى العربية وأصلحه حنين بن إسحق لإسقاطه ثلاث مقالات.
- ٢٥- كتاب علل النفس، ترجمه إسطفان بن باسيل وأصلحه حنين بن إسحق لولده، وهو مقالتان.
- ٢٦- كتاب الصوت، ترجمه حنين بن إسحق لمحمد بن عبد الملك الزيات إلى العربية وهو أربع مقالات.
- ٢٧- كتاب حركة العضل، نقل إسطفان وإصلاح حنين بن إسحق وهو مقالتان.
- ٢٨- كتاب الحاجة إلى النبض، ترجمه حبش بن الأعسم إلى العربية، وهو مقالة واحدة.
- ٢٩- كتاب الحاجة إلى النفس، ترجمه إسطفان، وترجم حنين نصفه، مقالة واحدة.
- ٣٠- كتاب العادات، ترجمه حبش بن الأعسم إلى العربية مقالة واحدة.
- ٣١- كتاب آراء أبقراط وأفلاطون، ترجمه حبش بن الأعسم إلى العربية وهو عشر مقالات.
- ٣٢- كتاب الحركات المجهولة، ترجمه حنين بن إسحق إلى العربية، مقالة واحدة.
- ٣٣- كتاب الامتلاء، ترجمه إسطفان بن باسيل، وهو مقالة واحدة.
- ٣٤- كتاب منافع الأعضاء، ترجمه حبش بن الأعسم، وأصلحه حنين بن إسحق لإسقاطه سبع عشرة مقالة.
- ٣٥- كتاب أفضل الهيئات، ترجمه حنين بن إسحق إلى السريانية والعربية وهو مقالة واحدة.
- ٣٦- كتاب خصب البدن، ترجمه حبش بن الأعسم إلى العربية مقالة واحدة.
- ٣٧- كتاب سوء المزاج المختلف، ترجمه حنين بن إسحق، مقالة واحدة.



- ٣٨- كتاب الأدوية المفردة، ترجمه حنين بن إسحق، وهو إحدى عشرة مقالة.
- ٣٩- كتاب الأورام، ترجمه إبراهيم بن الصلت، وهو مقالة واحدة.
- ٤٠- كتاب المنى، ترجمه حبيش بن الأعسم، مقالتان.
- ٤١- كتاب المولود لسبعة أشهر، ترجمه حنين بن إسحق.
- ٤٢- كتاب المزة السوداء، ترجمه إسطفان بن باسيل، مقالة واحدة.
- ٤٣- كتاب مقدمة المعرفة، ترجمه عيسى بن يحيى، وهو مقالة واحدة.
- ٤٤- كتاب رداءة النفس، ترجمه حنين بن إسحق لولده إسحق وهو ثلاث مقالات.
- ٤٥- كتاب مقدمة المعرفة، ترجمه عيسى بن يحيى وهو مقالة واحدة.
- ٤٦- كتاب الفصد، ترجمه عيسى بن يحيى وترجمه إسطفان وعيسى.
- ٤٧- كتاب الذبول، ترجمه حنين بن اسحق، مقالة واحدة.
- ٤٨- كتاب صفات لصبي يصرع، ترجمه ابن الصلت إلى السريانية والعربية.
- ٤٩- كتاب عدد المقاييس، ترجمه إسطفان بن باسيل وإسحق العلي بن يحيى.
- ٥٠- كتاب قوى الأغذية، ترجمه حنين بن إسحق، ثلاث مقالات.
- ٥١- كتاب التدبير المطلق، ترجمه حنين بن إسحق، ثلاث مقالات.
- ٥٢- كتاب إكليموس، ترجمه ثابت وشحلي وحبيش بن الأعسم إلى العربية، وهو مقالة واحدة.
- ٥٣- كتاب أرسطاطاليس في مداواة الأمراض، ترجمه حنين بن إسحق.
- ٥٤- كتاب تدبير أبقراط للأمراض الحادة، ترجمه حنين بن إسحق، مقالة واحدة.
- ٥٥- كتاب تركيب الأدوية، ترجمه حبيش بن الأعسم، سبع عشرة مقالة.
- ٥٦- كتاب الأدوية المقابلة للأدواء، ترجمه عيسى بن يحيى، مقالتان.
- ٥٧- كتاب الترياق إلى يسن، ترجمه يحيى بن البطريق، مقالة.

- ٥٨- كتاب إلى أثراسابولس، ترجمه حنين بن إسحق، مقالة واحدة.
- ٥٩- الرياضة بالكرة الصغيرة، ترجمه حبيش بن الأعمس، مقالة.
- ٦٠- كتاب الرياضة بالكرة الكبيرة، ترجمه حبيش بن الأعمس، مقالة.
- ٦١- كتاب في الطبيب الفاضل فيلسوف، ترجمه حنين بن إسحق، مقالة.
- ٦٢- كتب أبقرات الصحيحة، ترجمه حنين بن إسحق، مقالة.
- ٦٣- كتاب الحث على طلب الطب، ترجمه حبيش بن الأعمس، مقالة.
- ٦٤- كتاب محنة الطبيب، ترجمه حبيش بن الأعمس، مقالة.
- ٦٥- كتاب ما يعتقده رأياً، ترجمه ثابت، مقالة.
- ٦٦- كتاب تعريف المرء عيوب نفسه، ترجمه توما وإصلاح حنين، مقالة.
- ٦٧- كتاب الأخلاق، ترجمه حبيش بن الأعمس، أربع مقالات.
- ٦٨- كتاب انتفاع الاختيار بأعدائهم، ترجمه حبيش بن الأعمس، مقالة.
- ٦٩- كتاب ما ذكره أفلاطون في طيماوس الموجود منه عشرون مقالة، ترجمه حنين بن إسحق، وترجم ابنه إسحق الثلاث الباقيات.
- ٧٠- كتاب في آني قوى النفس تابعة لمزاج البدن، ترجمه حبيش بن الأعمس، مقالة واحدة.
- ٧١- كتاب المدخل إلى المنطق، ترجمه حبيش بن الأعمس، مقالة واحدة.
- ٧٢- كتاب المحرك الأول لا يتحرك، ترجمه حنين بن إسحق وترجمه أيضاً عيسى بن يحيى وإسحق بن حنين.
- ٧٣- كتاب في القوباء (فيلفريوس) ترجمه أبو الحسن الحراني ولم يتمها.

- ٧٤- كتاب الأدوية المستعملة (أوريباسيوس): ترجمه إسطفان بن باسيل.
- ٧٥- كتاب السبعين مقالة (أوريباسيوس)، ترجمها حنين بن إسحق وعيسى بن يحيى إلى السريانية.
- ٧٦- كتاب البرسام (اللاسكندروس) ترجمه ابن البطريق<sup>١</sup>.
- ٧٧- كتاب الحقن (سورنوس)، ترجمه إسطفان وأصلحه حنين بن إسحق، وهو ثلاثون مقالة كُنَّاش بالسريانية لأهرون القس ترجمه مار سرجيس إلى العربية وزاد عليها مقالتين<sup>٢</sup>.
- ٧٨- كُنَّاش يوحنا الكبير، إثنتي عشرة مقالة من السريانية إلى العربية ليحيى بن سرافيون.
- ٧٩- كُنَّاش يوحنا الكبير، سبع مقالات، ترجمه من السريانية إلى العربية ليحيى بن سرافيون.
- ٨٠- جوابات ثابت لمسائل عيسى بن أسيد ترجمه من السريانية إلى العربية عيسى بن أسيد النصراني.
- ٨١- كتاب الترياق، ترجمه ابن البطريق.

### سابعًا: كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

- ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكية.
- ١- كتب إقليدس، منها أصول الهندسة ترجمه الحجاج بن مطر، بنقلين الهاروني نسبة لعهد الخليفة هرون الرشيد، والماموني نسبة للخليفة المأمون وترجمه إسحق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرّة، وترجمه أيضًا أبو عثمان الدمشقي.
- ومن كتب إقليدس التي لم يعرف مترجموها: كتاب الظاهرات وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة وكتاب القانون وكتاب الثقل والخفه.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٢.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٧. القفطي، أخبار العلماء، ص ٨٠.

- ٢- كتب أرشميدس، وهي عشرة ولم يعرف مترجموها.
- ٣- كتب أبولونيوس وهي: كتاب المخروطات، وكتاب قطع السطوح، وقطع الخطوط، والنسبة المحدودة، والدوائر الحساسة، ولم يعرف مترجموها.
- ٤- كتب منالوس، وهي كتاب الأشكال الكروية، وكتاب أصول الهندسة وترجمه إلى العربية ثابت بن قرّة.
- ٥- كتب بطليموس القلودي، وهي كتاب المجسطي الشهير، ترجمه وشرحه يحيى البرمكي. وله أيضًا كتاب الأربعة ترجمه إبراهيم بن الصلت وأصلحه حنين بن إسحق، وكتاب جغرافيا المعموز وصفة الأرض ترجمه ثابت بن قرّة إلى العربية ترجمة جيدة.
- ولبطليموس خمسة عشر كتابًا أخرى في الجغرافية وغيرها لم يعرف مترجموها.
- ٦- كتب ذيوفنطس، ومنها كتاب صناعة الجبر وترجمة قسطا بن لوقا، وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر مترجموها منها:
- ١- كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابيون البطريق.
  - ٢- كتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس.
  - ٣- كتاب العمل بذات الحلق.
  - ٤- كتاب جداول زيح بطليموس المعروف بالقانون المسير.
  - ٥- كتاب العمل باسطرلاب لثاون الاسكندري.
  - ٦- وقد نقل أيضًا إلى العربية من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لينغوماخس الجهراسيني.
  - ٧- كتاب الموسيقى المنسوب لإقليدس.
  - ٨- ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره.
  - ٩- وكتاب الريموس.
  - ١٠- كتاب الايقاع لارسطكاس.

- ١١- كتاب الآلات المصوتة المسماة بالأرغن البوقي والأرغن الزمري لمورطس.  
 ١٢- كتاب الحيل الروحية.  
 ١٣- كتاب شيل الاثقال لايرن.  
 ١٤- كتاب استخراج المياه لبادرو جوجيا.  
 ١٥- كتاب الآلات المصوتة على ستين ميلاً لمورطس.

### ثامناً: متفرقات

- ١- كتاب الآثار العلوية المخيلة في الجو عن البخار المائي<sup>١</sup> ترجمه ابن الخّمّار من السريانية إلى العربية.  
 ٢- كتاب الآثار العلوية، نقله ابن الخّمّار من السريانية إلى العربية.  
 ٣- كتابي أوميدوس الشاعر على فتح مدينة أبلين في قديم الدهر ترجمها ثيوفيل السرياني الرهاوي الماروني من اليونانية إلى السريانية<sup>٢</sup>.  
 ٤- كتاب نيقولاوس في معرفة الحكمة فلسفة أرسطاطاليس ذكره ابن العبري، ترجمه حنين بن إسحق يوجد منه نسخ بالسريانية.  
 ٥- كتاب في الطب لبولس الأجانيطي سمّوه القوابلي، تسع مقالات ترجمه حنين بن إسحق، وله أيضاً كتاب علل النساء<sup>٣</sup>.  
 ٦- الدياتسرون<sup>٤</sup> الرباعي، وهو الإنجيل الذي جمعه ططيانس السرياني من البشائر الأربع في القرن الثاني الميلادي، وترجمه من السريانية إلى العربية أبو الفرج عبدالله ابن الطيّب في القرن الحادي عشر<sup>٥</sup>.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٤.

٢. يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، ص ٦٣.

٣. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٨٢.

٤. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٠٣.

٥. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنتور، ص ٦٣٠-٦٤٠.

- ٧- كتاب ديسقوريد في العلم وقد ترجمه إسطفان بن باسيل من اليونانية إلى العربية<sup>١</sup>.
- ٨- الكنّاش الكبير، إثنتا عشرة مقالة، وكتاب الكنّاش الصغير سبع مقالات بالسرانية، ترجمه يوحنا بن سرافيون إلى العربية<sup>٢</sup>.
- ٩- كتاب الأجنة لأبقراط ترجمه عن السريانية إلى العربية ابن شهدا الكرخي<sup>٣</sup>.
- ١٠- كتاب أفلاطون في آداب الصبيان، ترجمه أبو عمر بن يوسف الكاتب<sup>٤</sup>.
- ١١- كتاب إيساغوجي، ترجمه أيوب بن قاسم الرقي من السريانية إلى العربية<sup>٥</sup>.

وهناك كتابٌ ذا أهمية كبرى في المادة الطبيّة هو «كتاب الحشائش» لصاحبه ديسقوريدس، وهو طبيب يوناني وُلد في عين ذزبه (Anazarbe) في آسيا الصغرى في القرن الأول الميلادي. وقد صاحب الجيش كطبيب في تنقلاته والتحقّق الشخصي من صحة ما ورد في كتب سابقه عن المادة الطبيّة. وظل كتابه المرجع الأساسي على مرّ الأجيال للمفردات الطبيّة. فما من طبيبٍ ذي قدرٍ إلاّ ودرسه درسًا مطوّلًا وعلّق عليه منذ جالينوس إلى ابن سينا وداود الأنطاكي.

وقد ترجم الكتاب إلى العربية ببغداد في أيام الخليفة المتوكّل (٨٤٧-٨٦١م) وكان المترجم له اسطفان بن باسيل، وتصفّح هذه الترجمة حنين بن اسحق فصحّحها وأجازها. لتاريخ هذه الترجمة وصعوبة اختيار المصطلحات العربية المناسبة وانتشار هذه الترجمة، في البلاد العربية قصّة طويلة رواها ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»<sup>٦</sup>.

١. جرجي زيدان، آداب اللغة العربية، ص ٦٤٥.

٢. القفطي، أخبار العلماء، ص ٣٨٠.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

٤. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

٥. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤. يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، ص ١٦٤.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٤٦-٤٨، وأنظر أيضًا الأمير مصطفى الشهابي، تفسير كتاب ديسقوريدس لابن البيطار في مجلة معهد المخطوطات العربية (مايس ١٩٥٧) ص ١٠٥-١١٢.

\*\*\*\*\* الفصل الثالث \*\*\*\*\*

الكتاب والوزراء السريان  
في ديار الإسلام

## نظرة تاريخية

### أ- الشرع الإسلامي وتوظيف أهل الذمة.

إن الشريعة الإسلامية لا تميز من حيث المبدأ وظائف الدولة لمن هو ذمي، إلا على كره. فالقرآن صريحٌ في هذا الباب: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ومن يفعل ذلك فليس من الله بشيء، إلا أن تتقوا منه تقيةً ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير» (٢٨:٣) ويقول تفسير الجلالين للمسلمين في شرح ذلك: «فلكم موالاتهم باللسان دون القلب، وهذا قبل عزة الإسلام ويجري فيمن هو في بلد ليس قويًا فيها».

وجاء في السورة عينها (١١٨:٣): «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، لا يألونكم خبالًا، ودّوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون». ويعلق تفسير الجلالين على ذلك بما مفاده: «لا تتخذوا أصفياء تطلعونهم على سرّكم من غيركم أي من اليهود والنصارى والمنافقين».

وجاء في سورة المائدة بصريح العبارة (٥١:٥): «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولاهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين».

وفي سورة التوبة (٩: ٧-١٠) إشارة إلى ذلك، حيث قيل في عدم ائتمان غير المؤمنين: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله (...). كيف وأن يظهرها عليكم لا يرقبوا فيكم إلا (أي: قرابة) ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون» (أطلب أيضًا ٤: ١٤١-١٤٤، ٥: ٥٧، ١، ٣)...



وثمة اعتبارات أدبية، تحتم على المسلمين صدّ باب الوظائف الحكومية في وجه الذميين، وهي حسبها أوردها ابن النقّاش والقلقشندي: إن كلّ ذمي هو مبدئيًا عدو للمسلم تسوّل له نفسه في كلّ حين التواطؤ مع أعداء الإسلام، وإن هو غدر بالمسلم فلا يرى في ذلك إثمًا، كما أن توليته المناصب تتنافى مع ما يجب أن يكون عليه من حالة ذل وصغار.

بيد أن هنالك قلة بين العلماء قالوا بأنه يجوز للذمي شرعًا تولي المناصب في الدولة، حتى منصب الوزير، ولكنهم ميّزوا بين وزير التفويض ووزير التنفيذ. فالأول يفوض إليه الخليفة سلطته فيدير شؤون الدولة بمبادرة شخصية، في حين يكتفي الثاني بتنفيذ أوامر السلطان وأجازوا بذلك للذمي تولي المناصب بما فيها وزارة التنفيذ.

فكيف كانت الأمور في الواقع؟

### في عهد الراشدين والأمويين

لما انطلقت الدولة الإسلامية وجد الخلفاء أنفسهم على رأس شعوبٍ عديدة، متوزّعة في بلادٍ شاسعة الأطراف، فاحتاجوا إلى من ينشئ لهم إدارة منظمّة، ولم يكن لهم بد من اللجوء إلى المسيحيين وكانوا السكان الأصليين الشام ومصر والعراق، يحسنون تسيير أمور الحكّام لتمرّسهم في شؤون الدولة البيزنطية، ويُلمون بلغاتٍ عديدة كال يونانية والسريانية والعربية فضلًا عن الفارسية. وقد حاول الخليفة عمر بن الخطّاب الحدّ من نفوذهم ولكن لم يكن ذلك بالأمر اليسير لما كانوا يتمتعون به من خبرةٍ في دائرة عملهم. يحكى عن عمر بن الخطّاب أنه لما عرف أن لأبي موسى الأشعري كاتبًا نصرانيًا ضرب فخذه وقال: «ألا اتخذت رجلاً حنيفًا»<sup>١</sup>.

١. ابن قتيبة، عيون الأخبار، طبعة كوتنكن، ١٨٩٩، ص ١٩٩.

وأظهر معاوية من الفطنة واللين في هذا المجال ما سهّل له أموره، فاستفاد من الكتاب المسيحيين كمثّل ابن آثال الذي وُليّ خراج حمص<sup>١</sup>، وسرجون بن منصور جدّ القديس يوحنا الدمشقي<sup>٢</sup>.

ثم حاول عمر بن عبدالعزيز وعبدالمكّ بن مروان وهشام بن عبدالمكّ تقليص احتكار النصارى للوظائف بصرفهم بعضًا منهم وتعريب لغة الدواوين، إلّا أن اليونانية ظلّت سائدة في معاملات الدولة فترة طويلة، حتى أنه وجدت قطع من البردي دوّنت فيها أمور حكومية باللغتين العربية واليونانية تعود إلى سنة ٨٥٧ للميلاد. ولئن حدّ التعريب من أفراد المسيحيين بالدواوين، فلم يحلّ دون بقائهم فيها بكثرة لمعرفة العربية خير معرفة إلى جانب غيرها من اللغات. وتفيد الوثائق المدونة على البردي أن سائر كتّاب الريف في الديار المصرية حتى آخر الدولة الأموية كانوا من النصارى.

### في العصر العبّاسي

إتصف الخلفاء العبّاسيون بسياسةٍ خلت إجمالاً من التعصّب الديني. وإن تصرّف بعضهم على نحوٍ يمكن اعتباره تحنيئاً على المسيحيين عامة وعلى جماعة كتّابهم خاصة، فلاسبابٍ غالباً ما ارتبطت بظروفٍ سياسية واجتماعية راهنة. فلقد عرف مثلاً عن المنصور (٧٥٤-٧٧٥) أنه اتخذ بحقّ المسيحيين سلسلة إجراءاتٍ قاسية في السنوات ٧٥٧ و٧٥٨ و٧٦٠ (طرد الكتّاب المسيحيين من بيت المال) و٧٦٧ (منع دراسة الآداب أي «الرومية») و٧٧٠ و٧٧٣. إلّا أنه ينبغي الاعتراف بأن هذه القرارات كانت موجّهة ضدّ مسيحيي

١. ابن آثال - القرن السابع - كاتب. أخبر عنه الجهشباري في «الوزراء والكتّاب» ص ٢٧. إنه كتب على مروان خراج حمص في أيام معاوية بن أبي سفيان. وكان له في هذه المدينة قصر يُعرف به. وروى ابن أبي أصيبعة في عيون الأنبياء: (ج ١: ١١٦) «إنه كان طبيباً من الأطباء المميّزين في دمشق. ولما ملك معاوية دمشق اتخذه طبيباً وأحسن إليه. وكان ابن آثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وما كان منها سبباً قاتلاً. فسّم عبدالرحمان بن خالد بإيعازٍ من معاوية. وقد قتل ابن آثال قتلته غيلة خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد». (أطلب قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص ١٤١).

٢. سرجون بن منصور (+واخر القرن السابع) - كاتب. جاء في «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢: ٢١١) (من نبل بالكتابة): «سرجون بن منصور الرومي - نعت منصور بن سرجون الرومي لا لأنه كان رومياً بل لأنه خدم الروم - كاتب لمعاوية يزيد ابنه ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، إلى أن أمره عبد الملك بأمر فتوانى فيه ورأى منه عبد الملك بعض التفریط فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: إن سرجون يدبّ علينا بصناعته وأظن أنه رأى ضرورتنا إليه في حسابه، فما عندك فيه حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت حوّلت الحساب من الرومية إلى العربية. قال: إفعل. قال: انظري أعاني ذلك. قال: لك نظرة ما شئت. فحوّل الديوان...» قال في «الأغاني» (١٦: ٧٠) «كان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء وأوى المغنين الفلك (كذا) وشرب الخمر وكان يتادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخطل...» سعى ببناء كنيسة... روي عنه زوراً أنه أسلم...

المناطق الغربية المتاخمة لبلاد الروم. ومنع دراسة الآداب «الرومية» هو خير دليل على ذلك. فضلاً عن تفرد المؤرخين البيزنطيين والسرّيان برواية هذه الأحداث<sup>١</sup>.

ولئن قرّر المنصور طرد الكتّاب النصارى من ديوان بيت المال كما رأينا، فقد اضطر بعد ذلك إلى استرجاعهم لما كان لهم من نفوذ في دولته. ويجكى من هذا القبيل أنه جاءه ذات يوم بعض المسلمين يشكون من الكتّاب المسيحيين، فأمر الخليفة حاجبه أن يكتب إلى عمّاله في الأقاليم يأمرهم بطرد «الذميّين» من الدواوين واستبدالهم بالمسلمين. فما كان من أحد المقرّبين إليه واسمه شبيب بن شبيه أن أشار عليه بالعدول عن مثل هذا الأجراء خشية أن يجد هؤلاء الناس المتنفذين سبيلاً إلى الانتقام، ونصحه باستبدال الذميّين بالمسلمين شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم<sup>٢</sup>.

ومن شدّد الخناق على الكتّاب النصارى المتوكّل (٨٤٧-٨٦١) فصادر كثيراً منهم ونكّل بهم. ومن ضحاياه أيوب ابن إبراهيم ابن الجنيد وأخوه سليمان الذي ضرب وسجن وصور بسبعين ألف دينار.

أما السبب الحقيقي لتصرفات المتوكّل فيبدو أنه في الدرجة الأولى حاجته الماسة إلى المال، كما أنه كان يراعي شعور بعض المتزمتين من الذين لا يروقههم يُسرّ الذميّين وتسلبتهم. وقد عُرف عن المقتدر أيضاً (٩٠٨-٩٣٢) أنه في بدء خلافته قرّر إقصاء النصارى واليهود عن الوظائف العامة في الدواوين وحصرهم في أعمال الجهبذة والطب. وقتل آنذاك أبو ياسر النصراني أحد كتّاب مؤنس الحاجب<sup>٣</sup>.

بيد أن التشرّد سرعان ما زال إذ كان وزير الخليفة نفسه، أبو الحسن علي ابن الفرات، يقرب النصارى وينادهمهم، وقد ذكر هلال الصابئ في «تاريخ الوزراء» أنه من جملة الذين كانوا يُدعون كلّ يوم إلى طعام ابن الفرات أربعة كتّاب نصارى هم: أبو بشر عبدالله ابن الفرخان، وأخوه أبو عمرو سعيد، وأبو الحسين سعيد بن إبراهيم التُسّري، وأبو منصور عبد الله بن جبير.

١. جون فيي، السريان النصارى في الدولة العبّاسية، ص ٢٧، ١٩٨٠، لوفان.

٢. المصدر السابق، ص ١٥.

٣. المصدر نفسه، ص ٧٢١.

وثمة قرارات أخرى اتخذها العباسيون في حق الكتّاب المسيحيين كمثّل ما جرى على يد الناصر لدين الله (١١٨٠-١٢٢٥) في مطلع خلافته إذ أبعّد النصارى عن الوظائف الرسمية بحجة أنهم يسرقون أموال المسلمين ويحرقونهم.

فمن أبعّد آنذاك ابن الأشقر الكاتب في ديوان الأرض<sup>١</sup>، ولم يثبت ابنه في وظيفة أبيه إلا لاعتناق الإسلام. كما أن أبا غالب بن زطينا أثر التحوّل إلى الإسلام حفاظاً على منصبه<sup>٢</sup>.

غير أن هذه المواقف المتشدّدة التي لم تخلّ منها العصور العباسية لا تشكّل أمراً يذكر إذا ما قورنت بما يقابلها من التساهل، وبالفترة الطويلة التي امتدّ خلالها حكم بني العباس (٧٥٠-١٢٥٨) أي طوال قرون خمسة.

وقد قلّد ديوان الجيش الإسلامي نفسه ثلاث مرات لكاتب نصراني في أثناء القرن الثالث الهجري، حتى وُجّه اللوم إلى الوزير أبي الحسن ابن الفرات لأنه بتقليده الديوان رجلاً مسيحياً «جعل أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمثلون أمره». وعرف عن أبي العلاء صاعد بن ثابت الكاتب النصراني أنه خلف الوزير المهلب سنة ٩٧٧.

وكان الكتّاب المسيحيون منتشرين انتشاراً واسعاً بحيث توجّب على كثيرٍ من طالبي الوزارة التودّد إليهم كما جرى للحسين بن القاسم.

### مكانة رجال الدواوين النصارى وتأثيرهم:

١- يتبيّن لنا من العرض التاريخي السابق أن الشرع الإسلامي يحرم من حيث المبدأ تولية المسيحي على المسلم، ولكن الواقع فرض على الدولة اللجوء إلى العديد من الكتّاب والوزراء النصارى. وقد أحصينا في بحثنا هذا وحده (٧٥) خمسة وسبعين وزيراً و(٣٠٠) ثلاثمائة كاتباً و(٣١) واحداً وثلاثين متنفّذاً آخر من مثل القائد وصاحب الشرطة

١. ابن الأشقر وابنه (أواخر القرن ١٢ - كاتبان) كان ابن الأشقر كاتباً بديوان الأرض إبان خلافة الناصر لدين الله (١١٨٠-١٢٢٥) ولكنه أبعّد عن الوظيفة على أثر قرار الخليفة بإقصاء الذميين عن الدواوين في ذي الحجة ٥٧٩ (آذار-نيسان ١١٨٤) واعتنق ابنه الإسلام وأخذ منصب والده بالذات. (فيبي، المصدر نفسه، ص ٢٥٢).

٢. ابن زطينا (أبو غالب) (٦٠١+ - ١٢٠٥ - كاتب) ورد ذكره في مرآة الزمان لابن الجوزي (٣٧٨:٨) حيث قيل إنه توفي سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، بعد أن أسلم. وكان قد أمر الخليفة أن لا يستخدم في الديوان يهودي ولا نصراني. فأنهى إليه أن ابن زطينا ليس له نظير في الكتابة. فكتب: «مات ابن زطينا، أيش نعمل؟ نبتل الديوان؟» فأسلم ابن زطينا يومئذ واستعمل. (فيبي، ص ٢٥٢).

والوالي والسفير وما شابه ذلك. ولا شك إننا رغم تحرياتها الواسعة لم نهد إلى كل ما ذكره المؤرخون، فضلاً عن أن المؤرخين أنفسهم لم يأتوا إلا على ذكر عدد محدود من أهل الدواوين النصراري حسب ما أمله عليهم ظروف تأليف كتبهم وأهدافها. ومما يسترعي الانتباه أنه كان ثمة عائلات امتهن أفرادها الكتابة فتوارثوها أباً عن جدٍّ مما يضمن لها الاستفادة من الخبرة المكتسبة في الأسرة، فضلاً عن الامتيازات الناتجة عنها.

فمن هذه البيوتات بنو البقري، وبنو زنبور، وبنو زطينا، وبنو سرجون، وبنو العسال، وبنو صماتي، وبنو الموصلايا، وبنو مكانس، وبنو الهيصم، وآل النشو، وأسرّة ابن العميد، والأخوة إبراهيم، وبشر وجبر أبناء هارون، وابنا باطا، وأيوب بن إبراهيم ابن الجنيد وأخوه سليمان، وابن الأشقر وولده، وعبدالرزاق الأرضي وابنه عبدالغني، وكاتب المناخ وابنه، وهبة الله ابن السيد ووالده، وآل الطيب، وغيرهم...

٢- أما الأسباب التي أوجبت الاستعانة بالنصارى في الدواوين فقد رأينا بعضها: خبرة المسيحيين في الإدارة البيزنطية، ومعرفتهم للغات من رومية وسريانية وفارسية وأرمنية إلى جانب العربية، مما سهّل لهم الإفادة من غنى الثقافات الأجنبية، ولنا عن إمامهم بالعلوم على أنواعها وتفوقهم على زملائهم المسلمين شهادة طريفة لأحد مؤلّفي القرن العاشر جاء فيها ما مفاده: قلما تجد مسلماً يتعاطى الكتابة إلا في طبرية، وما خلاها فكتاب الشام ومصر هم من النصراري لأن المسلمين يعولون عليهم لسلامة إنشائهم ولأنهم -يعني المسلمين- لا يولون العلم كبير شأن على عكس ما هو حال «الأعاجم» ويردف يقولون: «معظم الجهابذة والصيارفة والقصارين والدبّاعين هم يهود، أما الأطباء والكتّاب فهم في الغالب من النصراري»<sup>٢</sup>.

وإلى جانب علم المسيحيين وخبرتهم ثمة أسباب أخرى دفعت السلطات الإسلامية إلى استكثابهم واستوزارهم: كان من الصعب على الخليفة أو السلطان محاسبة أعيان موظفيهم

١. راجع ما قيل عن تنوّع مواهب عبدالغني بن عبدالرزاق في كتاب شيخو، ص ٢٥.

٢. المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ويستشهد نصرالله بتعليق للمستشرق أندريه ميكال على القسم الأول من كلام المقدسي يقول ما تعريبه: «هذا القطع مهم إذ يبيّن أن المسيحيين بعد أن كانوا آخر الممثلين الرسميين للثقافة اليونانية في الشام على عهد الأمويين أصبحوا فيما بعد أخلص ممثلي العروبة».

من المسلمين في حين محاسبة الذمي أسهل. فالمسلم قد يرى في تسمية الخزينة «بمال المسلمين» مبرراً للإفادة منها على أنها مباحة، فيما لا يتجاسر الذمي على مثل هذا العمل. والمسلم لا يتورع من التدخل في شؤون الحكم والطمع فيه على عكس الذمي وخاصة المسيحي الذي حُرِّم عليه كل اشتغال بسياسة الدولة الإسلامية.

روى ماري بن سليمان في تاريخه «بطارقة المشرق» ص ٨٤، ما يلي: «يقول عبيدالله بن سليمان (بن وهب) للخليفة المعتضد معتذراً: ما وليت نصرانياً سوى عمر بن يوسف للأنبار (...). واعتهدت عليهم لثقتهم لا ميلاً إليهم، ولكن لثقتي بهم. فقال المعتضد: إذا وجدت نصرانياً يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأن اليهود يتوقعون عون الملك إليهم، وأمن من المسلم لأنه بموافقتك لك في الدين يردم الاحتيال على منزلتك وموضعك، وأمن من المجوس لأن المملكة كانت فيهم. ووصاه بالإحسان إليهم وخرج مسروراً»<sup>١</sup>.

وعلى نحو ذلك ذكر أبو الحسن هلال الصابئ في «تاريخ الوزراء»<sup>٢</sup> أن الوزير علي بن عيسى قال لأبي الحسن ابن الفرات لما عُقد مجلس محاكمته بعد وزارته الثانية: «ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلاً نصرانياً وجعلت أنصار الدين وحماة البيعة يقبلون يده ويمثلون أمره؟»

فقال أبي الفرات: «ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته وقد كان الناصر لدين الله<sup>٣</sup> قلَّد الجيش إسرائيل النصراني كاتبه، وقلَّد المعتضد بالله مالك بن الوليد النصراني، كاتب بدر، ذلك».

فقال علي بن عيسى: «ما فعلاً صواباً».

قال: حسبي الإسوة بهما وإن أخطأ على زعمك، ولعمري أنك لا ترى أمانتهما ولا تعتقد طاعتهما، فلذلك لا تقتدي بأرائهما ولا ترتضي بأفعالهما، ومع هذا فما وجدت لي روحين، إذا مضى أحدهما بقي الآخر».

١. شيخو: الوزراء والكتاب، ص ٢٧.

٢. تاريخ الوزراء، ص ٩، طبعة أصيدروز، بيروت ١٩٠٤.

٣. وهو الوزير أبو محمد الحسن البازوري.

قال: «ما أردت بهذا القول؟».

قال: «وجدت العباس بن الحسن<sup>١</sup> قد قلد محمد بن داود ابن الجراح ديوان الجيش فطمع في الوزارة وسعى على العباس حتى قتله وخلع أمير المؤمنين أعزه الله وأجلس عبدالله بن المعتز، فخفت أن يتم علي وعلى الدولة ما تم منه»<sup>٢</sup>.

ومما شفع أخيراً في الركون إلى الكتاب المسيحيين أحاديث نبوية تبين أهمية دورهم في الدولة الإسلامية.

ففي أحدها ذكر: «وهم (الأقباط) أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم. قالوا: كيف يكونون أعواناً على ديننا يا رسول الله؟ قال: يكفونكم أعمال الدنيا وتفرغون للعبادة»<sup>٣</sup>.

٣- ولما كانت الدولة في كثير من الأحيان بحاجة إلى الموظفين النصارى يسّر لهم الحكام الوصول إلى المناصب، وإذا ما اعترض عائق شرعي ذلّوه بفتوى أو إرادة سلطانية ويروى في ذلك أن المأمون ولّى على مدينة بورة في مصر عاملاً مسيحياً، فكان إذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلّد بالسيف والمنطقة وركب برذونا وأصحابه بين يديه حتى إذا وافى المسجد وقف عند بابه ودخل خليفته المسلم يصلي بالناس ويخطب للخليفة ثم يخرج إليه<sup>٤</sup>.

وحكي عن الخليفة الفاطمي الحافظ أنه أراد أن يولّي بهرام الأرمني الوزارة عام ١١٣٤/٥٢٩ «فأخذ يستشير من يثق به في ذلك فلم يُشِرْ به أحد عليه، وقيل أولاً: هو نصراني فلا يرضاه المسلمون، والثاني: من شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المرزّة الحاجزة بينه وبين الناس والثالث: أن القضاة نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش (بدر الجمالي) ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية<sup>٥</sup> (...) فقال

١. وزير الخليفة المكتفي وقتل سنة ٩٠٨.

٢. تذكر هذه الحادثة بما قيل عن السلطان الأحمر عبد الحميد أنه لم يكن ليقبل الطعام مطبوخاً إلا بيد الراهبات. أطلب كتاب «حياة جرجي جبرائيل البيطار» بقلم مكسيموس شتوي، دير المخلص، صيدا، ١٩٣٧، ص ١١٧.

٣. متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٩٠، وهو يشير إلى أن هذا الحديث هو مما أدخله الأقباط منذ أول الأمر بين سائر الأحاديث.

٤. متز، الحضارة الإسلامية، (١: ٧٨).

٥. معنى البند الثالث أنه لا يمكن أن يكون قاضي القضاة - وهو بالضرورة مسلم - نائباً بالوظيفة لمن ليس بمسلم.

(الحافظ): إذا رضينا نحن فمن يخالفنا؟ وهو وزير السيف. وأما صعود المنبر فيستتيب عنه قاضي القضاة. وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك فاستوزره، والناس ينكرون عليه ذلك»<sup>١</sup>.

إلا أنه نادرًا ما قلّد النصارى وزارة التفويض -أو وزارة السيف- بل اقتصرت وزارتهم على التنفيذ والقلم<sup>٢</sup>.

٤- وكان الحكّام، إذا ما أرادوا تحاشي انتقاد الرعية لتوظيفهم النصارى، يسعون في دفعهم إلى اعتناق الإسلام. وقد رأينا أن كثيرين من الوزراء والكتّاب استجابوا للدعوة طمعًا بالحصول على منصب أو البقاء فيه، فحسن دينهم الجديد أحيانًا وساء في أغلب الأحيان. ولم يندر أن أُجبر البعض على الإسلام كما كان من أمر الفخر محمّد بن فضل الله. قاله عنه المقرئزي<sup>٣</sup> «كان في نصرانيته متأهلًا ثم أكره على الإسلام فامتنع وهمّ بقتل نفسه وتغيّب أيام، ثم أسلم، وحسن إسلامه وأبعد النصارى (...). ولم يخف على الكثيرين ما في هذه الاهتداءات المزعومة من زوغ وزور فأنشد أحد الشعراء متهكمًا:

أسلم الكافرون قهرا      وإذا ما خلّوا فهم مجرمونا  
سليموا من رواح مال وروح      فهم سالمونا لا مسلمونا

٥- ومهما يكن من أمر، فاستكتاب المسيحيين واستوزارهم أولى أصحاب المناصب منهم جاهًا أكيدًا ونفوذًا واسعًا.

مرّ بنا كيف كان الحسين بن القاسم يتودد إلى الكتّاب النصارى ليصل إلى الوزارة. ومما قيل في ذلك الأمر أيضًا أن الحسين، لما نال مبتغاه، قال للكاتب المسيحي إسطفان بن يعقوب: «إنني إذا تقلّدت الوزارة فأنت قلدتنيها»<sup>٤</sup>.

١. ابن الحسير، أخبار مصر، ص ٧٨-٧٩.

٢. للاطلاع على رسوم الوزراء في اللبس والمسكن والعمل اليومي والألقاب وسائر شؤون وظيفتهم. راجع متر- الحضارة الإسلامية (١: ١٤٤-١٥٦) حيث مختصر مفيد لما جاء بإسهاب في صحح الأعشى للقلقشندي.

٣. الخطط (٤: ١٠٩).

٤. ذكره المقرئزي في الخطط، (٤: ٤٠٤).

٥. الصابئ، تاريخ الوزراء، ص ١٤٠.



ومما عرف عن إسطفان هذا، أنه حصّل من جراء وظيفته مالا كثيرا بحيث ذكر في المرجع السابق أن رزقه ورزق زميله الكاتب المسيحي عبدالله بن جبير زادا أضعافا لما تقلّد صاحبهما أبو الحسن علي ابن الفرات الوزارة: «إن رزق ابن جبير لما كان يكتب وهو بين يدي ابن الفرات في مجلس من مجالس ديوان الخراج خمسة وعشرون دينارًا.

فلما تقلّد ابن الفرات الوزارة بلغ به مائة دينار. وإن رزق إسطفان بن يعقوب كان في أيام مؤنس وهو ينوب عن دانيال بن العباس عشرة دنانير، ثم بلغ أربعين دينارًا في وزارة ابن الفرات الثانية فظهر لهما من الحال ما قدر فيها ألف ألف دينار». ولم يكن إسطفان وعبدالله في الشراء إلا كمثل سواهم في الكتاب.

٦- إلا أن هذا المال الوافر وذاك النفوذ السافر قد يوليان الثقة المفرطة بالذات وأحيانًا حب التعاطف والتظاهر، فيسبّب ذلك ردّات فعل من قبل السلطان أو العامة وخيمة العواقب. من هذا أنه في سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٢م، عتّف عين الغزال الكاتب القبطي سمسارًا كان له معه مال وأمر غلمانه بأن يكتفوه ويسوقوه، فجعل الناس يتشفعون به فلم يأبه لهم. فتكاثروا عليه والقوّة عن جماره وتفاقت الأمور وثار القوم ونكّب النصارى من جراء ذلك<sup>١</sup>.

ومن هذا أيضًا ما رواه ماري بن سليمان<sup>٢</sup> أنه في سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، توفيت زوجة أبي نصر بن إسرائيل، كاتب الوزير الناصح، فاعتزّ بصاحبه وأخرجها نهارًا من داره ومعها الطبول والنوائح والرهبان والصلبان والشموع، فأنكر أحد المسلمين ذلك ورجم الجنازة، فضربه واحد من الغلمان واختلط الحابل بالنابل وثار المسلمون ونهبوا البيعة التي لجأ إليها المشيِّعون. والجدير بالذكر أن الناصح دافع عن كاتبه ولم يسلمه إلى الخليفة إلا مرغمًا ثم أفرج عنه بعد قليل.

٧- فمثل ردّات الفعل العنيفة هذه، تشير إلى أن ثمة حدودًا مفروضة على الوزراء والكتّاب المسيحيين، فما هم إلا ذميّون وعليهم أن لا يخرجوا عما رُسم لهم. مثال ذلك ما

١. شيخو، الوزراء والكتّاب، ص ٣٠.

٢. أخبار فطركة الشرق، ص ١١٥.

حدث لكتاب يدعى علي ابن الهيثم الملقب بجونقه، كان في خلافة المأمون، فإنه تجاسر يوماً وجلس إلى جانب «العرب» أي المسلمين. فانتهره زملاؤه الكتاب واضطر إلى العودة إلى جانب «النبط» أي المسيحيين. فسواء اقترف الكاتب النصراني ذنباً أو لم يقترف، يظل موسوماً «بخطية أصلية» هي كونه مسيحياً ناجحاً يثير في قلوب العامة والخاصة مزيجاً من العواطف: الإعجاب فالحسد، فالازدراء، فالحقد. كان العامة وبعض الخاصة يكبرون عند أهل الدواوين المسيحيين كفايتهم وأخلاقهم وثراءهم، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعانون من مركب نقص أمام هذا التفوق.

وخير برهان على ذلك، ما عبّر عنه لسان حالهم أبو عثمان الجاحظ في رسالتيه «الرد على النصارى واليهود» و«ذم أخلاق الكتاب» كما وفي كتاب «البخلاء»<sup>١</sup>.

ولنا برهان آخر عن هذه المشاعر في الكتيّب الذي ألّفه أبو عمرو عثمان النابلسي بعنوان «تجريد سيف الهمّة لاستخراج ما في ذمة أهل الذمة» حيث عدد مثالب الكتاب الأقباط ومعائبهم، يريد التشفي منهم والخط من قدر ما كانوا ليلغوه لولا رجحان كفة محاسنهم عن مساوئهم.

٨- وان كان حسد العامة للموظفين المسيحيين قد شكّل لهم بعض الإزعاج وبعض المصاعب أحياناً، فإن علاقتهم بالسلطان كانت لهم في غالب الأحيان مصدر أخطار جسيمة، ذلك بأن حاجة الدولة المستمرة إلى المال كانت تدفع الخلفاء إلى بذل المستحيل للحصول على ما ينقصها من نقود، فيحاسبون عملاءهم بمتتهى الشدة ويصادرونهم عن حق أو غير حق، والويل لمن ساءت إدارته: فإنه يُضرب بالمقارع ويعاني من الإهانات مرّها ويصلب أو يسمر على مرأى من الجمهور ويموت شرّ ميتة<sup>٢</sup>.

١. حيث الطبيب المسلم أسد بن جاني يشكو عدم ثقة الناس به لأنه ليس بنصراني واسمه أسد لا صليبا وكنيته أبو الحارث لا أبو عيسى.

٢. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك: راجع كتاب وزراء النصرانية وكتّابها في الإلام، للأب لويس شيخو، حققه وزاد عليه الأب كميل حشيمه، بيروت ١٩٨٧، ضمن سلسلة التراث العربي المسيحي، رقم ١١.

أضف إلى ذلك حبات الواشين والحساد الذين يسعون للنيل منهم، كما جرى للوزير المسيحي فهد بن إبراهيم بدسياسة من ابن العدّاس وابن النحوي في خلافة الحاكم بأمر الله، أو لأبي بشر النصراني وزير محمود بن نصر المرداسي على يد أبي الحسن ابن الثريا وكانت المخاطر تتهدهم أيضًا إذا ما تبدّل الحكم، ولا سيّما بشكل عنيف فينتقم المتويّ الجديد ممن سبقه ويطيح بأعوانه فلا يندر أن يؤخذ البريء بإثم لم يرتكبه على نحو ما أصاب قدامة بن زيد، وكان كاتبًا للقائد التركي إيتاخ في زمن المتوكّل. فلما قتل الخليفة إيتاخ سُجن قدامة وسواه من الكتّاب. ناهيك من تصرفات الخلفاء المزاجية كالتي اتصف بها بعض الحديدين منهم، أمثال المتوكّل، أو الغريبي الأطوار كالحاكم.

٩- تلك حال وزراء النصرانية وكتّابها في الدولة الإسلامية، هم أشبه بمن يقيم على كف عفريت، قد يناله السعد أو ينال منه النحس، أو هم كمن استوطن سفح بركان، فالأرض فيه خصيبة تبشّر بغلال وافرة لمن جدّ في عمله وأجاد، بيد ان الفوهة قد تطلق الحمم في ساعة لم يسبقها أخطار فيحلّ الأذى والخراب. وجودهم في الدولة الإسلامية كوجود قومهم في ديار الإسلام، إنه تحدّ مستمر للأقدار والذات. فنصيب الأقليات في كلّ وطن أن تعيش أخطارًا تحيق بها على أنواع: خطر الموت والزوال تحت الضغوط، خطر التوقع فالانغلاق على الذات والماضي، خطر التعالي إن هي ارتقت إلى رفيع المستويات مألًا وعلّمًا وأخلاقًا كما هي الحال عند أغلبية الأقليات.

١. وشى ابن عدّاس وابن النحوي بابن العلاء فهد الوزير إنه يتلف المال فأمر الحاكم مسعودًا السيفي بأن يمضي إلى فهد بن إبراهيم الوزير يستدعيه فإذا دخل بحجرته ضرب عنقه وأحضر رأسه. وأن يقبض على أبي غالب أخيه وكان شرييرًا مبعوضًا وإليه ديوان النفقات. فمضى ووجد فهدًا في الحمام فانتظره حتى يخرج ثم استركبه وشاعره أنه يراد بخير وانزعج أولاده وأهله وساءت ظنونهم فيه. ووصل مسعود إلى باب الرهومة وهو باب من أبواب القصر، فعُدل به إلى محبة العطب، فلما رأى فهد ذلك أحسّ بالهلاك فصاح واستغاث وبكى ولاذ بالفرار وبكى الناس لما شاهدوه من حاله وعرفوه من الأمر الذي يراد به... وأدخله مسعود إلى الحجر فأنقسم عليه فهد إن يراجع الحاكم في بابه وبذل ألف دينار (...). فقال له مسعود: لا سبيل إلى المراجعة بعدما أمرت به ف ضرب عنقه وأخذ رأسه وحمله إلى حضرة الحاكم. فلما شاهدته أمره أن يُخرج راس كلّ من يقتله من وجوه الدولة إلى قائد القواد. فلما رآه سقط مغشيًا عليه. وعاد مسعود ليقبض على أبي غالب أخيه فوجده قد هرب فأبلغ الحاكم ذلك فأمر بطلبه حتى ظفر به بعد شهر وغير حليته وخلق لحيته فالحقه بأخيه وأحضر أولاد فهد فخلع عليهم وكتب لهم سجلًا بفسادتهم وحماية دورهم وإزالة الاعتراض عنهم وعن أسبابهم...

٢. روى ابن العديم في «زبدة الحلب من أخبار حلب» في سنة ٤٦٤ هـ، تغرّرت أخلاق محمود (بن نصر بن صالح بن مردواس الذي تولى زمام الدولة المرداسية من سنة ٤٢٤ إلى ٤٦٥ (١٠٣٢-١٠٧٣) بعد رحيل السلطان ألب أرسلان السلطان السلجوقي الثاني (١٠٧٣)، وتكرّر لأحابيه وتغرّرت على وزيره أبي بشر النصراني وكان هو الذي ساعده بهاله حتى أملك حلب واستجلب العرب إليه. وكان سبب ذلك التبدّل أن أحد القواد واسمه أبو الحسن ابن الثريا حسد بشرًا وسعى به لدى محمود، وكان محمود قد غلب عليه حب المال والدنيا فطلب أبا بشر بهال جليل. ولما عجز عن ادائه أمر بقتل ولد له وبقتل أخيه. وتابع ابن الثريا دسيسته فانتهر فرصة اشغال محمود بالشراب فانتزع منه الأمر بقتل بشر. ولما مثل بشر أمام ابن الثريا قال له غير هاب: «يا قائد السوء قد علمت أن هذا كلّ من سعيك والأجل لا مرد له. موت الشهداء. لكن استعد لرجلك بحبل فستمتويتة الكلاب وتجرّ جيفتك إلى الخندق وهذا ما حصل.

إلا أن هذه الصعوبات التي تترىص بها قد تستحيل مراقبة إلى الأعلى والأحسن إذا ما صمدت في وجه الضغوط، فتكتسب قوّة ومراساً وإذا ما انفتحت على الآخرين، فتغتني وتغني، وإذا ما أبت أن تستكبر لعلمها ورقبها وغناها، فتوظّف هذه المواهب لصالح مجتمعتها ونموه. مناصب الأسيأتاحت للمسيحيين خدمة بلادهم خدمة حسنت على وجه الإجمال رغم بعض التعثرات، فعسى أن يتابع «كتاب» اليوم ووزراء اليوم» ما شرع به أسلافهم، ويرتفعوا به إلى أعلى الدرجات...

## قائمة بأهم الوزراء والكتاب

### ١- إبراهيم بن أيوب (القرن العاشر) كاتب

جاء في «صلة تاريخ الطبري»: في تاريخ سنة ٣١٦هـ على الوزير ابن مقلة محمّد بن علي: «وأجلس إبراهيم بن أيوب النصراني كاتب علي بن عيسى (الوزير السابق) بين يديه على رسمه وأقرّه على «ديوان الجهبذة»<sup>١</sup>.

وجاء ذكره في «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» لـهلال الصابئ فقال عنه: إنه كان كاتباً للوزير أبي الحسن ابن الفرات. وهو من أصحاب الدواوين في وزارة علي بن عيسى يُنفذه إلى الخاقاني<sup>٢</sup>...

وقال ابن مسكويه: إن المقندر في وزارة علي بن عيسى الكلوذاني قلّد العمّال ورّتب الدواوين واعتمد على إبراهيم بن أيوب في إثبات أمر المال بحضرته وفي موافقة صاحب بيت المال على ما يطلقه وينفقه في كلّ يوم، ومطالبة الروزنامجات في كلّ أسبوع لتعجّل معرفة ما حلّ وما قبض<sup>٣</sup>...

### ٢- إبراهيم بن بُنان (القرن التاسع) كاتب

قال ابن أبي أصيّعة: «لما استخلف المعتصم سنة ٢١٨هـ اختار لنفسه سلّمويه الطبيب وأكرمه اكراماً يفوق الوصف، وكان يرد إلى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات

١. صلة تاريخ الطبري، ص ١٣٥.

٢. هلال الصابئ، تحفة الأمراء، ص ١٣٦.

٣. ابن مسكويه، تاريخ، ص ٢٥٦.

وغيرها بخط سلمويه، ووليّ أخاه إبراهيم بن بُنان خازن بيوت الأموال في البلاد وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين، ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في التركة»<sup>١</sup>.

وقد ذكر ماري بن سليمان، سليمان وأخاه إبراهيم صاحب بيت المال... واختيارهم لإبراهيم أسقف المرج... «ولما اختار غيرهم مار آبا مطران جنديسابور أخبر سلمويه المعتصم بالخبر فكتب إلى الطاهري صاحب بغداد برّد مار آبا وإسيامية إبراهيم فاسيم»<sup>٢</sup>.

### ٣- إبراهيم بن عبدالرزاق (٨٠٨-١٤٠٦) كاتب

قال أبو المحاسن ابن تغري بردي: «إبراهيم بن عبدالرزاق، القاضي الأمير سعدالدين بن علم الدين بن شمس الدين الشهير بالغرّاب، أصله من أولاد الكتبة الأقباط بالإسكندرية، ثم اتصل بخدمة الأمير محمود بن علي الاستادار واختصّ به حتى صار عارفاً بجميع أحواله»<sup>٣</sup>. وُلِّي ذلك سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥ م، وعمره آن ذاك دون العشرين سنة...

ولما أهلك الملك الظاهر برقوق محمود أصار سعدالدين خصيصاً عند الملك الظاهر إلى أن توفي وتسلطن ابنه الملك الناصر فرج، فخلع عليه وقربه... وكان شاباً جميلاً كريماً جواداً ممدوحاً رئيساً نالته السعادة في مباشرته، وكان يميل إلى فعل الخير والصدقة، توفي ليلة ١٩ من شهر رمضان سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ م، ولم يبلغ الثلاثين سنة»<sup>٤</sup>.

### ٤- إبراهيم بن عدي (القرن العاشر) كاتب

هو الكاتب إبراهيم بن عيد بن حميد بن زكريا، شقيق المنطقي الشهير يحيى بن عدي. وقد تتلمذ إبراهيم هذا للفارابي وأضحى من المقربين الأتین إليه ودون له تصانيفه. ولم يكن على اتفاقٍ دائم مع أخيه يحيى في الآراء الفلسفية على ما جاء في القفطي<sup>٥</sup>. ومما ذكره صاحب

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ١: ١٦٤-١٦٥.

٢. ماري بن سليمان، تاريخ فطارة كرسي المشرق، ص ٧٧.

٣. أبو المحاسن ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص ٧٤٧.

٤. لويس شيخو، وزراء النصرانية وكتّابها، ص ٤٩.

٥. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٦٣.

«تاريخ الحكماء» أن يحيى ألف في ما ألف «مقالةً بينه وبين إبراهيم بن عدي الكاتب» بها يناقضه في أن الجسم جوهر وعرض<sup>١</sup>.

### ٥- إبراهيم بن قروينه (علم الدين) (١٣٦٩+) وزير

هو إبراهيم بن قروينه الملقب بالخليق، وهو أخو ماجد بن قروينه. تولى الوزارة في ذي القعدة ٧٦٩/١٣٦٨، ثم عُزل في ٨ ربيع الثاني عام ٧٧٠/١٣٦٩. وأعيد تعيينه في الوزارة في ٤ رمضان ٧٧٠/١٣٦٩، فاستقال في ١٨ محرّم ٧٧١/١٣٦٩ وتوفي في السنة نفسها<sup>٢</sup>.

### ٦- إبراهيم بن نوح الأنباري (القرن التاسع) كاتب

كان كاتباً لإبراهيم بن المهدي على ما ذكره الجهشيارى في مصنفه «كتاب الوزراء والكتاب» وأخبر ماري بن سليمان: أنه وكل إليه اختيار مرشحين لمنصب الجاثليق<sup>٣</sup>. وهو والد أبي نوح عيسى الأنباري كاتب الفتح بن خاقان، وحفيد أبي نوح عبدالمسيح الأنباري<sup>٤</sup>.

### ٧- إبراهيم بن هارون (القرن التاسع) كاتب

كان كاتب محمد بن عبدالله بن طاهر والي العراق أيام المتوكل. نهبت داره ودار أخيه الكاتب بشر بن هارون في بغداد عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م<sup>٥</sup>.

### ٨- إبراهيم بن يوحنا (القرن العاشر) كاتب جهيد

ورد في تاريخ الوزراء للصابيء، أن المحسن ابن الفرات أخذ منه خطأ بهال صادره به في أيام الراضي بمائة ألف دينار، وكان إبراهيم جهيد (محصل الضرائب) حامد بن العباس (الذي قتل وصوره بألف وثلاثمائة ألف دينار)<sup>٦</sup>.

١. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٦١.

٢. لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ٥٠.

٣. الجهشيري، الوزراء والكتاب، ص ٣١٢.

٤. ماري بن سليمان، فطارة المشرق، ص ٧٨.

٥. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني في المشرق ٤٥، (١٩٥١) ص ٤٤.

٦. الصابيء، تاريخ الوزراء، ص ٢٢٦.

## ٩- إبراهيم الوزير (+٧٨٩هـ/١٣٨٨م)

شمس الدين، كاتب أرنان، قال أبو المحاسن ابن تغري بردي: «إبراهيم الوزير شمس الدين المعروف بكاتب أرنان وزير الديار المصرية.

قال الشيخ تقي الدين المقرئ: كان أصله من نصارى مصر، وأظهر الإسلام، وخدم في دواوين الأمراء حتى تعلّق بخدمة الملك الظاهر برقوق وهو أمير، فولّاه نظر ديوانه ثم فوّض إليه الوزارة لما تسلطن، فنفّذ الأمور ومشّى الأحوال أحسن تمشية إلى إغاية مع وفور الحرمة ونفوذ الكلمة والتقلل في الملبس وسائر أسبابه...

توفي في ليلة الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م، بالقاهرة<sup>١</sup>.

## ١٠-١١ إينا باطا (القرن العاشر)

كانا كاتيين مسيحيين مسؤولين عن إدارة مدينة داقوق وكانا ظالمين يعنتان الناس، المسلمين منهم والنصارى.

فلما مرّ قائد الجيش البغدادي جبرائيل بن محمّد بالمدينة في طريقه لمحاربة البيزنطيين، شكّا الأهلون أمرهم إليه، فقبض على المستبدّين وأهلكهما. وكان ذلك في آذار-نيسان عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م.

## ١٢- ابن البشيري (سعدالدين إبراهيم بن بركة) (٧٦٦-٨١٨هـ/١٣٦٥-١٤١٥م)

قال ابن تغري بردي: «توفي الوزير صاحب سعدالدين إبراهيم بن بركة المعروف بابن البشيري بالقاهرة في يوم الأربعاء رابع عشر من صفر، ومولده في ليلة السبت سابع ذي القعدة سنة ٧٦٦ بالقاهرة».

وكان معروفاً من رؤساء الأقباط نُقل في عده وظائف إلى أن وُلّي الوزارة غير مرة ونظر الخاص<sup>٢</sup>.

١. لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ٥٢.

٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٤٥٠.

### ١٣- ابن حاجب قيصر (أوائل القرن ١٣)

كاتبٌ مسيحي، كان متنفِّذًا لدى الخليفة الناصر لدين الله العبَّاسي بحيث أن العالم أبا عبد الله محيي الدين أحمد ابن فضلان رفع عريضة إلى أمير المؤمنين يحتجُّ بها، في ما يحتجُّ، على تصرفات ابن حاجب قيصر الذي بدَّل بين الموظفين وأحلَّ المسيحي جبريل ابن زطينا مكان الفقيه المسلم مهرز.

وورد ذكره أيام الخليفة المستنصر بالله العبَّاسي (١٢٢٦-١٢٤٢) إذ استعمل نفوذه ليحلَّ المسيحي هبة الله ابن زطينا محل أبيه جبريل الذي أسلم فجُعل هبة الله كاتبًا للسكة سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٢م<sup>١</sup>.

### ١٤- منصور بن سرجون (أواخر القرن ٦ وأوائل القرن ٧)

كان كاتبًا مسيحيًا، قال يحيى الأنطاكي في تاريخه «الذيل» إنه كان عاملاً على الخراج، أي رئيسًا لديوان المال، وأواخر القرن السادس بدمشق في أيام الدولة البيزنطية. وإنه هو الذي سلَّم دمشق إلى خالد بن الوليد علم ٦٣٥م/ ١٤هـ، ويبدو أن تسليمه هذا لم يكن عن خيانة بقدر ما كان عن رغبة في التخلُّص من المستعمر البيزنطي، وكان من جراء ذلك أن نالت المدينة الأمان. ولما تولى يزيد بن أبي سفيان دمشق، ثبَّت منصور بن سرجون في سابق وظيفته وجعله من مواليه<sup>٢</sup>.

### ١٥- سرجون بن منصور (أواخر القرن السابع)

كاتبٌ مسيحي.

جاء في «العقد الفريد» من نبل بالكتابة سرجون بن منصور الرومي، كاتب معاوية ويزيد ابنه ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، إلى أن أمره عبد الملك بأمر فتواني فيه ورأى منه عبد الملك بعض التفريط فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: إن سرجون يدلُّ علينا بصناعته وأظن أنه رأى ضرورتنا إليه في حسابه، فما عندك من حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحوَّلت الحساب من الرومية إلى العربية. قال: إفعل. قال: إنظرنى أعاني ذلك. قال: لك نظرة ما شئت. فحوَّلت الديوان<sup>٣</sup>.

١. شيخو، وزراء النصرانية، ص ٦١-٦٢.

٢. دائرة المعارف، ٣: ١٦٦-١٦٧.

٣. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢: ٢١١.



## ١٦- منصور بن سرجون بن منصور (نحو ٦٥٥-٧٤٩م)

هو القديس يوحنا الدمشقي. كان كاتبًا للخلفاء الأمويين كما اتفق عليه المؤرخون مثل ابن النديم والمقرئزي وسواهما. ومما قاله ميخائيل السمعاني الأنطاكي في ترجمته ليوحنا الدمشقي إنه «بعد ذلك توفي منصور (يعني سرجون) وصار ابنه يوحنا كاتبًا لأمير البلد متقدمًا عنده، صاحب سرّه وجهره وأمره ونهيه» ثم أن منصور بن سرجون نُحِّلَ عن وظيفته كهلاً وترهب في دير القديس سابا بفلسطين<sup>١</sup>.

## ١٧- ابن الطرغال (٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م)

هو أبو نصر يوحنا، كاتب، ورد ذكره في تاريخ ماري بن سليمان قال: إنه كان كاتبًا من أهل دار الروم (حي من أحياء بغداد) وأن إيليا الجاثليق (١٠٢٨-١٠٤٩) أسامه في المدائن أسقفًا على القصر والنهروانات.

كان قديمًا يخدم أبا الحارث البساسيري أحد أصحاب الجيوش ببغداد ويلتجئ إليه. نصبه جاثليقًا رفيقه في الديوان أبو الحسن بن عبيد. وبعد سبع سنين وأشهر توفي سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م<sup>(٥١)</sup>.

## ١٨- ابن غسان (القرن العاشر)

كاتبٌ مسيحي. ذكره القفطي ودعاه أبا الحسن (ويروى الحسين) بن غسان الطبيب البصري<sup>٣</sup>.

وذكره ماري بن سليمان فكناه بأبي علي بن غسان، وروى هناك نصرانيته (كان نسطوريًا) وما أنفقه لبناء دير مار فثيون في بغداد عام ٣٤٣ هـ/ ٩٥٣ م، وقال إنه كان كاتبًا لركن الدولة بن بويه (ت ٩٧٦ م)<sup>٤</sup>.

١. ميخائيل سمعان الأنطاكي، سيرة القديس يوحنا الدمشقي، حريصا، ١٩١٢.

٢. ماري بن سليمان، فطاركة المشرق، ص ١١٨-١١٩.

٣. القفطي، تاريخ الأطباء، ص ٤٠٢.

٤. مارين بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٥٦.

## ١٩-٢٠ إِبْنُ الْفَرُّخَانَ (القرن العاشر)

هما أبو بشر عبدالله وأبو عمرو سعيد. ذكرهما الصابئ بقوله: أبا عمرو وسعيد، وأبا بشر عبدالله كعاملين أو كاتبين للوزير أبي الحسن علي ابن الفرات في وزارته الأخيرة. وذلك أيضًا أبا عمرو سعيد ابن الفرخان النصراني وأبا بشر عبدالله أخاه في جملة الذين كانوا يُدْعَوْنَ كلَّ يوم إلى طعام ابن الفرات، مع وصف الطعام وآداب المدعوين.

وذكر الصابئ قصَّةً جميلةً جدًا يُخبر فيها أبو عمرو سعيد ابن الفرخان: كيف استتر يوم توفيق ابن الفرات بعد وزارته الثانية، وكيف خلَّصه رجل مُزَيِّن وأكرمه ولم يقبل تعويضًا عن فعله ومروءته، وروى رأي أبي بشر عبدالله لابن الفرات ليمتنع عن تأدية ٢٠٠,٠٠٠ دينار للخليفة المقتدر<sup>١</sup>.

## ٢١- أبو علي الخازن (القرن العاشر)

جاء ذكره في تاريخ ماري بن سليمان. كان في أيام الخليفة المطيع ومعز الدولة بن بويه وروى نفوذه في انتخاب الجثالثقة. كان في خدمة معتز الدولة يطلب مشورة الجاثليق عمانوئيل. يموت قبل معتز الدولة بقليل وقد ذكره أيضًا في مكان آخر ودعا «ابن علي الخازن»<sup>٢</sup>.

## ٢٢- أبو غالب ابن الأصباغي (القرن الحادي عشر)

كاتبٌ مسيحي أسلم. قال عنه عماد الدين الأصفهاني في «فريدة القصر»: «هو تاج الرؤساء أبو غالب بن الأصباغي الكاتب. كتب بديوان النعمان في بعض الأيام المستظهيرية. وناب عن ديوان الذمام في أيام الخليفة المقتدي، وله تصنيف في علم الكتابة، وجماعة الحساب وكتاب العراق يكتبون الحساب في طريقته. وأسلم في صفر سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، قبل إسلام ابن موصلايا بيوم، حيث خرج التوقيع الشريف بغلزام أهل الذمة بالغيار، وكان من بركات ذلك إسلامهم». وهو أخو أبو طاهر بن الصباغي الكاتب<sup>٣</sup>.

١. الصابئ، تاريخ الوزراء، ص ١٦١، ٢٠٥، ٢٤٠، وأيضًا ص ٢٠٥-٢٠٧.

٢. ماري بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ١٨ و ٩٨ و ٩٩.

٣. دائرة المعارف ٥: ١٢، قنات، المسيحية والحضارة العربية، ص ١٤٠.

## ٢٣- أبو الفتح بن داود (القرن الثاني عشر)

كان كاتبًا نستوريًا في بغداد على عهد الخليفة المسترشد بالله (١١٨-١١٣٥م) حلّ البطريك برصوما الأول ضيفًا عليه لما جاء إلى بغداد ليسام جاثليقًا في أوائل آب ١١٣٤.

## ٢٤- أبو نصر بن إسرائيل (أواخر القرن ١٠ وأوائل القرن ١١)

كان كاتبًا للناصح (أبو طاهر محمد ابن البقية) تقلّد الوزارة سنة ٩٧٣ ولقب فيما بعد بنصر الدولة. بأيام الجاثليق يوحنا ابن نازوك (١٠١٢-١٠٢٠).

ورد في تاريخ ماري بن سليمان: أنه لما توفيت زوجته «اعتزّ بصاحبه وأخرجها نهارًا من داره يريد دار الروم والصلاة عليها، فثار المسلمون ورجعوا التابوت (...) ونهبوا وفتحوا البيع وهرب النصارى لهيجة سائر الأسواق (...) عرض عليه الإسلام فأبى<sup>٢</sup>.

## ٢٥- أبو نوح الأنباري (أواخر القرن ٨ وأوائل القرن ٩)

هو عبدالمسيح. ذكره أبو البركات في «مصباح الظلمة» بين مشاهير الكتبة، فقال: «مسائل وأجوبة في معاني الاعتقاد» لعبدالمسيح، يعرف بابن نوح.

كان كاتبًا لوالي الموصل في عهد طيمثاوس الجاثليق المعروف بالكبير، وهو يثني عليه برسائله سنة ٧٩٠ و٨٠٥. له كتاب فند فيه القرآن وردّ على المهرطقة<sup>٣</sup>.

وورد ذكره أيضًا في تاريخ ماري بن سليمان، فقال: إن أبا نوح الأنباري كان كاتبًا لأبي موسى بن مصعب والي الموصل (نحو السنة ٧٨٠م) يعضد الجاثليق طيمثاوس ليُنتخب بطرّكًا، ويسعى في تنصيب طيمثاوس جاثليقًا.

١. هذا ما رواه الأب جون فيه، أشور المسيحية، ص ٢٣٤، ولكنه لم يورد مصدره (شيخو، وزراء النصرانية، ص ١١٣).

٢. ماري بن سليمان، فطاركة المشرق، ص ١١٥. ابن العربي، تاريخ الدول الإسلامي في المشرق، ٤٥ (١٩٥١) ص ١٩٠-١٩١. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ١: ٨٨-٨٩.

٣. السمعاني، المكتبة الشرقية، ٣: ٨٢، ١٦٤، ٢١٢.

٤. ماري بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٧٢.

## ٢٦- عيسى أبو نوح الأنباري (القرن التاسع)

هو ابن إبراهيم بن نوح الأنباري كاتب إبراهيم بن المهدي. كان خدمة الفتح ابن خاقان في خلافة المتوكل (٨٤٧-٨٦١) مات مقتولاً هو وصاحبه أحمد بن إسرائيل في خلافة المعتز بعد أن ضربا بالمقارع ٥٠٠ ضربة، ويروى أن الجلّادين غاظهم ثباتأبي نوح على دينه فصاحوا به: «وتبقى على دينك يا نصراني»<sup>١</sup>.

## ٢٧- أثناسي بن جومية (أواخر القرن السابع)

يُعد آل جومية (جوميا) من أشهر الأسر الرهاوية السريانية دام ظللمهم بين ٦٨٥-٨٠٤م، وكان قطبها الأعلى الشيخ الرئيس أثناسي (أثناسيوس) الذي كتب سيرته المؤرّخين ميخائيل الكبير وابن العبري والرهاوي المجهول نقلًا عن تاريخ ديونيسيوس الأول التلمحري الذي نقل عن تواريخ جدّه لأمه دانيال بن شموئيل الطور عبدني وكان معاصرًا للمترجم<sup>٢</sup> على ما يأتي باختصار: كان أثناسيوس رجلًا حكيمًا ذو غيره على الإيمان، انتشر صيته في الأقطار حتى وصل الخليفة الأموي عبدالمك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) فاستقدمه إليه ولما عرف كفاءته جعله كاتبًا ومدبرًا لأخيه عبدالعزیز بن مروان عندما أقره على أمره مصر، وأطلق يده في تدبير الولاية فكان إليه توزيع الخراج وعهد إلى أولاده إدارة بلاد غوندا (كذا) وأظهر في الأمر وفاء وانصرف إلى أحسن سياسة فحمد أثره وكبر شأنه وأصاب ثروة طائلة، واقتنى أربعة آلاف عبد وقصورًا وقرى وبساتين ومالًا جمًّا من الذهب والفضة، فكان الأمير يجزل له الأموال والصّلات وكان مقطوعًا على كلّ جندي من الجيش المصري البالغ ثلاثين ألفًا أن يؤدي لأولاده دينارًا دينارًا سنويًا عند قبضه راتبه وذلك مدة عشرين سنة. وبعث ابنه الأكبر بطرس إلى الرها للنظر في أملاكه فيها فأنشأ له أربعمئة دكان وتسعة خانات وأمر فبني من داخلها بيعة فخمة باسم والده الإله وقيل إنه جدّها. وابتنى في مدينة الفسطاط بمصر هيكلين عظيمين، وبني بمصر عدة ديورة وكنائس.

١. الطبري، تاريخ ٣: ١٤٦٢، ٣: ١٧٠٦، ٧: ٦٠١، ٩: ٢٢٨...

٢. ميخائيل السرياني ٢: ٤٤٧-٤٤٩، ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، ص ١١٢-١١٣. تاريخ الرهاوي المجهول، ١: ٢٩٤-٢٩٥.

وحكى كاتب سيرة يوحنا الثالث بطريك الإسكندرية القبطي (٦٧٧-٦٨٦م) قال: «إن الخليفة مروان جعل لابنه عبدالعزيز أمير مصر كاتبين مؤمنين أرثوذكسي من خيار الناس على جميع كورة مصر ومربوط ولوية اسم أحدهما أثناسيوس الرهاوي وكان له ثلاثة أولاد. والآخر اسمه إسحق هو وولده من أهل شبراتني (من أقباط مصر) وكان أثناسيوس متولي الديوان وكان مراعياً آخر البيع»<sup>١</sup>.

فلما مات الأمير عبدالعزيز برح أثناسيوس وولده مصر وجاء دمشق من أهله وحاشيته وأمواله وكان سرجيس بن منصور الرومي الملكي المذهب (والديوحنا الدمشقي) كاتب الخليفة قد وشى به حسداً إلى الملك بقوله: «لقد جرف ابن جوميه كنوز مصر مستأثراً به لنفسه»، غير أنه لما دخل أثناسيوس على الخليفة قابله بطلاقة وجه وأنسه وقال له: «إننا لا نرضى أن يكون هذا المال كله لنصراني فأعطنا منه سهماً» ففعل الرجل مختاراً وأعطاه حتى اكتفى وفضل له شيء عظيم وافر جداً. أما كاتب سيرة البطريك يوحنا وخلفائه المذكور آنفاً فروى أن الخليفة قبض على المترجم وحاسبه وصادره على المال الذي كسبه بمصر بحجج تعلق فيها عليه؟ على أن رواية مؤرخي السريان أثبت وأصح وذلك واضح من ثراء هذا الرجل العظيم.

فلما عاد أثناسيوس إلى وطنه بنى بيتاً بديعاً للمعمودية المقدسة ووضع فيه صورة السيد المسيح التي أرسلها المخلص إلى أبجر الملك. وجعل له مجاري مياه مثلما صنع أموزينس الأسقف(?) في كنيسة الرها القديمة ودبجه بالذهب والفضة المطعمة بالنحاس. وقد روى ميخائيل الكبير في حولياته هذه الأخبار، ولعله اقتبسها من التلمحري.

## ٢٨- إسحق بن يحيى ابن شريح (٩١٣-٩٨٧م)

كاتبٌ مسيحي. ورد في «معجم الأدباء»: «إسحاق بن يحيى ابن شريح أبو الحسين النصراني، ذكره محمد بن إسحاق النديم وقال: كان جيد المعرفة بأمر الدواوين والخراج ومناظرة العمال، وله معرفة تامة بالنجوم، ومولده في شعبان سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، قال:

١. راجع تاريخ بطاركة الإسكندرية للأقباط نشره إيفيش في باريس سنة ١٩٠٤، ص ١٢ و٤٨، و٥٤.

وهو يحيى. قال: وله من الكتب «الخراج الكبير» في ألف ورقة، جزأه جزئين وجعله ستة منازل، كتاب «الخراج الذي في أيدي الناس» مائتا ورقة، كتاب «الخراج الصغير» نحو مائة ورقة، كتاب «جمل التاريخ».

وقال النديم: «ابن سريح، في زماننا، ويحيا إلى وقتنا، واسمه إسحاق بن يحيى بن سريح النصراني، ويكنى أبا الحسين، حسن المعرفة بأموار الدواوين ومناظرة العمال وصناعة الخراج، وله كتاب «الخراج الكبير» جزئين، كتاب «الخراج الصغير» وجعله منازل، كتاب «علم المؤامرات بالحضرة»، كتاب «تحويل سني الموالي» نحو مائة ورقة، كتاب «جمل التواريخ» جمعها<sup>١</sup>.

### ٢٩- إسحق الوكيل (القرن العاشر)

كاتبٌ مسيحي. كان من القيمين على بيت الخليفة في أيام المتقي (٩٤٠-٩٤٤) والمستكفي (٩٤٤-٩٤٦)<sup>٢</sup>.

### ٣٠- إسرائيل (أبو الفرج بن عيسى) (القرن العاشر)

كاتبٌ مسيحي، ذكره ابن مسكويه في تاريخ<sup>٣</sup> وقال: إنه كان كاتبًا للوزير أبي العباس الخصبي.

ذكر ماري بن سليمان، دخوله على الجاثليق يوم السليحين نحو السنة ٣٢٣هـ/ ٩٤٣م، ولعله هو إسرائيل النصراني صاحب الجيش.

ذكر ابن الحسن هلال الصابغ<sup>٤</sup> أن علي بن عيسى قال لأبي الحسن ابن الفرات، لما عُقد له مجلس محاكمته بعد وزارته الثانية: «ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلاً نصرانياً وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمثلون فقال ابن الفرات:

١. كحالة، معجم المؤلفين، ٢: ٢٣٩، دائرة المعارف ٣: ٢٦١.

٢. شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٢٩.

٣. ابن مسكويه، تاريخ، ص ٩٣.

٤. ماري بن سليمان، فطارة كرسي المشرق، ص ٩٣.

«ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته، وقد كان الناصر لدين الله (هو غير الناصر لدين الله الخليفة العباسي). هو الوزير أبو محمد الحسن البازوري) قلّد الجيش إسرائيل النصراني كاتبه، وقلّد المعتضد بالله ملك بن الوليد النصراني، كاتب بدر ذلك»<sup>١</sup>. فقال علي بن عيسى: «ما فعلا صوبا» قال: «حسبي الأسوة بهما وأن أخطأ على زعمك. ولعمري أنك لا ترى أمانتهما ولا تعتقد طاعتهما، فلذلك لا تقتدي بآرائهما ولا ترتضي بأفعالهما. ومع هذا فما وجدت في روحيين، إذا مضى أحدهما بقي الآخر». قال: «ما أردت بهذا القول؟» قال: «وجدت العباس بن الحسن قد قلّد محمد بن داود ابن الجراح ديوان الجيش فطمع في الوزارة وسعى على العباس حتى قتله وخلع أمير المؤمنين أعزّه الله وأجلس عبدالله بن المعتز فخفت أن يتم علي وعلى الدولة ما تم منه»<sup>٢</sup>.

### ٣١- إسطفان بن يعقوب (أوائل القرن العاشر)

ذكره أبو الحسن هلال الصابئ في «تاريخ الوزراء»<sup>٣</sup> قال إن ابن الفرات «أخذ من بيت المال القلعة ألف ألف دينار وأطلق منها لعبدالله بن جبير (ت ٩٢٤م) مائة ألف دينار، وإسطفان بن يعقوب كاتب بيت مال الخاصة وخليفة دانيال بن العباس كاتب مؤنس الخادم الملقب بالمظفر مائة ألف». قال: «إن رزق ابن جبير لما طان يكتب وهو بين يدي ابن الفرات في مجلس من مجالس ديوان الخراج خمسة وعشرين دينارًا. فلما تقلّد ابن الفرات الوزارة «بلغ به مائة دينار، وإن رزق يعقوب بن إسطفان (كذا) كان في أيام مؤنس وهو ينوب عن دانيال بن العباس عشرة دنانير. ثم بلغ أربعين دينارًا في وزارة ابن الفرات الثانية فظهر لهما من المال ما قدر فيها ألف ألف دينار».

وقال ابن مسكويه في تاريخه<sup>٤</sup>: «إسطفان بن يعقوب كاتب مؤنس، وله يقول الخطير الحسين بن القاسم الوزير: إنني إذا تقلّدت الوزارة فأنت قلديتها».

١. شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٣٠.

٢. وما جاء عن إسرائيل بن عيسى أنه كتب لليقطيني ولعله محمد بن علي اليقطيني المتوفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م.

٣. ابن مسكويه، تاريخ، ص ٣٥٢.

٤. لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٣٨.

### ٣٢- باسيل (٨٢٩م)

كان كاتبًا من مدينة «بَلَد» (تقع قرب الموصل) له مداخلات في الشؤون القضائية وتحصيل الضرائب. وكان يؤخذ عليه تكبره وصلفه وعدم اعتداله في معالجة الأمور. وكان يتعالى على المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء حتى أنه فرض الضرائب على المسلمين أنفسهم مما دفعهم إلى الثورة ورفع الشكاية إلى الخليفة، فانهزم باسيل واختبأ في دير عين قنايا قرب مسقط رأسه «بَلَد» وما عتم أن توفي سنة ٨٢٩م<sup>١</sup>.

### ٣٣- جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس (٢١٣هـ/٨٢٨م)

هو سليل آل بختيشوع الأطباء المشهورين. أدخله أبوه في خدمة جعفر البرمكي فأحبه حبه لنفسه وكان لا يصبر عنه ساعة. ولما قُتل جعفر جعله هارون الرشيد رئيسًا على جميع أطبائه وحظي جبرائيل لديه بنعمة وافرة وخدمه ٢٣ سنة. ومن بعد الرشيد خدم الأمين ابنه، وكان الأمين لا يشرب ولا يأكل إلّا بإذنه، وجعله كاتبه الخاص.

ومما يحكى عن نفاذ كلمته عند الخلفاء أنه توسط مراتٍ عدة لدى الرشيد لمؤازرة طيماثاوس البطريرك (٨٢٣م) في مشاكل اعترضته، فكان له فيها خير معين. واستطاع أيضًا أن يوقف أمرًا كان الخليفة أصدره عام (٨٠٧م)، بهدم كنائس الأديار المتاخمة لبلاد الروم، كما حمل على العدول عن قراره بفرض الزنار والثياب المميزة على الذميين<sup>٢</sup>.

### ٣٤- الحارث بن بختيشوع (القرن الحادي عشر)

هو أبو سعيد الحارث بن بختيشوع الخازن. كان كاتبًا رفيع المنزلة وإليه وُكِّل تشييد بيمارستان ميافرقين وجامعها سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م، وهو غير أبي سعيد عبيدالله بن جبرائيل بن بختيشوع الطبيب المشهور صاحب «الروضة الطيبة» الذي أقام بميافرقين وتوفي عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م<sup>٣</sup>.

١. لويس شيخو، وزارة النصرانية، ص ١٣٩.

٢. شيخو، علماء النصرانية، ص ١٢٢-١٢٤.

٣. شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٣٨.



### ٣٥- بشر بن عبدالله الأنباري (أوائل القرن العاشر)

هو أبو نصر. ورد ذكره في «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ومن قوله يؤخذ أنه كان كاتبًا لمفلح الخادم وصاحب الوزير حامد بن العباس وخليفته ومختصًا ببني الفرات<sup>١</sup>.

وقال عريب القرطبي في تاريخ سنة ٣١١هـ/٩٢٣م: «إن الأمر في عهد ابن الفرات كان كلّه إلى ملح الخادم الأسود وإلى كاتبه النصراني المعروف ببشر بن عبدالله بن بشر وكان محبوبًا»<sup>٢</sup>.

وقال أبو الحسن هلال الصابئ، انتشيت بين أبي القسم الحواري (الساعي في خلاص أبي الحسن ابن الفرات) وبين أبي نصر بشر بن عبدالله النصراني الأنباري كاتب مفلح الخادم مودة «وترددت مراسلة، ثم جمع بينهما أبو سهل نثر بن علي الطيب النصراني كاتب المحسن في دار بين القصرين على شاطئ دجلة»، فوعده المحسن «بثلاثة آلاف دينار وألف وخمسمائة دينار في كل يوم إذا أطلق أباه أبا الحسن».

واستوزره وسلّم إليه حامد بن العباس (...) وكتب بذلك رقعة سلّمها إلى بشر بن عبدالله كاتب مفلح»<sup>٣</sup>.

فبلغها مفلح مع زيدان القهرمانه إلى الخليفة المقتدر... فبعد أن رضي أبو الحسن بتلك الشروط إعادته المقتدر إلى الوزارة سنة ٣١١هـ/٩٢٣م<sup>٣</sup>.

### ٣٦- بشر بن هارون (متصف القرن التاسع)

هو أبو نصر. كان أيام الخليفة المستعين بالله (٨٦٢-٨٦٦)، وكان كاتبًا لمحمّد بن عبدالله الطاهري والي خراسان وطبرستان والري وسائر المشرق. وهو أخو جبر بن هارون، وإبراهيم بن هارون وكلاهما كان كاتبًا. وانتُهبت داره عام (٢٤٩/٨٦٣م). وهو غير بشر بن هارون بن جملا (ابن الجمال) والمتوفي عام ١٠٠٩.

١. هلال الصابئ، تحفة الأمراء، ص ٢٤٣.

٢. القرطبي، صلة تاريخ الطبري، ص ١١١-١١٢.

٣. هلال الصابئ، تاريخ الوزراء، ص ٢٤٣-٢٤٤.

وقد غلط (أخطأ) شيخو في كتابه «شعراء النصرانية بعد الإسلام» فجعل منهما شخصاً واحداً غير منتبه إلى تضارب التواريخ في النصوص التي أوردها، وعلى شيخو عوّل قنواتي فجاء كلامه مغلوطاً أيضاً<sup>١</sup>.

### ٣٧- بشر بن علي (أوائل القرن العاشر)

هو أبو نصر الكاتب المسيحي. ذكره ابن مسكويه في تاريخه<sup>٢</sup>: كما وذكره أبو الحسن هلال الصابئ وقال: إنه كان صاحب الوزير حامد بن العباس وخليفته<sup>٣</sup>...

وقال: «إن أبا نصر بشر بن علي خليفة حامد بيغداد ختم جميع الدواوين»<sup>٤</sup> يوم قبض المقتدر علي أبي الحسن ابن الفرات سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، وروى، أن بشر بن علي كاتب حامد كان صديقاً لأبي علي ابن هبنتي القنائي ولأخيه أبي يعقوب وأن المحسن بن أبي الحسن ابن الفرات لما صارت الوزارة للمرة الثالثة لابن الفرات (أبا الحسن علي بن محمد ابن الفرات) (ت ٩٢٤م) طلب بشرًا مستقصياً أمره «لكنه كان استتر وأخفى نفسه»<sup>٥</sup> ثم يخبر ابن هبنتي ما كاتب به بشرًا في حق المحسن وجواب بشر دون تحفظ، ثم كيف جرى التفتيش في بيت ابن هبنتي ونقل الأوراق في المحسن وفي جملتها رقعته إلى بشر... وكيف وقعت تلك الرقعة مصادفة في يد صهر ابن هبنتي فألقاها في الكنيف<sup>٦</sup>.

### ٣٨- بشر بن هارون ابن الجمال (١٠٠٩م)

هو أبو نصر الكاتب. وهو غير بشر بن هارون الذي مرّ ذكره. وهو بغدادى عاش في أواخر القرن العاشر وكان من كتّاب الدولة أيام الخليفة المطيع (٩٤٦-٩٧٤م) والخليفة الطائع لله (٩٧٤-٩٩١م) والخليفة القادر بالله (٩٩١-١٠٣١م). ومما عُرف به شعره

١. شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٤٢. شيخو، شعراء النصرانية، ص ٢٦٢-٢٦٣.

٢. ابن مسكويه، تاريخ، ص ١٢٧.

٣. هلال الصابئ، تاريخ الوزراء، ص ٢٤٣.

٤. هلال الصابئ، تاريخ الوزراء، ص ٣٣.

٥. هلال الصابئ، تاريخ الوزراء، ص ١٥٩-١٦١.

٦. شيخو، وزارة النصرانية، ص ١٤٢.

اللاذع، كان يرشق به الرؤساء والوزراء. فقد روى له التنوخي أبياتاً هجا بها سنة (٩٧٠م)،  
أبا الفضل العباسي بن الحسين الشيرازي، فانتقم العباس لما أعيد إلى الوزارة بعد غيابه عنها  
فترة وفرض على أهل الذمة وكنائسهم ضريبة خاصة وهجا بشر سابور بن ازدشير وزير  
شرف الدولة بن عضد الدولة بن بويه (٢٤٧هـ/ ١٠٢٥م) فقال فيه:

سابور ويحك ما أخسك ما أخصك بالعيوبِ  
وأكد وجهك بالشناة للعيون وللقلوبِ  
وجه قبيح في التبسم كيف يحسن في القلوبِ

وهجا أيضاً محمد المهلبى الوزير وإبراهيم الصابئ، وأبا رفاعة بن كامل أحد إخوان  
قاضي بغداد للسواد<sup>١</sup>.

### ٣٩- بطرس (أواخر القرن السابع)

وإلى مسيحي. كان والياً للصيد في أيام عبدالعزیز بن مروان الأموي حاكم مصر  
(ت ٧٠٤م) وقد اضطر إلى اعتناق الإسلام لما اضطهد عبدالعزیز هذا المسيحيين. ذكر الخبر  
ساويروس بن المقفع في كتابه «سير البيعة»<sup>٢</sup>.

### ٤٠- بنان بن بنان (القرن العاشر)

أبو الفضل، كاتب مسيحي. كان كاتباً للوزير عبدالله بن محمد الخاقاني، كما يؤخذ من  
كتاب «تحفة الأمراء» ويدعى هناك أبا الفضل بنان بن بنان<sup>٣</sup>.

وجاء في تاريخ عريب القرطبي في تاريخ سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م، أنه «لما ضعف أمر  
الخاقاني واعتل ولزم بيته، تولى أعماله ونظره عبيدالله بن محمد الكلوداني صاحب ديوان  
السواد. وبنان النصراني كاتبه، ومالك بن الوليد النصراني وكان إليه ديوان الدار، وابن القنائي  
النصراني (...). وأخوه ابن شروكان أوكل إليه ديوان الخاصة وبيت المال، وابن سعد حاجباه»<sup>٤</sup>.

١. شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، ص ٢٦٢-٢٦٣ و٢٩١.

٢. ساويرس بن المقفع، سير البيعة، ص ١٤٣.

٣. هلال الصابئ، تحفة الأمراء، ص ٢٦٥ و٢٧٨.

٤. عريب القرطبي، تاريخ، ص ١٢٥.

وقال هلال الصابئ إنه بعد صرف الخاقاني وجد له أبو الحسن علي بن عيسى الوزير توقيعات بخطه مع توقيعات أخرى لكتاب آخرين<sup>١</sup>.

وذكر ابن ماسويه كأحد عمال أبي الخاقاني الوزير وأنه قبض عليه مع الوزير سنة ٣٠٠هـ<sup>٢</sup>.

#### ٤١- ثاوفيلا الرهاوي (أواخر القرن الثامن)

قهرمانٌ مسيحي، ذكره ماري بن سليمان، وذكر شفاعته لدى هارون الرشيد لإطلاق سراح عون الجوهرري، ودعاه ثمة بالقهرمان<sup>٣</sup>. وهو غير سميّه ومعاصره ثوفيل بن توما الرهاوي المنجم الماروني، رئيس منجمي المهدي، والمتوفي عشرين يومًا قبل المهدي في ٢ محرم سنة ١٦٩هـ/ ١٦ تموز ٧٨٥م، أما ثاوفيلا فقد عاش إلى ما بعد هذا التاريخ إذ خدم الرشيد الذي تقلّد الخلافة سنة ٧٨٦م.

#### ٤٢- توما بزازا (أواخر القرن ١٠ وأوائل القرن ١١)

كان من الكتاب في عهد الخليفة العباسي القادر بالله (٩٩١-١٠٣١م). وروى ميخائيل الكبير أنه لما قدم مطران (مفريان) تكريت «اليعقوبي» إغناطيوس برقيقي إلى بغداد سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، أحسن الجميع وفادته بمن فيهم المسلمون والنساطرة، والفضل في ذلك يعود إلى الكاتب «لدى الملك» توما بزازا ابن بطرس برقيقي ونسيب المطران المذكور<sup>٤</sup>.

#### ٤٣- الحسن بن خليل بن المبارك بن محضار (١٢٠٣م)

أبو سعيد الكاتب، من ماردين برع في العلوم ثم تنسك. ولما ملك زميله في الدراسة قطب الدين الغازي الثاني على ديار بكر عام (١١٧٦م) ألح عليه فدخل في خدمته. ودعاه بعد ذلك يروق شاه بن قلع أرسلان ليكون وزيره فاعتذر عن القبول.

١. هلال الصابئ، تحفة الأمراء، ص ٢٧٨.

٢. ابن مسكويه، تاريخ، ص ٨٦ و ٩٠.

٣. ماري بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٧٥.

٤. لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٣.

ويبدو أنه رحل إلى بغداد بعد وفاة صاحبه قطب الدين في سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، ونزل عند البطيريك إيليا الثالث أبي حليم (١١٩٠م). ثم عاد إلى مسقط رأسه ماردين حيث توفي سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م<sup>١</sup>.

#### ٤٤- الحسن بن بشر الراعي (أواخر القرن العاشر)

كاتبٌ نصراني، ورد ذكره في كتاب «تاريخ منتخب الزمان» لدى الكلام عن بني بويه، أن محمد بن بقية كان اصطنع رجلاً يقال له الحسن بن بشر الراعي، وكان في الأصل نصرانياً من راس العين يصحب بني حمدان بالموصل، فدخل في الإسلام لشيء ظهر منه وخاف فأسلم، ثم خاف خوفاً ثانياً فهرب إلى بغداد واتصل بمحمد بن بقية وحظي عنده وقرب منه ورفع من حال إلى حال حتى قلده واسطاً، ثم استدعاه إلى بغداد فقلده خلافته (...)<sup>٢</sup>.

#### ٤٥- الحسن بن عمر (٩٠٣م)

ذكره ماري بن سليمان وقال عنه إنه كان كاتباً للخليفة المكتفي (٩٠٢-٩٠٨م) نحو السنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م، وأنه في تنصيب الجاثليق كان مائلاً إلى يوانيس أسقف الموصل فاختره<sup>٣</sup>.

وجاء عنه أيضاً: الحسن بن عمرو (كذا) كاتب المكتفي الخليفة العباسي، وناظر الأموال، كان نصرانياً، وهناك أبيات شعرية في هجائه منها.

حسين بن عمرو عدو القرآن	يصنع في العرب ما يصنع
يقوم لهيبته المسلمون	صفوفاً لفرْد إذا يطلع
فإن قيل قد أقبل الجاثليق	تحقّى له ومشى يطلع

١. لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٨.

٢. شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٨.

٣. ماري بن سليمان، فطاركة كرمي المشرق، ص ٨٣.

## ٤٦- الحسن بن مخلد (٨٨٢م)

وزير مسيحي.

هو الحسن بن مخلد بن الجراح. كان نصرانياً فأسلم. وُلِّي ديوان الضياع عام ٢٤٣هـ/٨٥٧م، في خلافة المتوكل، واستوزره الخليفة المعتمد عام ٢٦٣هـ/٨٧٧م، ثم مرة ثانية عام ٢٦٤هـ/٨٧٨م، وعُزل من منصبه بعد تدخل أخي المعتمد وولي عهده محمد الموفق فنفي على ما يبدو إلى مصر حيث لقي حظوة عند ابن طولون. ثم رحل إلى أنطاكيا حيث توفي حوالي ٢٦٩هـ/٨٨٢م، في ظروف غامضة<sup>١</sup>.

## ٤٧- الحسن بن وهب (القرن السابع)

كان من الكتّاب السريان في خلافة يزيد بن معاوية. ولما توفي خلفه ابنه قيس بن الحسن<sup>٢</sup>.

## ٤٨- صاعد بن هبة الله بن توما (٦٢٠هـ/١٢٢٣م)

هو أبو الكرم صاعد بن توما النصراني الطيب البغدادي، وبلقب بأمين الدولة. حظي عند الخليفة الناصر بالله العباسي (١١٨٠-١٢٢٥)، فصار لديه بمنزلة الوزراء واستوثقه على حفظ أمواله وخواصه «وكان حسن الوساطة، فُضيت على يده حاجات واستُكشفت بواسطته شرور، ولم ير له غير شاكر»<sup>٣</sup>.

قُتِل في جمادى الأولى سنة ٦٢٠هـ بإغراء الخادم تاج الدين رشيق وامرأة من النساء البغداديات تُعرف بالست نسيم كان الخليفة قَرَّبها وجعلها بين يديه تكتب الأجوبة، والرقاع لشبه خطها بخطه، وكان صاعد قد انتبه إلى تلاعب نسيم ورشيق بأمر الدولة وكشف أمرهما إلى الوزير المؤيد القبي<sup>٤</sup>.

١. شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٩.

٢. شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٩.

٣. ابن الفظي، ص ٢١٢-٢١٤.

٤. دائرة المعارف ٣٨٨:٢، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ٢: ١١٥-١١٦.

## ٤٩- صاعد بن مخلد (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)

هو أبو العلاء، وزير مسيحي، قال الصفدي: «صاعد بن مخلد أبو العلاء الكاتب النصراني، أسلم وكتب للموفق محمد بن جعفر المتوكل، وولي الوزارة لأخيه أحمد المعتمد، وما زال كثير الصدقة وله خط من الليل (?) وكان صفرًا (ذا) من الأدب وسمي ذو الوزارتين (...). وكان من أحسن من أسلم دينًا (...). وكان صاعد ينفرد فيصلي ويكي وغلمانه يظنون أنه مشغول بعمله وكان لا يركب كل يوم ولا يبدأ العمل حتى يتدئ بإخراج صدقاته على أوفر ما يقدر عليه. وقبض عليه الموفق من ضياعه وضياع ولده ألف ألف دينار (...). وما زال في حبسه مكرّمًا يدخل إليه من يريد (...). توفي صاعد سنة ٢٧٦ هـ، بوجع عرض له في حلقة»<sup>١</sup>.

قال الأربلي: «صاعد بن مخلد وزير المعتمد على الله، كان نصرانيًا فأسلم»<sup>٢</sup>.

وقال الحصري: «صاعد بن مخلد صار وزيرًا للموفق محمد بن المتوكل وكان أخوه المعتمد الخليفة والأمر والنهي للموفق»<sup>٣</sup>.

وجاء في تاريخ ابن مسكويه: «إن رسولين من قبل ملك الروم أتيا إلى بغداد مع هدايا على طريق الفرات، فأنزلها الوزير أبو الحسن بن الفرات في دار صاع بن مخلد سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م»<sup>٤</sup>.

## ٥٠- الفضل بن مروان (٣٥٠ هـ / ٨٦٢ م)

هو أبو العباس الفضل بن مروان بن ماسرجس وزير الخليفة المعتصم، وهو الذي أخذ له البيعة (...). واعتد له المعتصم بها يدًا عنده وفوض إليه الوزارة يوم دخوله بغداد مستهل رمضان سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م، وخلع عليه وردّ أموره كلّها إليه، فغلب عليه بطول خدمته وتربيته إياه واستقلّ بالأمور. وكذلك كان في أواخر ولاية

١. الصفدي، الوافي بالوفيات.

٢. الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، طبعة بيروت ١٨٨٥.

٣. الحصري، تاريخ، ص ٢٨٩.

٤. الزركلي، الإعلام، ٣: ١٨٧. المسعودي، مروج الذهب، ٨: ١٢٢-١٢٣.

المأمون، فإنه غلب عليه كثيرًا. وكان نصراني الأصل، قليل المعرفة بالعلم، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء.

وله ديوان رسائل وكتّاب «المشاهدات والأخبار» التي شاهدها (...) ثم أن الخليفة المعتصم تغير عليه سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، فقبض عليه وحبسه خمسة أشهر وأخذه من داره مما نكبه ألف ألف دينار وأخذ آنية وأثاثًا بألف ألف دينار.

ثم خدم بعد ذلك جماعة من الخلفاء، ثم توفي في ربيع الآخر سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٢م، (في أيام الخليفة المستعين)<sup>١</sup>.

قال فيه ابن النديم: «الفضل بن مروان بن ماسرجس (كذا) النصراني ونرجع أن ماسرجس من قرية بسلى من طسوج نهر بوق (قرب بغداد) عمر ٩٣ سنة وخدم المأمون والمعتصم وورّر له وخدم من بعدهما من الخلفاء، وكان قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الخلفاء.

وله من الكتب كتاب «المشاهدات والأخبار» التي شاهدها ورآها، وكتاب رسائله<sup>٢</sup>.

وقد روى ابن خلكان وابن الطقطقي أبياتًا للهيثم بن فراس قالها في الفضل<sup>٣</sup>:

تَفَرَعَنْتَ يَا فَضْلُ بِنَ مَرْوَانَ فَاعْتَبِرْ  
فَقَبْلَكَ كَانَ الْفَضْلُ وَالْفَضْلُ وَالْفَضْلُ  
ثَلَاثُو أَمْلَاكٍ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ  
أَبَادَتْهُمْ الْأَقْيَادُ وَالْحَبْسُ وَالْقَتْلُ  
وَأَنْكَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي النَّاسِ ظَالِمًا  
سِتْوَدِي كَمَا أَوْدَى الثَّلَاثَةَ مِنْ قَبْلُ

١. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١: ٥٢٤.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٧.

٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١: ٥٢٤.

٤. الفضل البرمكي، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل.



بهذا القدر نكتفي من ذكر الكتاب والوزراء. ويجدر بنا القول إن دليلنا في هذا العمل تحقيق قام به مؤخرًا الأب كميل حشيمه اليسوعي لكتاب في صميم الموضوع كان قد ابتدأ بتجميع مادته وتصنيفه العلامة الأب لويس شيخو اليسوعي (١٨٥٩-١٩٢٧) بعنوان (وزراء النصرانية وكتّابها في الإسلام ٦٢٢-١٥١٧م) وزاد عليه ونشره في سلسلة التراث العربي المسيحي برقم ١١ لسنة ١٩٨٧م.

وكان الأب كميل حشيمة قد حقق ونشر سنة ١٩٨٣، برقم ٥ من السلسلة عينها: كتابًا للأب لويس شيخو بعنوان (علماء النصرانية في الإسلام ٦٢٢-١٣٠٠م).

ومجمل ما قلناه، إن التأخي والتعاون كانا في أساس التعايش المسيحي الإسلامي عبر قرون عديدة، وإيماننا إنهم مدعوون جميعًا إلى مزيد من تلاحم وتكاتف لأن الأصول البعيدة واحدة والجدور العميقة مشتركة، والهدف سام، والمسيرة وحدة وانسجام وخير وعمران.

ك  
ل

و  
ع

\*\*\*\*\* الفصل الرابع \*\*\*\*\*

الطبّ والترجمة في العهد الأموي

ل

إهتمّ المسيحيّون بالطبّ فنقلوه عن اليونان إلى السريانية<sup>١</sup>، ودرّسوه في مدارسهم واعتبروه علمًا عظيمًا الفائدة، لأنه يجيي النفس<sup>٢</sup>. وزاد اهتمامهم بالطبّ في العصر الأموي لعناية الخلفاء الأمويين بالعلوم وترجمة كتب الطبّ والنجوم والصنعة.

ويقال إن أول ترجمة لكتب الطبّ إلى العربية، بدأت في عهد مروان بن الحكم (٦٢) - ٦٥هـ) على يد الطبيب السرياني البصري ماسرجويه، بترجمة الموسوعة الطبيّة لأهرون القس ابن أعين، ترجمها من السريانية إلى العربية، وهي عبارة عن كُنّاش<sup>٣</sup>، أو مجموعة طبيّة تقع في ثلاثين مقالة، وقد زاد عليها مقالتين<sup>٤</sup>. وقد وجد الخليفة عمر بن عبدالعزيز هذه الترجمة في خزانة الكتب، فأمر بإخراجها إلى المسلمين للانتفاع منها<sup>٥</sup>.

والظاهر أن أهرون هذا، كان ذا شهرة كبيرة في الطبّ، وفيه يقول الشاعر:

لا تُدْنِ فاك من الأمير ونحّه حتى يداوي ما بأنفك أهرون<sup>٦</sup>.

أما ماسرجويه فلم تقتصر جهوده العلمية على الترجمة، فقد كتب مؤلفات طبيّة منها: كتاب قوى الأطمعة ومضارها، وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها<sup>٧</sup>، وله كتاب آخر اسمه: طبائع جميع الألبان وشربها للدواء، فلمّا فرغ من هذه الصفة، قال: «وصفت لك حال

١. للتفصيل راجع كتابنا «لمحات من تاريخ نصارى العراق» بغداد، ١٩٨٢.

٢. ابن العبري، الإيقون، ص ٢٨٩.

٣. الكُنّاش: لفظة سريانية يراد بها مجموعة طبيّة وأوصاف الأدوية المتخذة عمومًا، شيخو، النصرانية وآدابها، قسم ٢، ج ٢، ص ٣٧٦.

٤. الففطي، ص ٥٧. ابن جلجل، ص ٦١. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٧. وأيضًا نوفل نعمة الله، كتاب صناعة الطرب في تقدمات العرب، ص ٤٢٩.

٥. ابن جلجل، ص ٦١. ويذكر ابن جلجل في كتابه أنه سرياني اللغة يهودي المذهب وهو غير صحيح، لأن السريان يعني المسيحي (سورايا أو سورايا).

٦. ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج ٤، ط ١، (١٩٣٠) ص ٦٢.

٧. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٧.

الألبان في أنفسها ولكن أنظر إلى من يسقيك اللبن فإنك بدءًا تحتاج إلى تنظيف جوفك، وتحتاج إلى من يعرف مقدار علّتك من قدر اللبن وجنس علّتك من جنس اللبن<sup>١</sup>، وله اطلاع في أمراض العيون<sup>٢</sup>، وأمراض الأنف والحنجرة<sup>٣</sup>.

وفي عصر الحجّاج بن يوسف الثقفي، لمع نجم طبيين مسيحيين مشهورين هما: تياذوق وثاودون.

## الطبيب تياذوق:

تياذوق<sup>٤</sup>، وقد صحف باسمه في بعض المصادر، فبعضها تسمّيه تياذوق<sup>٥</sup>، وبعضها تسمّيه ثيودوكس<sup>٦</sup>، والبعض الآخر يسمّيه يتاذوق<sup>٧</sup>، ومنهم من يسمّيه صادوق<sup>٨</sup>، إلا أن التسمية الأولى هي الشائعة عند الكتّاب المسيحيين كابن العبري مثلاً.

صحب تياذوق الحجّاج وخدمه في صناعة الطبّ، وقد كان الحجّاج يعتمد عليه ويثق بمداواته<sup>٩</sup>، وذاع صيته في الدولة الأمويّة<sup>١٠</sup>، إذ كان يوصف بالحاذق<sup>١١</sup>، وهو فارسي الأصل على رأي ابن النديم<sup>١٢</sup>. ولكن المصادر المسيحيّة لا تشير إلى ذلك. في حين أن مصادر

١. الجاحظ، كتاب الحيوان، ط ١، مصر ١٩٣٨، ج ٢، ص ٢٧٥.

٢. الجاحظ، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٣.

٣. الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ط ١، ١٩٤٨، ص ٢١٨.

٤. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ط ٢، ص ١١٣. القفطي، ص ٧٤، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٣٢. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ط ١، ١٩٣٠، ج ٣، ص ٢٧٠.

٥. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٠٣.

٦. نوفل، صناعة الطرب، ص ٤٢٩.

٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٨٠.

٨. ابن العباد، شذرات الذهب في أخبار العرب، القاهرة ١٣٥٠ هـ، ج ١، ص ١١٠.

٩. ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٣٢.

١٠. القفطي، ص ٧٤.

١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٨٠.

١٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٠٣.

أخرى تذكر أنه رومي الأصل<sup>١</sup>. وهذا ما نرجّحه وهو الصواب من لفظة اسمه، وأنه كان يتكلّم اليونانية<sup>٢</sup>، ويمسّن السريانية، ويعرف العربية، ولا يهمنّا من أموره الشخصية شيء، إنما الذي يهمنّا، أن جميع المصادر تُجمع على أنه مسيحي دخل في خدمة الحجاج بن يوسف الثقفي وعمر بن عبدالعزيز طويلاً، ومات في حدود سنة ٩٠هـ في واسط<sup>٣</sup>.

ولتياذوق نصائح طبيّة، منها التي وجّهها إلى الحجاج بقوله:

- «... لا تأكل من اللحم إلّا فتياً، ولا تشرب الدواء إلّا من علّة، ولا تأكل فاكهة إلّا في وقت نضجها، وأجد مضغ الطعام...».

- ونصح الحجاج أن ينام إذا تناول الطعام نهاراً، وأن يتمشى خمسين خطوة على الأقل إذا تناوله ليلاً.

- وقال له: «لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام، ولا تأكل ما تضعف أسنانك عن مضغه فتضعف معدتك عن هضمه، ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين. فإن أصل الداء التخمّة، وأصل التخمّة الماء على الطعام. وعليك بدخول الحّمّام في كلّ يوم مرّة واحدة، فإنه يخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء، وعليك في كلّ فصل قيّثه ومسهّله، ولا تحبس البول وإن كنت راكباً، واعرض نفسك على الخلاء قبل نومك، ولا تكثر الجماع فإنه يقتبس من نار الحياة، ولا تجامع العجوز، فإنه يورث الموت فجأة<sup>٤</sup>، وإن اللحم على اللحم مقتل السباع في البرية<sup>٥</sup>، ولا تذق طعاماً وفي معدتك طعام، واتق ما تخرجه النعجة والنحلة<sup>٦</sup>».

١. نوفل، صنّاعة الطرب، ص ٤٢٩.

٢. براون ادوار، الطب العربي، ص ١٦.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٨٠.

٤. ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٣٢. عيون الأخبار، ج ٣، ص ٢٧٠.

٥. ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٣٣-٣٤. وينسب ابن عبد ربّه بعضها إلى الطبيب المسيحي الآخر والذي دخل أيضاً في خدمة الحجاج وهو الباذون. (أنظر العقد الفريد ٦: ٣٠٦. البيهقي، المحاسن والمساوي، ص ٢٩٤).

٦. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ط ١، ١٩٣٠، ج ٣، ص ٢٧٦.

٧. البيهقي، المحاسن والمساوي، ص ٢٩٤.

وكان يؤمن بالطبّ بأنه لا يملك حياته أو حياة الآخرين فهناك أشياء لا يستطيع الموت وما يرد من الخارج، كالحر والبرد والوقوع والغرق والجراح والغم وما أشبه ذلك<sup>١</sup>.

وفي رأيه أن أربعة أمور تهدم العمر وهي: «دخول الحَمَام على البطنة، والمجامعة على امتلاء وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق»<sup>٢</sup>.

ومن الطرق التي كان يعالج بها تياذوق الصداع هو غسل الرجلين بالماء الحار ودهنها. وقد طبّق هذه الطريقة على الحجاج فسخر منه أحد خدم الحجاج وكان خصياً قائلاً: «شكا الأمير الصداع في رأسه فتصف له الدواء في رجله».

فقال له: «أما أن علامة ما قلت فيك بينة قال الخصي: وما هي؟»

قال: نزعت خصيتاك فذهب شعر لحيتك. فضحك الحجاج ومن حضر»<sup>٣</sup>.

وكان الأطباء النصارى يعالجون المعدة وقصور الهضم باستعمال القشر البراني للفستق الأحمر، وذلك بأن يلاك بالأسنان ويبلع، إذ فيه «العطرية والقبض فيكون بذلك تقوية المعدة»<sup>٤</sup>. وقد قدّم تياذوق هذه الوصفة الطيبة للحجاج وقد أخطأ الحجاج في استعمالها إذ قد تناول قلوب الفستق بدلاً من قشوره حتى امتلأت معدته وأصابته بعقبة هيضة كادت تأتي على نفسه<sup>٥</sup>.

وقد عرف هذا الطبيب أن هناك بعض العادات السيئة التي يمارسها الناس لا تحتاج إلى علاج، وإنما علاجها العزيمة. فأكل الطين مثلاً كان علاجه على رأي تياذوق هو العزيمة إذ قد سأله الحجاج عن أكل الطين وعلاجه قائلاً له: «أي شيء دواء أكل الطين؟»

فقال: عزيمة مثلك أيها الأمير. فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إليه أبداً<sup>٦</sup>.

١. ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٣٣.

٢. ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٣٣.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٣٣.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٣٣.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٣٣.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٣٣. ابن العربي، مختصر الدول، ص ١١٣. وقد يكون هذا القول لطبيب آخر دخل في خدمة الحجاج وهو ناودون ويذهب هذا المذهب القفطي في كتابه، ص ٧٦.

وقد سئل تياذوق عن مرض البخر فقال: دواؤه الزبيب يعجن بالسعتر<sup>١</sup>.

وكان تياذوق يعرف أثر الخوف على دم الإنسان. فعندما أمر الحجاج بضرب رقبة سعيد بن جبير، وسال دمه تحت سرير الحجاج، هاله ذلك وأفزعه فبعث إلى تياذوق وسأله عن سبب ذلك، فأجابه تياذوق «لأنك قتلته ولم يهله ففاض دمه ولم يجمد في جسده»<sup>٢</sup>.

ومن مؤلفاته الطبيّة كتاب كبير ألفه لابنه، وكتاب إبدال الأدوية وكيفية دقّها وإيقاعها وشيء من تفسير أسماء الأدوية<sup>٣</sup>، وله قصيدة في حفظ الصّحة ترجمها ابن سينا إلى الفارسية<sup>٤</sup>. ولم يبقَ من هذه الكتب التي تنسب إليه وإنما بقيت أقواله عن طريق الرواية<sup>٥</sup>.

ولتياذوق تلاميذ تقدموا في علم الطب بعده، وقد أدرك منهم الدولة العبّاسية أمثال فرات بن سحنان الذي اشتهر في زمن الخليفة المنصور<sup>٦</sup>.

## الطبيب ثاودون

أما الطبيب المسيحي الثاني فهو ثاودون<sup>٧</sup>، ويسمّيه البعض ثاذن<sup>٨</sup>، والبعض الآخر يسمّيه ثيودون<sup>٩</sup>. ونرجّح أن يكون ثيودور وهو الصواب، لشيوع هذا الاسم عصرئذ، ولقرب لفظه من الاسم الذي يناديه به المؤرّخون العرب المسلمون.

دخل في خدمة الحجاج، وقد خلط الكتاب والمؤرّخون بين آرائه الطبيّة وآراء تياذوق. وقد أشرنا إلى ذلك في الهوامش عندما درسنا تياذوق، فلا داعي لذكرها هنا ثانية،

١. ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ٣، ص ٢٧٧. والسعتر نبات طيب الرائحة. راجع تاج العروس، ٢٦٩:٣.

٢. ابن العباد، شذرات الذهب، ج ١، ص ١١٠.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٣٥.

٤. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ٢٦٢.

٥. براون، الطب العربي، ترجمة الدكتور داود سلمان علي، مطبعة العاني، بغداد، ص ٢١.

٦. ابن العربي، مختصر الدول، ص ٢١٣. القفطي، ص ٧٤. صناجة الطرب، ص ٤٢٩.

٧. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ١١٣.

٨. القفطي، ص ٧٦.

٩. نوفل، صناجة الطرب، ص ٤٢٩.

ولكن لكليرك (Leclerc) يعتقد أن هذين الاسمين لشخص واحد، وحجته في ذلك وجود تشابه بين آرائهما واحتمال اختلاط الاسمين في الكتابة العربية. ولكننا نستبعد ذلك لوضوح الشخصين لدى أغلب المؤرخين والكتاب العرب إن لم نقل أجمعهم.

## أطباء آخرون:

كان من رجال الدين المسيحيين من يعالج أمراض العيون. قال الأصفهاني: «فينا المتوكل - يعني الشاعر الأموي المتوكل الليثي<sup>١</sup> بالخير، وقد رمد رمدًا شديدًا، فمرّ به قس منهم.

فقال: ما لك؟

قال: رمدت.

قال: أنا أعالجك.

قال: فافعل، فذره<sup>٢</sup>.

وفي عهد عمر بن عبدالعزيز، عرف ابن أبجر بالطب حتى أنه عالج الخليفة<sup>٣</sup>، وقد اختلف في أصل وموطن ابن أبجر ف قيل إنه من أطباء الكوفة من بني أبجر الذين ينتسبون إلى بني فراس من كنانة<sup>٤</sup>.

وقيل إنه من نصارى الإسكندرية، وكان يتولّى التدريس فيها من بعد الإسكندرانيين، فلما تولّى المسلمون على البلاد أسلم على يد عمر بن عبدالعزيز، وكان حينذاك أميرًا قبل أن يكون خليفة<sup>٥</sup>.

ويبدو للباحث أن التوفيق بين الروايتين غير ممكن لذلك يرى مايرهوف وبعض الباحثين أننا أمام طبيين مختلفين اسمهما واحد<sup>٦</sup>.

١. أنظر ترجمته في الأغاني للأصفهاني ومعجم الأدباء للحموي.

٢. الأغاني ١٢: ٢٦٢ والذر هو طرح الذرور في العين يقال ذرت عينه إذا داويتها به. وذر عليه بالذرور بذرها ذرا كحلها (تاج العروس ٣: ٢٢٣).

٣. صاعد بن أحمد التغلبي، طبقات الأمم، ص ٦٣، يسميه ابن الخبر من منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف، ١٩٦٧.

٤. ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٦. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٣٩٤. مطبعة مجلس دائرة المعارف حيدر أباد، الدكن.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٢٤.

٦. من الإسكندرية إلى بغداد، بحث في تاريخ التعليم الفلسفي والطبي عند العرب، منشور في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص ٦٧.



ولابن أبقري نصائح طبيّة منها قوله: «دع الدواء ما احتمل بذلك الداء»<sup>١</sup>. وقال أيضًا: «المعدة حوض الجسد والعروق تشرع فيه فما ورد فيها بصحة صدر بصحة، وما ورد فيها بسقم صدر بسقم»<sup>٢</sup>.

وهناك أطباء مسيحيون اختصّوا بمعالجة بطارقة كرسي المدائن ومنهم سرجون متطبّب الجاثليق حنا نيشوع<sup>٣</sup>، وقد عاصر الجاثليق حنا نيشوع طبيب آخر اسمه شمعون طيوثا الذي يوصف بأنه الطبيب الماهر<sup>٤</sup>. ويعتقد ليكلرك بوجود اقتباسات كثيرة موجودة في كتاب الحاوي للرازي تعود إلى شمعون طيوثا<sup>٥</sup>.

إن الطب لم يكن سرياني الأصل والمنبت، إنما كان طبًّا تجريبيًّا وكان معروفًا عند الحارث بن كلدة الطبيب العربي المسيحي وغيره. وأن الآراء والنصائح التي تنسب لتياذوق، قالها قبله الحارث بن كلدة، فالنصائح التي وجهها للحجاج قالها قبله الحارث بن كلدة لكسرى على ما يقال، منها لا تدخل الحماة شعبانًا. وكل الفواكه في إقبالها وحين أوانها، وإياك وإتيان المرأة المسنة فإنها كالسنن البالي تجذب قوتك وتسقم بدنك<sup>٦</sup>، وإنه سبق تياذوق في ذكر الأمور الأربعة<sup>٧</sup>، التي تهدم العمر والتي ذكرناها سابقًا. وإنه أيضًا في دعوة إلى عدم معالجة الإنسان نفسه ما احتمل بدنه الداء، والنوم بعد الغداء، والتمشي بعد تناول العشاء<sup>٨</sup>، وأمور أخرى<sup>٩</sup>.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٢٤.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٢٤.

٣. ماري بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٦٤.

٤. ابن العبري، التاريخ الكنسي، ترجمة المرحوم الشّمس بطرس قاشا، ص ١٤٠، وما زال مخطوطًا في خزانتنا.

٥. تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٨٢.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٦.

٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٦.

٨. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٦.

٩. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٦-١٨.

وتحدثنا المصادر المسيحية عن طبّ آخر مارسه رجال الدين<sup>١</sup>، طبّ قائم على بركات يمنحها رجال الدين للمريض، أو صلاة يصلّونها عليه أو صوم يصومون له. إن هذا الطبّ على رأي هذه المصادر قد أدى إلى شفاء المرضى من أمراضهم التي فشل الطبّ الآخر في شفائها. فقد ذكروا أن «الربان خوذا هوي» وهو أحد أساتذة مدرسة الحيرة وكان معاصرًا لجيورجيس الجاثليق (٦٦١-٦٨٠م) قد عمّد ابنةً لمعاوية ابن أبي سفيان كانت عمياء فشفأها. يقول المصدر السرياني ما نصه: «وطالت حياة الربان خوذا هوي إلى أيام معاوية، وعمّد ابنةً له فشفأها الله ببركاته»<sup>٢</sup>.

وكذلك ذكرت هذه المصادر: «أن حاكم باجرمي قد اتصل بسبريشوع مطران باجرمي وسأله أن يمضي إلى السن، ويصلّي على ابنتين كانتا له قد ولع بهما الشيطان. ففعل وما زال صائمًا مجتهدًا سبعة أيام إلى أن عوفيت وصارت تسمّيه أبي، فلمّا شاهد أبوها هذه المعجزة التمس منه ذكر حوائجه فسأله أن يرفع الجزية عن الرهبان والقسان والإسكوليين (التلاميذ) في ناحيته فأجاب إلى ذلك»<sup>٣</sup>.

وعندما أصيب عبيدالله بن زياد بعلّة في رجله أرسل إلى القديس مار عبدا ابن حنيف يسأله الصلاة عليه فبعث إليه عصاه مع رسوله وقال يتكئ عليها فإنه يبرأ. فكان الأمر على ما قال وعوفي في الوقت من وجعه<sup>٤</sup>.

## الترجمة

ترجم المسيحيون في العصر الأموي كتبًا فلسفية وعلمية من اليونانية إلى السريانية<sup>٥</sup>. وقد حفظت هذه الترجمة بعض الكتب اليونانية التي فقد أصلها<sup>٦</sup>. ثم ترجم بعضها إلى العربية في العصر الأموي.

١. نقصد به المعجزة الربانية التي بحققها الرب على يد قديسيه ومباركيه.

٢. أدي شير، التاريخ السعدي، ٥٩٤:٢.

٣. أدي شير، التاريخ السعدي، ٦٣٢-٦٣٣:٢.

٤. أدي شير، التاريخ السعدي.

٥. مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص ٥٣. برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص ٣٠٩-٣١٢. أدي شير، كلود وآثور، ج ٢، ص ٣٠٤. أوليري، الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ص ٦٧. الصوباوي، قائمة المؤلفين، ص ١٩.

٦. أحمد أمين، فجر الإسلام، ج ١، ص ١٩٦.

قال السيوطي: إن علوم الأوائل «دخلت إلى المسلمين في القرن الأول لما فتحوا بلاد الأعاجم لكنها لم تكثر فيهم ولم تنتشر بينهم لما كان السلف يمنعون من الخوض فيها»<sup>١</sup>. ثم شهد العصر الأموي، ثم العباسي حملة واسعة النطاق لترجمة مختلف العلوم. وهذه الترجمة على رأي (ترتن) «كانت الخطوة الأولى في قيام الفلسفة والعلوم الإسلامية»<sup>٢</sup>.

لقد كان المترجم السرياني يترجم حرفياً في بادئ الأمر ثم تحرر من حرفية الترجمة. وقد نقلت بهذه الترجمات العلوم اليونانية إلى اللغة السريانية بدقة وأمانة، فيها لم يمس الدين كالمنطق والطبيعة والطب والرياضيات.

أما الأمور الدينية المختلفة أو كل شيء له علاقة بالدين، فكان يعدل بما يتفق والمسيحية حتى لقد حولوا أفلاطون في كتاباتهم إلى راهب شرقي، فقالوا إنه بنى لنفسه معبداً في بريدة بعيداً عن الناس، وظل يتعبد فيه سنين»<sup>٣</sup>.

وقد وجه بعض الفلاسفة المسلمين نقداً عنيفاً لترجمات النساطرة والأرثوذكس لكتب أرسطو، فالغزالي يقول: «ثم المترجمون لكلام أرسطاطاليس لم ينفك كلامهم من تحريف وتبديل محوج إلى تفسير وتأويل، حتى أثار ذلك نزاعاً بينهم. وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة في الإسلام الفارابي»<sup>٤</sup>.

ويقول القفطي: «وكل من نقل كلامه -أرسطو- من اليونانية إلى الرومية وإلى السريانية وإلى الفارسية وإلى العربية، حرّف وجزف وظن بنقله الإنصاف وما أنصف وأقرب الجماعة حالاً في تفهّم مقاصده في كلام الفارابي وابن سينا»<sup>٥</sup>، وكثير من الأخطاء التي وقع فيها العرب كانت بسبب ذلك»<sup>٦</sup>.

١. علي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص ٣.

٢. ترتن، أهل الذمة في الإسلام، ط ٢، ص ١٩٦.

٣. أحمد أمين، فجر الإسلام، ج ١، ص ١٥٥.

٤. تهافت الفلاسفة، ط ٢، بيروت ١٩٦٢، ص ٤٠.

٥. أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط ١، (٥١٣٢٦) ص ٣٩.

٦. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١، ص ٢٦٣.

وفي ما يخصّ الكتاب المقدّس، فإن المصادر المسيحية تؤكد على وجود قطع منه مترجمة إلى العربية، يقول أحدهم «ولا بدّ من القبول بالرأي القائل بأنه لما ظهر القرآن كانت بين أيدي الناس قطع معرّبة من الكتاب المقدّس، ومن كتب الصلوات والطقوس وذلك بين في بعض الألفاظ الواردة في القرآن وفي بعض النصوص والتي يرويها البخاري والطبري وغيرهما»<sup>١</sup>.

ويقول مصدرٌ آخر: «ولنا أن نقول إن المسيحية بعدما دخلت في البلاد العربية حصل تطورٌ في الطقوس الكنسية وبالأخص الطقس السرياني حيث كان معظم العرب وخاصة الغساسنة وجزء كبير من المناذرة على الطقس السرياني، فاستبدلت أكثر التعابير السريانية بالعربية لقرّبها منها عندها أخذت اللغة السريانية بالتضاؤل ولم تبق لغة التكلم مع الزمن فحلّت محلها اللغة العربية وبقيت السريانية سجلاً للصلاة الدينية فقط»<sup>٢</sup>.

وكذلك الحال بالنسبة للتعميد ولغة القداس فإنها كانا يجريان بين القبائل باللغة العربية<sup>٣</sup>.

ويقول مصدرٌ سرياني آخر: «واتقن كثير من علماء العرب المسيحيين اللغة السريانية، ومنهم كان العلماء المتبحرون في اللغتين السريانية والعربية من بني طيء وتنوّخ وعقيل الذين نقلوا الإنجيل المقدّس من السريانية إلى العربية في حدود سنة ٦٤٣ م بأمر البطريك يوحنا أبي السدرات إجابة إلى رغبة عمير، بن سعد أمير الجزيرة<sup>٤</sup>. ويقول بلاشير: «ويجب أن نتقبّل الرأي القائل إن اللغة العربية كانت مستعملة في الطقوس الدينية عند الطوائف المسيحية في كلّ من بصرى والحيرة والمناطق المجاورة. ومن الممكن وجود ترجمة عربية للأناجيل والمزامير»<sup>٥</sup>.

١. المشرق البيروتية، مج ٤٦، ص ١٢٥.

٢. المشرق البيروتية، مج ٥٩، ص ٢٦٥.

٣. المشرق البيروتية، مج ٥٠، ص ٦١٠-٦١٢.

٤. هو عمير بن سعد بن شهيد بن عمرو، أحد الاوس، وأبوه سعد هذا هو الذي يروي الكوفيون أنه أحد من جمع القرآن على عهد الرسول وقد عيّنه عمر بن الخطاب واليًّا على الجزيرة (فتوح البلدان للبلاذري، قسم ٢، ص ٢٤٤).

٥. سويريوس يعقوب توما، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية، ص ٢٨٩. وهذا الأمر مشهور في التاريخ السرياني حينها رفض يوحنا أبو السدرات أن يترجم الإنجيل لعمير هذا بعد أن طلب منه أن يحزّف بالكتاب المقدّس قائلاً له: لو تحزّف جسمي يطعن الحراب وضرب السيوف على أن أحزّف ما تريد فلن أفعل، عندئذ طلب منه أن يترجمه بالضبط والكمال.

٦. تاريخ الأدب العربي منذ نشوئه حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، تعريب ابراهيم الكيلاني، ج ١، دمشق ١٨٥٦، ص ٧٤.

وهكذا نجد أن العصر الأموي في حقيقة الأمر أول دور من أدوار حركة الترجمة. فهو العصر الذي شهد ظهور هذه الحركة لأول مرة في تاريخ الإسلام الحضاري، والثقافي.

وعلى الرغم من أن الترجمة في هذا العصر كانت ترجمة بدائية وضعيفة المستوى إذا ما قورنت بالترجمات الأخرى بالأدوار التالية، إلا أن هذا العصر كان بحق، حجر الأساس لبناء هذه الحركة عمومًا، كما أنه كان المنطلق الأول لها في أنحاء العالم الإسلامي مشرقه ومغربيه. وعن الترجمة في هذا الدور يذكر الأستاذ جوزف الهاشم: «... إذن ظلت الترجمة مقصورة على بعض العلوم الطبيعية كالكيمياء والطب دون أن تتعدى ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق وعلم النفس وما وراء الطبيعة»<sup>١</sup>.

ونحن نرى أن عامل الحاجة هو الذي تحكّم بما ترجم في بداية هذه الحركة إذ أن حاجة الناس إلى علم الطب -على سبيل المثال- لمداواة أنفسهم من مختلف الأمراض هي أكثر ضرورة من حاجتهم إلى الفلسفة أو المنطق، وبخاصة إبان هذه الترجمة من تاريخ حركة الترجمة، ومثل ذلك يقال أيضًا بالنسبة لعلم الكيمياء عند مقارنته مع علم النفس وهكذا الأمر مع باقي العلوم الأخرى أي تقديم الأهم على المهم.

## ثيودورس أبو قرّة

### هويّة أبو قرّة ونشأته<sup>٢</sup>:

وُلد ثيودورس حوالي سنة ٧٥٠م، في مدينة الرها. ولكننا نجده تحت اسم ثاوذوريطوس في مخطوط دير الشير (٣٧٣). وثاوضوسيسوس عند المؤرّخ الرهاوي، وثاودوريكوس عند ميخائيل الكبير وابن العبري. ولكن يعتقد بأن هذه الأسماء محرّفة بعض الشيء واسمه يعني عطا الله.

١. سليمان البستاني والألياذة، ص ١٣٣.

٢. ورد هذا الاسم في المخطوطة التي بين يدينا بصيغة «أبو قورا» أو «أبو قوره».

أما بالنسبة لأبي قرّة الاسم، فهو بمثابة لقب أطلقه عليه العرب المسلمون. ولا بدّ من الإشارة إلى أن بعض المستشرقين قد اعتبروا هذا اللقب كإشارةٍ إلى مدينته الأسقفية. ولكن قرّة اسم عربي يمتاز به الحرانيون<sup>١</sup>.

وله لقبٌ آخر هو فوجلا، ولكننا لا نجدّه إلاّ عند ميخائيل الكبير، ويشير المؤرّخ اليسوعي بيترس إلى أن منشأ أبي قرّة هو (رافانه) وهي من أعمال سوريا الوسطى.

«تشير المخطوطات إلى كاتبنا دومًا على أنه أسقف حرّان الملكي، إلاّ ما ندر، وتنتعه بالمعلّم اللاهوتي، أو بالمعلّم العامل والفيلسوف الكامل والأب الفاضل كير ثيودورس أسقف حرّان الملكي»<sup>٢</sup>.

أتقن كاتبنا اللغة السريانية واليونانية والعربية، واطلع على كافة علوم عصره. ربما عرف القديس يوحنا الدمشقي لأنه دخل دير القديس سابا في أواخر أيام حياته الأولى، وقد نشأ على منواله في الدفاع عن العقيدة ضد البدع والهرطقات.

إعتنق الحياة الرهبانية في دير القديس سابا في فلسطين، ثم بعد مدة انتخب أسقفًا لحرّان.

دافع عن العقيدة الخلقيدونية داخل أبرشيته وخارجها، حيث سافر إلى مصر وأرمينيا، وكتب عدة مؤلفات لتوضيح حقيقة التجسّد واتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية، كما دافع عن تكريم الأيقونات.

تقرّب زمن الانفتاح الفكري الذي جاء به الخليفان هارون الرشيد والمأمون، من أرقى الأوساط الإسلامية المثقّفة. وقد أتت مجادلاته للمسلمين في سبيل الإيضاح وليس بهدف انتقاد العقيدة الإسلامية، بمعنى أنها كانت أجوبة على أسئلة مطروحة من قبل المسلمين حول عقيدة المسيحيين، فهو يشير في أكثر من مرة إلى النقاط المشتركة بين الديانتين.

يُعتقد أنه توفي بين عامي (٨٢٠-٨٢٢م).

١. راجع ابن النديم، الفهرست، صفحة ٣٨٠، ٣٨٨، ٣٩٧ و ٤٥٤.

٢. أغناطيوس ديك، ميمر في وجود الخالق والدين القويم، لثيودورس أبي قرّة، التراث العربي المسيحي، ٣، المكتبة البوليسية، ١٩٨٢، ص ٤٠.

## مؤلفاته:

يعتبر أبو قرّة مؤلّف ومترجم. فقد نقل العديد من الكتب الفلسفية اليونانية إلى اللغة العربية، كما كتب باللغات العربية واليونانية والسريانية. وله مؤلّفات كثيرة ضاع منها قسم كبير، وبقي البعض دفين المخطوطات. لا بدّ من الإشارة إلى وجود بعض المؤلّفات المنسوبة خطأ إلى أبي قرّة.

### I- المؤلّفات العربية<sup>١</sup>:

- ١- المقال في وجود الخالق والدين القويم، مجلة المشرق سنة ١٩١٢.
- ٢- دستور إيمان أبي قرّة، مجلة الموزيون سنة ١٩٥٩.
- ٣- المقال في إكرام الأيقونات، نشره واندزن، سنة ١٨٩٧.
- ٤- المقال في الحرّية.
- ٥- المقال في التثليث والتوحيد.
- ٦- في تحقيق الإنجيل، وأن كلّ ما لا يحقّقه الإنجيل فهو باطل.
- ٧- ميمر يحقّق أن دين الله، الذي يأخذ به الله العباد يوم القيامة، ولا يقبل منهم دينًا غيره، هو الدين الذي خرج به الحواريون إلى أقطار الأرض وجميع أمم الدنيا وهم رسل المسيح ربنا.
- ٨- ميمر على سبيل معرفة الله وتحقيق الابن الأزلي.
- ٩- المقال في ضرورة الفداء.
- ١٠- المقال في إمكانية التجسّد.
- ١١- المقال في ألوهية الابن.

١. إغناطيوس ديك، المرجع السابق، صفحة ٦٣-٧٣، وراجع أيضًا إغناطيوس ديك، مجادلة ابي قرّة مع المتكلمين المسلمين في مجلس الخليفة المأمون ١٩٩٩، صفحة ٩-١٧.

١٢- المقال في حرّية موت المسيح.

١٣- ميمر في موت المسيح.

١٤- الرسالة إلى يعقوبي داود.

١٥- الميمر في تحقيق ناموس موسى والإنجيل والأرثوذكسية الخلقيدونية.

## ١- المؤلّفات اليونانية:

نجد عند أبي قرّة ثلاث مقالات خاصة بسرّ التجسّد، وعدة مناظرات باللغة اليونانية.

المقالات: سنذكرها وفق ترتيب مجموعة المستشرق مين.

١- المقال رقم (٢): بعنوان «شرح الكلمات التي يستعملها الفلاسفة ودحض أرتقة

الأكفاليين أتباع ساويرس أي اليعاقبة» عمود (١٤٦٩-١٤٩٢). يشبه هذا المقال ما جاء عنده في المقال العربي «في التثليث والتوحيد».

٢- المقال رقم (٣): «في الاتحاد والتجسّد» عمود (١٦٠١-١٦١٠). أما العنوان

الكامل فهو «في اتحاد المسيح وتجسّده، وأن الأقنوم تجسّد، وطبيعة اللاهوت اتّحدت بالطبيعة البشرية في أقنوم الكلمة».

٣- المقال رقم (٤): «الرسالة إلى الأرض» عمود (١٥٠٣-١٥٢١). أما عنوانه

الكامل فهو «رسالة تتضمن إيضاح الإيوان المستقيم البريء من العيب، مرسله من البابا المغبوط توما بطريرك أورشليم...».

١. راجع اغناطيوس ديك، ميمر في وجود الخالق، المرجع السابق، صفحة ٧٨-٨٨، واغناطيوس ديك، مجادلة أبي قرّة، المرجع السابق، صفحة ٢٠-١٧.



أما المناظرات فهي:

### (١) مع المسلمين:

أ- حول وجود الله والتثليث: رقم (٣) عمود (١٤٩١-١٥٠٣) وهو عبارة عن حوارٍ مع حاكم حمص.

ب- حول حقيقة الديانة المسيحية بوجهٍ عام: رقم (٢١) عمود (١٥٤٧-١٥٥٢).

ج- إيضاحاتٌ وردت على اعتراضات: وتتضمن عدة مواضيع منها (التثليث رقم (٣٨)، التجسد رقم (٦١)، موت المسيح (٩)، ضرورة المعمودية رقم (١٧)، الأفخارستيا رقم (٢٢)، الحرية رقم (٣٥)....).

د- اعتراضات لأبي قرة على صحّة رسالة نبيّ الإسلام: أرقام: (١٨، ١٩ و ٢٠).

### (٢) مع غير المسلمين:

أ- مع اليهود: رقم (١٠) و (٣٩).

ب- مع أحد أتباع أوريجينس: رقم (٣١).

ج- جمع رجلٍ يعقوبي: رقم (٣٠).

د- مع النساطرة: أرقام (١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٩، ٣٣، ٣٧).

### (٣) مع محاورين غير محدّدي المذهب:

أ- مسائل تدور حول سرّ التثليث وطبيعة الله وصفاته: أرقام (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٦، ٤٢).

ب- إيضاحاتٌ حول سرّ التجسد: رقم (٥).

ج- إيضاحاتٌ حول الخطيئة الأصلية والفداء: أرقام (١، ٦، ٧، ٤٠، ٤١).

د- سؤالٌ فلسفي في الزمن: رقم (٣٤).

بالإضافة إلى العديد من المؤلّفات والمناظرات والمقالات، لم نأت على ذكرها كلّها

خوف الإطالة.

## فكره:

يُعدّ أبي قرّة مفكّرًا عظيمًا، ذو شخصية مميّزة وله خطوط عريضة في تفكيره، سنحاول التعرف إليها في ما يلي:

إن أبو قرّة كما رأينا من خلال مؤلفاته، هو أحد المدافعين عن الإيمان. فقد سار على خطى القديس يوحنا الدمشقي، والملافة السريان الذي يُعتقد بأنه قد تعرّف عليهم عند دخوله دير القديس سابا ولقائه مع الآباء السريان. يعتمد أبي قرّة على العقل للوصول إلى الإيمان، فالإيمان المعتمد على اختبارٍ أعمى يرفضه. ولم يكن هدفه في دفاعه عن الإيمان هو تحويل الآخرين إليه، وإنما سعى إلى كشف الحقائق الإيمانية وإنارة الطريق علّ وعسى الآخرين يدخلون فيه إن رأوه. لم يعتمد كثيرًا على البحث الفلسفي، ولا التعمّق في اللاهوت. دافعه الأكبر كان اختباره الشخصي لحياة الإيمان ضمن الكنيسة، فكان يرى في شخص المسيح الأساس لكل شيء.

يمكن تلخيص فكر أبو قرّة في مجال الدفاع عن الإيمان، بأنه نشط «في إطار الخدمة الرعائية، فعمل على حمل الذين لا ينعمون بموهبة الإيمان كاملة، على الانفتاح على الله»<sup>١</sup>.

ناضل أبو قرّة أيضًا على جبهتين: داخلية: تمثّلت في محاولة إعادة الوحدة إلى المسيحيين حول تحديد المجمع الخلقيدوني. وخارجية: تمثّلت في محاولة إظهار دعائم حقيقة الديانة المسيحية في وجه الدين الإسلامي، الذي بدأ يضغط اجتماعيًا وفكريًا على المسيحيين.

أما النقطة الثانية من فكره فهي اعتماده على العقل وتركيزه على قيمته، فهو يعتبر أن: «العقل نقطة الالتماس المشتركة بين المؤمنين وغير المؤمنين... وهو يعي تمام الوعي أن الإيمان إنما هو في نهاية الأمر قضية نعمة من الله... ويقول: إنّ الذي يرفض أن يؤمن، لا بدّ من أن يبقى جاهلاً، لأن هناك أمورًا كثيرة لا نصل إليها إلّا بالشهادة والتصديق»<sup>٢</sup>.

١. إغناطيوس ديك، ميمر في وجود الخالق، المرجع السابق، صفحة ٩٤.

٢. إغناطيوس ديك، مجادلة أبي قرّة، المرجع السابق، صفحة ٢٢.

فأبو قرّة يؤكد ضرورة فحص الإيمان من قبل العقل، ويشيد بالإيمان المسيحي، فيقول: بأن المسيح قد نبّه عقول المسيحيين لحسن النظر في الإيمان، وهداهم تصديق الكتب المقدّسة. ويحاول أبو قرّة شرح العقيدة المسيحية انطلاقاً من الكتب المقدّسة وتفسيره للإيمان ودور العقل.

ولكننا نلاحظ أن فكره لم يكن عقلاً محضاً، بل إن أبي قرّة مؤمنٌ صادق، فهو عالم بقيمة الوحي والنعمة لبلوغ كمال الإيمان، وفي ذات الوقت يثق بالعقل على اعتباره لا يتعارض والإيمان، فالله هو المصدر لكلّ شيء للعقل وللإيمان.

\*\*\*\*\* الفصل الخامس \*\*\*\*\*

السريان في أيام العباسيين

## سريان كنيسة المشرق في أيام العباسيين

كان الجاثليق آبا الثاني (٧٤١-٧٥١م) يرئس كنيسة المشرق عندما انتصر أبو العباس عبدالله الملقب بالسفاح على مروان (الحمار)، آخر خلفاء بني أمية، في معركة الزاب. بعد قرابة ٥٣٠ سنة، سيكتب ابن العبري (١٢٢٦-١٢٨٦م): «إنَّ العباسيين كانوا أفضل من الذين كانوا بدمشق»<sup>١</sup>، فهل بلغت، بالتواتر، مظالم ولاة الأمويين من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٩٤-٧١٤م) وقريبه بن عمر الثقفي (٧٣٨-٧٤٣م)؟

نرجح التقاء الخليفة بالجاثليق بسبب انشغال الأول بالوضع الجديد وتنقل الثاني بعيداً من المدائن، مركز الجثلقة، هرباً من مكائد أبناء رعيته ومن تمرّد المدرسة البطريركية. ولقد رجح مؤسس السلالة العباسية «الحلّ الشرقي» - أي شرق الفرات بعيداً من بلاد الشام وتداخلها السياسي والحربي مع البيزنطيين، وقريباً من بلاد الفرس - فبنى مقرّاً ومدينةً من الأنبار التي كان يسكنها عددٌ أكبر من المسيحيين، هي مدينة الهاشمية، وسيبني خلفه المنصور بغداد على الضفة اليمنى لنهر دجلة. وإذا كانت دولة بني أمية ذات طابع عربي، فإن دولة بني العباس كانت أكثر شمولية، إذ جمعت جميع الشعوب الإسلامية، بما فيها الشعب العربي.

### ١- حاجة الدواوين إلى الأراميين

خلال العهد الأموي وبداية العهد العباسي انشغل العرب بالفتح والجيش والضرائب وترتيب الدواوين، ولم يولوا اهتماماً للعقائد الدينية التي ما تزال تحتاج إلى توضيح. أبو حنيفة (٧٦٧م) صاحب المذهب الحنفي، بدأ هذا التوضيح في خلافة المنصور، وتلاه ابن

١. التاريخ الكنسي، ج ٢، الأعمدة ١٥٤-١٥٦.

حنبل (٨٥٥م)، ثم البخاري (٨٧٠م). هؤلاء انضموا إلى الأرثوذكسيّة السنيّة، وكان يقابلهم الاجتهاد الشيعي من جهة، وتبصّرات المعتزلة الفلسفيّة من جهة أخرى. ولا بدّ أن يؤدّي الفكر الآرامي المسيحيّ دورًا بارزًا في صراع العقائد خلال مدّة الاستقرار الطويلة التي ميّزت العهد العبّاسي. «وقد خلقت بيئة البحث هذه، تعايشًا سلميًا بين المسلمين وغير المسلمين، ومناخًا للحرية الدينيّة ستستفيد منه الفئات غير المسلمة التي كانت ذات تأثير كبير بعددها، ولا سيّما بثقافتها»<sup>١</sup>.

من جهة أخرى، «كان توسّع الإدارة العبّاسية يتطلّب أناسًا مثقفين يقومون بأعباء الإدارة والدواوين والحماية والشؤون الماليّة. وكان [السرّيان] المسيحيون وحدهم في ذلك الوقت [ذوي] ثقافة عالية، فكانوا من أهل العلوم والحرف، كالفلاسفة والأطباء والفلكيين. فانتدب العديد منهم إلى دار الخلافة، خصوصًا في عهدي المنصور وهارون الرشيد. بهذه الوسيلة، كان نفوذ المقرّبين من الخلافة من أهل العلوم والفنون يؤثّر تأثيره الانحيازيّ عند حصول النزاع في كنيسة المشرق»<sup>٢</sup>.

بعد وفاة آبا الثاني، شغّر كرسيّ الجثثقة طوال سنتين بسبب الخلافات الداخليّة على الخلف. فكلّ أسقفٍ مَشَط ذقنه، وبعضهم توّسل السلطة الزمنيّة، في مراتبها الدنيا، للوصول. وهكذا كانت تجري الأمور في أيام بني ساسان! سورين، أحد المرشّحين للجثثقة، رشا عامل المدائن بأموالٍ سرقها من المعابد، فأعلنه جاثليقًا. لكنّ يعقوب، مطران جنديسابور، توّصل إلى السفّاح وأطلعه على ما يجري، فعزل الخليفة عامل المدائن وردّ أموال المعابد وأبعد سورين إلى البصرة وانتخب يعقوب الثاني جاثليقًا (٧٥٤-٧٧٣م). وسيعاصر يعقوب السفّاح والمنصور والمهدي، ولكنه سيكون رئيسًا عجوزًا خاملاً يتلاعب به العلماء وفق مصالحهم الأمر الذي سيدفع بعض المسيحيين إلى جحد دينهم، طمعًا في بلوغ المناصب وفي التخلص من الجزية. وازداد الطمع في تولّي المناصب في عهد أبو جعفر عبدالله المنصور (٧٥٤-٧٧٥م) وخصوصًا في الاستفادة من كرم البرامكة الذين أدّوا دور

١. الأب ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة السريانيّة الشرقيّة من مجيء الإسلام حتى نهاية العصر العبّاسي، الجزء الثاني، دار المشرق، بيروت ١٩٩٣م، ص ١٠٤-١٠٥.

٢. تيسران، الكنيسة الكلدانية، في الترجمة العربيّة، ص ٥١. نقلًا عن المرجع السابق، ص ١٠٥.

مناصرة العلماء والأدباء ممن مدحوهم إضافة إلى ذلك، استغل بعض المسيحيين تقربهم من السلطة للإثراء، وأحياناً للتأثير السلبي في مجرى العلاقات بينها وبين السلطة. فالطبيب المسيحي سرجيس، العامل في خدمة صاحب الجيش نصر والموالي لسورين المذكور، توصل إلى استصدار أمر من الخليفة بخلع الجائليق يعقوب، وهذا ما يشرح ورود اسم سورين في لائحة الجثالة سنة ٧٥٤م.

كان المنصور داهيةً سريع البطش. وسرعان ما تخلّص من مناوئيه: أبي مسلم الخراساني وفرقة الرواندية ومحمد وأخيه إبراهيم ابني عبدالله حفيد الحسن بن علي. وسينكب البرامكة. وفي الانتظار سيُخمد بالنار والتقتيل والتجهير ثورة نصاري لبنان، التي انطلقت من المنيطرة (٧٥٩-٧٦٠م) واستدعت تدخل الإمام الأوزاعي: «وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان، ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم، ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصّة، حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أن لا تَزَرَ وَاِزْرَةٌ وَرَزْرَ أُخْرَى [سورة الأنعام، ١٦٤]. وهو أحقّ ما وُفِّع عنده واقتُدي به. وأحقّ الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله، فإنه قال: «مَنْ ظَلَمَ مَعَاهِدًا وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَأَنَا حَاجِبُهُ»<sup>١</sup>.

دهاء المنصور واحترازه دفعاه إلى جعل المسيحيين، في أول عهده، عيوناً له تترصد من بقي حياً من بني أمية. واستغل بعض المسيحيين، من ذوي النفوس الضعيفة، هذا الوضع لإيقاع الأذى بأخصامهم أحد هؤلاء، المدعو زُعاره، من رهبان دير مار متى، أراد أن يستولي على نفائس ديره فاتهم إخوانه زاعماً «أن ذهب بني هشام وبني مروان كان بالدير». والنتيجة: صدور أوامر بالقبض على رؤوساء الأديرة والكنائس، وبإحصاء أموال الأديرة والكنائس والمعابد<sup>٢</sup>.

وعندما كان أحد المسيحيين يلحق غيباً بالمسلمين، كان المنصور يكتب إلى الولاة بعزل الذميين من مناصبهم، ثم يعود عن قراره لعدم وجود مسلمين مؤهلين لتولي مثل هذه المناصب. وقد عبّر عن هذه المعضلة ابن قيم الجوزية عندما كتب أن نديم الخليفة شبيب بن

١. البلاذري، فتوح البلدان، ترجمة فيليب حتي، ١٩١٦م، ص ١٦٢.

٢. ديونيسيوس المزموم، ص ٩٦-٩٧.

شبية قال له: «يا أمير المؤمنين، إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة [كذا!] في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبوهم أغزوك بهم، ولكن تولّي في اليوم الواحد عدّة، فكلّمها وليّت رجلاً عزلت آخر»<sup>١</sup>.

نَعلم، أنّ تَفَاحَةَ مَهترئةٍ واحدة تصيب الصندوق كلّهُ بالهريان. كما نَعلم أنّ كِتَاب الحوليات والمؤرخين لا يكتبون إلّا الأحداث الخارجة عن المألوف والتي تنتج منها الشرور، متناسين أنّ غالبية الشعب الآرامي المسيحيّ كان يعيش في خوف الله وطاعة السلطان، منتجًا الثروة التي يتمتّع بها هذا الأخير وأعوانه من دون جهدٍ سوى منتوجات أخرى تنتج فينًا للمسلمين، وريقًا للبيع، وخارجًا وجزيةً وضرائب ذات أسماء ومبررات متنوّعة. فلولا النسيج الآرامي في الإمبراطورية الإسلامية لما توقّرت رفاهية اجتماعية، ولولا المادة السنجابية في رؤوس الآراميين لما نشأت النهضة الإسلامية في حقول المعرفة والفلسفة والعلم والطب والملاحة وعلم الفلك، ولما انتقلت هذه المعارف إلى الأندلس ومنها إلى الغرب.

## ٢- الجائليق يرفض هدية الخليفة: زوجة واحدة تكفيني

المؤرخون لم يكتبوا عن المنصور عندما كان في كامل صحته، بل كتبوا لما «مرض وفسدت معدته». فاستدعي لمعالجته الطبيب المسيحي جورجيس بن جبرائيل من بني بختيشوع، أحد معلّمي مدرسة جنديسابور الشهيرة ومدير البيمارستان فيها. تمّنّع الطبيب عن التوجّه فورًا إلى بغداد، فاعتقله عامل المدينة، فثار الشعب وأثار الشغب في المدينة، ما دفع أسقفها إلى التدخّل. وانتهى الأمر بذهاب جورجيس مع تلميذه إبراهيم، وترك ابنه بختيشوع يدير البيمارستان.

بحسب ابن أبي أصيبعة، شكّل شفاء الخليفة مدخلًا لعلاقةٍ حميمة مع الطبيب، تجلّت أولًا في السماح له بشرب «أفضل خمور قرطبل»، وإعطائه ثلاثة آلاف دينار مع ثلاث جوارٍ روميّات حسان ردّهن جورجيس: «هؤلاء لا يكوننّ معي في بيت واحد، لأننا معشر

١. أحكام أهل الذمّة، تحقيق صبحي الصالح، جامعة دمشق، ١٩٦١م، ج ١، ص ٢١٥.



النصارى لا تتزوج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها. فحسُن موقعه من الخليفة، وأمر في وقته أن يدخل جورجيس إلى حظاياها وحرمه ويخدمهن<sup>١</sup>، وهكذا حصل مسيحيو كنيسة الشرق على نصيرٍ عظيم النفوذ في البلاط العباسي.

نتج من ذلك تغير موقف الخليفة من الجاثليق المبعّد، فأعيد إلى كرسيه وحُبس سورين. كما نتج منه بناء كنيسة صغيرة للمشرقين في تكريت، مركز نفوذ السريان الأرثوذكس<sup>٢</sup>. ولا بدّ أن نذكر هنا موقفاً إسلامياً متكرراً يدعو المسيحيين إلى اعتناق الإسلام، ذلك لأنه دير تبشيريّ مثلها هي المسيحية. فلما مرض جرجيس وأراد العودة إلى بيته في جنديسابور استأذن الخليفة، فدعاه هذا - كما يفرض عليه الواجب - إلى الإسلام: «أسلم وأنا أضمن لك الجنة»، فردّ بعفوية وجرأة: «رضيت حيث آبائي، في الجنة أو في النار»<sup>٣</sup>.

إنّ هاتين الحادثتين تنبئان عن مسلكية خلقية تميّز بها السريان الآراميون عموماً، خاصّتهم وعامّتهم، فأتاحت لهم، بمساعدة العناية الإلهية، أن يصمدوا كشعبٍ حضاريّ مميّز على رغم ما واجهوه من اضطهاد وتنكيل وتمييز لا لسببٍ إلّا لأنهم يشهدون للمسيح ويطابقون سلوكهم مع تعاليم الإنجيل عند علمائهم، ومع المشورات الإنجيلية عند رهبانهم هذا وإن جواب الطبيب لم يصدّم الخليفة الذي اعتبر أنه قام بواجبه في دعوته إياه إلى الإسلام، وأمر له بعشرة آلاف دينار. وفي المقابل، أوصى الطبيب بعيسى بن شهلوفا بديلاً منه كطبيبٍ للخليفة (٧٦٩م).

### ٣- الأطباء النافعون والأطباء الملاعين

هذه التوصية، كانت وبالأعلى للمسيحيين، ولا يتردّد الدكتور الأب جان موريس فييه في وصف شهلوفا هذا، وكان مجرد شماس يتعاطى الطبّ، بـ «الطبيب الملعون» فبسببه أودع الجاثليق السجن وعاد سورين يرسم أساقفة جددًا، ويُذيق والي حديثه الموصل إبراهيم بن يحيى أسقف المدينة شليمون، الشاجب للشماس المتغطرس، ضروب الإهانات، وينزل عامل الجزيرة موسى

١. المؤلف والمرجع نفسها، ص ١٨٥.

٢. ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، الأعمدة ١٦٧-١٥٨.

٣. ابن العربي، مختصر الدوب، بيروت ١٨٩٠، ص ٢١٥.

بن مصعب، بتشجيع من عيسى، أنواع التنكيل بالنصارى كما بالمسلمين، مادفع ماري إلى القول: «وَبُسِطَ أَيْدِي الْعَمَالِ [الْحُكَّامِ] عَلَى النَّصَارَى وَفَارَقَ بَعْضُهُمْ دِينَهُ». وهذه المحن حدثت في خلافة المنصور. ولا يبرئه من مسؤوليتها انشغاله بمطاردة الزنادقة، أي جميع أعداء الإسلام، وإعدامه ابن المقفع! العناية الإلهية تمهل الأشرار ولكنها لا تمهلهم، ولقد وقع عيسى في شر أعماله عندما هدّد قبريانوس مطران نصيبين برسالة يطلب فيها أواني بيعية ثمينة ويختمها بهذه الجملة: «أليس تعلم أن أمر الملك بيدي إن أردتُ أمرضته وإن أردتُ شفيتُهُ»<sup>١</sup>.

فأوصل المطران الرسالة إلى الربيع ابن الفضل، وزير المنصور، فأمر هذا بمصادرة كل أموال عيسى، التي كان اعتصرها من سلب نفائس الأديرة والكنائس، وتأديبه بالسوط ونفيه إلى الهند، وكعادة الخلفاء في تبدل المزاج، أحسن الخليفة إلى قبريانوس وإلى الرهبان ورؤساء البيع.

اعتذر جورجيس عن المجيء إلى دار الخليفة وأرسل بدلاً منه تلميذه في الطب إبراهيم وبفضل هذا وبفضل الأسقف قبريانوس أفرج عن الجاثليق وأعيد الأساقفة المخلوعون إلى كراسيهم وتحسنت حال المسيحيين. وإذا كان المنصور قاسياً جداً مع السريان المغاربة بحكم كونهم يعيشون في مناطق خاضعة للنفوذ البيزنطي أو متأثرة به، فإنّه في سياسته مع كنيسة المشرق كان مزاجي التصرف، بخلاف ابنه وخليفته أبو عبدالله محمّد المهديّ (٧٧٥-٧٨٥م) الذي اتّصف بالحلم طوال حياته. فقد كان محبباً إلى الخاصّ والعامّ لأنه افتتح أمره برد المظالم وكفّ عن القتل وأمن الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في إعطاء الأموال<sup>٢</sup>.

وهذه الشهادة من المسعوديّ يزكّيها المؤرّخ الآراميّ ماري الذي يقول إن المهديّ «أحسن السيرة وترك خراج سنة على الناس وردّ ضياعهم عليهم وعاملهم في أموالهم بخلاف سيرة أبيه»<sup>٣</sup>. وابن العبري نفسه يشهد لهذا الخليفة المبذّر -حتى على

١. ابن القفطي، تاريخ الحكماء، تحقيق أمين الخانجي، مصر ١٩٠٨م، ص ١٦٥.

٢. المسعوديّ، أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شار بللا، ٧ أجزاء، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٦-١٩٧٩م، الفقرتان ٢٤٤١ و ٣٤٤٧.

٣. ماري بن سليمان، أخبار بطاركة كرسيّ المشرق، تحقيق جيسموند، روما ١٨٩٩م، ص ٧٠.

الجواري والقيان - أنه كان طيبًا جوادًا، نبيلًا متسامحًا، وكان أيضًا سهل التصديق للخوارق، مثله مثل سائر أهل عصره، وجعل يجمع كتب السحرا<sup>١</sup>.

#### ٤ - سريانيّ مارونيّ يترجم إلى السريانية ألياذة هوميرس

إستفاد ثيوفيلوس بن توما الحمصيّ، منجم الخليفة الرسميّ، من وساوس هذا الأخير فأقنعه بأنّه سيموت بُعيد موت منجمه!!!

لكنّ عبقرية ثيوفيلس المارونيّ تتجاوز هذه الخدعة الذكيّة<sup>٢</sup> إلى ترجمة ألياذة هوميروس من اليونانية إلى السريانية، في وقتٍ كانت دواعي الترجمة تفسيرية أو دفاعية أو لاهوتية عند السريان، وعلمية ومنطقية عند العرب. فإنّ تنطّح هذا السريانيّ الآراميّ المارونيّ لنوع أدبيّ من أصعب الأنواع وأحبّها إلى الجمهور - الملحمية - يدلّ لا فقط على طول باعه الأدبيّ بل أيضًا على تطلّعه إلى آفاق سُميا تتعدّى الادّعاء بترجمة ما تملّيه النجوم!

ولربّما علم الخليفة بما يقوم به منجمه، إذ يراه ساهيًا يبحث عن الصيغة السريانية الفضلى لنقل هذا البيت أو ذلك من الألياذة، فأقام علاقات (بين غزوتين) مع القيصر لاون الرابع (٧٧٥-٧٨٠م): يبتاع بالذهب كتب علوم اليونان القديمة، ويطوّر حركة ترجمة ناشطة كان المنصور بدأها منذ تأسيس بغداد مع بطريق روميّ أسير، على الأرجح. وتحضرنا هنا كلماتٍ معبّرة لابن خلدون، في إشارةٍ منه إلى دور الآراميين السريان في «تحضّر» العرب: «حتى إذا تبجّج السلطان والدولة وأخذ (العرب) من الحضارة بالحظّ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم... تشوّفوا إلى الاضطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسّة المعاهدين بعض ذكر منها... فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات. فقرأها المسلمون واطّلعوا على ما فيها وازدادوا حرصًا على الظفر بها بقي منها»<sup>٣</sup>.

١. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١١.

٢. الكاتب والمرجع ذاتها، ص ١١-١٢. يؤكّد ابن العربيّ إتمام هذه النبوءة!

٣. المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني، ج ١، ص ٨٩٢.

## ٥- تعاضم أهمية «أهل الذمة»

لنعد إلى العلاقات الظرفية بين الخليفة والمسيحيين. كانت علاقات ظرفية لأنها وليدة هذا الحدث السعيد أو ذاك الحدث التعس. والحدث السعيد تمثل بحادثة ظريفة رواها ابن العبري: السرياني المشرقي أبو قريش عيسى صيدلاني له دكة (دكان) بالقرب من أحد أبواب قصر الخليفة. ذات يوم جاءت جارية تحمل أنبوباً فيه بولٌ عكزٌ وسألته مما تشكو صاحبتة. وكان جوابه أن هذه المرأة ستلد صبياً سيكون له شأنٌ عظيم ويملك على الناس. وبالفعل، صاحبة البول كانت الخيزران، جارية ولي العهد المهدي الأثيرة، وقد ولدت الهادي سنة ٧٦١م، فرقي الصيدلاني أبو قريش عيسى إلى مرتبة طبيب الأميرة الرسمي. ولما صار المهدي، والد الطفل، خليفة وصارت أم ولده الخيزران صاحبة السلطة الحقيقية، صار لمسيحيي المشرقي نصير نافذ في البلاط<sup>١</sup>.

وهذا النصير هو من سهل انتخاب الجاثليق حنانيشوع الثاني (٧٧٣-٧٧٩م)، وقد ذكرنا آنفاً كيف خضع مع مرشح آخر للجثلقة لامتحان الخليفة وسؤاله عن المادة المصنوعة منها موسى! ومع أن الناس أعجبوا بتدبير حنانيشوع، إلا أن طمع أبو العباس الفضل الطوسي، حامل ختم الخليفة، سمم هذا الخبر واقتطع قرية دوقرة من أملاك الكرسي. مصيبة ظرفية هي أيضاً، لا يُستنتج منها وجود تدابير رسمية ضد السريان المسيحيين، حتى ولو تصرف في فظاظة مع السريان الغربيين، كما سنرى، وحتى لو أمر بقتل الراهب السوري رومانوس بتهمة التجسس<sup>٢</sup>.

ثمة لازمة تتردد في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية هي أنه: في عهد هذا الخليفة أو ذاك تعاضمت أهمية أهل الذمة... فظلموا المسلمين. ويرى جان موريس فيه أن الأمر يتعلق دائماً بالكتاب المتعجرفين الذين لن يُستغنى عن خدماتهم قبل أن يمرّ دهر. وهذا أحد الشعراء المتظلمين من عجرفة هؤلاء الكتاب يُنشد أمام المهدي:

١. ابن العبري، تاريخ الزمان، ج ٢، الأعمدة ١٧٤-١٦٦.

٢. شابو، الأب يوحنا، تاريخ ميخائيل السرياني الكبير، نشره وترجمه إلى الفرنسية، باريس ١٨٩٩-١٩١٠م، ج ٣، ص ٤٧٨-٤٨٠.

بأبي وأمّي ضاعت الأحلام  
من صدّ عن دين النبيّ محمّد  
إلا تكن أسيافهم مشهورة  
أم ضاعت الأذهان والأفهام  
ألّه بأمر المسلمين قيام  
فينا، فتلك سيوفهم أقلام

لا بدّ من التذكير أن الوزارة ظلّت ابتداءً من العام ٧٨٢م، وحتى نهاية عهد المهدي بين يديّ الفيض ابن أبي صالح، وهو سليل أسرة من نيسابور كانت نصرانيّة. ولا ريب أن هذا الوزير الرفيع الخصال كان على صلة بأعمامه وأخواله وأولادهم ولا بدّ أيضًا أن ضرب صفحًا عن دسائس انتخاب الجاثليق طيمثاوس الأوّل الكبير (٧٨٠-٨٣٢م) الذي سيظلّ حيًّا حتى منتصف عهد المأمون تقريبًا، فقد نشرها الأب ألبير أبونا<sup>١</sup>.

المهمّ أن المهدي كان يستدعي الجاثليق «في أكثر الأيام... (وكانت) له معه مباحث يطول شرحها»<sup>٢</sup>. وفي ذلك يقول الجاثليق نفسه: «المقابلات مع الخليفة كانت تجري في استمرار، وكانت حينًا في شؤون الدولة، وحينًا لإرواء الظمأ إلى الحكمة، الذي كان يشتعل في صدر الخليفة».

فهو ودودٌ ويحبّ تعلّم الحكمة متى وجدها عند غيره<sup>٣</sup>. وقد ترجم الجاثليق كتاب أرسطو: طوبيقًا للمهدي الذي فضّل هذه الترجمة على أخرى من اليونانية رأسًا. وزاد قربه من الخليفة تأليفه كتاب في علم الفلك<sup>٤</sup>. وخلاصة القول أنّ استفادة الأراميين المشرقيين من حظوة جاثليقهم المسموع الكلمة والنافذ الأمر، إضافة إلى ازدهار حياة البلاط بسبب نفوذ الموالي الفرس، حسّاد وزير الخليفة ذي الأصل الآرامي... كانت كلّها عناصر تأثير لاحقة. «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (الرحمن ٢٧).

١. فييه، جان موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، دار المشرق، بيروت ١٩٩٠م، ص ٧٣.
٢. في كتابيه أدب اللغة الآرامية، دار المشرق، بيروت ١٩٩٦م، ط ٢، ص ٣٠٠-٣٨٠، وتاريخ الكنيسة الشرقية من مجيء الإسلام حتى نهاية العصر العباسي، دار المشرق، بيروت ١٩٩٣م، ط ١، ص ١١٣-١٤٣.
٣. صليبا، المرجع ذاته، ص ٦٤-٦٦.
٤. كاسبار روبر، (Caspar Robert) الترجمة العربية للحوار بين الجاثليق طيمثاوس الأول والخليفة المهدي (ق ٢م/ ق ٧م) في (Islamochristiana) ٣، (١٩٧٧م) ص ١٠٩-١٧٥.
٥. ماري، ص ٧٤.
٦. المسعودي، مروج، الفقرة ٢٤٧٧، وابن أبي أصيبعة، المرجع ذاته، ص ٢٢٠-٢٢٤، وابن القطيّ، المرجع ذاته، ص ٢٨١.

## «لا إكراه في الدين»؟؟؟

ليس في عهد الهادي القصير (٧٨٥-٧٨٦م) شيءٌ حضاريّ يستحقّ الذكر سوى تهافت الأطباء الآراميين (أبي قريش عيسى وعبدالله الطيفوريّ وداود بن سرايون وخصوصاً بختيشوع بن جورجيس) إلى سرير الهاديّ العليل، الذي حكم على الأطباء الثلاثة الأول بالموت لعجزهم عن شفائه. وكان نفذ حكمه لو لم تخنقه أمّه الخيزران بعدما تخلّص من سلطتها وسجن أخاه هارون الأثير عندها. من جهةٍ أخرى، لا معلومات لدينا عن علاقة الهادي بالجائليق، علماً أنّ هذا الأخير كان سبباً إلى الاتصال بكبار عصره ومكاتبهم، وربّما جذبهم إلى الإيمان المسيحيّ! ألم يرد في القرآن الكريم، الذي كان الجائليق على اطلاع على آياته، هذا القول اليتيم: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» (البقرة ٢٥٦)؟

فقد كتب ماري: أنّه لم يبقَ ملكٌ إلّا وكاتبه [الجائليق] وجذبه إلى الإيمان وتلمذه<sup>١</sup>. وكان طيمثاوس الأول الكبير في سدّة الجثقة منذ ستّ سنوات عندما حكم الرشيد حكماً رشيداً طالما تأثر بالبرامكة (٧٨٦-٨٠٣م) وعندما صار الجائليق في عداد المقرّبين منه، ومن زوجته السيّدة زينب، ومن آل بختيشوع أطباء البلاط، ومن الكتاب الآراميين الذين يديرون شؤون الدولة. هكذا كانت دائماً حالة السريان الآراميين: لا يتمتّعون بسلطة مباشرة ولكنهم يؤثرون في الحكم بعلمهم وأدبهم وشهادتهم المسيحيّة الصادقة. وقد كانوا على علاقةٍ طيِّبة جدّاً بيحيى البرمكي وأبيه خالد المقيمين مع أقاربها في حيّ البرامكة الأرسقراطيّ: الشّاسيّة، شمال شرق بغداد.

وكان يحيى، بعد غزوة مظفّرة للأراضي البيزنطيّة، قد أسكن الروم الذين سباهم في الحيّ ذاته، فصار محلّ إقامتهم دار الروم، وتحوّل هذا بعد قرنٍ إلى دير الروم، مقرّ الجثقة، وبقربه كنيسة سمالو للملكيين وأخرى للسريان الأرثوذكس. لكنّ ما يهمّنا هنا هو ما ينسبه المسعوديّ إلى يحيى البرمكي: «كان ذا علمٍ ومعرفةٍ وبحثٍ ونظر»، يجمع في داره عددًا من مشاهير أهل النظر للمناظرة والحوار<sup>٢</sup>. وقد شجّع البرامكة عمل الترجمة الذي

١. نقلًا عن فيه، المرجع ذاته، ص ٨١.

٢. المروج، الفقرة ٢٥٦٥.

بدأ في عهد المهدي. وأسّسوا المكتبة الشهيرة المعروفة بخزانة الحكمة والتي تحوّلت إلى بيت الحكمة الشهير. وابتاعوا المخطوطات اليونانية لتُضاف إلى تلك التي حصل عليها العرب قبلاً بوساطة الغزو.

لقد كان لأرامبي كنيسة المشرق دورٌ جوهريٌّ في حركة الترجمة في عهد الرشيد، وهو دور يشرفهم حقاً، وإن يكن يهتمّ جماعة النصارى كلّها ويجعلها في خطر. فإنّ المعروف والمتداول هو أنّ النقلة كانوا يتقاضون أجوراً باهظة ومنحاً ذهبية يوازي وزنها المخطوط المترجم وهذا من شأنه أن يفتح عليهم عيون المسلمين الذين لا يرقون إلى مستواهم. فالإمام الأوزاعي مثلاً، المتوفى في خلافة المنصور (٧٧٤م) كان يحكم بطمر الكتب الإغريقية لأنّ فيها شركاً<sup>٢</sup>. وإذا كانت هذه هي نظرة الفقهاء إلى الكتب، فإنّ كتاب الخراج لقاضي القضاة أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، المستشار القانوني لجعفر البرمكي، يطلعنا على وضع «طبقات» المجتمع.

## أحوال النصارى في أيام الرشيد

فالصيارفة (ومعظمهم من اليهود) وتجار النسيج وأصحاب الضياع والتجار والأطباء كانوا يُحسبون من الأغنياء المفروض على كلّ منهم ٤٨ درهماً في السنة، أمّا التجار وأصحاب الحرف فهم متوسطو الحال وترجّح جزيتهم بين ٢٤ و٤٨ درهماً، فيما يدفع العمال اليهوديون كالحياطين والأساكفة والصبّاغين ١٢ درهماً<sup>٣</sup>، وهذه المبالغ تمثّل أجر عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً بحسب كلود طاهن الذي يضيف: «إنّ الرجل الخاضع للجزية لم يكن مع ذلك أسوأ حالاً من المسلم الذي كان مكلّفاً الزكاة التي كان الذمي معفى منها من حيث هو كذلك»<sup>٤</sup>.

١. عواد، كوركيس، خزائن الكتب القديمة في العراق، بغداد ١٩٤٨م، ص ١٠٥-١١٢.

٢. كانار ماريوس، (Canard Marius) قصص جانبية من تاريخ العلاقات بين بيزنطية والعرب (بالفرنسية) في (I, Studi orientalistici in onore de Giorgio Levi della Vida) روما ١٩٥٦م، ص ١١٧-١١٩.

٣. راجع بن شمش، أ: (Tanation in Islam, Ben Shemesh) الرسوم في الإسلام، ٣ أجزاء، لايدن، ١٩٥٨-١٩٦٩م، المقدمة، ص ١٠.

٤. (Cl. Lahen) الإسلام منذ التناجيع حتى بداية الإمبراطورية العثمانية (بالفرنسية)، ص ٨٢-٨٣.

كان مسموحًا للمسيحيين أن يقيموا في مدن المسلمين ويبيعوا في أسواقهم كل السلع باستثناء الخمر والخنزير. وإذا كان يُحظر بناء الكنائس إلا أنه كان يجوز ترميمها، على ألا تظهر الصليبان في العن. فذلك من شروط الصلح المبرمة منذ الفتح. ويرى دي خويه م.ج. (De Goeje M.J.) أن عمر بن عبدالعزيز قد أصدر فعلاً أوامر تمييزية في اللباس، مشابهة لتلك التي أوصى بها قاضي القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري هارون الرشيد بالإبقاء عليها، ولكنه يضيف: «ويبدو أن الخليفة لم يُصغِر إليه»، وقد أوصى أبو يوسف، بين عامي ٧٨٦ و٧٩٨م، «بأن لا يُترك أحدٌ من المسيحيين يتشبه بالمسلمين لا في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته إلخ...»<sup>٢</sup>.

نعرف أن الأحكام العمرية أو ما يشبهها تعتمل في صدور الجماهير الإسلامية التي لا تهضم أن يكون «الكفار» ذوي علم ومنزلة اجتماعية أو اقتصادية، لكن تطبيقها يبقى رهن إرادة الحاكم ومزاجه، كما ألمعنا سابقاً. وقد تتصلب العقيدة الإسلامية عند هذا المذهب أو ذاك، لكن تطبيقها على الشعوب المغلوبة على أمرها قلماً دفعت المسيحيين، في ولاية الرشيد، إلى الخروج من دينهم، حتى ولو جوبهوا بواقع جماهري مرير: مصافحة المسلم إياهم مدعاة للجنابة (النجاسة)! هل يجوز الردّ على تحيتهم؟ هل يجوز الشراء من دكاكينهم؟ وماذا عن أمور الزواج المختلط والوصاية على الأطفال والموارث؟ أيجب تكييف الحق القانوني المسيحي ليتوافق مع الشرع الإسلامي؟

حتى إسلام المسيحي وُضعت له ضوابط حتى لا يكون شكلياً. فإن صيغة الإسلام تتضمن «الشهادتين المعظمتين وهما شهادة: أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأن عيسى عبد الله ونبيه، ومريم أمة الله، وأن محمداً خاتم النبيين، وأفضل المرسلين، وأن شريعته أفضل الشرائع وملته أفضل الملل، وأن ما جاء به عن الله حق».

١. مذكرة عن فتح سوريا (بالفرنسية) في مذكراته التاريخية والجغرافية، ط ٢، لايدن ١٨٨٦م، ص ١٤٩.

٢. نقلاً عن فيه، ص ٨٧.



ويضيف المرتدّ: «أنا برئتُ من كلِّ دينٍ يخالف دين الإسلام» ثم تُسجّل شهادته عند القاضي ويشهد عليه شاهدان<sup>١</sup>.

## الطبيب والجائليق

سبق أن أشرنا إلى جبرائيل بن بختيشوع، طبيب جعفر البرمكي الخاص. وبعد نكبة البرامكة صار خليلاً للرشيد بعد أن شفى إحدى محظياتَه من شللٍ نفسيّ المصدر. حسده كثيرون ولكنهم قبلوا بالأمر الواقع لأنّ الخليفة صلّى لهذا «الذميّ» في أثناء حجّه، فلمّا سئل الخليفة عن جواز ذلك، أجاب: «نعم فصلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي. فصلاحهم بصلاحه وبقائه<sup>٢</sup>. ويضيف الخليفة في مناسبةٍ أخرى: «كلّ من كانت له إليّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأني أفعلُ كلّ ما يسألني فيه ويطلبه مني»<sup>٣</sup> ولقد ساعد جبرائيل جائليقه على تدبير شؤون الرعيّة. وكتب الجائليق في هذا الشأن: «كان جبرائيل يدا لي وشفّتين ولساناً على باب ملكنا المظفرّ، بل كان مني ضميراً وقلباً يعقل. كان منّي ذلك كلّه وكذلك كان للكنيسة الجامعة. مدّ الله في أجلّه وأجل مولانا المظفرّ سنين مديدة»<sup>٤</sup>.

حفظ الكتاب السريان الآراميون ذكرى طيّبة عن زبيدة، ابنة المنصور وزوجة الرشيد وأمّ الأمين. «كانت تكرم طيمثاوس كثيراً وتميل إلى النصراري وتستخدمهم» وقد شاركت في عمل «أعلام الشعانين» وعلمت الصلبان من الذهب والفضّة وأعطت الجائليق أواني ذهبية وفضية وأقمشة فاخرة<sup>٥</sup>، وكان لها دورٌ في إعادة بناء ما تهدّم من كنائس البصرة على أيدي زمرة حمدون بن عليّ، وكذلك في ترميم دير ربّما كان دير كيليشوع الذي جدّده طيمثاوس وسكنه فدعي دير الجائليق<sup>٦</sup>. ومما يُذكر عن ذكاء هذا الجائليق وسرعة بديته أن

١. النويري، شهاب الدين أحمد ابن عبدالوهاب (١٢٧٨-١٣٢٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٨ جزءاً، القاهرة ١٩٢٣م، وما بعدها، ج ٩، ص ١٤٥.

٢. ابن أبي أصيبعة، المرجع ذاته، ص ١٩٢.

٣. المصدر نفسه، ص ١٨٨.

٤. رسائل الجائليق طيمثاوس الأول، في (CSCO) المجلّدان ٧٤ و٧٥، الرسالة ٥٤ مؤرّخة سنة ٨٠٤.

٥. ماري، المصدر ذاته، ص ٧٣ و٧٥.

٦. آلار ميشال، (Allard Michel) المسيحيون في بغداد (بالفرنسية)، في مجلة (Arabica) ٩، (١٩٦٢م) ص ٣٧٥-٣٨٨، -مقالة عبدالعزيز الدوريّ، ص ٣٧٨-٣٧٩.

الرشيد سأله: «يا أبا النصرى، أجبني عما أسألك في اختصار: أي الأديان عند الله الحق؟». فبادره بالقول: «الذي شرائعه ووصاياه تشاكل أفعال الله في خلقه». فأمسك الخليفة عنه، ولما انفصل من المجلس قال: «لله درّه! لو قال النصرانية لأسأت إليه، ولو قال الإسلام لطالبته بالانتقال إليه، ولكنه أجاب سؤالاً كلياً لا دفع له...»<sup>١</sup>. ونختم عهد الرشيد بقول ذي مغزى لأبي إسحق الفرازبي الكوفي (٨٠١ أو ٨٠٢م) في كتابه الشرح والإبانة لابن بطة العكبري، لاوست هنري (Laoust Henri) ص ٣٩: «لأن أجلس إلى النصرى في بيعتهم أحبُّ إليّ من الجلوس في حلقة يتخاصم فيها الناس في دينهم». هؤلاء المتخاصمون يعني بهم الكاتب: جماعة المعتزلة الذين تجاسروا على طرح السؤال: هل القرآن مخلوق؟

### الأمين والمأمون وما بينهما

ما بينهما ما صنع الحدّاد. فبعد ثلاث سنواتٍ على تَبوء الأمين العرش (٨٠٩-٨١٣م) وقعت إحدى المعارك بين الأخوين بالقرب من حيّ المسيحيين في شمال بغداد، وانتزعت في المعركة أعمدة الكنائس لتُحوّل إلى قذائف تُرمى بالمجانيق، إذ «لم يكن ببغداد حجارة»<sup>٢</sup>. وفي العام التالي قُتل الأمين. ويبدو أنّ المصادر المسيحيّة لم تأسف عليه مع أنّه أجبر حمدون بن علي على القبول بإعادة بناء كنائس البصرة، وفق أمر أبيه الرشيد<sup>٣</sup>، ومع أنّ الطبيب جبرائيل بن بختيشوع كان مؤدّبّه وأصبح كاتم سرّه الخاصّ، ومع أنّ الأمين، مثل أبيه، «لا يأكل ولا يشرب إلّا بإذن [جبرائيل]»<sup>٤</sup>.

أسفرت حرب الأخوين عن خرابٍ كبيرٍ في بغداد، راح ضحيّته منزل الطبيب، الذي نهبه الرعاع، كما نهب العلويّون أيضًا مزارعه في البصرة والأهواز<sup>٥</sup>. ولم يأسف الذين وقعوا ضحية الأحداث على خليفة «قبيح السيرة ضعيف الرأي»<sup>٦</sup>، «وقد بدّد الكنوز التي كنزها

١. فيه، المصدر ذاته، ص ١١٥.

٢. ميخائيل السرياني الكبير، المصدر ذاته، ج ٣، ص ٣٠.

٣. ماري، المصدر ذاته، ص ٧٣.

٤. ماري، المصدر والصفحة ذاتها.

٥. ابن أبي أصيبعة، المصدر ذاته، ص ١٩٤-١٩٥.

٦. المسعودي، أبو الحسن، كتاب التنبية والإشراف، تحقيق ميكال بان دي خويه، لايدن ١٨٩٤م، ص ٣٤٩.

كَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمُلُوكِ الْأُولَى، وَلَكِنْ فِي الْبَاطِلِ، لِأَنَّهُ كَانَ مَاجِنًا وَمِيَالًا إِلَى الْفَحْشِ»<sup>١</sup>،  
ومسيحيو بغداد، في نهاية القرن الهجري الثاني وبداية الثالث، كان عددهم يترجح بين ٤٠  
و ٥٠ ألف نسمة<sup>٢</sup>، ومعظمهم أملوا خيرًا في المأمون.

حفلت السنوات الست الفاصلة بين تولي المأمون الخلافة بعد موت أخيه (أيلول ٨١٣م)  
ودخوله بغداد (آب ٨١٩م) بأحداث تمرّد وتعدّد على المسيحيين من قبل الخارجين عليه النصر  
بن شبت العقيليّ وعمراً، وكذلك بأعمال فتنة بين سريان المشرق والسريان الأرثوذكس قام  
بها كاتب مصاب بداء الكبرياء اسمه باسيلوس، الذي لم يكتفِ بالسيئات ضدّ أبناء دينه بل  
تعدّاهما إلى حشر أنفه في شؤون المسلمين. الأمر الذي استفزّهم فقاموا بردّات فعل.

بدأت العلاقات متوتّرة بين المأمون وجبرائيل بن بختيشوع الذي كان يعمل في خدمة  
البرامكة. لكن مرض الرشيد لم يستطع أطباء بديلون على شفائه، بل شفاه جبرائيل، فأمر  
الخليفة بأن يُردّ إليه كلّ ما صودر منه سابقاً. وصار هذا الطبيب «عند المأمون مثل أبيه،  
وكلّ من تقلّد عملاً لا يخرج إلى عمله إلّا بعد أن يلقي جبرائيل ويكرمه»<sup>٣</sup>. ويبدو أن أحدًا  
لم يكن يستطيع مقابلة الخليفة إلّا بإذن من طبيبه. وتوفّي الله جبرائيل في أثناء غزوة الخليفة  
للأراضي البيزنطيّة، رافقه فيها ابنه بختيشوع. ودُفن الطبيب المحسن إلى المسيحيين في دير  
مار سرجيس بالمدائن. وسار ابنه على دربه. فأقام علاقاتٍ وطيدة مع الجاثليق الجديد إيشوع  
برنون (٨٢٣-٨٢٨م) الذي كان والده سعى إلى تنصيبه، وبعد وفاته مع خلفه كيوركيس  
الثاني (٨٢٨-٨٣١م). أما الخلف التالي سبريشوع الثاني (٨٣١-٨٣٥م) فقد كان من قبل  
مطران دمشق حيث لفت انتباه الخليفة بالاستقبال الودّي الذي هيأه له «ولأصحابه وجماعة  
النصارى الذين كانوا معه»<sup>٤</sup>. لذلك تمتّع برضى الخليفة الذي أذن له بتجديد دير مار فثيون  
بحيّ العتيقة في جنوب غرب بغداد.

١. ابن أبي أصيبعة، المرجع المذكور، ص ١٩٧.

٢. متز آدم، (Metz Adam) الحاضرة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ، ترجمة محمّد عبدالمهدي أبو ريده، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٧م، ج ٤،  
ص ٨٤.

٣. ابن أبي أصيبعة، المرجع المذكور، ص ١٩٠.

٤. ابن الأثير، عزّ الدين، كتاب الكامل في التاريخ، ١٣ جزءاً، بيروت ١٦٥-١٩٦٧م، ج ٦، ص ٤١٨.

لقد كان تأكل الجماعات المسيحية بفعل الإسلام قد بدأ قبل عهد الأمين. وتردّدت أقوال تتهم الإسلام بالانتشار بقوة السيف. وإسكاتاً لهذه الأقوال، وتدليلاً على تفوق الإسلام كدين يشدّ الناس، دعا المأمون إلى بغداد رؤساء الملل في دار السلام لينظروا علماء المسلمين. ونفهم من ابن النديم، الذي أرخ المانوية، أنّ رئيس هذه البدعة آنذاك، يزدان بخت، حضر الاجتماع وأفحم ودعا الخليفة إلى الإسلام، فلمّا رفض بعث معه الخليفة من يحرسه من سوء معاملة العامة<sup>١</sup>.

ومهما يكن من أمر، بلغت حركة الترجمة إلى العربية في عهد المأمون ذروتها. اتّصل الخليفة عدّة مرات بملوك البيزنطيين، طالباً أن يأذنوا لبعثة عربية-سريانية أرامية بالسفر إلى بلاد الروم لجمع المخطوطات في علوم الطبيعة والهندسة والطب، أو أن يرسلوا إلى بغداد عالم الرياضيات اليوناني المشهور لاون<sup>٢</sup>.

وكلف الخليفة سهل بن هاون، الشاعر والناثر العربيّ من أصل فارسيّ، تسلّم دار الحكمة وإدارتها. وهذا أحاط نفسه بعلماء ونقله نصارى، ينتمون إلى الكنائس الثلاث: كنيسة المشرق، كنيسة أنطاكية أرثوذكسية وكنيسة أنطاكية الملكية. هؤلاء نقلوا التراث الفكريّ اليونانيّ إلى العربيّة، مروراً بالسريانية. بعضهم كان يترجم حرفياً، لكن الأفضل بينهم كانوا يقرأون النص ويثبتون معانيه بلغة عربية قشبية، وستعرّف إلى هؤلاء النقلة العلماء في فصلٍ خاصّ.

من غريب الأمور، أنّ عمل الترجمة الحضاريّ الذي قام به السريان الآراميون عاد بالويل على عمّة الشعب المسيحيّ. فإنّ الأفكار الفلسفيّة الناتجة من هذا العمل طعّمت الفكر الإسلاميّ السلفيّ، فنشأت حركة المعتزلة، وهم فئة من القدرية قالوا إنّهم اعتزلوا فتّي الضلالة في زعمهم، أي أهل السنّة والخوارج، وفي شهر حزيران من العام ٨٢٧م، انحاز المأمون إلى المعتزلة وأعلن عن عقيدته: «إنّ القرآن، وإن كان مُنزلاً، فهو مخلوق، وإنّ الحرّية الإنسانيّة لا تلغيها عقيدة القدر»<sup>٣</sup>، وهذا في الواقع رأي المسيحيين في الموضوع.

١. الفهرست، تحقيق ج. فلوجل، ١٨٧١م، ج ١، ص ٣٣٨.

٢. فيه، المرجع المذكور، ص ١١٩.

٣. الطبري أبو جعفر محمّد، تاريخ، عشرة أجزاء، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٩م، ج ٣، ص ١١٣٥-١١٣٨.

لقد حكم المأمون بالموت على علماء مسلمين رفضوا القول بخلق القرآن واعتبروا، هم أيضًا، أن انحياز المأمون للمعتزلة هو من نتائج دخول الفلسفة الفكر الإسلامي، جرّاء الترجمة التي كان النصارى مسؤولين إلى حدّ بعيد عمّا نتج منها، وكذلك جرّاء ميل المأمون إلى النصارى<sup>١</sup>. والواقع أن الخليفة كان يثق بالآرامي الذي يحافظ على دين آبائه وأجداده، ويشكّ في ولاء الآرامي الذي لسببٍ أو لآخر اعتنق الإسلام وقد نُسب إليه قوله في هذا الشأن: «والله إنّي لأعلم أنّ فلانًا وفلانًا... ليُظهروا الإسلام وهم أبرياء منه ويراؤوني، وأعلم أن باطنهم ليخالف ما يُظهرونه، وذلك أنهم قومٌ دخلوا الإسلام لا رغبةً في ديانتنا هذه بل أرادوا القرب منّ والتّهزّب بسلطان دولتنا، لا بصيرة لهم ولا رغبة في ما دخلوا فيه... وإنّي لأعلم أنّ فلانًا وفلانًا... كانوا نصارى فأسلموا كرّهًا، فما هم بمسلمين ولا نصارى»<sup>٢</sup>. مساكين الآراميون! إن أسلموا اتّهموا، وإن ثبتوا قال فيهم شاعر مغمور يدّعي ترجمة موقف الرشيد:

لَعَنَ النصارى واليهود كأثمهم      بلغوا بنا من دهرنا الآمالا  
خرجوا أطباء وكتّابًا لنا      فتناهبوا الأرواح والأموالاً<sup>٣</sup>

### المتصم وابنه «عدوّ النصارى»

نصل الآن إلى المتصم (٨٣٣-٨٤٢م) الذي نقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء. ويرى ميخائيل السرياني أن هذا الموقع غير الصالح للسكن إنّما تخيّره الخليفة للصيد<sup>٤</sup>. وليُسكن فيه جنوده الأتراك الذين كان يُفضّلهم على العنصر العربيّ، ما سينعكس انحطاطًا للدولة العباسية. وعن علاقته مع المسيحيين المشرقين، سعى أحد أبنائه المكتنى بأبي داود باستصدار «أمرٍ من أبيه يحظرّ على النصارى أن يُظهروا الصلبان خارج الكنائس، وأن يقرعوا النواقيس، وأن يُجهروا بالصوت في الصلاة أو في الجنائز بالسبل، وأن يُظهروا الخمر بأيّة مدينة أو على الطرق. فصار الناس منذئذ طعمة للعمال [للحكّام] الذين كانوا

١. ماري، ص ٧٤.

٢. راجع رسالة الهاشمي إلى الكندي، تحقيق (Anton Tien) لندن، ١٨٨٠م، ص ٦٦.

٣. فيه، المرجع ذاته، ص ١٢٤، ج ٥٦.

٤. تاريخ، ج ٣، ص ٨٨.

يتشدّدون أو يترفقون في تنفيذ هذا الأمر حسبما يشاؤون أو بقدر ما يأخذون [يرتشون]»، وقد دعاه ميخائيل السرياني «عدو النصارى»<sup>١</sup>.

يضيف ميخائيل السرياني، البطريك الأرثوذكسيّ الكبير -نقلًا عن ديونوسيوس التلمحريّ- أنّ المعتصم «كان يفرض مكوسًا على كلّ شيء، وحتى على الموتى!»<sup>٢</sup>. ويؤكد الرهاوي المجهول، الذي يتميّز عادةً بالحياد في إطلاق أحكامه، هذه الشهادة، ويضيف: «كان أشدّ جشعًا من أسلافه... وفي خلافته نزل بالناس ضيقٌ كثير على أيدي قضاةٍ ظلّمة وعمّالٍ جشعين»<sup>٣</sup>، وقليلةٌ هي أخبار احتكاك المعتصم بالآراميين، باستثناء استخدامه وقواده أطباء منهم، مثل سلمويه المتطبّب وزملائه يوسف بن صليبا وسليمان بن داود بن بابان ويوسف القصير البصريّ وبولس بن حنون، إضافة إلى بختيشوع الذي سبق ذكره.

ومن أخبار احتكاك الخليفة بالرهبان أنّه ابتاع من بعضهم، سنة ٨٣٧م، ديرًا مع ضياعه في الموقع الذي بنى فيه قصره بسامراء. وجرّت في عهده ارتداداتٍ إلى الإسلام تلتها اهتداءاتٍ إلى المسيحيّة في سروج، «فقبض على نفرٍ منهم فتحملّوا التعذيب في شجاعة» إلى أن أفنعت امرأةٌ منهم، من قرية بشان، قاضي الرقة الذي وضع حدًا لتصرّفات المسلمين الفظة<sup>٤</sup>.

سبق أن ذكرنا وكرّرنا تدخل السلطة الزمنية في انتخاب السلطة الروحية في الشرق المسلم ولا بدّ أيضًا أن ندين اختلاف الأحرار والأعيان المسيحيين وتوسّلهم ذراع السلطة الأولى. وهذا ما حدث في انتخاب الجاثليق إبراهيم الثاني المرجيّ (٧٣٨-٨٥٠م). فقد ساندته من جهة سلمويه وأخوه إبراهيم صاحب ختم الخليفة وبيت المال ومعهما أهل الحيرة وكشكر، ومن جهة ثانية ساند بختيشوع وأهل الأهواز مطران جنديسابور آبا الذي اختاره الآباء في نهاية الأمر. فتدخل سلمويه لدى المعتصم الذي أمر بفرض إبراهيم وانقسمت

١. تاريخ، ج ٣، ص ٩٦-٩٧.

٢. تاريخ، ج ٣، ص ١٠٤.

٣. نقلًا عن فيه، ص ١٣٠.

٤. المسعودي، مروج، الفقرة ٢٨٠٤، التنبيه، ص ٣٥٧.

٥. نقلًا عن فيه، ص ١٢٨-١٢٩.

الرعيّة حتى وفاة أبا فثبتت جثقة إبراهيم. لقد كان المعتصم يسمّي سلمويه «أبي»، ويعلن على الملأ أنّ طبيبه الخاصّ أهمّ في نظره من قاضي القضاة، «لأنه يعتني بشخصي، وشخصي أكرم عندي من جاهي ومن مملكتي». وقد مات الخليفة بعد سنة من وفاة طبيبه (٨٤١م).

## الوائق: الخليفة الماجن

لما خلف أبو جعفر هارون الواثق بالله أبا «فرح الناس واستبشر وأبأنه ربّما خفف عنهم أعباء المكوس المرهقة التي ربّتها أبوه عليهم إلّا أنّه تهالك على الشرب والغناء والملاذ والمجون وترك الخلافة بين أيدي رجال ثلاثة [الوزير ابن الزيّات، قاضي القضاة ابن أبي دؤاد، وربما صاحب شرطة بغداد إسحق بن إبراهيم]. لذلك لم ير الناس الفرّج ممّا كانوا فيه من شدائد أثقلت كواهلهم، بل ألقى على أعناق الناس عبء نير لا يُطاق من الضرائب الباهظة، تُجبي منهم بلا حلم ولا رأفة. وقد راح العمّال، الذين أقامهم على تدبير شؤون المملكة يعتسّفون بالشعوب الخاضعة لحكمه أيّما عسف، مدّة عهده. أمّا هو فلم يكن يبالي قطّ بما يجري، إذ كان مشتغلاً عن ذلك بالشرب واللّهو والمجون ليله ونهاره»<sup>١</sup>.

يُحِيل إلى من يقرأ هذه الجانيّة لخليفة المسلمين أمران: الأول أن الخليفة هو كذكر النحل يقضي أيامه بين الحرّيم، والثاني أنّه يعطي صورة مشوّهة عن المسلمين. فإنّ ما شكّا منه المؤرّخ المسيحي لم يطل فقط المسيحيين، بل أيضًا فقراء المسلمين. فمنع عنهم العلم الذي لو توفّر للعامة - ولم يبق محصورًا في الخاصّة وفي تعلّم قراءة القرآن فقط - لغنمت الحضارة الإسلاميّة استمرارًا تخلّت عنه بعد أن أدّت قسطها للعلّي عبر المفكرين الآراميين الذين استمرّت حضارتهم وظلّت، حتى في عصر الانحطاط، علامة فارقة على جبين هذا الشرق.

## ١ - حنين بن إسحق

بينما ينصرف الخليفة إلى مبادئه كانت تُعقد في قصره مناظرات في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة، يشارك فيها ابن بختيشوع، ويوحنا بن ماسويه، وميخائيل ابنه، وسلمويه،

١. ميخائيل السريانيّ، ج ٣، ص ١١٣، الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ٢٥-٢٨.

وخصوصًا حنين ابن إسحق<sup>١</sup>. الأربعة الأوّلون آراميون أقحاح، أمّا حنين فكان أصله من العباد سكّان الحيرة حيث نشأت الكتابة العربيّة بالاحتكاك مع الآراميين. وكانت نصرانيّة العباد نصرانيّة سريانيّة، وكانت المعارف الدينيّة عند السريان منتشرة في مدارس الأديرة، فتعلّم حنين تلك المعارف في أحد الأديرة العديدة الموجودة في الحيرة. «فمن الناحية الدينيّة إن حنينًا وارث الثقافة السريانية المسيحية... ومن الناحية العلميّة كان وارث الثقافة اليونانية الوثنيّة... ومن الناحية اللغوية كان وارث الثقافة العربيّة الإسلاميّة. فاختلطت تلك الثقافات الثلاث في شخصيّة حنين، وأدّى هذا الاختلاط إلى تكوين ثقافة جديدة غنيّة جدًّا، لها صبغة خاصّة تميّزها من الثقافات السابقة»<sup>٢</sup>.

ثمّة نواحٍ أخرى في شخصيّة حنين، تتجلّى أولاها في موسوعيّته وتعدّد معارفه، وهذه سمة مميّزة عند غيره من الكتاب الآراميين. «لقد اهتمّ حنين بجميع فنون المعرفة البشريّة في زمانه. فلم يكتفِ أن يهتمّ بجميع فروع الطبّ وخصوصًا بعلم العيون وعلم الأعذية وعلم الأدوية، بل اعتنى أيضًا بعلومٍ أخرى كثيرة، منها الطبيعيّات والرياضيّات، التنجيم وتعبير الرؤيا، الفلسفة والتاريخ، النحو واللغة. والناحية الثانية من شخصيّة حنين هي رغبته في نقل العلم إلى بني قومه بالمتحد والثقافة، عنيتُ العرب والآراميين. لقد ترجم من اليونانية إلى السريانية فالعربية قرابة مائتي كتاب، منها قرابة ٩٥ كتابًا في الطبّ، فسمح بذلك بانتقال جزءٍ كبير من العلم القديم المكتوب باليونانية إلى الشرق العربيّ الإسلاميّ في القرن التاسع أولًا، ثمّ إلى الغرب اللاتينيّ المسيحيّ في القرن الثاني عشر، عندما تُرجم بعض كتبه إلى اللاتينية»<sup>٣</sup>.

والناحية الثالثة من شخصيته تبرز من خلال حداثته ترجمته، أي استخدامه، في القرن التاسع، المنهج العلميّ الحديث في الترجمة. لقد كان في عصره مسلكان في التعريب نقلهما البهاء العامليّ في الكشكول عن الصلاح الصفدي، قال: «وللترجمة في النقل طريقتان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصيّ وغيرهما، وهو أن يُنظرَ إلى كلّ كلمة مفردة

١. ابن أبي أصيبعة، ص ١٨٣-١٨٤ و ٢٤٦-٢٥٥، والمسعودي، مروج، الفقرة ٢٨٥٧.

٢. مهرجان أفرام وحنين، مطبوعات مجمع اللغة السريانية، بغداد ١٩٧٤م، مطبعة المعارف، بغداد، مقالة تروبو، البروفسور جيرار بعنوان حالة حنين بن إسحق، ص ٣٧٥-٣٨٠.

٣. المرجع ذاته، ببعض التصرف.



من الكلمات اليونانية وما تدلّ عليه من المعنى، يأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة لوجهين، أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية، ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها، الثاني أن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواءً ساوت الألفاظ أم خالفها. وهذا الطريق أجور، ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي، فإن الذي عرّبه منها لم يحتج إلى إصلاح<sup>١</sup>.

تبقى الناحية التي تهّمنا، أكثر من غيرها، غنيت الحوار الإسلامي المسيحي. فلو كثرت المناظرات كتلك التي كانت تعقد في قصر الخليفة الخليع، ولو اهتمّ ذوو السلطة والشأن في العالم الإسلامي، على مرّ العصور، بمثل هذه المناظرات، ولو اقتدى المتناظرون بحنين بن إسحق في طريقة حوارهِ الموضوعي، لكان مصير الحضارة الإسلامية أكثر إشراقاً، ولكانت عذابات الأراميين المسيحيين أقلّ وطأة. وفي عالمنا اليوم، لن يكون الحوار الإسلامي - المسيحي إلا إذا احترّم كلّ فريق عقائد الفريق الآخر، وبيّن الأسباب التي منها يقبل الحقّ والأسباب التي منها يقبل الباطل، مثلما فعل حنين لما أجاب صديقه علي بن يحيى على دعوته إياه إلى الإسلام، مبرهنًا في رسالته على حقيقة ديانته. فلقد اكتفى حنين بأن يُصرّح أنّه قبل ديانته من الأسباب التي منها يقبل الحقّ، من دون أن يحاول أن يُقنع صديقه بحقيقة ديانته.

حبذا أيضاً لو صحّ في كلّ العصور ما رآه المستشرق السوفيّاتي بارتولد من أن البلاد التي وقعت في حوزة المسلمين كانت خير حالٍ من سواها، وكان «النصارى أحسن حالاً تحت حكم المسلمين في الأزمان الأولى لحاجة الفاتحين إلى هذا العنصر المسيحي المتفوق على

١. البستاني، سليمان، الأداة هوميروس - معرّبة نظماً وعليها شرح تاريخي أدبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بلا تاريخ، الجزء الأول، المقدمة، ص ٧٥-٧٦.

العرب حضارة... وصارت شواطئ الفرات [ودجلة أيضًا] بعد استعادة مكانتها القديمة، أحد مراكز حضارة العالم.

في عودة إلى المعتزلة لا بدّ من ذكر أحد كبار فقهاءهم إبراهيم بن سيار النظام، عدو أهل السنة والجماعة، وأحد النوابغ الذين قال فيهم الجاحظ إنّ الدهر لا يجوز بمثلهم إلاّ كلّ ألف سنة<sup>٢</sup>. هذا المعتزل لم يتردّد في تأليف كتاب في تفضيل التثليث على التوحيد<sup>٣</sup>. العنوان في حدّ ذاته يُظهر تأثير الفكر الآرامي المسيحي في مسلمي القرن التاسع. وبيان هذا التأثير أيضًا في شعر الشعراء: فقد كاد الحسن بن هاني، المعروف بأبي نؤاس (٧٥٧-٨١٤م) أن يصرّح بالاهتداء إلى النصرانية ليستهوي غلامًا نصرانيًا! كذلك كتب مدرك الشيباني (القرن العاشر) قصيدة محشوة بالمصطلحات المسيحية وبأسماء القديسين، ليعبّر بها عن حبه عمرو بن يوحنا أحد نزلاء دار الروم<sup>٤</sup>.

## ٢- الانقلاب السني مع المتوكل والمسيحيين الآراميين

أبو الفضل جعفر المتوكل (٨٤٧-٨٦١م) ضرب المعتزلة والعلويين وأفلت قبضة أهل السنة والجماعة في الناس، مسلمين وخصوصًا مسيحيين. كان فظًا مسرفًا متقلّب المزاج غضوبًا فكتب إلى عماله باتّباع القرآن والسنة فقط. وسياسته مع المسيحيين عشوائية كانت. فالجميع معرّض للاعتقالات أو المصادرات. ولا سيّما «العلماء والكتّاب في زمانه، فحطّ مراتبهم وعادى العلم وأهله، فاتّضعت العلوم في أيامه. وقتل كثيرًا من الكتّاب واستصغى أموالهم وهدم منازلهم»<sup>٥</sup>.

إذا كانت صورة المسلمين السنة هي تلك التي قدّمها المتوكل فبئس هذه الصورة! ولقد سبق وتكلّمنا على الأحكام العمرية، ونضيف هنا أن نقادًا مختلفين نفوا نسبتها إلى عمّر بن الخطاب أو إلى عمر بن عبدالعزيز، وألصقوها بالمتوكل. فقد أمر بتنفيذ إجراءات

١. بارتولد، فاسيلي فلاديمير فيج، الحضارة الإسلامية، ترجمة من التركية إلى العربية، حمزة طاهر، ط ٤، مصر ١٩٦٦م، ص ٥٣.

٢. الزركلي، خير الدين، الأعلام، عشرة أجزاء، ط ٢، القاهرة ١٩٥٤-١٩٥٩م، ج ١، ص ٣٦.

٣. بروكلمان كارل، (Brockelmann Carl: Geschichte der arabischen Litteratur) لايدن، ١٩٤٣م، الملحق الأول، ص ٣٣٩.

٤. فيه، المرجع المذكور، ص ١٣٦، ح ٨.

٥. صليبا بن يوحنا، المرجع المذكور، ص ٧١.

تمييزية تستهدف أهل الذمة، وتحديداً في المدة المنصرمة بين ١٨ نيسان و١٦ أيار من سنة ٨٥٠م، ويبرّر ابن القيمّ الجوزية ذلك بتكاثر الذميين في الدواوين فوق الحدّ، حتى أراحوا المسلمين وحلّوا محلّهم في خدمة شجاع، والدة الخليفة، وفي بطانة أهله وأقاربه<sup>١</sup>. ولعمري، إذا كان علم المسيحيين الآراميين وجدارتهم في تسيير أمور دولة المسلمين، هما سبب تطبيق الأحكام العمرية عليهم، فلا كانت دولة ولا كان...، إلا إذا كان تكبّر الكتاب النصارى هو السبب، لا سيّما أنهم كانوا مدرّكين أن الدواوين لم آنذاك قادرة على الاستغناء عن خدمات النصارى عموماً في الشأن الاقتصادي الذي لا يتعاطاه أهل الحرب وتخليد النسل!

هناك نقطة أخرى تطالعنا فيما نحن نتوغّل في دراسة العلاقة بين شعبيين ساميين وحدّت بينهما المصالح والعادات ولكن فرّق بينهم الدين. وأعني بهذه النقطة سيطرة الرعاع على النخبة، سيطرة الشارع على السراي، سيطرة الجهال على العقّال. ففي كلّ العصور الإسلامية نجد الشعب يضغط على الحاكم، فيضحّي هذا بشعبه -أجل شعبه، ولو كره!- ليتخلّص سياسياً من مأزقه. وهذا نوع من الانتهازية لا يشرف أصحاب الشأن الذين تعاقبوا على السلطة في البلدان الإسلامية. والغريب أن هذه الانتهازية لا أصل لها في القرآن الكريم ولا في مبادئ الإسلام الأخلاقية<sup>٢</sup>. ولا شك أن الشروط العمرية كانت شديدة الوطأة على النصارى، ودفعت بالعدد منهم إلى اعتناق الإسلام، بحيث يحقّ لنا أن نسأل كلّ مسلم متعصّب، في أيامنا، هل فكّر يوماً في كون أجداده القدامى سريان آراميين غلبوا على أمرهم فأسلموا؟!

### ٣- جائلق سجين وطبيب منفيّ

هذه الوطأة عاناها السريان الآراميون جزئياً في أثناء جثلقة إبراهيم الثاني، وكان حسب ابن العبري، عاقلاً، قليل العلم، متواضعاً، كثير الرحمة، شهد تهديم خمس كنائس في البصرة فقط، وتسوية بعد مقابر النصارى بالأرض حتى لا تعلق على مقابر المسلمين<sup>٣</sup>.

١. أحكام أهل الذمة، المرجع المذكور، ج ٣، ص ١٠٠-١٠٤.

٢. مياّه، م، (.Miah, M). حكم التوكّل (بالإنكليزية) (Ph. D. thesis S.A.O.S) لندن، ١٩٦٢م، في عُمر ف.، (AGeneral Sketch, Omar, F) ص ٣٥.

٣. فيه، المرجع المذكور، ص ١٤٢، ١٤٣.

وعند انتخاب خلف له، اضطر الأطباء والكتّاب إلى عقد أربع دورات متباعدة في الزمن، كما لجأ الطبيب بختيشوع إلى استمالة الخليفة، حتى استقرّ الرأي على مطران جنديسابور، مدينة الأطباء آل بختيشوع، فأعلن جاثليقًا باسم تاداسيس (وفي «سلسلة بطاركة كنيسة المشرق» التي نشرها الأب ألبير أبونا): تاودوسيوس أو أثناسيوس الأول (٨٥٣-٨٥٨م). يُلاحظ أن انتخابه اقتضى مرور ثلاث سنوات تقريبًا! وليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ. فالحساد -ودود الخلل منه وفيه- ألبوا الخليفة على الجاثليق وعلى «عزّابه» الطبيب بختيشوع، فحبس الأول بعد شهر من سيامته، وأخذ من الثاني كلّ ما كان يملكه -وكان يملك الكثير الكثير- فاتقر وهام على وجهه ومات في منفاه في البحرين سنة ٨٧٠م، هذه كانت نهاية بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس بن بختيشوع العيلاميّ: عائلة تتوارث الطبّ أبًا عن جدّ، فزال مستقبلها الطّبيّ، خلف المغضوب عليه صبيين وثلاث بنات من امرأته، الصبي الأول من إحداهما هو جبرائيل الذي لم نعد نسمع عنه، والصبيّ الثاني من الزوجة الثانية هو يوحنا الذي صار مطران الموصل. باطل الأباطيل وكلّ شيء تحت الشمس باطل! أهو الغضب أم التعصّب الأعمى ما دفع الخليفة إلى نكبة صديقه الطبيب، وسجن الجاثليق وهدم دير يزدفنه بسامراء<sup>١</sup> وإقطاعه لمحمّد بن جميل صاحب الشرطة ليني فيه دورًا للسكن، ونش عظام الجاثليق الميت إبراهيم الثاني المرجي وطرحها في دجلة، وطرّد الكهنة والشامسة من سامراء حتى لا يدفنوا النصارى، وهدم بضع كنائس وأديرة مثل مار قرياقس المشهور بزياحات عيد الشعانين ومثل هيكل مار يونان الأنباريّ، وبكلمة، ما هذا الجنون الذي زاد على كلّ هذه الأعمال الشنيعة إجبار المسيحيين على مخالفة المسلمين في أزيائهم ومنعهم من ركوب الخيل ومن التوجّه إلى الأسواق يوم الجمعة، والتحرّيم على أولادهم أن يدرسوا في كتاتيب المسلمين حتى لا يعودوا قادرين على محاجة المسلمين؟

١. الطبريّ، المرجع المذكور، ج ٣، ص ١٤١٩.

#### ٤ - الطائفية عند مسيحي الشرق: أجسام مضادة لـ «الأحكام العُمرية»

لا ريب أن الذاكرة الجماعية عند السريان الآراميين لا ترسم صورة مقبولة لمن فرض على أجدادنا الأعمال التمييزية المحقّرة، وأن هذه الصورة تظل مهزوزة على مرّ السنين، خصوصاً أنهم منعوا أيضاً من أن تكون لدورهم نوافذ تُشرف على المساجد، وأجبروا على تعليق صور شيطان من خضب على أبواب بيوتهم وما اهتزاز هذه الصورة إلّا نوعاً من تكوّن أجسام مضادة -يسمّيها البعض طائفية- لو عبّرت عن ذاتها لصرخت بالفم الملآن: نرفض أن نعيش ذميين وقد خلقنا الله أحراراً، مثلما رفض بعض الكتّاب في أيام المتوكّل أن يظلّ سيف ديموكليس مسلطاً فوق رؤوسهم فباعوا آخرتهم بديانهم، وتوصّل بعضهم إلى رتبة الوزارة ومنهم: عيسى بن فروخان شاه، وأحمد بن إسرائيل الأنباري، وأخوان من بني مخلد الدورقائي<sup>١</sup>. وشهدت تلك الفترة، كما لا يُخفى، إسلام عددٍ كبير من النصارى. ما يزيد الطين بلّة هو أنّ أحد ألمع العقول العربيّة في هذا القرن، عمرو بن بحر بن محبوب الكِنَائي الملقّب بالجاحظ، اتّخذ موقفاً من النصارى لا يشرف أبداً ذكاءه وخفة روحه وحُسن معاشرته وظريف حديثه وطيب نكته. لقد كان مطبوعاً على السخر والتهكّم، ولكنّه وهو المعتزل الحرّ التفكير بدلاً من أن يسخر من التمييز والمميزين لآع نفسه من الحاكم وماشى الغوغاء في كتابه البرد على النصارى الذي يفتقر إلى الموضوعية والتناقض في عرض حجج دينه الذي لا يؤمن به هو الزنديق مصطنع الأحاديث النبويّة والمتهاون بالصلاة ومحّب اللهو والمجانة وسامع القيان والمغنين والمستمتع بالإماء والجواري ديماغوجية ظاهرة! وقد فهم الخليفة عجز كتاب الجاحظ عن تأدية مهمّته في إذلال النصارى. فكلف يهودياً أسلم منذ عهد المعتصم هو علي بن سهل الطبري أن يقوم بالمهمّة، فألف هذا كتاب الدين والدولة، وذكر فيه أن لاعتناق الإسلام مزايا ماديّة فضلاً عن اعتقاد الدين الحقّ<sup>٢</sup>.

١. ماسينيون، لوي، (Massignon, Louis) السياسة الإسلامو-مسيحية للكتّاب النساطرة من ديرقُنا في بلاط بغداد في القرن التاسع، في (Vivre et penser) (مجلة بيلية)، ٢ (١٩٤٢م) ص ٢٥١.

٢. نقلًا عن فيه، ص ١٤٨.

## ٥- الجاثليق سر جيس الأول (٨٦٠-٨٧٢م)

عودةً إلى مزاج المتوكل المتقلب: في أيلول ٨٥٧م، مات طبيبه الجديد يوحنا بن ماسويه، فأمر بأن تُقام له جنازة لاثقة، ولما ذُكر أنّه سبق له أن طرد كل الكهنة من سامراء، انقلب موقفه من النصارى رأساً على عقب: أخرج الجاثليق تازاسيوس من السجن، وسمح للكهنة بالبقاء في المدينة، وأذن لجاثليق بدخول بغداد مكرّماً. سيف ديموكليس يلوح يميناً ويساراً! الله يستر! وتذكر الخليفة أنّه لما كان ما يزال أميراً وزار دمشق أجرى له مطران نصيبين سر جيس استقبالاً حافلاً، فأراد أن يُجثلقه، فقبل له هذا لا يمكن عند النصارى إلا بعد موت الجاثليق القائم فصر على مضر. والجاثليق الكهل لم يخب ظنه فمات في ٦ تشرين الثاني ٨٥٨م، بعد جثلقةٍ دامت خمس سنوات وثلاثة أشهر، فقضى منها ثلاث سنوات ونصف في السجن!

أصرّ المتوكل على جثلقة سر جيس على رغم معارضة بعض الأبحار ذلك، لأنّ إثنين من أساقفة نصيبين السابقين تسبّبوا الأول بقتل الجاثليق بابي والثاني -يوحنا الداسني- بخلع الجاثليق حنانيشوع. فنُصّب في ٢١ تموز ٨٦٠م، وانصرف الخليفة إلى بناء قصره الجعفريّ في محلة الماحوزة، وبناء المتوكلية (سامرائه الجديدة) إلى الشمال من المدينة الأصلية، لكأنه يريد البعد من بغداد. وكلّف أحد النصارى: دُليل بن يعقوب متابعة الأعمال. ولكن «عندما انتقم الله من [المتوكل] وأرسل عليه بعض جنده الواصلين إليه فقتله في فراشه وخلّص المؤمنين [المسيحيين] من شرّه» لم يكن للنصارى إلا دور ثانويّ في القضية<sup>١</sup>.

## ٦- خلفاء قتلة ومقتولون

من قتل أباه قُتل. هذه حالة الخليفة المنتصر (٨٦١-٨٦٢م) الذي شارك في اغتيال أبيه فمات مسموماً بعد ستة أشهر استفاد منها الجاثليق سر جيس لإعادة بناء هيكل دير مار يونان الذي هُدم في زمن سلفه. فقد كان الخليفة «ذا شهامة ومعرفة»<sup>٢</sup>، فيما كان خلفه المستعين، ابن محمد أخي المتوكل (٨٦٢-٨٦٦م) متقرّباً من الشيعة ففرّ من سامراء إلى بغداد أمام منافسه

١. صليبا، ص ٧١، نقلًا عن فيه، المرجع المذكور، ص ١٥٣.

٢. المسعودي، التنبيه، الفقرة ٢٩٩٠.

وابن عمّه المعتزّ (٨٦٦-٨٦٩م) الذي أمر بقطع رأسه ولم ينظر إلى الرأس المقطوع إلا بعدما فرغ من لعب الشطرنج. ولترك والكتّاب والأطباء المسيحيين أدواراً في هذا التكالب على السلطة.

ولم تهدأ الأحوال مع المعتزّ الذي أعاد الاعتبار إلى سلالة أبيه المتوكّل تجاه النصارى، مع أن أمّه المتسلّطة قبيحة (هذا اسمها!) كانت رومية! وبعض المتورّطين من النصارى في مشاكل البلاط دفعوا جلودهم ثمناً لعدم فطنتهم، ولا سيّما أبو نوح عيسى متسلّم الختم والتوقيع. والجائليق سر جيس ظلّ في الظلّ. وخُلع المعتزّ في تموز ٨٦٩م، ومات جوعاً في الحبس، وكان عمره ٢٤ سنة. هنيئاً للمسلمين بخلفاءٍ كالمعتز والمستعين والمعتز!

والمهتديّ (٨٦٩-٨٧٠م) كذلك، الذي تميّز بأصوليّته «وكاد أن يكون في بني العباس مثل عمر بن عبدالعزيز في بني أميّة هذباً وفضلاً ودينًا، فصادف أقوامًا لا يجوز عندهم أخلاقُ الدين ولا يريدون إلا أمر الدنيا، فسفكوا دمه وتشتّتت أمورهم بعده». وخلال هذه الخلافة المهترّة والعبارة - وما سبقها ولحقها من خلافات - كان العشرات من المؤلّفين والأدباء والفلاسفة السريان ينبغون كلّ في مجاله، وسنورد أعمالهم في فصل لاحق. ولسنا نعرف شيئاً عن أحوال النصارى في عهد المهتدي ما خلا وجود بعض الأطباء والكتّاب، وبعض النكبات التي أنزلت بصانعي الخمر ومرّوجيها، لأن أول عمل للخليفة كان تحريم الشراب والنهي عن القيان.

نقرأ: «واتّصلت الحروب والفتن وزاد فساد البلدان والأمصار وكثُر المتغلبون في جميع الدنيا. وكانت أيام خلافته كلّها دائمة الفتن متّصلة الحرب»<sup>١</sup>. المقصود هو الخليفة المعتمد (٨٧٠-٨٩٢م) الذي لم يكن له شأن يُذكر في سياسة عصره لأنه كان يُمضي أوقاته في مطاردة اللذائذ الجلديّة والسمعيّة، مثل معظم سابقيه، ومثلهم مات مقتولاً بالسمّ على الأرجح، سمّ دسّه له خلفه المعتضد. فمن كان يحكم إذًا؟ من دون دخول في تفاصيل لا تعيننا في هذا الكتاب، نقول إن العنصر التركيّ، الذي بدأ مع المأمون، صار الأمر الناهي في الخلافة. وعلى هوامشها، وزراء وكتّاب بعضهم ظلّوا مسيحيين متعاونين والبعض الآخر «قطع زناره». العبارة الأخيرة تُلمع إلى الدميّ الذي يتعيّن عليه أن يتمنطق بزنار،

١. التنبيه والإشراف، ص ٣٦٦-٣٦٧.

٢. التاريخ المجموع، (Annales CSCO) ٥١، ص ٦٨، نقلًا عن فيه، ص ١٧٧، ح ٣٥.

بموجب الأحكام العُمريّة، تميّزًا له من المسلمين، فلما يُنكر دينه ويُسلم يكون كمن قطع زنّاره وقطع معه إيمانه ورجاءه ومحبّته لينصرف إلى مكائد البلاط ومبازله وأمواله وجواريه والله أعلم!

الجاثليق سرجيس، خلال عهده الذي دام دَريّةً من السنين، عاصر نصف دَريّةً من الخلفاء. أحد هؤلاء - لا نعرف من - طلبه لمناظرة سمّيهِ الطيب الأريوسيّ (كذا!؟) الذي سطا على أحد معابد كنيسة المشرق. وعلى رغم قلة علم الجاثليق وقلة فصاحته في مقابل الأريوسيّ المتحذلق، غلب خصمه، فحكم الخليفة على هذا أن يدخل الإسلام... «فقطع نصرانيّ آخر زنّاره!» وفي العام ٨٧٨م، كثر «قاطعو زنانيرهم» ووصل عددٌ غير متوقّع منهم إلى السلطة، فيما ظلّ أقاربهم «مزترين» فشهد الناس آنذاك الوزير المسلم صاعد بن محمّد يصافح أخاه النصرانيّ عبدون!<sup>١</sup>

وردًا على «الأحكام العُمريّة» التي يعتقد جان موريس فيه أنّها مزوّرة برزت في هذه السنة صيغةً إسلاميّةً للمعاهدة المشهورة بين النبي محمّد ونصارى نجران باليمن. وهذا نصّها: «لا تعزل الدولة الإسلاميّة الأساقفة ولا تهدم الكنائس بل تسمح بإعادة عمارتها، تكون الجزية ٤ دراهم على الرأس و١٢ على التجار ويُضاف إليها الخراج، في حال الحرب يُعفى النصارى من القتال والتجنّس على العدو، ومن تجهيز الجيش (ولا يُطلب منهم إلاّ إيواء الجند ثلاثة أيام وثلاث ليال)، تُخفّف القوانين المتشدّدة، لا تُخطف نساء النصارى ولا يُكرهنَ على الإسلام». لو كانت هذه الوثيقة أصيلة لما تأخر انتخاب الجاثليق أنوش (٨٧٧-٨٨٤م) خمس سنوات (توفّي الله سرجيس أو سركيس الأول سنة ٨٧٢م) ولما حاول الجاثليق المزعوم إسرائيل مطران كشكر الاستعانة بأصحاب النفوذ ليُسام جاثليقًا.

ثمّ يجد القارئ أننا قسونا في حكمنا على الخلفاء والفقهاء والرعايا المسلمين الذي شوّهوا دينهم السّمح، لكنه سيرى الآن أننا نقسو أكثر على المسيحيين الذين لم يكونوا مثاليًا صالحًا للمسلمين بل ساروا في ركابهم وشوّهوا الصورة المشرقة لمئات ألوف السريان الآراميين الذين حافظوا على قيمهم، وأهمّها التقوى والعلم والعدالة والسلام في عالمٍ متفجّر

١. ماسينيون، لوي، المرجع المذكور، ١ (١٩٦٣م) ص ٢٥٠-٢٥٧.



من حولهم ولربّما كان الجاثليقي يوحنا الثاني بن نرسي (٨٨٤-٨٩٢م) من ذوي التقوى لأن الحواريّات تتحدّث عن آيتين صنعهما يوم سيامته ويوم موته، وعن ثالثة في أثناء حياته<sup>١</sup>. وفي أيامه استولى «شطّار بغداد» على دير كليليشوع، كما سبق أن أشرنا، لكن عبدون، الأخ النصرانيّ للوزير المسلم صاعد بن مخلد، ساعده على إعادة بناء الدير، من دون أن يعود إلى الإقامة فيه إذ فضّل الابتعاد من البلاد فاستقرّ في واسط، ولما عاد إلى بغداد أقام بدار الروم. ونختم بشعر قيل في عبدون الانتهازيّ هذا:

«ويحكم عبدون في المسلمين	ومن مثله تُوحَدُ الجاليّة
فهذي الخلافة قد ودّعت	وظلّت على عرشها خاويّة
فخلّ الزمان لأوغاده	إلى لعنة الله والهاويّة <sup>٢</sup> »

### ٧- خليفة «يميل إلى النصراريّ»

«إذا وجدت نصرانيّاً يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأن اليهود يتوقّعون عودة الملك إليهم، وآمن من المسلم لأنه بموافقتك لك في الدين يروم الاحتيال على منزلتك وموضعك، وآمن من المجوس لأن المملكة كانت فيهم». بهذه الكلمات خاطب الخليفة المعتضد (٨٩٢-٩٠٢م) كاتبه السرياني الآرامي المسيحي عبد الله بن سليمان، الذي بسببه تجرأ بعض الحساد المسلمين على التلميح بأن الخليفة «يميل إلى النصراريّ». وفي الواقع، كتب ماري: «وظهر من نعم الله على النصراريّ بحسن رأي المعتضد فيهم ما شكروه وحمدوه عليه»<sup>٣</sup>.

في ١٥ تموز ٨٩٣م، انتخب يزانيس جاثليقاً باسم يوحنا الثالث (+٨٩٩م)، بعد أن ظلّت كرسي الجثلقة شاغرة قرابة سبعة أشهر. دعمه الحسين بن عمرو، الذي سيصير كاتباً عند ولي عهد المعتضد وسيظلّ كاتبه لما تسلّم العرش باسم المكتفي. وبخلاف ما يوحي اسمه، كان الحسين نصرانيّاً. فالثقافة طالت الأسماء أيضاً. وقد هجاه - وعبره الخليفة - الحسين بن الضحّاك الخليع بهذه الأبيات:

١. صليبا، المرجع ذاته، ص ٧٨-٨٠.

٢. المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٠٨.

٣. أخبار بطاركة كرسيّ المشرق، ص ٨٤.

يصنع في العرب ما يصنعُ  
صفوفاً لفردٍ إذا يطلَعُ  
تحفَى له ومشى يطلعُ [يعرج]

«حسین بنُ عرو عدُو القرآن  
يقوم لهيبته المسلمون  
فإن قيل قد أقبلَ الجاثليقُ

لم يكن الحسين السرياني الآرامي الوحيد في بلاط المعتضد. فهناك أطباء أيضاً، أشهرهم غالب الذي شرّفه الخليفة بحضور دفنه (٩٠٠م)، وابنه أبو عثمان سعيد (+٩١٩م). ولا شك في أن أمّ الخليفة، وهي مسيحية، كان لها الرأي الراجح. من جهةٍ أخرى، جاءت عملية انتخاب الجاثليق الجديد يوحناً الرابع، ابن الأعرج، (٩٠٠-٩٠٥م) وما رافقها من مدّ وجزر، لتفضح آفة ذلك الزمن: الفساد العامّ والرشوة في البلاط، والسيمونية في الكنيسة.

الحسين عمرو ثابر على الكتابة للمكتفي (٩٠٢-٩٠٨م) ابن المعتضد الذي «اقتفى أفعال أبيه»<sup>١</sup> في شؤون النصارى، وأصبح وزيره وزير أبيه القاسم بن عبيدالله. واستمرّ النصارى في القيام بوظائفهم في مختلف الدواوين، وبعضهم «قطع زناره» ومنهم مثال البلاغة قدامة بن جعفر<sup>٢</sup>، ومنهم خصوصاً المطران ثيودورس الذي زاره يوماً الجاثليق الجديد إبراهيم الثالث الباجرمي (٩٠٦-٩٣٧م) فوجد عنده عشيقه، فلمّا حرّمه علناً في الكنائس «قطع زناره» وعاش التطيب والصدقات...

الجاثليق السابق، يوحناً بن الأبرج (يوحناً الرابع ابن الأعرج) نذر الفقراء التامّ فما مسّ ديناراً ولا درهماً بل كان يفرّق أموال الجثلقة على الفقراء. وخلفه كان نقيضه، استعان بالمحسوبية والسيمونية ليبرز ويثقل طوال إحدى وثلاثين سنة، وذلك في عصر تُقطع فيه الزنانير أو يتغيّر لونها، مثلما حدث للكاتب عبدالله بن شمعون الذي عبّر عن سخطه على الجاثليق -الذي كان الكاتب قد ساندته في الانتخاب لقاء شروط لم يحترمها الجاثليق- بعدم تناول القربان من يده، ثم صعد سخطه بأن انتمى إلى مذهب الملكيين (الروم الأرثوذكس).

١. المسعودي، التنبيه... ص ٣٧١.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٠.

## ٨- الكتاب النصارى في كل مكان

لا مكان إلا لحبرٍ واحد في بغداد. هذا الشاعر رفعه الجاثليق إبراهيم الثالث في وجه السريان والروم الأرثوذكس، واستعان بالوزير علي بن عيسى -على رغم قوله لمراجعيه من الطوائف المسيحية الثلاث: «أنتم كلكم سواء في الحقد الذي تُضمرونه لنا، ولا تحبونا إلا مراة<sup>١</sup> - لتحقيقه، ومفاده أنه لا يحقّ لغير جاثليق المشرق التلقّب بلقب جاثليق (أو بطريك) ولا تسمية مطران مقيم فيها.

فعهد المقتدر (٩٠٨-٩٣٢م) هو عهد الصراعات على النفوذ، فيتعاقب الوزراء يُؤلّون ويُخلعون بمكائد حريم البلاط والحرس والكتّاب والأطباء والخصيان وكلّ المقاتلين على السلطة التي توفّر المال الذي يوفّر الملذات. ففي الحريم روميّات ومسلمات، وفي الكتّاب والأطباء والوزراء «قاطعو زنايرهم» ومسلمون أقحاح... والحابل يختلط بالنابل، وكلُّ يغني على ليلاه... ما عدا الخائفين الله القابعين في الأديرة والمدارس يطوّرون العلوم الدينيّة والروحيّة والزمنيّة لخير بني الإنسان.

وأولئك الساعون إلى شهواتهم لا ينامون الليل مرتاحي البال لأن سيف غدر الزمان مسلط فوق رؤوسهم فالكتّاب العاملون عند أفرقاء متناحرة سياسياً يلقون مصير أسيادهم، ومن لا يُقتل منهم «يقطع زناره». في العام ٩٢٠م، وقع شغبٌ في بغداد فخلعت أبواب السجون وأفلت اللصوص والمجرمون فاعتدوا على الناس، لا على النصارى وحدهم كما يقول ابن العبري ونُهب بعض دور الكتب، ومنها دار المسيحي عبدالله بن شمعون.

## ٩- الحلاج: المسلم المسيحي!

وُجدت المسيحية في بلاد العرب قبل الإسلام بقراءة مائتي سنة، كما كانت موجودة قبل الإسلام في مصر والشام وشمال أفريقيا. وكان للمسيحيين في جميع أنحاء البلاد التي شملها الفتح الإسلامي أديرةٌ لا تُحصى، وكان الرهبان المسيحيون موضع احترام الناس وتقديرهم في بلاد العرب وغيرها، بل إنهم كانوا موضع احترام المسلمين على عهد الرسول

١. فيه، المرجع ذاته، ١٩٤.

نفسه الذي كان يحبّ مجالستهم والتحدّث إليهم وكان للرهبان المسيحيين أثرٌ غير قليل في بعض الوثنيين من العرب في الجاهليّة، فبذروا بذور الزهد في الجزيرة العربية قبل البعثة. والزهد الذي اعتنقه بعض المسلمين، ولا سيّما الإمام عليّ كما دونه في نهج البلاغة، قرّب المسلمين من حالة الرهينة وإن كان الإسلام لا يقَرّها في عداد عقائده.

وقد استمرّ تأثير الرهبان المسيحيين في زهاد المسلمين بعد ظهور الإسلام، وكان تأثيره في الناحية التنظيمية عموماً، وأحياناً في ناحية المبادئ العامّة في الزهد، كما نرى عند الحسين بن منصور الحلاج الذي يؤمن بعقيدة التجسّد كما هو ظاهر من شعره:

«سبحان من أظهر ناسوتهُ      سِرَّ سَنَا لاهوتهِ الثاقِبِ  
ثمّ بدأ خلّقه ظاهراً      في صورة الأكلِ والشارِبِ  
حتّى لقد عاينه خلّقه      كلحظة الحاجبِ بالحاجِبِ»

يُلاحظ هنا استعمال كلمتي «لاهوت» و«ناسوت»، وهما كلمتان سريانيتان يُعبّر بهما عن طبيعتي السيّد المسيح الإلهيّة والبشريّة في شخصه (أقنومه) الواحد. لكنّ الحلاج يتكلّم في أبياته الثلاثة عن السيّد المسيح الذي أكل حتى مع العشارين والخطأة على مرأى الناس في فلسطين. وأكثر من ذلك يتكلّم الحلاج على اتّحاد النّفس بالله، كذاك الاتّحاد الذي سيخبره يوحنا الصّليب وتريزا الأبيليّة. يقول:

«مزجت روحي في روحي كما      تُمزج الخمرُ بالماء الزلال  
فإذا مسك شيءٌ مسّني      فإذا أنتَ أنا في كلّ حالٍ»<sup>٢</sup>

وفي ما يلي تعبيرٌ عن الاتّحاد العامّ الذي خبره المتصوّفون المسيحيون:

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا      نحنُ روحانِ حلّلنا بدنا  
فإذا أبصرتني أبصرتُهُ      وإذا أبصرتُهُ أبصرتنا»<sup>٣</sup>

١. عقيقي، الدكتور أبو الغلا، التصرّف-الثروة الروحية في الإسلام، دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٦٣م، ص ٨٢.

٢. الطواسين، ص ١٣٤.

٣. الطواسين، ص ١٦٥، ١٧٥، نقلاً عن الكتاب والمرجع المذكورين، ص ٨٣.

في العام ٩٢٢م، «ألقي القبض على زاهدٍ عربيّ في بغداد يُقال له الحلاج ادّعى أنه إلهٌ متجسّد وصار يتظاهر بأنّه يجترح المعجزات. فأمر الخليفة [المقتدر] بجلده ألف جلدة ثمّ قطعوا يديه ورجليه وأحرقوا جسّته ورفعوا رأسه على رمح وطاقوا به بغداد وفارس»<sup>١</sup>.

معلومات ابن العبريّ يناقضها لويس ماسينيون في كتابه (آلام الحلاج)<sup>٢</sup> (La passion de Hallaj) حيث اقترح على السلطات الكاثوليكية إدراج الحلاج في الشهداء القديسين. مهما يكن من أمر، كان الحلاج الشخصية الأبرز في عهد المقتدر، تلك التي تستحقّ أن نقف عندها مطوّلاً، بدل التلهي بذكر الجائليق الذي عيّن ثلاثة مطارنة على نصيبين بعد أن أخذ مالاً من كلّ منهم «ولكننا نذكر إنصافاً له أنّه لم يعزل الإثنين بل وافهما الأجل!»<sup>٣</sup>.

#### ١٠ - خليفة أعمى يتوسّل على باب المسجد

هو أبو منصور محمّد القاهر بالله (٩٣٢-٩٣٤م). «كان شديد الإقدام على سفك الدماء، أهوج... غير مفكّرٍ في عواقب أموره»<sup>٤</sup>. دامت خلافته سنةً ونصف السنة، وطوال هذه المدة كان يسكر ويطرب للغناء ويتنقل بين القيان<sup>٥</sup>. وكان في حالة سكرٍ لما تمكّن رجال الوزير ابن مقلة من دخول القصر وسحل عينيه. واللافت في عهده أنّ ابن العبريّ ذكر أنّ في بغداد ٨٦٠ طبيباً، أشهرهما سنان بن ثابت الصابئ الذي «قطع زناره» وعيسى بن يوسف المعروف بابن العطار الذي لم يقطعه، ومع ذلك كان الخليفة «يركن إليه ويُفضي إليه بأسراره»<sup>٦</sup>. ولم تدم النعمة لأحد من هؤلاء، ولا لأحد من الكتبة أيضاً، بل ولا للوزراء المتعاقبين أو الخصيان الترك المترعّمين.

١. ابن العبريّ، تاريخ الزمان، ص ٥٣.

٢. ط ٢، (NRF)، ١٩٧٥م، ٤ مجلّدات.

٣. فيه، المرجع ذاته، ص ١٩٨.

٤. المسعوديّ، التنبيه، ص ٣٨٧-٣٨٨.

٥. ابن قتيبة، عيون الأخبار، تحقيق أحمد زكي العدويّ، القاهرة، ١٩٥٣ هـ، ج ١، ص ٢٦٩، الفقرة ٤٧٣.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٢٠.

في بغداد يختلط الحابل بالنابل، والحنبليّ بالمعتزل، والعربيّ بالأراميّ بالتركي بالفارسيّ، واللغة العربية هي لغة الدواوين، والآرامية لغة الشعب المنتج الذي من عرق جبينه يقات طفيليو البلاط والحكام. وفي العام ٩٣٥م، ثار الحنابلة السلفيون على الدكاكين ونهبوها، وحشروا أنوفهم في المعاملات التجارية لفرض احترام الشريعة كما أفتى بها الإمام أحمد بن حنبل (٧٨٠-٨٥٥م) الذي قاوم المعتزلة فحبسه المعتصم ثم أفرج عنه المتوكل المائل إلى تشدده من الدين ضدّ النصارى. وهجم الحنابلة على الختارين النصارى والمجوس وعلى القيان، وكسروا آلات الملاهي، وانتهكوا حرّات المنازل، ووشوا إلى صاحب الشرطة بكلّ رجلٍ يمشي مع غير حرّمه. فأوقفهم الخليفة الراضي (٩٣٤-٩٤٠م) عند حدّهم.

من هنا نفهم لماذا أبّنه ابن الطقطقي بهذه العبارات: «كان شاعرًا فصيحًا لبيبًا، ختم الخلفاء في أشياء منها: أنّه آخر خليفةٍ دُونَ له شعر، وآخر خليفةٍ انفرد بتدبير الملك، وآخر خليفةٍ خطب منبر يوم الجمعة، وآخر خليفةٍ جالس الندماء ووصل إليها العلماء. وآخر خليفةٍ كانت مراتبه وجوائزها وخدمته وحجّاجه تجري على قواعد الخلفاء المتقدّمين»<sup>١</sup> يقول فيه المسعودي «إنّه كان جوادًا محبًّا للأدب حسن الشعر»<sup>٢</sup>. في عهده أذى كاتبه النصراني أبو الحسن سعيد بن عمرو (أو عمرو بن سنجلا دورًا بارزًا لأنه كان بارعًا في «اتخاذ الأصدقاء من مال الظلم» (لوقا ١٦: ٩) ما يعني أنّه كان يلبيّ الدعوة إلى كثر الكنوز في السماء، واستطاع أن يُسدي خدمات مهمّة إلى النصارى عمومًا وإلى الجاثليق يوحنا خصوصًا. ومّا يدل على حظوته عند الخليفة أنّه استطاع، على رغم شغب العامة من المسلمين، أن يحمل على عقاب رجلٍ مسلم تحامل على نصرانيّ.

نصل هنا إلى نقطةٍ في غاية الأهميّة. فعلى رغم انقضاء ٣٠٠ سنة تقريبًا على معركة القادسيّة، كان العرب ما زالوا عاجزين عن تسلّم زمام إدارة البلاد. من هنا الاستعانة بالكتاب والأطباء وحتى بالوزراء الآراميين النصارى. نُثبت هذا القول من ثلاثة أبيات من الشعر للشاعر العربيّ مسعود بن الحسين الشريف، حاجيًا فيها الذميين ومعاتبًا الخليفة:

١. في كتاب الفخريّ، ص ٢٢٦، نقلًا عن فيه، المرجع المذكور، ص ٢٠٩، ح ٣٤.

٢. التنبيه والإشراف، ص ٣٨٨-٣٩٧.

٣. ابن القيم الجوزيّة، المرجع المذكور، ص ٢٥٥-٢٢٦.

ما هكذا فعلت بنو العباس  
ظلمًا، وتنسى مُحصي الأنفاس [الله]  
مُتصرِّفين الحُدُقِ الأكياسِ»<sup>١</sup>

«قلدت أمر المؤمنين عدوهم  
لا تذكرون إحصاءهم ما وفروا  
لا تعتذروا عن صرفهم بتعذروا

## ١١- المتقي والمستكفي والمطيع

«لم نعرض لوصف أخلاق المتقي (٩٤٠-٩٤٤م) والمستكفي (٩٤٤-٩٤٦م) والمطيع (٩٤٦-٩٧٤م) ومذاهبهم إذ كانوا كالمولَّى عليهم لا أمر يُنفذ لهم». <sup>١</sup> فهم ينفذون مشيئة أمراء الترك والديلم (فرع من الأكراد) وغيرهم ممن كانوا الحكام الفعليين لبغداد وللولايات المستقلة بعضها عن بعض، وهم لا يجرّون ساكنًا عندما يحدث الصراع بين فريقي الجيش من الديلم والترك. وكان الشعب يعاني تحرك الفرق العسكرية.

في زمن الراضي، وتحديدًا في ٢٢ شباط ٩٣٨م، سيم عمّانويل الأول جاثليقًا خلفًا لإبراهيم الثالث الباجرمي، ويبدو من سياق سيرته أن دعوته كانت فعلاً ربّانية وترافقت بآيات. وعند موت الراضي تخفى الكاتب ابن سنجلا الذي كانت له اليد الطولى في اختيار الجاثليق. وظهر بعد تنصيب المتقي ولكن تنامى إليه أن محمّد بن رائق - ولم يكن بعد قد عُيّن أميرًا للأمرء إثر فتكه بالديلم - يريد به شرًا بسبب الوشاة الحساد. فلجأ إلى معونة الجاثليق الذي اشتهر بأن له موهبة الرؤى. وبحسب ماري، الذي استند إلى رواية أبي الحسن بن سليمان بن الجمال، ظهر الجاثليق في رفقة السيد المسيح وشخص ثالث غير مُسمّى، في الحلم، لمحمّد بن رائق. وقال الشخص الثالث للأمير: «المسيح يقول لك: لم تعتقد القبيح بأبي الحسن بن سنجلا وأهل ملّته؟ فأعدل عن هذا ليُفرج عنك». ثم طمأنه الجاثليق إلى أنه سينجح في مساعيه إذا وعد باحترام النصارى. وينتهي فيه هذه القصّة بالقول: «فلما استعاد ابن رائق لقب أمير الأمرء واحتفظ به حتى اغتياله في نيسان ٩٤٢م، وفي بالعهد وعامل النصارى بالجميل، وأقام أحسن الصلات مع الجثليق»<sup>٢</sup>.

١. المسعودي، التنبيه...، ص ٤٠٠.

٢. أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ص ٢١٦-٢١٧.

وعرفت بغداد في أيام المتقي هيجاناتٍ شارعيةً وتقاتلاً على السلطة. واشتدّت المجاعة عام ٩٤٢م، واجتاح الروم قيليقية (كيليكية) وأسروا عددًا كبيرًا من المسلمين، وفاوضوا الخليفة على إطلاق سراحهم لقاء الحصول على مندبل كنيسة الرها (مندليون) الواقعة تحت السيطرة الإسلامية. فقبل الخليفة وسُلم المندبل ونُقل إلى القسطنطينية. وكان الخليفة قد استعان بأبي محمد الحسن ناصر الدولة الحمداني الشيعي ليتخلّص من خصومه بني البريدي الذين سيطروا على بغداد طوال أربعة أشهر، فضجّ الناس من الحمدانيين أكثر مما ضجّوا من البريديين. فهرب الخليفة إلى الموصل يحتمي ببني حمدان. لكن الأتراك أجبروه على خلع نفسه وسحلوا عينه.

## ١٢ - البويهيون في بغداد

عاش خلفه المستكفي (٩٤٤-٩٤٦م) «سائر أوقاته فارغًا وجلاً»<sup>١</sup>. وفي عهده انتقلت السلطة من أيدي الترك السنّة إلى أيدي البويهيين الشيعة (٩٤٥م)، في قيادة أحمد بن بويه «الديلميّ الأقطع» -مُعزّ الدولة- الذي سرعان ما سحل عيني الخليفة (في كانون الثاني ٩٤٦م) فيما الشعب في بغداد يئنّ تحت وطأة المجاعة. ولم تكن الحقبة البويهية أصعب من سابقتها بالنسبة إلى النصاري، باستثناء فوراتٍ من العنف والقرارات التمييزية، وعلى الرغم من وجود الأطباء والكتّاب النصاري في خدمة أصحاب الشأن.

كان المطيع ألعوبةً بين يدي معزّ الدولة الديلمي البويهي، لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تُعرف ولا وزارة تُذكر<sup>٢</sup>. ولكن كان على المعزّ أن يطرد ناصر الدولة، صاحب الموصل الحمدانيّ -وكلاهما شيعيان- من الجانب الشرقي لبغداد. وهرب هذا الأخير ومعه كثير من السكان، فمات عشرة آلاف على الطرق. ولا يذكر المؤرّخون ما جرى للنصاري المقيمين في شطري العاصمة، الشرقي والغربي. وفي العام ٩٤٧م، شبّ حريقٌ في الأحياء الجنوبية الشرقية من بغداد بسوق الثلاثاء، وفيه بعض النصاري، فمات خلقٌ كثير<sup>٣</sup>. وفي العام التالي غزا الجراد نواحي بغداد والموصل<sup>٤</sup>.

١. مروج الذهب، الفقرة ٣٥٥٣.

٢. مروج، الفقرة ٣٥٧٢.

٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٩٩.

٤. المصدر ذاته، ص ٥٠٥.



خلال العامين ٩٥٣ و ٩٥٤، رمّم الجاثليق عمانوئيل كنيسة دار الروم وكنيسة الدير في محلة العتيقة. وقد حصل على إذن الخليفة الطبيب المسيحي أبو علي سعيد بن داود. والتزم نفقات الترميم كاتب ركن الدولة بن لويه النصراني أبو علي بن غسان. وإنه لأمر طبعي أن تعمل النخبة السريانية الآرامية عند كلّ طارئٍ على الحكم، ما دامت لا تتمتع شخصياً إلاّ بفتات الحكم. فأبو سعد إسماعيل بن موسى توزّر عند عماد الدولة علي البويهبي الذي حكم بلاد فارس من مدينة شيراز. ولما انتقل عماد الدولة إلى بغداد رافقته جماعةٌ مسيحية ضاغطة عُرفت بجماعة الشيزاريين. وابن سنجلا ما زال على المسرح كاتباً على الضياع بسواد بغداد عند الأمير روزبهان بن ونداد خورشيد الديلمي، أحد قوّاد معزّ الدولة<sup>١</sup>. وكان لمعزّ الدولة خازن نصرانيّ هو أبو علي الحسن بن إبراهيم الشيرازيّ.

كان الجاثليق عمانوئيل معروفاً بصدق رؤاه. وخلال الصراع العسكريّ الناشب بين معزّ الدولة والأمير روزبهان، «رأى» الجاثليق «أنّ الخبر له مكانة [معزّ الدولة] في مستهلّ الشهر بما يُسرُّ وبالظفر»<sup>٢</sup>. لذا كانت له مكانة محترمة لدى البويهبيين. وفي أواخر أيامه حدث وباءٌ (٩٥٧م) وحروب بين أحياء بغداد وحرائق متبادلة وجفاف وجراد (٩٥٩م). وكلّ هذه المصائب خفّضت أعداد المسيحيين، هذا إذا ضربنا صفحاً عمّن منهم «قطع زناره».

كان الجاثليق «شيخاً هيباً قديساً ولم يكن به إلاّ عيبٌ واحد، وهو محبة المال وشدة الشحّ عليه، فمات (٩٦٠م) وترك وراءه ثروة سيستفيد منها المسيحيون في ما بعد لدفع غرامة باهظة للحكّام. وفي السنة التالية مات كاتب الخليفة ومعزّ الدولة أبو إسحق بن ثوابة النصرانيّ، وكان بنو ثوابة يعملون في الدواوين منذ أيام المعتضد، بعضهم ذووزنار والبعض الآخر «قطعوا الزنار». وابن سنجلا، وقد صار شيخاً، كان آنذاك في ذروة مجده، وأدّى دوراً مركزياً في انتخاب الجاثليق عبيدشوع الأول (٩٣٦م) بعد معركة قاسية استعمل فيها المال والنفوذ وأسفرت في مراحلها الأولى عن جثقة السيمونيّ إسرائيل الأول (مائة وعشرة أيام). ومن اللاعبين العلمانيين الآخرين في المعركة أبو عمر بن عدّيّ كاتب سبكتكين الحاجب، وأبو علي الخازن، وهارون بن حنون كاتب سبكتكين الحاجب أيضاً. والمعرقل

١. الكامل...، ج ٨، ص ٤٨٩-٤٩٠.

٢. ماري، ص ٩٦ و٩٨.

لانتخاب عبديشوع كان الطبيب القسّ فيثون الذي اشترى المنصب من معزّ الدولة بمبلغ ٣٠٠ ألف درهم! وكان الحلّ تعويض ابن فيثون لينسحب، فبيعت أواني الكنائس النفيسة، وأكمل المبلغ من تركة عمانوئيل البخيل! والجائليق المتفق عليه أخيراً، عبديشوع، كان نقيّاً ورعاً وغير راغب في الشهرة والجاه، فهرب، ولكنه أدرك ونُصّب على رغمه. وبما أنّه سيّئ التدبير نهب صحبه وتلاميذه أموال الكنيسة. وغفرت له الرعيّة لأنه طيّب وتقيّ.

كان الأمير معزّ الدولة يحبّ النصارى. وقد رفع إلى رتبة وزيرٍ بلا لقب الكاتب النصرانيّ أبا العلاء صاعداً ابن ثابت. ولما كان يبني قصره اضطرّ إلى تهديم بعض مصليّات المسلمين في الموقع، ولكنه حافظ على كنيسة مار اسطفانس الذي ظهر له في الليل، على ما يُروى<sup>١</sup>. وفي العام ٩٦٤م، توترت العلاقات بين السنّة والشيعة فسقط جرحى ونُهبت دور. وفي العام ٩٦٥م، هجم قطاع الطرق على المتنبّي بالقرب من دير قنى وقتلوه. ولحق المتنبّي إلى الأبدية أمير الأمراء معزّ الدولة، فخلفه عزّ الدولة بختيار السيّ السيرة بحسب ابن الأثير<sup>٢</sup>، وكان طبيبه النصراني يُدعى فنون. وبالإجمال، كان أهل الذمّة معرّضين لشتّى ألوان الضرائب غير الشرعيّة إذا لم يكن لهم ظهير من ذوي المناصب، وكان بعضهم يذهب ضحيّة التصادم بين السنّة والشيعة، ولا سيّما في عاشوراء ويوم الغدير.

ولا يُخفى أن الصراع على السلطة، كما الصراع المذهبيّ، إضافة إلى الفساد الضارب أطنايه في بلاد العباسيين، أنقص القيمة الشرائية للدرهم المسكوك من فضة قياساً على الدينار المسكوك من ذهب. في منتصف القرن الثامن كان الدرهم يساوي ١٠ / ١ أو ١٢ / ١ من الدينار، فأصبح يساوي في منتصف القرن التاسع ٢٥ / ١. والأسباب لها شرحٌ وحيد هو انخفاض الإنتاج الذي يضطلع به عموماً المسيحيون الذين تناقصوا خلال هذا القرن جرّاء «قطع» الكثيرين منهم «زنانيرهم».

١. السيوطيّ، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٤١٩.

٢. الكامل... ج ٨، ص ٥٧٥-٥٧٦.

### ١٣ - الطائع يُطبع عضد الدولة

الحاجب التركي سبكتكين وزبانيته الأتراك أحرقوا حيّ الكرخ الغربيّ في بغداد وأجبروا الخليفة الهرم المطيع على التنازل وولّوا ابنه الطائع مكانه وتركوا له فقط حقّ أن يُحطّب باسمه في المساجد. مات سبكتكين في دير العاقول فحلّ محلّه قائدٌ تركيّ اسمه أفتكين الشراييّ. وسرعان ما نشبت الحرب بينه وبين البويهبي عضد الدولة (فنا خسرو) الذي اجتاحت بغداد قادمًا من بلاد فارس وكرمان. وكان عليه أن يتنازع مع بويهبيّ آخر موجود في بغداد، هو عزّ الدولة بختيار. وفاز في الصراع عضد الدولة، فلقبه الخليفة بـ «تاج الملة». ثم قُتل بختيار فترامت مملكة عضد الدولة البويهبيّ من فارس إلى العراق فالموصل فديار بكر<sup>١</sup>. في خضمّ صراع كهذا، محصور في مدينة، يكون الشعب، ولا سيّما المسيحيون، هو الضحية. وقد أُنذر بالويلات التي ستصيب الشعب الرّبّان (المعلّم) يوسف بوسنايا. فقبل وفاته سنة ٩٧٩م، بأربع سنوات كان ينوح ويصرخ قائلاً: «المجد لله! ماذا سيحلّ بالناس والأديرة والمدن؟!» وكان الجواب استيلاء الأكراد الكرنويّة والتعالية على ناحية العماديّة واجتياحهم الأديرة والأعمار والقرى<sup>٢</sup>. وتخلّق مسيحيون كثيرون حول عضد الدولة، منهم وزيره الفخريّ نصر بن هارون، والكاتب أبو علي ابن مكّيخا، والطبيب الشاعر أبو الحسن (أبو الحسين) بن غسان البصريّ، وأبو الحسين بن كشكرايا تلميذ سنان بن ثابت وله كتب في الطبّ وأخ راهب، وأبو يعقوب الأهوازي الذي صنّف في الطبّ، وإبراهيم بن بكس المؤلّف والمترجم، وعلي بن إبراهيم بن بكس الطبيب والمترجم، وعلي بن عبّاس الذي صنّف كتاب المللكيّ، وأبو سهل عيسى المسيحي ابن يحيى الجرحاني الطبيب الممتاز وصاحب التصانيف الكثيرة. وجبرائيل (بن عبدالله) بن بختيشوع تلميذ هرمزد وابن يوسف الواسطيّ ومؤلّف كتب كثيرة. والعديد من هؤلاء خدموا في البيهارستان الذي بناه عضد الدولة في بغداد سنة ٩٨٠م.

«كان تركّز النصارى بكثافة في ميدان الطبّ من عوامل بقاء جماعاتهم، على رغم شتّى الضغوط الاجتماعية الدينية التي تعرّضت لها هذه الجماعات. وإنّ المتأمل ليجد

١. الكامل...، ج ٨، ص ٦٦٩-٦٩١.

٢. فيه، المرجع المذكور، ص ٢٤١.

نصارى البلاد الإسلامية في العصور الحديثة يلتمسون في المهنة الحرة الاستقلال الذي ما زالوا قادرين على التمتع به. ولذلك تراهم يجتهدون في استغلال الحال التي يجدون أنفسهم فيها منذ أن فقدوا كل مساهمة حقيقية، مباشرة أو غير مباشرة، في ممارسة صناعة القرار في المجتمع<sup>١</sup>. على أن النخبة المسيحية كانت تضم إلى الأطباء والكتّاب مثقفين كانوا يحضرون جلسات مناظرة علمية في جو من الانفتاح الفكري يذكر بأيام الرشيد والمأمون.

وبرز في أيام بني بويه ابن العميد (محمد بن الحسين أبو الفضل) (٩٧٠م) وابنه علي (أبو الفتح). وكان الإثنين شاعرين وكاتبين، لكن الابن لقب بذي الكفایتين (السيف والقلم) وكان وزير ركن الدولة ثم مؤيد الدولة. وكانت النخبة المسيحية على اتصال وثيق بهذين البويهيين المتشيعين بلا مغالاة. لكن الأيام الحلوة سرعان ما تخللها أحداث مرّة. ففي أثناء تصارع ابني عضد الدولة: شرف الدولة وصمصام. قُتل حامي النصارى في شيراز نصر بن هارون، وُتهدت كنيسة جنديسابور.

وفي تلك الأثناء توفي الله الجاثليق عبيدشوع الأول فخلفه ماري بن طولي (٩٨٧-٩٩٩م) في انتخابٍ ضرب فيه الأساقفة بالعصي! وبحسب العادة المتبعة استقبل الخليفة الطائع الجاثليق، علمًا أنه «لم يبق للخلفاء في تلك الآونة سوى الاسم والمناداة بخلافتهم وأصبحت جميع الأوامر والجنود والخزائن بقضية الأعاجم»<sup>٢</sup>.

نصّ العهد الذي يكتبه كل خليفة لكل جاثليق جديد يُمهّد بثلاث فقرات من النثر المسجّع، تبدأ كل منها بالحمدلة. يُحمد الله أولاً لذاته ثم يُحمد على الإسلام الذي «اختاره ديناً وارتضاه وعلى إرساله رسوله محمداً بالحق» وأخيراً على الخليفة الذي استخلصه أميراً للمؤمنين وأعزّه بالإمامة على العالمين، ثم يُحمّل الجاثليق عن مراعاة أهل ملته «الشروط المعتادة» (أي الأحكام العمرية التمييزية) والرسوم الشرعية عملاً بما سنّه الأئمة الماضون والخلفاء الراشدون مع أمثاله من الجثالقة الذين سبقوه. وإذا لم يشأ هؤلاء تحمّل هذه المسؤولية فأمامهم خياراً آخر: قطع حزامهم! ويُذكر الجاثليق، في نصّ العهد، بوجود

١. المرجع ذاته، ص ٢٤٣.

٢. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٠.

تسديد الجزية مرة في كل سنة، وفي ذلك إقرارًا الجليلي بالتبعية لقاء الاعتراف الرسمي به!  
هذا ما يسمونه اليوم «التسامح الإسلامي!».

## ١٤ - بداية الانحطاط الكبير

في مطلع الألفية الثانية توفي الله ابن النديم (محمد بن إسحق، أبو الفرج) الذي كتب  
الفهرست في السنة التالية لرسامة الجاثليق ماري بن طوبى (٩٨٨م)، وهو يذكر فيه أبا  
الخير الحسب بن سوار بن بابا بن بهرام المنطقي النصراني، المعروف بابن الخمار، «وكان في  
نهاية الذكاء والفطنة والاضطلاع بعلوم أصحابه»، وصنّف كتبًا ترجم بعضها من السريانية  
إلى العربية<sup>١</sup>. ومن معاصري ابن النديم أبو الحسين إسحق بن يحيى بن سريح النصراني  
الذي ألّف كتاب الخراج وكتاب تحويل سني الموالي وكتاب جمل التاريخ<sup>٢</sup>. وكذلك الطبيب  
الكاتب الفيلسوف النصراني أبو الحسن علي بن نصر بن علي (أو بن بشر) الملقّب بابن  
الطيب، وهو حفيد طبيب أيضًا<sup>٣</sup>. ومثلما رعى عضد الدولة العلماء، هكذا فعل ابنه شرف  
الدولة الذي «جمع الفلاسفة في بلاد العرب». وبنى مرصدًا فيه آلات كتلك التي كانت في  
مرصد المأمون، وكان رئيسه أبو سهل يحيى بن رستم الطوري<sup>٤</sup>.

بدأ الانحطاط الرهيب مع بهاء الدولة، أخي شرف الدولة، الذي أحاط نفسه برجال  
سيّئ السلوك، مثل الكوكبي الذي حبس الجاثليق وبدّد الأساقفة بظلمه في فرض الجزية...  
وأخيرًا «كفيّ النصارى شرّه بتفضّل الله وحول [قوة] مار ماري السليح [الرسول]. كذلك  
ألقي القبض على ابن البقال الذي اضطهد رهبان دير قنى، وقُتل وطرح جثته في دجلة.  
واضطّر الجاثليق أن يهرب من بغداد مرّتين وينتقل إلى دير الأنبار. وكان لهزائم العرب أمام  
الروم تأثيرٌ سلبيّ على مسيحيي المشرق. ففي مرو بخراسان نُكّل بالمسيحيين وبتابوت مار  
إيليا، ويروى عن أعجوبة أوقفت الرعاء عند حدّهم.

١. الفهرست، ص ٢٦٥ و٢٤٥.

٢. المرجع ذاته، ص ١٣٦.

٣. المرجع ذاته، ص ١٣١.

٤. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠.

يصعب تتبّع العلاقات بين الأراميين والنصارى بدءً من خلافة القادر (٩٩١-١٠٣١م) بسبب استقلال الأمراء المحليين في كلّ مكانٍ من أرض الخلافة: المروانيين في ديار بكر، العقيليين في الموصل، المرداسيين في حلب إلخ... وكانت قد انهارت إمارة الحمدانيين في الموصل والسامانيين في القسم الشمالي الشرقي من العراق، المقابل لبلاد الأتراك. وقد مرّ معنا أن البويهيين مالوا إلى الشيعة، وكان بهاء الدولة البويهي ما يزال يُحكم قبضته على بغداد عندما قامت دار العلم في بغداد سنة ٩٩٣م، وهي مدرسة لدعاة الشيعة بناها الوزير سابور بن أردشير وجّهها بمكتبة وربّما كان فهرست ابن النديم هو فهرست هذه المكتبة، بحسب هنري لاؤست (Henri Laoust)<sup>١</sup>.

نلاحظ في هذه الحقبة تزايد مشاعر العداء للنصارى الذين كان فيهم الصالح والطالح. ولا سيّما بين صفوف الكتبة المتعالين. وكما ذكرنا من قبل، كان اللجوء إلى السلطة الزمنية لحلّ المشكلات، التي لا تعني سوى المراجع الكنسية، إضافة إلى الخلافات المذهبية بين نساطرة ويعاقبة وملكيين، من أهم أسباب ضعف طوائف النصارى على مرّ العصور. وقد استفاد الوزير أبو نصر سابور بن أردشير من هذا الضعف ليفرض على الناس العُشر في البيع والشراء! وبداية الألفية تزامنت مع بداية حركة تحرّر السنّة من النفوذ الشيعي البويهي، وستكتمل هذه الحركة سنة ١٠٥٥م، مع صعود السلاجقة خشبة المسرح. وأوّل مظهر لهذه الحركة تجلّى في رفض الخليفة تعيين قاضي قضاة شيعياً، وفي منع الشيعة من إحياء ذكرى عاشوراء، وفي حرائق أشعلها السنّة في بغداد وكربلاء وسامراء، وعلى الصعيد الكتابي تجلّى في كتاب الأحكام السلطانية للموردّي.

## ١٥- إنجيلٌ لم تحرقه النار

قبل نهاية القرن العاشر، كان جاثليق كنيسة المشرق يُنتخب من قبل الأساقفة في البدء ثمّ منهم ومن أعيان العلمانيين بعد ذلك. والآن عُيّن الجاثليق يوانيس بن عيسى (يوحنا الخامس بن عيسى) (١٠٠١-١٠١٢م) فلا كلام عن الأساقفة، والقصر هو صاحب القرار. والسنّة يتربّصون الدوائر بالشيعة والنصارى واليهود لدى سماعهم

١. الخبئية في خلافة بغداد (٨٥٥-١٢٥٨م) (بالفرنسية) في مجلّة الدراسات الإسلامية (فرنسية) باريس ١٩٢٧م.

انتصارات السلطان محمود بن سبكتكين في الهند. هذا والنصارى يتجادلون في بغداد حول جنس الملائكة: أية عقيدة (من بين النسطورية واليعقوبية والملكانية) هي الأصح! ومن حسن حظ النصارى أن ثلاثة فقهاء سنيين استُفتوا في جواز هدم الكنائس، فأفتى الثلاثة بتحريم هدمها<sup>١</sup>. وسبب النزاع «الأخوي» كان حرق كنيسة مار توما للسريان الأرثوذكس ومقتل خمسين شخصاً، ووجود إنجيل سالم من الحريق في الكنيسة. الأرثوذكس اعتبروا ذلك أعجوبة تبرهن أن عقيدتهم على حق. والشرقيون ردوا بأن النار لم تمس كنائسهم والمسلمون عزوا سلامة الإنجيل إلى العهد الذي كتبه الرسول بآلآ يتعرّض أحد للنصارى بِسُرِّ. والحابل اختلط بالنابل! والعربان نهوا كنيسة مار أسطفانس التابع للمشرقيين ودير الراهبات الأرثوذكسيّات.

بعد سنتين جاء مفريان<sup>٢</sup> أرثوذكسي إلى بغداد ليعيد بناء الكنيسة المحروقة. وموقف الجاثليق منه كان عدائياً: للمفريان هو نائب البطريك النازل في بلاد الروم، أعداء العرب، وهو لا يصلّي إلّا من أجل نصره الروم وذلة العرب... فيما كنيسة المشرق هي كنيسة العرب! لكن موقف رعية الجاثليق كان يعبر عن إنهاك تلاميذه في القبائح وارتكاب المحظورات، فاضطرّ إلى الهرب، وانتقل بعض رعاياه إلى مذاهب مسيحية أخرى، مثل الطبيب علي بن عيسى، تلميذ ابن الطيّب «أشهر كحالي العرب» وصاحب الرسالة في طبّ العيون، الذي انضمّ إلى طائفة الروم الأرثوذكس (الملكانيين). لكن التاريخ قلّمًا يحفل بالصغارات، وهو حفظ ذكرى عطرة لأبي علي عيسى بن زرعة، تلميذ يحيى بن عديّ وخليفته. يحيى هذا، كان يُعرف بأبي زكريّا المنطقيّ (٨٩٣-٩٧٤م) وكان فيلسوفاً أرثوذكسياً شهيراً من تكريت وتلميذاً لأبي بشر متى وللفارابي. نقل إلى العربية كتاب النفس لأرسطو، وله مصنّفات أدبيّة وفلسفيّة ولاهوتيّة عديدة. إن أمثال هؤلاء هم الذين يمثلون عظمة الحضارة السريانية الآراميّة.

## ١٦ - «الشروط العمرية» مرّة جديدة!

مات الجاثليق ولحق به، بعد سنة بهاء الدولة الذي خلفه ابنه أبو شجاع سلطان الدولة. والجاثليق الجديد يوحنا السادس بن إبراهيم نازوك ذهب إلى القصر ليأخذ عهد

١. الصفدي، الوافي، ج ١٠، ص ٣٦٥.

توليته قبل أن يُسام في ١٩ تشرين الثاني ١٠١٢م، وتتابع الجدل بين المسلمين والنصارى كسابق عهده، مع شيءٍ من تصلُّب المواقف هذه المرة، ومع ارتدادات الشارع التي لا سبيل إلى التعقُّل فيها. فقد ثار المسلمون ضدَّ مرور جنازة في الشوارع، فيها طبلٍ وزمر وتراتيل وشموع وصلبان، فهرب حاملو النعش إلى كنيسة دار الروم، فلحقت بهم العامة وأعملت السلب والنهب في الكنيسة والقلية (مركز الجاثليق) والمنازل المجاورة. ونُهبت كنائس عدة في المدينة. ولم يهدأ الشعب إلا بعد أن وعد الخليفة بتطبيق «الشروط العمرية».

وزير سلطان الدولة، المسمّى فخر المُلْك، تولّى تنفيذ هذه الشروط بما يتناسب مع جسعه، فقاسى النصارى أيامًا عسيرة، وتعرَّض الرهبان والقساوسة للرجم والإهانات وشتى أعمال الكيد، ومُنعت الجناز من الخروج نهارًا، ونُهب أهل سوق الثلاثاء، و«أسلم مَنْ لا دين له»، على قول ماري<sup>١</sup>. «كان من الطبيعي أن يولّد الغليان العام تيارات هامشية تذهب ضحيتها الأقليات. وفي هذه المياه العكرة كانت تسبح شتى أنواع الحيتان التي كانت تجد في النصارى فرائس سهلة المنال»<sup>٢</sup>.

هل من أسباب هذه البلايا، «تجوُّز الناس في أديانهم وقبح سيرة الكهنة في المذبح والبيع والبيوت المقدسة؟» ربّما، لكن الأمور هدأت عندما قبض على فخر المُلْك و«الوحوش والطيور أكلت جثته». وللجاثليق أيضًا دورٌ سلبيّ في اعتياده سياسة محاباة ذوي القربى. وبعد وفاته في ٢١ تموز ١٠٢٠م، آلت الجثلة إلى إيشوعياب الرابع ابن حزقيال (١٠٢١-١٠٢٥م) الذي ورَّع رشاوى على أصحاب النفوذ<sup>٣</sup>. واتَّسمت جثلته ب«ما يقبح ذكره ولا يحسُن شرحه»، حسب قول ماري الذي يشير هنا إلى المنافسات الداخلية. وتمت جنازته ليلاً وفقًا للتدابير التمييزية المذكورة. وظلّ كرسيّ الجثلة شاعرًا طوال ثلاث سنوات من الخلافات الداخلية والضعف الخارجي والفتن الشارعية التي نهبت في أثناءها قلية دار الروم.

١. ماري، ص ١١٦.

٢. فيه، المرجع المذكور، ص ٢٦٦.

٣. الكامل...، ج ٩، ص ٣١٠، ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٨٦.



الجائليق إيليا الأول (١٠٢٨-١٠٤٩م) انتخبه الأساقفة حسب قواعد الحق القانوني. الحمد لله. عالم، فاضل، سديد الرأي، مؤلف، مصلح للطقوس. عقد مجمعاً أقرت فيه قوانين كنسيّة جيّدة. وظلّ الجائليق طوال عقدين ونيّف من الزمن موضع ثقة الجميع، في زمن تفتّشت فيه اللصوصيّة العلنيّة. ومات الخليفة ذو السلطة الرميّة فقط سنة ١٠٣٠م، وقد اختصر ابن العبري حياته بالقول: «كان ممتازاً بعفاه وفضله، خلافاً لأسلافه»، ما يعني أنه كان مسلماً صالحاً كما يجب أن يكون كلّ المسلمين.

### ١٧- إفلاس عربيّ... لولا السريان

بيت المال فارغ، والخليفة الجديد القائم (١٠٣١-١٠٧٥م) يراقب في عجز كلي الصراعات المسلّحة بين السنّة والشيعه، واكتساح العاطلين عن العمل (العيّارين) للشوارع وفرضهم الإتاوات على الناس، وتطبيق الحكّام «الشروط العمريّة» على أهل الذمّة، والغلاء والوباء والجذري والمجاعة (١٠٣٢م) وثورة العيّارين وأخذهم أموال الناس على المكشوف (١٠٣٣م)، وضحايا مرض الخانوق في البلاد (١٠٣٤م) ونهب الأكراد البلاد، وتعاقب الوزراء العاجزين (١٠٣٥م) وأخيراً هرب جلال الدولة متخفياً من الجند الأتراك المتمرّدين.

هكذا تفكّكت الدولة العبّاسية في السنوات الأخيرة من حكم البويهيين. فالسلاجقة يدقّون على أبواب بغداد، وسيدخلونها سنة ١٠٥٥م، لإيقاف مسلسل الفتن فيها. وفي الانتظار، سيرز في بغداد الفيلسوف المسيحي أبو الحسين البصريّ، تلميذ ابن الطيب، والفيلسوف الأرسطاطاليسيّ القانوني ومفسّر الكتاب المقدّس أبو الفرج عبد الله بن الطيّب، والفلكيّ الرياضيّ أبو الحسين بن سبريشوع. من جهةٍ أخرى، كان لطرّد «الغرباء» (أكثر من مائة ألف سرياني آراميّ) من القسطنطينية أثر طيّب في العلاقات بين المسلمين والسريان الذين صاروا منذ تلك الحادثة المأسوية متميّزين من الروم الذين طردوهم. ربّ ضارة نافعة!

في العام ١٠٤٤م، «أمير الأمراء» جلال الدولة بن بويه، حاكم البصرة وبغداد، والآلة الطيعة بين أيدي الأتراك. كان رجلاً شيعياً تقياً. وخلفه على العراق محيي الدين أبو كاليجار. في العام التالي أرسل مطران سمرقند إلى قصر الخليفة تحذيراً من قوم غزاة كثيري العدد، وصلوا إلى مدينة كاشغر (في أفغانستان)، فلم يؤخذ التحذير على محمل الجد. وفي كل حال، لن يصل هؤلاء الغزاة (المغول) إلى بغداد إلا في العام ١٢٥٦م.

في ١٨ تموز ١٠٤٦م، مات مطران نصيبين إيليا برشينايا الذي وضع تاريخاً استقرائياً وفق طريقة أوسابيوس القيصري. والجديد المميز لهذا التاريخ قسمة الصفحة إلى نصفين سرياني وعربي، وذكر المراجع. ويُعتبر هذا التاريخ مرجعاً مهماً جداً، ولذلك نُشر في طبعات أوروبية في العام ١٨٨٤م، (في ليزيك بألمانيا) ثم في العام ١٨٨٨م، (في بروكسيل ببلجيكا). وللمطران كتابٌ في النحو لقي إقبالاً شديداً عند الطلاب، وهذا الكتاب ملحقٌ بمعجم صغير عربي-سرياني استند إليه المستشرق توما دي نافاريا لتأليف معجمه الكنز العربي السرياني اللاتيني. وكان للمطران مناظرات في نصيبين مع الوزير أبي القاسم المغربي (١٠٢٦م) «تُظهر جو الاحترام الذي كان يسود بين النخبتين المثقفتين النصرانية والمسلمة... ولما سأل الوزير إيليا «ألكم من المعلوم مثل ما للمسلمين؟» أجابه: «نعم وزيادة وافرة». قال الوزير: «وما الدليل عليه؟» قال إيليا: «إن عند المسلمين علوماً كثيرة منقولة من السريان وليس عند السريان علم منقول من عند العرب»<sup>١</sup>.

كذلك ترك تصانيف عديدة الطبيب أبو سعيد عبيدالله آل بختيشوع (١٠٥٨م) فيما كان سميّه أبو سعيد الحارث بن بختيشوع الخازن يُعهد إليه بعمارة بيمارستان ميافرقين ومسجدها (١٠٣٣م). وتوفي الله الجاثليق إيليا الأول (٦ أيار ١٠٤٩م) فخلفه يوحنا السابع ابن الطرغال (١٠٤٩-١٠٥٧م) بعد سبعة أشهر. كان للجاثليق الجديد «معرفةٌ تامّة بصناعة الكتابة»، تلقّاها خلال ترهّبه وأسقفيته. ويُعتبر انتخابه إيداء لرغبة الرعية في أن يكون لها راعٍ من أهل الاختصاص، يعرف مداخل الإدارة ومخارجها، ولا سيّما في ما

١. راجع المصدر في فيه، ص ٢٧٩-٢٨٠، ح ٢٩.

يتعلق بالضرائب وإبعاد المسيحيين عن الصراعات بين السنة والشيعية، التي تجددت بفعل استمرار صعود السلاجقة السنيين، والتي راح ضحيتها، كالمعتاد، بعض المسيحيين.

عند تغيير الدول إ حفظ رأسك. هذه النصيحة، ما تزال سارية حتى يومنا هذا. وإنما لتتصور الرعب الذي كان يجلّ بسكان بغداد، ولا سيّما المسيحيون منهم، عندما كان يثور المرتزقة الأتراك مطالبين بمعاشاتهم، فينهبون المدينة بأسرها. وقد نالت نصيبها منهم حارة دار الروم وقلية الجائلق وكنيستها، وكذلك دار أبي الحسن سعيد بن عبيدالله، وزير البساسيري التركي<sup>١</sup>. وفي السنة التالية (١٠٥٥م) هجم الغزّ (العسكر الخراساني الذي رافق دخول طغرل بك، أول السلاجقة، بغداد) على الأبنية المرّمة ونهبوا للمرة الثانية على التوالي كرسى الجائلق الذي هرب إلى دير مار ماري بدور قنّى ثم اضطر إلى مغادرته لما صودر الإسكول (أي المدرسة الملحقة بالدير).

في ٢٥ كانون الأول ١٠٥٥م، دخل إذاً طغرل بك بغداد بفيلته. خلع عليه الخليفة لقب «ملك المشرق والمغرب». والمفارقة هنا هي أن الخليفة الذي منحه هذا اللقب لم يعد يُدعى باسمه من على المنابر، إذ في الأول من كانون الأول سنة ١٠٦٩م، حُطب في بغداد للخليفة الفاطمي بمصر، المنتصر! هذا ولم يتمكّن السلاجقة من بسط سيطرتهم على العراق من دون أن يسببوا الخراب والآلام للمسيحيين خصوصاً. وقد ذكرنا من قبل أن الغزّ قتلوا ١٢٠ راهباً في دير الكامل بالقرب من جزيرة ابن عمر. وفي العام ١٠٥٨م، حُرّبت الموصل.

قبل ذلك بستين، حاولت السلطة، بأمر من الخليفة القائم، تنفيذ «الشروط العمرية» وفرض السمات المميزة: الزنار، العمام المصبوغة، إلخ.... ولكن حال دون ذلك توسط كاتب يهودي يعمل في خدمة الخاتون زوجة طغرل بك. فما يزال المسلمون، بعد مرور ٤٢١ سنة على معركة القادسية، في حاجة إلى مهارات أهل الذمة، وبالتالي كان رؤسائهم لا يتخذون إجراءات ضدّهم إلا إذا اضطّروهم إلى ذلك ضغط الشارع الإسلامي المتعصب، أو ضغط الفقهاء الأكثر تعصباً. إن ما كان يجمي الذميين إجمالاً كما كان المتعصبون يطالبون بفرضه عليهم

١. الكامل...، ج ٩، ص ٥٩٧-٥٩٨.

هو دائماً المكانة التي كان ينعم بها بعضهم لدى الحكّام وحاجة هؤلاء إليهم وهذا البعض المتنفذ ينقسم إلى أربع فئات رئيسة: الكتّاب، والأطباء، والمنجمون، وأحياناً الشعراء.

هذا أمرٌ طبيعيّ، مع حكّام لا معارف لهم غير امتشاق السيف، يُفردون في أكلهم وشربهم فيحتاجون إلى الأطباء، ويخشون مصيراً أسود في كلّ لحظة فيلجأون إلى تطمينٍ من المنجمين، وهم على رغم بطشهم شخصيات تافهة يحتاجون إلى البروز في عصرٍ لم تكن فيه صحافة بل يقوم بدور الصحافيين فيه الشعراء المدّاحون الذين درسناهم في حصص الأدب العربيّ. ومن هؤلاء الشاعر عون الراهب (١٠٦١م)¹.

## ١٨- إضراب أهل الذمة وإسلامهم

بعد وفاة الجاثليق يوحنا بن الطرغال في صيف ١٠٥٧م، خلت كرسيّ الجثقة مدة أربع سنوات تقريباً. وخلال ذلك عمد المسلمون المتعصبون إلى الضغط على الوزير ابن مسلم من أجل تطبيق «الأحكام العمرية». ولكي يجهض مساعيهم، نصح الوزير رئيسي ديوانه: أبي علي بن فضلان اليهوديّ وابن الموصلايا النصراني بأن يلزما داريهما ويُعلما من يواليهما من اليهود والنصارى - من تجارٍ وصيارفة وصنّاع- بالإضراب عن العمل، الأمر الذي شلّ بغداد واضطر الخليفة إلى التدخل وأمر وزيره باستدعاء الذميين إلى العمل².

عملية الأسلمة تابعت في أيام القائم أيضاً. وارتاب أبو العلاء المعريّ (١٠٥٧م) في دوافع «قاطعي زنانيرهم». فقال فيهم:

قد أسلمَ الرجلُ النصرانَ مرتغباً	وليس ذلك من حُبِّ لإسلام
وإنما رام عزّاً في معيشته	أو خاف ضربةَ ماضي الحدِّ قلام
أو شاء تزويج مثل الظبي، مُعلّمة	للناظرين بأسوارٍ وعُلام

١. شيخو، لويس، شعراء النصرانية بعد الإسلام، ط ٢، بيروت ١٩٦٧م، ص ٢٧٨-٢٧٩ و٣٩٣.

٢. ابن الجوزي، بو الفرج عبد الرحمن، كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق كركوف، ٨ أجزاء، حيدر آباء، ١٩٣٨م-١٩٤٠م، ج ٨، ص ١٩٠.

٣. اللزوميّات، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م، ج ٢، ص ٤٥٧.

الجاثليق الجديد سبريشوع الثالث زنبور (١٠٦١-١٠٧٢م) مطران جنديسابور سابقاً، اعتلى السدة بفضل توسط أعيان نصارى يتحدّرون من أُسْرِ أصفهانية الأصل: الطبيب رجاء، العميد أبو سعيد، وأبو علي منصور بن عيسى بن مار سرجيس. وكان الأساقفة المسيمون طعنوا في شرعية الجاثليق بسبب عدم وجود انتخاب، فأمرهم السلطان بالامتنال لتوقيع الخليفة، فسيم الجاثليق في ٣ آب سنة ١٠٦١م، ورضى الخليفة لم يمنع المتعصين من سرقة «بعض بيع سامراء» من أجل بناء قبة جديدة على قبر أبي حنيفة ببغداد<sup>٢</sup>.  
ظلم ورياء في آن!!!

الرياء آفة التائقين إلى الأجداد، فقد زوّج طبيب مشرقّي ابنته من ابن رجل سريانيّ أرثوذكسيّ، فقامت قيامة الجاثليق عليهما وعلى القسّ هبة توما الذي عقد الزواج. وانتهت «الفضيحة» بأن حصل سبريشوع على توقيع من السلطات «يضمن دخول زعيم اليعاقبة والملكائيتية في طاعته والائتمار به»<sup>٣</sup>. وفي ١٧ نيسان ١٠٧٢م، توفّي الله الجاثليق بعد معاناته الفالج النصفّي طوال شهرين. والمؤرّخ ماري يرى علاقةً سببيّة بين الزواج «الفضيحة» والفالج! والله أعلم! وخلف سبريشوع الثالث عديشوع الثاني ابن العارض (١٠٧٥-١٠٩٠م).

خلال السنوات الثلاث الفاصلة بين موت الأوّل وسيامة الثاني طاف دجلة ورافده نهر القرچ على المدينة فغمر قصر الخليفة، وابتهل المسلمون والمسيحيون سوياً إلى الله أن يقيهم المصائب، وشكروه أيضاً لأنه أغرق الخّمّارات التي كان الجميع يشكون ضررها<sup>٤</sup>. في خلافة المقتدي (١٠٧٥-١٠٩٤م) كان السلطان السلجوقيّ التركي ملكشاه (١٠٩٢م) الملقّب بـ «مولى العرب والعجم» هو السيد المطاع. وتلاه ابنه بركيارق. وكان طبيب الخليفة النصرانيّ أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين الذي خدم في البيمارستان العضديّ وترك كتباً في الطبّ. والتعدّي على المسيحيين متواصل. ففي العام ١٠٨٥م، «بني مسجد بعمّر [بيعة] واسط»، أي في وسط دير مار سبريشوع<sup>٥</sup>، وترافق ذلك مع تفشّي وباء الطاعون.

١. أمين، حسين، نظام الحكم في العصر السلجوقيّ، مجلّة سومر، بغداد (٢٠) ١٩٦٤م، ص ٢٠٩-٢٢٦.

٢. ... المنتظم... ج ٨، ص ٢٤٥-٢٤٦.

٣. فيه، المرجع المذكور، ص ٢٨٧-٢٨٨.

٤. الكامل، ج ١٠، ص ٩١.

٥. ابن العبريّ، تاريخ الزمان، ص ١١٩.

## ١٩- النصارى «أعداء الإسلام»

«إنّ المطالبة بتطبيق القيود [على أهل الذمة] لم تزل تتكرّر طوال القرن الحادي عشر، ذلك لأنها لم تُطبّق إلّا لتهدئة العامة التي أحفظها [أثار حفيظتها] اختيال الأثرياء من الذميين، والحريّات والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها علناً، بسبب أهمّيّتهم السياسيّة والاجتماعيّة. وهذا يفسّر سلوك العامة من المسلمين الذين لما وجدوا أنفسهم بلا نصير يستظهرون به لدى الحكّام أخذوا على عاتقهم مهمّة الانتصاف فأحرقوا الكنائس ونهبوا المنازل وأشعلوا الفتن الدامية أحياناً<sup>١</sup>. وفي هذا السياق يندرج كتاب الفصول الجامعة في ما يجب على أهل الذمة من أحكام أهل الملّة للشيخ أبي بكر أحمد بن عليّ بن بدران الحلواني، كما يندرج تطبيق الإجراءات التمييزية التي اتُّخذت في العام ١٠٨٧ م.

لا عجب في ذلك، ما دام الخليفة ذا ميل دينيّ أصوليّ، يطبّق مقولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتكسير جرار الخمر وآلات الملاهي وهدم المواخير وأبراج الحمام ومنع ألعاب القمار، وكذلك منع الملاحين من نقل الرجال والنساء مجتمعين في زوارقهم ولن نتوقّف هنا عند استئصال طائفة مسيحية بكاملها من مدينة تكريت وتحويل كنائسها إلى مساجد وبيوت للمسلمين، كما لن نفصّل تقاتل السنّة والشيعّة (١٠٨٩م) بل نختصر بالقول إنّ النظرة العامّة إلى النصرانية، بعد أربعة قرون ونصف قرن من الفتح العربيّ، تميل إلى اعتبار النصارى، حتى في المشرق، «أعداء الإسلام».

في العام ١٠٩٠م، توفّي الله الجائليق الذي يصفه ماري بالشيخ الطاهر العالم الخبير الصالح التدبير. وكالعادة سيظلّ كرسيّ الجثثقة خالياً مدة سنتين ونصف السنّة، في زمن بروز نظام الملك (١٠١٨-١٠٩٢م) الوزير الشهير للسلطان ملكشاه ابن ألب أرسلان، الذي أنشأ «نظاميّة» (مدرسة) نيسابور وبغداد سنة ١٠٦٥م، وأقرّ الأمن في العراق وفارس قبل أن يقتله الحشاشون. وقد كتب نظام الملك سياسة نامة بالفهلويّة، وتُجم الكتاب إلى العربيّة بعنوان سياسة الملوك. ونظرة الكاتب إلى النصرانية تقوم على الآية القرآنية المعروفة: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء /

١. ابن عجيل، ص ١٥٨-١٦١، نقلاً عن فيه، المرجع المذكور، ص ٢٩٩.

بعضهم أولياء بعض / ومن يتولهم منكم فإنه منهم / إن الله لا يهدي القوم الظالمين»  
(المائدة، ٥١).

في أيام نظام الملك وقبلها كانت دواوين بغداد تعجّ بأهل الذمة الذين لا غنى عن خدماتهم وكان هؤلاء يعملون أيضًا، ولكن بعددٍ أقل، في الدواوين السلطانية خارج بغداد. وبعد عهد نظام الملك ستتغير الأحوال حتى في دواوين الخلافة. فالوزير أبو شجاع ظهير الدين الروذراوري استحصل على توقيع الخليفة في ٧ نيسان ١٠٩١م، بالزام أهل الذمة السمات المميزة: لبس الغبار وعقد الزنار وتقلد درهم رصاصي في العنق ضربت عليه كلمة ذمي...

وكان على النساء المسيحيات أو اليهوديات أن يتقلدن هذا الدرهم في الحلمات العامة، وأن يتعلن حذاء بلونين: أحمر وأسود، وأن تضعن الخلاخيل في أرجلهن. ومع أن أم الخليفة كانت أرمنية مسيحية، لم تستطع أن تحول دون هذا الإذلال للشعب الذي يطعم الحاكمين وزبانيته العطل من عرق جبينه ودم قلبه. وظلّ التدبير المحقر لإنسانية الإنسان، أيًا يكن دينه، ساري المفعول طوال أربعة عشر عامًا. ومع ذلك، صمد الآراميون السريان وظلّوا رواد نهضة فيما أصولية المسلمين استمرت هي أيضًا لتنتج محمد بن عبدالوهاب وأسامة بن لادن وغيرهما كثيرين.

## ٢٠- مشاهير سريان «قطعوا زنانيرهم»

في جو كهذا ظلّ العدد الأعظم من الشعب الآرامي المسيحي في عداد «المعترفين» أي الشهداء الذين كابدوا العذابات والاضطهادات التي لم تؤدّ بهم إلى الموت. أمّا الذين لم يكونوا مسيحيين إلا بالاسم فإنهم تساقطوا كأوراق الخريف و«قطعوا زنانيرهم».

نذكر من هؤلاء أبا الخير سعيد بن منصور ابن الموصلايا (الموصلي؟) وأبا سعد العلاء بن الحسن ابن الموصلايا الذي كوفئ على ولائه فاستُيب على الوزارة بعد عزل أبي شجاع، وابن أخت هذا الأخير أبا نصر هبة الله بن الحسن بن عليّ الملقب بتاج الرؤساء، وخال هذا الأخير رئيس ديوان الإنشاء الملقب بنظام الحضرتين، وأبا الحسن ابن الموصلايا كاتب ديوان الزمام، وأخيرًا نذكر الأخوين أبا طاهر ابني هبة الله الأصبغي. الأول كان

حُساب العراق يكتبون الحساب على طريقته<sup>١</sup>، والثاني لُقّب بـ «الرئيس». هؤلاء طمعوا بالمناصب والسلطة. وغيرهم طمع بالمال، ما دفع الحنبلين إلى انتقاد الأشاعرة الذين كانوا ينظّمون عمليّات الإسلام «الإعلاميّة» وإلى القول: «هذا إسلام الرشا لا إسلام القناعة». وفي الواقع التاريخي، لم يعتقد مسيحيّ الإسلام بسبب كرامات (أعاجيب) تُنسب إلى هذا الدين. القصة الوحيدة المتداولة في هذا الشأن وردت في ألف ليلة وليلة، وهي طبعًا من نسج الخيال. وبعد توقّف موجة «تقطيع الزنانير» تمكّن مسيحيّو كنيسة المشرق من انتخاب جاثليقٍ جديد هو مكّيخا الأول (١٠٩٢-١١٠٩م). وكان الأبرز بينهم القسّ الراهب أبو الفرج سعيد بن إبراهيم الواسطيّ، طيب لب أرسلان. في ما بعد اختلف هذا مع الجاثليق إذ صعب عليه أن يلزم حدوده ويطيع رئيسه الديني. وفي شباط ١٠٩٤م، مات الخليفة بالسّم، على الأرجح.

## ٢١- الجاثليق: «أنا مؤلّى من السماء»

تطوّر الخلاف بين الجاثليق والقسّ فدعي الإثنان للتحاوّر أمام الوزير. وما يهّمنا منه هنا الكلام الذي ختم به الجاثليق الحوار، متحدّيًا قول الوزير: إن لم تخضع لأمر الخليفة فليس لك شغلٌ عندنا. قال: «إني إن مَضَيْتُ من بلدكم فأمرني ونهيتي وما أحلُّ وأعتقد، فهو على حاله ولا يُحسب أنّ هذا العهد الذي كتبتُم لي أنا مؤلّى به وإنما هو سنّة وعهد وإلا فأنا مؤلّى من السماء، وإن كان أمركم ونهيكُم مائتي فرسخ فأنا أمرني من مشرق الأرض إلى مغربها وأما هذا الطاعي [القسّ] فلا يصحّ له صلاة إلا بذكري». وانتهى الخصام بمصالحة، فأدى القسّ الطاعة للجاثليق الذي فكّ عنه الحرم الذي، كما قيل، أصابه بعمى موقت.

في العام ١٠٩٩م، استولى الفرنجة على بيت المقدس وأعملوا السيف والسبي في أهلها. ولمّا علم أهل بغداد بما جرى بكوا، وهبّ خطباء المساجد يستنهضون المسلمين إلى الجهاد<sup>٢</sup>. «ولكن ثمة أمر حريّ بالانتباه: لا ذكر لأية حادثة ضدّ النصاريّ [في بغداد والعراق] لا في تواريخ المسلمين ولا النصاريّ»<sup>٣</sup>. وسنضرب صفحًا عن الجاثليق مكّيخا

١. شيخو، لويس، شعراء...، ص ٢٩١-٢٩٢ و ٣٩٣-٣٩٤.

٢. ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية في التاريخ، ١٣ جزءًا، بيروت، الرياض، ج ١٢، ص ١٥٦.

٣. فيه، المرجع المذكور، ص ٣١٥.



وكراماته «الانتقامية»، ففي سجلّه ستّ جثّ!!! لننتقل إلى خصمه الطبيب الواسطي الذي توصل في ٢٩ آذار ١١٠٥ م، إلى إقناع الخليفة بإعفاء النصارى ببغداد من لبس الغبار. والمؤرخ ماري أثنى على مناقب هذا القسّ المتطبّب «الذي كان أعجوبة زمانه»<sup>١</sup>، ولكنّه لم يُبخل الجائليق حقه إذ قال فيه: «وما عُرف له أمر يُكرهه لا في صباه ولا في رهبته»<sup>٢</sup>، وكانت وفاته في ١٧ آذار ١١٠٩ م.

## ٢٢- طبيبٌ يرسل مرضاه شعراً

في ١٦ نيسان ١١١١ م - أي بعد ٢٥ شهرًا - سيم الجائليق إيليا الثاني ابن المقلي (١١١١-١١٣١ م) وكان في مقدمة الحضور «القسّ الأجلّ» أمين الدولة موفق الملك... المعروف بابن التلميذ، ساعور البيهارستان العضديّ (أي رئيس الأطباء) ومعه زعماء الطائفة وجمهور النصارى. كان ابن التلميذ (واسمه الكامل هو أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم الغياثي!) ينتمي إلى أشهر أسر الأطباء النصارى، وكان يتقن السريانية واليونانية والفارسية والعربية، وترك تصانيف عديدة في الطبّ، وكان يكاتب مرضاه نظرًا.

نعود إلى الأطباء الذين أدّوا دورًا أساسيًا في الحفاظ على مسيحيي كنيسة المشرق. ومن عائلة ابن التلميذ نجد طبيبًا آخر شاعرًا هو أيضًا، لقبه معتمد الملك (أو الدولة) واسمه أبو الفرج يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ<sup>٣</sup>. وكان الأطباء النصارى يكابدون أحيانًا حسد الأطباء اليهود أعداء الكار (المهنة)، وكان يحكم في هذه النزاعات لصالح النصارى الخليفة الذي قال فيه ابن الأثير: «وكانت أيامه أيام سرور للرعيّة، فكأثّها من حسنّها أعياد»<sup>٤</sup>. لقد عوّض المستظهر عن أبيه المقتدي.

١. فيه، المرجع المذكور، ص ٣١٨.

٢. المرجع ذاته، ص ٣١٩.

٣. شيخو، لويس، شعراء النصرانية بعد الإسلام، ص ٣١٠-٣١٤ و٣٩٤.

٤. الكامل... ج ١٠، ص ٥٣٤-٥٣٥.

## ٢٣- المال يفندي أهل الذمة

نَبِّهنا المسيح ألا نعبد المال. والقرآن الكريم نهى عن الشرك ٦٨ مرة. والسؤال: ألا يُشرك المسلم إن كان الدافع لفعله حبّ المال؟ نقول هذا لأنه في السنة الثالثة لعهد الخليفة المسترشد (١١١٨-١١٣٥م) هدّد أصحاب الشأن بفرض السمت المميّزة من أجل ابتزاز أهل الذمة، واعتصار المال منهم، على رغم إعلان الخليفة في بداية عهده شعار الإصلاح. فاقترح الذميون عليهم أن يفندوا أنفسهم بالمال، فوافقوا. أيكون أصحاب الشأن هؤلاء، وبينهم الخليفة والسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، مسلمين حقيقيين؟

إن أجبنا بالإيجاب نخالف وصيّة المسيح، وإن أجبنا بالنفي نكون قد جرّدنا معظم الخلفاء والعباسيين من دينهم لذلك نترك الحكم للقارئ ونكتفي بأن نلفت إلى التمييز الذي قال به البعض، مثل جورج مقدسي، بين العرب والترك السلاجقة: «لم يكن الحكّام السلاجقة يتحلّون بالتسامح حيال الأقليّات الدينيّة، بل بعدم الاكتراث»<sup>١</sup>.

قد نستطيع تبني هذا القول إذا دعمناه بما كتبه ميخائيل الكبير السرياني (١١٢٦-١١٩٩): «إن الترك... الذين لا يفقهون شيئاً من الأسرار المقدّسة ويُعدّون النصرانية ضلالة لأجل ذلك، لم يكن من عادتهم الاستخبار عن العقائد ولا اضطهاد أحد بسبب عقيدته»<sup>٢</sup>. وفي الواقع، كان الحكّام، أعرّباً كانوا أم كردّاء، أم تركّاء، كلّما احتاجوا إلى المال، يهدّدون الأقليّات بتطبيق القيود، حتى أمست هذه كسيف ديموكلس، فيحصلون على المال. وفي العام ١١٣٠م، أعيد فرض هذه القيود مجدّداً على أهل الذمة، ربّما لأنهم كانوا يفتقرون آنذاك إلى الفدية.

في أجواء كهذه مات الجاثليق إيليا الثاني بن المقلي الذي اشتهر في حياته بإحقاق الحق وإنصاف الناس، من دون تمييز بين قويّ وضعيف، بين غنيّ وفقير. ووقع الاتفاق بين الأساقفة والأعيان على جثقة القسّ المتطبب ابن الواسطيّ، المار ذكره، لكن المرض أخذه

١. نقلاً عن فيه، المرجع المذكور، ص ٣٢٥.

٢. تاريخ، ج ٣، ص ٢٢٢.

قبل أن يُسام وخلفه برصوما الأول (١١٣٤-١١٣٥م) الذي لم تُدْم جثلقته إلا أقل من سنة ونصف السنة ومات حزينا لأن قليّة دير الروم وكنيسته تُهبت وأخذت الكتب السريانية والعربية منها. وما لبث الخليفة أن اغتيل في آخر أيلول ١١٣٥م.

الراشد (١١٣٥-١١٣٦م) ابن المسترشد سيعرف مصير أبيه في خضمّ النزاعات بين الأمراء السلاجقة، فيما بغداد يعيث فيها العيَّارون فسادًا، والنصارى يحتمون منهم ومن أمثالهم بدفع الخوات لـ «فتوات» (قبضيات) الأحياء. مَنْ هم العيَّارون؟ سبق أن أتينا على ذكرهم، لكن الجواب الشافي عنهم هو ما كتبه المفكّر المسلم المعاصر محمّد أركون، فهو يعدّهم «من الطبقات الخطرة... المؤلّفة من صغار الناس المستبعدين غالبًا من الوظائف ومن كلّ مشاركة منتظمة في مكاسب الحياة... [وهم] السند الاجتماعيّ الفعّال للحنابلة والشيعّة المناضلين»<sup>١</sup>.

وأبو عبدالله محمّد، أخو المسترشد، لُقّب يوم مبايعه بالمقتفي (١١٣٦-١١٦٠م) واتّخذ له كاتبًا نصرانيًا هو الحسين بن عمرو وطبيبًا نصرانيًا هو علي بن الراهبة. وبعد ستين على شغور كرسي الجثلقة، سيم الجاثليق عبديشوع الثالث ابن المقلي في ١٣ تشرين الثاني ١١٣٨م. والسلطان السلجوقيّ مسعود أحلّ مع وزيره كمال الدين الخازن الأمان في بغداد، «فكثّر الدعاء له والثناء عليه»<sup>٢</sup>، ولكن لمدة محدّدة فقط، لأن العيَّارين نشطوا في فرض الخوات إلى أن وضع حدًا لتجاوزاتهم مملوكٌ صارم اسمه إيلدكز. والجاثليق تمكّن من إعادة بناء بعض المباني، ومنها مباني دار الروم.

## ٢٤- أطباء فلاسفة وأدباء وقتلة!

وخلفه إيشوعياب الخامس البلديّ (١١٤٩-١١٧٥م) بعد ستين من شغور الكرسيّ. ويُنسب اختياره إلى طبيب مشهور. وتلت سيامته سنةٌ خصب وخير، تلتها سنة وباء اكتسح المدينة. وفي تلك الأثناء كان الخليفة يستغلّ خلافاتٍ لتوسيع رقعة نفوذه.

١. أركون، محمّد، مساهمة في دراسة الأنسية العربية في القرن الرابع/ العاشر م: مسكويه، الفيلسوف والمؤرخ، في دراسات فلسفية، (XII, Vrin)، ١٩٧٠م، ص ١٦٤.

٢. الكامل... ج ١١، ص ٧١.

ونجح في الحلة وواسط ولكنه أخفق في تكرت مرتين. ويقول ابن الأثير: «وهو أول من استبدّ بالعراق منفردًا عن سلطان [سلجوقي] يكون معه... من حين تحكّم المهالك على الخلفاء من عهد المنتصر إلى الآن»<sup>١</sup>.

في عهد المقتفي كان النصراني أضعف من أن يكونوا خطرين، ولكن لم يبقَ في تلك الحقبة إلا الأطباء وتناقص عدد الكتاب كثيرًا فإن من كان منهم ما يزال في مناصب يُحسد عليها فهؤلاء كانوا قد تعلّموا كيف يظهرهم أكثر تواضعًا<sup>٢</sup>. من هؤلاء الأطباء النصراني أبو الغنائم سعيد بن هبة الله الأثرديّ، ساعور البيارستان العضويّ. والده هبة الله بن علي بن الحسين، كان فيلسوفًا إلى جانب كونه طبيبًا، ترك مصنّفات في الطبّ والفلسفة. وأخوه أبو الحسن علي كان أيضًا طبيبًا وكاتبًا ألف كتابًا في الطبّ بطلبٍ من طبيبٍ آخر هو أبو العلاء محفوظ بن المسيحي بن عيسى النيليّ (أو الواسطيّ) الذي كان أديبًا وشاعرًا. وهؤلاء كلّهم برزوا في بلاط المقتفي الذي كانت «أيامه نضرة بالعدل، زاهرة بفعل الخيرات» بحسب أبي طالب الهاشمي<sup>٣</sup>. ومنذ ذلك الوقت لبثت بغداد والعراق في حوزة الخليفة.

في خلافة المستنجد (١١٦٠-١١٧٠م) يتحدث ابن الطقطقيّ عن إزالة المكوس والضرائب، من دون ذكر السبب<sup>٤</sup>. أما ابن العبري فيذكر وفاة طبيبٍ نصراني كبير ببغداد، هو أمين الدولة بن التلميذ -وقد سبق ذكره- عن تسعين سنة، «وكان متضلعًا من مختلف العلوم ووحيد عصره في الطبّ وخبيرًا راسخًا في الفصاحة ونحو العرب وشعرهم لا ينقص عنهم علمًا وفضلًا وتغلب أيام حياته في خفض من العيش والقرب من الملوك»<sup>٥</sup>. ولا يفوت الأب اليسوعي لويس شيخو ذكر شاعر مسيحي وُلد في بغداد سنة ١١٦٢م، هو الرئيس أبو غالب بن عيسى بن باباي<sup>٦</sup>. فهل ما ذكره هؤلاء بكافٍ لوصف حالة المسيحيين آنذاك؟

١. المرجع ذاته، ج ١١، ص ٢٥٦.

٢. Gaston Wiet) جرائد فارسيّة (بالفرنسية)، مذكرات معهد مصر، المجلد ٥٢، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٩٩.

٣. المذكور في السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ٤٤١.

٤. ابن الطقطقي، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت ١٩٦٦م، ص ٢٥٥.

٥. تاريخ الزمان، ص ١٧٧-١٧٨.

٦. شعراء...، ص ٢٩٢-٢٩٦.

بالطبع لا. فقد كان البقاء على النصرانية ببغداد يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وكانت الطوائف النصرانية هناك تتقلّص في استمرار. هذا ما سجّله جان موريس فييه الذي يذكر، إلى جانب ذلك، بعض حالات الارتداد عن المسيحية، ومنها قصة الخصيّ النصرانيّ عبدالمسيح الملقّب بفخرالدين الذي أوكل إليه أمير الموصل قطب الدين مودود القلعة والوزارة، لكن هذا الأسير الأنطاكي القديم أبعد بعد وفاة سيّده فتسمّى بعبدالله وأظهر الإسلام، ما أتاح له أن يحامي عن النصارى<sup>١</sup>. لكن عماد الدين زنكي، الذي أزاحه، اصطحبه معه إلى حلب، «فأنزل ذلك بالنصارى كرباً عظيماً»<sup>٢</sup>. ومثله فعل ابن النّحال الكاتب، فإنّه أسلم عند استيلاء الملك العادل على السلطة سنة ١١٨٣م، ثم اجتهد في حشر النصارى في مناصب عدة، حتى قيل في هجائه:

«فاق دينُ المسيح في دولة العا      دلّ حتّى علا على الأديان  
ذا أميرٌ وذا وزيرٌ وذا وا      لِ وذا مشرفٌ على الديون»<sup>٣</sup>

من الطبيعيّ أن يحزن مسيحيّو بغداد على أسرى فرنج تمّ إعدامهم في بغداد، وأن يعتبروهم شهداء بالمعنى المسيحيّ للكلمة. ولذلك دفنهم في فناء كنيسة سوق الثلاثاء. وتعدّ هذه الحادثة واحدة من حوادث قرّبت مسيحيي كنيسة المشرق من الفرنجة البعيدين منهم في المكان ولكن القريبين منهم في الإيمان، ما أسهم في تعميق الهوة بين الذميين والمسلمين.

سبق أن أشرنا إلى كون العامل الدينيّ سبب تفرقة بدل أن يكون سبب وحدة بين شعبين ساميين كان في استطاعتهم، لو تغلّبوا على هذه التفرقة ونظروا إلى الإنسان كإنسانٍ لا ككافر من هنا وهرطوقيّ من هناك، أن يُنشئوا حضارة عالمية تستمرّ إلى أيّامنا. ومهما يكن، نختم عهد المستنجد بذكر موته مخنوقاً في ٢٠ كانون الأول ١١٧٠م، بسبب الغيرة القاتلة بين نسائه العديديات. فالخليفة وأسلافه «لم يعدلوا» في زيجاتهم، وهذا ما يشرح وجود خصيان تهتمّ بالحريم لكنّ طبيب الخليفة النصراني أبا غالب بن صفيّة لم يعدل هو

١. فييه، المرجع المذكور، ص ٣٤١-٣٤٣.

٢. ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٤٢-٣٤٣.

٣. المرجع ذاته، ص ٣٤٣-٣٤٤، ح ٨.

الأخر مع مريضه، فأدّى دورًا في اغتياله<sup>١</sup>، هذا ويلخص ابن الأثير حياة الخليفة المغدور بهذه العبارات: «كان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرةً مع الرعية، عادلاً فيهم كثير الرفق بهم، وأطلق كثيرًا من المكوس، ولم يترك بالعراق منها شيئًا، وكان شديدًا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس... ورد كثيرًا من الأموال على أصحابها»<sup>٢</sup>.

٢٥- وفاة نور الدين زنكي «خبرٌ سارٌّ» للنصارى والمسلمين على السواء<sup>٣</sup> نرى أن الله يرحم بيدٍ ويضرب بيد. اليد الأولى هي للخليفة المستضيء (١١٧٩-١١٨٠م) والثانية لنور الدين زنكي (١١٧٤م) ابن عماد الدين (١١٤٦)، وكذلك للأسباب الثانوية التي جاءت على شكل نكبات طبيعية (فيضانات، حرائق، زلازل، أوبئة، غلاء، إلخ...). ومن حسن حظ المستضيء، الذي نصّبَه قتلُهُ أبيه، أن يُخطب له بمصر بفضل نور الدين ثم صلاح الدين الذي كان سيدها المطاع<sup>٤</sup>.

لنسمع ما يقول البطريق ميخائيل الكبير السرياني: «لقد صرف الخليفة المستضيء عن النصارى هُمًّا غضب نور الدين وحقده»<sup>٥</sup>. وهذه هي القصة: كتب نور الدين، قبل عام من وفاته، رسالةً إلى الخليفة يحرضه فيها على توعد النصارى بالقتل إذا لم يُسلموا، لأن: «هذا مكتوب في القرآن (كذا): «يحكم المسلمون ٥٠٠ عام، لا يسيئون فيها إلى النصارى. وهذه الأعوام قد انقضت». فأرسل الخليفة إلى نور الدين رسالة تأنيب تقول: «أنت لم تفهم حديث الرسول عن السنين، والله لا يأمر بقتل الناس من غير ذنب يستحقّ القتل». ويعلّق ميخائيل الكبير السرياني خاتمة هذه القصة: «وقد أفاد النصارى من هذا أيضًا... أما نحن [المسيحيين] فيجب علينا أن نفهم أنه لئن أذن الله للعرب والأتراك أن يسودوا علينا بسبب خطايانا، فإنه من عظيم رحمته لنا لم يتركنا في أي وقت ولا بأية حال ولن يتخلّى عنا، بل إنّه في عنايته الإلهية يحفظنا ويخلصنا من أعدائنا، لأجل محبته لكنيستته».

١. ابن أبي أصيبعة، ص ٣٤٧-٣٤٩.

٢. الكامل...، ج ١١، ص ٣٦٢.

٣. ميخائيل الكبير السرياني، ج ٣، ص ٣٥٣.

٤. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨٧.

٥. تاريخ، ج ٣، ص ٣٤٠ و ٣٤٤-٣٤٥.

## ٢٦- هدوءٌ واستقرارٌ وخليفةٌ حلِيم

أول من فرح لموت نور الدين زنكي، على رغم عناية طبيبه النصراني رحابايا، هو ابن عمه سيف الدين غازي الذي أعلن الأفراح فشرّب الجميع وسكروا<sup>١</sup>. وقد لحق به الجاثليق في مشهدٍ مغاير من الصلاة والتقوى بسبب الكرامات (الأعاجيب) التي جرت على قبره في كنيسة درب دينار بسوق الثلاثاء. وبعد ثمانية أشهر انتخب الجاثليق إيليا الثالث أبو حلِيم (١١٧٦-١١٩٠م) «الذي لم يكن فيهم [الأخبار] من يماثله علماً وحكماً وكرماً وحسناً وبلاغةً وفصاحة»<sup>٢</sup>. وقد جدّد القلاية الخربة وكنيسة دير مار ماري بدور قنى وغيرها من الأديرة والكنائس، ما يدلّ على الهدوء والاستقرار.

أعمال إيليا الثالث سنأتي على ذكرها في فصلٍ آخر. وما يهّمنا هنا هو ما قاله صليبا بن يوحنا في ترجمته: «وكان مع أوصافه الجميلة بحسن الخلق والخلقة سخياً متلاًفاً للمال في عمل الخير مع الناس الضعفاء والمساكين ومع الأشرار الذين من غير دين ومع الحكّام المتولّين لأجل إقامة جاه النصراني»<sup>٣</sup>. هذا الكلام يعني أنّ النصرانيّ نعموا بالسلام في عهده، بقدر ما كانت تسمح به الظروف. واتفق أن بعض عمّال الخليفة كانوا من الناس الأخيار، مثل نجم الدين أمير ماردين (١١٧٦م) الذي حكم المدينة طوال ٢٢ سنة و«عامل النصراني وكنائسهم وأديارهم خير معاملة»<sup>٤</sup>. ومع ذلك كانت تقع حوادث فردية لا يمكن نكران مسؤولية المسيحيين فيها. فإنّ أحد رهبان دير بكره بجبال ماردين، يدعى الحسن بن مكيب، أسلم سنة ١١٧١م، فوضع العرب يدهم على ديره ثم حوّله الأكراد إلى مسجد. وهرب الراهب «القاطع زّاره» بعد أن ارتدّ عن الإسلام هذه المرّة، فعاقب الحاكم أخاه حتى الموت!

لنقرأ الآن شهادة البطريرك ميخائيل الكبير السريانيّ (١١٦٢-١١٩٩م) المعاصر لهذه الأحداث. إشتكى عليه أحد أساقفته المدعو دنحا-يوانيس الرقيّ، فسيق إلى معسكر سيف الدين أمير الموصل. هناك دافع عن نفسه بهذه العبارات السامية: «إنّ الله لم يأمر الملوك بتدبير شؤون الإيمان بالسيف. ومنذ أن ساق الله الملوك للمسلمين لم يُقدّم أيّ ملك من

١. ميخائيل الكبير السريانيّ، ج ٣، ص ٣٥٣ و٣٦١-٣٦٢.

٢. ابن العربيّ، ج ٢، الأعمدة ٣٣٠ و٣٦٨-٣٧٠.

٣. صليبا بن يوحنا، أخبار...، ص ١١٠-١١٢.

٤. ابن العربيّ، تاريخ الزمان، ص ١٩٣.

الملوك العادلين على دوس شريعة الله بالأرجل، بل أطاعها والتزم حدودها. وقد فرض المسلمون على النصارى، وبإذن الله تعالى، شتى صنوف الإذلال الجسديّ، إلا أنهم لم يدعوا لأنفسهم أي سلطان على العقيدة...»<sup>١</sup>.

ونختم خلافة المستضيء بالثناء الذي خصّصه له عزّ الدين أبو الحسن علي ابن الأثير (١١٦٠-١٢٣٤م)، المؤرّخ الموصلّي الشهير: «كان عادلاً حسن السيرة في الرعية... وكان الناس معه في أمنٍ عامٍ وحسان شامل وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميداً ومات سعيداً»<sup>٢</sup>.

## ٢٧- بيهارستانات بغداد والأطباء النصارى

نصل الآن إلى الخليفة العبّاسي الرابع قبل الخير أبو العبّاس أحمد بن المستضيء، الملقّب بالناصر لدين الله (١١٨٠-١٢٢٥م)، «القيح السيرة في رعيّته والظالم، فخرّب في أيامه العراق وتفرّق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأمواهم»<sup>٣</sup>. في بداية عهده نظّم حاجب الباب حملة على المنكرات في بغداد (١١٨١م)، وبين آذار ونيسان ١١٨٤م، أقصي النصارى من الدواوين لأنّ الخليفة المتعصب كان يُعدّ مجرّد وجودهم إذلالاً للمسلمين بعد أربعة قرون مسيحيّة ونصف قرن على الفتح! ومن الطبيعيّ، كما حدث مراراً في السابق، أن يقطع بعض المستفيدين من الوظائف زنايرهم.

نذكر هنا أنّ الرأي السلبيّ في الخليفة الذي ساقه ابن الأثير يناقضه ابن جبير حين يقول: «... وهو مع ذلك يحبّ الظهور للعامة، ويؤثر التحبّب إليهم، وهو ميمون النقية [محمود المختبر] عندهم قد استسعدوا بأيّامه رخاءً وعدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له»<sup>٤</sup>. أكثر من ذلك، أضفى ابن الطقطقيّ (محمد بن علي) في سرد مناقبه وعده من أفاضل الخلفاء وأنبههم ذكراً<sup>٥</sup>. ووصف ابن جبير بغداد بتناقضٍ تاماً مع الصورة المطبوعة

١. ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٥٨-٣٦٠.

٢. الكامل...، ج ١١، ص ٤٥٩-٤٦٠.

٣. ابن الأثير، الكامل...، ج ١٢، ص ٤٤.

٤. رحلة ابن جبير، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٨م، ص ٢٠٣.

٥. الفخريّ في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت ١٩٦٦م، ص ٢٥٧.



في الأذهان في ألف ليلة وليلة. وما يهمننا هنا هو أن الأطباء النصارى ظلوا يحيطون بالخليفة. أشهرهم رئيس الشامسة أبو الخير ماري بن هبة الله بن إبراهيم المؤمل من بني المسيحي، تلميذ ابن التلميذ المار ذكره، الذي علّمه أول مسائل حنين إسحق في الطب. كتب أبو الخير كتاب الاقتضاب في الطب [الارتجال؟] ومختصره انتخاب الاقتضاب، وأشعاراً سريانية، ولكنه عجز عن شفاء مئانة الخليفة. فاستدعي أحد أفضل جراحى الكرخ، ابن عكاشة، لمعالجة الخليفة، فباء بالفشل أيضاً، إلى أن توصل طبيب نصراني آخر هو أبو نصر سعيد بن أبي الخير (غير الأوّل) بن عيسى إلى مداواة مئانته بالمرهم المحلل للحصى.

من الطبيعي إذاً أن يُكرّم هذا الأخير ويُصرف له رزق سنوي حتى وفاته. ولكن نعد إلى الأطباء النصارى. كان أبو الحسن (أو الحسين) صاعد، الأخ الأكبر لرئيس الشامسة، طبيباً أدبياً فيلسوفاً منطقيّاً، ووضع كتاباً في الدفاع عن النصرانية فضلاً عن كتاب الصفوة في الطب، وكان مقرّباً من الخليفة. والأخ الأصغر لهذين الطبيبين سنلتيه عاجلاً سيصير جاثليقاً سنة ١٢٢٦م، غير أن ابن رئيس الشامسة، أبو علي، ارتكب أخطاء مهنية في الطب وبدد ما تركه له أبوه في الفسق والمجون، فحُكم عليه بالقتل، ولكنه افتدى نفسه بهالٍ من بيع كتب أبيه ونفائسه. ونذكر أخيراً أبا الفرج المتطبّب الذي توفاه الله سنة ١٢٠٤م، وأُخرجت جنازته ليلاً - بحسب الشروط العمرية؟! - وحضرها جمعٌ غفير من النصارى. وكان هؤلاء الأطباء يعالجون المرضى في البيمارستانات، ومنها البيمارستان العضوي الذي يصفه ابن جبير بـ«المدينة الصغيرة»<sup>١</sup>. وفي عهد الناصر كانت وفاة طبيبٍ نصرانيٍّ آخر من بغداد هو المهذب بن هبل الذي مارس الطب في أرمينيا ثم رجع إلى الموصل حيث وضع كتاب المختار الذي ظلّ مستعملاً حتى أيام ابن العبري (١٢٢٦-١٢٨٦م).

إنّ أهم الأحداث التي جرت في عهد الناصر تتعلّق بالكنيسة السريانية الأرثوذكسية الواقعة غرب الفرات، وسنعالجها في محلّها. ولما سقطت المدينة المقدّسة في قبضة صلاح الدين الأيوبي بكى سريان كنيسة المشرق. وبعد ستين سنة، أي سنة ١٢٤٧م، كتب الجاثليق سبريشوع الخامس إلى البابا إينوقنتيوس الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م): «كان من الواجب

١. رحلة ابن جبير، ص ٢٠١.

على كنائس المسيح كلّها وعلى الأديرة وكلّ المؤمنين في الشرق والغرب أن يلبسوا المسوح ويجلسوا للأحزان ويبكوا على بيت المقدس وعلى ما حلّ به في أيامنا<sup>١</sup>.

## ٢٨- الصليبُ حجرُ عثرة

في بغداد امتزج هذا الحزن بالغضب المكبوت. فقد شاهد المسيحيون فرسان الفرنج الأسرى، «بدروعهم وراياتهم المنكوسة»، كما علموا أن صلاح الدين أرسل إلى الخليفة الصليب البرونزيّ المطعم بالذهب والذي كان منصوبًا على قبة الصخرة في القدس، «ليدفن تحت عتبة بوابة بغداد المسماة بباب النبوي الشريف ويُستبقى منه جزء مكشوف بحيث يدوسه المارة بالأرجل ويصقون عليه»<sup>٢</sup>. ولا عجب في ذلك، «فإنّ ما أنزله المسلمون من احتقار وإهانات وشتائم بالشعب النصراني المضطهد بدمشق وحلب وحرّان والرها وآمد وماردين والموصل وسائر أنحاء المملكة لأمرٍ يعجز عن وصفه الكلام»<sup>٣</sup>.

نذكر المسلمين المعاصرين أن عددًا كبيرًا جدًّا منهم كانوا ينتمون إلى عائلات آرامية -غير عربية- اضطرت إلى «قطع زنايرها» خلال الحروب الصليبية وما تلاها من حكم المغول فالمماليك فالعثمانيين. وفي عودة إلى الأحداث نقول إن الجائليق إيليا الثالث أبو حلیم توفاه الله في نيسان ١١٩٠م، بعد أن كتب للأعياد الربانية، «بلغة مهذّبة رائعة» ومعروفة جيدًا، ونظم أرجازه (أشعاره من بحر الرجز) البالغة الصنعة والتي ما تزال تُنشد إلى الآن في حفلات الزفاف والجنازات<sup>٤</sup>. وبعد ثلاثة أشهر تمت سيامة الجائليق يهبالاها الثاني ابن قيوما (١١٩٠-١٢٢٢م).

أرسل ابن فضلان إلى الخليفة رقعة طويلة ينتقد فيها الذميين وينسب إليهم مثلث (قد يكون بعضهم اقترفها) ويحثّ الخليفة على تطبيق «الأحكام العمرية» في حقهم فلم يردّ الخليفة على هذا الفقيه المتعصب، لكن هذا سيتمكن في خلافة المستنصر (١٢٢٦-١٢٤٢م)

١. س. جميل، العلاقات الأصلية بين الكرسي الرسوليّ والأشوريين المشرقين أو الكنيسة الكلدانية (باللاتينية)، روما، ١٩٠٢م، ص ٢.

٢. الزيات، حبيب، الصليب في الإسلام، ص ١٠، نقلًا عن فيه، المرجع المذكور، ص ٣٥٨، ح ٣٥.

٣. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٢١٤.

٤. المرجع ذاته، ج ٢، الأعمدة، ٣٧٠-٣٧٢.

من إرواء حقه على «عَبْدَةَ الصليب». وبحسب صليبا، كان النصرارى في أيام الناصر «آمنين في عيش هنيء»<sup>١</sup>. لكنّ في هذا القول تبسيطاً للأمر. فالخليفة كان متقلّباً: في العام ١٢٠٧م، ألغى المكوس على المبيعات وبنى «دور ضيافة» ولكنه ما عتمّ أن ألغى قراره الأوّل. وزاد الطين بلّة حدوث فيضان في السنة نفسها.

لم يعد مجدّيًا دخول تفاصيل العلاقات بين الأراميين النصرارى والعرب المسلمين. فإنّ من يقرأ كتابات المتكلّم المسلم الرازيّ (فخر الدين، محمّد بن عمر التيميّ البكري) (+١٢١٠م) بيان له في وضوح «أن الأمر كان قد حُسم في عصره وفي بيئته: فقد صار في حوزة الإسلام نظام دفاعي لا يُحترق، وعلم كلام وطيد الأركان، ولم تعد النصرانية، من حيث هي نظام حياة وتفكير، تمثّل خطرًا على العقيدة والأخلاق أكبر ممّا كان نصرارى دار الإسلام يشكّلون، من الوجهة السياسية، خطرًا على السلطة الزمّية للمسلمين»<sup>٢</sup>.

## ٢٩- طبيبٌ شبه وزير وجائليق طبيب!

في آخر كانون الثاني ١٢٢٢م، وافى الأجل الجائليق يهبالاها الثاني فدُفن بالعتيقة في كنيسة السيدة مُرت مريم وكان طاهرًا ذكيًا خبيرًا بالمداواة واجتذاب قلوب الناس متقدّمًا عند الملوك. وانقسم الإكليروس والعلمانيون إلى حزينين من أجل تأمين الخلف: أقلية ترشّح للجلثقة سبريشوع بن المسيحي الذي كان عالمًا وفاضلاً وتقياً، وينتمي إلى بني المسيحي الأطباء المشهورين الذين مرّ ذكرهم، وأكثرية تفضّل انتخاب سبريشوع الرابع ابن قيوما (١٢٢٢-١٢٢٥م)، ابن أخ يهبالاها الذي تعلّم من عمّه «العلاقات العامّة» وكان مثله «يكاتب الشعب ويستميل قلوبهم»<sup>٣</sup>. وبرز في الحزب الثاني أمين الدولة أبو الكرم صاعد بن توما، المعروف بفضائله، الذي كان من خاصة الخليفة الناصر «حتى أوكل إليه تدبير سائر أمور المملكة وتدبير شؤون أبنائه وبناته ونسائه» وكذلك تدبير دواوين عدة وجعله بمنزلة

١. أخبار بطاركة كرسيّ المشرق، ص ١١٥.

٢. (Les Chrétiens selon le commentaire coranique de Razi, R. Arnaldez) في (Mélanges islamologiques) منشورات: (P.Salmon Brill) ١٩٧٤م، ص ٥٧.

٣. صليبا، ص ١١٥-١١٧.

وزير<sup>١</sup>. غير أن هذا الطيب اغتيل سنة ١٢٢٣م، لأنه وشى للوزير مؤيد الدين القمي بأن الخليفة شبه أعمى وتكتب رسائله إليه الست نسيم صاحبة تاج الدين رشيق الخصي. فنقم الخليفة عليه وأوعز إلى جنديين أن يقتلاه، وبعد أن قاما بعملهما صلبهما الخليفة فوراً ونشر كذبة مفادها أن الطيب خاطب «رجلين من الجند بما فيه بعض المكروه»<sup>٢</sup>.

### ٣٠- خليفة مثل الربيع لشعبه

في العام ١٢٢٥م، مات الجاثليق (١١ حزيران) ثم الخليفة (٦ تشرين الأول). وكان هذا الأخير أكثر ميلاً إلى الحنابلة، واستعان بميوهم الدينية ليتخلص من نفوذ السلاجقة، ونوى إعادة بناء وحدة الإسلام الأولى بمحاولته مصالحة السنة والشيعية. وقد خلفه ابنه أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله (١٢٢٥-١٢٢٦م) الذي ألغى الزيادات في المكوس التي أحدثها والده، والفروق في زنة الذهب والدنانير والمطالعات (التقارير) اليومية التي كان يكتبها حراس الدروب عن اجتماعات الناس، ورخص الأسعار، وأطلق السجناء وأمر بإعادة ما أخذ منهم، وعدل في الناس وأحسن إلى الجميع وأمر ببناء جسرٍ ثانٍ إلى دجلة<sup>٣</sup>. وكان مثل الربيع لشعبه على رغم المجاعة والوباء.

ومثله كان الجاثليق الجديد سبريشوع الخامس ابن المسيحي (١٢٢٦-١٢٥٧م) الذي عاصر الظاهر والمستنصر والمستعصم. كان من أسرة أولئك الأطباء البغداديين الذين مرّ ذكرهم، وتألّف محيطه من رجالات أخصيار وأطباء مشاهير. وأثنى الجميع على حسن تدبيره. والعلاقات الطيبة بين الأوساط العلمية المسيحية والبلاط تواصلت أيضاً في عهد المستنصر بالله (١٢٢٦-١٢٤٢م) الذي تابع سيرة أبيه في الخير والإحسان، وارتبط اسمه

١. إعتدنا الاسم الوارد في ابن العربي، لأن الطيب كان سريانياً أرثوذكسياً. أما ابن أبي أصيبعة فيسميه أبا الفرج صاعد بن هبة الله بن توما. راجع دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٨٨.

٢. فيه، المرجع المذكور، ص ٣٦٣.

٣. الكامل...، ج ١٢، ص ٤٤١-٤٥٧، وتاريخ الزمان، ص ٢٧٠.

٤. الكامل...، ج ١٢، ص ٤٥٨.

عبر التاريخ بـ «المستنصرية»، المدرسة المنسوبة إليه في بغداد و «التي لم يُعمّر في الدنيا مثلها»<sup>١</sup>، ومن ميزات أن المذاهب السنّية الأربعة كانت تُدرّس فيها في وقتٍ واحد.

غير أن ابن فضلان استطاع في عهد المستنصر أن يحقّق ما كان قد عجز عنه من قبل. فقد عُهد إليه بديوان الموالي والرسوم والأوقاف، ثم صار محتسب دار الإسلام كلّها، فتمكّن من أن يفرض على أهل الذمّة مبادئه الصارمة، مطبّقاً حرفياً الآية ٢٩ من سورة التوبة: «تؤخذ [الجزية] بإهانة فيجلس الآخذ ويقوم الذمّي ويطأطأ رأسه ويضعها في الميزان ويقبض الآخذ لحيته...»<sup>٢</sup>. وكان على الجميع أن يخضعوا لهذه الإجراءات المذلّة، بمن فيهم أبو علي بن المسيحي رئيس أطباء البيمارستان الذي كان يختلف إلى قصر الخليفة.

هذه الإجراءات التمييزيّة تشبه البحث عن جنس الملائكة في القسطنطينية المحاصرة من محمّد الفاتح. فإن التتري على الأبواب، وقد هاجم في العام ١٢٣١م، مدينة كرخيني (كركوك) التي تبعد أقلّ من ٢٠٠ كلم من بغداد<sup>٣</sup>. ومع ذلك نجد طبيباً مسيحياً اسمه أبو يوسف بهنام بن موسى بن يوسف، وهو من السريان الأرثوذكس، ينقل في ٢٢ كانون الثاني ١٢٢٩م، كتاباً في الطبّ إلى العربيّة<sup>٤</sup>. كما نجد هبة الله بن زطينا النصراني (الذي لم يتبع والده جبريل في الإسلام) رئيساً للديوان ثم كاتباً للسكّة<sup>٥</sup> (١٢٣٢م). وثمة نصرانيان آخران برزا في عهد المستنصر هما: ابن كاتب القيصر (إبراهيم بن أبي الثناء علم الملك) وأخوه الشاعر تاج الملك إسحق<sup>٦</sup>. وفي العام ١٢٣٦م، عُيّن تاج الدولة ماري بن صاعد وكيلاً لأحد العلويين المدعو مجاهد الدين أيبك<sup>٧</sup>.

١. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٢٧١.

٢. الشامي، محيي الدين، (١٢٣٣-١٢٧٨م)، منهاج الطالبين، طبعة د. ت.، ص ١٣٩، حيث تُفسّر كلمة «صاغرون».

٣. الكامل... ج ١٢، ص ٤٩٧-٥٠٣.

٤. فارس، بشر، الفلسفة والفقه كما شهرهما العرب (بالفرنسية): في (Mélanges L. Massignon)، مجلّد ٢ (PIFD)، ١٩٥٧م، ص ٩٥-٩٦.

٥. شيخو، لويس، المشرق، ص ٥٩٦-٦٠٧.

٦. الصفديّ، ج ٥، ص ٣٤٠، رقم ٢٤٠٩، راجع ح ١٣، ص ٣٧٧ من فيه، المرجع المذكور.

٧. شيخو، لويس، شذرات تاريخية في المشرق، ١٨ (١٩٢٠م)، ص ٦٠٠.

في العام ١٢٤٢م، مات المستنصر التقيّ العادل، الذي كان سيحبه الجميع لولا رضوخه لابن فضلان المتعصب! وخلفه ابنه أبو أحمد عبدالله المستعصم بالله (١٢٤٢-١٢٥٨م)، الذي كان رجلاً خيراً متديناً لئن الجانب سهل العريكة عفيف اللسان... [ولكنه] مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة! بكلمة: لم يكن في مستوى الظروف الحرجة التي اضطرت إلى مواجهتها: درء الخطر المغوليّ المزمع أن يطيح به وبملكه. من جهةٍ أخرى، كان الأقوياء بين رعاياه يظلمون الضعفاء بتدابير قهريّة لا اعتصار ما يقدرون عليه من أموالهم وهؤلاء الناس المغلوبون على أمرهم هم في المقام الأوّل أهل الذمّة.

من هذه التدابير ختمٌ على جميع ما في القلاية (مركز الجائلق) بعد وفاة هذا الأخير في ٢٠ أيار ١٢٥٦م، هذا الختم أجراه ابن الصليحيّة، ناظر ديوان التركات. أمّا والي بيت مال المسلمين ففتح الختم بعد ثلاثة أيام وأخذ ما طالت يده، وهي طويلة! حتّى أن القائمين على الوقف المسيحيّ اضطروا إلى شراء المسروقات من (كلمة ناقصة) وأعادوها إلى القلاية من أجل الخلف: مكّيخا الثاني (١٢٥٧-١٢٦٥م) الذي جاء بعد مخاضٍ عسير فاقت مدته العشرة الأشهر، كان فيه هو مسترئس من الأساقفة يطلب الرئاسة لنفسه، فيما السلطنة المدنيّة وضعت الجثث في المزاد، وقيل إنّ المزايدة أربت على أربعين ألف دينار ذهباً.

### ٣١- سقوط «بابل الجديدة»

نسي الناس قصّة المال لما حاصر الإلخان الأوّل المغوليّ هولاءكو بغداد. كما قد أرسل سفراء طلبوا تسليم المدينة سلماً، فسجنهم الخليفة. وها هو يندم على فعلته ويؤلف وفداً يضمّ وزيره العلقميّ، وجليسه وصاحب مشورته عبدالغني بن دريوس، والجائلق مار ميكا، وأمر الخليفة الوفد «أن يأخذوا ذهباً كثيراً ونفائس ملطيّة وخيلاً عربيّة» وأن يُطلقوا من السجن السفراء ويخلعوا عليهم الخلع السنّيّة... وكان على الوفد أن يطلب من ملك الملوك هولاءكو الأمان للخليفة وأولاده وأهله، وأن يعتذر عن التأخير في تسليم المدينة وعن

١. ابن الطقطقي، المرجع المذكور، ص ٢٦٦.

سجن السفراء المغول، على أن يُعزى ذلك إلى سوء مشورة بعض الخونة في البلاط. فإن رأى ملك الملوك أن يمنَّ عليهم بالحياة صاروا جميعهم عبيده ورعاياه ودفعوا الجزية<sup>١</sup>.

لنتصوّر الحالة النفسية للخليفة العباسي السابع والثلاثين خلال العقد الأوّل من شهر شباط عام ١٢٥٨ م، وهو يأمل خيرًا من نجاح وفده، وقد أثقلت كاهله أربعائة وتسع سنوات من مظالم الحكم العباسي - باستثناء بعض أسلافه الخلفاء الطيبين - وتطلّمت ستّة وثلاثين جاثليقًا عانوا ما عانوه في انتخابهم (أو بالحري تعيينهم) وفي دفع الجزية، وفي السجن وأحيانًا القتل، وفي إرهاب رعاياهم واضطهادهم واحتقارهم ومعاملتهم كأرقاء... نقول: لو كان مسيحيًا لندم ربّنا على خطاياهم وخطايا بني قومه! ولكن ها السيف يسبق العدل. «ففي ١٠ شباط هاجم المغول المدينة، واحتلّوا دار الخلافة، وأسرّوا الخليفة وأجبروه أن يبوّخ لهم بمواضع الذخيرة أو الدفائن السريّة، وبعد ذلك أعدموه بخنقه بين الزرابي، وذلك لأنّ المغول كان لديهم خوف، موروث مصدره، خرافيّ، من إراقة الدماء الملكيّة»<sup>٢</sup>.

«لا مرء في أنّ النصراري قد اعتبروا دخول المغول خلاصًا لهم، وابتهجوا لانتصار هؤلاء وعدّوا ذلك علامةً على سقوط «بابل الجديدة»<sup>٣</sup>. وقد جمعهم الجاثليق العائد إليهم في أمان، ولم يُصب منهم أيّ أحد بمكروه (أو لم يُصب أيّ واحد منهم بمكروه)، وذلك بأمر صريح من دوقوز خاتون زوجة هولوكو، الإيلخان الأوّل، وهي تنتمي إلى كنيسة المشرق<sup>٤</sup>. وربّما عبّر عن شهادته المسيحيّين كاتبٌ أرمنيّ يدعى كيراكوس الجنزويّ عندما قال: «كانت بغداد مدّة حيازتها عصا الملّك أشبه شيء بعلاقة تمصّ الدماء: إبتلعت العالم كلّ ثمّ قاءت عندئذ كلّ ما بلعت... ولما طفح كيل مظالمهم قدّام الربّ عوقبت على ما أراقت من دماء وما عملت من شرور...»<sup>٥</sup>.

١. ابن الطقطقيّ، الفخريّ...، ص ٣١-٣٢، وابن العربيّ، تاريخ الزمان، ص ٣٠٧-٣٠٩.

٢. شبولر، برتولد، العالم الإسلاميّ في العصر المغوليّ، ترجمة خالد أسعد عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٤٧.

٣. فيه، المرجع المذكور، ص ٣٨٠.

٤. تاريخ الزمان، ص ٢٩٨.

٥. (Journal asiatique) ١٨٥٨م، ص ٤٩٢.

كان المسلمون قد وصلوا إلى بلاد الكُرج (تحريف جيورجيا، البلد الذي يحمل اسم القديس جيورجوس) وسبوا الكثير من أهلها. وها المقاتلون الكرج، المتحالفون مع المغول، «يردّون الرّجل» لأهل بغداد فيعملون في أهلها مذابح. من جهةٍ أخرى، أسفر سقوط بغداد وزوال الخلافة التي ما يزال لها بعض النفوذ الروحيّ عن كثير من الهيجان والثورات في بلاد ما بين النهرين، ولا سيّما في شمالها حيث يكثر المسيحيون، وكذلك في التجمّعات الشيعيّة في الجنوب التي كانت تُعامل بمهانة ودونيّة. فقد أطلق هولاءكو لجنوده وحلفائه حرّية التصرف ضدّ جميع أهل السنّة من المسلمين، ذلك لأنه هو نفسه كان متأثراً بالمسيحية ومتعاطفاً مع المسيحيين ضدّ المسلمين بوساطة تأثير زوجته الموهوبة دوقوز خاتون. ولذا، ففي أثناء نهب بغداد لم يتعرّض المغول لكلّ من المسيحيين والشيعية.

كان للشيعية وضعٌ خاص مع المغول بسبب نصيرالدين محمّد الطوسي (١٢٠٠-١٢١٣م)، الفلكيّ والرياضي الذي أسّس مرصداً فلكيّاً في مراغة (أذربيجان) وترك مؤلّفاتٍ في الفلسفة والطبّ وعلم الهيئة (الفلك). فبعدما فتح المغول قلعة الموت، مركز طائفة الحشّاشين، أصبح لهذا العالم الشيعي الإثني عشريّ حظوةً ومنزلة رفيعة لدى المغول، وهو وضع علمه في خدمتهم، فكان عمله درعاً لشيعية العراق عموماً وبغداد خصوصاً. وهكذا استطاع الشيعة أن يعيدوا بناء مساجدهم وأن يعقدوا احتفالاتهم ومواكبهم الدينيّة العامّة، كما استطاع المسيحيون أن يفعلوا الشيء نفسه. ومسيحيو سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى باتوا ينتظرون مجيء هولاءكو بفارغ الصبر حتى يتحقق أملهم في تحسين أحوالهم. ولا ننسى أن الله يبقى سيّد التاريخ.



\*\*\*\*\* الفصل السادس \*\*\*\*\*

كنيسة أنطاكيا للسريان الأرثوذكس  
في أيام العباسيين

## ١ - سوريا تفقد بريقها في أيام العباسيين

نحن الموارنة، ننتمي إلى الشعب الآرامي العائش في سوريا ولبنان وفلسطين. سريان كنيسة المشرق أبناء عمّ لنا، لكننا نبقى سوريين - في المعنى القديم للكلمة - ويُجزّنا أننا فقدنا موقعنا المحظي بعد سقوط الأمويين. أصبحنا مجرد ولاية بعيدة من مركز القرار بغداد. فعاصمة الخلافة هاجرت من دمشق إلى ما وراء الفرات، إلى دجلة القريبة من بلاد فارس. والمنصور أخو السفّاح وخلفه، قرّر بناء بغداد غريمة لدمشق، تنحصر فيها كلّ الحياة السياسية والفكرية للإمبراطورية.

فعلًا يحرّ في نفوسنا أن ينصرم عهد الأمويين الذي شكّل عهدهم قرنًا فريدًا في تاريخ سوريا. ومع نكبة الأمويين كفت سوريا عن أن تكون مركز إمبراطورية شاسعة الأطراف. صارت طرفًا خاضعًا لسلطة تعتبرها غريبة، وما فتئت تعاني عدوانيتها، ووجدت نفسها مُبعدة على نحوٍ منهجيّ من كلّ مشاركة في صنع القرار. وسيستمرّ دورها الهامشيّ في التضاؤل مع الفاطميين ثم السلجوقيين، فالمماليك والعثمانيين.

خلفاء بغداد لن يتدخلوا في سوريا إلا ليشعروها بتبعيتها ويفاقموا الضرائب فيها. وبعض ولايتها كانوا يرفضون أن يستقرّوا فيها، فيكلّفوا غيرهم جباية الأموال، ما يزيد من العبء الضريبيّ المنتقل من هالك إلى مالك... فمع سقوط الروانيين، تطوّرت الخلافة في سرعة لتبني آداب المعاشرة التي كانت سائدة في أنظمة السلطة المطلقة الفارسية، ولتخلق بأخلاقها. والخصي الصعاليك والرقيق يزحون غرف الانتظار في قصر الخليفة. وشيئًا فشيئًا راح العرب يترجعون أمام الجماعات الخراسانية والإيرانية. وهؤلاء، في دورهم، سيزيجهم المحاربون الأتراك العاملون في خدمة العباسيين. وهكذا سيصبح كلّ تنظيم الخلافة استبداديًا، مناقضًا تمامًا للبرالية بني أمية.

في الواقع، كانت السلالة العباسية نظامًا غنيًا بالحيل والخيانات والغش. المكر والغدر حلًا في حكم الخلفاء محل العزم والمقدرة، خصوصًا في المراحل الأخيرة. ولقد ذاق أهل البيت طعم هذا الغدر عندما استخدمهم العباسيون منطًا للقفز إلى السلطة، ولما حققوا مأربهم كادوا يستأصلونهم بالسّم والحديد، مع أنهم أبناء عمّهم! والآراميون السوريون، من جهتهم، سيطلّون ينافحون عن وجودهم طوال قرنين من الزمن، قبل أن يتقبلوا إذلالهم وإبعادهم من الحياة السياسية.

## ٢- العنف والبذخ عند بني العباس

أول دورٍ للسوريين أدّوه بعد موت السّفّاح (٧٥٤م) عندما آزرُوا عبد الله بن عليّ، جلاّد الأمويين وعمّ السّفّاح، في سعيه إلى الخلافة ضدّ ابن أخيه المنصور. لكن أبا مسلم الخراسانيّ سحق الجيوش الشاميّة في بلاد ما بين النهرين. والمنصور عرّج على سوريا خلال رجوعه من الحجّ، وأظهر لمن يهّمه الأمر أنّه ملكٌ حازم، ولكنه مستبدّ وواسع الضمير. وقتله لأبي مسلم، سبب نعمة العباسيين، دليل على ذلك. وإننا نتلمّس بطشه من قول ابن عساكر له، بعد أن توقّف الطاعون في عهده: «الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون»<sup>١</sup>.

في الجيوش الشاميّة عربٌ وآراميون. لكن الثورة التالية على ظلم العباسيين قام بها آراميو منطقة جبّة المنيطرة في جبل لبنان، وقد أشرنا إليها سابقًا وذكرنا احتجاج الإمام الأوزاعي على قساوة الردّ العباسي<sup>٢</sup>. ولما استتبّ الأمر للمأمون (٨١٣-٨٣٣م) صار بلاط بغداد مسرحًا للعريضة ولجنون خلفاء هستيريين وسكاري، وزبيدة نفسها، امرأة الرشيد، كانت تحيي حفلات الخمر<sup>٣</sup>. وموارد الإمبراطورية صارت تُبدّد على الأعياد المترفة ويُضحى بها لأطباع العساكر التركيّة التي تُرجف الخليفة. ولقد ورّع المأمون، يوم البيعة له، ٢٤٠٠٠٠٠٠ دينار. وخلال زواج من زيجاته العديدة، «سُكب على رأس زوجته

١. ابن عساكر، علي بن الحسين، (١١٠٥-١١٧٥م)، التاريخ الكبير لدمشق، تحقيق عبد القادر بدران، ٥ أجزاء، ج ٣، ص ٣٩٢.

٢. المرجع نفسه، ج ٥، ٣٤١.

٣. الأغاني، طبعة ١٨٦٨، ج ٢١، ص ٢٤٧.

ألف لؤلؤة وأجري يانصيب ينال كل رابح فيه قطعة أرض أو مزرعة أو عبدًا أو جوادًا. ورُميت للناس قبضات من الذهب والفضة، وأكوم من المسك، وبيضات من العنبر<sup>١</sup>. ويضمّ القصر ٧٠٠٠ خصي و٣٨ ألف قطعة سجّاد. ومن أين يأتي كل هذا المال؟ أليس من المكلف الآرامي في العراق وسوريا؟

بلى، فالعربي لم يكن منتجًا آنذاك. لا في الزراعة ولا في الصناعة. فمن يعمل فيها يُعير. ولنا مثال على ذلك في قصيدة للأخطل، يمدح فيها الخليفة الأمويّ ويشنّع على أعدائه «بني النجّار!» لذا فبلاد الشام كان يطالها الحصّة الكبرى من التكاليف الضريبيّة. وزاد الأمر سوءًا فيها انقسام عربها بين قيسيين في الجنوب ويمنيين. والخوف الأكبر كان من صاحب الخبر أو صاحب البريد، وهو في الواقع رئيس شرطة سرّيّة وواشٍ على اتّصالٍ دائم ببغداد، حيث إدارة الدواوين في يد النصاريّ المشرقيين، حتى أن ابن عساكر اعتبر وجود موظّفٍ سوريّ في بغداد أمرًا جلالًا<sup>٢</sup>. وفي عهد هارون الرشيد سادت فوضى عارمة في «مروج العاصي»، فأرسل الخليفة برمكيًا لنزع سلاح الأهلين<sup>٣</sup>.

### ٣- العداة العبّاسي-الأمويّ

بحسب ابن عساكر أيضًا، كان الرشيد يكره السوريين<sup>٤</sup>. والأمين ابنه كان يكرههم، خصوصًا لما ثار علي بن عبدالله السفينائيّ (٨٠٩-٨١٣م) ضدّه ورفع الراية البيضاء، رمز الاستقلال السوريّ، ثم استولى على دمشق وحمص وشمال سوريا، لكنه في اعتماده على بني كلب أعاظ بني قيس فانفصلوا عنه، الأمر الذي سهّل لجيوش بغداد أن تسحق جيشه في أسوار دمشق<sup>٥</sup>. وخلال الحرب الأخويّة بين الأمين والمأمون كانت العساكر السوريّة مخيمّة في الرقة، على الضفّة اليسرى للفرات، مقابل الجيوش الخراسانيّة. فصرخوا: «لتسقط الراية

١. المسعودي، مروج الذهب، الترجمة الفرنسيّة، ٩ أجزاء، ١٨٦١-١٨٧٧م، ج ٧، ص ٦٥.

٢. ابن عساكر، المرجع ذاته، ج ٣، ص ٢٢.

٣. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٣ أجزاء، ١٨٧٩-١٩٠١م، ج ٣، ص ٦٣٩.

٤. ابن عساكر، المرجع ذاته، ج ٣، ص ٢٧٦.

٥. الطبري، المرجع ذاته، ج ٣، ص ٨٣٠.

السوداء، الموت في فلسطين أفضل من الحياة في ما بين النهرين!». ومات منهم ألوف في المعركة، والناجون عبروا الفرات<sup>١</sup>.

هؤلاء الجنود السوريون الثائرون في الرقة استطاعوا الصمود في سوريا طوال خمسة أعوام، إذ اضطرّ المأمون إلى العفو عن قائدهم نصر بن شبّاذ<sup>٢</sup>. وإنّ زيارته دمشق نابعة بلا ريب من الخوف من أمويي الأندلس بعد أن استقرّ فيها سنة ٧٥٥م، عبدالرحمن الداخل. فقد قدم أسطول أمويّ من الأندلس واستولى على الإسكندرية<sup>٣</sup>. ومن الأكيد أن هدف زيارته دمشق لم يكن الإعجاب بالجامع الأمويّ، بل كان تعديل التكليف الماليّ الذي أرهق الجميع، ولا سيّما المنتجين الآراميين. ثم زار القدس واستبدل اسم الخليفة عبدالملك باسمه في نقش المسجد الأقصى.

قَبِلَ آراميو بلاد الشام وعربها الظلم العبّاسي على مضض. وفي عهد المعتصم (٨٣٣-٨٤٧م) هبّت الثورة في فلسطين بقيادة أبي حرب اليميني الذي أعلن نفسه أمويًّا ونجح في حشد أنصارٍ في شرق الأردن. لُقّب بالمبرقع لأنه كان يحجب وجهه ببرقع. واعتبره أنصاره سفيانيًّا، ما حشد حوله رؤساء قبائل نافذة في المنطقة. ولكون القيسيين وأهالي شمال سوريا لم يشاركوا في هذه الثورة سرعان ما أجهضت<sup>٤</sup>.

#### ٤ - بطيرير كان ذهباً ضحيّة علم الصنعة

السريان المغاربة، ولا سيّما بطاركتهم الأنطاكيين، كان لهم أزماتٍ مع الخلفاء العبّاسيين. في العام ٧٥٥م، في عهد المنصور (٧٥٤-٧٧٥م) -توفى الله بطيريرك أنطاكيا إيوانيس (يوحنّا) الخامس [الرابع بحسب سلسلة الأب ألبير أبونا في أدب اللغة الآرامية]. فعين المنصور إسحق الأوّل الحرّاني (٧٥٥-٧٥٦م)، أحد رهبان دير قرتمين، بطيريركاً بناءً على نصيحة والي الجزيرة مقاتل بن حكيم العكّي الذي أخبر أنّ الراهب المذكور يُحسن علم الصنعة (أي الكيمياء

١. المرجع ذاته، ج ٣، ٨٤٣.

٢. المرجع ذاته، ج ٣، ١٠٤٦-١٠٦٧.

٣. الطبري، ج ٣، ١٠٩٢-١٠٩٣.

٤. المرجع ذاته، ج ٣، ١٣١٩-١٣٢٢، وابن عسّاكر، ج ٥، ٣١١-٣١٢.

Alchimie) الذي يحاول تحويل المعادن إلى ذهب! رفض أساقفة الكنيسة السريانية الأرثوذكسية الاعتراف بشرعية البطريك المفروض لأنه لم يُنتخب انتخاباً حرّاً. وحُلّت المشكلة عندما تأكّد الخليفة من كذب الراهب، فأمر بخنقه وإلقاء جثته في الفرات<sup>١</sup>.

حبل الكذب قصير، وكذلك حبل النفاق والوساطة والمحسوبية، وهي وسائل اعتمدها أثناسيوس الرابع (٧٥٦-٧٥٨م!) فاغتصب البطريكية لكنه لاقى شرّ أعماله فعرف شرّ ميته. أخيراً جرى انتخاب شرعيّ في مجمع عقده الأساقفة في مدينة منبج، فتبوّأ السدة البطريكية جرجس الأول البعلتاني (٧٥٨-٧٩٠م) الذي أمضى تسع سنوات منها في السجن في بغداد (من ٧٦٦ إلى ٧٧٥م) بسبب وشاية أسقف دارا الأرثوذكسي داود، ومفادها أن البطريك تعمّد عدم طلب عهد الخليفة تجنباً «لإدخال اسم النبيّ في صرّته!». دحض البطريك هذه التهمة بالقول إنّ صرّته تحوي دنانير سُكّ عليها اسم النبي. فهم الخليفة أن أمامه إنساناً فظناً قد يكون يتقن علم الصنعة، ولما أنكر البطريك علمه بها اكتفى الخليفة بإيداعه السجن.

ليت القصّة انتهت، فالخليفة عين الواشي إسحق بطريكاً وفرض رسامته فرضاً وأكره رعيته على قبول القربان من يده، وفي ذلك تدخل فاضح في حرية الضمير وفقاً للآية: «لا إكراه في الدين!» ونتج من هذا التعدي هرب الأساقفة وتخفيهم، «لأنّ الملك أعطى الغاصب خطأً بسجن كلّ من لم يُطعهُ، وضربه وإهلاكه»<sup>٢</sup>. إلى ذلك، يزعم ابن العبري أن السريان الأرثوذكس بنوا كنيسة صغيرة في تكريت سنة ٧٦٧م، فهل يُعقل ذلك فيما كان بطريركهم في السجن؟!

## ٥- المنصور والمهدي يضطهدان النصارى؟

ما ذكرناه عن تعاطي المنصور مع البطريكين الأنطاكيين يدفعنا إلى إيراد ما كتبه المؤرّخ البيزنطي ثيوفانوس (٨١٨م) عن اضطهاده المسيحيين:

١. ميخائيل الكبير السرياني، تاريخ، ج ٢، ص ٥٢٥.

٢. ديونيسيوس المزعوم (ترجمة Chabot)، ص ٨٧، ميخائيل الكبير السرياني، ج ٢، ص ٥٢٧-٥٢٩.

- حظر بناء كنائس جديدة وإنشاد ترانيم دينية خارج جدران الكنيسة، وكذلك مجادلة المسلمين (٧٥٧م).

- إخضاع الرهبان والعموديين للجزية (٧٥٨م). إقصاء النصارى عن كتابة ديوان بيت المال (٧٦٠م)، (رجع الخليفة عن هذا الإجراء لحاجة المسلمين إلى الكتاب النصارى).

- نزع الصلبان عن قبب الكنائس وإقامة الشعائر الدينية ليلاً، وعدم تعليم الأولاد القرآن (٧٦٧م).

- حلق اللحى واعتثار القلائس الطويلة (ذراع ونصف ذراع!) (٧٧٠م).

- وسم اليهود والنصارى بالحديد الحامي (٧٧٣م) فيهرب هؤلاء إلى الأراضي البيزنطية<sup>١</sup>.

ويبدو أن هذه الإجراءات مَسَّتْ فقط الجزء من الخلافة الذي كان سابقاً تحت سلطة البيزنطيين، أي كنيسة أنطاكية للسريان الأرثوذكس وللملكيين. وهي تتناسب مع تدبير المنصور إجلاء بعض النصارى عن الثغور<sup>٢</sup>.

رأينا أن المهدي (٧٧٥-٧٨٥م) أمر بإطلاق السجناء في أول عهده، فاستفاد من هذا القرار البطريك السجين جرجس الأول البعلتاني. لكن هذا الإجراء الرحيم لا ينفي عن المهدي تهمة اضطهاد مسيحيي المنطقة البيزنطية سابقاً. ففي بداية خلافته أرسل المحتسب لكي «يخرب الكنائس التي أنشئت في زمن العرب ويبيع عبيد النصارى، فهُدمت كنائس كثيرة وهرب العبيد»<sup>٣</sup>. ويقول ابن العبري: إن إحدى الكنائس المهذمة كانت للخلقيدونيين (الروم الأرثوذكس) في حلب. وأكره المهدي أيضاً بني تنوخ من العرب النصارى في حلب على الإسلام، فأسلم خمسة آلاف رجل. لكن رجلاً يدعى الليث أبى الارتداد فاستشهد<sup>٤</sup>.

في عهد المأمون، جاء البطريك الأنطاكي للسريان الأرثوذكس قرياقس (٧٩٣-٨١٧م) إلى الشرق لتعيين رئيس أساقفة (لم يكن يُلقب بعد بالمفريان) لتكريت،

١. قاموس التاريخ والجغرافيا الكنسيين (DHGE)، باريس، ١٩١٢م، وديونيسيوس المزعوم، ص ١٠٤-١٠٥.

٢. البلاذري، فتوح البلدان، طبعة ليدن، ج ١، ص ١٩٦.

٣. ميخائيل الكبير السرياني، ج ٣، ص ٣، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١١.

٤. المرجع نفسه، ج ٣، ص ٤٧٨-٤٨٠.

مركز الإقليم الشرقي لكنيسته. هناك لاقى مقاومة من المشرقيين، فاستعان بالكاتب باسيلوس البلديّ الأسكي موصلِي العامل في القضاء وجباية المكوس<sup>١</sup>. ودخل باسيلوس في نزاع مع أهل الموصل المشرقيين ومع رهبان دير مار ممتي، بل وظلم مسلمي تكريت. فأساء هؤلاء إلى النصارى بسببه، فقتلوا الخنازير وهاجموا الكنائس. فتوجّه البطريرك إلى بغداد ليرفع القضية إلى الخليفة، لكنّ المسلمين سبقوه ولفّقوا تهماً كاذبة، واتّهموا مطراناً أرثوذكسياً وآخرًا من أعيان رعيته يُدعى عبدون بشتم الرسول. فجاء ردّ الخليفة منشورًا بإبطال شرائع النصارى وأمرًا بالقبض على المتّهمين، فهرب باسيلوس وقبض على عبدون الذي رفض «قطع زناره» فصلب، ورُوي أنّ معجزاتٍ حدثت فوق قبره.

## ٦- البطريرك ديونيسيوس الأول التلمحري والمأمون ثم المعتصم

ما تزال نعالج علاقات المأمون ببطاركة أنطاكيا. من هؤلاء ديونيسيوس الأول التلمحريّ (٨١٨-٨٤٥م) الذي وضع تاريخًا يغطّي أحداث ٢٦٠ سنة، من ٥٨٣م إلى ٨٤٣م، وقد استفاد منه البطريرك ميخائيل السريانيّ الكبير وابن العبريّ والكاتب المجهول لتاريخ الرها. وكان على البطريرك أن يتّصل أولاً بعامل المأمون وربيبه عبدالله بن طاهر للتخلّص من منافسٍ دخيل يُدعى أبو رام ولّمّا انتقل عبدالله هذا إلى مصر كعاملٍ عليها، قصده البطريرك ليتوسّط لدى أخيه محمّد الذي كان نائبه المدعوّ يقظان يهدم كنائس الرها ويكره سكّان المدينة على تحرير عبيدهم ليدخلوا الإسلام، بتحريضٍ من كاتبٍ خلقيدونيّ يُدعى وليد، حسب ميخائيل السريانيّ<sup>٢</sup>. ولّمّا كان المأمون سمحًا بطبعه، سمح للجماعات الدينيّة غير المسلمة أن تختار رئيسها الدينيّ ولو لم يتجاوز عدد أفرادها العشرة<sup>٣</sup>، وأجاز لهذا المختار الحصول على اعتراف الخليفة به. واستفاد أسقف بغداد عن السريان الأرثوذكس، لعازر بن شبثا، من هذا التدبير<sup>٤</sup>.

١. المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٨-٢٩ و ٣٨-٤٩ و ٦٠.

٢. ج ٣، ص ٦٠-٦٤.

٣. المسعودي، مروج...، الفقرة ٣٤٥٣.

٤. ابن العبريّ، ج ١، الأعملة ٣٦٦-٣٧٢.



لكن البطريك ديونيسيوس لم يُرضه هذا الأمر فتدخل شخصياً لدى الخليفة. وجرت مناظرةٌ الندّ للندّ بين الرجلين، ووعد الخليفة بفحص القضية. وبعد عشرة أيام ذكره البطريك بها بوساطة لعازر الماردينيّ الكاتب الأرثوذكسيّ «الذي يقف بين يديّ الملك»<sup>١</sup>. وتمّ لقاءً ثانٍ بين الرجلين أسفر عن عزل لعازر، ولكن من دون طرده من الكنيسة أو حرمانه من الصلاة.

ثمّ إن أمير الموصل ظلم السريان الأرثوذكس و«نقض» كنيستهم، فرفع البطريك القضية إلى الخليفة. ولما كان المأمون يقدرّ شجاعة البطريك، طلب أن يجري تحقيق في ما إذا كان أهل الموصل أسلموا مدينتهم صلحاً للعرب. وبأن من التحقيق أن أهل الموصل فتحوا مدينتهم للعرب، إذ قدّموا للخليفة «عهداً بأن لا تُنقض كنيستهم ولا تُسسخ شرائعهم»<sup>٢</sup>. وحلّت القضية سنة ٨٢٩م، وفي السنة التالية حمل ديونيسيوس الهدايا إلى الخليفة ولحق به إلى دمشق. واصطحبه الخليفة إلى مصر لعلّه يُعيد الأقباط البشموريّة إلى الطاعة. وكان آخر لقاءٍ بين الرجلين مدعاةً لغضب الخليفة على البطريك الذي تجرّأ على إلقاء تهمة تمرد الأقباط على أخي الخليفة إبراهيم بسبب جوره في جباية الضرائب. وانقطعت العلاقات بين الإثنين، ثم ساءت الأمور لما تبوّأ إبراهيم العرش باسم الخليفة المعتصم، ما دفع البطريك إلى الاختباء. وفي العام ٨٣٤م، قصد البطريك بغداد يلتمس الدخول على الخليفة الجديد، لكنّ اللقاء سيحصل في سامراء سنة ٨٣٦م، وسيكتب البطريك: «لقد استقبلني لسلام»<sup>٣</sup>.

## ٧- المتوكّل في دمشق - تدابيرهِ التعسّفية

هذا الغريب الأطوار صرف عشرة ملايين درهم لبناء أحد قصوره: الجعفرية وكان حرمه يضمّ أربعة آلاف امرأة جميلة، ومع ذلك كان يبكي لدى سماعه المتصوّف المصري ذو النون<sup>٤</sup>.

١. ميخائيل الكبير السريانيّ، ج ٣، ص ٧٦.

٢. ميخائيل الكبير السريانيّ، ج ٣، ص ٦٥-٦٧، ٧٠، ٧٣، و٧٦.

٣. ميخائيل الكبير السريانيّ، ج ٣، ص ٩٠.

٤. المسعوديّ، ج ٧، ص ٢٧٦، ابن عساكر، ج ٥، ص ٢٧٤.

حوالى سنة ٨٥٧م، قرّر نقل سكناه إلى دمشق، عن نزوة ربّها أو سأم، والأرجح هربًا من العساكر التركيّة في بغداد<sup>١</sup>. ويقول الطبريّ إنّ أمر بنقل الدواوين إلى دمشق وبناء قصرٍ فيها<sup>٢</sup>، الأمر الذي ألقى الحرّاس الأتراك وعائلاتهم خوفًا على معاشاتهم المرتفعة. غير أنّ مناخ دمشق سرعان ما أزعج الخليفة. كان يشكو البرد والرطوبة وثقل مياه الشفة وعنف الريح وكثرة البراغيث وأحيانًا الثلوج التي تقطع طرق الإمدادات. لذلك ترك الغوطة وذهب يسكن قصر مروان بين داريا ودمشق، المشرف على المدينة وغوطتها<sup>٣</sup>. ثم عاد إلى سامراء لإخاد ثورة الترك الذين ما عمّموا أن اغتالوا الخليفة في منتصف حفلة عريدة.

في العام ٨٥٥م، أمر بهدم بعض الكنائس في حمص بسبب ثورتها على الخلافة. ولأنّه مسموح للمسيحي أن يرتدّ إلى الإسلام وغير مسموح للمسلم أن يهتدي إلى المسيحيّة أُحرق عطارًا في بغداد أمام باب العامّة بقصر الخلافة، وذلك لأنه اختار بملء حرّيته أن يتلمذ للمسيح. وقد ذكرنا أمورًا كثيرة عن المتوكّل في علاقاته مع كنيسة المشرق. ولكنّه أكثر تعصّبًا حيال مسيحيّ سوريا، لا سيّما في العواصم والثغور. العواصم هي سلسلة من القلاع تمتدّ من أنطاكية إلى منبج. ويغطّيها من جهة آسيا الصغرى رؤوس جسورٍ حربيّة على امتداد الحدود مع البيزنطيين، تكوّن ما سُمّي الثغور وتضمّ بانياس وطرسوس وأضنة والمصيصة. هذه المناطق الجغرافيّة لا تتسع إلّا للمسلمين، وعلى أهلها المسيحيين أن يتدبّروا أمورهم و«الأحكام العمريّة» طبّقها المتوكّل ضدّ آراميي الكنيسة الأنطاكية بكلّ حذافيرها، ليغطّي أمام الرأي العام المسلم حفلات العريدة التي كانت تجري في قصره والتي أودت به في نهاية المطاف.

وقد طالت هذه التدابير كلّ الكنائس التي بُنيت بعد الفتح العربيّ. فالفسيح منها يُحوّل إلى مساجد، وعلى أبواب المعابد الأخرى تُعلّق شياطينٌ من خشب. وعلى أهل الذمّة أن يرتدوا الثياب الصفراء وألّا يستعملوا السروج عند ركوب الخيل. وممنوعٌ

١. ابن عساكر، ج ٤، ص ٢٨٩.

٢. الطبري، ج ٣، ص ١٤٣٦.

٣. المسعودي، ج ٧، ص ٢٥٧.

عليهم التعلّم في مدارس المسلمين أو اختيار معلّم مسلم ويجب أن تسوّى قبورهم بالأرض. وفيما سمح المتوكّل، في البدء بركوب الخيل بلا سرج عاد فحظّر على الذميين اقتناء الخيل. فعليهم أن يركبوا الحمير أو البغال<sup>١</sup>. ثم أصدر مرسومًا جديدًا يقضي بتدمير الكنائس المبنية بعد التقويم الهجريّ. والغاية من كلّ ذلك إشعار الذميين بأنهم عرّق منحنط وعليهم أن يتصرّفوا كالرقيق.

مع كلّ هذا الإذلال، كان المسلمون لا يطيقون التكلّف منه. فعلى الذميين أن يرتضوا بوضعهم وإلا... تدلّنا على ذلك رسالة ثيودورس، بطريرك أورشليم، إلى زميله في القسطنطينية. كتبت الرسالة بعد وفاة المتوكّل بوقتٍ قصير، وهي تمدح «تسامح» المسلمين: «هم عادلون معنا ولا يسومونا أيّ عنف». هل كان في وسع البطريرك أن يكتب غير هذا الكلام طالما كانت رسائل الأحرار المسيحيين إلى البلدان الأجنبية مراقبة؟

سبق أن أشرنا إلى ثورة حمص. فهل كان التشدّد في مراقبة البريد نتيجة لها؟ ربّما! لأنّ مسيحيي حمص ساندوا سكّانها العرب احتجاجًا على التدابير التعسّفية. فأمر المتوكّل بهدم كلّ كنائسها، باستثناء تلك الواقعة بجانب الجامع الكبير، فقد ألحقت به. هنا تكرر لما حدث لكنيسة مار يوحنا المعمدان في دمشق، التي صارت الجامع الأمويّ. والظلم الأكبر كان طرد المسيحيين من حمص وتشريدهم، وقد أعطوا فقط ثلاثة أيام ليخرجوا من المدينة<sup>٢</sup> (٣١١). وسياسة أسلمة المدن السورية تابعتها الخلفاء منذ أن أجبر المهدي بعضًا من قبائل تنوخ، الضاربة أطنابها في منطقة حلب، على الإسلام.

## ٨- الطولونيون والقرامطة

فرح العرب بدخول أقوامٍ غريبة عن الإسلام، كالترك والفرس. وها أحد هؤلاء الترك، أحمد بن طولون، بعد أن اطّلع عن كذب على ضعف العنصر العربيّ في بغداد وفي سامراء حيث

١. الطبري، ج ٣، ص ٧١٣، ١٣٨٩ و ١٤١٩.

٢. الطبري، ج ٣، ص ١٤٢٢.

نشأ، يغتنم فرصة إرساله إلى مصر ليعيد إليها الأمن. فعمل لحسابه وأسس سلالة هي الآتية: أحمد بن طولون (٨٦٨م)، خراويه بن طولون (٨٨٤م)، جيش أبو العساكر ابن خراويه (٨٩٥م)، هارون بن خراويه (٨٩٦م)، وشيبان بن أحمد (٩٠٤-٩٠٥م).

وقد تنطّح الطولونيون للدفاع عن سوريا ضدّ غزو الروم، واستقرّوا فيها حتى سقوط سلالتهم وخلال ٢٧ سنة من السيطرة على مصر وقسم من سوريا، كان على الطولونيين أن يعتمدوا على مرتزقة من الترك والزنج. خراويه قتل أخاه ليستأثر بالعرش، وهو اغتيل في دمشق (٨٩٥م)، حيث اشتهر برذائله وإسرافه المجنون<sup>١</sup>. ووضعت غزوة القرامطة نهاية لهذه السلالة المغامرة والمتوحّشة التي عانى منها آراميو سوريا الأرمين.

إثر سقوط الطولونيين برز على المسرح السوريّ إنسانٌ مؤسّس<sup>٢</sup> ادّعى أنّه السفيناني المنتظر لإعادة الحكم إلى بني أمية (٩٠٦م). لكنّ حركته باءت بالفشل، ولم يعد أحدٌ في سوريا يرفع «العلم الأبيض» منذ خلافة المقتدر (٩٠٨م). لكنّ هذه الاستكانة كانت ظاهرية فحسب. فالمتشيّعون لعليّ ولأهل البيت، وحتى أعداؤهم الخوارج، صار في إمكانهم آنذاك التحرك والتبشير في سوريا التي كانت مغلقة عليهم في زمن الأمويين. وهؤلاء المتشيّعون انقسموا في دورهم إلى إثني عشرية وإلى إسماعيلية تبعوا الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق (٧٥٠م). وسرعان ما مال إسماعيليّو سوريا إلى حمدان قرمط (٧٨١م) الذي أنشأ حركة باطنية دينية-سياسية-اجتماعية. ما يهّمنا هنا هو أن القرامطة كانوا وراء حركة الفاطميين في مصر المرتبط تاريخها بتاريخ سوريا. وانتزع القرامطة سوريا من أيدي الفاطميين سنة ٩٧٠م، لكن المعزّ الفاطميّ هزمهم سنة ٩٧٢م.

ومن الطبيعيّ، أن يدفع المتنجون الأراميون فواتير أمثال هذه الجماعات الإيديولوجية الغارقة في الجهل والتعصّب الأعمى. ولئن كان مرور القرامطة بسوريا عابراً، إلّا أنّهم تركوا في أرجائها الخراب وبزور العقائد الإسماعيلية. وقد أصبحت هذه البلاد خارج إطار الحكم العباسي منذ الطولونيين، ولم تعد سلطتهم إليها إلّا مترافقة مع انفجارات تعصّب محليّ. وهكذا، ففي دمشق، حوالى العام ٩٢٤م، أُحرقت كنيسة القديسة مريم الجميلة ودير

١. ابن عساكر، ج ٥، ص ١٧٦-١٧٨.

٢. الطبري، ج ٣، ص ٢٢٧٧.

راهبات، وسرقت العامة الهائجة الأواني المقدّسة. وقبل سنة هُدمت كنائس للملكيين بفلسطين (الرملة، عسقلان، قيصرية) وكذلك في تَنيس بمصر، من دون أن يُؤتى على ذكر السبب ١. ولما اشتكى النصارى إلى المقدر، أمر بإعادة عمارة ما تهدّم ثم هُدمت هذه الكنائس في الشغب ثانية، فأعيد بناؤها مرّة أخرى.

نودّ أن نشير هنا إلى ما ذكره المسعوديّ (علي بن الحسين) (٩٥٦م)، المؤرّخ والجغرافيّ والرّحالة العربيّ الذي أخبر عن مناظراتٍ جرت بينه وبين أبي زكريّا دنحا السريانيّ الأرثوذكسيّ، وقد وصفه بـ «المتفلسف الجدل النظار»<sup>٢</sup> لما قابله في بغداد ثم في تكريت في «الكنيسة المعروفة بالخضراء» قبل العام ٩٢٥م، وجاء أسقف عسقلان الملكانيّ إلى بغداد في أواخر خلافة الرازي (٩٤٠م) يلتمس الإذن بإعادة بناء كنيسة السيّدة العذراء التي خرّبها المسلمون واليهود وأحرقوها، فما حصل على شيء<sup>٣</sup>. وفي السنة الأولى من عهد الرازي (آب ٩٣٥م) نرى الكاتب الملكانيّ إصطفان، الذي كان يعمل في خدمة الخصيّ مؤنس، قائد العسكر، يصير بطريركاً لأنطاكية باسم ثيودوسيوس.

## ٩- الإخشيدون والحمدانيون

هم: محمّد الإخشيد بن طنج (٩٣٥م)، أبو القاسم ابن الإخشيد (٩٤٥م)، أبو الحسن علي بن الإخشيد (٩٦٠م)، أبو المسك كافور (الخصيّ) (٩٦٦م)، أبو الفوارس أحمد بن علي (٩٦٨-٩٦٩م). من أصلٍ تركيّ، مثل الطولونيين الذين ساروا على دربهم في مصر أواخر ٤٣٧<sup>(٣٧)</sup> ثم في سوريا وفي ظروفٍ مماثلة تقريباً.

وكما الترك كذلك القبائل وجدت في سوريا فريسة سهلة يمكن تخليصها من أشواق العباسيين. لقد تكلمنا على الأخطل، الشاعر التغلبيّ المسيحيّ في البلاط الأمويّ. وهذه القبيلة، تغلب، كانت مسيحيّة قبل الفتح، ولكنها الآن، مع فرعها الحمداني، صارت

١. سعيد بن البطريق، (Annales)، حوليات، ص ٨٢.

٢. التنبيه أشراف، ص ١٥٥.

٣. يحيى بن سعيد، في مبحث الآباء الشرقيين (P.O)، ١٨، ص ٧١١.

٤. ابن عساکر، ج ٤، ص ١٨٦ و١٩٠.

مسلمة متشيعة، متسلمة منطقة ماردين والموصل، فكلفت باستعادة سوريا من الأخشيديين وبإيقاف تقدّم البيزنطيين. وفي ما يلي أسماء أعضاء السلالة الحمدانية: سيف الدولة، أبو الحسن علي (٩٤٤م)، سعد الدولة، أبو المعالي شريف (٩٦٧م)، سعيد الدولة، أبو الفضائل سعيد (٩٩١م)، أبو الحسن علي (١٠٠١-١٠٠٣م)، أبو المعالي شريف (١٠٠١-١٠٠٣م).

أحدثت الجماعة في الموصل، في العام ٩٦١م، هجرة للسكان عمومًا، وللمسيحيين خصوصًا الذين أصبحوا هناك أقلية بعد أن كانت الموصل وجوارها لهم ومعظم هؤلاء المسيحيين المهاجرين كانوا ينتمون إلى الكنيسة الأنطاكية السريانية الأرثوذكسية، وكانت هجرتهم نحو شاطئ المتوسط. وهكذا بُنيت في مدينة طرابلس كنيسة باسم «الشهيد المجيد مار بهنام» الذي ما يزال المكان الذي استشهد فيه موضعًا للتكريم قرب الموصل.

لن نتوسّع في وصف بلاط سيف الدولة بن حمدان في حلب، وما حدث فيه من فصول مع الشعارين المتنبّي وأبي فراس الحمداني. لقد سيطر الحمدانيون على شمال سوريا من دون أن يقطعوا علاقاتهم مع الخلفاء العبّاسيين. ولذا أغدق عليهم الخلفاء ألقابًا مشرّفة تنتهي بـ «الدولة»، وهم يعنون بها «دولة» السلالة العبّاسية. فيما الواقع هو استقلال كلي لدولة بني حمدان الذين لم يجدوا خيرًا في الدعاء باسم الخليفة في خطب الجمعة.

ولا ريب أن سيف الدولة (٩٤٤-٩٦٧م)، الذي طرد من شمال سوريا عملاء الإخشيديين، كان أشهر الأمراء الحمدانيين. كان بلاطه مقصد الشعراء والعلماء: المتنبّي (٩٦٥م) الذي عاش في سوريا وتخلّق بأخلاق أهلها، مع أنه من مواليد الكوفة في العراق. الفارابي (٩٥٠م): من أعظم فلاسفة العرب، لُقّب بـ «المعلّم الثاني» بعد أرسطو، وكان متضلّعًا من الرياضيات والموسيقى، وحاول التوفيق بين أفلاطون وأرسطو.

أما كتابه الأهم فهو آراء أهل المدينة الفاضلة. ولعلّه كان يرى في حلب، تحت حكم سيف الدولة، «المدينة الفاضلة» التي حلم بها!

ففي هذه المدينة طعن هبة الله ابن ناصر الدولة بحربته كاتبًا نصرانيًا يدعى أبو الحسين بن دنح الذي «كان خصيصًا بسيف الدولة»، عن غيرة ذات علاقة بغلام، ولم نخبرنا ابن الأثير خاتمة القصة<sup>١</sup>.

١. الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٥٤٧-٥٤٨.

سنتقل لحظةً إلى بغداد لتتطرق إلى مسألة المثاقفة بين العرب والسيان. هؤلاء كتبوا شعراً عربياً، إضافة إلى أشعارهم السريانية، لكننا لا نعرف عربياً شعر بالسريانية.

فالعالم يأبى التنازل إلى لغة المغلوب أليس كذلك؟ والشاعر السرياني الذي ترك هذين البيتين على شاهد قبره في كنيسة القديس توما ببغداد هو الفيلسوف السرياني الأرثوذكسي المعروف يحيى بن عديّ (أبو زكريا المنطقيّ) (٨٩٣-٩٧٤م). كان تلميذ الفارابي، ومثله مكث مدةً في بلاط سيف الدولة، لكنّ معظم وقته قضاه بين مسقط رأسه تكريت والموصل وبغداد:

«رُبَّ مَيِّتٍ قَدْ صَارَ بِالْعِلْمِ حَيًّا      وَمُبَقَّى قَدَمَاتٍ جَهْلًا وَعَيًّا  
فَاقْتَنُوا الْعِلْمَ كِي تَنَالُوا خُلُودًا      لَا تَعْدُوا الْحَيَاةَ فِي الْجَهْلِ شَيْئًا»<sup>١</sup>

كانت تكريت مدينةً آراميةً بحته منذ ما قبل عهد الملك فيروز (٤٥٩-٤٨٤م). وقد مرّ معنا اضطهاد برصوما مطران نصيبين (٤١٥-٤٩٦م؟) للسريان الأرثوذكس ومحاولته فرض مذهب كنيسة المشرق في تكريت أيضاً من دون أن يُفلح. ثمّ صارت تكريت مركز المفيان الأرثوذكسيّ (المطران الأكبر الذي يرأس الأبرشيّات السريانية الغربيّة الموجودة في أراضي الكنيسة السريانية الشريقيّة). وفي الجاهلية سكن تكريت بنو أياد النصارى. وها سكّانها من السريان الأرثوذكس يضطرون إلى النزوح منها في عهد الطائع (٩٩٠م) ووزير بهاء الدولة<sup>٢</sup>.

ويتكلّم كثيراً ابن مسكويه (١٠٣٠م)، العظيم النفوذ في البلاط البويهي، في كتابه في التاريخ، على الآثار المدمّرة التي خلفها إقطاع رؤساء الجند قطائع من الأرض يجبون خراجها لأنفسهم<sup>٣</sup>. هذا يعني تضايف عاملين لتهجير سريان تكريت: تغيّرات ملكيّة الأراضي وضرائب يفرضها عساكر ظلّمة. وقد ترك المهجّرون وراءهم معابد ستصير مساجد. وبعضهم نزلوا ملطيّة وتوصلوا إلى أن يصيروا صيارفة قيصر الروم<sup>٤</sup>.

١. شيخو، شعراء النصرانية، ص ٢٥٤-٢٥٦.

٢. ميخائيل الكبير السرياني، ج ٣، ص ١٤٥-١٤٦، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠.

٣. أركون، مسكويه، ص ٣٤٧.

٤. داغرون، ج، (Dragon, G.) (الأقليات الإثنيّة والدينيّة في الشرق البيزنطيّ في نهاية القرن العاشر وفي القرن الحادي عشر: الهجرة السريانية اليعقوبية)، في (Travaux et mémoires) (بالفرنسيّة)، ٦ (١٩٧٦م) ص ١٩٧.

بعد أرثوذكسيي تكريت، جاء دور أرثوذكسيي بغداد. فقد طمع بأرضٍ لهم قرب كنيسة مار توما مسلمٌ حنبليٌّ متعصبٌ. وسنحت له الفرصة سنة ١٠٠٢م، لما قُتل خبّاز مسلم في الحيّ، فانقضّ الحنابلة على الكنيسة وأحرقوها، ومات جرّاء ذلك عددٌ كبير من المهاجرين. لقد أشرنا سابقًا إلى هذه الحادثة عندما ذكرنا أنّ إنجيلًا بقي سالمًا من الحريق. كما أشرنا إلى الصحوة السنيّة بين عاميّ ١٠١٥ و ١٠١٧م، وقد وصلت آثارها إلى سوريا ومصر حيث لم تُهدم الكنائس فقط بل، فُرض على النصارى أن يجعلوا في أعناقهم صلبانًا من خشب زنة الواحد منها خمسة أرتال.

لكن هذه الأحداث وقعت بعد انحسار دولة الحمدانيين. ومن أسباب ذلك حروب سيف الدولة مع البيزنطيين. فقد وقعت حلب في يدهم، باستثناء قلعتها. ثم زحف البيزنطيون على القلب السوريّ: اللاذقيّة وحمص وعرقّة. واضطّرت أنطاكية إلى الاستسلام (٩٦٨م) بعد مرور سنةٍ على وفاة سيف الدولة، الذي بكاه المسيحيون، وظلّت في قبضة الروم طوال أكثر من قرن. وقد عانى مسيحيو دمشق وصيدا وبيروت وطرابلس ليس فقط من الظلم العربيّ بل أيضًا من الظلم الروميّ. فقد جنّد الإمبراطور يوحنا الأول، ابن شمشقيق (Tzimiscès) (٩٦٩-٩٧٦م) جيشًا من مسلمي الثغور في كيليكية ومن قبائل عربيّة عديدة واستولى على دمشق (٩٧٦م) سلّمًا. كذلك استسلمت صيدا، لكن بيروت فضّلت المقاومة فنُهبت وسُبي قسمٌ من أهلها، كما نُهبَت جبيل التي عصت. كذلك عصت طرابلس، لكن الإمبراطور رفع الحصار عنها بعد أربعين يومًا ليعود إلى القسطنطينية حيث وافاه الأجل.

## ١٠- الفاطميون في سوريا

إنطفت السلالة الأخشيدية في نهاية القرن العاشر بيد العبّاسيين، وتلاشت السلالة الحمدانية في بداية القرن الحادي عشر بعد سقوط دمشق ثم حلب بيد عضد الدولة (٩٨٣م)، أكبر «ملك ملوك» في البويهيين. لقد آن الأوان لتبرز على المسرح سلالة جديدة، علويّة أو بالحريّ إسماعيليّة الميل، سلالة الفاطميين الذين أرجعوا أصلهم إلى النبيّ، لكن العبّاسيين كانوا يلعنونهم من على منابر بغداد فيما كان أتباع علي يلزمون الحياد فيها. وقد برهن دي



غوج (DeGoeje)، في كتابه قرامطة البحرين والفاطميون، تحدّر الفاطميين من إحدى فرق القرامطة، بوساطة عبد الله بن ميمون وحفيده عبّيد الله الهاربيين من العبّاسيين واللاجئين إلى سلمية قرب حمص. سافر عبّيد الله إلى المغرب، وكان قد سبقه إليها مبعوثه أبو عبد الله الذي حصّ بربر الشمال الأفريقي على الثورة ضدّ الأغلبة السّنيين، مبشّراً إياهم بالظهور القريب للمهدي. ولم يكن هذا المهدي سوى عبّيد الله الذي ما إن استتبّ له الأمر حتى غدر بمبعوثه أبي عبد الله.

ملوك هذه السلالة: المهدي (عبّيد الله) (٩٠٩م)، القائم (٩٣٤م)، المنصور (٩٤٥م)، المّعزّ (٩٥٢م)، العزيز (٩٧٥م)، الحاكم (٩٩٦م)، الزاهر (١٠٢٠م)، المستنصر (١٠٣٥م)، المستعلي (١٠٩٤م)، الأمر (١١٠١م)، الحافظ (١١٣٠م)، الظافر (١١٤٩م)، الفائز (١١٥٤م)، العاضد (١١٦٠-١١٧١م).

المؤرخ القلانسيّ كتب: «في دمشق ظلّ الشعب أمويّاً وكان يكره المغاربة»<sup>١</sup>، أي الجنود والموظفين البربر، دعائم السلالة الفاطمية. وقدّم إلى بغداد أسقفٌ مصري حوالي سنة ١٠١٧م، يشكو إلى جاثليق كنيسة المشرق يوحنا السادس ابن نازوك تخريب قرابة أربعين ألف كنيسة ودير في المغرب وبقاء عددٍ قليل جدّاً من المسيحيين فيه<sup>٢</sup>.

الحاكم بأمر الله هو المسؤول عن هذه المحن. كان عمره عشر سنوات عندما بويع. في البدء أظهر تسامحاً كبيراً، حتى وصل إلى الوزارة مسيحيون ويهود. وبحسب المقرزيّ، طرأ حوالي الألفية الأولى اختلالٌ في دماغه. لكن ابن البطريق يتحدّث عن جنون دينيّ يُذكر بحالة نبوخذنصر. وثمة مؤرّخون آخرون يقولون إن الحاكم كان يتظاهر بالجنون حتى يضيّع الرأي العامّ ويُعتبر كائنًا استثنائيًا.

وذات يوم حرّم الخمر حتى ذلك المستعمل في الذبيحة الإلهية، حتى اضطرّ الكهنة إلى استعمال عنب منقوع في الماء<sup>٣</sup>. قتل وعدّب عشرات الألوف من الناس، مبتدئاً بالمسلمين ومنتقلًا بعدها إلى المسيحيين واليهود. هؤلاء حكم عليهم أن يحملوا قرمة حطب في

١. تاريخ دمشق، طبعة (Amedroz) (١٩٠٨م)، ص ١٦.

٢. فيه، المرجع المذكور، ص ٢٦٧.

٣. ابن البطريق، تاريخ، طبعة الأب السوعيّ لويس شيخو بجزيين، ١٩٠٦م، ج ٢، ص ١٨٦، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٣١.

أعناقهم، أولئك صلباناً ثقيلة. وفي القاهرة أزال حياً مسيحياً بكامله، مع كنيسته، لبني جامع الأزهر.

وفي أورشليم، بيت المقدس عند المسلمين، منع زياحات المسيحيين منعاً باتاً. وصبّ نغمته على كنيسة القبر المقدّس فهدمها حجراً بعد حجر. وفعل الأمر ذاته في فلسطين وسوريا، ولكنه ما عمّم أن توقّف عن هدم الكنائس خوفاً من تهديم الجوامع في البلدان المسيحية (إسبانيا، بلاد الإغريق، القسطنطينية)<sup>١</sup>. وبلغ من جنونه أنّه كان يجبر المسيحيين على اعتناق الإسلام، وفي اليوم التالي يسمح لهم بالعودة إلى دينهم بل يسمح بإعادة بناء كنائسهم على حساب الخزينة!

في السنة الأولى من عهد الحاكم ثار في صور الأمير علاّقة وسكّ دراهم حفر فيها: «عزُّ بعد فاقة الأمير علاّقة»<sup>٢</sup>، لكنه انتهى على الصليب<sup>٣</sup>. وكانت سياسة الفاطميين في سوريا تقوم على إثارة الولاة بعضهم ضدّ البعض الآخر بحيث تظلّ القاهرة ممسكةً بزمام الأمور. هكذا أزيح القسّام، رفيق سلاح أفتكين الذي استولى مدّة قصيرة على دمشق لصالح بلتكين (٩٨٢م). وهذا بدوره أخلى مكانه لبكجور (٩٨٣-٩٨٤م) الذي طرده منير (٩٨١-٩٨٩م). وهُزم منير في الرحلة واستُبدل بمنجوتاكين (٩٩١م) الذي قهره أبو تميم (٩٩٧م).

ثم جاء جيش بن حمصامة يحكم دمشق ويرتكب المجازر فيها. ولا يستحقّ أيّ من هؤلاء المغامرين أن يُخصّص بكلمة، باستثناء الحاكم بشارة الإخشيدّي الذي حكم دمشق في أواخر الألفية الأولى، لكنه كان قبلاً حاكم الجليل (من هنا تسمية الجليل اللبناني، حيث قانا، «بلاد بشارة»). يُذكر بشارة بالشرّ، لأنه اعتمد السياسة العباسية التي استأصلت بني أمية. فقد كان يلاطف أعيان دمشق المناوئين للفاطميين، ويطمئنهم، وعندما يربح ثقتهم يدعوهم إلى مائدته ويأمر رجاله بقتلهم ثم يُطلقهم

١. القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٦٨.

٢. ابن البطريق، ج ٢، ٢٠٠-٢٠١.

٣. القلانسي، ص ٥٠.

٤. ابن عساكر، ج ٣، ص ٤١٨ وما يليها.

في المدينة يقتلون وينهبون. ولقد نفى إلى مصر عددًا كبيرًا من الأعيان الذين لم يتوصّل لقتلهم وضرب المدينة بجزية ٥٠٠ ألف دينار<sup>١</sup>.

## ١١- الدروز

لم يكن أمام آراميي سوريا سوى الاستسلام إلى مشيئة الرب. فهم لا يعرفون من أين تأتيهم الضربات. وهذا عبدالرحيم أو عبدالرحمن ابن الياس، ابن أخ الحاكم بأمر الله، يتسلّم شؤون دمشق ويظهر اسمه على مسكوكات الحاكم «نائبًا لأمر المؤمنين وخليفته» منذ العام ١٠١٨ م، آنذاك كانت الدعوة الدرزية في ذروة نشاطها في وادي التيم بלבنا، وبما أن عبدالرحمن لم يكن مطلعًا على سرّ عمّه المستمدّ من النظريات القرمطية أو الإسماعيلية، فهذه تعتقد أن أول انبثاق للألوهة كان العقل الكلي الذي تجسّد في عددٍ من الرسل - يُدعى كلٌّ منهم ناطقًا - مثل موسى والمسيح ومحمد. ولم يبقَ على الحاكم سوى أن يعلن نفسه الناطق الأخير الذي فيه تجسّدت الألوهة. ولما لم تلق هذه العقيدة أرضًا خصبة في مصر السنية، وجّه الحاكم دعائه - الدروز - إلى سوريا<sup>٢</sup>.

إصطدم إذا هؤلاء الدعاة بابن أخي الخليفة، فاجتاحوا قصره وقتلوا حرسه واعتقلوه ثم وضعوه في صندوق أرسلوه إلى مصر. ثم أعيد إلى مركزه، ولكنه طُرد منه بعد موت الحاكم وأعدم في القاهرة<sup>٣</sup>. كان الولاة، إذا، يتغيّرون وفق مزاج خلفاء القاهرة، ومنهم واحد تلقى يوم تعيينه أمرًا بخلعه! إزاء هذه الفوضى العامة في سوريا، وتقاسم أهلها بين خليفة بغداد السني، وخليفة القاهرة الشيعي، وولاة الفاطميين المتغيّرين في استمرار، وضغوط الروم في شمال البلاد، كان كلٌّ يغتني على ليله. من ذلك مثلاً أن الترك لما سخطوا على صاحب حلب سنة ١٠٢٥ م، لم يكتفوا بلعن الظاهر الخليفة الفاطمي والدعاء لقيصر الروم، بل رفعوا الصليبان على أسوار المدينة وأمروا بالنواقيس فدُقّت<sup>٤</sup>.

١. القلانسي، ٥٣-٥٤.

٢. ابن البطريق، ج ٢، ص ٢٢٣.

٣. أبو المحاسن، نجوم...، طبعة (Popper)، ص ٧٨-٧٩.

٤. يحيى، زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن النديم، تحقيق سامي الدقّان، المعهد الفرنسي بدمشق، ج ١، (١٩٥١ م)، ص ٢٨٨-٢٩٢.

كذلك لما استولى الروم على الرها في عهد القائم غادرها بعض السريان الأرثوذكس (١٠٣١م)، مع غيرهم من العرب، وعادوا إلى تكريت التي سبق أن هجروها إلى ملطية سنة ٩٩٠م، ولا بد لنا هنا من أن نأتي على ذكر ابن بطلان (المختار بن الحسن) (١٠٦٣م)، الطبيب والفيلسوف البغدادي، الذي نُقل كتابه تقويم الصحّة إلى اللاتينية وطُبع في ستراسبورغ سنة ١٥٣١م، ودُعي في العام ١٠٥٤م، إلى القسطنطينية للدفاع عن الروم ضدّ اللاتين، فألّف مقالة في الإفخارستية، ثم ترهب في ديرٍ في أنطاكية وتفرّغ لتأليف ما ينيف على خمسين مجلداً في الطبّ والفلسفة. وفي العام ١٠٣٤م، هرب البطريرك السرياني الأرثوذكسيّ من بلاد «الهراطقة» أي الملكانيين البيزنطيين ليسكن «بلاد المسلمين» في آمد (ديار بكر) أولاً ثم في دير حنانيا بباردين<sup>١</sup>.

## ١٢- مأساة تكريت

سبق أن ذكرنا لمحةً عن تاريخ تكريت ومحتتها الموقّنة في عهد الطائع في نهاية القرن العاشر المسيحي. لكن محتتها النهائية تمتّ في أيام المقتدي (١٠٧٥-١٠٩٤م)، وكان مطرانها آنذاك، باسيلوس الرابع، قد بدأ يتلقّب بلقب مفريان. وسنة ١٠٧٥م، توسّعت أبرشية تكريت بعدما ضُمَّت إليها عدة رعايا سريانية أرثوذكسية كانت من قبل تابعة للبطريركية الأنطاكية مباشرة، ومنها نصيبين وقلث ودارا. في تلك الفترة نجد طبيين تكريتيين: الفضل طبيب ناصر الدولة بميفارقين، وأبا نصر يحيى الذي كتب رسالة في فائدة رياضة البدن<sup>٢</sup>. ويبدو أنّ حماسة أهل تكريت الأرثوذكسيين في استقبال مفريانهم قد أثار حفيظة المسلمين الذين أخذوا يرمون موكبه بالحجارة، فالتجأ المفريان وصحبه إلى كنيسة مار أحو دامه.

استعمل المفريان سياسة الولايم الفاخرة والهدايا لأعيان المسلمين حتى يهدئ روعهم ضدّ المدينة. ولكن عبثاً فعل، ففي العام ١٠٨٩م، نُهبّت الكنيسة الكبرى المعروفة بالكنيسة الخضراء. وأخذت كنيسة القديسين سركيس وباخوس من المسيحيين وأعطيت للمسلمين بحجة أنّها قريبة من القلعة وأنها البديل من المسجد الجامع الذي هدمه قيقباز بن هزاراسب الديلمي، سيّد المدينة آنذاك. وفي العام ١١٠٦م؟، أخذت الكنيسة الخضراء

١. الرهاوي المجهول، ص ٢١٦.

٢. ابن أبي أصيبعة، ص ٣٢٨-٣٢٩.

نفسها وأعطيت للمسلمين. وعاث فسادًا وقتلًا في المدينة جنود السلطان الكبير غيَّاث الدين محمد بن ملكشاه. وعُنف اضطهاد السريان الأرثوذكس حتى غادروا المدينة وتفرَّقوا في المدن والقرى المجاورة. والحبر نزل في الموصل. وما يُدعى قلب المسلم التقيّ والفظن أنّ هذه الطائفة المسيحية كانت قد بلغت درجة متقدّمة جدًّا من الثقافة مع العرب وبات أهلها ينطقون بالعربية في ما بينهم!

في خلال الجوّ العام المؤاتي للمسيحيين في عهد المستظهر (١٠٩٤-١١١٨م)، توصل المفران ديونيسيوس موسى، بعد سنة ١١١٢م، إلى أخذ الإذن بإعادة إعمار كنائس تكريت المهذّمة، أو على الأقلّ تلك التي ظلّت في يد النصارى منها. لكن السريان الأرثوذكس كانوا قد قرفوا مما تعرّض له آباؤهم وأجدادهم في تكريت، ولم يبقَ منهم فيها إلا جماعة صغيرة<sup>١</sup>. وقد راجعنا كتاب رشيد الخيّون الصادر سنة ٢٠٠٣م، تحت عنوان: الأديان والمذاهب بالعراق (منشورات الحجل)، فما وجدنا أثرًا مسيحيّ في تكريت، لا من أصلٍ سريانيّ ولا من أصلٍ عربيّ! سبحان مغير الأحوال!

١. ميخائيل الكبير السريانيّ، ج ٣، ص ٢٥٦-٢٥٧.

\*\*\*\*\* الفصل السابع \*\*\*\*\*

السريان والنهضة العلمية  
في الدولة الإسلامية

أثناء نقل العباسيين (٧٥٠-١٢٥٨م) مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد، اعتنوا بصناعة الطبّ، ووجّهوا أنظارهم إلى تطويرها وصرف الأموال الطائلة في سبيل ذلك. فاعتنوا وساعدوا مدرسة جنديسابور<sup>١</sup> بالأموال، وبجميع المعدات التي تحتاجها بعد أن أسسها كسرى الأول عام ٣٥٠م.

كانت الحركة العلمية بشكل عام وعلى وجه التحديد متقدمة ومتطورة في العصر العباسي الذي كان رائداً للعلوم في جميع المجالات العلمية، إذ اعتنت الدولة وبشكل لم يسبق له مثيل بهذه النهضة، ورصدت الأموال الباهظة في سبيل الإعلاء من شأنها، بالإضافة إلى التشجيع المستمر لأطباء ذلك العصر مما سبّب بازدهار الترجمة والنقل وكثرة المؤلفات الطبيّة والعلميّة والفلسفيّة. فنبغ كثيرٌ من أطباء أهل الذمّة ولا سيّما النصارى منهم ونالوا بفضل بروزهم المراكز العالية في الإدارات العامة، وبلاط الخلافة وقصور الأمراء والوزراء، فخدموا هذه الصناعة والعلم خير خدمة بتفننهم بمعالجة المرضى ووصف الأدوية المناسبة، وبناء طبهم على مبادئ الطب اليوناني والسرياني (العراقي القديم) والفارسي والهندي لامتزاج هذه المعارف في مدرسة جنديسابور فأصبحوا صلة الوصل بين الطبّ اليوناني والسرياني القديم بوجه خاص، وبين من اتبع طبّ أبقراط<sup>٢</sup> وجالينوس<sup>٣</sup> وقدماء العرب، فغدت هذه الصناعة مفخرة العصر العباسي. بعد أن ميّز العباسيون أطباء أهل الذمّة بسبب اتقانهم مهنة الطبّ والصيدلة وهذا التمييز نال منه النصارى حصة الأسد.

١. جنديسابور، مدينة إيرانية في خوزستان، أسسها شابور الأول. فتحها أبو موسى الأشعري عام ٦٣٨م، عاصمة يعقوب بن الليث الصفّار، اشتهرت بمدرستها الطبيّة ولغتها الآرامية (السريانية).

٢. أبقراط (نحو ٤٦٠-٣٧٧م): طبيب يوناني. أكبر الأطباء الأقدمين وأشهرهم يتقيد الأطباء في قسّمهم بالتقيد بنهجه الأخلاقي المعروف بقسّم أبقراط.

٣. جالينوس (نحو ١٣١-٢٠١م) طبيب يوناني اشتهر باكتشافاته في التشريح أخذ عنه الأطباء العرب.

روي أن صالح بن بهلة الهندي، وعبدوس بن يزيد، وموسى بن إسرائيل الكوفي، والطبري اليهودي، نالوا المنزلة عند الخلفاء بفضل مهارتهم ومعارفهم فطبّهم سار دائماً في طريق التجديد والتفنن فتمسّكوا بصنعتهم وأبدعوا في تطويرها<sup>١</sup>.

إن معظم الأطباء في العصر العباسي أعطوا اجتهادات في الطب، وبرعوا بالتأليف والتعريب، واكتشفوا الجديد وصحّحوه من الأخطاء وأهم ما اشتغلوا به الطبّ البشري والنظري والعلمي والجراحة والتشريح والكيمياء وعلم الطبيعيات وعلم النجوم لاعتقادهم بعلم تفسير الأحلام، وعلم البيطرة في الخيل والطيور وعلم النبات والزرع مع أوقاته ووضعوا لها الكتب والتصانيف وعربوا المؤلفات القديمة.

ولكن لتقدّم الطبّ في العصر العباسي الأول أثرٌ بالغ في العصر الثاني، إذ نبغ في عهد الخلفاء الواثق والمتوكّل كثيرٌ من الأطباء، مثل يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م<sup>٢</sup> وبختيشوع الذي عمل في خدمة الخلفاء هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل، ووثقوا به ثقة عمياء بالإضافة إلى أولاده، لكن المتوكّل نفاه إلى البحرين في سنة ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م، وصادر أمواله لأسبابٍ لم تعرف بالتحديد<sup>٣</sup>.

وذكر أن بلاد المشرق، حفلت بكوكبة من الأطباء الذين تفتّنوا بصناعة الطب حتى أبدعوا. وفي المغرب برز أيضاً أطباء غدوا من أشهر أطباء ذلك العصر. منهم: سعيد بن ثاوفيل طيب أحمد بن طولون<sup>٤</sup> الخاص، كان مسيحياً. وفي ذات مرّة شكّا ابن طولون من إسهالٍ أصابه فصحه طبيبه بحماية نفسه لمدة يومين ولكنه خالف تعليماته، فساءت حالته وعلم طبيبه بذلك، وحذّره ثانية مغبة فعله واصفاً مرضه<sup>٥</sup> بما معناه «ضعف قوّته الناهضة

١. عيسى إسكندر المعلوف، محاضرة في تاريخ الطب عند العرب، ص ١٣.

٢. إبن النديم، الفهرست، ص ٤١١ و ٤٢٣.

٣. روفائيل بابو إسحق، أحوال نصارى بغداد، ١٩٦٠.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٨٣.

٥. ابن طولون (أحمد) (ت ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م) مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسوريا قرّبه المستعين والي مصر عام ٨٦٨. إستقلّ بالحكم وأنشأ «القطائع» عاصمة جديدة له بالقرب من الفسطاط. مدّ سلطانه على مصر وسوريا والنفور والموصل. بنى الجامع المعروف بإسمه في القاهرة، خلفه ابنه حُمارويه.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٨٥.



يقهر الغذاء وتستحرك حركة منكرة» فصَدَقَ طبيبه ومات ابن طولون بعد يومين. وقبل موته، اتَّخَذَ أطباء غير بن ثاوفيل، إبراهيم بن عيسى الذي مات سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م، والحسن بن زيرك الذي توفي قبل ابن طولون بيوم واحد.

وهنا لا بدّ أن نذكر مدرسة جنديسابور ولو بشكل موجز. هذه المدرسة التي ما برحت تخرِّج الأطباء تلو الأطباء، والذي كان لهم الدور الفعّال في تقوية هذه الصناعة حتى غدا العصر العباسي عصر الطب يزخر ويفتخر بأشهر الأطباء وأقوامهم على الإطلاق من مسيحيين وغيرهم. ولذلك وجب علينا وقفة قصيرة وبسيطة لتاريخ هذه المدرسة حسب ما رواه القفطي<sup>١</sup>: إن مدرسة جنديسابور التي أسّسها سابور الأول نسبت إليه بعد أن اتخذها موطنًا لأسرى حرب الروم على أثر اندلاع الحروب الفارسية الرومانية.

وكان من بين هؤلاء الأسرى أشهر المهندسين والأطباء والحرفيين والصناعيين الذين كانوا ضمن الجيش البيزنطي وجعلهم سابور فيما بعد مهّدًا للعلوم اليونانية والسريانية، وعندما جاء المسلمون وفتحوها في سنة ١٩هـ/٦٤٠م، زمن الخليفة عمر بن الخطاب بعد احتلال فارس، بقيت المدرسة إلى العصر العباسي تعطي دون توقف زخمًا قويًا لأشهر الأطباء والفنانين والصناعيين. ويقول ياقوت الحموي<sup>٢</sup> في معجمه إنه لم يبقَ منها عين ولا أثر إلّا ما يدلّ على شيءٍ من آثار بائدة لا تعرف صنائعها إلّا بأخبار المتواترة، ولم يبقَ منها أيضًا إلّا إطلال شاه آباد.

ويتابع القفطي قائلاً<sup>٣</sup>: إن كسرى قد أسّس فيها البيمارستانات التي تعالج المرضى وتدرّس الطب على يد أطباء رومان، وقد باشروا بتعليم شباب أهلها، وبدأ أمرهم يقوى ويتزايد، ويتفتنون في العلاج ويرتبونه حسب أمزجة بلادهم. وفي سنة عشرين جمع كسرى أطبائها بأمر الملك ودارت بينهم مناقشات وأسئلة وأجوبة تدلّ على غزارة علمهم. فمن البديهي أن أطباء جنديسابور لم يعلموا إلّا أهل جنسهم بصناعة الطب.

١. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٣.

٢. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٠.

٣. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤.

ويقول أحمد أمين<sup>١</sup>: إن مدرسة جنديسابور كانت تدرّس الثقافة اليونانية والهندية ويشترك بعض الأطباء الهنود في التدريس باللغة الفهلوية وظلّت هذه المدرسة تؤدي عملها في الإسلام، حيث زاد اتّصالها خاصة في العصر العبّاسي حتى برز أشهر أطبائها وهو جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وابنه وأحفاده وكلّهم نصارى.

ويقول ابن أبي أصيبعة<sup>٢</sup>، إن هؤلاء الأطباء بنوا دورًا للمرضى وعزّزوا صناعة الطبّ، وتفنّنوا في التدريس لأصولها والاستنباط والاكتشاف. وتنافسوا في التصنيف والتأليف وتعاونوا مع الأطباء المسلمين في تشخيص بعض الأمراض: كالجدري والحصبه والحمى القرمزية وزادوا في الصيدلية على ما تلقّوه من كتب اليونان، فهم أول من استقطر الماء والزيتون وأول من استخدم مركبات الزئبق في أمراض الجلد والبرص، ومعالجة القلب والأهليلج والمن والتمر الهندي والروندو والكافور.

هذا فضلًا عن مؤلّفاتهم وتصنيفاتهم التي كانت نهرًا غزيرًا من العلوم الطبيّة البشرية والذي بّشر به كثيرٌ من العلماء والأطباء ليو منّا هذا.

واتفق ابن النديم والقفطي وأبي أصيبعة<sup>٣</sup> في نهضة العلوم الطبيّة التي شملت الصيدلة والكيمياء، وخاصة في العصر العبّاسي الذي خرّج أكبر كيميائي في تلك الحقبة وهو جابر بن حيّان الكوفي، والذي ظلّ المترجمون يحاولون ترجمة ما سبقهم. فالكثير منهم شجّعوا الترجمة، وصنّفوها باسمهم، فهم ينفقون الأموال الطائلة في سبيل ذلك، منهم بختيشوع الذي قال عنه القفطي<sup>٤</sup>، إنه كان يضاهي الخليفة المتوكّل في الزينة والفرش والمآكل والمشرب ويقال إنه أخذ ٣٠٠ ألف درهم لقاء إحدى مداواته من علّة المئانة. ونقل الكثير من كتب جالينوس، وإنه عاصر سابور بن سهل المسيحي صاحب بهارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م. وله كتاب في الصيدلة. مؤلّف من ٢٢ بابًا، وقد اعتمد عليه حتى القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي حيث ظهر كتاب ابن التلميذ.

١. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص ٢٥٦. وكارل بروكلهان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٠٢.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٣٢.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٧/٣٩٤ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٣٠.

٤. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٧٠/١٩٠.

ويقول ابن تغري بردي<sup>١</sup>، إن ثابتًا بن قرّة الذي أسلم على يد الخليفة القاهر بالله العباسي (٣٢٠هـ/٩٣٢م) وعاش حتى عام (٣٣١هـ/٩٤٢م) وتقلّد مارستانات بغداد الخمس عام (٣٠٤هـ/٩١٦م)، وبنى عام (٣٠٦هـ/٩١٨م) مارستانين كبيرين أحدهما للخليفة المقتدر العباسي (ت ٩٠٨م) وخصّص له مائتي دينار شهريًا، والثاني ستائة دينار شهريًا، وأقام مارستانا ثالثًا للوزير ابن الفرات ببغداد عام (٣١١هـ/٩٢٣م) وخصّص له مائتي دينار شهريًا. وبنى مارستانا رابعًا عام (٣٢٩هـ/٩٤٠م).

وخصّص الخليفة المقتدر للسجناء أطباء يزورونهم في سجنهم، يتفقدون حالتهم الصحيّة ويعطونهم الأدوية، وقد أرسل أطباء للفلاحين في سواد العراق وقال ابن أبي أصيبعة<sup>٢</sup> إن عدد المتطبين بلغ سنة ٣١٩هـ/٩٣١م، (٨٥٠) رجلًا.

وهنا لا بدّ من الذكر بفضل الخلفاء وبذخهم المال الوفير وتشجيعهم للأطباء وخاصة النصارى واليهود والصائبة الذي برز منهم أشهر الأطباء وأقواهم ليس على صعيد الطبّ فحسب، بل على صعيد تشجيع العلوم ككلّ. فيقول المسعودي<sup>٣</sup>: إن الخليفة الواثق جمع الفلاسفة والمطّبين، وجرت المناظرة بحضرته وسألهم: هل أن صناعتكم هي من الحسن أم القياس، والسنة أم العقل، أم كما يذهب إليه حكّام الشريعة؟ وقد حضر هذا المجلس أشهر الأطباء النصارى: ابن بختيشوع، وابن ماسويه، وميخائيل، وحنين بن إسحق، وسلمويه. وإن حينًا أجاب على عدة أسئلة، ووضع في كلّ إجابة كتابًا سمّاه المسائل الطبيعية. وقد تعجّب الواثق من إجابته ومن بعض هذه الأسئلة، فما الأشياء الصغيرة للهواء قال حنين: خميس وهي أوقات السنة، وطلوع الكواكب وغروبها والرياح والبلدان والبحار. وأجاب أن أوقات السنة هي: الربيع والصيف والخريف والشتاء.

وإن الخليفة المأمون لعب دورًا بارزًا في هذا المضمار من التشجيع وامتحان مختلف الأطباء والعلماء والمترجمون وكلّ ما يعد هو شخصيًا. من أقواهم على الإطلاق، إذ كان

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٩٣.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٠٠، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٧٤.

٣. المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٧٧.

٤. الواثق بالله: تاسع الخلفاء العباسيين (٨٤٢-٨٤٧م) ابن المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م) وأخو المتوكل (٨٤٧-٨٦١م) أخذ بمبدأ المعتزلة في خلق القرآن، كآبيه، وعمه الخليفة المأمون.

عالمًا بكلّ شيء تقريبًا ومشجعًا لكلّ ما يتّصل بالعلم. فقد قال عبدالرحمن بدوي<sup>١</sup>: إنه أنشأ مكتبان للمترجمين من اليونانية والسريانية والعربية في سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، وإنه كان هناك جماعة حرّة من المترجمين يعملون في طليطة في نفس المكتبات ونفس الطريقة ونفس المنهج العلمي الغربي.

فالخليفة المأمون استطاع أن يخدم الثقافة الإسلامية، خدمةً عظيمةً خلال ربع قرن من إقامته في بغداد، وباهتمامه الشخصي لعلوم اليونان وأن هذه الدراسات لن تنقطع عن الأديرة السريانية، في أيامه، ويقول كارل بروكلمان<sup>٢</sup>: إن تادرس (ثيودورس) المصيبي الذي أثر على تفسير الكتاب المقدّس لم يكن لينال منزلته العظيمة لولا الرجوع إلى مصطلحات الفلسفة الأرسطاطاليسية، وعلى الرغم من أن المسائل الفكرية كانت في يد رجال الدين السريان والرهبان، فقد لاقت العلوم الرياضية والطبيّة اهتمامًا بالغًا في ذلك العصر، وأن أكثر المؤرخين طالعونا بدرٍ وافية وعظيمة من الأطباء الذين نبغوا في العصر العبّاسي وخاصة من المسيحيين. منهم نال منزلة العظيمة إلى جانب المسلمين وقد تفوّقوا في بعض الأحيان بطبّهم ومهارة صناعتهم وعملهم مع تصانيفهم لأكثر الأدوية.

يقول ابن أبي أصيبعة<sup>٣</sup> إنهم نالوا أكبر العطايا والهدايا الثمينة والنادرة، وأعلى المراكز في القصور فغدوا كأنهم من أهل القصور الأصليين، وإن زعيم هذه الأسرة هو جيورجيس بن بختيشوع أمهر أطباء العائلة وأذكاهم على الإطلاق.

قال القفطي<sup>٤</sup> إن المنصور عندما أصابه المرض أحضر إليه جيورجيس، وكان رئيس أطباء جنديسابور، فأعجب به الخليفة. وقد خلفه ابنه بختيشوع بن جيورجيس وأصبح طبيبًا للخليفة هارون الرشيد، وشفى المنصور على يديه ووضعه رئيسًا لأطبائه.

١. عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص ٥٤.

٢. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٠١ و ٢٠٢.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٦١.

٤. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧١-٧٢.

وقال عنه ابن النديم<sup>١</sup>: إن شهرته فاقت الوصف، وميّزت الخلفاء والملوك. وبرع إلى جانبه جبرائيل بن بختيشوع بعد خدمته للأمين والمأمون وبراعته في صناعة الطبّ. نال المنزلة العظيمة لديهما إذ كان راتبه يزيد على ٧٠٤ ألف مليون درهم سنويًا، ويجاريه القفطي في ذلك مزيدًا على ذلك أنه ربح من الرشيد ما يزيد على ٨٨٠ ألف مليونًا ما عدا الأملاك غير المنقولة بعد أن شيّد مارستان شبيه بهارستان جنديسابور الطبي.

ويتابع القفطي<sup>٢</sup> واصفًا مهنة الطبّ بأنها صناعة تغني صاحبها مذكرًا بأصول آل بختيشوع على مرّ العهود في الدولة العبّاسية ومكانتهم العظيمة لدى الخلفاء وبين الأطباء المسلمين. وقال إن جبرائيل بن بختيشوع كانت ثروته تفوق الخيال إذ بلغت ٨٨٠ مليونًا و ٨٠٠ ألف درهم. لقاء زيارة الرشيد مرّتين في السنة للاضطلاع على صحّته كان يتقاضى ١٠٠ ألف درهم سنويًا ومثله لإعطائه المسهل.

ويقول ابن كثير<sup>٣</sup> في كتابه أنه لعظمة الأطباء عند الرشيد وعدم استغنائه خصوصًا عن طبيبه جبرائيل بن بختيشوع كان يفرض عليه مرافقته في معظم أسفاره ورحلاته وحتى في مواسم الحج حتى أنه كان لا يفارقه لحظة واحدة وهو الذي تنبأ بموته بعد أن عرض عليه حلمه في إحدى رحلاته.

وقال حسن إبراهيم حسن<sup>٤</sup> إن المعاهد العلمية أو البيمارستانات اعتمدت على النظام الأجنبي للمعاهد ولا سيّما السريانية لأنها كان بها الغلبة في ذلك العصر وأن المسلمين هم الذين اقتبسوا فكرة بيهارستان، وإذا كان وزير البيهارستان سريانيًا يسمّى بالساعور ومعناها بالسريانية متفقّد المرضى وإذا كان مسلمًا سميّ «رئيس الأطباء».

وهنا لا بدّ لنا من القول بأن كثيرًا من المترجمين كانوا بالإضافة إلى ذلك أطباء ونقله كيميائيين فاشتهر كثيرًا منهم بهذه الصنعة الذي ازدهر بها العصر العبّاسي، والتي كانت قد أوصلته إلى أرقى العصور بفضل الاهتمام البالغ من قبل الدولة وتشجيعها، إذ أن معظمهم

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٨. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧٣.

٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٣.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢١٣.

٤. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ص ٣٨٨.

كانت لهم الميول في السير بهذه الطريقة والذين جنوا من ورائها الأموال الباهظة، بالإضافة إلى الحصانة الشخصية ونيلهم أعلى المراكز والمكانة المرموقة ضمن عظماء الدولة العباسية، فكان من أبرز هؤلاء: يوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحق الأول كان طبيباً وتلميذاً لجبرائيل بن بختيشوع، وقال ابن أبي أصيبعة<sup>١</sup> إنه عندما احتاج إلى جثث الأموات لتشريحها -والشرع الإسلامي يمنع ذلك- عمد إلى تشريح القردة، من التي أهداها ملك النوبة للمعتصم سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، ويؤكد ذلك المنزلة العظيمة وخاصة التي نالها يوحنا بن ماسويه. وقال عنه فيليب دي طرازي<sup>٢</sup> في كتابه «عصر السريان الذهبي»<sup>٣</sup> والذي وصفه بأعظم رئيس مدرسة في بغداد والتي استقطبت عددًا هائلًا من الطلاب، ووصف أيضًا «حنين بن إسحق» بأنه شيخ تراجم الإسلام ورئيس الفلاسفة والأطباء. ويؤكد ما قاله طرازي القفطي<sup>٤</sup> إنه نال المنزلة العظيمة والشأن القدير، إذ قلده الرشيد إدارة أكبر مدرسة في عاصمة الخلافة، كما أنه أوكل له تعريف الكتب الطبية، وكان جليس كل مجلس علمي يجادل ويجمع بأفضل الألفاظ وأدق المعاني، فقد أغدق عليه أكثر الخلفاء العباسيين الأموال الباهظة ووضعوه في المكانة التي كان يستحقها، ويعود ابن أبي أصيبعة<sup>٥</sup> قائلًا: له أعداد كبيرة من المؤلفات الطبية، إذ كان له عدة مصنفات جليلة أشهرها (كتاب في أسباب السويداء وكيفية علاجها)، و(كتاب في الحمى) وهي خلاصة مذاهب الطب لدى الأطباء المسلمين والمسيحيين، وكتاب الجذام والجراحة.

والطبيب سابور بن سهل وُضع أيضًا رئيسًا لأطباء جنديسابور نظرًا لمكانته العلمية والطبية في ذلك العصر، إذ كان له مصنفات علمية بارزة اعتمد عليها في التدريس اعتمادًا بالغًا منها «الأقرباذين» اعتمد عليه كثير من الأطباء في مزاوتهم لهذه الصناعة. ومن مجمل مراجعاتنا لننسى بأن ثابتًا بن قرّة وعلي بن عيسى نالا المرتبة العظيمة أيضًا في بلاط الخلافة. فالأول وُضع لامتحان الأطباء وانتقاء الأفضل منهم سنة ٣١٥هـ/ ٩٢٧م، وطرده من يرسب في ذلك الامتحان، فأجيز لـ ٨٦٠ بالعمل كأطباء وطرده الباقي وتخلّصت البلاد من

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٧.

٢. فيليب دي طرازي (١٨٦٥-١٩٥٦) أديب سرياني كاثوليكي -مؤسس المكتبة الوطنية في بيروت- له «تاريخ الصحافة العربية» و«السلاسل التاريخية» و«أصدق ما كان في تاريخ لبنان» وغيرها من المؤلفات التاريخية.

٣. فيليب طرازي، عصر السريان الذهبي، ص ١٥-١٦.

٤. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٤٨.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٧٥ و٢٢٢.

الأطباء الدجالين<sup>١</sup>. والثاني هو أكبر كحالي العرب على الإطلاق، إذ كان له المنزلة المرموقة عند المعتمد رغم أنه كان من أطباء المركز الثاني وله ٣٢ كتاباً بالعربية في علم الرمد أفضلها (تذكره الكجالين)، والذي قال عنه فيليب حنّي: إنه ما زال محفوظاً بنسخته الأصلية ولم يسبقه سوى رسالة ابن ماسويه، ورسالة حنين بن إسحق، والتي نقلت من العربية إلى العبرانية مرّة واحدة وإلى اللاتينية مرّتين، ولا تزال مستعملة في الشرق ولكن من مجمل هذه الصناعة وتصنيفاتها وتعداد مرضها يطالعنا المؤرّخ إسكندر معلوف بمعلوماتٍ موضحاً في كتابه نوع هذه الأمراض ومن اشتهر بها في تلك الحقبة ومن ترجمها<sup>٢</sup>.

## الحميات

إشتهر بها كثيرٌ من الأطباء، وترجم كتبها حنين بن إسحق وهي لجالينوس ويوحنا بن جبرائيل وللرازي ولإسحق بن سليمان الإسرائيلي وليحيى بن ماسويه ولعلي بن يحيى الوالبي ولابن هبة الله.

## طبّ الأسنان

إشتهر بعضهم في معالجتها وشدها بالذهب، وكان ابن بطلان قد ذكر في كتابه حفر الأسنان، ووصف دواءً لتنظيفها، وقال أن مضارها يأتي إذا أخذ ماء بارداً بعد شيءٍ رطبٍ وخاصة السكر، وأن الحلوة أكثر المضار للأسنان.

## التشريح والجراحة

لم تشتهر في عهد المسلمين، إذ كانت محظورة وأبدلوا بمص الدم بالفم على الطريقة اليونانية استعملوا الرصاص الذائب والسكين المحمية بالنار في بتر الأعصاب، ومن هؤلاء الجراحين جبرائيل بن بختيشوع، وأبي الحسن بن نفاخ الذي كان زمن عضد الدولة<sup>٣</sup>، وأبو الخير بن أبي الفرج بن أبي الخير الطبيب النصراني سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م.

١. فيليب حنّي، تاريخ العرب، ص ٤٣٩.

٢. إسكندر معلوف، تاريخ الطبّ عند العرب، ص ٢٤ و ٥١.

٣. عضد الدولة: سلطان بويهي، ابن الحسن ابن بويه وأحد الأخوة الثلاثة الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية العباسية. ضمّ العراق و فارس في دولة موحّدة انحلت بعد وفاته بسبب الخلافات بين أبنائه عام ٩٨٣م.

\*\*\*\*\* الفصل الثامن \*\*\*\*\*

الأطباء وعلاقتهم  
بالخلفاء العباسيين



لا بدّ لنا من التوضيح ولو ببندة موجزة عن الأطباء النصارى، وعن بروزهم الطّبيّ وقدرتهم في هذه الصناعة وما كان لهؤلاء من أثرٍ بالغ في تخريج جيلٍ ماهر من الأطباء المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء. وحتى لا يطول الكلام نورد بعضاً من أشهر ما برز منهم وكان له علاقة بالخلفاء، وممارسة مهنتهم في المعاهد والبيمارستان، فمن الحقيقة القول: إن الطبّ في ذلك العصر اشتهر ووصل إلى المرتبة العليا التي مرّ ذكرها معنا. ومن أشهر أولئك الأطباء:

### - جيورجيس بن جبرائيل

كان ذا مكانةٍ مرموقة بالطبّ ومعرفة بالمداءة وأنواع العلاج، خدم المنصور وأصبح من أكبر ندمائه، له منزلة عنده، نال من جراء ذلك أموالاً باهظة بالإضافة إلى هذا، كان من أشهر النقلة، إذ نقل كثيراً من الكتب إلى اللغة العربية من اللغة اليونانية، تعرّف عليه المنصور أثناء مرضه الذي أصاب معدته<sup>١</sup>. وفشل الأطباء في مداواته فأرشد إليه، وفي وقتها كان رئيس أطباء جنديسابور، وكان من أمهر أطبائها على الإطلاق، قدّم إلى المنصور قسراً (أي عنوة) في بادئ الأمر واصطحب معه تلميذه إبراهيم بن شهلا<sup>٢</sup>.

في سنة ١٥٢هـ/ ٧٦٩م، مرض جيورجيس مرضاً فاهتمّ به الخليفة اهتماماً بالغاً، وكان يرسل إليه كلّ يوم من يخدمه، ولما اشتد به المرض طلب من الخليفة أن يذهب إلى أهله، ويدفن هناك فأقرّ له ذلك بعد أن أوصى أن يدفن بين أهله إذا توفي في الطريق، ولجورجيس كتاب في الكناشة، نقله حنين بن إسحق من السريانية إلى العربية<sup>٣</sup>.

١. كان قد استقدم أشهر أطباء الهند الذي تنبأ بموته لشرافته في الطعام.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٣ و ١٨٤.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٥ و ١٨٦.

ويقول ابن النديم<sup>١</sup> إنه ظلّ محافظاً على نصرانيته رغم إلحاح الخليفة أبو جعفر المنصور وتشجيعه له على اعتناق الإسلام قائلاً للخليفة: «إني رضيت حيث أبائي في الجنة أو النار».

وقال الطبري<sup>٢</sup> عن جيور جيس: إنه لما قدم من السوس إلى المنصور جلس إلى مائدته، وقال: لا آكل قبل أن أشرب الخمر، فقيل له: لا تشرب على مائدة الخليفة، فأخبر الخليفة بذلك فقال: دعوه. وكان ذلك في قصره بباب الذهب ببغداد، فهذه الحادثة تدلّ دلالة واضحة على مكانته وثقته التي يتمتع بها أمام الخليفة<sup>٣</sup>.

### - بختيشوع بن جيور جيس

كان يضاهي والده في معرفة الطبّ، خدم الخليفة هارون الرشيد وبرع في خدمته، ولما مرض موسى الهادي طلب بختيشوع فمات قدومه، وقبل موته جمع أطباءه وهم: أبو قريش، وعيسى، وعبدالله الطيفوري، وداود بن سراييون، وقال لهم: تأخذون أموالي وفي وقت الشدّة لا تنفعون. قال: أبو قريش علينا الاجتهاد، فأمر الهادي بضرب أعناق جميع أطباءه ولكن الربيع لم ينفذ ذلك لعلمه باختلال عقله. وعندما أتى بختيشوع ورأى حاله طمأن الأطباء إنه لا يعيش ليومه وصحّ تنبؤه فمات وتخلّص منه الأطباء<sup>٤</sup>.

وفي سنة (١٧هـ/ ٧٨٧م) أثناء مرض الرشيد قد رجع إلى بلده فداواه أبو قريش ولكنه لم يشف، فأرشدته إلى بختيشوع فأرسل بطلبه إذا كان حياً وأحضر بين يديه وأعجب به الرشيد، وجرى بختيشوع امتحاناً بحضور جميع أطباء الخلافة، وأحضر بول بهيمة لاختباره، فلمّا شاهده قال: هذا ليس بول إنسان، فقال أبو قريش: كذبت إنه بول محظية الرشيد. فأجابه بكلّ أدب ولطف: يجوز أن تكون المحظية بهيمة، فقال الرشيد كيف عرفت ذلك. قال: من اللون والرائحة فأجزل له العطاء<sup>٥</sup>.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٦.

٢. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٣٠٩. حمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٣، ص ٧٩٢.

٣. كثيرون كتبوا عن هذه الشخصية الطبية. راجع: روفائيل بابو إسحق، أحوال نصارى العراق، وأحوال نصارى بغداد.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٦. إسكندر معلوف، تاريخ الطبّ، ص ١٤.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٧، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠١.

توفي بختيشوع في عهد الرشيد وهو برئاسة أطباء بيارستان بغداد، فغدا ابنه من بعده طبيب الخليفة الخاص. وقد حلت وفاته عام ٢٠٥هـ / ٨٢٠م، ويقول ابن الأثير، عن لسان بختيشوع قائلاً: دخلت ذات يوم على الرشيد وهو في قصر الخلد بمدينة السلام، فنظر الرشيد ليري كثرة الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد البرمكي، فقال الرشيد جزى يحيى خيرًا، حمل همّ الناس عني. وفي المرّة الثانية رأى نفس المنظر الأول فقال الرشيد: والفضل بين الربيع بين يديه، استبدّ يحيى بالأمر فالخلافة له بفعلها ولي باسمها عندها علمت أنه سيبتش بهم.

ولكن رغم العلاقة الطيبة بين الخلفاء وأطبائهم والتي كانت محور الحياة الاجتماعية بينهم، كان هناك ظروف تكون قاسية في بعض الأحيان وتكون مميتة في حين آخر. وتصرف على حساب الأطباء ومكانتهم ومنزلتهم في الدولة حتى ولو كان الخطأ بسيطاً في المعالجة.

### - جبرائيل بين بختيشوع بن جيورجيس

كان عالي الهمة والمنزلة، محظياً عند الخلفاء، حصل على أموالٍ لم يحصل عليها طبيبٌ قبله، ففي سنة ١٧٥هـ / ٧٩١م، مرض جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي<sup>٣</sup> وزير الرشيد ومؤدّب المأمون مرضاً شديداً، فأرسل له الرشيد بختيشوع ليعالجه، ولكن جعفرًا طلب منه طبيباً ماهراً يشهد عليه، فأجابه بختيشوع: إني جبرائيل أمهر مني وليس له مثل بين الأطباء، فأحضر وعالج جعفرًا وشفى بين يديه، فأعجب به ووضع في خدمته. ومن المميّزات التي تتمّع بها أنه كان يدخل على الرشيد دون إذن، وهذا لم يحصل حتى لأقرب المقرّبين للخليفة غير يحيى بن خالد البرمكي<sup>٤</sup>.

١. الففطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٠.

٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٥٨.

٣. الففطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤.

٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٥٨.

يقول ابن أبي أصيبعة<sup>١</sup> موضحاً العلاقة القويّة التي كانت تنتج وتجمع الأطباء بالخلفاء وتكون لهم الركيزة لديهم، وذلك بما كانوا يؤدونه من براعة التطيب وصنع المعجزات الطبيّة فكان ذلك نوعاً من جسر التقارب والإعجاب والعلاقة المميّزة، فما دام الطبيب يخدم ويرع ويتفنّن في صناعة الطبّ كان الخليفة يرفع من مكانته ويحسن العلاقة معه ويجعله محطاً مشفوعاً من كلّ ترددٍ في أي مطلب يطلبه أو وساطة يتقدم بها مبيناً، كيف أن محظية الرشيد تسمّرت أعصاب يديها بعد المجامعة، فشخص هذا المرض جبرائيل بعد فشل جميع الأطباء بتشخيصه ومداواته، فأحضر جبرائيل وتحايل على المرض ليس بواسطة الدواء ولكنه برع في أخذ الحياء من الجارية، إذ عرف بأن الجارية لم تكن تظهر جسمها إلّا على الخليفة، فعمد جبرائيل إلى الكشف عن عورتها بعد أن أخذ الأمان من الخليفة نفسه، ومن شدة الحياء ارتخت أعضاؤها وأعصابها برأت من مرضها، فكان ذلك معجزةً طبيّة وليس سحرًا. وبعد هذه الحادثة عمّد الرشيد إلى تعيينه رئيسًا لأطبّاء الخلافة، ويرفع مكانته فلم يطبق البعاد عنه<sup>٢</sup>.

كلّ ذلك أوصل جبرائيل إلى المكانة المرموقة بين القواد والوزراء إذ أصبحوا يقصدونه بكلّ مطلب ينوونه من الخليفة.

وأثناء مرض الرشيد الذي قضى نحبه بسبب عدم الإذعان لنصائح جبرائيل في عدم التخليط بالطعام والمجامعة، وبعد أن اتخذ راهب مداواته، كان يجرّضه على جبرائيل، عمّد الرشيد إلى قتله، لكن الفضل أنقذه بأعجوبة فمات الرشيد بعد مدة وجيزة واتخذ الفضل طبيبه الخاص بعد أن شفاه من مرضٍ خطير.

ويوضح ابن أبي أصيبعة<sup>٣</sup> أن جبرائيل قدّم للأمين خدمات جليّة ولكن عندما تولّى المأمون الخلافة أمرّ الحسن بن سهل وزيره بحبسه، ولكن عند مرض هذا الوزير وعجز الأطباء عن شفائه أخرج جبرائيل من السجن وبرأ الحسن على يديه، فزادت منزلته ومكانته العظيمة عند المأمون خاصة عندما شفى المأمون من مرضٍ أصابه، فكانت هذه المكانة نفسها التي منحه إيّاها الرشيد.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٨.

٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤-١٣٥.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٩-١٩٠.

لكن ابن تغري بردي<sup>١</sup> يزيد توضيحًا في تلك العلاقة والمكانة بين جبرائيل والرشيد وأبنائه، في أنه بجميع جلساته ومقابلاته كان يذكر اسمه ويرفع من منزلته، ففي سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م، أثناء مسير الرشيد من الرقة إلى بغداد قاصدًا خراسان لحرب رافع بن الليث، استظل بشجرةٍ وأبعد مرافقيه عنه وكشف عن بطنه، فإذا بعصابة (ربطة) حرير، قال: هذه أكتمها عن الناس وعلى كل واحدٍ إلا عن جبرائيل رقيب ولدي الأمين.

وفي سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م، غلط جبرائيل بمداواة الرشيد من العلة التي مات بها الرشيد فطلب ضرب عنقه، ولكن الطبيب طلب إمهاله للغد، ولكن المنية عاجلت الرشيد ونجا الطبيب من الموت.

ولكن جبرائيل أثناء خدمته للأمين واطلاعه على أموره تنبأ له بالموت والانحيار على يد المأمون وأخذ الخلافة منه. وكان قد جمع ثروة عظيمة طيلة خدمته للرشيد مدة ثلاث وعشرين سنة إلى وفاته، قدّرت بما يوازي (ألفان وثلاثمائة وثمانون ألف درهم)، ومن الخاصة (ألف ألف ومائة وخمسون ألف درهم)، ومن الثياب (ألف ألف ومائة وخمسون ألف درهم)<sup>٢</sup>، ومن غلّة ضياعه بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد (ثمانية عشر ألفًا ومائة ألف درهم) ويصرّ إليه البرامكة (واحد وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف درهم).

فهذه الأرقام الجسيمة من العملة التي كانت بحوزته بعد وفاته، هي دليل واضح على تلك المنزلة والعلاقة الطيبة الرفيعة المستوى مع الخلفاء العباسيين وخاصة الرشيد والأمين والمأمون. فكيف يفسّر ذلك وشخص يداوي الخلفاء يتمتع بهذه الثروة التي ضاهت ثروة الخليفة بالذات وحياة البرامكة بالتحديد، كيف تفسّر هذه العلاقة الوطيدة التي تحكّمت بمجريات أمور الخلافة على جميع الأصعدة، إذ كان لها التأثير البالغ في مجريات الأمور الحياتية.

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ١٠١.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٩٨-١٩٩.

## - بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع

كان نبيل القدر عظيم المنزلة، له الوفرة العظيمة من المال، ضاهى بها المتوكل من اللباس والفرش، ونقل له حنين بن إسحق كتبًا كثيرة من كتب جالينوس إلى اللغة السريانية. وحسده على هذه المنزلة محمد بن عبد الملك الزيّات وزير العبّاسيين وابن أبي داود<sup>١</sup>. فقلّبوا الواثق عليه فاضطهده وصادر أملاكه ولكن عندما مرض الواثق أرسل بطلبه فمات قبل أن يحضر. ويقول ابن تغري بردي<sup>٢</sup> إن المتوكل نفاه إلى البحرين حسدًا من غناه ولكن بعد مرضه وشفائه على يده أفرج عنه وعلا مقامه، وبدأت المؤامرات تحاكّ ضده فنجحت أيام الخليفة المنتصر<sup>٣</sup> باتهامه بمقتل المتوكل ولكنه أعيد إلى الخدمة في زمن المستعين<sup>٤</sup> والخليفة المهتدي<sup>٥</sup> أرجع له كلّ ما صودر منه زمن المتوكل. وأمر المهتدي أن يدخل بختيشوع إلى خزائن بيت المال ويأخذ كلّ شيء يتعرّف عليه بأنه له<sup>٦</sup>.

ولبختيشوع خدمات جليلة للخليفة المتوكل وأبنائه وخاصة عند مرض ابنه المعتزّ وفشل الأطباء في مداواته وشفاه، فحظي بعدها بمكانة عند المتوكل وخاصة عندما سمح له بأكل الخردل بعد أن منعه عنه الأطباء، فأطعمه إياه بختيشوع دون أي ضرر، بعد استخراج مائه وتقسيره ولم يصب بأي أذى، وفي اليوم التالي أكرمه بثلاثمائة ألف درهم وثلاثين تحتًا من أصناف الثياب.

مات بختيشوع عام ٢٥٦هـ / ٨٧٠م، وخلف عبدالله وثلاث بنات. ومن نصائحه في الطبّ: الشرب على الجوع رديء، والأكل على الشبع أردأ، وأكل القليل مما يضر، أصلح من أكل الكثير مما ينفع. وله من الكتب (كتاب الحجامة على طريق السؤال والجواب)<sup>٧</sup>.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢١١، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٢-١٠٣.
٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٤٤، وابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٨٥.
٣. المنتصر بالله (٨٦١-٨٦٢) الخليفة العبّاسي الحادي عشر. تأمر مع وصيف على قتل أبيه المتوكل كلّ في القصر الجعفري في سامراء لأنه قدّم عليه أخاه المعتز في ولاية العهد (٩ كانون الأول ٨٦١) قتله الأثرالك بالسّم بعد ستة أشهر.
٤. المستعين بالله (أبو العبّاس أحمد) ابن المعتصم، خليفة عبّاسي، (٨٦٢-٨٦٦) أثار إعلان خليفته ثورة دموية قضى عليها الجند الأثرالك. إنتقل إلى بغداد عام ٨٦٥م، تنازل عن العرش على أثر ثورة عنيفة قام بها أعوان المعتز في سامراء. قتل في واسط.
٥. المهتدي بالله (٨٦٩-٨٧٠) وُلد في سامراء. الخليفة العبّاسي الرابع عشر سعى عبثًا إلى إصلاح أخلاق البلاد الفاسدة، عجز عن دفع رواتب الجند فقتل.
٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٠٦-٢٠٧.
٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٠٩.

## - جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل:

خدم المقتدر، ولما مات خلفه ابنه جبرائيل وأختين صغيرتين. كان فاضلاً، متقناً لصناعة الطب، جيّد في أعمالها، له تصانيف جلييلة في صناعة الطب، وأجداده كانوا أساتذة عصرهم. لاقى الصعوبات الجمة في حياته بعد أن دخل إلى بغداد مع أخته، وكان فقيراً وأخواله لا يعترفون ولا يتعرفون عليه ويلومونه دائماً مستهزئين به ومن مغامراته بلحاقه بركب أجداده في صناعة الطب<sup>١</sup> وجبرائيل جولات طيبة لها مكانة مرموقة على صعيد الخلافة، فهو تقرب من عضد الدولة<sup>٢</sup> فأكرمه، وكان يرسله لتطبيب أقربائه وخاصة زوج خالته والي كورة جورقب، فأجزل له العطاء، وكان يأخذ رزقين رسم خاص و٣٠٠ درهم رسم البيمارستان و٣٠٠ درهم لقاء نوبته في الأسبوع يومين وليلتين.

وجبرائيل كان عالماً باللغة الفارسية<sup>٣</sup> فأجزل عضد الدولة له المال الوفير، وأثناء امتحانه في المجمع العلمي رُتب لمناظرته خصيصاً بدأ بتعليل التعليقات وأورد شكوكاً فأكرمه لذلك حتى انتهى من كتابه «الكناش» ورفع هذه إلى عضد الدولة فوضعه بمنزلة تليق به. وعندما مرض ملك الديلم أرسل إليه فشفاه بعد عجز أطبائه عن ذلك. وبعد هذا غدا كأنه الطبيب الأوحده في ذلك العصر دون منازع لبراعته وقوّته وتشخيصه السريع للأمراض ومعالجتها بوصف الأدوية المناسبة لها.

## - عبيدالله بن جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع

هو شبل أبيه الطبيب جبرائيل بن عبدالله المار ذكره. فكان يكنى بأبي سعيد. ويعد من الأفاضل في صناعة الطب ومن أربابها المتميزين البارزين. وقد عالج عدداً عديداً من رجال الدولة وعلية القوم. وسكن في ميافرقين وعاصر الطبيب ابن بطلان.

١. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢١٠.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢١٢.

٣. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٥٠.

جاء في عيون الأنباء: «هو أبو سعيد عبيدالله بن جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس بن جبرائيل. وكان فاضلاً في صناعة الطبّ مشهوراً بجودة الأعمال فيها متقناً لأصولها وفروعها، من جملة المتميّزين من أهلها العريقين من أربابها وكان جيّد المعرفة بعلوم النصارى ومذاهبهم، وله عناية بالغة بصناعة الطبّ<sup>١</sup>.

وجاء في معجم الأطباء: «كان أبو سعيد عبيدالله بن جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل، فاضلاً في صناعة الطب، مشهوراً بالجودة والأعمال فيها، متقناً لأصولها وفروعها. وكان جيّد المعرفة بعلم النصارى»<sup>٢</sup>.

هذا، واشتهر عبيدالله بن جبرائيل اشتهاً لا مثيل له في التأليف، والتصنيف. ومن كتبه الكثيرة: كتاب مناقب الأطباء. ذكر بين دفتيه نخبة من أحوالهم ومآثرهم. ومقالة في الاختلاف بين الألباب ألفها لبعض أصدقائه. ورسالة في بيان وجوب حركة النفس. وكتاب نوادر المسائل مقتضبة من علم الأوائل في الطب. وكتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر. وكتاب الخاص في علم الخواص. وكتاب طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها، ألفه للأمير نصير الدولة. وكتاب الروضة الطبيّة في خمسين فصلاً قدّمه إلى الخليفة، المتقي بالله<sup>٣</sup>، وهو غريب الوضع على طريقة المنطقيين في حدوده ومباحثه، وقد قال في مقدمته إنه اختصره من كتابه تذكرة الحاضر وزاد المسافر، وطبعه الأب بولس سباط الحلبي في مصر عام ١٩٢٧. وكتاب المطابقة بين قول الأنبياء والفلاسفة على صحّة الدين المسيحي ردّ فيها على اليهود<sup>٤</sup>.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ١: ١٤٨.

٢. معجم الأطباء، ص ٩٣-٩٤.

٣. المتقي بالله العباسي (أبو إسحق) الخليفة العباسي الحادي والعشرين (٩٤٠-٩٤٤م) تولى الخلافة بعد الخليفة الراضي بالله، فرّ أمام هجمات البريدي ولجأ إلى الموصل مع أمير الأمراء ابن رائق عام ٩٤١م. كان لعبة بأيدي الحمدانيين من جهة والبريدي من جهة أخرى. اعتقله توزون التركي وسمل عينيه.

٤. الأسر العربية المشتهرة بالطبّ العربي، ص ٩٥. وكتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو، عدد ١٠.



## - جبرائيل الكحال

استخفّ به المأمون في بادئ الأمر، إلا أنه اعترف في وقت لاحق بأنه لم يرَ يدًا أخفّ من يده<sup>١</sup> في تطيب العين، فقد اتَّخذ مرادًا ومكاحلاً، ورفع من منزلته فهو الوحيد الذي يدخل عليه بعد الصلاة دون إذن، فيغسل أجزانه ويكحل عينيه.

يقول القفطي<sup>٢</sup> إن بعد هذه الشهرة قلّت منزلته بسبب قوله لياسر إن المأمون يغطّ بنوم عميق، وكان لديه موعد لمقابلته، فتخلّف عنه، وعاد الحسن خادمه بسبب مرضه. فلما سأله المأمون عن غيابه قال: أُخبرت بأن أمير المؤمنين نائم، فقال، من أخبرك بذلك؟ قال جبرائيل. فطلب إحضاره وقال له: إني استخدمتك كحالاً وليس عاملاً للأخبار عليّ. أخرج من داري، وخصّص له مئة وخمسين درهماً شهرياً، ولم يسمح له بالدخول على المأمون حتى توفي.

## - إسرائيل بن زكريا الطيفوري

كان والده وجده طبيبان مشهوران. وكان جدّه متقدماً قوياً في صناعة الطب حاذقاً، يكتى بعبداً الله ولقب الطيفوري لأنه كان طبيباً لطيفور مولى الخيزران أم الهادي والرشيد، فقد كان أعلى مكانة عند الهادي، فأعجب به لصمته وطلعته البهية. أما إسحق بن حنين فقد نقل له عدة كتب<sup>٣</sup>.

اشتغل إسرائيل طبيباً عند الفتح بن خاقان بعد أن كان في خدمة الأفشين إذ برع وتقدّم في صناعة الطب وأصبح ذو مركز مرموق عند الخلفاء والملوك واعتمد عليه المتوكّل اعتماداً كلياً، وقال عنه إسحق الرهاوي: إستحم المتوكّل دون إذنه فغضب وافتدى المتوكّل غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تعطيه سنوياً خمسين ألف درهم، وبإلحاح الفتح المستمر على المتوكّل لرفع منزله جعله في منزلته بختيشوع فعظم قدره، وكان يسير وراءه القواد بمواكبهم لزيادة تعظيمه، وقد أهداه الخليفة قطعة أرض بسرّ من رأى<sup>٤</sup>.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٤٢.

٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٥٢.

٣. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢١٨-٢١٩. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٢٠ و٢٢٤.

٤. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٨٩. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٢٥.

## - سلمويه بن بنان

طبيب المعتصم والأوفر حظًا، والمفضل في حياته. ومن كثرة تعلقه به قال لما مات سلمويه: إني سألحق به، لأنه كان حياتي وحيويتي ومدبر جسمي، ولما اعتلى الخلافة اختار سلمويه طبيبًا خاصًا له<sup>١</sup> وذلك سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م.

يقول ابن أبي أصيبعة<sup>٢</sup> إنه من كثرة إعجابه به كان يرّد الدواوين التي لم توقع من سلمويه، كما أن جميع رسائل المعتصم كانت بخطّ يده. وزيادة على ذلك ولّى أخا سلمويه إبراهيم بن بنان خازن بيوت المال في البلاد. وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين. بقي على نصرانيته وظلّ مواظبًا على دينه ليحتسي الخمر بكثرة، ولكن سيرته حسنة فهو يميل إلى الرأي والمجادلة في إعطاء الحق.

قال المعتصم ذات يوم ليوحنا بن ماسويه، إن لسلمويه أكبر منزلة عندي من قاضي القضاة فهو حاكم نفسي.

وقال عنه إسحق بن حنين، إنه أعظم وأعلم زمانه في صناعة الطب. ناداه المعتصم (بأبي). ولما مات<sup>٣</sup> بكى المعتصم بكاءً شديدًا، وأوصى من بعده للمعتصم الطبيب يوحنا بن ماسويه، وأمر المعتصم بإحضار جنازته إلى داره ليصلّى عليها على الطريقة النصرانية بالبخور والشموع. وتوفي المعتصم بعده بعشرين شهرًا.

## - يوحنا بن ماسويه

كان له من الذكاء ما يحسد عليه بصناعة الطبّ، له عدة تصانيف طبيّة مشهورة، ومحظيًا عند الخلفاء والملوك. مسيحي المذهب، خدم الرشيد فولّاه ترجمة الكتب الطبيّة القديمة<sup>٤</sup>، ودراستها عندما وجدها بأنقرة، وعمّورية وسائر بلاد الروم، ووضع بين يديه

١. الففطي، تاريخ الحكماء، ص ١٩٦. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

٣. الففطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧.

٤. الففطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨٠.

كتاباً لمعاونته كما وضعه أميناً على الترجمة وطالت خدمته للأمين والمأمون إلى أيام المتوكل، وارتقى المنزلة العظيمة عند بني هاشم وعظم قدره ببغداد.

قال عنه ابن النديم<sup>١</sup>: هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه، كان عالماً مصنفًا خدّم المأمون والمعتمد والوائق والمتوكل. له من الكتب: «الكمال والتمام، الكامل، الحمام، رفع ضرر الأغذية، الإسهال، علاج الصداع، الصدر والدرار، لم امتنع الأطباء عن علاج الحوامل في بعض شهور حملهن، محنة الطيب، محبسة الورق، الصوت وأليمه، علاج النساء اللواتي لا يجبلن، السواك والسنونات، إصلاح الأدوية المسهّلة، القولنج».

إكتسب يوحنا بن ماسويه من صناعة الطب ألف ألف درهم وقد كان مجلس يوحنا أعمر المجالس بمدينة السلام يحضره جميع الأهل من العلم والمعرفة. وكان حاد الطبع، ضيق الصدر، أراد المتوكل ذات مرّة اختباره فأحضر قارورة فيها بول بغل وأعطاها للخادم ليقدمها ليوحنا ليعطي رأيه، ففحصها يوحنا وقال فوراً «هذا بول بغل» فسأله المتوكل كيف ذلك؟ قال ماسويه، أحضر صاحبه حتى تعرف كذبي من صدقي، فأحضر الغلام صاحب البول، سأله ماسويه عما أكل البارحة، قال: خبز وشعير وماء قراح. فقال ابن ماسويه: والله هذا أكل بعيري اليوم<sup>٢</sup>.

قال المسعودي<sup>٣</sup>: إن المعتصم كان دائم المشورة له. لذلك كان يحتفظ ببنية قويّة ولكنه عندما خالف مشورته، ضعفت صحّته، فقال ابن ماسويه إنه أكل السمك بعد أن اتّخذ صباغاً في الخل والكرابيا والكمون والسذاب والكرمس والخردل. وكان في أغلب الأحيان يعطيه أكلاً ملطفاً خالياً من الحماويات حفاظاً على صحّته ولكن المعتصم عندما يأكل شيئاً حامياً يقول هذا بغير علم ابن ماسويه.

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٥.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٣.

٣. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٦٦.

## - ميخائيل بن ماسويه

هو أخو يوحنا بن ماسويه<sup>١</sup>. كان طبيباً للخليفة المأمون، قوي المزاج لا يؤمن بأحد من المتطبيين ولا يوافقهم على شيء وكان تطبيبه مخالفاً لمعظم الأطباء، لا يستعمل السكنجيين والورد الحربي إلا بالعسل، ولا يستعمل الجلاب المتخذ بماء الورد، ويأخذه من الورد المسلوق بالماء الحار فلا يضع عليه السكر.

قال القفطي<sup>٢</sup> كان لا يقرأ حرفاً بلسان غيره ولكنه عرف الأمراض وعلاجها بالرؤية والمباشرة وخبرته في الأدوية. فأخذه جبرائيل بن بختيشوع وأحسن إليه فكان المأمون لا يشرب دواء إلا من تركيبته بعد أن أكرمه غاية الإكرام. إلى جانب ذلك كان المتطبيين في مدينة السلام يُعلون من شأنه زيادة عن اللزوم لم تكن لغيره من الأطباء.

## - حنين بن إسحق

هو أبو زيد حنين بن إسحق العبّادي الطبيب المسيحي. كان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه، وطبيباً حسن التصرف في التأليف والعلاج ماهراً في صناعة الكحل. قال عنه ابن خلكان<sup>٣</sup> إنه ممن برز في صناعة الطب، كلّ وقته كان يصرفه بتقوية هذه الصناعة، ونقل كثيراً من الكتب اليونانية الطبيّة إلى العربية وترجم كتب إقليدس ونقحها من بعده ثابت بن قره.

قال عنه القفطي<sup>٤</sup> إنه فصيح اللسان في العربية واليونانية، فهو من جملة المترجمين لكتب الحكمة واستخراجها من السريانية إلى العربية، وإضافة إلى ذلك كان طبيباً جعله المتوكل أميناً للترجمة أدخل كتاب العين إلى بغداد وكان يراجع ما كتبه وترجمه المترجمين ويتفحصه بدقة لتصحيحه، استخدمه يوحنا بن ماسويه<sup>٥</sup> قبل أن يلمع نجمه مترجماً لمصنّفاته

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٥.

٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٢٩.

٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٦٧.

٤. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧١.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٧.

الطبيّة، وكان عضوًا في مجلة العلمي، إذ كان يقرأ على يوحنا بن ماسويه كتاب فرق الطب المكتوب باللسان الرومي، وكان حينئذٍ كثير الأسئلة، في مجلس يوحنا نظرًا لهدفه البعيد في حب الاطلاع على أدقّ المعلومات الطبيّة. وكان في بعض الأحيان يعطي ليوحنا الإجابة المسبقة، وعند سؤاله ليوحنا عن شيءٍ يجيبه بأنه سيعرف لاحقًا ويتضايق من كثرة أسئلته قائلاً له: ما لأهل الحيرة وتعلّم صناعة الطبّ. فهذا دليلٌ واضح على نباهته عندما كان تلميذًا في مجلسه يحبّ الطبّ وصناعته بالإضافة إلى الترجمة والتي برع فيها إلى حدّ كبير. ويقول ابن النديم: 'إنه كان كثير التجوّل في البلدان بحثًا عن الكتب لترجمتها فهو من نصارى الحيرة، إذ وصفه بالفصاحة، باللغة اليونانية والسريانية والعربية وأكثر نقله لبني موسى. توفي سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م.

له عدة كتب ترجمها منها<sup>١</sup>: «أحكام الإعراب على مذاهب اليونانيين»، و«المسائل في الطب للمتعلّمين»، وزاد فيها تلميذه الأعمش. «كتاب الحمام» و«كتاب اللبن»، و«كتاب الأغذية» ثلاث مقالات، و«علاج العين» و«تقاسيم على العين»، و«اختبار أدوية العين»، و«علاج أمراض العين بالحديد»، و«آلات الغذاء»، و«الأسنان واللثة»، و«المياه» و«تدبير الناقة» و«معرفة أوجاع المعدة وعلاجها»، و«المد والجزر» و«كيف صارت مياه البحر مالحة» و«الألوان» و«في الميول على طريق المسألة والجواب»، و«المولودين لثمانية أشهر»، و«النزاق» و«القيء على طريق المسألة والجواب» و«قاطيفورياس على رأي مسطيوس» و«رسالة إلى الطيفوري في قرص الورد»، و«القروح» و«الآجال» و«تولّد النار بين الحجرين»، و«تولّد الحصاة» و«اختبار الأدوية المجرية»، و«إلى ابن المنجم في استخراج كتبه»، و«كتب جالينوس».

وبالنسبة لقوّة ترجمته ولصحّة ما يورده من معلوماتٍ دقيقة وصحيحة نقلًا عن أغلب الكتب الأجنبية نال المنزلة والمركز المرموق لدى الخلفاء العبّاسيين حتى قيل إن المأمون كان يعطيه من الذهب مقدار ما ينقله من الكتب لذلك كان خطه كبيرًا لأخذ الذهب بدلًا من

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧٣.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣.

الورق، وكان يساعده جماعةً من النقلة، وكان لحنين ولدان داود وإسحق، فقد صنّف لهما كتباً طبيّةً في التعليم ونقل لهما كثيراً من كتب جالينوس<sup>١</sup>.

ويقول القفطي<sup>٢</sup> إن حادثةً أودت بحياته عندما خرج المتوكّل يوماً برفقة حنين والطيفوري ودار الجدل بينهما حول الخمار، وأن الشمس لا تضرب به، وبعد المجادلة، تدخل المتوكّل وأعطى الحق لحنين، فغمّ الطيفوري، وبعد مدةٍ وجد بين كتب حنين صورة للمسيح مصلوباً وحوله أناس فقال له الطيفوري: أبصق على هؤلاء فامتنع بحجة أنها صورة فعلم المتوكّل بذلك مع الجاثليق والأساقفة فسئلوا عن ذلك وأوجبوا لعن حنين فلعن وأصبح المتوكّل لا يقبل دواء من حنين إلّا بعد إشراف الطيفوري عليه، فعاد إلى داره ومات غمّاً من ليلته وقيل إنه شرب سماً للتخلّص من حياته التي باتت صعبة<sup>٣</sup>.

ولكن المسعودي<sup>٤</sup> يورد في كتابه أنه اشتهر في علم المواد السامة، وأن المتوكّل أراد امتحانه في بعض الأوقات طالباً منه دسّ السمّ لأحد أعدائه فامتنع عن ذلك فحبسه، عندها قال للمتوكّل مستنّداً إلى القرآن الكريم بأنه يأمر بعمل الخير حتى الأعداء<sup>٥</sup>، مضيفاً بأن صناعته الشريفة تأبى عليه ذلك، وقد أعجب الواثق يوحنا لشفاء الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كلّ منها. فطلب منه أن يصنّف كتاباً بذلك، فكان له كما أراد وجعله ثلاث مقالات يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهّل والآلام والجسد.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٦٠-٢٦١.

٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧٢.

٣. لكن القصة تأتي مغايرة تماماً عما ورد أعلاه إذ أن الطيفوري يوشى بحنين عند المتوكّل بحيلة دبرها للإيقاع بحنين الذي يجلب غضب الجاثليق فيقطع زناره ويطرده من الشامسة ويسجن. إلّا أن رؤيا يراها الخليفة تكشف الحقيقة، فيقلب السحر على الساحر فيعاقب الطيفوري ويعتق حنين.

٤. المسعودي، مروج الذهب، ص ٣٦٤-٣٦٦.

٥. الرواية الصحيحة تقول غير ذلك. إذ تروي أنه بعد سجن حنين لمدة عام كامل لامتناعه عن صنع السمّ، أوقفه المتوكّل بين السيف والنطع وطلب منه صنع السمّ، عندئذٍ هش له الخليفة موضحاً له أنه كان يرغب باختباره، وعندما سأله عن سبب امتناعه قال حنين إنها أمران: الدين والصناعة. الدين يأمرنا بمحبة الأعداء -بحسب قول السيد المسيح: «أحبوا أعداءكم»- والصناعة توصينا بمعالجة الأجساد وليس بقتل النفوس. عندئذٍ فرح الخليفة وكافأه وجعله رئيساً لأطباء بغداد.

## - حُبَيْش بن الحسن الأعسم

مسيحيّ الديانة، نسطوري المذهب، يُكنّى حبّيش بن الحسن الدمشقي، وهو ابن أخت حنين بن إسحق الأنف الذكر، ومن تلاميذه المتفوقين والمجلين في صناعة الطب.

قال ابن النديم<sup>١</sup>: إنه كان من أبرع تلاميذ حنين في النقل من اللغة السريانية إلى العربية، نال المركز المرموق والعظمة العالية، فكان يرضى عنه في عمله ونقله وحسن لغته، ويضيف قائلًا: إنه ليس له من الكتب سوى ما نقل وبزيادة كتاب واحد «الزيادة في المسائل لحنين».

ولكن ابن أبي أصيبعة<sup>٢</sup> يضيف قائلًا: إنه كان بارعًا على يد حنين في صناعة الطب وكان يسلك نفس طريقة حنين في النقل والترجمة وفي نفس الكلام والأموال، ولكنه قصر عنه في بعض الأحيان ويتابع ذاكرًا أنه ذكي مطيع غير أنه لا يجتهد بحسب ذكائه.

## - إسحق بن حنين

يكنّى بأبي يعقوب إسحق بن حنين بن إسحق العبّادي. سار مسار أبيه في النقل والمعرفة باللغات وفصاحة اللسان. وقد تقدّم على أبيه في المنزلة عند الخلفاء، وفي النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية. كما أنه أفصح من والده، وقد خدم من خدم أبوه من الخلفاء، ولكن آخر أيامه انقطع للقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد ليصبح من أقرب المقربين إليه<sup>٣</sup>، ويصير كاتم أسرار<sup>٤</sup>. واختلف في سنة موته، فمنهم من قال ٢٩٨ هـ أو ٩١٠ م، أو ٩١١ م.

له مصنّفات كثيرة في ميدان الطب<sup>٥</sup> نقلها من السريانية واليونانية إلى العربية، إذ كانت ترجمته بلغة عربية صحيحة وذلك لأقدم الكتب الطبيّة. ومن مؤلفاته: «الأدوية

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٧٦.

٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٦٦-٦٧. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٧.

٤. الففطي، تاريخ الحكماء، ص ٨٠.

٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١١٦.

المسهّلة»، و«اختصار كتاب إقليدس»، و«المقولات»، و«إيساغوجي»، و«إصلاح جوامع الإسكندرانيين»، و«في النبض»، و«كتاب آداب الفلاسفة، ونواديرهم في التوحيد»<sup>١</sup>.

## - سعد بن توفيل

مسيحي الديانة، وطبيب أحمد بن طولون<sup>٢</sup> الخاص<sup>٣</sup>، كان يكثر من أكل لبن الجاموس. فسأله طبيبه (أي سأل أحمد بن طولون) مرّة ما الرأي الصواب في ذلك. أجابه: لا تقرب الطعام اليوم وغداً، فلم يسمع كلام طبيبه فأكل خردلاً بشهية فعاوده الإسهال وضعفت بنيته، وعندما عاد إلى مصر من أنطاكيا استدعى الأطباء منهم: الحسن ابن زيرك، فقال لهم مهدّداً بالقتل، فخرج النصارى واليهود بالتوراة والإنجيل والمسلمون بالقرآن يدعون إلى المساجد، ولما يئس من نفسه قال: يا رب إرحم من جهل مقدار نفسه وأبطره حلمك عنه، ثم تشهّد ومات بمصر سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٠م، وكان ذلك من نتيجة عدم مبالاته بنصائح طبيبه النصراني الذي رافقه إلى أنطاكيا والذي ضاق منه ذرعاً متوعداً أنه لم يعد يوافق في أسفاره لأنه يلاقي منه دائماً عدم المبالاة أثناء مداواته وإعطائه الوصفات الطبيّة وحمائيته عن المضرّات، مات نتيجة عدم الاكتراث فكان تعب سعد بن توفيل ونصائحه تذهب أدراج الرياح ودون جدوى أو فائدة.

## - قسطا بن لوقا البعلبكي

فيلسوفٌ وطبيبٌ بعلبكي، مسيحي الديانة. دخل بلاد الروم وحصل على كثيرٍ من تصانيفهم وعاد إلى الشام، ليترجم الكتب ويستخرجها من اليونانية إلى العربية. فكان بارعاً بعلم العدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية إلى جانب مهارته بالطب<sup>٤</sup>.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٧٤. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٦.

٢. أحمد بن طولون (ت ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م) مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسوريا. قرّبه المستعين والي مصر عام ٨٦٨م. استقلّ بالحكم وأنشأ «القطائع» عاصمة جديدة له بالقرب من القسطنطينية. مدّ سلطانه على مصر وسوريا والنجور والموصل بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة، خلفه ابنه حناويه.

٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٤.

٤. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٦٢.



لكن ميخائيل البعلبكي وفيليب حتّي<sup>١</sup> يصفان مهارته وذكاءه إلى جانب حذاقته بالطبّ أنه كان يتقن عدة لغات إغريقية وسريانية وعربية، وكان بالإضافة إلى ذلك فيلسوفًا بالفلك والرياضيات. فقد نقل عدة كتبٍ إغريقية إلى العربية، وترجم ١٧ كتابًا وألّف ٦٩ كتابًا، إثنان منها شرح وتعليق لإقليدس، ومؤلّف عن الإسطراب. ويقال أنه توفي سنة ٩١٢م، في أرمينيا بعد أن تلقّى دعوة من ملكها الذي أكرمه ورفع من مكانته العلمية<sup>٢</sup>.

ولكن إبراهيم ابن النديم<sup>٣</sup> يزيد من علوّه وإكرام شأنه ومكانته بين الأطباء والمترجمين قائلًا: يجب أن يفضّل على حنين بن إسحق نظرًا لفضله وبذله وتقدّمه في صناعة الطبّ وفصاحته باللغة العربية واليونانية، إذ كان عالمًا بالطبّ والفلسفة والهندسة وإعداد الموسيقى.

وكان أيام المقتدر بالله العبّاسي قد عمل كتاب الفردوس في التاريخ، وله كتب كثيرة في صناعة الطبّ بعبارة متّقنة وحسنة اللغة وله عدة مؤلّفات اتفق على ذكرها كلّ من: ابن أبي أصيبعة، القفطي وابن النديم وهي:

- ١- في أوجاع النقرس.
- ٢- في الروائح وعللها.
- ٣- في الغذاء.
- ٤- جامع في الدخول إلى علم الطب.
- ٥- في الاستقصات.
- ٦- في السهر.
- ٧- في النبيذ.
- ٨- في العطش.
- ٩- في القوّة والضعف.

١. ميخائيل البعلبكي، تاريخ بعلبك، ص ١٢٢. فيليب حتّي، تاريخ لبنان، ص ٣٢٩.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٢٩-٣٣٠.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٦٣.

- ١٠- في الأعذية.
- ١١- في النبض والحميات واليمرنات.
- ١٢- في نخله موت النجاة.
- ١٣- في الجزء الذي لا ينجز.
- ١٤- في الحذر وأنواعه.
- ١٥- أيام البحرات.
- ١٦- في الأخلاط الأربعة.
- ١٧- في الكبد.
- ١٨- في أسباب الريح.
- ١٩- في مراتب قراءة الكتب الطبية.
- ٢٠- في تدبير الأبدان.
- ٢١- في رفع ضرر السموم.
- ٢٢- في المدخل إلى علم الهندسة.
- ٢٣- في آداب الفلاسفة.
- ٢٤- الفرق بين النفس والروح.
- ٢٥- في الحيوان الناطق.

### - بختيشوع بن يوحنا

هو ابن الطبيب يوحنا بن بختيشوع. وقد درس الطب على أبيه، وأتقن أساليبه فأضحى لدى الخلفاء وغيرهم. واختصّ بخدمة الخليفة المقتدر بالله.

لقد نال الطبيب بختيشوع بن يوحنا من المقتدر الهبات الواسعة والنعم الوافرة والإقطاعات الكثيرة. وخدم بعد ذلك الراضي بالله (ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م) فأكرمه الإكرام

كله، ووهبه العطايا الجزيلة. قال ابن العبري<sup>١</sup>: «ومن الأطباء الذين للمقتدر بختيشوع بن يحيى (يوحنا) وسنان بن ثابت بن قرة الصابئ والد ثابت بن سنان صاحب التاريخ. ولم يكن من أطبائه أخص من هذين<sup>٢</sup>.

وقال القفطي: «بختيشوع بن يحيى من بني بختيشوع، كان طبيباً حاذقاً خدم المقتدر واختص به وارتفعت منزلته لديه، واشترك في طبه هو وسنان بن ثابت بن قرة الصابئ والد ثابت بن سنان صاحب التاريخ. ولم يكن في أطباء المقتدر أخص من هذين<sup>٣</sup>.

وقال ابن أبي أصيبعة: «كان عالماً بصناعة الطب حطياً من الخلفاء وغيرهم. واختص بخدمة المقتدر بالله. وكان له من المقتدر الأنعام الكثيرة والإقطاعات من الضياع. وخدم بعد ذلك الراضي بالله فأكرمه وأجراه على ما كان اسمه في أيام أبيه المقتدر<sup>٤</sup>.

## - ماسويه أبو يوحنا

كان ماسويه أبو يوحنا دقاق أدوية في بيمارستان جنديسابور، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة. غير أنه كان خبيراً بمعرفة الأمراض وعلاجها، وبانتقاء الأدوية ومرامها. وقد اتخذه جبرائيل بن بختيشوع عاملاً لديه. ولما دعي جبرائيل إلى بغداد قال ماسويه: «إن أبا عيسى قد بلغ السها ونحن في البيمارستان لا نتجاوزه». فسمع ذلك جبرائيل وأمر بإخراجه منه.

سار ماسويه إلى مدينة السلام ليطلب العفو من أبي عيسى وبقي على بابه زمناً طويلاً. بيد أنه لم يصفح عنه ولم يتجاف عن ذنبه. ولما ضاق الأمر بهاسويه سار إلى دار الروم والتمس من كاهن الكنيسة أن يزوده بأجور السفر لينصرف إلى بلده. فقال له الكاهن: «أنت في البيمارستان منذ ثلاثين عاماً، ولا تحسن شيئاً من الطب». فقال: «بلى، والله أطبب وأكحل

١. أبو الفرج غريغوريوس (١٢٢٦-١٢٨٦م) ولد في ملطية وتوفي في مراغه. من ألمع رجالات الأدب والعلم لدى السريان. درس الطب والفلسفة في طرابلس (لبنان). أسقف حلب على اليعاقبة (١٢٤٦) ثم مفران المشرق (١٢٦٤). كتب في النحو والشعر والفلسفة واللاهوت. أشهر مؤلفاته بالعربية: «تاريخ مختصر الدول» و«بالسريانية: التاريخ الكنسي ومنازة الأقداس».

٢. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٥.

٣. أخبار العلماء، ص ٧٣.

٤. عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٠٢.

وأعالج الجراحات». فأعطاه الكاهن صندوقاً في داخله أدوية وعقاقير وأجلسه بباب الحرم عند قصر وزير الرشيد الفضل بن الربيع.

وأتفق أن خادم وزير الرشيد اشتكى عينه. فأرسل إليه جبرائيل بن بختيشوع كحّالين فلم ينجحوا بمداواته. وأخذ يشدد ألمه ويزداد أرقه حتى خرج من مخدعه هائماً على وجهه من شدة الضجر والقلق. فرأى ماسويه وقال له: «يا شيخ ماذا تصنع؟ إن كنت تحسن شيئاً فعالجني وإلا فقم من هنا». فأجابه ماسويه: «إني أحسن المعالجة وأجيد في عملي» فقال له الخادم: «هلمّ معي». ثم دخل القصر وقلب جفنه وكحلّه وسكب على رأسه وسعطه. فقام الخادم وهدأ في فراشه. وفي الصباح أنفذ إلى ماسويه خبزاً وسميداً وحلوى ودراهم ودنانير. فجدّ ماسويه في معالجة الخادم وبرئ على يديه.

ولم يمض سوى أيام قليلة حتى اشتكت عين الفضل. فعالجه الكحّالون فلم ينتفع بهم. فأدخل الخادم ماسويه إليه ليلاً ولم يزل يكحلّه إلى ثلث الليل ثم سقاه دواء مسهلاً صلحت به حاله وهدأ باله. فعجب الفضل منه وأجرى عليه في كلّ شهر ستمائة درهم.

وما مضت إلا أيام قلائل حتى اشتكت عين الخليفة الرشيد فأخبره الفضل بماسويه وأعلمه حذقه بالكحل. وقصّ عليه قصة الخادم وما كان من أمره فأحضره الرشيد وأدناه منه فنظر عينيه وقال: «الحجام الساعة». فحجمه على ساقيه وقطر في عينه فبرئ بعد يومين. فأمر بأن يجري عليه ألفا درهم في الشهر.

ويذكر أن أخت الرشيد قد اعتلّت فعالجها جبرائيل بأنواع الأدوية فلم تتعاف. فطلب الرشيد أن يحضر جبرائيل وماسويه معاً. وبعدهما تلا جبرائيل على ماسويه أعراض مرضها. قال ماسويه: «التدبير صالح والعلاج مستقيم ولكنني أحتاج أن أراها». فأذن له برؤيتها. فتأملها وجسّ نبضها أمام الرشيد وخرجوا من عندها. فقال ماسويه للخليفة: «يا أمير المؤمنين أطال الله عمرك وأبقاك أمد الدهر. إن أختك تقضي بعد غد ما بين ثلاث ساعات إلى منتصف الليل». فأمر الرشيد أن يجلس ببعض دوره في القصر. ولما حضر الوقت المعين الذي حدّده ماسويه فاضت روحها. فلم يكن الرشيد همّه بعد دفنها إلا

أن أحضره، ووسع نفقته فبلغ المرتبة العالية والمنزلة السامية<sup>١</sup>. وكان لماسويه ولدان هما: يوحنا وميخائيل.

## - أبو الفرج يحيى بن التلميذ

كان أبو الفرج يحيى بن التلميذ جد هبة الله المعروف بابن التلميذ. وهو يلقب بمعتمد الملك ويُستشار بقوله ويعمل برأيه هذا فضلاً عن علو شأنه في العلوم والشعر. وقد حظي بالمنزلة العالية عند الخلفاء وكبار الدولة. وقام بخدمة الأدباء كابن الهبارية وغيره. ومكث مدة في أصفهان حيث عرف بفضائله وتضلعه من صناعة الطب<sup>٢</sup>.

قال ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء: «كان معتنياً في العلوم الحكيمة متقناً للصناعة الطبية متحلياً بالأدب بالغاً فيه أعلى الرتب. وكذلك كان لأمين الدولة بن التلميذ جماعة من الأنساب كلاً منهم متعلق بالفضائل والآداب. وقد رأيت بخط الأجل معتمد الملك يحيى بن التلميذ ما يدل على فضله وعلو قدره ونبله. وكان من المشايخ المشهورين في صناعة الطب وله تلاميذ عدة»<sup>٣</sup>.

وقال جمال الدين القفطي: كان يحيى بن التلميذ الحكيم معتمد الملك النصراني طبيب الدولة العباسية في زمانه ويُستشار برأيه. وله الفضل الوافر والأدب الغزير والمعرفة الكاملة واتفقت له سعادة جد حتى كسب الأموال وعاش إلى آخر عهد المستظهر بالله<sup>٤</sup>.

عرف يحيى بن التلميذ بتضلعه من الطب كما عرف بتضلعه من الشعر. فكان طبيباً نطاسياً وشاعراً مجيداً يتلاعب بفنون القريض ويتصرف بمعانيه المتنوعة. فمن شوقياته قوله:

١. عيون الأنباء، ج ١، ص ١٧١-١٧٥.

٢. شعراء النصرانية بعد الإسلام، ٣: ٣١٤.

٣. عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٧٦-٢٧٧.

٤. أخبار العلماء، ص ٢٣٨-٢٣٩. والمستظهر بالله (أحمد بن المقتدي) الخليفة العباسي الثامن والعشرين (٤٨٧-٥١٢هـ/١١٨٨م) بدأت في عهده الحملات الصليبية وسقط بيت المقدس. كان كريم الأخلاق فاضلاً عارفاً بالأدب وباسمه ألف الغزالي كتابه «فضائح المعتزلة» ويعرف بالمستظهري.

الله أبقاك للدينا وللدين      ولا يخليك من عزٍّ وتمكين  
روحي بروحك ممزوج ومتصل      كل عارضة تؤذيك تؤذيني

ومما قاله في دارٍ جديدة بناها سيف الدولة وقعت فيها النار يوم فراغه من بنائها:  
يابانياً دار العلى متلهياً      لتزيدها شرفاً على الكيوان  
علمت بأنك إنما شيّدتها      للمجد والأفضال والإحسان  
ففاقت عوائدك الكرام وسابقت      تستقبل الأضياف بالنيران<sup>١</sup>

### - هبة الله بن التلميذ

هو موفق الملك أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ البغدادي، وقد قرأ الطبَّ على أهله وغيرهم من أطباء زمانه فأضحى مرجعاً في صناعة المعالجة وفي مباشرة أعمالها. وسافر في أول أمره إلى بلاد العجم وبقي فيها سنوات عديدة. ثم رجع إلى بغداد. ولما توفي جدّه أبو الفرج يحيى بن التلميذ المار ذكره قام مقامه<sup>٢</sup> بخدمة الخلفاء والملوك واتَّخذ الخليفة المقتفي<sup>٣</sup> طبيبه الخاص، ووهبه الهدايا، وجعل دار القوارير مجرة في إقطاعه. وبعد موته خدم ابنه الخليفة المستنجد<sup>٤</sup>.

كان ابن التلميذ ذكي الفؤاد، ثاقب الفكر، حلو الشائل، خبيراً بأنواع الأمراض ماهراً في تدبيرها. وقد أقيم ساعور المارستان العضدي إلى حين موته مفوضاً من لدن الخليفة رئاسة أطباء بغداد ينظر في أمورهم ويستقضي ما عند كل منهم من الصناعة وهم يقرون له بالفضل ويشهدون له بالعلم<sup>٥</sup>.

١. شعراء النصرانية بعد الإسلام، ج ٣، ص ٣١١-٣٩٤.

٢. شعراء النصرانية بعد الإسلام، ج ٣، ص ٣١٦.

٣. المقتفي لأمر الله (محمد بن المستظهر) الخليفة العبّاسي الحادي والثلاثين (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م) خلف أخاه الراشد فاستقلّ بأعمال الدولة وإدارة شؤون الخلافة بعد أن قضى على نفوذ السلاجقة الذين كانوا يستبدّون بالسلطة منذ أمد طويل.

٤. المستنجد بالله (يوسف بن المقتفي) الخليفة العبّاسي الثاني والثلاثين (٣٣٣-٣٣٤هـ/٩٤٤-٩٤٥م) عوله معز الدولة البويهي عينيه. مات سجيناً.

٥. أخبار العلماء، ص ٢٢٣-٢٢٤، وتاريخ مختصر الدول، ص ٣٦٤. ومعجم الأدباء ١٩: ٢٨٦، وعيون الأنباء، ج ١، ص ٢٦٠.

وكان هبة الله يحضر الخليفة المقتفي كل أسبوع مرة واحدة فيجلسه لكبر سنّه. وكانت دار القوارير قد أخذت منه في ولاية الوزير يحيى بن هبيرة، فحضر ابن التلميذ يومًا عند الخليفة على عادته. فلما أراد الانصراف عجز عن القيام من كبر. فقال له الخليفة المقتفي: «كبرت يا حكيم». قال: «نعم كبرت وتكسرت قواريري» وهذا مثل يتماجن به أهل بغداد لمن عجز وبطل. ففطن الخليفة وقال: رجل عمّر في خدمتنا ما تماجن قط بحضرتنا ولهذا التماجن سرّ ثم فكّر ساعة وسأل عن دار القوارير فقبل له: قد حلّها الوزير ابن هبيرة عنه وأخذها منه. فأنكر المقتفي على ذلك إنكارًا شديدًا وردّها إليه وزاده إقطاعًا آخر<sup>١</sup>.

لقد بلغ التلميذ مكانةً رفيعة لدى الجميع واكتسب منزلة عالية عند القاضي والداني ورويت عنه أخبارًا ونوادير تنبئ عن حسن عشرته وكرم أخلاقه ومعالجته الطبيّة المشهورة. منها أنه أحضرت إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة هي أم في الممات. وكان الزمان شتاء فأمر بتجريدها وصبّ الماء المبرّد عليها صبًّا متتابعًا كثيرًا، ثم أمر بنقلها إلى مجلسٍ دفيّ قد بخر بالعود والندّ ودفّرت بأصناف الفراء ساعة فغطت وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها<sup>٢</sup>.

ومن مزايا مروءته أنه كان يزهّد في الأجرة ويبدل الأموال الكثيرة للمرضى والمعوزين الذين يزورونه. وكان يلي ظهر داره المدرسة النظامية فإذا مرض فقيه نقله إليه وقام بعلاجه وخدمته فإذا بلّ صرفه<sup>٣</sup>.

وتوفي هبة الله بن التلميذ وله من العمر أربع وتسعون سنة. وقد مات في عيد النصراري ولم يبق ببغداد من لم يحضر البيعة (الكنيسة) ويشهد جنازته.

قال عمرو بن متّى في ترجمة الجاثليق يشوعياب<sup>٤</sup>: «وفي أيامه توفي أمين الدولة بن التلميذ رضي الله عنه، ودفن في الصحن الداخلي ببيعة العتيقة»<sup>٥</sup>.

١. وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٢٤-١٢٥.

٢. عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٦٠.

٣. وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٢٦.

٤. الجاثليق يشوعياب: راجع عنه كتاب المجدل لعمرو بن متّى وماري بن سلبيان.

٥. كتاب المجدل، ص ١٠٦.

وقال ابن الأزرقي الفارقي في تاريخه: «مات ابن التلميذ في عيد النصرى، وكان قد جمع من سائر العلوم ما لم يجتمع من غيره. ولم يبقَ ببغداد من الجانبين من لم يحضر البيعة وشهد جنازته»<sup>١</sup>.

ولأمين الدولة تلاميذٌ عديدون وقد بلغ عددهم زهاء الخمسين. ومن مصنّفاته الطيّبة الأقراباذين الكبير الذي كان يحتوي على عشرين فصلاً. وبقي كتاب تدرّيس في البلدان العربية عدة قرون». وألّف الأقراباذين الصغير المحتوي على ثلاثة عشر فصلاً، وهو موجز للأقراباذين الكبير وضع لاستعمال المستشفيات وله مختصر الحواشي على كتاب القانون للرئيس ابن سينا واختيار كتاب الحاوي للرازي وشرح جالينوس لكتاب الفصول، واختصار كتاب مسكويه في الأشربة وشرح مسائل حنين بن إسحق وغيرها. ومن كتبه الباقية الأقراباذين والمجريات وكتاب الإقناع والمقالة الأمينية في الفصد والمقطوعات من ديوانه<sup>٢</sup>.

وكان ابن التلميذ جيّد الكتابة يكتب خطأً منسوباً. وقد قال ابن أبي أصيبعة: «رأيت كثيراً من خطه وهو في نهاية الحسن والصحة»<sup>٣</sup>. وقد خلّف كتباً لا نظير لها في الجودة، فورث جميعها ولده. وغير أنه خنق في دهليز داره وأخذ ماله ونقلت كتبه على إثني عشر جملاً إلى دار المجد ابن الصاحب. ثم آلت هذه الخزانة إلى الطبيب أبي الخير بن المسيحي الآتي ذكره يوم كان في خدمة الخليفة الناصر لدين الله<sup>٤</sup>.

ومن نوادره التي أوردها ابن أبي أصيبعة: «إن الخليفة كان قد فوّض إليه رئاسة الطبّ في بغداد. ولما اجتمع إليه سائر الأطباء، ليرى ما عند كلّ واحد منهم من هذه الصناعة. كان من جملة من حضره شيخٌ له هيئة ووقار وعنده سكينه. فأكرمه أمين الدولة. وكان لذلك الشيخ دربة ما بالمعالجة. ولم يكن عنده من علم صناعة الطبّ إلّا التظاهر بها. فلما انتهى الأمر إليه قال له أمين الدولة: ما السبب في كون الشيخ لم يشارك الجماعة في ما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة؟ فقال: يا سيدنا وهل شيء مما تكلموا فيه إلّا وأنا

١. وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٢٥.

٢. الطبّ العربي، ص ١٧٦ و ٢٥٢. وكتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية عدد ١٧.

٣. عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٥٩.

٤. الناصر لدين الله (أحمد بن المستنصر) الخليفة العبّاسي الرابع والثلاثين، (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م) قضى على نفوذ قادة الجيش ووضع حدّاً للتسلّط السلجوقي. اشتهر بالخزم. وعيون الأنباء، ج ١، ص ٢٥٩. وخزائن الكتب القديمة في العراق، ص ٢٥٠-٢٥٢.



أعلمه. وقد سبق إلى فهمي أضعاف ذلك مرّات كثيرة؟ فقال له أمين الدولة: فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة؟ فقال الشيخ: يا سيدنا (إذا صار الإنسان إلى هذه السنّ ما يبقى يليق به إلا أن يُسأل كم له من التلاميذ، ومن هو المتميّز فيهم. وأمام المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل. فقال له أمين الدولة: يا شيخ هذا شيء قد جرت العادة به ولا يضرّ ذكره. ومع هذا فما علينا، أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطيّبة. وكان قصد أمين الدولة أن يتحقق ما عنده. فقال: سبحان الله العظيم صرنا إلى حدّ ما يُسأل عنه الصبيان، وأي شيء قد قرأته من الكتب. يا سيدنا لمثلي ما يقال إلا أي شيء صنّفته في صناعة الطبّ. وكم لك من الكتب والمقالات. ولا بدّ أن أعرفك بنفسي. ثم أنه نهض إلى أمين الدولة ودنا منه وقعد عنده وقال له فيما بينهما: يا سيدي أعلم أنني قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة وما عندي منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة. وعمري كلّه أتكبّب بها. وعندي عائلة، فسألتك بالله يا سيدنا مشّ حالي ولا تفضحني بين هؤلاء الجماعة. فقال له أمين الدولة: على شريطة وهي أنك لا تهجم على مريض بها لا تعلمه، ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهّل إلا لما قرب من الأمراض. فقال الشيخ: هذا مذهبي منذ كنت ما تعديت السكنجيين والجلّاب.

ثم أن أمين الدولة قال معلناً والجماعة تسمع: يا شيخ إعدرنا فإننا ما كنا نعرفك. والآن قد عرفناك، استمر في ما أنت فيه. فإن أحداً ما يعارضك. ثم إنه عاد بعد ذلك في ما هو فيه مع الجماعة. وقال لبعضهم: على من قرأت هذه الصناعة؟ وشرع في امتحانه. فقال له: يا سيدنا أنا من تلامذة هذا الشيخ الذي قد عرفته. وعليه كنت قد قرأت صناعة الطبّ. ففطن أمين الدولة. بما أراد من التعريض بقوله وتبسّم ثم امتحنه بعد ذلك<sup>١</sup>. لقد أثنى الكتّبة على هبة الله بن التلميذ كلّ الثناء وأطروا على أخلاقه كلّ الإطراء وأطنبوا على فضله كلّ الأطناب، فقد دعاه عمرو بن مّتي في كتابه المجدل «الطبيب الغياتي»<sup>٢</sup>. وقال ابن العبري: «أما ابن التلميذ الطبيب النصراني البغدادي ففاضل زمانه وعالم أوانه. خدم الخلفاء من بني العباس وتقدّم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم. وكان موفّقاً في المباشرة والمعالجة عالماً

١. عيون الأنبياء، ج ١، ص ٢٦١-٢٦٢.

٢. كتاب المجدل، ص ١٠٣.

بقوانين هذه الصناعة. عمّر طويلاً وعاش نبياً جليلاً. وكان شيخاً بهي المنظر، حسن الرداء، عذب المجتبي والمجتبي لطيف الروح، ظريف الشخص بعيد الهم، عالي الهمّة، ذكي الخاطر، مصيب الفكر، حازم الرأي<sup>١</sup>. وقال ابن أبي أصيبعة: «هو الأجل موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ. أوحد زمانه في صناعة الطبّ وفي مباشرة أعمالها. وكان ساعور البيارستان العضدي ببغداد إلى حين وفاته»<sup>٢</sup>. وحكى القفطي: «هبة الله بن صاعد بن التلميذ الطيب النصراني البغدادي طيب وقته وفاضل زمانه وعالم أوانه. خدم الخلفاء من بني العبّاس وتقدم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم. وكان موفقاً في المباشرة والمعالجة، عالماً بقوانين هذه الصناعة، وصنّف فيها عدة مصنّفات»<sup>٣</sup>.

وقال ياقوت الحموي: «هو موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن ابن أبي العلاء المعروف بابن التلميذ البغدادي الطيب الحكيم الأديب. كان واحداً عصره في صناعة الطبّ، متفنّناً في علوم كثيرة، حكيماً، أديباً، شاعراً جيّداً. وكان عارفاً بالفارسية واليونانية والسريانية، ومتضلّعاً من العربية. وله النظم الرائق والنثر الفائق، ونثره أجود من شعره. وكان ساعور البيارستان العضدي، تولّاه إلى أن توفي. وكان حازماً في المباشرة والمعالجة، موفقاً في صناعته. خدم الخلفاء من بني العبّاس، وتقدّم عندهم وعلت مكانته لديهم. وكان نبيه الذكر جليل القدر مرموق المكانة. وكان مقدم النصارى في بغداد، ورأسهم ورئيسهم وقسيسهم. وكان حسن العشرة، كريم الأخلاق، ذا مروءة وسخاء حلو الشائل كثير النادرة»<sup>٤</sup>.

وذكره عماد الدين الأصفهاني<sup>٥</sup> قال: «هو مقصد العالم في علم الطبّ، سقراط عصره، وجالينوس زمانه. ختم به العلم ولم يكن في الماضي من بلغ مداه في الطب. عمّر طويلاً وعاش نبياً جليلاً ورأيته هو شيخ بهي المنظر، حسن الرداء، عذب المجتبي والمجتبي،

١. تاريخ مختصر الدول، ص ٣٦٤.

٢. عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٥٩.

٣. أخبار العلماء، ص ٢٢٢.

٤. معجم الأدباء، ج ١٩، ص ٢٧٦-٢٧٧.

٥. عماد الدين الكاتب (أبو عبدالله الأصبهاني) (١١٢٥-١٢٠٠): مؤرّخ من أكابر الكتاب. خدم صلاح الدين. من كتبه: «الفتح القسّي في الفتح القدسي»، «فريدة القصر»، «ديوان رسائل»، «ديوان الشعر»، «البرق الشافي»، في أخبار صلاح الدين وحروبه، و«نصرة الفترة وعصرة الفطرة» في تاريخ السلجوقيين، وقد اختصره البُنْداري.

لطيف الروح، ظريف الشخص، بعيد الهم، عالي الهمّة، ذكي الخاطر، مصيب الفكر، حازم الرأي، شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم<sup>١</sup>.

كان ابن التلميذ خبيرًا بالسريانية والفارسية واليونانية متبحرًا في العربية وله شعر شائق يعرب عن لطافة طبعه. جاء في وفيات الأعيان: «وله في النظم كلمات رائعة وحلاوة جنية وغازاة بهية». وورد في عيون الأنباء: «لأمين الدولة شعر مستطرق، حسن المعاني إلا أن أكثر ما يوحد له البيتان أو الثلاثة. وأما القصائد فلم أجد فيها إلا القليل»<sup>٢</sup>.

ومن شعره في التواضع:

تواضع كالبدر استنار لنتاظر      على صفحات الماء وهو رفيع  
ومن دونه يسمو إلى المجد صاعدًا      سمو دخان النار وهو وضع

وقال في تأثير العلم في العاقل وفي الجاهل:

العلم للرجل اللبيب زيادة      ونقيصه للأحمق الطياش  
مثل النهار يزيد أبصار الورى      نورًا ويفشي أعين الخفاش

وقال يشكر مستوفي الممالك العزيز أبا نصر بن حامد:

لعمر أبيك الخير ليس بواحدٍ      من الناس إلا حامدًا لابن حامد  
كأنهم دانوا الإله بشكرهم      علاه لكن لا كشكر ابن صاعد  
هم خبروا عنه فأثنوا بصالحٍ      وعندي بما أثبتت خير المشاهد

ومن قوله في شرب الخمرة:

كاسٌ تطفئ لهب الأولم      ثانٍ بعين هاضم الطعام  
وللسرور ثالث المدام      والعقل ينفيه مزيد جام

١. أطلب وفيات الأعيان، ١١٩:٥.

٢. وفيات الأعيان، ١١٩:٥، عيون الأنباء، ٢٥٩:١.

وقال في ولده كان في سائر أحواله بعيداً عما عليه والده:

أشكو إلى الله صاحباً شكساً      تسعفه النفس وهو يعسفها  
فنحن كالشمس والهلال معاً      تكسبه النور وهو يكسفها

وقال وهو يتشوق إلى أصحابه في بغداد:

على ساكني بغداد مني تحية      تحملها ربح الشمال إليهم  
تخبرهم إني صحبت معاشراً      سواهم فأبكاني الزمان عليهم

وقال في العزم والجد:

واظب على الجد ولا تنخدع      بالهزل إن ساعدك الجد  
ولا تقل إن له موضعاً      فالهزل في موضعه جدّاً

### - صاعد بن توما

هو أبو الكرم صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما البغدادي. فكان من ذوي المروءة والأمانة حسن العلاج كثير الإصابة. وقد تقدّم في أيام الخليفة الناصر لدين الله وحظي عنده وشارك من يحضر من أطبائه في أثناء أمراضه. ثم أنزله منزلة الوزراء يستوثقه على حفظ أموال خواصه ويرسله في أمور خفية إلى وزرائه. وكان كثير الوساطة جميل المحضر قضيت على يده حاجات واستكفيت شروراً<sup>٢</sup>.

قال القفطي: «كان صاعداً بن يحيى بن هبة الله بن توما النصراني طبيباً حسن العلاج كثير الإصابة يميمون المعاناة في الأكثر له سعادة في هذا الشأن»<sup>٣</sup>.

ومدحه الدكتور ترتون المستشرق في كتابه «أهل الذمة في الإسلام» قائلاً: وقد برع أمين الدولة أبو الكرم صاعد بن توما، في التضميد، وكان ثقة في أعماله حكيمًا بارًا، خيرًا

١. إذا رغبت في المزيد من الآيات الشعرية فراجع: شعراء النصرانية بعد الإسلام، ٣: ٣١٩-٣٣٤. وفيات الأعيان، ٥: ١١٩-١٢٤، وعيون الأنباء، ج ١، ص ٢٦٢-٢٧٦.

٢. فوات الوفيات لمحمد بن شاكر بن أحمد الكندي (مصر ١٩٥١)، ص ٣٩٠. عيون الأنباء ١: ٣٠٢-٣٠٣.

٣. أخبار العلماء، ص ١٤٤.

عطوفاً على الفقراء حسن الوساطة تقضي على يده حاجاتهم. كان هذا الطبيب مقرباً من الخليفة الناصر يبجله ويوقره ويوكل إليه معالجة أهل قصره وحریمه<sup>١</sup>.

وقد سطر المؤرّخون خبر مقتله. فنقله عن تاريخ مختصر الدول لابن العبري: وكان الإمام الناصر في آخر أيامه قد ضعف بصره وأدركه سهو في أكثر أوقاته. ولما عجز عن النظر في القصص استحضر امرأة من النساء البغداديات تعرف بست نسيم وقرّباها. وكانت تكتب خطأ قريباً من خطه وجعلها بين يديه تكتب الأجوبة. وشاركها في ذلك خادمٌ اسمه تاج الدين رشيق. فصارت المرأة تكتب الأجوبة ما تريد فمرّة تصيب ومراراً تخطئ. واتفق أن كتب الوزير القمي المدعو بالمؤيد مطالعة وعاد جوابها وفيه إخلال بيّن فتوقف الوزير وأنكر، ثم استدعى الحكيم صاعد بن توما وسأله عن ذلك سرّاً، فعرفه ما الخليفة عليه من عدم البصر والسهو الطارئ في أكثر الأوقات وما تعتمد المرأة والخادم من الأجوبة. فتوقف الوزير عن العمل بأكثر الأمور الواردة عليه. وتحقق الخادم والمرأة ذلك حدساً أن الحكيم هو الذي دلّه على ذلك. فقرر رشيق مع رجلين من الجند أن يغتالا الحكيم ويقتلاه، وهما رجلان يعرفان بولدي قمرالدين من الأجناد الواسطية.

فرصدا الحكيم في بعض الليالي إلى أن خرج من دار الوزير عائداً إلى دار الخليفة، فتبعاه إلى باب الغلّة المظلمة ووثبا عليه بسكينها وجرحاه وانهمزما. فبصر بهما وصاح: خذوهما. فعادا إليه وقتلاه وجرحا النفاط<sup>٢</sup> الذي بين يديه. وحمل الحكيم ابن توما إلى منزله ودفن بداره في ليلته.

وبعد تسعة أشهر نقل إلى تربة آبائه في البيعة بباب محول. وبحث الخليفة والوزير عن القاتلين فعرفا وأمر بالقبض عليهما. وفي بكرة تلك الليلة أخرجا إلى موضع القتل وشق بطنهما وصلبا على باب المذبح المحاذي كباب الغلّة التي جرح في بابها<sup>٣</sup>.

١. أهل الذمّة في الإسلام، ص ١٧٢-١٧٣.

٢. النفاط: حامل فانوس النفط للسير في الليل.

٣. تاريخ مختصر الدول، ص ٤٢١-٤٢٢.

## - يوحنا بن بختيشوع

هو من أطباء أسرة بختيشوع المار ذكرهم. وكان ابنه بختيشوع (٩٤٠م) من الأطباء الذين خدموا الخلفاء العباسيين. أما يوحنا فقد خدم الموفق بالله<sup>١</sup>، واهتم بمعالجته اهتماماً لا مزيد عليه فأسماه «مفرج كربى». ووهبه كل ما يحتاج إليه من الضياع والأموال حتى لا يستزيد في شيء من أموره.

قال ابن أبي أصيبعة: «وكان طبيباً متميزاً خبيراً باللغة اليونانية والسريانية. ونقل من اليوناني إلى السرياني كتباً كثيرة وخدم بصناعة الطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل. وكان يعتمد عليه كثيراً ويسميه مفرج كربى»<sup>٢</sup>.

وحدث إبراهيم بن العباسي بن طومار الهاشمي قال: «كان الموفق إذا جلس للشراب يقدم بين يديه صينية ذهب ومغسل ذهب وحزداذي بلور وكوز بلور. ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه ويقدم إليه مثل ذلك»<sup>٣</sup>.

لقد نقل يوحنا بن بختيشوع عدة أسفار من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية.

وله من الكتب: كتاب في ما يحتاج إليه الطبيب من علم النجوم.

## - ابن الطيب

هو أبو الفرج عبدالله بن الطيب. رأى نور الحياة في بغداد وهو من أشرفها وأعيانها. كريم النسب عريق الحسب. وقد امتاز بجنوحه إلى الدين فصار كاهناً. ثم انتخبه الجاثليق إيليا الأول (١٠٤٩م) كاتماً لأسراره فقام بأعباء وظيفته خير مقام.

ومما يروى عن تقواه: أن رجلين من بلاد العجم قصدها للقراءة عليه والعمل عنده. ولما وصلا بغداد كان أبو الفرج في الكنيسة. فدخلاها فشاهدها لابساً ثوب صوف، وهو

١. الموفق بالله (طلحة بن المتوكل) (٢٧٨هـ/ ٨٩١م) أمير عباسي والد الخليفة المعتضد. كان ولياً للعهد في خلافة أخيه المعتمد وكان الحاكم الفعلي بسبب ضعف أخيه. قضى على ثورة الزنج بمعاونة لؤلؤ عام ٨٨٣م.

٢. عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٠٢.

٣. عيون الأنباء، ١: ٢٠٢.

مكشوف الرأس ويديه مبخرة بسلاسل يدور بها في نواحي الكنيسة ويبخّر. فأخذ العجب منها مأخذه إذ رأياه على هذه الهيئة ويقوم بهذا الفعل، وهو من أجلّ الحكماء المعروفين في أقاصي البلاد بالفلسفة والطب<sup>١</sup> ففهم منها ما هما فيه.

ولما فرغ وقت الصلاة وترك الناس الكنيسة، خرج أبو الفرج بن الطيّب ولبس ثيابه. ثم قدّمت له البغلة فركبها والغلمان حوله والرجلان يتبعانه. ولما دخلا في جملة المشتغلين عليه جعل يياطلهما بالقبول ريثما يحين أوان الحج. فقال لهما حينئذٍ: «هل حججتما قط؟»  
قالا: «لا».

فقال: «إن كنتما تريدان أن تقرأ عليّ وأن أكون شيخكما فحجّبا. وإذا جئتما بالسلامة - إن شاء الله - يكون كلّ ما تشتهيان مني».

فلما عادا من الحج إذ هما أقرعان وقد غلب عليهما الشحوب. فسألها عن مناسك الحج وما فعلا فيها. فذكرتا صورة الحال، فقال بهما: «لما رميتما الجمار<sup>٢</sup> بقيتما عريانين موشحين وبأيديكما الحجارة وإنما تهرولان وترميان بها؟»  
قالا: «نعم».

فقال: «هكذا الواجب. إن الأمور الشرعية تؤخذ نقلاً لا عقلاً». فأدركا السرّ من أمرهما بالحج<sup>٣</sup>.

كان أبي الطيّب طبيباً ماهراً عظيم الشأن جليل القدر واسع العلم. فقد أقامه الخليفة القائم بأمر الله<sup>٤</sup> رئيساً على المستشفى العضدي وعالج بجد وإخلاص مرضاه ودرّس فيه سنين عديدة علوم الطبّ. هذا فضلاً أنه كان فيلسوفاً خبيراً مطلعاً على كتب الأوائل. وأما شروحه وتعليقاته على الكتب القديمة فمعروفة ولا سيّما في كتب المنطق وأسفار أرسطو

١. لم يكن يعلم أنه كاهن وعليه واجب التبخير أثناء الصلاة لأن ذلك من واجباته.

٢. الجمار: جمع جمرة بالفتح وهي الحصاة.

٣. عيون الأنبياء ١: ٢٣٩-٢٤١.

٤. القائم بأمر الله (عبدالله بن القادر) الخليفة العبّاسي السادس والعشرين (٤٢٢-٤٦٧ هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥ م). في أيامه كانت فتنة الباسيري فاستنجد بطغرل بك لحمايته من البويهيين.

ومؤلفات جالينوس<sup>١</sup>. ويظهر أنه عرب من السريانية كتاب الديايطرون<sup>٢</sup> من نسخة بخط عيسى بن علي المتطبّب تلميذ حنين بن إسحق.

ولابن الطيب جماعة من التلاميذ سادوا وأفادوا منهم: المختار بن الحسن ابن عبدون المعروف بابن بطلان. فقد قال: «شيخنا أبو الفرج ابن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه كاد أن يلفظ أنفاسه فيه، وهذا يدلنا على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه»<sup>٣</sup>.

ولأبي فرج بن الطيب كتبٌ عديدة منها: «تفسير كتاب جالينوس لحيلة البرء»، وكتاب تدبير الصحة، وتفسير مقالات أرسطو، ومقالات مهمة في الولادة والنبات والعمور والشعر، وكتاب فردوس البيعة يتضمن: شروحًا في العهد القديم والجديد ومقدمة على المزامير في أحد عشر بابًا. وتفسير المزامير، وتفسير تسابيح موسى وأشعيا، ومقدمة على الإنجيل وتفسير الأناجيل الأربعة، ومقالات لاهوتية في التثليث والأقنوم والطبيعة، كتاب في التوحيد، وكتاب فقه النصرانية<sup>٤</sup>.

جاء في تاريخ مختصر الدول لابن العربي: «وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمئة توفي أبو الفرج عبد الله بن الطيب وهو عراقي، فيلسوف فاضل مطلع على كتب الأوائل وأقاويلهم، وعنى بشروح الكتب القديمة، في المنطق وأنواع الحكمة. من تأليف أرسطوطاليس ومن الطب كتب جالينوس وبسط القول في الشروح بسطًا سافياً قصد به التعليم والتفهم»<sup>٥</sup>.

ووافق في كتاب أخبار العلماء للقاضي جمال الدين القفطي: «لقد رأيت من يتحل هذه الصناعة يذمّ أبا الفرج ابن الطيب بالتطويل. وكان هذا العائب يهوديًا ضيق الفطنة قد وقف على عبارة ابن سينا. فأما أنا وكلّ منصفٍ فلا نقول إلا أن أبا فرج بن الطيب قد أحيى من هذه العلوم ما دشر وأبان منها ما خفي»<sup>٦</sup>.

١. بطرس نصري، ذخيرة الأذهان، ج ١، ص ٤٦٣.

٢. الديايطرون: كلمة يونانية مركبة بمعنى من خلال أربعة.

٣. تاريخ مختصر الدول، ص ١٣٣.

٤. بطرس نصري، ذخيرة الأذهان، ج ١، ص ٤٦٣. وكتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، عدد ٦٧.

٥. تاريخ مختصر الدول، ص ٣٣٠.

٦. أخبار العلماء، ص ١٥٠.



## - ابن بطلان

هو الحكيم أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون المعروف بابن بطلان. قرأ الطب من علماء زمانه من نصارى الكرخ وتلمذ لأبي الفرج عبدالله بن الطيب. وزاول أمور المعالجة لدى الطبيب أبي الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني.

كان ابن بطلان مشوّه الخلقة غير صبيحها. وقد سافر إلى الجزيرة والموصل وديار بكر، ثم دخل حلب وأقام فيها، وهناك اجتمع بطبيب نصراني يعرف بالحكمي أبي الخير بن شرارة. ثم توجه من حلب إلى مصر حيث التقى بالفيلسوف ابن رضوان المصري وجرت بينهما منافرة. ثم ذهب إلى أنطاكيا ونزل بعض ديرتها وترهب وانقطع إلى العبادة حتى توفي.

لقد جادل الطبيب ابن بطلان من جادله وناقش من ناقشه. فكتب إلى الفيلسوف ابن رضوان رسالة يقطعه فيها ويذكر معاييه ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم الأوائل. ورتبها على سبعة فصول، ختمها بقوله: «وليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب. فإن لنا موقف حساب ومجمع ثواب وعقاب. يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم. ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية في هلاكهم. وإنهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسببي ولا يغضون عنه كما أغضيت عن ثلب عرضي. فليكن من لقائهم على يقين ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين»<sup>٢</sup>.

قال القفطي: «المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم أبو الحسن الطبيب البغدادي المعروف بابن بطلان طبيب منطقي نصراني من أهل بغداد، قرأ على علماء زمانه من نصارى الكرخ»<sup>٣</sup>.

وقال ابن العبري: «وإن بطلان هذا، فهو طبيب نصراني بغدادي، وكان مشوّه الخلقة غير صبيحها كما شاء الله منه وفضل في علم الأوائل، وكان يرتزق بصناعة الطب. وخرج من بغداد إلى الموصل وديار بكر، ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها. وخرج عنها إلى

١. ابن رضوان، (علي) (توفي عام ١٠٦١): طبيب مصري، خدم الحاكم بأمر الله. له: «كفاية الطبيب في ما صحّ لدي من التجارب».

٢. روفائيل بابو اسحق، أحوال نصارى بغداد، ص ١٩٢.

٣. أخبار العلماء، ص ١٩٢.

مصر فأقام بها مدة قريبة واجتمع بابن رضون المصري الفيلسوف في وقته وجرت بينهما منافرة أحدثتا المغالبة في المناظرة. وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً على ابن رضوان وورد أنطاكيا وأقام بها. وقد سئم كثرة الأسفار وضاق عيشه عن معايشة الأغمار فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض الأديرة بأنطاكيا وترهب وانقطع إلى العبادة»<sup>١</sup>.

وقال ابن أبي أصيبعة: «وكان ابن بطلان أعذب ألقاظاً وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب وما يتعلق به. ومما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته التي رسمها بدعوة الأطباء. وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها»<sup>٢</sup>.

كان ابن بطلان من صدور الأطباء المعدودين عارفاً بفنون المعالجة وقد قضى معظم عمره متنقلاً في عدة مدن مستنهضاً على السير الحثيث في سبيل الكمال. فأفاد واستفاد على الرغم من العقبات التي اعترضت طريقه والاضطهادات التي أثار زوابعها أعداؤه.

ومن كتبه: تقويم الصحة، وكتاب الأمراض العارضة للرهبان، وكتاب شراء الرقيق وتقليب العبيد، ورسالة أدبية كتب فيها رحلته إلى الشام وجَّهها إلى بغداد إلى أبي الحسن هلال بن الحسن الصابئ سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٩م، نقل معظمها القفطي في كتابه أخبار العلماء<sup>٣</sup>.

## - سابور بن سهل

كان فاضلاً، عالماً بقوى الأدوية المفردة لبيهارستان جنديسابور ومعالجة المرضى فيه. وقد تقدّم عند الخليفة المتوكل (ت ٨٦١) وعند من تولى بعده من الخلفاء. وله مؤلفات منها: كتاب الأقرباذين الكبير المشهور، جعله سبعة عشر باباً وهو المعول عليه في البيهارستانات ودكاكين الصيادلة ولا سيّما أنه ظهر قبل ظهور الأقرباذين الذين ألفه هبة الله بن التلميذ المار ذكره (المذكور أعلاه). وكتاب قوى الأطعمة، مضارها ومنافعها وكتاب الرد على حنين بن إسحق في الفرق بين الغذاء والدواء المسهل. وكتاب القوم في النوم واليقظة. وكتاب إبدال الأدوية؛ وتوفي عام ٨٦٨م.

١. مختصر تاريخ الدول، ص ٣٣١.

٢. عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٤٢.

٣. كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، عدد ١٣.

٤. عيون الأنباء، ج ١، ص ١٦١. وتاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٥.

## - أبو الحسن بن المسيحي

وقيل هو أبو الحسين أو أبو نصر صاعد بن هبة الله بن المؤمل (المتوفى سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م) وأخوه الأركيذاقون أبو الخير بن المسيحي وهما أخوا الجاثليق سبريشوع المعروف بابن المسيحي<sup>١</sup>.

كان مولد أبي الحسن في الحظيرة، ثم نزل بغداد واسمه إذ ذاك ماري. وقد قرأ الأدب على أبي الحسن علي ابن عبدالرحيم العصار وعلى أبي محمد عبدالله بن أحمد بن الخشاب النحوي وعلى أشرف الكتاب بن حيا وغيرهم.

خدم الخليفة الناصر لدين الله (المتوفى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م) وتقرّب تقرباً كثيراً وكسب بخدمته وصحبته الأموال وله معرفة تامة بالمنطق والفلسفة وأنواع الحكمة.

صنّف كتاباً صغير الحجم سمّاه الصفوة، جمع فيه أجزاء الطب علميها وعمليها وألحق في آخر الفن الأول من الجزء الثاني ثلاثة فصول في الختانة.

قال ابن أبي أصيبعة: «وكان أبو الحسن هذا طبيباً فاضلاً وخدم بالدار العزيزة الناصرية الأمامية وتقرّب تقرباً كثيراً وكسب بخدمته وصحبته الأموال وكانت له الحرمة الوافرة والجاه العظيم»<sup>٢</sup>.

## - الأركيذاقون أبو الخير بن المسيحي

كان كأخيه من أطباء الدار الأمامية الناصرية (الخليفة الناصر لدين الله العباسي). وقد وضع كتاباً لخص فيه مباحث كتاب الكلّيّات من القانون سمّاه الاقتضاب واختصره ودعا المختصر انتخاب الاقتضاب.

١. الجاثليق سبريشوع (ت ١٢٥٧م) من أهالي بغداد. زهد في الدنيا وانخرط في سلك الرهبانية، أقيم مطراً على باجرمي ثم نصب جاثليقاً سنة ١٢٢٦م. شاد مدارس عديدة وأنفق الأموال الطائلة على مدرّسيها وتلاميذها. وساعد المحتاجين حريصاً على إقامة شعائر الدين. إزدادت القلاقل على أيامه وفشت الاعتداءات في أطراف البلاد التي جلت سنة ١٢٣٦م. أقام في مدة رئاسته ٧٥ مطراً وأسقفاً.  
٢. عيون الأنبياء، ١: ٣٠٣. أخبار العلماء، ص ١٤٥. تاريخ مختصر الدول، ص ٤١٦. ذخيرة الأذهان، ١: ٥٠١.

جاء في تاريخ مختصر الدول: «وحكى لي بعض الأطباء ببغداد، أن أباه حمله وهو مترعر إلى ابن التلميذ ليشغله فقال: هذا ابنك صغيرٌ جداً. فقال غرضي التبرك منك. فقرأه المسألة الأولى من مسائل حنين بن إسحق».

وورد في عيون الأنباء: «وصرف أبو الخير من الخدمة (خدمة الخليفة الناصر) وقد كانت منزلته قبل هذا جليلة عنده، ومحلّه مرتفع ووصله هبات وصلات عظيمة، فمن جملتها أنه أعطاه خزانة كتب الأجل أمين الدولة (هبة الله) بن التلميذ»<sup>١</sup>.

### - ابن ديلم

عاش في حدود سنة ٣٠٠ للهجرة/ ٩٠٠ ميلادية، وكان طبيباً في دار السلطان في الأيام المعتصدية. وله علو قدر، وسمو ذكر، وجودة معاناة ونال بصناعته دنيا واسعة، وأظهر التجمّل العظيم والرفاهية الزائدة<sup>٢</sup>.

### - أبو مخلد بن بختيشوع

هو من أحفاد أسرة بختيشوع الشهيرة بالطب. وقد تصرّف في صناعة الطبّ وعرف بها «وكان مبارك المباشرة، وعمّر طويلاً وهو محمود الطريقة، سالم الجانب»<sup>٣</sup>. توفي عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م.

### - أبو الخير بن أبي الفرج

يُعدّ من الجراحين الماهرين. وقد نال ممن راجعه الاستحسان والثناء. قال القفطي: «إنه طبيب جرائحي عالم بصناعة الجراحة. مشهور من أهل بغداد المقيمين بها المباشرين لأهلها»<sup>٤</sup>. توفي عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م.

١. معجم الأطباء لأحمد عيسى بك (مصر ١٩٢٤) ص ٩٠. وتاريخ مختصر الدول، ص ٤١٦. وذخيرة الأذهان، ج ١، ص ٥٠١.

٢. أخبار العلماء، ص ٢٨٥.

٣. أخبار العلماء، ص ٢٨٣.

٤. أخبار العلماء، ص ٢٦٥.

## - أبو الخير بن أبي البقاء

اشتهر بفنون الطبّ من النصارى في بغداد المسيحي بن أبي البقاء، وكنيته أبو الخير ويعرف بابن العطار (المتوفى عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م) فكان خبيراً بأصول المعالجة مقرّباً من دار الخلافة يطبّب النساء والحواضي، وقد ربح أموالاً كثيرة وعاش عمراً مديداً<sup>١</sup>.

ومما قاله القفطي عنه: «إنه خيرٌ بالعلاج، قيّم به، له ذكر وقرب من دار الخلافة، يطبّب النساء والحواضي (الحواشي)، ويطأ بساط الخليفة لأجل ذلك. وكان الإمام الناصر لدين الله أبو العباس يقدّمه على أمثاله»<sup>٢</sup>.

## - أبو علي بن أبي الخير

درس الطبّ على يد والده المسيحي المار ذكره أعلاه. وتقدّم في أساليب الطبّ حتى أقيم ساعوراً في البيمارستان. وكان يرسل إلى أماكن نائية ليتفقد المرضى من الأمراء والأعيان.

بيد أنه بعد وفاة أبيه زال ما كان يحترم لأجله إذ لم يعد رشيداً ولا محموداً الطريقة فأنفق أمواله وبذر ذخائره<sup>٣</sup>.

## - الطيب كثيفات

خدم البساسيري<sup>٤</sup> خدمةً صادقة. ثم لحق به يوم خرج من بغداد مغاضباً للقائم بالله الخليفة ولوزيره ابن مسلمة. وكان: «معروفاً بالعمل غير موصوف بعلم، ارتفع بصائب معالجته»<sup>٥</sup>.

١. تاريخ مختصر الدول، ص ٤١٩.

٢. أخبار العلماء، ص ٢١٨.

٣. تاريخ مختصر الدول، ص ٤١٩. أخبار العلماء، ص ٢١٨.

٤. البساسيري (ت ٤٥١هـ / ١٠٦٠م) قائد تركي ثار على الخليفة القائم بأمر الله العباسي. قضى على فتنة طغرل بك.

٥. أخبار العلماء، ص ١٧٦. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٤.

هذه الكوكبة من الأطباء الذين اشتهروا في (العصر) العباسي وبرعوا، ليس بالطبّ فحسب، بل بالعلوم الكيميائية والفلكية والتنجيم. وكانوا باقّةً إلى جانب الأطباء المسلمين التي لا ينازعهم أحد في صناعتهم كابن سينا وابن رشد والرازي وابن جبير وابن جابر الكوفي. وكان من نتيجة هذا الازدهار العلمي الباهر الذي امتاز به العصر العباسي أن ظهر إلى الملأ التأثير الطبي ليس في الجزيرة والبلاد المفتوحة ولكن رأينا التأثير واضحًا في أوروبا.

### - يحيى بن إسحق

إشتهر في العصر العباسي وبرع في صناعة الطبّ. قال عنه ابن حجة الحموي<sup>١</sup>: إنه نصراني المذهب، حاذقًا في صناعة الطبّ، استوزره عبدالرحمن الناصر لدين الله في الأندلس.

---

١. ابن حجة الحموي، ثمرات الأعراق، ص ٥١.

\*\*\*\* الفصل التاسع \*\*\*\*

أحوال السريان في الدولة العبّاسية

بعد انتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد، إثر سقوط الأمويين في الشام وقيام العباسيين في العراق، وسَّع الخلفاء العباسيون تطوير الدواوين على حسب النظام الساساني الفارسي، ووضعوا في كل ولاية ديوانًا للخراج مسؤولاً عنه موظف كبير، ينفق منه على الولاية ويرسل الباقي إلى بغداد، حيث أن مجموع هذه الدواوين تسمى بيت المال في ديوان الزمام، ويقول الجهشيارى<sup>١</sup> في كتابه الوزراء: إن أبو العباس السفاح<sup>٢</sup> وقد وضع على بيت المال خالد بن برمك ليكون أميناً عامًا، بالإضافة إلى ذلك ولّاه ديوان الجند وترتيب أمور رواتبهم ومصاريقهم. وقد وضع لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها<sup>٣</sup>.

ولكن أهم الدواوين التي وضعت في العصر العباسي هو ديوان الرسائل، فقد لعب دورًا هامًا وبارزًا في النهضة العربية لأنه كان يصدر رسائل الخلفاء وإلى جانبه ديوان الخاتم الذي تحتّم فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها<sup>٤</sup>.

وهناك أيضًا ديوانٌ يختصّ بالنظر في المظالم، وديوان الخبر الذي كان يختصّ بجمع أخبار الخلافة. وقد قال الطبري<sup>٥</sup> في تاريخ الأمم: إن هذا الديوان كان يحصي كل كبيرة وصغيرة للوالي ومن ورائه قواد الجيش والقضاة وعمّال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم وبدوره يبلغها للخليفة<sup>٦</sup>، وقد لعب هذا الديوان مركزًا أساسيًا في

١. الجهشيارى (أبو عبدالله محمد) (ت ٢٩٤٢) مؤرخ بغدادى كوفى الأصل، اشتهر بكتابه «الوزراء والكتاب».

٢. أبو العباس السفاح (عبدالله): أول الخلفاء العباسيين (١٣٢-١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٤م) وُلد بالشرية عام ٧٢٢م، قاد الثورة على الأمويين بعد وفاة أخيه إبراهيم عام ٧٤٨م، بويح له بالخلافة في مسجد الكوفة. إنتصر على مروان الثاني في معركة الزاب. إتخذ الأنبار عاصمة له. أمر بإبادة الأمويين.

٣. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية وعلاقتها بالدانات الإسلامية، ص ١٥١.

٤. د. حسين كرنيب، المصدر السابق، ص ١٥١، الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٨٩.

٥. الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م) مؤرخ ومفسر وفقه شافعي، حاول أن يكون له مذهب خاص. وُلد في آمل بطبرستان. إستوطن بغداد وتوفي بها - مؤلف مشهور. من كتبه: «جامع البيان في تفسير القرآن» يعرف بتفسير الطبري، و«تاريخ الأمم والملوك» يعرف بتاريخ الطبري، وله «اختلاف الفقهاء» و«آداب القضاة» و«تهذيب الآثار».

٦. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٣٣٦.



إيصال الأخبار إلى جميع أقطار الخلافة، إذ كانت تركز عدة نقاط على طول الطرقات بين الأمصار العربية<sup>١</sup>.

## التنظيم الإداري

لا بدّ من إلقاء نظرة فاحصة ودقيقة على أهل الذمّة، وتوضيح ما إذا كان لهم دوراً «مهماً» في الحياة السياسية في الدولة العباسية. وكذلك في النظم الإدارية أم لا، أم أنهم تقلّدوا بعض المراكز في الإدارات العامة، وكيف أنهم اتقنوا صنعتها وبرزوا فيها خاصة في الدواوين والترجمة. وهنا لا بدّ أن نقول أن الدولة العباسية التي نهضت وانتصرت، ستذهب خاصة في اتجاه أهل الذمّة، وتبني سياسة التعاون مع هؤلاء. فالعباسيين بعد أن اطمأن حكامهم إلى تدعيم ركائز حكمهم، توجّهوا فعلاً نحو توطيد سياستهم الداخلية وخاصة ببيان الدولة الإداري، وهم ورثوا عن الأمويين معظم الإدارات مع موظفيها من غير المسلمين نظراً «لاتقانهم عدة لغات بالإضافة إلى العربية، إذ أن الحاجة إليهم ملحة ولكن السياسة التي اتبعتها العباسيون بتركهم في وظائفهم والتخلّص منهم تدريجياً» في بعض ظروف الخلافة، وإحلال العنصر المسلم مكانهم ملء الفراغ<sup>٢</sup>.

ولكن في الحقيقة لا ينكر دورهم بتبوئهم أكثر المراكز حساسية في بعض العهود العباسية إذ كان لهم حرية مطلقة في بعض الإدارات الخاصة بهم. فالمجتمع العباسي كان خليطاً من عدة مذاهب بالإضافة إلى العنصر الإسلامي، فالقرن الرابع الهجري يُظهر ما كان للمجوس من دور فعّال بالإضافة إلى دور المسيحيين واليهود وذلك بعد الاعتراف بهم ووضعهم في مصاف أهل الكتاب ومعاملتهم بنفس المعاملة ضمن النظام العباسي.

ولقد كان بين أهل الذمّة فروقات واضحة، فاليهود استطاعوا أن يكونوا مجتمعاً متجانساً، ويحافظوا على مركزهم السياسي ضمن الدولة العباسية<sup>٣</sup>، رغم أن المسيحيين

١. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٢.

٢. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥.

٣. آدم منز، الحضارة الإسلامية، ص ٧٨.

كان لهم المركز الأقوى في تلك الأثناء<sup>١</sup> وأما المجوس فاستطاعوا النفاذ إلى قلب الدولة الإسلامية باعتناق أعدادٍ مذهلة منهم الدين الإسلامي وبواسطتهم دخلت الحضارة الفارسية إلى قلب الجزيرة وتأثر الإسلام والمسلمين بهم حضاريًا وسياسيًا وتنظيميًا<sup>٢</sup>.

ويقول أحمد في كتابه<sup>٣</sup> واستنادًا إلى الصابئ أنه في القرن الثالث الهجري تولى ديوان الجيش العباسي مسيحي، وكان المسلمون يقبلون يده مما حدا بعلي بن عيسى أن يقول لابن الفرات<sup>٤</sup>: «أما اتقيت الله في تقليدك ديوان الجيش لرجل نصراني، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمثلون لأوامره؟ قال له ابن الفرات: ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدئته. وكان الناصر لدين الله<sup>٥</sup> قلّد الجيش لكاتبه النصراني إسرائيل، وقلّد المعتضد<sup>٦</sup> ملك بن الوليد النصراني كاتب بدر. فقال علي بن عيسى ما فعلا صوابًا. فقال ابن الفرات حسبي الإسوة بهما وإن أخطأ على زعمك<sup>٧</sup>.

ويقول ترتون المستشرق، بأن أهل الذمة قد انفصلوا إداريًا، ومن الناحية الدينية والمحاكم الشرعية كليًا عن الإسلام وأعطوا حق الأحكام عن أتباعهم حسب معتقداتهم. فقد كان لهم موظفون وإدارات ومحاكم مختصة بهم اختصاصًا لا علاقة لهم بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد سوى ما يتقدم به أحد المتخاصمين باللجوء إلى المحاكم الإسلامية للفصل بينه وبين خصمه. فيقول يكفي الإسلام إنه ربط قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية، والجنائية، والقضائية برؤسائهم الروحيين الذين كانوا يقومون مقام القضاة لتشمل أحكامهم الزواج والميراث والمنازعات التي تخصّ المسيحيين وحدهم.

١. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٤.

٢. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٤.

٣. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ٨٣.

٤. ابن الفرات (أبو الحسن علي) (ت ٣١٢هـ/ ٩٢٤م) وزير عباسي من الأدباء. نكبه المقتدر وقتله مع ابنه المحسن وألقى بها في دجلة. أفاض المؤرخون في ذكر أخبار آل الفرات ونكبتهم.

٥. الناصر لدين الله (أحمد بن المستضيء) الخليفة العباسي الرابع والثلاثين (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م) قضى على نفوذ قادة الجيش ووضع حدًا للتسلط السلجوقي. إشتهر بالحزم.

٦. المعتضد بالله (أحمد بن الموفق): الخليفة العباسي السادس عشر (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م) عقد صلحًا مع حمارويه الطولوني واقرن بابتته. هزم جيشه أبو سعيد الجنابي.

٧. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ٨٣.

ولكن الماوردي يؤكد ما ورد على لسان ترتون السابق ذكره، أن بعض الخلفاء عرف منهم تقليد القضاء من غير المسلمين ليحكموا بين أهل ملتهم ويكون بذلك استقلالاً تاماً من الناحية القضائية والإدارية للديانات غير المسلمة ضمن الدولة العباسية<sup>٢</sup>.

ويقول أحمد شلبي<sup>٣</sup> في موسوعته أن المسيحيين خاصة كان لهم استقلالاً ذاتياً في إدارتهم ومحاكمهم الدينية عن المسلمين فيهم يمتكمون للتوراة والإنجيل ضمن الدولة الإسلامية دون أي عائق أو مضايقة، بل بالعكس من ذلك فقد لاقوا التسامح والتشجيع وأيضاً الحماية لأحكامهم من قبل الجيش الإسلامي.

وقال ابن الأثير<sup>٤</sup> إنه في القرن الثالث للهجرة كان لعضد الدولة البويهية في بغداد وزير نصراني اسمه نصر بن هارون أذن له بعمارة البيع والأديرة وإطلاق الأموال لفقراء المسيحيين مع إحصاء عددهم.

ولكن أيام الخليفة المتوكل<sup>٥</sup> (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦م) وعندما استولى الجيش التركي على زمام الأمور للدولة العباسية، وأصبح يدير جميع إداراتها، وبدا لخلفاء صورة في الحكم، ونظراً لطغيان هذا الجيش وقساوته وتسلطه فسدت الإدارات وفسد نظام الجباية والخراج.

وانقسم الجيش العباسي إلى فرقي. كل فرقة تتعصب لجنسها، هذا فضلاً عن تدخل الولاة بشؤون الإدارات العامة تدخلاً جعل الرشوة هي رمز المعاملة، مما أدى إلى فساد مبرح ضمن الإدارة العباسية.

١. الماوردي (أبو الحسن) (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) فقيه شافعي من الكبار وُلد بالبصرة تولى القضاء في أيام القائم العباسي ببغداد. مال إلى المعتزلة. من كتبه: «أدب الدين والدنيا» و«الأحكام السلطانية» في السياسة المدنية الشرعية، «أعلام النبوة» «الحاوي» في الفقه.

٢. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٥٤.

٣. أحمد شلبي، موسوعة النظم الإسلامية، ج ٦، ص ١٥٧.

٤. ابن الأثير (عز الدين علي) (١١٦٠-١٢٣٤م) مؤرخ كبير، أخو مجد الدين المبارك بن محمد وضياء الدين نصر الله. مؤرخ كبير من آثاره «الكامل في التاريخ» و«أسد الغابة في معرفة الصحابة» و«اللباب»؟

٥. المتوكل على الله (جعفر بن المعتصم) (٢٠٦-٢٤٧هـ/ ٨٢١-٨٦١م) الخليفة العباسي العاشر (٢٣٢هـ/٨٤٧م) كان محباً للسنة، فحارب المعتزلة ورفع «المنحة» عن الناس. حاول نقل عاصمته إلى دمشق وعاد إلى سامراء حيث اغتاله القادة الأتراك بالاشتراك مع ابنه الأكبر المنتصر. كان موته بداية انحطاط الخلافة العباسية.

كل ذلك له تأثير سلبي على أهل الحكم، وعلى بقية السكان التي تعيش ضمن الدولة العباسية. فيقول روفائيل بابو إسحق<sup>١</sup>: «إن نصارى العراق ورؤساءهم كانوا يحترمون الخلفاء العباسيين ويتخذونهم قضاة وحكامًا في تدبير شؤونهم السياسية. ولا سيما في انتخاب الجثالقة<sup>٢</sup>، إذ أن المسلمين كانوا يتدخلون في بعض الأحيان لمصلحة الجثالقة في تنفيذ أحكامهم على الرعية.

فالخليفة المعتضد بالله بن الموفق (٢٧٩-٢٨٩هـ / ٨٩٢-٩٠٢م) بعد انتهائه من جمع المخالفات نصب من جديد الجاثليق يوحنا بن عيسى المعروف بالأعرج<sup>٣</sup>، وأنعم عليه بشوب ديباج وعكاز وحذا حذوه أكثر الخلفاء. كل ذلك يدلنا على مدى إطلاق الإدارية للبطريك أو الجاثليق بالتصرف بشؤون رعيته ضمن القوانين المتبعة لديهم، وحتى أن الخلفاء كانوا مولجين إلى حد ما بالتدخل لصالح الجاثليق في تطبيق هذه القوانين التي تعدّ الفريدة من نوعها إذا ما قورنت بالغرب المسيحي الصرف، وبالإضافة إلى ذلك فالمسلمون راعوا حقوق المسيحيين وبعض أهل الملل الأخرى، إذ استخدموهم في الدواوين وولّوهم ولاية على بعض المدن والقرى، وأمناء على الخزائن المالية.

ونتيجةً لذلك الوضع فقد قام المسيحيون بحسن تدبير الإدارات التي تولّوها على أكمل وجه وملأوا وظائفهم ورفعوا من شأنها إداريًا وتنظيميًا. ولا ننسى بأن أغلب تصاميم وزخرفة القصور كان من تصاميم المهندسين المسيحيين إذ برعوا في الزخرفة والنقوش<sup>٤</sup>. ولقد تسمّر المسيحيون (أو ثبتوا أنفسهم) على المناصب والراتب العالية والدواوين إبان الحكم العباسي، فقد برعوا بالتعريب لأرسطو وسقراط وجالينوس، وفي الفلسفة اليونانية<sup>٥</sup>، كما سيمرّ معنا لاحقًا.

١. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٢-٧٤.

٢. الجثالقة، مفردتها جاثليق. لفظة يونانية تعني العام (المطران العام) وهو بمثابة البطريك، وقد تعني الجامع، أو الجامعة القانونية.

٣. راجع عنه كتاب أخبار بطاركة كرسي المشرق (المجلد) لعمرو بن متى، ص ٩١-٨٤، وكتاب أخبار بطاركة كرسي المشرق (المجلد) لماري بن سليمان، ص ٨٥-٨٩.

٤. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٥، عن الباحث الفرنسي لابور.

٥. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٦.

ولكن آدم مبيّز يقول<sup>١</sup>: إنه عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م، أمر الخليفة المتوكل بأن لا يستعان بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامها على المسلمين، ولكن الخليفة المتوكل نفسه بعد عشر سنين وبمساعدة مهندس مسيحي بنى قصره الجعفري وصيّر إليه النهر بواسطته<sup>٢</sup>.

نعم اتبع المتوكل سياسة تختلف كلّ الاختلاف عن سياسة أسلافه، إذ انتبذ مذهب المعتزلة، ووضع حدًّا للمحنة، وعاد إلى السنة، وإذا كان مشهورًا بسورات الغضب التي كانت تنصبّ على المسلمين والمسيحيين على السواء، فغالبًا ما كان ندماؤه وحاشيته ضحايا نزواته، فضلًا عن تسنّته الصارم ضد المسيحيين فيقول صليبا: «إنه قتل كثيرًا من الكتاب واستصفى أموالهم وهدم منازلهم. ولقي أهل الذمة منه الشدائد وكلّ أذى ومكروه<sup>٣</sup>.

وفي عام ٨٥٠م، أصدر الخليفة المتوكل أمرًا ضد المسيحيين واليهود. ويبدو أن الدافع إلى ذلك كان حسد بعض المسلمين الذين أوغروا صدر الخليفة على أهل الذمة، لأنهم يشغلون مناصب مرموقة في الدولة، ولأن لهم نفوذًا كبيرًا في البلاط وحتى بالقرب من شجاع والدة الخليفة.

وقد يكون في الأمر أيضًا شيء من عدم الفطنة لدى المسيحيين أو نوع من الاستعلاء على المسلمين. وكان المتوكل بحاجة إلى دعم من الفقهاء السنيين، لذا فقد اضطر إلى تنفيذ بعض القوانين البالية ضد الذميين، تلك القوانين التي سنّها أسلافه بين فترة وأخرى، بالنظر إلى الظروف الطارئة والراهنة، والتي لم يكن لها أي أساس في القرآن، ولا في المبادئ الأخلاقية التي فرضها الأسلاف بشأن الذميين<sup>٤</sup>.

١. آدم منز، الحضارة الإسلامية، ص ١٠٦.

٢. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٦.

٣. المجادل، ص ٧١.

٤. إلا أن النقد المعاصر يعميل إلى الظن أن تلك الإجراءات لم تصدر إلا عن أصحاب المتوكل ذاته بتأثير من الفتح بن خافان التركي الذي كان مولى الخليفة وأغلب الناس عليه وأقربهم منه. المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٨٦.

وتنقسم هذه الأحكام إلى قسمين كبيرين يحتوي كل منهما على ست مواد: وتعتبر الست الأول منها أساسية ومتفقة مع روح الشريعة الإسلامية، وتهدف إلى حماية الإسلام. وتشكل مخالفتها خرقاً للعهود (المزعومة) الممنوحة لحماية المسيحيين وهذه هي:

- كل تهجم، وإن بالأقوال على المسلمين أو على القرآن أو على النبي.
- إهتداء مسلم إلى المسيحية.
- ظلم يُقترَف ضد مسلم أو ضد أمواله.
- كل صلة بامرأة مسلمة للزواج أو للفجور.
- مساعدة أعداء المسلمين.

أما الست الأخرى، فمن الأرجح صادرة عن الفقهاء، وهي تشكل خرقاً للعهود:

- منع قرع النواقيس وتلاوة المزامير علناً.
- عدم عرض الخمور والخنازير والصلبان أمام الأنظار.
- عدم إقامة بنايات أعلى من بيوت المسلمين.
- عدم الاحتفال العلني بالمآتم.
- منع ركوب الخيل واستعمال السرج لركوب البغال والحمير.

ويضاف إلى هذه الأحكام منع المسيحيين من استعمال أسماء أو ألقاب إسلامية، وغير ذلك من الأمور المشينة<sup>٢</sup>. وكانت نتيجة هذه المضايقات المتوقعة أن كثيرين من المسيحيين اضطروا إلى اعتناق الإسلام تخلصاً من الظلم والتعسف.

وفي سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، كان المسيحيون خصوصاً قد غلبوا على الطابع الكتابي في الدولة فأمر المقتدر بأن لا يبقى أحد من غير المسلمين في الدواوين والوظائف الإدارية عدا الطب والجهنزة.

١. من المصادر التي تذكرها: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤١٥، وج ١٣، ص ٣٦٢-٣٦٤. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٢٧-١٣٨. ابن الأخوة، معالم القريب، ص ٤١-٤٢. ابن الأزرق، بدائع، ص ٦٨٤-٦٨٨، إضافة إلى الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل بالتاريخ وغيرها.

٢. المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٨٦.

ويضيف قائلاً: إن بطريك اليعاقبة كان لا بدّ له أن يذهب إلى قصر الخلافة عند تنصيب كلّ خليفة جديد، ولكن أوائل القرن الثالث الهجري مُنع البطريرك أن يحضر إلى قصر الخلافة أو أن يتخذ بغداد مقرّاً له، واعتقد هذه كانت وشاية من الجاثليق النسطوري الذي كان يستأثر أن يكون وحده رأساً للكنيسة في بغداد.

## الوضع الاقتصادي والاجتماعي

على الرغم من الازدهار الذي عمّ معظم أراضي الدولة العباسية وبرزت حياة الترف والبذخ واللهاو إلى جانب الازدهار الاقتصادي العام بتوسّع التجارة الخارجية، برزت أيضاً الأيدي العاملة.

وقد كانت الحياة في مجملها العام حياة رفاهية وذلك بعد استتباب الأمن، فانصرف الخلفاء إلى توطيد دعائم حكمهم وتنظيم ولايتهم وإداراتهم، بالإضافة إلى تنظيم الجيش العباسي، فلا بدّ أن نعود بالذاكرة إلى أن المجتمع العباسي كان يتألف من عدة طبقات، وهذا ما أجمع عليه معظم المؤرّخون العرب إلى جانب طبقة المسلمين.

فإلى جانب هذا الازدهار الاقتصادي، لا بدّ أن ينشط الازدهار العمراني وترتفع معيشة حياة الفرد، ولكن هناك طبقات عاشت وارتقت ونعمت وبذخت وترفّعت بليالي ألف ليلة وليلة على حساب الطبقات الأخرى. يقول المسعودي<sup>١</sup>: «مبيّناً معالم البذخ عند الطبقة الحاكمة، قائلاً: إن زوجة الرشيد عندما أفتى لها القاضي أبو يوسف<sup>٢</sup> بإحدى القضايا أهدته حقاً من فضة بداخله حقان مملوء ان طيباً، وبأحدهم جام من ذهب مملوء دراهم، وبالثاني جام فضة مملوء ذهباً مع غلمان ويحوت من الثياب وبعض الدواب النادرة»<sup>٣</sup>. ويتفق جميع المؤرّخين العرب في تبيان موجة الترف التي كان يتمتع بها الخلفاء، وحاشيتهم ووزرائهم وولاتهم. وذلك بتفرّد

١. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، ص ٨٠.

٢. المسعودي (أبو الحسن علي) (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) مؤرّخ ورحالة من أهل بغداد من ذرية الصحابي ابن مسعود. رحل إلى بلاد كثيرة وأقام في مصر وتوفي فيها، اشتهر بتاريخه «مروج الذهب» و«معادن الجواهر» ومن كتبه الأخرى «التنبيه والإشراف».

٣. أبو يوسف القاضي (يعقوب بن إبراهيم) (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) وُلد في الكوفة، درس على أبي حنيفة، وكان أكبر أصحابه. تولى قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. أول من دعي بقاضي القضاة. له كتاب «الحراج» و«الرد على سير الأوزاعي».

٤. المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢-٦.

بخيرات المجتمع العباسي واقتصاده. فلا يحسبون أي حساب للمستقبل ولا حياة الرعية التي أوتمنوا على أرواحها ومعيشتها، وتحسين حياتهم، فلا ينظرون لمصير الدولة التي كان همهم البذخ وقلة الحرص على أموالها الطائلة وعدم إدراكهم بالسير نحو الهاوية.

يقول ابن خلدون<sup>١</sup> والطبري<sup>٢</sup> والمسعودي بأن الخليفة العباسي المأمون<sup>٣</sup> عند زواجه ببوران أعطاه ألف ياقوتة، وأوقد شموع العنبر، وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللاً بالدرر، ونثرت جدتها عليها حين جلس المأمون إليها، ألف درّة<sup>٤</sup>.

هذه كانت الصورة الحقيقية والأكيدة التي يرسمها لنا مؤرّخو ذلك العصر الذين بينوا الفروقات الضخمة بين معيشة طبقات المجتمع العباسي.

ويورد الطبري أيضاً عن المنصور<sup>٥</sup> قائلاً: بأنه فرض لكل شخص من آل بيته إلى جانب حياتهم الفاخرة بالذهب ألف ألف درهم في كل عام وذلك دعماً لثرواتهم الطائلة لتكون منفذاً لمزيد من حياة اللهو والصرف<sup>٦</sup>.

وإلى جانب هذا البذخ وحساب الأرقام الخيالية التي كانت بحوزة الخلفاء وأزواجهن وولاتهم ووزرائهم. يقول الجهشيارى: إنه كان لمحمد بن سليمان بن علي بن العباس والي البصرة إقطاعات لا تعد ولا تحصى تدرّ عليه يومياً مائة ألف درهم ربحاً<sup>٧</sup>.

١. ابن خلدون (عبدالرحمن أبو زيد) (١٣٣٢-١٤٠٦م) مؤرّخ وفيلسوف اجتماعي عربي من أعلام زمانه في الإدارة والسياسة والقضاء والأدب والعلوم. وُلد في تونس وتوفي في القاهرة. تولى أعمالاً سياسية في فاس وغرناطة وتلمسان ولقي دسائس ووشايات ثم توجه إلى المشرق واستقر في مصر وتولى قضاء المالكية. ألف في التاريخ فكان فيه مؤسساً رائداً لعلم فلسفة التاريخ والاجتماع وذلك في «مقدمته» الشهيرة لكتاب العبر، وقد أرسى فيها أسس علم الاجتماع.

٢. أحمد يعقوبي (ت بعد ٢٩٠٥) جغرافي ومؤرّخ بغدادي كثير الأسفار. اشتهر بكتابه «البلدان» دَوّن فيه ملاحظاته عن البلاد التي زارها. وله كتاب «التاريخ».

٣. المأمون (عبدالله بن هارون الرشيد) (١٧٠-٢١٨هـ/٨٣٣م): الخليفة العباسي السابع (١٩٨ هـ/٨١٣م) من كبار الخلفاء العباسيين. أمه جارية فارسية، قتل أخاه الأمين وخلفه. عني بالأدب والعلوم وأنشأ «بيت الحكمة» في بغداد فازدهرت في عهده حركة الترجمة والنقل. وناصر المعتزلة، وامتنح الناس في خلق القرآن فعرف هذا الامتحان «بالمحنة» خلفه أخوه المعتصم.

٤. ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٢٥١.

٥. المنصور (أبو الجعفر عبدالله) (١٥٨هـ/٧٧٥م) الخليفة العباسي الثاني، خلف أخاه السفّاح ١٣٦هـ/٧٥٤م، قتل قائده أبا مسلم الخراساني، أخضع العلويين وقضى على ثورة محمد ذو النفس الزكية في المدينة، وثورة إبراهيم أخي محمد في الكوفة، قمع فتنة المقتع في فارس. بنى بغداد عام ٧٦٢ ودعاها مدينة السلام وجعلها عاصمته. نظّم إدارة الدولة والمالية والبريد. توفي محرماً بالحج.

٦. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٧٦.

٧. الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٢٥٠.



وابن خلدون يقول: إن أكثر دخل بيت المال في عهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدينانير<sup>١</sup>.

ونأخذ أيضاً من المؤرخ ابن تغري بردي<sup>٢</sup> القائل: إن وزير المأمون عمرو بن مسعدة خلف بعد وفاته ثمانين ألف دينار، فنقل ذلك إلى المأمون، فقال المأمون: هذا قليل لمن أتصل بنا وطالت خدمته لنا<sup>٣</sup>... ويتابع القول: أمر المأمون لابنه العباس وأخيه المعتصم وعبدالله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار<sup>٤</sup>.

ويقول الجهشيارى: كان البرامكة ينفقون الأموال الطائلة على الكتاب والأطباء حتى قيل إنه لم يكن يرى لجلس خالد البرمكي داراً إلا وخالداً بناها له، ولا صنعة إلا وخالداً اتباعها له ولا دابة إلا وخالداً حمله عليها<sup>٥</sup>.

ويعود ابن تغري بردي قائلاً: إن موارد الدولة العباسية كانت كلها بيد يحيى البرمكي وولديه جعفر والفضل، أغدقوا على العلماء والأطباء والمترجمين والمغنين والشعراء، الأموال بل الثروات الضخمة وأكثر من ذلك كان الفضل بن الربيع يتباهى بالبذخ أمام الخلفاء، وبنو سهل وكبار الولاة والقواد من أمثال معن بن زائدة<sup>٦</sup> وابن أخيه يزيد بن مزيد الشيباني، وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبى وأخيه روح ومحمد بن عبد الطوسي وابن دلف العجلي وآل طاهر<sup>٧</sup>.

١. ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٢.

٢. ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف) (١٤١١-١٤٦٩): مؤرخ مصري، أشهر آثاره «النجوم الزاهرة» و«مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة» و«المنهل الصافي» أتم به «الروافي بالوفيات» للصفدي، و«حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور».

٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٢٧.

٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٠٥.

٥. الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ١٠٥.

٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٩٥.

٧. معن زائدة (ت نحو عام ٧٦٩م) من أشهر أجواد العرب، خدم الأمويين والعباسيين. ولأه المنصور اليمن، ثم سجستان وفيها اغتيل. أخباره كثيرة وللشعراء فيه مدائح ومراثب ومشهورة.

٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٩٥.

ويقول ابن خلدون<sup>١</sup> موضحًا هذه الناحية من الحياة الاجتماعية للعصر العباسي، والذي من الطبيعي أن يشيع في هذا الجو الحافل باللهو والترف والتأنق في الملابس والذي كان صداه بارزًا في بغداد بلبس الأزياء الفارسية، فكانت لكل طائفة زيتها المميز عن الأخرى، فالنساء أيضًا بالغن في لبس الحرير وأنواع العطور وبالأناقة وبتحليهن بعقود الذهب والياقوت.

## مكانة أهل الذمة في الدولة العباسية

برز أهل الذمة في الحياة الاجتماعية أيام الدولة العباسية، وأعلى شأنهم الخلفاء والأمراء والقواد الذين قرّبوهم من القصور والمسؤوليات، فتبوأ قسمًا منهم أعلى المراكز الحساسة في الدولة العباسية، وانفردوا بالمكانة العظيمة فيها، مع الانفراد الكلي بثقة الخلفاء وخاصة الأطباء منهم والمترجمين الذين برعوا في مداواة الخلفاء وأمرائهم وقوادهم، فدخلوا إلى قلوبهم من الباب الواسع بشكل لا يستطيع الاستغناء عنهم ولا حتى في المجالس الخاصة وموائدهم وسمرهم وأفراحهم وحتى مشاركتهم لأحزانهم، إذ كانوا يعدّون من المحظيين لديهم، وبنتيجة ذلك برز منهم الولاة والقواد والوزراء حتى غدوا في بعض الأحيان يأمرّون وينهون دون الرجوع إلى الخلفاء. ولكن في بعض العهود اضطهد البعض منهم وطرّدوا من وظائفهم الحكومية، وخاصة الإدارية، ورغم ذلك بقي قسمٌ منهم يحظى باحترام وثقة أهل الدولة.

يقول الجهشيارى<sup>٢</sup> عن جبرائيل بن بختيشوع<sup>٣</sup> عندما كان يختلي بالخليفة المأمون مبيّنًا له مصدر ثروته فيقول له: إن هذه النعمة التي أنعم بها لم آخذها منك ولا من أبيك، بل أخذتها من يحيى بن خالد البرمكي وولده، فيقول إن بختيشوع كان بروزه على يد البرامكة<sup>٤</sup>

١. ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٣.

٢. الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٢٦.

٣. جبرائيل بن بختيشوع (ت ٨٢٨م) طبيب الرشيد والأمين، سجنه المأمون ثم أعاده إلى خدمته. له مؤلفات في الطب والمنطق.

٤. البرامكة: أسرة فارسية من بلخ. تولى أبنائها الوزارة في عهد العباسيين. عظم شأنهم وقرّبوا الشعراء واشتهروا بالكرم. نغم عليهم هارون الرشيد ونكبهم منهم: خالد بن برمك (ت ٧٨٢) خدم السفاح. يحيى بن خالد (ت ٨٠٥) مؤدّب هارون الرشيد ووزيره، الفضل بن يحيى، أخو الرشيد بالرضاعة، ومؤدّب الأمين، توفي سجينًا بالرقعة عام ٨٠٥. جعفر بن يحيى قرّب الرشيد ثم انقلب عليه لأسباب غير واضحة وقتله في نكبة مشهورة تعرف بنكبة البرامكة عام ٨٠٣م.

ولكنه يتابع قائلاً إن المنصور كان غاضباً إلى حد ما على أهل الذمة وذلك بدعواه حماد التركي بتعديل السواد وقطع يد كل من يكتب لأحد العمال المسلمين عندها قطع حماد يد ماهويه (سَاهويه) جد سليمان بن وهب.

ويقول ابن أبي أصيبعة<sup>١</sup> أن سلمويه<sup>٢</sup> بلغ منزلة عظيمة عند الخليفة المعتصم<sup>٣</sup> إذ كان يشغله منصباً يضاهاه منصب الوزير وأكثر من ذلك أن الوثائق الرسمية (الملكية) لا تكون نافذة إلا بتوقيعه عليها، وعهد أيضاً لأخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة وخزانة بيت المال. والأكثر من ذلك أن المعتصم كان يزوره أثناء مرضه في منزله، وأثناء وفاته أصابه غمّاً شديداً، وأمر في يوم تشييعه بإحضار جثمانه إلى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب<sup>٤</sup>.

وابن الأثير يسرد وقائعاً تبيّن المكانة العظيمة التي تبوأها أهل الذمة في إدارت الدولة العباسية قائلاً: إن نصر بن هارون النصراني كان كبير وزراء عضد الدولة البويهبي<sup>٥</sup> (٣٣٧-٣٧١م) فقد حكم العراق وجنوب فارس، ويقول توماس أرنولد<sup>٦</sup> استناداً إلى الباحث لامنس<sup>٧</sup> إن دواوين الحكومة العباسية ظلّت إلى فترة متأخرة تعجّ بالموظفين الإداريين المسيحيين والفرس وتعتمد عليهم اعتماداً كلياً في تسيير شؤون الدولة الإدارية وخاصة الخراج، إذ بقيت الإدارة العباسية في مصر زمناً طويلاً تعتمد على المسيحيين الذين احتكروا هذه المناصب

١. ابن أبي أصيبعة (١٢٠٣-١٢٧٠م) طبيب دمشقي. عاش في مصر وسوريا اشتهر بكتابه «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء».

٢. سلمويه بن بنان طبيب المعتصم، كان نصرانياً حسن الاعتقاد في دينه، كثير الخير محمود السيرة وافر العقل جيد الرأي، عالماً بصناعة الطب، فاضلاً في وقته.

٣. المعتصم بالله (محمد بن هارون الرشيد) الخليفة العباسي الثامن (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م). خلف أخاه المأمون، استعان بالجنود والأتراك قضى قائده الأفشين على بابك الخزيمي في أذربيجان. هزم البيزنطيين واحتلّ عمورية. بنى سامراء ناصر المعتزلة وتابع ما بدأ به المأمون في امتحان الناس في خلق القرآن: «المحنة».

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ١٦٤.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ١٦٤.

٦. عضد الدولة (فتاحسرو) (٣٧٢هـ/٩٨٣م) أعظم ملوك بني بويه. ابن ركن الدولة. رعى العلماء والأدباء، مدحه المنيني، أنشأ البيهارستان العضدي في بغداد. إستوزر الصاحب بين عبّاد من آثاره بند أمير بشيراز.

٧. توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٢ و٨٣.

٨. لامنس (هنري) (١٨٦٢-١٩٣٧) مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي. اشتهر بأبحاثه عن عرب الجاهلية والعهد الأموي. من مؤلفاته العديدة «مهد الإسلام» «مكة قبيل الهجرة» «الطائف قبيل الهجرة» «الجزيرة العربية قبيل الهجرة» «الإسلام» «خلافة معاوية» «خلافة يزيد» «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» «تاريخ سورية» «أدار مجلة «المشرق».

احتكارًا قاطعًا لا ينازعههم عليها أحد، نظرًا لاكتسابهم تقنية النقل من اللغات الأجنبية إلى العربية. ولكن أرنولد يضيف قائلاً: أنهم جمعوا أموالاً باهظة في احترافهم لهذه الوظائف إلى جانب اعتمادهم على التجارة، ولكن ثرواتهم كانت محط أنظار وطمع الجشعين والمتعصبين من المسلمين وانتهازهم أقرب فرصة لاضطهادهم والإيقاع بهم<sup>١</sup>.

والجهشياري يجاري ابن الأثير في مكانتهم وعظمتهم عند بعض الخلفاء إذ قال: إن عضد الدولة أحدث في منصب الوزارة وزيرين معًا. وكان أحدهما هو ابن منصور بن هارون النصراني، وأبقاه على بلاد فارس، وأصبح له نظيرًا بالمشرق. وفي مصر خصوصًا، ففي سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، سار على نفس الخطى الخليفة الفاطمي العزيز بالله فقلّد وزارته لعيسى بن نسطوريس<sup>٢</sup>.

ويقول ابن قيم الجوزية<sup>٣</sup>: إن بني وهب أصلهم من نصارى العراق، تقلّد عشرة منهم أرقى المناصب في الدولة العباسية<sup>٤</sup>. ويؤكد ذلك الإمام السيوطي<sup>٥</sup> قائلاً: إن أحد أبناء وهب الذي تقلّد الوزارة سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م، كان مبرزًا مسرفًا أثناء حكمه، فاستدان أموالًا طائلة من الأغنياء حتى طالبه به أصحابها وقاضوه أمام القاضي ليحجز على أملاكه. ويتابع السيوطي قائلاً: إنه كان لا ينفع لشيء أثناء حكمه لأنه إنسان غير مدرك ومبذّر وعديم المسؤولية<sup>٦</sup>.

يقول الطبري موضحًا: إن المتوكّل في سنة ٢٣٥هـ/ ٨٣٩م، مخافة من عاقبة المسؤولية وسوء النية ولعدم ظلم المسلمين حسب اعتقاده قد أنهى الاستعانة بأهل الذمة في الدواوين وأعمال الخلافة، التي تجري أحكامها على المسلمين، ومنع أن يتعلّم أولادهم في

١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٦.

٢. الجهشياري، كتاب الوزراء، ص ٢٣٩.

٣. ابن قيم الجوزية (محمد) (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) فقيه حنبلي دمشقي وتلميذ ابن تيمية، سجن معه، قاوم الفلاسفة. مصنفاته كثيرة منها: «مدارج السالكين» «إعلام الموقعين» «الطرق الحكيمة» «الكافية الشافية» «شفاء الغليل» «روحنة المحتجين» «الفوائد» «أحكام أهل الذمة».

٤. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٦٩.

٥. السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن) (١٤٤٥-١٥٠٥م) عالم مشارك في أنواع العلوم. وُلد وتوفي في القاهرة. نشأ بيتيًا، رحل يطلب العلم إلى جميع البلاد العربية والهند. عمل بالتدريس، انقطع عن الناس في الأربعين من عمره وتفرغ للتأليف. له نحو ٦٠٠ كتاب في التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ. منها: «الدر المنثور في التفسير بالماثور»، «المزهر» في فلسفة اللغة، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة».

٦. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ٢، ص ١٢٧.

كتب المسلمين. وأن لا يعلم المسلم أحدًا منهم، ويتابع قائلًا أنه أيام المقتدر<sup>١</sup> والذي سار على نفس نهج سلفه الخليفة المتوكل قد خلعهم من المراكز الحساسة للدولة، وإثباتًا لذلك خلعه ابن دليل النصراني كاتب يوسف أبي السج ليضع مسلمًا مكانه<sup>٢</sup>.

لكن ابن الأثير يبيّن أن الخليفة العزيز بالله<sup>٣</sup>، كان يعتمد على أهل الذمة في تدعيم حكمه، فيعطيهم المراكز المرموقة في إدارات الدولة. فقد عين عيسى بن نسطوريس المسيحي وزيرًا له. ووضع يهوديًا واليًا يدعى منسى، فرفع بذلك منزلتهم أمام المسلمين فاستغلوا وآذوا المسلمين بتصرفاتهم التعصبية، فكتب أهل مصر رقعة وصنعوا صورة وأمسكوها بالرقعة ووضعوها في طريق العزيز مكتوبًا عليها: «بالذي أعزّ اليهود بمنسى والنصارى بعيسى وأذلّ المسلمين بك ألا كشفت ظلامتي». فلما شاهدها العزيز تأثر من شدة غيظه وغضبه، وتحقق من الأمر فقبض على الرجلين وصادر أملاكهما بعد عزلهما من وظائفهما<sup>٤</sup>.

وفي سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م و٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م، ولّى في مصر أبو نصر بن صدقة الفلاحى اليهودي فأسلم بعدها، وكان يدير الدولة يهوديًّا آخر هو أبو سعد التستري. وقد قال السيوطي، إن الشاعر المصري الحسن بن خاقان كان تأثره بالغًا، فأنشد قصيدته المشهورة وهي:

يهود هذا الزمان والمال قد بلغوا  
العزّ منهم والمال عند عموا  
يا أهل مصر إني نصحت لكم  
غاية آمالهم وقد ملكوا  
ومنهم المستشار والملك  
تهودوا قد تهود الفلك<sup>٥</sup>

١. المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد) الخليفة العباسي الثامن عشر (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) خلف أخاه المكتفي. حاول القضاء على نفوذ أمير الأمراء فقتل. في عهده ظهر الخلفاء الفاطميون في أفريقيا عام ٩٠٩، والأمويون في قرطبة عام ٩٢٩، وأغار القرامطة على العراق واحتلوا مكة عام ٩٣٠، ونقلوا الحجر الأسود إلى الإحساء.

٢. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٦.

٣. العزيز بالله (نزار بن المعتز) (٣٨٦-٤٤٤هـ/ ٩٥٥-٩٩٩م) خامس الخلفاء الفاطميين في مصر (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) فشل في احتلال حلب. إهتم بإصلاحات إدارية.

٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٨١ و ٨٢.

٥. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ٢، ص ١١٧.

فهذه الصورة التي بيّنها أعظم المؤرخين العرب تدلّ دلالة واضحة على أن أهل الذمة كان لهم المكانة العظيمة لدى أركان الدولة، رغم أنهم استغلوا وظائفهم ومراكزهم، حتى اغتاز عامة المسلمين من تصرفاتهم ووصفوا الزمان بمن فيه أنه أصبح يهوديًا، وما على المسلمين إلا أن يتهودوا ليرتقوا المراكز في الدولة.

وهنا تبرز ثقة الخلفاء بأطبائهم التي لا توصف، بإعلاء شأنهم، وتمييزهم عن الأطباء المسلمين في بعض الأحيان وجعلهم يأمنون على معظم أسرارهم الشخصية. ويذكر ابن تغري بردي مكانة طبيب الرشيد أنه في سنة ١١٢ هـ/ ٧٣٠ م، وأثناء انتقاله من الرقة إلى بغداد استظلّ تحت شجرة كاشفًا عن بطنه فإذا عليها عصابة من حرير. فقال هذه أكتمها عن أقرب الناس إليّ ولكن لا أكتمها عن طبيبي، فلكلّ من ولديّ الأمين والمأمون رقيب، فخرس ورقيب المأمون وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين. فمن ذلك نستنتج مدى ترابط العلاقة والثقة والإخلاص من الخلفاء لأطبائهم والذي لا يحظى بها حتى أقرب الناس لهم، إذ كانوا في بعض الأحيان يعدّون من كاتمي أسرار الخليفة وهم المنزلة العظيمة التي لا تتناقش عند رعايا بلاط الخليفة.

والرازي يقول<sup>٢</sup>: إن هذه الثقة التي وُلدت عند الخلفاء والتي كانت تجري بينهما المراسلة وخاصة عندما كان أهل الذمة يتقلدون مناصب أعلى من مناصب المسلمين في الدولة العباسية، فكان المسلمون يشمئزون في مخاطبتهم بوضع اسمهم في المنزلة الأولى، فيقول: لا بأس إذا كان هناك من منفعة لصاحب الرسالة، فذلك دليل قاطع لمكانتهم وفرض احترامهم على المسلمين وإذلالهم في بعض الأحيان وجعلهم يتوددون إليهم في سبيل نيل مبتغاهم أو رضاهم فهذا لم يكن جائزًا أيام الرسول محمد وخلفائه الراشدين.

ومما يذكر أنه في نهاية القرن الثامن الميلادي، أن أبا نوح الأنباري المسيحي كان كاتبًا لأبي موسى بن مصعب والي الموصل قد استغلّ وظيفته ونفوذه القوي لدى الخليفة والوالي على وجه التحديد وأخذ يميل في عمله لبني دينه<sup>٣</sup>.

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ١٠١.

٢. الرازي، الأصول الكافي، ص ٢١٣.

٣. توماس أرنولد، الدعوى إلى الإسلام، ص ٨١.

ولكن آدم ميتز<sup>١</sup> يبيّن في كتابه ضعف بعض الولاة في الدولة العبّاسية استنادًا لابن مسكويه<sup>٢</sup>، أنه في القرن الرابع الهجري كان أبو العبّاس الخصبي طوال الليل يحترق الخمر وينام في النهار طوال عمله وزيرًا ويترك أمر الرعية وتوقيع المعاملات والرسائل لعمّال الدواوين فاستغلّ ذلك أحد عمّال الدواوين أبو الفرج إسرائيل النصراني فكان يقرأ الرسائل ويوقع عليها حسب ما ترتبه لمنفعته الشخصية.

ولكن الخليفة المقتدر أمر بأن لا يستخدم أحدًا من اليهود والنصارى أو غيرهم من بقية أهل الديانات الأخرى إلا في الطبّ والجهدة. ولكن أمر الخليفة لم يتقدّ كليًا إذ قال الجهشيارى<sup>٣</sup> إن وزيره أبو الحسن علي بن الفرات كان لا يجلس إلى مائدة إلا حوله أربعة من النصارى كلّ يوم وهؤلاء كانوا من مجموع تسعة كتّاب كان يستخدمهم.

ولكن أرنولد<sup>٤</sup> يوضح من كان لهم المكانة في العهد العبّاسي إذ يقول: في عهد المعتضد سنة ٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م، كان عمر بن يوسف واليًا على الأنبار<sup>٥</sup> وهو مسيحي بحجة أن المسيحي إذا كان مخلصًا يكون أنفع من المسلم والسبب الثاني أن هناك أسباب عديدة لتفضيل المسيحي على اليهودي والمجوسي عند المسلمين.

ويضيف أرنولد<sup>٦</sup> قائلاً: إن الموقّ<sup>٧</sup> عندما كان وليّ العهد لأخيه المعتمد<sup>٨</sup> أوكل أمر تنظيم الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل، وقد اتخذ أيضًا ابنه المنصور نصرانيًا كاتبًا له وهو ملك أبو الوليد. وفي أيام المقتدر تولّى نصرانيًا آخر ديوان الجيش.

١. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، ص ١٧٩.

٢. ابن مسكويه، ج ٥، ص ٢٤٤-٢٤٥.

٣. الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٣٤٠.

٤. توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٨٢.

٥. الأنبار: أطلال مدينة في العراق على الفرات، عاصمة السفّاح قبل تأسيس بغداد. وهي محافظة في غرب العراق على الحدود السورية الأردنية، قاعدتها الرمادي، أفقيتها: الرمادي، القائم، عَنه، حديثة، هيث، الفلوجة والرطبة.

٦. توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٨٢.

٧. الموقّ بالله (طلحة بن المتوكل) (ت ٢٧٨هـ/٨٩١م) أمير عبّاسي، والد الخليفة المعتضد. كان وليًا للعهد في خلافة أخيه المعتمد وكان الحاكم الفعلي بسبب ضعف أخيه. قضى على ثورة الزنج بمعاونة لؤلؤ عام ٨٨٣.

٨. المعتمد على الله (أحمد بن المتوكل) الخليفة العبّاسي الخامس عشر (٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م) كان أخوه الموقّ الحاكم الفعلي فانتصر على الزنج، وحارب البيزنطيين. أعاد العاصمة إلى بغداد، توفي مسمومًا.

ويظهر من كلِّ ما مرَّ معنا في المكانة التي تتمتع بها المسيحيون خصوصًا، وبقية أهل الذمة من اليهود والصائبة والمجوس عمومًا في ارتقاء أعلى الوظائف الإدارية الحكومية في العصر العباسي. كان له الأثر البالغ في مسار السياسة والحياة الاجتماعية للعباسيين. ولكن كان هناك أسبابٌ أخرى لاضطهاد بعض أهل الذمة، من قبل بعض الخلفاء وهي معاملة المسيحيين أصحاب النفوذ والوظائف لبعض المسلمين وإساءتهم في استعمال سلطتهم مما أثار غيظ المسلمين واستياءهم القوي.



\*\*\*\* الفصل العاشر \*\*\*\*

حياة السريان الاجتماعية

## ١- أفراحهم:

الأعياد تختلف باختلاف المذاهب والأديان وحتى في طرق تطبيقها، وهي تختلف من عصرٍ إلى آخر وباختلاف الشعوب التي تتعاقب على العصور. واختلافها أيضًا يكون بين الشعب الواحد إذا تعددت بينه الديانات والمذاهب بتعدد العناصر والقوميات، حتى لو كان يعيش ضمن بيئةٍ واحدة، لذا لا نرغب في الدخول بهذه الأعياد ومراسيمها ووصفها، إنما نكتفي بأفراح الزواج عند النصارى وطريقته استنادًا إلى الرحالة العربي ابن جبیر<sup>٢</sup> فنقول: أثناء حفل الزواج يجتمع جميع أهل البلدة من النصارى مع معارفهم في البلدان المجاورة بعد إعلامهم بموعد الزفاف بواسطة رسولٍ يطوف عليهم في قراهم ومنازلهم مذيعةً الخبر، فيصطف يوم العرس الجميع على جانبي منزل العروس وتتقدم الجميع فرقة موسيقية عازفة أحلى الألحان وأجملها بواسطة الآلات المتوفرة لديهم آنذاك والمعروفة في ذلك العصر، ثم تخرج العروس من منزل والدها تتهادى كالغزال بين رجلين من أقاربها ويمسكانها من اليمين واليسار وتجرّ وراءها أذيال الحرير المذهب جرًا وعلى رأسها عصابة كأنها تاج الملوك، وهي تمشي بخطى قصيرة وبطيئة ويسير خلفها نظراؤها من النصرانيات يتهادين بأفخر وأحسن وأجم الملابس والزينة ويستمر الموكب يشق غمام أمواج البشر حتى تصل إلى دار زوجها، وبعدها يقيمون الولائم طيلة يوم الزفاف<sup>٣</sup>.

١. عن الأعياد راجع البيروني، الآثار الباقية.

٢. ابن جبیر محمد بن أحمد، (١١٤٥-١٢١٧م) رحالة أندلسي وُلد في بلنسية وتوفي في الإسكندرية. زار مصر ومكة والعراق وسوريا. اشتهر بكتابه المعروف برحلة ابن جبیر.

٣. أمينة البيطار، الحياة السياسية في بلاد الشام، ص ٣٥٥.

## ٢- أتراحهم:

من العجب أن لا نرى مؤرخاً مسيحياً يصف وصفاً دقيقاً لجنازة أحد الموتى النصارى حتى نستطيع استكمال الصورة الواقعية لبحثنا، ولكن أغلب المؤرخين ركزوا في معظم كتبهم على فترة الظلم والاضطهاد التي صادفتهم لتكون في مصاف أتراحهم، ولكن أتراح الفرد وعائلته تركت جانباً لنحصل على صورة قائمة فقيرة من واقع المراسم الجنائزية بالمعنى الصحيح، ولكن اعتمدنا في بحثنا الجانب الجماعي للأحزان أي جانب الظلم والاضطهاد الذي مرّوا به، وطبيعي إذا كانت فئة من الشعب أو الأمة محرومة الحقوق ومضطهدة، وممنوعة من إبراز مواهبها، ومحرمًا عليها وعلى بعض أبنائها من ارتقاء سلام المجد ودخول الوظائف الحكومية العالية، وحتى من التعبير بها بالكلام، تتجمع هذه الصفات لتكوّن فترة مآسي صعبة لهذه الفئة المعينة والتعيّسة.

نرى بأن الخليفة المتوكّل<sup>١</sup> قد أمر بطرد النصارى واليهود والمجوس من الإدارات العامة للدولة، ومنعهم من الأعمال في دواوين السلطان التي تجري أحكامها على المسلمين، ورغم أن الدواوين وتعريبها كانت بحاجة ماسة إلى أهل الملل غير الإسلامية عامة والمسيحيين والمجوس بوجه خاص، نظرًا لأن هاتين الفئتين تتقنان أكثر من لغة. فالمجوس هم أسياد من نظّم الدواوين والإدارات قبل دخول الإسلام لبلادهم وإلى جانب ذلك فقد منع أولادهم من التعلّم في مكاتب المسلمين وكتب إلى عماله يحضّمهم على ذلك معللاً ذلك بأنه يريد إعزاز الإسلام وإذلال الكفار.

ففي سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦م، إثر مقتل يزيد بن مخلد الهبيري على يد الروم وتولية هرثمة بن أعين الصائفة، خرج الرشيد<sup>٢</sup> ليكون قريباً من العمليات فأصرّ بهدم كنائسهم

١. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ١، ص ٤٢ و ٤٣.

٢. هارون الرشيد: الخليفة العبّاسي الخامس (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) من أشهر الخلفاء العبّاسيين ابن المهدي والخيزران ولد بالري. تولى بعد اغتيال أخيه الهادي. حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكماً على المقاطعات الغربية وبلغ أبواب القسطنطينية. أقر الأمن في المقاطعات الفارسية وولى الأغالبة. في شمالي أفريقيا. قامت علاقات بينه وبين شارلمان ملك الفرنج. ازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم ولعب البرامكة دوراً هاماً قبل أن ينكبهم. قبره في طوس.

ويوتهم وحناتهم كردّ فعل، وألزمهم بتغيير زيّهم وهياّتهم وخاصة في بغداد ليكونوا على معرفة من الجميع<sup>١</sup>.

لكن المتوكّل عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م، أمر بهدم بيعهم المحدثّة وبأخذ العُشر من منازلهم، وإذا كان الدار واسعًا صودر وبني مسجدًا، وإن لم يصلح جعله أرضًا ممسوحة، فمن هذه الإجراءات التي نذرت عليهم بالشؤم والاضطهاد فقد أمر بوضع صورٍ للشياطين على أبواب دورهم تفريقًا بينهم وبين المسلمين، وتأكيدًا لما ذكره أحمد أمين فإنه أمر أن لا يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان وأن لا يظهروا في أعيادهم وشعائنيهم<sup>٢</sup> صلبانًا، وأن لا يحملوا الشموع في الطريق، وإلى جانب ذلك أمر (ب) تسوية قبورهم مع الأرض<sup>٣</sup>.

وعندما تولى الجيش التركي زمام الأمور وبدأ الاضطهاد والتعسف ومصادرة أموال الأغنياء من النصارى مع أمتعتهم، ويظهر لنا هذا التعسف جليًا حينما وصل ذلك إلى أحد كتّاب ديوان الخليفة المعتزّ سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦م و٢٥٥ هـ/ ٨٦٨م، عيسى بن فرخشاه، فأشبعوه ضربًا، وغضبوا على بختيشوع بن يحيى المتطبّب فأخذوا مدخراته، واعتدوا على إبراهيم بن الجنيد حتى أقرّ ما بحوزته وكانت سبعين ألف دينار فصادروا المبلغ، بالإضافة إلى مصادرة أموال علي بن زرعة الوافرة، وأوقعوه في محن حتى أصيب بالفالج.

كذلك أن العمّال المحليّون يشاركون الجيش التركي في ظلم الإنسان. فانتشرت الاضطرابات الداخلية فكان للمسيحيين الحظ الأوفر إذ عانوا الأمرين ولا سيّما في عهد

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ص ٢٠٦.

٢. الشعانين (السعانيين) عيد الأحد الذي قبل الفصح (القيامة) واللفظة عبرانية مأخوذة من «هوشعيه نا» أي خلصنا. وكان يسمّى بالعربية بعيد السباسب أي الأغصان. وذلك لما كان المسيحيون يرفعونه بأيديهم من أغصان الزيتون وسعف النخل.

٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٦.

٤. المعتز بالله محمد بن المتوكّل، الخليفة العبّاسي الثالث عشر، (٢٥٢-٢٥٥ هـ/ ٨٦٦-٨٦٩م، تولى بعد عزل المستعين، عزله القادة الأتراك.

الجاثليق يوحنا بن نازوك<sup>١</sup> المتوفي عام ١٠٢٢. وطال ذلك إغلاق مدارسهم ونهب ديارهم وكنائسهم<sup>٢</sup>.

### ٣- سكنهم:

مرّ أهل الذمة سيّما المسيحيون منهم - كما ذكرنا - بفتراتٍ عصيبة خاصة أيام المتوكّل والحاكم بأمر الله<sup>٣</sup>، فقد لاقوا أحكامًا جائرة في حقهم، وظلمًا متعمدًا لهم حتى أن هذه الأحكام تعدّت إلى سكنهم ولباسهم. فيقول الماوردي: إنه في القرن الرابع الهجري/ التاسع الميلادي، أمر المتوكّل أن تكون بيوتهم أقلّ علوًا من بيوت المسلمين، وإن صادفوا وملكوا بيوتًا عالية منعوا من الإشراف على مساكن المسلمين<sup>٤</sup>.

ويقول الطبري: رغم أن المتوكّل حارب النصارى بشكلٍ جائر بعد أن أمرهم كما مرّ معنا بوضع صور للشياطين على مداخل بيوتهم فمن ناحية ثانية استعان بهم في بناء قصره في سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، المسمّى بالجعفري بعد أن أجرى إليه نهرًا، فكان ذلك من تصميم دليل بن يعقوب النصراني<sup>٥</sup>.

### ٤- لباسهم:

وهنا يطالعنا الطبري بوصفٍ دقيق وحسٍ للنظام الذي اتبعه الخليفة المتوكّل في فرض اللباس على أهل الذمة - لتمييزهم عن بقية المسلمين بالإضافة إلى تمييز بيوتهم فيقول إنه في ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م: أمر الخليفة المتوكّل بأن يلبسوا كلّهم طيالس عسلية ويشدوا في وسطهم

١. يوحنا بن نازوك، من أهل شرز المقيمين بعلتانيا، أسامه بن طوبى أسقفًا على الحيرة. ولما مات يوانيس سيم فطريكا بدير المداين في خلافة القادر يوم الأربعاء ١٩ تشرين الثاني سنة ٤٠٢هـ، وهي سنة ١٣٢٤ يونانية / ١٠١٤م. كان كاتبه الفيلسوف الماهر والقسيس الشيخ أبو الفرج ابن الطيب. ومات يوم السبت ٢٨ تموز سنة ١٣٣٣ي/ ١٠٢٣م، ودفن بدار الروم. (راجع عمرو بن متى، أخبار فطارة كرسى المشرق، ص ٩٦-٩٧).

٢. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧١. لويس شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، ص ٢٦.

٣. الحاكم بأمر الله منصور، (٩٥٨-١٠٢١م) الخليفة الفاطمي السادس. خلف أباه العزيز (٣٨٦هـ- ٩٩٦م) اشتهر بالظلم والاستبداد. قام بالدعوة له الدرزي وحمة بن علي مؤسس المذهب الدرزي - اغتيل واختفى أثره.

٤. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٦.

٥. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٥٦.

الزنانير ويركبوا السروج بركب من خشب وفي مؤخرتهم كرتين، ومن يلبس قلنسوة شبيهة بقلنسوة المسلمين يجعل عليها زرين كعلامة فارقة، وأجبرهم بجعل رقعتين على ثياب ممالكهم بخلاف لون الثوبين، وأن إحدى الرقعتين مكانها على الصدر والأخرى خلف الظهر، وكلّ واحدة بمقدار أربع أصابع لونها عسليًا. وللمرأة منهم تلبس أزرار عسلية، وأمر أيضًا بهدم بيوتهم وكنائسهم المحدثّة<sup>١</sup>.

ويضيف الطبري<sup>٢</sup> أن هذه الإجراءات التي اتخذها المتوكل بدأت تخف تدريجيًا خاصة عندما صمّم وبنى له دليل بن يعقوب النصراني قصره المسمّى الجعفري، لكنه يقول إنه في العام ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م، أمر المتوكل أن يقتصر أهل الذمة في مراكبهم على البغال والحمير دون الخيل البراذين<sup>٣</sup>.

وابن تغري بردي يقول موضّحًا: إنه في القرن الثالث للهجرة، كثر استخدام أهل الذمة وخاصة المسيحيين واليهود في الكتابة وفي أمور المسلمين.

وفي سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، أمر الخليفة المعتزّ بأن لا يستخدم أحدًا منهم إلا في الطب والجهذة - كما مرّ معنا سابقًا - وأن يعودوا إلى نظام اللباس الذي فرضه الخليفة المتوكل عليهم سابقًا<sup>٤</sup>.

ويعود الطبري ليوضح: أنه في سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م، عاد استخدامهم في الدواوين بكثرة حتى ثار المسلمين عليهم وعمّت الفوضى البلاد<sup>٥</sup>. وتعلّل الدكتورّة أمينة البيطار<sup>٦</sup> إجراءات الخليفة هارون الرشيد ضد أهل الذمة بأنها ناتجة عن نصيحة القاضي أبو يوسف<sup>٧</sup> بسبب تجسّسهم في الثغور لحساب البيزنطيين أثناء القتال معهم. وقد ذكرت إجراءات

١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١، ص ٣١٣.

٢. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٥٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٣٥.

٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٨.

٤. ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٦٥. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٧١.

٥. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٣.

٦. أمينة الطبري، الحياة السياسية في بلاد الشام، ص ٢٥٣.

٧. أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم، (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م) وُلد في الكوفة، درس على أبي حنيفة وكان أكبر أصحابه. تولى قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. أول من دعي بقاضي القضاة له كتاب «الحراج» و«الرد على سير الأوزاعي».

أخرى وهي منع نسائهم من ركوب الرحائل وعدم إظهار صلبانهم في الأمصار الإسلامية، ومنع عليهم بيع الخمر أو الخنزير، وكانت قرارات المتوكل أيضًا مشابهة لقرارات الرشيد.

ويقول الكندي<sup>١</sup> أن عامل الرشيد على القضاء محمد بن مسروق قد تحامل على أهل مصر المسيحيين حتى أنه كان لا يطبق أن يسمع منهم كلامًا. وقال إنه في سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م، مؤكدًا ما جاء على لسان الطبري من فرض أحكام اللباس<sup>٢</sup>.

ويضيف الطبري قائلاً: إن المتوكل أجبر أهل الذمة بلبس ذراعين عسليتين على الأقبية والدراريع في المحرم، ثم في صفر بالاعتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين، وأن النصارى عندما خالفوا هذا النظام جعل شغب مع المسلمين وهدمت كنيسة إكليل يشوع عام ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م، نتيجة ذلك<sup>٣</sup>.

وكان لساقى الخمر نصيبٌ من هذه الإجراءات التعسفية، لأنه كان غير مسلم ففرض عليه نظامٌ لباسٍ خاصٍ به بالإضافة إلى اسمٍ مميزٍ فدعي بأذين أو مازيادا أو أزرانفاذا وغيرها، ويكون أرقط الثياب محتوم العنق<sup>٤</sup>.

وفي سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، صدر مرسومُ الخليفة القائم<sup>٥</sup> بإلزام أهل الذمة إعادة الملابس مثل أيام الرشيد والمتوكل كي يميّزوا عند المشاهدة واستدعي لذلك جاثليق النصارى إيليا الأول<sup>٦</sup> ورأس الجالوت اليهودي وجمع حافل من الأشراف ليكونوا على بيّنة من تطبيق هذه الإجراءات<sup>٧</sup>.

١. الكندي أبو عمر، (ت بعد عام ٩٦٦م) مؤرخ ومحدث مصري. من آثاره كتاب «الولاة والقضاة».

٢. الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٢٢.

٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٣ و٤٦.

٤. الجاحظ، البيان والتبيين، ص ٤١.

٥. القائم بأمر الله عبدالله بن القادر، الخليفة العبّاسي السادس والعشرون (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥م) في أيامه كانت فتنة البساسيري، فاستنجد بطغرل بك لحمايته من البويهيين.

٦. الجاثليق إيليا الأول، كان سيّدًا في علماء زمانه من أهل كرخ جذان، وكان أسقفًا على الطيرهان. في أيامه نهبت دار الروم والقلاية وذلك سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، فلما استقام أمر المملكة، ودخل جلال الدين إلى بغداد وملك العراق، وكان أبو الطيّب في أعلى منزلة جمع الآباء إلى بيعة الروم في يوم الأحد الرابع من عيد القيامة وجرى انتخاب إيليا الأول بأيام القادر الخليفة سادس عشر حزيران سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، وانحدر إلى دير مار ماري الرسول، وأصعد إلى بغداد وأقام بقلاية دار الروم ولقد مات ليلة السبت ٦ أيار ١٣٦٠ يونانية/ ١٠٥٠ ميلادية. ودفن بدار الروم في بيعة السيّدة (عمر بن متي، أخبار فطاركة كرسي المشرق، ص ٩٨-٩٩).

٧. ابن قيّم المنظم، ص ١٩٢.

وفي القرن الثاني للهجرة الثامن الميلادي كان اليهود يلبسون براطيل شبهها بعض الشعراء بالأميال الطوال أو المقاعيد على رؤوس القروء، والنصارى يلبسون في ذلك الوقت البرانس بعد أن صارت قديمة عند المسلمين<sup>١</sup>.

وفي سنة ١٩١ هـ/ ٨٠٦ م، أمر الخليفة العباسي هارون الرشيد السندي بن شاهك أن يخالف أهل الذمة هيئتهم في لباسهم، وركوبهم وخاصة في مدينة بغداد وكان ذلك نتيجة سوء العلاقات مع البيزنطيين، واختص أهل بغداد عن سائر الأقطار في التمييز. ومن هذه الإجراءات أيضًا أن لا يركب يهودي أو مسيحي على سرج، ومنع نسائهم من ركوب الرحائل<sup>٢</sup>.

وهنا يعطينا الأبيهي<sup>٣</sup> صورة واضحة ودقيقة عن الزي الذي فرض على الديانات الأخرى مجاريًا في ذلك الطبري وابن تغري بردي والماوردي وإن كان في وصفه بعض الزيادات يوضحها أكثر إذ قال نقلًا عن الإمام الشافعي<sup>٤</sup> ألزم أهل الذمة تمييز قلائسهم بالحمرة عن قلائس المسلمين. وأن يضعوا في رقابهم خاتم من قماش أو رصاص أو جرس يدخلون بها الحمام، وأحد خفيه أسود والآخر أبيض. ومنعهم أن يتصوّروا أو يتصدرّوا في المجالس وبالبدء بالسلام، وأن يلجأوا إلى أضيق الطرق للسير فيها، وأن لا يتناولوا أو يرتفع على المسلمين في البناء، ومنعوا من إظهار المنكر والجهر بالتوراة والإنجيل، ومنعوا من المقام في أرض وهي مكة والمدينة واليهامة<sup>٥</sup>.

ولكن بعد مدة طويلة من فرض هذه الإجراءات عن نظام الزي واللباس، وفي منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، أعاد الحاكم بأمر الله المسيحيين واليهود جميع الإجراءات التي كانت متبعة من قبله، وقد زاد عليها بأن ألبس العمام السود لليهود

١. الكندي، تاريخ الولاة والقضاة، ص ٤٢٤.

٢. الأبيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ١، ص ٢٠٠.

٣. الأبيهي بهاء الدين محمد، (١٣٨٨-١٤٤٦ م) أديب مصري له كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» في الأدب والحكم وأخبار العرب.

٤. الشافعي محمد بن إدريس، (١٥٠-٢٠٤ هـ/ ٧٦٧-٨٢٠ م) إمام، مؤسس أحد المذاهب السنية الأربعة، وُلد في غزّة ونشأ في مكة ولازم الإمام مالك في المدينة ودرس عليه. توفي بمصر وقبره معروف في القاهرة بسفح جبل المقطم. له تصانيف كثيرة، أشهرها كتاب «الأم» في الفروع، جمعه البيهقي وبوّه الربيع بين سليمان وله «المسند» في الحديث، و«السنن» و«الرسالة» في الأصول.

٥. الأبيهي، المستظرف، ج ١، ص ١١٢. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ١٠٠ ومجموعة كتاب الخراج لأبي يوسف، ص ١٢٧.



وأمرهم بأن لا يركبوا مع المسلمين جماعة. وجعل لهم حمامات خاصة على حدة. ولم يبقَ في ولايته دورًا ولا كنيسة إلاّ هدمها وأمر بتعليق الصلبان في أعناق المسيحيين طولها ذراع وزنتها خمسة أرطال بالمصري<sup>١</sup> وقد أمر اليهود بأن يعلّقوا في أعناقهم قرامة من خشب في زنة الصلبان، كما منعهم من استخدام المسلم كعاملٍ لديهم ومن شراء العبيد، وبنتيجة هذه الإجراءات والقيود التي لا تطاق أسلم الكثير منهم، ولكن بقي منهم في قصره بالتحديد كتابًا وأطبّاء من المسيحيين<sup>٢</sup>.

ولكن هذه الإجراءات الصارمة المفروضة تبعتها أحكامًا أشدّ لتنفيذها وفرض عقوبات صارمة لمن خالف ذلك، وكانت قاسية على أصحابها بلغت حدّ الصلب والقتل. فيورد المؤرخ الجهشيارى حادثة عن لسان محمّد بن الحصين الأهوازي أدت بصاحبها إلى الصلب. قال: أثناء جلوسنا مع جعفر بن يحيى أحضر صاحب الشرطة رجلاً خالف نظام اللباس ووضع بين يديه. فقال له: هل أنت الحرياني؟

أجابه: نعم.

فدارت المناقشة حول مخالفة اللباس والتفت جعفر إلى صاحب الشرطة وأمره بصلبه بعدها بالنيابة عن أمير المؤمنين على أطول عمود، وأثناء المسير التفت الحرياني إلى صاحب الشرطة وقال له إن شاء الله لا أحد يركب هذا العمود من بعدي غيره (أي جعفر) ومضت الأيام والسنين فإذا بنكبة البرامكة تحلّ بأهلها ويصلب جعفر على الجسرين في بغداد إلى قطعتين وبعدها مرّ الرشيد وسأل عن جثة الحرياني وأمر بإنزالها ووضع مكانها جثة أنيس بن أبي شيخ الذي أصدر الحكم عليه بصلبه على أطول عمود، وعندما رأيت أنيسًا على هذه الحال تعجبت من قول الحرياني ونقلته إلى الرشيد<sup>٣</sup>. ولكن ابن قيّم الجوزية<sup>٤</sup> ولو من باب الموافقة القليلة على الإجراءات التي برزت، بأنها إجراءات تعسفية كانت مفروضة أيام الرسول محمّد، إلّا أنه يتابع مدافعًا ومعللاً السبب في فرض هذا النظام، ويقول: إنني أكيد

١. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٥٥.

٢. د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٨٢.

٣. الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٣٨-٢٣٩.

٤. ابن قيّم الجوزية محمّد (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) فقيه حنبلي دمشقي. تلميذ ابن تيمية. سجن معه. قاوم الفلاسفة، مصنفاته كثيرة منها «مدارج السالكين وأعلام الموقعين»، «الطرق الحكمية»، «الكافية الشافية»، «شفاء الغليل»، «روضة المحبين»، «الفوائد».

بأن القرآن لم يتطرق إلى هذه الأمور ولا الحديث الشريف، وأن هذه الإجراءات ليس لها أساس ديني بل اجتماعي وسياسي وزماني مؤقت، وضع في بعض الأزمنة لغايات في نفس بعض الخلفاء وكاد أن يصبح عرفاً. وبعد استنتاجات طويلة، إن هذا الحكم كان لصالح أهل الذمة وليس ضدهم ولا لإذلالهم<sup>١</sup>.

## ٥- أعيادهم:

كانت الأعياد في الدولة العباسية تختلف باختلاف شعوبها، فكلّ مذهب أو طائفة لها تقاليدها في الاحتفال بأعيادها وتوقيتها، وإن كانوا يشاركون بعضهم في كثير من الأحيان خاصة بين المسلمين والمسيحيين، نظرًا لتقاربهم في السكن والمعيشة والبيئة المشتركة.

ولكن ابن الأثير يقول: أعياد النصارى كانت تقريبًا مختلفة حسب الأديرة.

فكلّ دير له تقاليد وأعياده مختلفة عن الآخر، ففيها يخرج الناس للهو والهزل والمحون ولكن أعيادهم العامة المتفق عليها عند الجميع هو عيد الميلاد، ففيه يكثر من إضاءة الشموع والنيران، وأيضًا عيد الشعانين، وعيد الزيتونة<sup>٢</sup>، فهو يصادف يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح المجيد في كلّ سنة. فالنصارى لهم عادات حلوة في هذا العيد، يحملون الصلبان ويتوشّحون بالناديل المنقوشة، ويحملون أغصان الزيتون مما يجعل روعة المنظر عند المسير وكأنها ضمن احتفالات ألف ليلة وليلة. فالدير الأعلى<sup>٣</sup> في الموصل كان يفاخر ويتباهى بالزينة، وروعة احتفاله. فيبدو هذا الدير وكأنه جنائن معلقة تسبح فيه الملائكة، ولا ننسى أيضًا عيد الفصح ففيه يعتقدون بقيام السيد المسيح بعد صلبه بثلاثة أيام.

أما دير سمالو شرقي بغداد فيخصّص لهذا الاحتفال، إذ لا يبقى أحدًا من الناس إلا ويتزيّن بأبهى الزينة وأفخر الملابس ويتوجهون للاحتفال بهذا العيد. ويقول ابن الأثير: إن

١. ابن قيم الجوزية، المنتظم، ص ٩٤-٩٥.

٢. ربما يقصد عيد الشعانين حيث كانوا يحملون بأيديهم أغصان الزيتون إشارة للسلام ودخول السيد المسيح إلى اورشليم.

٣. الدير الأعلى (دير مار جبرائيل-كربيل) يقع شمال الموصل القديمة قرب قلعة الموصل (باشطابيا) حضر فيه الخليفة المأمون احتفال الشعانين واستأنس به. طالع التفاصيل في كتاب الديارات للشابستي.

الشاعر محمد بن عبد الملك الهاشمي يتمجد بشعره لهذا العيد ويتفاخر بهذا الدير قائلاً<sup>١</sup>:

ولرب يوم في سمالوثم لي      منه سرور وغيبت أحزانه  
فتلاعبت بعقولنا نسوانه      وتوقدت بحدودنا نيرانه  
حتى حسبت لنا البساط سقيته      والدير ترقص حولنا حيطانه

ويتابع أنه في شهر تشرين الأول موعد عيد القديسة أشموني في قطربل، وهي قرية في شمال بغداد كان لها ميزة خاصة في احتفال هذا العيد رغم صغرها<sup>٢</sup>.

وإلى جانب ذلك، كانت الأعياد تجري ضمن حرية مطلقة في ممارسة الشعائر الدينية وتكون علناً دون حسيب، لذلك قال توماس آرنولد<sup>٣</sup> إن المسلمين لم يتعرضوا بتاتاً للنصارى عند احتفالهم بأعيادهم الدينية، بل العكس كانوا في معظم الأحيان يشاركونهم ذلك، ويتابع بأن المسيحيين كانوا يقدمون القرابين بين دقّ الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية، وترقيم المزامير وإلغاء المواعيد على النسق الذين كانوا يحتفلون به قبل الفتح الإسلامي.

ومن جراء ذلك التخالط والتعايش المتقارب بين المسيحية والإسلام خاصة في أيام الدولة الأموية والعبّاسية نشأ تقاربٌ في العادات والتقاليد وحتى في مشاركة بعضهم بالاحتفالات الدينية لكلا الديانتين في العصر العبّاسي خاصة، فكان فخراً (فخرٌ) بأن يشترك المسلم النصراني وبالعكس في جميع أعياده.

يقول أحمد أمين<sup>٤</sup> أن بعض العادات المسيحية واليهودية تسرّبت إلى المسلمين، بالإضافة إلى عاداتٍ من المجوس الذين أدخلوها بدخولهم في الدين الإسلامي، وقد اتخذ بعض المسلمين أعياد المسيحيين أعياداً لهم كعيد الشعانين الذي يصادف قبل عيد الفصح بأسبوعٍ واحد، وقد عرف ذلك في العصر العبّاسي وما بعده.

١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢٢٣.

٢. ولكن الدكتورة أمينة البيطار في كتابها (الحياة السياسيّة في بلاد الشام) ص ٣٥٥، تقول جازمة بأن أعياد الشعانين في فلسطين كانت من أبهى الأعياد المسيحية إذ أن النصارى في القرن الرابع الهجري يحتفلون بهذا العيد في مدينة القدس والعجيب في ذلك أنهم يحملون شجرة الزيتون وينتقلون بها من الكنيسة الموجودة بالعازارية إلى كنيسة القيامة، والمسافة بينها كبيرة.

٣. توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٥٨.

٤. أحمد أمين، منحى الإسلام، ج ١، ص ٣٤٦.

ولكن المؤرّخ الشابشتي<sup>١</sup> يؤكد هذا التقارب بين الديانتين المسيحية والإسلامية ومشاركة بعضهم في أعيادهم الدينية قائلاً: إن تقدير المسلمين للأعياد المسيحية ما يحيط بالحياة العامة جعلت الأعياد مظهرًا من مظاهر الحب والتعايش بين الديانتين. فالمسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية طوال العام وكانت معظم أعياد النصارى هي تطبيقًا للعادات والتقاليد القديمة المتوارثة من قبل. وكانت أغلب الأماكن في مصر والعراق يحج إليها في بعض الأعياد<sup>٢</sup>.

ويتابع الشابشتي قائلاً<sup>٣</sup>: إن الذين دخلوا الإسلام، أدخلوا معهم بعض عاداتهم وتقاليدهم التي كانت تمارس قبل دخولهم الإسلام، فكانوا يحنون إلى تطبيقها وإعادة ذكرياتها فشاركوا النصارى هذه الأعياد ونعموا بخيرات أيامها، ويقول إن أعياد أهل بغداد تكاد تكون نصرانية بالوجه الخالص، وكانت أعياد القديسين في مختلف الأديرة حتى الذين لا تربطهم بالدين المسيحي أية صلة، إذ شاركوا بهذه الأعياد دون معارضة أصحابها. فكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة وقاعاتها مرتعًا للشراب البارد ومقصدًا لطلاب اللذة البغداديين. وكثيرًا ما ارتبط اسم الدير باسم شرابه.

ويقول المقرئزي<sup>٤</sup> في خطته أن يوم الخميس في مصر عند القبط يدعى يوم العدس لأن عامة الناس يأكلون العدس، فهو يعتبر طعام الحداد. ولكن أهل مصر يأكلون منه كلّ يوم جمعة، وأهل الإسكندرية يخرجون كلّ يوم خميس إلى المنارة بمأكلهم. فمنهم من يصلي لله ومنهم من يلهو ويبقون حتى منتصف النهار. وفي الشام يسمّى الخميس الأزرق خميس البيض. وكان يباع في الأسواق البيض الملون المصبوغ فيقامر به العبيد والصبيان<sup>٥</sup>.

١. الشابشتي علي، (ت ٩٩٨م) أديب مصري، ولآه العزيز الفاطمي خزائن كته. من كته: «الديارات»، ذكر فيه أديار العراق والجزيرة والشام ومصر.

٢. الشابشتي، الديارات، ص ٨.

٣. الشابشتي، الديارات، ص ٩.

٤. المقرئزي تقي الدين، (١٣٦٤-١٤٤١) مؤرخ مصري، بعلبكي الأصل. وُلد بالقاهرة وتولى القضاء فيها. من كته: «السلوك لمعرفة دول الملوك» و«المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، ويعرف بخطط المقرئزي، و«النقود بالإسلامية القديمة».

٥. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٥٧ و ٢٦٦.

يتابع الشابشتي<sup>١</sup> واصفًا الأديرة في أيام الأعياد والصوم الكبير قائلاً: إنه في اليوم الأحد الرابع هو عيد دير درمالس<sup>٢</sup> يقصده أهل بغداد إذ لا يبقى أحد يحب اللهو إلا قصده وقيمون أيامًا فيه، ولكنه يقول إن عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة هو أصلًا عيدًا للنصارى وأخذه المسلمون. والعادة فيه أن يطوق العامة قبل الخروج من السجن الأسواق بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم. ولكن في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، وبسبب الغلاء امتنع التجار عن الدفع، فأمر الخليفة الظاهر الفاطمي<sup>٣</sup> التجار أن يدفعوا، وجرت العادة على ذلك. ويؤكد المقرئ<sup>٤</sup> أن الخليفة الظاهر خرج من الجيزة ومكث بها يومين حتى رأى العامة فضحك منهم واستظرفهم، ويتابع قائلاً<sup>٥</sup> إنه في نفس السنة ثالث الفتح اجتمع خلقٌ عظيم عند كنيسة المعش في خليج الخور من النصارى والمسلمين وكثر في ذلك اليوم المجون والشرب واللهو وبعض العادات المشينة بين النساء والرجال نخجل عن ذكرها حسب قول المقرئ<sup>٦</sup>.

ولكن الطبري<sup>٦</sup> يبين في كتابه أنه في سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م، منع الخليفة المتوكل النصارى في عيد شعائنيهم أن يظهروا الصلبان، وأن يحملوا الشموع في الطريق إلى جانب منعهم الاحتفال بأعيادهم بكل حرية، وكان يكثر من تقييدهم والضغط عليهم، وذهب إلى أبعد من ذلك فأمر تسوية قبورهم مع الأرض لثلاث تسوى مع قبور المسلمين.

والظاهر أن لدير سمالو شرقي بغداد تقديسًا خاصًا عند المسيحيين خاصة والمسلمين عامة، وذلك أثناء عيد الفصح المجيد. إذ أن الشابشتي يصفه مجاريًا ابن الأثير بوصفه أنه مكان مقدس ويقع على نهر المهدي وهو مقصود من أهل الطرب واللهو والشراب. ويذكر الشاعر محمد بن عبد الملك الهاشمي بعضًا من أبياته:

١. الشابشتي، الديارات، ص ٢١.

٢. دير درمالس: كان يقع بباب الشامية في بغداد بأحسن موقع، كثير البساتين والأشجار وهو كبير. أهل برهبانه وقسانه المتبلين، (أنظر الشابشتي، ص ٣-١٣).

٣. الظاهر علي، ابن الحاكم: الخليفة الفاطمي السابع (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢١-١٠٣٦م) كان صغيرًا عند وفاة أبيه فقامت بالوصاية عليه عمته ست الملك (١٠٢١-١٠٢٤) ضعفت في عهده سيادة الدولة.

٤. المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٢٢٧.

٥. المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٩٦.

٦. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٦.

فتلاعبت بعقولنا نسوانه وتوقدت خدودنا نيرانه

ويتابع الشابستي قائلاً<sup>١</sup>، بأن عيد دير الثعالب في شهر أيلول، والذي يقع غربي بغداد وبياب الحديد ويقصده المسلمون والنصارى على السواء ولا يختلف عنه أحدًا نظرًا لموقعه الخلاب، وبساتينه الغنّاء، ولتوسطه البلد في آنٍ معًا، وله سهرات عامرة، واللهو فيه ينسي الإنسان نفسه تحت وطأة ليلاليه الساحرة.

ومن الأعياد الفخمة ببغداد أيضًا، عيد القديسة أشموني والذي كان يحتفل فيه بدير أشموني بقطرابل غربي دجلة<sup>٢</sup> ويجتمع به جميع الناس وقاصدي اللهو والطرب ويشارك كلُّ حسب قدرته فمنهم من يركب التيارات ويتنافسون في زيّهم ويتباهون بما يعدّون. ويعدّون ديره وحاناته بضرب لذوي الجاه الخيام فيظل كلُّ إنسان مكبًا على لهوه فيكون بذلك أعظم مشهد<sup>٣</sup>.

لكن المقدسي<sup>٤</sup> يقول: أن الغريب الذي ينزل بغداد قاصدًا أعجب وأبهى ما تراه عينه من تسلية ومرح هو دير أشموني، ويتابع المقدسي قائلاً: إن هناك عيدًا آخر هو عيد البربارة<sup>٥</sup> كان معروفًا عند المسلمين، يحتفل به في فصل الشتاء، وفيه تقديرًا للفصول وبشرى بحلول فصل الشتاء ومعرفة هطول الأمطار، فهو نموذج للقاء المسلمين والنصارى، ويفخر المقدسي بشخصه لأنه كان يحضره سنويًا دون تخلّف<sup>٦</sup>.

ويجتمع بالرأي كلُّ من ابن الأثير والمسعودي والمقرئزي والشابستي في وصف عيد الغطاس<sup>٧</sup> واصفين جماله ورونقه.

١. الشابستي، الديارات، ص ١٤.

٢. راجع كتابنا «سيرة الشهيدة شموني وكنيستها في قره قوش» بغداد ١٩٨٠.

٣. يصادف العيد يوم ١٥ تشرين الأول من كل عام.

٤. المقدسي شمس الدين، (ت نحن ٩٩٠م) جغرافي، ورحالة عربي، له كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم».

٥. يقع عيد الشهيدة بربارة في اليوم الرابع من كانون الأول من كل عام.

٦. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٩٦. الشابستي، الديارات، ص ٣٧.

٧. يصادف في اليوم السادس من كانون الثاني من كل عام.

فيقول ابن الأثير<sup>١</sup> إنه في القرن الرابع للهجرة كان الرسّامين ورجال الدولة يفرّق عليهم الحلاوة القاهرية والحلّاب والزلايية وماء الورد والسمك البوري، وتضاء الحوانيت والشوارع بالنواقيس ويتقاضى الفقير درهماً عن كلّ ناقوس يحمله ويحتفل بعيد الغطاس بمصر احتفالاً عظيماً، وسمّي بهذا الاسم تيمناً بغطس الناس في مياه النيل<sup>٢</sup>، ومن العادات القديمة أن يركب متولي الشرطة ليلة الغطاس في موكبٍ مهيبٍ ويحمل بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل ويطوف بالشوارع.

ويقول المسعودي<sup>٣</sup> عن عيد الغطاس، إن ليلةً بها منزلة عظيمة لا أحد يعرف النوم ويباهي بنفسه واصفاً ليلة حضرها بنفسه في مصر مع الأخشيد محمد بن طفح في داره المختارة في الجزيرة الراكبية للنيل. فأمر بسرج ألف مشعل من جانب الجزيرة إلى الفسطاط. غير ما أسرج في مصر. وحضر في تلك الليلة مئات الألوف من المسيحيين والمسلمين، وتباركوا أيّ تسابقوا في الحضور باكراً، لتبدأ المنافسة بينهم بالزّيّ والمأكل والمشرب وبآلات الذهب والفضة، فيقول إنها كانت أحسن ليلة في مصر إذ أن أكثر الناس يغطسون في النيل تيمناً وتبركاً لاعتقادهم أنه في هذه الليلة يذهب عنهم المرض.

ولكن المقرئزي والشابشتي<sup>٤</sup>، يتّفقا في وصف ذلك الدير والعبيد معاً قائلين: إنه في عام ٤١٥هـ/١٠٥٨م، أمر أمير المؤمنين الظاهر حضور عيد الغطاس. فنزل ومعه الحرم وضرب متولي الشرطة بدر الدولة خيمة للخليفة وحرمه. وأمر الخليفة أن توقد النار والمشاعل في الليل.

ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي<sup>٥</sup>، أن أيام السنة في سامراء وبغداد تشهد أعياداً يلهو فيها النساء بالمجون، وهذه الأعياد هي للمسلمين والفرس والنصارى واليهود. أما أعياد النصارى فهي بمثابة كرنفلاً فيه المباح وغير المباح. وأما

١. د. شوقي منيف، تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ٩٥. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٨٨.

٢. هذا غير صحيح إنها تيمناً بعمودية السيد المسيح من يد يوحنا المعمدان.

٣. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٤٩.

٤. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٩٦. الشابشتي، الذريات، ص ٣٧.

٥. د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ٩٥.

أعياد الإسلام فهي: رأس السنة الهجرية وعيد الفطر وعيد الأضحى. وأعياد الفرس: عيد النيروز في أول الربيع<sup>١</sup> وهو أول السنة الفارسية ويفخر الشعراء بذكره.

لكن آدم مitez<sup>٢</sup> يقول: إن ليلة عيد الميلاد تقع في ٢٥ كانون الأول، وأما أسباب وقد النيران في هذه الليلة واللعب بالجوز. هي إنه عندما كانت السيدة العذراء إلى جانب شجرة وأصابها المخاض ارتجفت من البرد فعمد يوسف النجار إلى إشعال النار لتدفئتها وكسر لها سبع جوزات وأطعمها إياها، من أجل ذلك يوحد النصارى النار ليلة الميلاد ويلعبون بالجوز<sup>٣</sup>، فالمسلمون أيضًا كانوا يحتفلون بليلة الوقود.

ويقول ابن الجوزية<sup>٤</sup>، إنه في عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، مستندًا إلى أهل عكبره<sup>٥</sup> أنهم اجتمعوا ليلة عيد الميلاد حسب العادة وبدأوا بالتبخير لرفع المضرة عنهم حتى صارت عرفًا متعارف عليه عند الملوك الذين يكثرون من تأجيج لهبها لإرسال الوحوش إليها وتطير الطيور فيها والشرب والتلهي من حولها<sup>٦</sup>.

بقي أن نذكر كخلاصة لموضوع الأعياد ما أورده أبو الريحان البيروني<sup>٧</sup> في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»<sup>٨</sup> فيقول تحت عنوان (القول على ما يستعمله النصارى الملكائية في الشهور السريانية) ما يلي: والنصارى مفترقون فرقًا، فالأولى منهم الملكائية وهم الروم، والثانية النسطورية، والثالثة اليعقوبية.

١. سمي عيد النيروز بذلك عندما أمر الخليفة المعتضد في سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م، على أثر الحوادث بأن يترك أمر افتتاح الحجاج إلى نيروز العجم. ولكنه تأخر إلى اليوم الحادي عشر من حزيران فسمي بالنيروز العضدي. ويذكر ابن الجوزية أن المتوكل أثناء إحدى رحلاته رأى أن الغلال لم تحصد فاستفسر عن ذلك فأجيب بأن النيروز قد تعطل بسبب السنة الكبيسة، فأمر بتعيين منجم لتولي أمره، فقتل قبل إتمام ذلك فخلفه المعتضد الذي حدد بالنيروز في الحادي عشر من حزيران.

٢. آدم مitez، الحضارة الإسلامية، ص ٢٨٧.

٣. هذا أمر باطل، فإن إيقاد النيران علامة مولد النور الذي هو المسيح نور العالم.

٤. ابن قيم الجوزية، المنتظم، ج ٥، ص ١٩٢.

٥. عكبره: من قرى بغداد الجنوبية اشتهرت بموقعها وكثرة الديارات حولها.

٦. التبخير قديم يقدم عبادة الإنسان ومعرفة الدين ومعناه رفع الصلوات والدعوات على عرف البخور...

٧. البيروني أبو الريحان، (ت ١٠٤٨م) مؤرخ ورياضي من علماء الإسلام المشهورين فارسي الأصل. صديق ابن سينا، من مؤلفاته: «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، «تاريخ الهند»، «القانون المسعودي» في الهيئة والنجوم.

٨. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٨٨، وما بعدها من الصفحات.



ويبدأ بذكر أعياد الملكائبة فيقول:

- في شهر تشرين الأول: في اليوم الأول تذكّار حُنين الأسقف الشهيد تلميذ بولس. وفي اليوم الثاني تذكّار حارث النجراني الشهيد مع الشهداء. وفي اليوم الثالث تذكّار مارية الراهبة التي لبست ثياب الرجال وترهّبت وأخفت أنوثتها عن الرهبان ثم رميت بالزناء مع امرأة فاحتملت الأذى ولم تظهر أنوثتها حتى ماتت وعرفت حالها وبراءتها حين أرادوا غسلها، وفي اليوم الرابع تذكّار ديونيسيوس الأسقف المنجّم تلميذ مار بولس. وفي الخامس تذكّار أصحاب الكهف بمدينة أفسس، وهو المذكور في القرآن. وقد وجّه المعتصم مع رسوله إلى ملك الروم من شاهد موضعهم ولمسهم بيده والخبر معروف<sup>٢</sup>. وفي اليوم السابع تذكّار سرجيس وباكوس الشهيدين. وفي العاشر تذكّار زكريا النبي وهو بشارة الملائكة إياه بابنه يوحنا. وفي الحادي عشر تذكّار قبريانوس الأسقف الشهيد وفي الرابع عشر تذكّار غريغوريوس النوسي الأسقف. وفي السابع عشر تذكّار قوزما وديمانس الطيبين الشهيدين. وفي الثامن عشر تذكّار لوقا صاحب الإنجيل. وفي الثالث والعشرين تذكّار أنسطاسيا الشهيدة. وفي السادس والعشرين تذكّار وضع رأس يوحنا بن زكريا في القبر<sup>٣</sup>.

- في شهر تشرين الثاني: في اليوم الأول تذكّار قرونوس الشهيد. وفي الحادي عشر تذكّار مينا الشهيد. وفي الخامس عشر تذكّار سمونا وغريا، وحبيب الشهداء. وفي السادس عشر أو الصوم لميلاد يسوع المسيح وهو أربعون يومًا متوالية تُصام قبله. وفي السابع عشر تذكّار غريغوريوس صاحب الأعاجيب المعجزة. وفي الثامن عشر تذكّار أرمانوس الشهيد. وفي العشرين تذكّار إسحق وتلميذه إبراهيم الشهيدين. وفي الخامس والعشرين تذكّار بطرس الأسقف

١. هي المشهورة بقصتها وباسم «القديس مارينوس» أو «القديسة مارينا» وقد ذكرت في عدة مواقع.

٢. قصة أهل الكهف قصة سريانية مشهورة ترجمها ونشرها البطريرك زكّا الأول عيواز عام ١٩٨٠ في حلب.

٣. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٨٨-٢٩١.

٤. هما الشهيدين المشهوران باسم سمونا وغوريا.

بالإسكندرية. وفي السابع والعشرين تذكّار يعقوب المقطّع. وفي الثلاثين تذكّار أندريوس الشهيد وأندراوس الرسول<sup>١</sup>.

- شهر كانون الأول: في اليوم الأول تذكّار يعقوب الأسقف الأول بأورشليم، واليوم الثالث تذكّار إيوانيس الأب مؤلّف رسوم النصرانية. وفي اليوم الرابع تذكّار بربرة ويوليانية الشهيديتين. وفي الخامس تذكّار سابا رئيس الدير بيت المقدس. وفي السادس تذكّار نيقولاوس البطريك الأنطاكي. وفي الثالث عشر تذكّار الشهداء الخمسة. وفي السابع عشر تذكّار مونسطوا البطريك بأورشليم. وفي الثامن عشر تذكّار سيسين الجاثليق الخراساني. وفي العشرين تذكّار إغناطيوس البطريك الثالث بأنطاكيا. وفي الثاني والعشرين تذكّار يوسف الرامثاني البولوطائي الذي دفن جسد المسيح. وفي اليوم الثالث والعشرين تذكّار جيلاسيوس الشهيد. وفي الخامس والعشرين ميلاد السيد المسيح. وفي السادس والعشرين داود النبي ويعقوب الأسقف بأورشليم. وفي السابع والعشرين تذكّار إسطفانوس رئيس الشمامسة. وفي الثامن والعشرين قتل هيرودوس أطفال بيت لحم وفي التاسع والعشرين تذكّار أنطونيوس الشهيد (زعموا أنه أبو روح ابن عم هارون الرشيد)<sup>٢</sup>.

- شهر كانون الثاني: اليوم الأول منه ذكران باسيليوس وهو أيضًا عيد القلنداس<sup>٣</sup>، وفي اليوم الثاني تذكّار سيلبيستروس المطران الذي تنصّر أهل القسطنطينية على يده. وفي الخامس صوم عيد الدنح، وفي السادس دنحنا وهو عيد الدنح نفسه ويوم المعمودية الذي عمّد فيه يوحنا المسيح بنهر الأردن. وفي اليوم الحادي عشر ذكران ثاونسيوس الراهب المعذب نفسه. وفي الثالث عشر تمام عيد الدنح وقتل الصلحاء القديسين بطور سينا. وفي اليوم الخامس عشر تذكّار بطرس بطريق دمشق وفي اليوم السابع عشر ذكران أنطونيوس أول الرهبان ورئيسهم.

١. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩١.

٢. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٢.

٣. تفاصيل هذا العيد، راجعها لدى البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٢.

وفي العشرين تذكّار أوثيميوس الراهب المعلم. وفي الحادي والعشرين تذكّار مكسيموس الراهب الفريد، وفي الثاني والعشرين تذكّار قوزما الذي استنبط قوانين النصارى. وفي الخامس والعشرين تذكّار بوليقر فوس الأسقف الشهيد. وفي السابع والعشرين ذكرى يونس الملقب بقم الذهب وإيوانيس لفظة رومية لاسم يوحنا. وفي الحادي والثلاثين ذكرى إيوانيس وقورس الشهيدين<sup>١</sup>.

- شهر شباط: في اليوم الأول تذكّار أفرام المعلم. وفي الثاني عيد الشمع وهو إتيان مريم هيكل بيت المقدس مع يسوع. وفي اليوم الثالث تذكّار بلاسيوس الشهيد وقد قتله المجوس. وفي الخامس تذكّار سيس الجاثليق أول من أورد المسيحية إلى خراسان. وفي الرابع والعشرين تذكّار وجود رأس يوحنا المعمدان<sup>٢</sup>.

- شهر آذار: في التاسع منه تذكّار الشهداء الأربعين المعذبين بالنار والبرد والجليد. وفي اليوم الحادي عشر تذكّار سوفرنوس البطريك بأورشليم وفي الخامس والعشرين عيد السبّارة وهو دخول جبرائيل الملاك على مريم مبشراً بالمسيح<sup>٣</sup>.

- شهر نيسان: في اليوم الأول تذكّار مريم الإغفطية الصائمة أربعين يوماً متوالية. وفي اليوم الخامس عشر تذكّار الشهداء المائة والخمسين. وفي الحادي والعشرين تذكّار السنودسات الستة<sup>٤</sup>. وفي الثالث والعشرين تذكّار مار جيورجيس الشهيد. وفي الرابع والعشرين تذكّار مرقس صاحب الإنجيل. وفي الخامس والعشرين تذكّار إيليا الجاثليق بخراسان. وفي السابع والعشرين تذكّار خريستوفوروس. وفي الثلاثين تذكّار شمعون بن صبّاعي الجاثليق المقتول بخوزستان مع من كان معه من المسيحيين<sup>٥</sup>.

١. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٢-٢٩٣.

٢. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٣.

٣. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٣-٢٩٤.

٤. السنودسات هي: مجمع نيقية، مجمع القسطنطينية، مجمع أفسس، مجمع خلقيدونية، مجمع أسطنتان، مجمع القسطنطينية الثاني.

٥. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٥-٢٩٦.

- شهر أيار: في اليوم الأول تذكّار إرميا النبي. وفي الثاني تذكّار أثناسيوس البطريك. وفي الرابع عيد الورد، وفي السادس تذكّار أيوب النبي وفي السابع عيد ظهور الصليب على السماء في زمن قسطنطين. وفي اليوم الثامن من هذا الشهر تذكّار يوحنا صاحب الإنجيل الرابع وتذكّار أرسنيوس الراهب. وفي اليوم التاسع تذكّار أشعيا النبي. وفي العاشر تذكّار ديونيسيوس الأسقف. وفي الثاني عشر تذكّار إيفانيوس رئيس الأساقفة. وفي الثالث عشر تذكّار يوليانس الشهيد. وفي الخامس عشر عيد الورد. وفي السادس عشر تذكّار زكريا النبي. وفي العشرين تذكّار قرياقس الراهب. وفي الثاني والعشرين تذكّار قسطنطينوس المظفر، وفي الرابع والعشرين تذكّار شمعون الراهب الذي عمل أعجوبة كبيرة.

- شهر حزيران: في اليوم الأول عيد السنابل. وفيه تذكّار يوحنا المعمدان. وفي اليوم الثالث تذكّار إحراق بختنصر الصبيان وهم عزريا وحننيا وميشائيل. وفي هذا اليوم أيضًا أحداث الهيكل. وفي اليوم الخامس تذكّار أثناسيوس البطريك. وفي الثامن تذكّار كيرلس البطريك الذي حرم نسطور. وفي الثامن عشر تذكّار متى ومرقس ولوقا ويوحنا أصحاب الأناجيل الأربعة. وفي الثامن عشر تذكّار ليونطيوس الشهيد. وفي الحادي والعشرين تذكّار برشيا القس الذي بشر مرو بالمسيحية حوالي عام ٢٠٠م، وفي الثامن والعشرين تذكّار جبرائيل وميخائيل رؤساء الملائكة. وفي الخامس والعشرين تذكّار مولد يوحنا المعمدان. وفي السادس والعشرين تذكّار فبرونيا الشهيدة. وفي التاسع والعشرين تذكّار بطرس شمعون الصفا رئيس الرسل.

- شهر تموز: في اليوم الأول تذكّار الرسل الإثني عشر. وفي الثالث تذكّار توما الرسول. وفي الخامس تذكّار دوميتيانوس الشهيد. وفي السابع تذكّار

بروقوبيوس الشهيد. وفي الثامن تذكّار مارتا والدة شمعون ذي الأعاجيب. وفي التاسع تذكّار إحراق بختنصر الصبيان الثلاثة. وفي العاشر تذكّار الشهداء الخمسة والأربعين، وفي الحادي عشر تذكّار فوقا الشهيد. وفي الثالث عشر تذكّار ثوثايل الشهيد. وفي الرابع عشر تذكّار يوحنا المروزي الحديث. وفي الخامس عشر تذكّار قرياقس وأمه يوليطا. وفي اليوم العشرين عيد العنب. وفي الحادي والعشرين تذكّار بغنوطيوس الشهيد. وفي السادس والعشرين تذكّار فنطاليمون الطيب الشهيد. وفي السابع والعشرين تذكّار شمعون الراهب صاحب العماد. وفي الثلاثين تذكّار تلاميذ المسيح وهم إثنان وسبعون<sup>١</sup>.

- شهر آب: في اليوم الأول منه صوم مرض مريم والدة المسيح وهو خمسة عشر يوماً آخرها يوم انتقالها. وفي اليوم الأول أيضاً تذكّار شموني مقبايا (المقباية) وسبعة أولادها. وفي الخامس تذكّار موسى النبي. وفي السادس عيد طور تابور (عيد التجلي). وفي السابع تذكّار إلياس الحّي. وفي الثامن تذكّار إيشع النبي تلميذ الياس. وفي التاسع تذكّار ربولا الأسقف. وفي العاشر تذكّار ماما الشهيد. وفي الخامس عشر عيد انتقال مريم العذراء إلى السماء. وفي السادس عشر تذكّار أشعيا وإرميا وزكرياء وحزقيال الأنبياء. وفي السابع عشر تذكّار سيلاقوس وخطيبته أسطراطا نيقمي الشهيدين. وفي العشرين تذكّار شموئيل النبي. وفي الحادي والعشرين تذكّار لوقوس الشهيد وفي السادس والعشرين تذكّار سابا الراهب الشيخ الهرم. وفي التاسع والعشرين تذكّار مقتل يوحنا المعمدان. وفي الثلاثين تذكّار الأنبياء كلّهم<sup>٢</sup>.

- شهر أيلول: في اليوم الأول عيد إكليل السنة. وفي الثالث تذكّار الشهداء السبعة المقتولين بنيسابور. وفي الثامن تذكّار حنة والدة مريم ويواقيم والدها. وفي الثالث عشر عيد مُحدّث الهيكل بالصلاة وهو تجديد البيع. وفي الرابع عشر وجود قسطنطين الملك وهيلانة والدته الصليب. وفي الخامس عشر تذكّار السنودسات

١. البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٩-٣٠٠.

٢. البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٠٠-٣٠١.

السته. وفي السادس عشر تذكّار أوفيميا الشهيدة. وفي العشرين تذكّار أوسطاثيروس وزوجته ووالدته الشهداء. وفي الثالث والعشرين تذكّار أويطليوس الشهيد. وفي الرابع والعشرين تذكّار تقلا الشهيدة وفيه عيد كنيسة القيامة التي بأورشليم. وفي الخامس والعشرين تذكّار سبنيانوس وبولس الشهيدين وطاطيس الشهيدة. وفي الثامن والعشرين تذكّار كاريطونوس الراهب. وفي التاسع والعشرين تذكّار غريغوريوس الأسقف الذي نصرّ أرمينيا.

أما أعياد النساطرة وتذكاراتهم الدينية فقد بيّنها البيروني كما يلي:

- الأعياد التي وافقت فيها الملكائية فالميلاد والدنح وعيد الشمع وأول الصوم والسعانين وغسل أرجل الحواريين وفصح المسيح وجمعة الصليبوت والقيامة والفطر والأحد الحديث والسُّلّاقا والبنطيقسطي وصوم مارت مريم.
- ومقتل يوحنا المعمدان عند النسطورية في اليوم الرابع والعشرين من آب. وتذكّار شمعون بن صباعي في السابع عشر من آب، وعيد الصليب عندهم الثالث عشر من أيلول.

وأما التي تستعملها الملكائية، وقد قيّدت بما تستعمله فمثل تذكّار يوحنا اللشكرانيّ فإنه في أول يوم من تشرين الأول وتذكّار مار فثيون في الخامس والعشرين منه وعيد دير يوحنا في اليوم السادس من كانون الأول. وعيد كنيسة مريم بيت المقدس في اليوم السابع من كانون الثاني. وتذكّار مار فونيا في الخامس والعشرين من حزيران. وأول عيد التجليّ في السادس من آب، وفيه عيد دير الناس وآخر عيد التجليّ السادس عشر من آب. وعيد مار ماري في اليوم الثاني عشر من آب، وتذكّار كرسين وكرساس في اليوم الثالث من أيلول.

وأما التي قيّدتا بأيام الأسابيع من غير أن يكون بينهم فيها اشتراك أو وُصلة مثل تذكّار قوطا الراهب وهو مار سرجس فإنه في اليوم السابع من تشرين الأول إن كان أوله يوم الأحد،

١. البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٠١.

وإن لم يكن أّخر إلى الأحد الذي يتلو السابع ومثل تذكّار أشموني فإنه في الأحد الذي يتلوه على مذهب نصارى بغداد وكعيد دير أبي خالد فإنه في الجمعة الأولى من تشرين الثاني.

وعيد دير القادسية في الجمعة الثالثة من هذا الشهر وعيد دير الكحّال في الجمعة الرابعة منه. وتذكّار برسفا فإنه آخر أحد من أيلول وكعيد دير الثعالب فإنه آخر سبت في أيلول إلا إن كان أول تشرين الأول من السنة الآتية يوم الأحد فيتأخر العيد إليه ويخرج من أيلول فتعري تلك السنة ويتكرر في الآتية مرتين في أولها وآخرها.

وأما التي قيّدها بالأيام المشتركة، فيما بينهم فقد تنقسم ثلاثة أقسام:

- الأول منها ما وُصِل بالصوم الكبير أو بفطره.

- والثاني ما وُصِل بالميلاد.

- والثالث ما وُصِل بالدنح.

فالتي وصلت بالصوم الكبير أو بأوله أو بآخره كجمعة آحادر وهو الثاني عشر من الصوم الكبير وكالفاروقة وتفسيرها النجاة وهو يوم الخميس الرابع والعشرون من أول الصوم. وتذكّار مار ترسيا وتذكّار مار قرياقُس الطفل الذي قُتل ولم يرجع عن النصرانية، فإنه يوم الجمعة، العشرون من الفطر وتذكّار سورين ودوران الأرمنيين المقتولين على يد سابور الملك. وتذكّار مار عبدا تلميذ مار ماري فإنه يوم الخميس الرابع عشر من فطر السليحين (الرسل). وتذكّار مار ماري فإنه يوم الجمعة الخامس عشر من فطر السليحين<sup>١</sup>.

## ٦- عاداتهم:

إختلفت العادات باختلاف الشعوب التي كانت قبل الدولة الإسلامية وبقيت تسكن بين ظهرانيها عدة قرون، فكان لا بدّ لهذه الشعوب أن يكون لها عادات وتقاليد في طرق معيشتها وعملها وحياتها الاجتماعية وذلك بسبب تمتّع هذه الشعوب بحريّة المحافظة على تراثها التقليدي في الإسلام وخاصة في الدولة العباسية. ونظرًا لكثرة الأديان آنذاك

١. البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٠٩-٣١١.

فإن العادات كانت تختلف طبقاً لبيئة الشخص مع الارتباط الكلي بمجتمعه الديني وتقليده وعاداته التي كانت سائدة قبل الإسلام.

تقول الدكتورة أمينة البيطار<sup>١</sup> موضحة بعض العادات إنه سادت بلاد الشام أنواع معينة من الخبز والأطعمة التي كانت تعدّ بواسطة التور الذي هو عبارة عن حفرة في الأرض تفرش بالحصى ويوقد الزبل حوله حتى تحمر فتطرح الأرغفة على الحصى حتى تنتفخ فترفع، وكان الفول النيء يقلى بالزيت بعد سلقه ويباع مع الزيتون. وقد أكثر أهل الشام من أكل الترمس بعد تملিحه وصنعوا نوعين من الناطف أحدهما من الخرنوب يسمونه القبيط والآخر في السكر، وتميّزت مدينة قبيع بصناعة الزبيب المعمول بالجوز والفسق والسمسم، ولكن ما يصنع في بخارى يزيد عليه حلاوة وفي الشتاء كانوا يصنعون الزلاية.

أما القلقاس كان من المأكولات الشائعة في فلسطين وكان يقشّر ويطبخ ويقلى بالزيت وهو من المأكولات الشتوية. وألذ ما يؤكل المصنوع باللحم الضان. ففي قرية صيرون بفلسطين كان هناك وقتٌ لتميم الداري يقدم فيه كل يوم عدس بالزيت، لكل من يحضر من الفقراء، فإذا أراد الأغنياء تناولوه وكان مخصص للإشراف على الطبخ طبّاخ وخبّاز وخدام ومرمتون يقدمون الطعام.

## ٧- حرّياتهم:

منذ توغّل الجيش الإسلامي خارج الجزيرة العربية ووصله إلى أفريقيا مع المحافظة على كرامة سكان البلاد المنفتحة، وتوصيات صدرت عن أكبر قوّاد المسلمين استناداً إلى قول محمّد: من ظلم ذمي كنت حجيجه يوم القيامة، فقد حافظ على ذلك خلفاء الراشدون من بعده. فبعد ذلك نرى أهل الملل مرّوا بفتراتٍ عصيبة نسبياً ولكنهم تمّتعوا بنوع من الحرّية دون قيد أو شرط لقاء دفع جزية تكون عربوناً لحمايتهم الأمنية المعيشية ضمن إخوانهم المسلمين، فلا عجب إذا أدّى الذميّ في السنة ١٢ درهماً، بل العجب أن يعدّ هذا المبلغ الضئيل هو

١. د. أمينة البيطار، الحياة السياسية في بلاد الشام، ص ٣٥٤.



امتصاص لحرّياتهم الحياتية، ويطالعنا ترتون<sup>١</sup> مؤكداً ما ورد معنا سابقاً وعلى لسان المؤرخين العرب المسلمين من أن حرّية أهل الديانات التي تعيش في كنف الدولة الإسلامية، وخاصة العباسية هي من حرّية المسلم لأنها لم تكن مرتكزة على الشريعة والعقيدة الإسلامية، فكان لهم حرّية إبداء الرأي والمناقشة في ما يختص بشؤونهم ولكن بالمقابل ليس لهم أي دخل في الأمور الإسلامية وذلك في حدود النظام والقانون المتبع للدولة.

ويقول روفائيل بابو إسحق<sup>٢</sup> في كتابه مؤكداً مدى (كلمة ناقصة) التي تتمتع بها أهل الديانات الأخرى وخاصة النصارى منهم والذي قال عنهم: إنهم أخذوها منذ قيام الدولة الإسلامية وحتى عصر المأمون، فقد عاشوا بكلّ اطمئنان وتسامح وحرّية مع إخوانهم المسلمين وتقاسموا رغيف العيش ومرّه. ولكن يقول بموت المأمون بدأت حالتهم تسيء بتغيير الحكّام والولاء والعمّال. ويعلّل السبب إلى الخلافات الداخلية التي كانت تحصل بين الحكّام والولاء، إلى سوء إدارتهم مما أدى إلى هذه الحالة التي لا تطاق في بعض الأحيان ولكنه يقول: إن ذلك لم يكن معتمداً من قبل الجميع بل حسب تغيير الظروف السياسية للدولة العباسية التي كانت تحتوي تقريباً على جميع الديانات السماوية بما فيها الوثنية.

لكن ترتون يعود<sup>٣</sup> مفسراً المعنى الذي يتمتع به أهل الديانات غير الإسلامية ملتقياً مع روفائيل بابو إسحق بأنهم أخذوا الكفاية منها متمتعين بحرّية التعليم الخاص وفق مناهجهم وعقائدهم الدينية، وكان لهم تنظيم اجتماعي خاص بهم لإدارة شؤونهم الحياتية والمالية إلى جانب تنظيم الميراث والمحاكم الشرعية المستقلة ولكلّ ديانة شريعتها شرط عدم المساس بالشريعة الإسلامية، إذ كان لهم الحق الكامل بالتصرّف بأرزاقهم وأموالهم وتخزينها ونقلها أينما شاؤوا دون حسيب ولا رقيب، فملكيتها كانت حقّ لهم مصانة ولا يجوز التعرّض لها.

ويطالعنا الدكتور شوقي ضيف<sup>٤</sup>، محلّلاً ومبيّناً معنى الحرّية التي تتمتع بها أهل الذمّة -قائلاً: إن زيادتها تولّد الفوضى وعدم تحمّل المسؤولية لذلك يجب أن يكون للحرّية حدود

١. ترتون، أهل الذمّة في الإسلام، ص ١٠٩.

٢. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧١.

٣. ترتون، أهل الذمّة في الإسلام، ص ١٠٩.

٤. د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص ٩٧.

ترتكز عليها المبادئ الأساسية للفرد أو المجتمع، مضيئاً أن هذه الحرية التي أعطيت لأهل الذمة أدت إلى انتشار المجون والخلاعة، بشكل واضح وواسع وخاصة في سامراء وبغداد، فكل واحد مارس طريقة حياته على مزاجه من المجون والخمر واقتناء الجوارى، وكان من نتيجة ذلك أن عمّ الشعر الإباحي والمفرط في التعبير عن الغرائز الجنسية ولكن مقابل هذه الموجة العارمة كانت هناك طبقة النساء التي لم تخرج عن عاداتها في المحافظة وحمت نفسها من السقوط بالهاوية.

ويقول الشابشتي<sup>١</sup> في كتابه الديارات: إن المسيحيين واليهود ترك لهم الحرية المطلقة في تطبيق وتصريف أمورهم الدينية وخاصة في احتفالاتهم بالأعياد من غير تدخل ليشاركوا في تلك الأعياد كما فعل آبائهم وأجدادهم قبل الفتح الإسلامي.

## ٨- كنائسهم ومعابدهم:

بخروج المسلمين من الجزيرة العربية إبان الفتوحات الإسلامية، كان لا بدّ لهم من أن يصطدموا بشعوب متعددة الأديان والأفكار، وأكثر هذه الشعوب هي المسيحية واليهودية، ويواجهوا شعوباً متعلقة بديانتها التي اتقنوها قبل الإسلام بعدة قرون، فكان من الصعب عليهم أن يقنعوا هذه الشعوب وخاصة الديانات السماوية باعتماد الإسلام نظراً لقربها من عبادة الله الواحد والتي نادى به الديانات السابقة للإسلام. ولكن الصعوبة الكبرى والمعارك الضارية التي خاضها المسلمون هي مع الديانات الوثنية.

وإزاء هذا الخليط كان لا بدّ من بدء حملاتٍ عسكرية منظمّة وعسيرة لمواجهة المواقع الناتجة بشكل حاسم وحازم حيناً وباللين حيناً. وهنا نستطيع أن نذكر أنه لم تجر معارك في بداية انتشار الدين الإسلامي مع الديانة المسيحية عكس بقية الديانات التي خاض المسلمون ضدهم أبشع وأقوى المعارك ليثبت أقدامه، ويكون فخراً أن الإسلام لم يتعرّض للمسيحيين عند بدء الفتوحات ولم يجبرهم على اعتناق الإسلام بل حاججهم بالإقناع والحجج.

١. الشابشتي، الديارات، ص ٨.

يقول الكندي<sup>١</sup>: إن الإسلام أتبع سياسةً متتابعةً المواقف، إذ كان أكثر جديةً مع الفرس ومع تعصّب الرومان البيزنطيين، فكان يسمح للمسيحيين أحياناً بإصلاح كنائسهم وترميمها. لكن عندما استتب الأمن للإسلام أصدروا في الأماكن والمقاطعات قرارات لا تسمح ببناء كنائس جديدة لتظل الكنائس القديمة على حالها.

فالعرب المسلمون عندما استولوا على دمشق قسّموا الكنائس مناصفةً بينهم وبين المسيحيين فقال آرنولد<sup>٢</sup> إن كاتدرائية مار يوحنا الأكبر، لا يمكن أن تكون مكاناً للمسلمين وعبادتهم إلى جانب المسيحيين. وقد ناقض المؤرخون المسلمون ذلك، إذ قال أن مجرد بقائها ثمانين عاماً دليل على ما أعطي للمسيحيين من وقت مبكر بإقامة شعائرهم الدينية.

ولكنه يوضح من خلال مراجعاته للمصادر العربية القديمة وما استتج منها قائلًا: إن الاختلاف كان واضحاً بين فقهاء المسلمين بالنسبة لبناء الكنائس أو ترميمها أو هدمها ولكن الاختلاف بينهم كان أشد بالنسبة لبقية الديانات الأخرى كالوثنية والزرداشتية والصائبة لأن المسلمين لم يسمحوا لهم قط ببناء معابدهم ولا ترميمها بل كانت تهدم عمدًا<sup>٣</sup>.

ويضيف آرنولد: إن المذهب الحنفي أكثر المذاهب الإسلامية تسامحاً بالنسبة للفتاوى التي تتعلّق بأهل الديانات غير الإسلامية، وأنه بالرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود في الديار الإسلامية العصرية مخالفًا للشرع الإسلامي، إلّا أنه يمكن إصلاح الأعطال فيها. كما أنه يجوز بناء كنائس ومعابد في الأماكن التي لا يوجد فيها مسلمين ولا تقام فيها الشعائر الدينية الإسلامية، ويتابع بأن المذهب الحنبلي جزم أنه لا يجوز بناء أو إصلاح ما تهدّم من المعابد التي تعود لغير المسلمين<sup>٤</sup>.

١. الكندي، تاريخ الولاة والقضاة، ص ١٣١.

٢. توماس آرنولد، الدعوى إلى الإسلام، ص ٨٣.

٣. توماس آرنولد، الدعوى إلى الإسلام، ص ٨٣.

٤. توماس آرنولد، الدعوى إلى الإسلام، ص ٨٣-٨٤.

ويذكر الأَبْشِيهِيّ 'ما ورد على لسان الخليفة عمر بن الخطّاب حين صالح أهل الشام وأعطاهم الأمان بعد احتلالها من قبل المسلمين. وهنا نورد بعضًا مما جاء في المعاهدة والذي نصّ حرفيًّا، وقدّمت للخليفة فوافق عليها قائلاً<sup>١</sup>: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من نصارى مدينة (كذا) إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، إنكم قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا أموالنا وأهل ملّتنا وشرطتنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا في ما حوالها كنيسة ولا ديرًا، ولا صومعة راهب، ولا تجديد ما ضرب منها ولا مكان مختطًّا منها من خطط المسلمين في ليل ولا نهار، وأن توسّع أبوابها للماء وابن السبيل وأن ننزل ما مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليالٍ نطعمهم ولا نأوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا».

هذا مقتطفٌ ما ورد في رسالة أهل الشام إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب<sup>٢</sup>، هم حدّدوا الشروط التي سيسرون عليها لقاء الأمان لهم وعدم التعرّض لمعتقداتهم وأملاكهم. فوافق الخليفة على ذلك وأعطاهم ما أرادوا، ولكن توالى الأزمات ومرّت العهود وتغيّر الخلفاء، ويأتي كلّ خليفة يطبّق القانون الذي يراه مناسبًا لزمانه، منهم من سار على نهج الخليفة عمر بن الخطّاب ومنهم من رسم طريقًا يسير عليه بشأن الكنائس والأديرة وترميمها أو هدمها.

فترى ابن تغري بردي<sup>٣</sup> يقول: إن والي مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد، علي بن سليمان رغم عدالته وترأفه بالرعية مُنعت في أيامه إقامة الملاهي، وهدمت الكنائس ما بين عامي ١٦٩-١٧١هـ/ ٧٨٥-٧٨٧م، فاشتكى القبط وعرضوا عليه المال لقاء بقائها فامتنع عن ذلك. وهناك والٍ آخر لهارون الرشيد هو: أبو عيسى العبّاسي الهاشمي، كان واليًّا على مصر أذن للمسيحيين في بناء كنائسهم التي هدمها علي بن سليمان، وبنيت بعد أخذ موافقة الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة حيث قالوا: هي عبادة البلاد بنيت زمن الصحابة<sup>٤</sup>.

١. الأَبْشِيهِيّ، المستطرف في كلّ فنّ مستطرف، ج ١، ص ١١٠-١١١.

٢. نقلًا عن د. حسين كرنيب، الدولة العبّاسية، ص ١٩٤.

٣. عمر بن الخطّاب (ت ٢٧هـ/ ٦٤٤م) ثاني الخلفاء الراشدين (١٣هـ/ ٦٣٤م) أول من لقّب بأمير المؤمنين. خلف أبا بكر الصديق. اشتهر بعدله. في أيامه فتحت الجيوش الإسلامية الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية بقيادة عمرو بن العاص وأبو عبيدة الجراح ويزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص. أنشأ «الديوان» لدفع رواتب الجيش، و«الأمصار» لإدارة الجند والمدن. اغتاله أبو لؤلؤة الفارسي في المسجد.

٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٦٢. والكندي، تاريخ الولاة والقضاة، ص ١٣١.

٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٦٦.

وفي زمن الخليفة الفاروق<sup>١</sup> هدمت الكنائس المستحدثة بعد الإسلام وأمر بالألّا تجنّد وأن لا تظهر عليها خارجه ولا صليب إلاّ كسر على رأس صاحبه. يقول الأبشيهي<sup>٢</sup>: إن عمرو بن محمّد هدم كنائس صنعاء باليمن مضيّفًا حسب قوله بأن الخليفة عمر بن عبدالعزيز<sup>٣</sup> أمر بأن لا يترك في دار الإسلام بيعة ولا كنيسة قديمة وحديثة إلاّ هدمت. ولكن يظهر لنا من خلال استغفاره لربّه أنه نقل هذه الأخبار بالتواتر ولم يذكر اسم المصدر قائلاً: الله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع وحسبي الله ونعم الوكيل.

فهذا الدعاء والاستغفار من ربّ العالمين هو في نظري دليل على أن ما ذكره هو نقلًا عن أحد المصادر، أو الرواة إذ لم يكن أكيدًا من خبره لأنه لم يلمسه أو يشاهده، بل سمعه ونقله وهذا دليل قاطع على سيرته الحسنة وثقة نقله وعدم تحمّله المسؤولية في ما ينقل عن لسان غيره إذا لم يكن متأكدًا منه. ولكن قاضي القضاة<sup>٤</sup> زمن الخليفة هارون الرشيد، أظهر فتواه استنادًا إلى قول الخليفة عمر بن الخطّاب بأهل الديانات الأخرى بأنهم يجب أن يمنعوا من إحداث بيعة أو كنيسة أو معبدًا إلاّ ما كان صولحوا عليه زمنه، وإلاّ هدمت، وقد شمل أيضًا بيوت النيران وأسواقهم على أن لا يبيعوا خمرًا ولا خنزيرًا، ولا يظهر الصلبان في الأمصار ولتكن قلانستهم طوالًا مضرية، فقال للرشيد هكذا يجب أن يطبّق ويعمّم على جميع عمال الأمصار الإسلامية.

فالقاضي أبو يوسف كان حاد الذكاء في إصدار الأحكام والفتاوي الشرعية، وكان شديد البأس والعزيمة ضد من خالف قرارات الخلفاء الراشدين من أهل الديانات الأخرى، إذ كان يراجع مصادرهم ويقرأها يامعانٍ ويحلّل كلّ كلام صادرٍ عن أي خليفة ليستند إليه لتكون حجّته قويّة في منع استخدام أيّ معبدٍ ديني لأيّ مذهبٍ كان من غير

١. الفاروق لقب أطلقه السريان على عمر بن الخطّاب. وهو لفظة سريانية ويعني المنقذ، المخلّص (باروكا).

٢. الأبشيهي، المستطرف، ص ١١٢.

٣. عمر بن عبدالعزيز بن مروان (٦١-١٠١هـ/٦٨١-٧٢٠م) الخليفة الأموي الثامن (٩٩هـ/٧١٧م) اهتم بالإصلاح الإداري والمالي.

٤. أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٧.

الديانة الإسلامية. فالماوردي<sup>١</sup> يؤيد ما ورد على لسان أبو يوسف<sup>٢</sup> من الفتاوي والأحكام بشأن المعابد وبنائها وترميمها وإعطاء حقوق أهل الديانات وأخذ الإسلام حقه منهم، ولكنه يقول: إذا نقض أهل الذمة عهدهم وجب إخراجهم من بلاد الإسلام طوعاً أو كرهاً.

وفي معجم ياقوت الحموي<sup>٣</sup> والذي يعدّ من أشهر ما ذكر عن البلدان في البناء والازدهار ومن عمران للمعابد الدينية وخاصة الكنائس والأديرة التابعة للديانة المسيحية، ويقول: رغم إبرام المعاهدات مع الصحابة بعدم استحداث أية بيعة أو كنيسة نرى أن المهدي<sup>٤</sup> ما بين سنة ١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م، بنى في عهده وفي بغداد بالذات كنيسة للذين أسروا أيام الحروب البيزنطية.

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد<sup>٥</sup> بُنيَ ببغداد على يد أهل سمالوا كنيسة بعد أخذهم البصرة، رغم أن المسلمين أسسوها في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م<sup>٦</sup>.

ولكن توماس آرنولد<sup>٧</sup> يبيّن لنا نقلاً عن سعيد بن البطريق<sup>٨</sup> أنه في عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) وفي مصر، أعطى الإذن ببناء كنيسة على جبل المقطع القريب من القاهرة. كما سمح لأحد المسيحيين ويدعى بكّام ببناء عدة كنائس في بلدة بورة في مصر. وأن البطريق النسطوري ويدعى ثاوس<sup>٩</sup> المتوفي سنة ٨٢٠م، بنى كنيسة ابن سبطين القبطية الجميلة.

١. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٦.

٢. أبو يوسف القاضي (يعقوب بن إبراهيم) (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م) ولد في الكوفة. درس على يد أبي حنيفة، وكان أكبر أصحابه. تولى قضاء بغداد أيام المهدي والمهدي والهادي والرشيد. أوّل من دُعي بقاضي القضاة. له كتاب «الخراج» و«الردّة» على سير الأوزاعي.

٣. ياقوت الحموي (١١٧٩-١٢٢٩) مؤرّخ وجغرافي عربي، رومي الأصل. اشتراه تاجرٌ من حماة. عاش في حلب. من آثاره «معجم البلدان» و«معجم الأديباء» أو «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» في التراجم.

٤. المهدي (محمد بن المنصور) ثالث الخلفاء العباسيين (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م) اشتهر بحروبه ضد البيزنطيين. أنشأ الطرق العامة وحسّن جهاز البريد فازدهرت التجارة في عهده.

٥. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١٦.

٦. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣٤ و ٤٣٥.

٧. توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٨٦.

٨. سعيد بن البطريق، نظم الجوهري، ج ٢، ص ٥٨. وسعيد بن البطريق (٨٧٧-٩٤٠) هو أوطيخيوس بطريق الإسكندرية الملكي (٩٣٣م) كان طبيياً ومؤرّخاً. له تاريخ (نظم الجوهري).

٩. رتبها يكون اسمه أذناوس وهذا لا يتفق وتاريخه مع ما هو مذكور.

وأيضًا في عهد الظاهر السابع الفاطمي بنيت في جدّة كنيسة، وفي عهد المستضيء<sup>٢</sup> شيّدت كنائس وأديرة جديدة. وفي سنة ١١٧٨م، شيّدت كنيسة الفسطاط.

فهذا المسلسل في بناء الكنائس يدحض مزاعم بعض الباحثين من أن معظم الكنائس في الديار الإسلامية قد هدمت ولم يبقَ منها شيء. ولكن ياقوت الحموي يؤكد ذلك في ما مرّ معنا على بقاء عدة أديرة وكنائس محدثة وقديمة، ولكن إذا هدمت بعضًا منها في فترات من الفوضى والمزاجية الشخصية لبعض الولاة والخلفاء فليس معنى ذلك أن وراءها خطط متعمّدة لتهديم جميع الكنائس كما صرّح ويصرّح البعض.

ويطالعنا الطبري<sup>٣</sup> مبيّنًا تهديم بعض الكنائس أنه حصل بعد فوضى أصابت البلاد أيام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١هـ/٨٠٦م، عندما أمر الرشيد بهدم الكنائس بالشعور، نظرًا لما كانوا يعطونه من ولاء للبيزنطيين على حساب العباسيين، إذ نصبوا أنفسهم العين الساهرة لهم ومدّهم بشتى الأخبار عن تحركات الجيش الإسلامي وتحصيناته.

ويقول المقرئ<sup>٤</sup> إن أسباب تهديم الكنائس يعود إلى شغب حدث بين أهل الملك والمسلمين، وهذا ما أكّده الطبري أعلاه، فإنه في سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م، ثار المسلمون بدمشق، وهدموا كنيسة وأخذوا ما فيها ونهبوا بعدها عدة ديارات. وحصل شغبٌ أيضًا في الرملة فهدم المسلمون كنيسة للمكية وكنيسة قيسارية، فاشتكى النصارى للمقتدر<sup>٥</sup> فأمر لهم بعد ذلك ببناء ما تهدّم.

وكذلك ثار المسلمون بعسقلان، وهدموا كنائس ولكن اليهود هناك كانوا يضرمون النار في سقف الكنائس سرًا، ليزيدوا من الخلاف بين المسلمين.

١. الظاهر على ابن الحاكم، الخليفة الفاطمي السابع (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م) كان صغيرًا عند وفاة أبيه فقامت بالوصاية عليه عمته بنت الملك (١٠٢١-١٠٢٤م) ضعفت في عهده سيادة الدولة.

٢. المستضيء بالله الحسن بن المستنجد، الخليفة العباسي الثالث والثلاثين (٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م) في عهده زالت الخلافة الفاطمية في مصر. إشتهر بالجدول والعدل.

٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ١٠٠. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ١٣٦.

٤. المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٤٩١.

٥. المقتدر بالله جعفر بن المعتضد، الخليفة العباسي الثامن عشر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) خلف أخاه المكتفي. حاول القضاء على نفوذ مؤنس أمير الأمراء فقتل. في عهده ظهر الخلفاء الفاطميون في أفريقيا عام ٩٠٩م، والأمويون في قرطبة عام ٩٢٩. وأغار القرامطة على العراق واحتلوا مكة عام ٩٣٠، ونقلوا الحجر الأسود إلى الإحساء.

\*\*\*\*\* الفصل الحادي عشر \*\*\*\*\*

الأطباء السريان  
في المجتمع العباسي الإسلامي



لما كان الطبّ أحد الأركان التي تركز عليها الخلافة العبّاسية، فقد اهتمّ الخلفاء العبّاسيون بهذه الصناعة، وأغدقوا على الأطباء الأموال الطائلة، وأجزلوا لهم العطايا والمنح والهبات، وقلّدوهم المناصب العالية في إدارة الدولة، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال بلاط الخلافة. وكان الجميع يرغبونهم بالبذل والإكرام، بقطع النظر عن طوائفهم وشيعهم أو أنسابهم. فقد كان فيهم المسيحي واليهودي والصائبي والمجوس والسامري. وقد شهد جميع هؤلاء على اختلاف مللهم ونحلهم عهدًا عظيمًا من الحرّية والثقة والأمن.

وكان الخلفاء المسلمون يتّخذون منهم أحيانًا وزراء ويعاملونهم كافة بالرفق والإكرام، وظل السريان يتمتعون بكلّ معاني الحرّية الدينية والسياسية والفكرية طوال هذا العهد (٧٥٠-١٢٥٨م) ولذلك كثر الإقبال عليهم واستقدامهم إلى مواطن المرض طمعًا في الشفاء.

وقد بلغ من إكرام الخليفة أبو جعفر المنصور لطبيبه جورجيس بن بختيشوع، أنه أمر أن يحضروا له الشراب - وهو كما نعلم محرّم في الإسلام - وذلك أنه رأى وجهه يتغيّر على أثر إقامته في بغداد، فقال المنصور للربيع: «أرى هذا الرجل قد تغيّر وجهه، لا يكون قد منعتة مما يشربه على عادته؟

قال له الربيع: لم تأذن أن يدخل هذا الدار مشروبًا.

فأجابه بقبیح العبارة وقال له: لا بدّ أن تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كلّ ما يريده. فمضى الربيع إلى قطر بل<sup>١</sup> وحمل منها ما أمكنه من الشراب الجيد<sup>٢</sup>.

١. قطر بل: موضع في العراق جنوب بغداد قريب منها، اشتهر بجودة الخمر (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، هامش ص ١٨٤).

٢. عيون الأنبياء، ص ١٨٤.

وفي سنة ١٥٢هـ/ ٧٦٩م، مرض جورجيس مرضًا صعبًا، وكان الخليفة يرسل إليه في كل يوم من يستعلم عن صحته. ولما اشتد مرضه، أمر الخليفة فحمل على سرير إلى دار العامة، وخرج ماشيًا وراءه<sup>١</sup>، وسأل عن أحواله<sup>٢</sup>.

وقد بلغ من شدة احترام الخلفاء لأطبائهم أنهم أطلقوا يدهم في دورهم وسمحوا لهم بالتدخل في أمورهم الخاصة. فبختيشوع بن جيورجيس نظرًا لشهرته الواسعة، أصبح مقدمًا عند الملوك فخدم الخليفة هارون الرشيد والأمين (١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٩-٨١٣م)، والمأمون والمعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) والواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م) والمتوكل (٢٣٢-٢٣٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) وكسب مالا وافرا وكان الخلفاء يأتمنونه ويثقون به في معالجة نساءهم<sup>٣</sup>.

وقد حدث أحمد عيسى في كتابه «معجم الأطباء» أن مسعود البغدادي المعروف بابن القس، خدم الخليفة المعتصم، واختص به وطب حرمه وأولاده وخواصه، وارتفعت منزلته عنده<sup>٤</sup>.

وقد لعبت ثقافة الطبيب ومهارته وإخلاصه دورًا أساسيًا في ترسيخ هذه الثقة ومن ذلك أنه عندما تمكن جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس بن بختيشوع بن جيورجيس من شفاء حظية الرشيد أمر له بخمسمائة ألف درهم وازدادت منزلته سموًا عنده، فجعله رئيسًا على جميع الأطباء. وكان نفوذ جبرائيل يزداد قوة حتى أن الرشيد قال لأصحابه: «كل من كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأنني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني». فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم<sup>٥</sup>. وعندما أراد جبرائيل زيارة منزل جالينوس أمر الرشيد أن يضم إليه ألف فارس ووافاه من الخبز والطعام ما يفيض عن يرافقه<sup>٦</sup>.

١. تاريخ الحكماء، ص ١٥٩. (خرج ماشيًا إليه).

٢. تاريخ الحكماء، ص ١٥٩-١٦٠. عيون الأنباء، ص ١٨٥. تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٢.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٣. تاريخ الحكماء، ص ١٠٠-١٠١.

٤. أحمد عيسى، معجم الأطباء، ص ٤٩٠-٤٩١.

٥. عيون الأنباء، ص ١٨٨.

٦. تاريخ الحكماء، ص ١٣٦-١٣٧. عيون الأنباء، ص ١١٨-١١٩.

وقال إسحق علي الرهاوي في كتاب «أدب الطبيب» عن عيسى بن ماسه، «إن يوحنا بن ماسويه أخبره أن الرشيد قال لجبرائيل بن بختيشوع وهو حاج بمكة، دعون لك والله في الموقف دعاءً كثيرًا، ثم التفت إلى بني هاشم فقال: عسى أنكرتم قولي له؟ فقالوا: يا سيدنا ذمي.

فقال: ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحنا وبقائنا.

فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين»<sup>١</sup>.

ولما ملك محمد الأمين ووافى إليه جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس أحسن استقباله وإكرامه، ووهب له أموالاً جليلة. أكثر مما كان أبوه يهبه. وكان لا يأكل ولا يشرب إلا برأيه ومشورته<sup>٢</sup>.

وقد زاد المأمون في إكرامه وإجلاله حتى انتهى به الأمر إلى أن كل من تقلد عملاً لا يخرج إلى عمله إلا بعد أن يلقي جبرائيل ويكرمه، وكان عند المأمون مثل أبيه، وصار إذا خاطبه كناه بأبي عيسى جبرائيل<sup>٣</sup>. وللمأمون شعر فيه:

أفي طبك يا جبريل بل ما يشفي ذوي العلة  
غزال قد سبى عقلي بلا جم ولا زلة

وجبرائيل بن بختيشوع هو الذي يعنيه أبو نواس في قوله:

سألت أخي أبا عيسى وجرائيل له عقل  
فقلت الراح تعجبني فقال كثيره قتل  
فقلت له: فقدر لي فقال وقوله فصل

١. عيون الأنباء، ص ١٨٩.

٢. تاريخ الحكماء، ص ١٤١. عيون الأنباء، ص ١٨٩.

٣. عيون الأنباء، ص ١٩٠.

٤. عيون الأنباء، ص ٢١٠.

وجدت طبائع الإنسا ان أربعة هي الأصل  
فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطل<sup>١</sup>

وقد ورد عند القفطي أن جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس قال: «ولقد أفضل عليّ الخلفاء، ورفعوني من خدمة الطبّ إلى المعاشرة والمسامرة، وأنه ليس لأمر المؤمنين أخ ولا قرابة، ولا قائد ولا عامل إلاّ وهو يداريني، إن لم يكن مائلاً بمحبته لي وشاكراً لعلاج عاجلته به، ومحضر جميل حضرته له ووصفته حسناً عند الخليفة فنفعه، وكلّ واحد من هؤلاء يفضل عليّ ويحسن إليّ»<sup>٢</sup>.

وكان تقدير بعض الخلفاء لأطبائهم يفوق تقديرهم لكبار موظفي الدولة عندهم. فقد أخبر يوحنا بن ماسويه عن المعتصم أنه قال: «سلمويه طيبني أكبر عندي من قاضي القضاة، لأن هذا يحكم في نفسي، ونفسي أشرف عندي من مالي وملكلي»<sup>٣</sup>.

وبلغ من إكرام المعتصم له، أنه إذا ورد له كتاب يقتضي توقيعاً، وكان سلمويه حاضراً فأمره أن يوقع عنه بخطّه، وكان كلّ ما يرد على الأمراء والقواد من صدور أمر أو توقيع من الخليفة فبخطّ سلمويه<sup>٤</sup>.

وكان الخليفة المعتصم أيضاً يأمر بتلاوة رسائله على سلمويه ومناظرته فيها، فإن استصوب رأيه، أمر الخليفة بختمها وإيصالها<sup>٥</sup>.

وكانت توقيعات المعتصم في السجلات ترد إلى الدواوين بخطّ سلمويه.

ومن أدلّة إكرام الخليفة المعتصم لطيبه سلمويه، أنه ولّى أخاه إبراهيم بن بنان خزن بيوت المال في البلاد، وخاتمه مع خاتم الخليفة، وكان يتولّى إيصال رسائل الخليفة في جميع الأوقات<sup>٦</sup>.

١. دعوة الأطباء، ص ٣٩. عيون الأنباء، ص ٢٠٠-٢٠٥.

٢. تاريخ الحكماء، ص ١٣٩.

٣. عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

٤. جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلامي، ج ٣، ص ١٨١. خير الله، الطبّ العربي، ص ٥١.

٥. عيون الأنباء، ص ٢٣٧.

٦. عيون الأنباء، ص ٢٣٤-٢٣٥.

ولما مرض سلمويه، أمر المعتصم ولده أن يعود، فعاده<sup>١</sup>.

ثم قال: «أنا أعلم وأتيقن إنني لا أعيش بعده، لأنه كان يراعي حياتي ويدبّر جسمي»<sup>٢</sup>.

قال حنين بن إسحق نقلًا عن أبيه: «إن سلمويه كان أعلم أهل زمانه بصناعة الطبّ، وكان المعتصم يسمّيه أبي. فلما اعتلّ سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال: «تشير عليّ بعدك بما يصلحني».

فقال سلمويه: «لا يعزّ عليّ بك سيّدي. ولكن عليك بهذا الفضولي يوحنا بن ماسويه، وإذا شكوت إليه شيئًا فقد يصف فيه أوصافًا فإذا وصف فخذ أقلها أخلاطًا. فلما مات سلمويه امتنع المعتصم عن الطعام يوم موته. وأمر أن تحضر جنازته الدار، ويصلّى عليه بالشمع والبخور على زيّ النصارى الكامل.

ففعل بحيث يبصرهم ويباهي في كرامته. وحزن عليه حزنًا شديدًا. وكان المعتصم قوي الجسم، وكان سلمويه يقصده في السنة مرّتين، ويسقيه بعد كلّ مرّة دواءً مسهلاً، ويعالجه بالحمية في أوقات فأراد يوحنا أن يريه غير ما عهد فسقاه دواء قبل الفصد. فلما شرب الدواء حمي دمه وحّم. وأخذ جسمه يهزل حتى مات، وذلك بعد عشرين شهرًا من وفاة سلمويه»<sup>٣</sup>.

وكان المعتصم يقول دائماً: «لي خادمان يصل كلّ واحدٍ منهما إليّ في مجالس جدي وهزلي، بل يصل إلى مرقدني ومتوضئي، وهما مسرور سمانه الخادم، وسلمويه بن بنان»<sup>٤</sup>.

وكان الخليفة يفرض احترام طبيبه على سكان قصره، ويعمل على مُراضاته إذا ما أغضبه أحد: «كان الواثق مشغوفًا بيوحنا بن ماسويه حينئذٍ به، فشرّب يوماً عنده فسقاه الساقى شرابًا غير صافي ولا لذيدًا، على ما جرت به العادة، وهذا من عادة السقاة إذا قصّر في برّهم، فلما شرب القدح الأول قال: يا أمير المؤمنين، أما المذاقات فقد عرفتها، وأعتدتها،

١. عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

٢. الفهرست، ص ٤١٢-٤١٣. تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧. عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

٣. تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧-٢٠٨. عيون الأنباء، ص ٢٣٤-٢٣٥. تاريخ مختصر الدول.

٤. عيون الأنباء، ص ٢٣٥.

ومذاقة هذا الشراب خارجة عن طبع المذاقات كلّها، فوجد أمير المؤمنين على السقاة وقال: يسقون أطبائي في مجلسي مثل هذا الشرب، وأمر ليوحنا، بهذا السبب، وفي ذلك الوقت بمائة ألف درهم، ودعا بسمانة الخادم، فقال له: إحمل إليه المال الساعة، فلما كان وقت العصر سأل سمانة هل حمل مال الطبيب أم لا؟

فقال: لا بعد.

فقال: يحمل إليه مائتا ألف درهم الساعة.

فلما وصلوا العشاء سأل عن حمل المال فقيل له لم يحمل بعد، فدعا بسمانه وقال: إحمل إليه ثلاثمائة ألف درهم.

فقال سمانه لخازن بيت المال، إحملوا مال يوحنا وإلا لم يبق في بيت المال شيئاً، فحمل إليه من ساعته<sup>١</sup>.

وكانت المنادمة بين الخليفة وأطبائه تجري بمنتهى الصراحة والجرأة، فقد حدث بمصر أحمد بن هرون: «إن المتوكّل على الله حدّثه في خلافة الواثق، إن يوحنا بن ماسويه كان مع الواثق على دكان للواثق في دجلة، ومع الواثق قصبة فيها شص وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك، فحرم الصيد، فالتفت إلى يوحنا وكان على يمينه، فقال: «قم يا مشؤوم عن يميني».

فقال له يوحنا: يا أمير المؤمنين لا تتكلم بمحال يوحنا بن ماسويه الخوزي وأمه الصقلبية المبتاعة بثمانمائة درهم، أقبلت به السعادة إلى أن صار نديم الخلفاء، وسميرهم وعشيرتهم. وحتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله. فيمن أعظم محال أن يكون هذا مشؤوماً ولكن إن أحب أمير المؤمنين أن أخبره بالمشؤوم ومن هو، أخبرته.

فقال: من هو؟

فقال: من ولدته أربع خلفاء، ثم ساق الله إليه الخلافة، فترك خلافته وقصورها وبساتينها وقعد في دكانٍ مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة، لا يأمن عصف

١. عيون الأنبياء، ص ٢٤٦.

الريح عليه فيغرقه. ثم تشبّه بأفقر قوم في الدنيا وشرهم، وهم صيادوا السمك قال المتوكل: «فرأيت الكلام قد أنجع فيه إلا أنه أمسك لمكاني»<sup>١</sup>.

وقال الواثق عقب هذا القول ليوحنا وهو على الدكان: «يا يوحنا، ألا أعجبك من خلة؟»

قال: وما هي؟

قال: إن الصياد يطلب السمك مقدار ساعة فيصيد من السمك ما تساوي الدينار أو ما أشبه ذلك. وأنا أقعد مذ غدوة إلى الليل فلا أصيد ما يساوي درهماً. فقال له يوحنا: وضع أمير المؤمنين التعجب في غير موضعه، إن رزق الصياد من صيد السمك، فرزقه يأتيه لأنه قوته وقوت عياله، ورزق أمير المؤمنين بالخلافة فهو غني عن أن يرزق بشيء من السمك، ولو كان رزقه جعل من الصيد لوفاه مثل ما يوافي الصياد»<sup>٢</sup>.

وكان من مظاهر إكرام الأطباء، إذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة. وفي ذلك قال عبيدالله بن جبرائيل بن بختيشوع: «ما يدل على منزلة بختيشوع عند المتوكل، وانبساطه معه قال من ذلك ما حدثنا به بعض شيوخنا أنه دخل بختيشوع<sup>٣</sup>، يوماً إلى المتوكل وهو جالس على السدة في وسط دار الخاصة، فجلس بختيشوع على عادته معه على السدة، وكان عليه دراعة ديباج رومي، وقد انفتق ذيلها، فجعل المتوكل يحدث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ حد النيفق<sup>٤</sup>، ودار بينهما كلامٌ اقتضى أن يسأل المتوكل بختيشوع: بإذا تعلم أن المشوش<sup>٥</sup> يحتاج إلى الشد والقيادة؟ قال: إذا بلغ فتق دراعة طبيبه إلى حد النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره، وأمر له في الحال بخلع سنية ومال جزيل»<sup>٦</sup>.

١. تاريخ الحكماء، ص ٣٧٨-٣٨٨. عيون الأنباء، ص ٢٤٩. تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٢.

٢. تاريخ الحكماء، ص ٣٨٧-٣٨٨. عيون الأنباء، ص ٢٤٩. تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٢.

٣. بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع.

٤. الموضع المتسع من القميص أو السروال.

٥. تاريخ الحكماء، ص ٢١٠. تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٤. (الموسوس).

٦. تاريخ الحكماء، ص ١٠٣، عيون الأنباء، ص ٢٠٧. تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٤.

وروى إسحق بن علي الرهاوي، عن عيسى بن ماسة قال: «رأيت بختيشوع بن جبرائيل وقد اعتلّ، فأمر أمير المؤمنين المتوكل، المعتز أن يعوده، وهو إذ ذاك ولي العهد، فعاده... أمر المتوكل الوزير شفهاها وقال له: أكتب في ضياع بختيشوع فإنها في ضياعي وملكي فإن محلّه منا محلّ أرواحنا في أبداننا»<sup>١</sup>.

وفضلاً عما لاقاه الأطباء من رعاية بالغة شملهم بها الخلفاء، فقد أمر الخليفة المتوكل بحبس الشاعر علي بن الجهم ونفيه إلى خراسان عندما هجا طبيبه بختيشوع<sup>٢</sup>.

وكانت مواكب الأطباء إذا ركبوا مثل مواكب الأمراء والوزراء، ونقل عن بعض التواريخ:

«إن الفتح بن خاقان<sup>٣</sup> كان كثير العناية بإسرائيل الطيفوري، فقدّمه عند المتوكل، ولم يزل حتى أنس به المتوكل وجعله في مرتبة بختيشوع، وعظّم قدره، وكان متى ركب إلى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الأمراء وأجلاء القواد، وبين يديه أصحاب المقارع، وأقطعاه المتوكل قطيعة بسرّ من رأى - اختارها الطيفوري بنفسه - ودفع إليه ثلاثمائة ألف درهم للنفقة عليه. وحكي عن عيسى بن ماسة أنه قال: «رأيت المتوكل، وقد غشي عليه، فصيرّ يده تحت رأسه مخدة، ثم قال للوزير: يا عبدالله حياتي معلقة بحياته إن عدمته لا أعيش. ثم اعتلّ فوجد سعيد بن صالح حاجبه وموسى بن عبد الملك كاتبه يعودانه»<sup>٤</sup>.

ومن المستطرف أن يكون لفخامة ثياب الأطباء أثرها في عيون الناس، فالمبالغة في إكرامهم والسخاء عليهم، جعلهم يرتدون ثياباً تتمناها الخلفاء. من ذلك أن الخليفة المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٩م) كان قد اعتلّ في أيام المتوكل علّة من حرارة امتنع معها من تناول الأطعمة والأدوية، فشقّ (فشقى) ذلك على المتوكل كثيراً واغتمّ، وصار إليه بختيشوع والأطباء عنده، وهو على حاله من الامتناع، فهازحه بختيشوع وحادثه.

١. عيون الأنباء، ص ٢٠٧.

٢. تاريخ الطبّ العراقي، ص ٣٥.

٣. الفتح بن خاقان، وزير الخليفة المتوكل. قتل معه بسرّ من رأى عام ٢٤٧هـ/٨٦١م. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٥٠.

٤. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٢٥.



فأدخل المعتزّ يده في جَبَّةٍ كانت على بختيشوع وقال: ما أحسن هذا الثوب، فقال بختيشوع: يا سيدي ما له والله نظير في الحسن، وثمره عليّ ألف دينار، فكلّ تفاحتين وخذ الجبّة، فدعا بتفاحتين، فأكل إثنين. ثم قال له: تحتاج الجبّة يا سيدي إلى ثوب يكون معها، وعندني ثوب هو أخ لها، فاشرب لي شربة سكنجبين<sup>١</sup> وأخذه فشربه، ووافق ذلك اندفاع طبيعته فبرأ المعتزّ، وأخذ الجبّة والثوب وشفى، فحفظ المتوكّل هذا العمل لبختيشوع، وزاد في إكرامه<sup>٢</sup>.

وكان الخليفة لا يتناول دواءً إلا بإذن طبيبه<sup>٣</sup> فإذا فعل ولم يستأذنه غضب عليه، فيضطر الخليفة إلى استرضائه وقيل إن اسرائيل بن زكريا الطيفوري غضب على المتوكّل لما احتجم بغير إذنه، فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار، وضيعة تغلّ له في السنة خمسين ألف درهم وهبها له<sup>٤</sup>.

وكان الأطباء أول من يدخل على الخليفة للنظر في ما يحتاجونه إليه وما يصلح أبدانهم<sup>٥</sup> فيختارون لهم الأطعمة المناسبة ويشرفون عليهم أثناء تناولهم<sup>٦</sup> ويسهرون على راحتهم. قال جبرائيل بن بختيشوع: «كنت مع الرشيد بالرقّة وكنت أول من يدخل عليه في كلّ غداة أتعرف حاله في ليلته ثم يحدثني وينبسط إلى أن يسألني عن أخبار العامة، فدخلت عليه يوماً فسلمت عليه فلم يكدر يرفع طرفه ورأيته مفكراً عابساً مهموماً...

فلما طال ذلك أقدمت، فسألته عن حال وما سببه فقال: إن فكري وهمّي لرؤيا رأيتها في ليلتي هذه، قد أفزعتنني وملأت صدري. فقلت: فرجت عني يا أمير المؤمنين الرؤيا إنها تكون لخاطر أو بخارات رديئة وتهاويل السوداء وهي أضغاث أحلام... فأمرته باللهو والانبساط ففعل ونسينا الرؤيا وطالت الأيام<sup>٧</sup>.

١. السكنجبين: شرابٌ مكوّن من خلّ وعسل. القانون، ج ٣، ص ٣٦٤.

٢. تاريخ الحكماء، ص ١٠٢. عيون الأنباء، ص ٢٠٦.

٣. عيون الأنباء، ص ٢٣٤-٢٣٥.

٤. عيون الأنباء، ص ٢٢٥.

٥. تاريخ الحكماء، ص ٢٤١. عيون الأنباء، ص ٢٤١-٢٤٢.

٦. عيون الأنباء، ص ١٩٠-١٩١. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ١، ص ٢٩-٣٠.

٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥ ص ١٢٩.

وكان يشتكي دومًا من إحاطته بالجواسيس، فقال «وكل واحد من ولدي علي رقيب، فمسرور رقيب المأمون وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين وما منهم أحد وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري»<sup>١</sup>.

وعندما كان الخليفة هارون الرشيد يجتمع بطبيبه بن بختيشوع يرفض أن يدخل عليها أحد من دون إذن ويسري هذا التدبير حتى على وزيره يحيى بن خالد الذي كان قد سمح له في ما مضى أن يدخل عليه ساعة يشاء من دون إذن فلفت نظره إلى هذا الأمر بحضور طبيبه جبرائيل<sup>٢</sup>.

وكان جبرائيل الكحال أول من يدخل على المأمون بعد الصلاة فيغسل أجنانه، ويكحل عينيه، فإذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك<sup>٣</sup>.

وكثيرًا ما كان الخلفاء يمازحون أطباءهم ويماجنونهم<sup>٤</sup>، وكذلك فعل وزراؤهم، فقد ذكر ابن بطلان أن القاسم بن عبيدالله وزير المعتضد بالله كان يحبّ مداعبة حنين بن إسحق، وكان حنين بعد أن خدم الخلفاء والرؤساء قد انقطع إلى القاسم بن عبيدالله واختصّ به حتى أن الوزير المذكور، كان يطلعه على أسراره ويفضي إليه بما يكتمه عن غيره<sup>٥</sup>.

بلغ القاسم بن عبدالله، أن حنين بن إسحق شرب دواءً مسهلاً، فأحبّ مداعبته وكان صديقًا له، فكتب إليه:

أبن لي كيف أمسيت  
وكم سارت بك الناقّة  
وكم كان من الحال  
نحو المنزل الخالي

١. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١٢٧.

٢. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١١٥.

٣. تاريخ الحكماء، ص ١٥٢. عيون الأنباء، ص ٢٤١-٢٤٢.

٤. تاريخ الحكماء، ص ١١٥-١١٦ و٣٢٩-٣٣٠. عيون الأنباء، ص ٢٠٧ و٢٤٩، مختصر الدول، ص ١٥٣.

٥. وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٠٥-٢٠٦.

٦. دعوة الأطباء، ص ٦٥-٦٦.

فردّ عليه حنين بن إسحق:

بخير كنت مسرورًا      رضيّ الحال والبال  
فإما السير والناقاة      والمرتع الخـالي  
فأجلالك إنسانية      يا غاية آمـالي<sup>١</sup>

وخدم يوحنا بن بختيشوع بصناعة الطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل وكان يعتمد عليه كثيرًا ويسمّيه مُفرج كربى، ومما يدلّ على رفعة منزله ما حدّث به إبراهيم بن العباس بن طومار الهاشمي فقال: «كان الموفق إذا جلس للشراب يقدّم بين يديه صينية ذهب، ومغسل ذهب، وخرداذي<sup>١</sup> بلور، ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه، ويقدم إليه مثل ذلك، وكذلك بين يدي غالب الطيب. ثم يقدّم إلى جميع الجلساء صواني مدهون، وقناني زجاج و نارنج، قال: وسمعته قد شكى إلى الموفق ما يجري عليه في صناعته، فتقدّم الموفق إلى صاعد بأن يكتب له جميع ما يريد. ثم أن يوحنا حضر بعد مدة مديدة فعدد على الموفق إحسانه إليه، ومعرفة عنده، وأن صاعدًا يكدر إحسانه إليه، ويكتب إلى العمّال كتبًا في ما يبطل عليه ضياعه وأملاكه، فتقدّم إليه الموفق بالانصراف إلى مضره، وأعلمه بكيفية الفكر في هذا. ووجه الموفق إلى صاعد فأحضره ووجه إليه وقال له: أنت تعلم أنه ليس في هذه الدنيا من أستريح إليه، وأعلم ما في سويداء قلبي، وهو مُفرج كربى، غير يوحنا. وأنت دائب الحيلة على تنغيص عيشي بشغل قلبه عن خدمتي، فعل الله بك وفعل. فلم يزل صاعد يحلف له حتى حلّ سيفه ومنطقته، وقال له: «إمض الساعة مع راشد إلى مضر يوحنا، ولا تدع جهدًا في أن تتوصّل إلى جميع ما يحبّه وتوثق له، وخذ خطة بأنك قد بلغت له كلّ ما أراد وأنفذه إليّ مع راشد». ثم دعا بمنديل وجعله في حجره... وجعل يكتب ويخرط الخرائط، حتى بلغ ما أراده يوحنا... وما احتاج يوحنا بعد ذلك أن يستزيد في شيء من أموره»<sup>٢</sup>.

ولما ولي المقتدر الخلافة استكتب عبيدالله بن بختيشوع لمدة طويلة، فعظمت منزلته عنده حتى صار رئيسًا للأطباء<sup>٣</sup>.

١. جاء في هامش ص ٢٢٦، من عيون الأنباء: إن الصحيح الخروازي وهي الخمر. وهنا جاءت بمعنى الوعاء الذي يوضع فيه الخمر.

٢. عيون الأنباء، ص ٢٧٦.

٣. تاريخ الحكماء، ص ١٩١.

واشتهر من بين أطباء القاهر عيسى بن يوسف، المعروف بابن العطار، فقد جعله القاهر موضع ثقته، ومشيرته وسفيره إلى وزرائه. وتقدم في وقته تقدماً كبيراً. وشاركه سنان بن ثابت بن قره الطب. وكان مختصاً بالقاهر، ولشدة اغتباط القاهر بسنان أرادته على الإسلام فهرب، ثم أسلم، وخاف من القاهر فمضى إلى خراسان. ثم عاد وتوفي في بغداد مسلماً<sup>٢</sup>.

وكان الطبيب يقوم أحياناً بدور الوسيط لحل بعض الأمور السياسية العالقة. فقد رُوي أن مازيار أحد أبناء ملوك طبرستان ووالي جبال طبرستان من قبل الخليفة المأمون لما أخفق في حروبه على الخليفة، أشار إلى كاتبه الطبيب علي بن ربّان الطبري<sup>٣</sup>، أن يستعطف قائد الخليفة ويطلب الأمان منه. وبعد نجاحه في مسعاه عاد إلى الري يمارس مهنة الطبّ ثانية، بعد أن كان قد تركها عندما دخل في خدمة مازيار، ثم ما لبث أن تولّى الكتابة في ديوان المعتصم<sup>٤</sup>.

واشتهر في أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الطبيب هبة الله بن صاعد بن التلميذ، الذي خدم الخلفاء من بني العباس، وارتفعت مكانته عندهم. ويُروى أنه كان يحضر عند المقتفي (٥٣٠-٥٥٠هـ/ ١١٣٦-١١٦٠م) كلّ أسبوعٍ مرّة، فيجلسه بنفسه لكبر سنّه. وكانت دار القوارير ضيقة مجرّاة في إقطاعه فحلّها الوزير بن هبيرة في ولايته. حضر ابن التلميذ يوماً عند الخليفة على عادته، فلما أراد الانصراف عجز عن القيام لضعف الكبر، فنهض متوكئاً على ركبتيه. فقال له المقتفي يا حكيم كبرت<sup>٥</sup>. فقال: نعم، وتكسّرت قواريري وهذا ما يتماجن به أهل بغداد لمن عجز وعطل، ففطن الخليفة إلى ما رمى إليه وقال: رجل عمّر في خدمتنا، وما تماجن قط، ولهذا التماجن سرّ، وسأل عن دار القوارير، فقيل له: حلّها الوزير عنه، من مدة ثلاث سنين، فتعجّب الخليفة من حسن أدب

١. القاهر بالله محمد، (٩٣٢-٩٣٤) الخليفة العباسي التاسع عشر أساء سياسة الرعية فأُسرّ وسملت عيناه. سجن ١١ عامًا وعاش متسولاً.

٢. تاريخ مختصر الدول، ص ١٦٢.

٣. الفهرست، ص ٤٢١. تاريخ الحكماء، ص ١٩٠. عيون الأنبياء، ص ٣٠٠-٣٠١.

٤. فردوس الحكمة، المقدمة، ص ٩.

٥. عيون الأنبياء، ص ٣٥١. (كبرت يا أمين الدولة).

أمين الدولة، وأنه لم يمه أمرها إليه، ولا طالب بها. وأنكر الخليفة تصرف الوزير، وأمر بردها إليه وأن لا يعارض في شيء من ملكه، وزاده إقطاعاً<sup>١</sup>.

وقد تقدم أبو الفرج صاعداً بن هبة الله بن توما في أيام الناصر بالله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م)، فأصبح بمنزلة الوزراء، واستوثقه الناصر على حفظ أمواله وخططه وكان يودعها عنده ويرسله في أمور خفية إلى وزرائه، ويظهر له في كل وقت، وكان حسن الوساطة، جميل المحضر، قضيت على يديه حاجات واستكفيت بواسطته شروراً<sup>٢</sup>، وكان صاعد قبل ذلك طبيب نجم الدولة أبي اليمن الشراي، وارتفعت به الحال إلى أن صار وزيره وكتابه، ثم دخل على الخليفة الناصر وكان يشارك من يحضر من أطبائه أوقات مرضه<sup>٣</sup>.

ويذكر القفطي أن المسيحي ابن أبي البقاء المعروف بابن العطار، وكان له ذكر وقرب من دار الخلافة، يطب للنساء، وللحواشي ويطأ بساط الخليفة لأجل ذلك، وتيمن الناس بعلاجه وتباركوا بمباشرته<sup>٤</sup>.

وتوصل الأطباء في أيام الأيوبيين (ضمن الدولة العباسية) إلى مراكز الدولة الكبرى، وكانوا يستشيرونهم في أمور دولتهم. فقد خدم موفق الدين بن المطران بصناعة الطب، الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي<sup>٥</sup>، وحظي في أيامه، وكان عنده رفيع المنزلة عظيم الجاه، وكان يتحجب عنده ويقضي أشغال الناس، ونال منه أموالاً كثيرة. وكان صلاح الدين حسن الاعتقاد به، لا يفارقه في سفر أو حضر، ولهذا غمره بإحسانه. وكان يغلب على ابن

١. تاريخ الحكماء، ص ٣٤٢-٣٤١. عيون الأنباء، ص ٣٥١. وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٧٥-٧٦.

٢. ورد اسمه في تاريخ الحكماء، ص ٢١٢. (صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما أبو الكرم).

٣. تاريخ الحكماء، ص ٢١٢. عيون الأنباء، ص ٤٠٥. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤١.

٤. عيون الأنباء، ص ٤٠٥. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤١. فوات الوفيات، ج ٢، ص ١١٥.

٥. المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

٦. صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨-١١٩٣) وُلد في تكريت (العراق) وتوفي في دمشق. مؤسس الدولة الأيوبية. أكبر ملوك المسلمين على أيام الصليبيين. عزل الخليفة الفاطمي واعترف بسلطة الخليفة العباسي في بغداد (١١٧١) انتصر على الزنكيين قرب حمص واحتل سوريا والموصل. استولى على طبرية وهزم الإفرنج قرب حطّين عام ١١٨٧، أسر ملك القدس غي دي لوزينيان وفتح بيت المقدس.

المطران الزهو بنفسه والتكبر حتى على الملوك، ورغم ذلك كان صلاح الدين يحترمه ويحمله، لما قد تحققه من عمله.

ومما يذكر عن عجب ابن المطران وإدلاله على صلاح الدين أنه كان معه في بعض غزواته. وكانت عادة صلاح الدين، أثناء حروبه أن ينصب خيمة حمراء، وكذلك دهليزها وشقتها. وبينما صلاح الدين ينتقل على حصانه لاحت له خيمة حمراء، وكذلك شقتها ومستراجها. فتأملها ملياً، ثم سأل لمن هي؟ فأخبر أنها لابن المطران الطيب. فقال: والله لقد عرفت أن هذا من حماقة ابن المطران، وضحك ثم قال: ما بنا ألا يعبر بنا أحد من الرسل، فيعتقد أنها لأحد الملوك، وإذا كان لا بدّ فليتغير مستراجها. فأمر برميها. ولما رُمي صعب ذلك على ابن المطران، وبقي يومين لا يقرب الخدمة فاسترضاه السلطان ووهب له مالاً.

وفي رواية ثانية عن إدلال ابن المطران ورفضه أن يقاسمه أحد محبة السلطان وإكرامه له. فقد روي أنه كان في خدمة صلاح الدين طيباً يقال له أبو الفرج النصراني، وكان يتردد إلى دوره، طلب أبو الفرج من السلطان أن يساعده في تجهيز بناته. فقال له صلاح الدين: أكتب في ورقة ما تحتاج إليه من تجهيزهن. دون أبو الفرج ما يحتاج إليه من المصاغ والقماش والآلات وغيرها بنحو ثلاثين ألف درهم، فأمر صلاح الدين الخازن دار بأن يشتري لأبي الفرج جميع ما ذكره.

ولما بلغ ذلك ابن المطران قصر في ملازمته الخدمة، ولاحظ صلاح الدين الذي تغير في وجهه، فعرف السبب، ثم أمر الخازن دار أن يحسب جملة ما وصل إلى أبي الفرج، ومهما بلغ من المال، يدفع لابن المطران مثله سواء ففعل<sup>١</sup>. وعلى الرغم من مظاهر الإكرام والجاء التي نعيم بها الأطباء، فإن بعضهم رفض الدخول في الخدمة لأسباب. فقد رفض عيسى بن صهاربخت الذهاب إلى بغداد لخدمة المنصور، وفضل البقاء في البيهارستان في جنديسابور<sup>٢</sup>.

ومما حكي عن أمين الدولة ابن التلميذ: «أنه كان لا يقبل عطية لا من خليفة أو سلطان، فعرض لبعض الملوك ثانية. داره مرض مزمن فقيل له: ليس لك إلا ابن

١. عيون الأنباء، ص ٦٥٢-٦٥٣.

٢. تاريخ الحكماء، ص ١٤٨.

التلميذ، وهو لا يقصد أحدًا، فقال: أنا أتوجّه إليه فلما وصل أفرد له ولعلمانه دورًا أفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية، ولبت مدة فبرئ الملك وتوجّه إلى بلاده وأرسل إليه مع بعض التجّار أربعة آلاف دينار وأربعة تحوت عتاي وأربعة مماليك وأربعة أفراس، فامتنع من قبولها، وقال: عليّ يمينًا أن لا أقبل شيئًا، فقال التاجر: هذا مقدار كثير. قال: لما حلفت ما استثنيت وأقام شهرًا يراوده ولا يزداد إلا إباء فقال له عند الوداع: ها أنا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي، وأمتع بالمال قتلقد منته، وتفوتك منفعتة، ولا يعلم أحد بأنك رددته. فقال: أعلم في نفسي إني لم أقبله، فنفسى تشرف بذلك، علم الناس أو جهلوا<sup>١</sup>.

وكثيرًا ما كان الطامعون بالحكم يسعون إلى تكليف طيبب الخليفة للقضاء عليه. وقد حدّث الصولي<sup>٢</sup> في كتاب الأوراق فقال: «ظهرت في رقبة الخليفة المأمون نفخة، كانت تعتاده ويراعيهها الطيبب إلى أن تنضج وتفتح وتبرأ. فقال المعتصم للطيبب وهو ابن ماسويه، ما أطرف ما نحن فيه تكون الطيبب المفرد المتوحد في صناعتك وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين أفلا نزيلها عنه وتتلطف في جسم مادتها حتى لا ترجع إليه. والله لئن عادت هذه العلة لأضربن عنقك. فاستطرد ابن ماسويه لقول المعتصم. فحدّث بعض من يثق به (ابن ماسويه) ويأنس إليه، فقال له: تدري ما قصد المعتصم؟ قال: لا. قال: قد أمرك بقتله حتى لا تعود النفخة إليه، وإلا فهو يعلم أن الطيبب لا يقدر على دفع الأمراض عن الأجسام. وإنما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض إليه. فتعالل ابن ماسويه وأمر تلميذًا له بمشاهدة النفخة والتردد إلى المأمون نيابة عنه، والتلميذ يجيئه كلّ يوم ويعرفه حال المأمون... فأمر بفتح النفخة، فقال له: أعيدك بالله، ما احمرّت ولا بلغت إلى حد الجرح. فقال له إمض وافتحها كما أقول لك، ولا تراجعني، فمضى وفتحها ومات المأمون»<sup>٣</sup>.

١. عيون الأنباء، ص ٣٥٠.

٢. الصولي أبو بكر محمد: تعلّم العربية على أئمة اللغة واشتهر بلعب الشطرنج فتقرّب به إلى الخلفاء. توفي في البصرة عام ٩٤٦م، له كتاب «الأوراق» في أخبار آل عباس وأشعارهم، وعدة دواوين.

٣. عيون الأنباء، ص ٤٥٤.

ولكن شرف المهنة كان يحول دون بعض الأطباء والتأمر على أولياء نعمتهم مهما بذل لهم من المال. وقد رُوي أنه حضر السلطان محمد بن محمود خورازم شاه السلجوقي إلى ظاهر بغداد وتغلب على جيش الخليفة المقتفي، وحاصر بغداد. وكان أمين الدولة بن التلميذ الطبيب النصراني يداوي كليهما متنقلاً من بغداد وظاهرها. فسأله وزير السلطان يوماً قائلاً: أيها الرئيس إنني قد كنت عند السلطان، وذكرت له من فضلك وأدبك ورتاستك، وقد أمر لك بعشرة آلاف دينار. فقال له: يا مولانا، قد أمر لي من بغداد بإثني عشر ألف دينار، أفيأذن لي في قبولها السلطان؟ يا مولانا أنا رجلٌ طبيب لا أتجاوز وظائف الأطباء وما يلزمهم، ولا أعرف إلا ماء الشعير والنقوع والشراب والبنفسج النيلوفر<sup>١</sup>، ومتى أخرجت عن هذا لا أعرف شيئاً، وكان الوزير قد عرض له في حديثه أنه يسعى إلى قتل الخليفة. وبعد مرّة ما لبث أن وقع الصلح بين الخليفة والسلطان. كان أمين الدولة يحذّر دائماً الأطباء من التدخل في أمور أسيادهم الخاصة فيقول: لا ينبغي للطبيب أن يداخل الملوك في أسرارهم، ولا يتجاوز كما تقدم ذكره ماء الشعير والنقوع والشراب.

فمن جاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه وينشد:

وإذا أنبت المهيمن للنمل      جناحاً إطارها الترددي  
ولكلّ امرئٍ من الناس حدًّا      وهلاك الفتى جواز الحدّ<sup>٢</sup>

وقد يستغل الطبيب ثقة الخليفة به، فيتهدى في سوء تصرفه طمعاً بكسبٍ مادي، ويلجأ أحياناً إلى التهديد. فعندما كان عيسى بن شهلا في خدمة الخليفة المنصور، أخذ يسيطر

١. النيلوفر: قال ابن سينا: «قال جينوس: هو كرنب الماء ويسمى حب العروس، أقواه الأبيض الأصل، فهو أقوى من الأسود الأصل، شرابه ملطف (القانون ج ١، ص ٣٥٧). وقد جاء في عيون الأنبياء هامش ص ٣٤٨، أن النيلوفر نوع الرياحين ينبت في المياه الراكدة. وجاء في قطر المحيط للمعلم بطرس البستاني، ص ٢٢٦٤، النيلوفر ضرب من الرياحين.

٢. وهذا ما جرى لابن صفيّة الطبيب المسلم، لغدره وخيانتة، فقد سعى بالاتفاق مع قطب الدين قايباز إلى مقتل الخليفة المستنجد بالله العباسي واستخلاف ابنه المستضعف (عيون الأنبياء، ص ٣٤٧) وكان الخليفة يعلم ما جرى لوالده على يديه ومن استمراره في سوء الأمانة، فاستحضره ليلاً وقال له: يا حكيم عندي من أكره رؤيته وأريد إبعاده بوجوه لطيف غير شفيع. فقال له: ترتب له شربة قوية بالغة يشرها، وقد حصل الخلاص منه كما تؤثر، فمضى وركب شربة كما وصف وأحضرها ليلاً ودخل إلى الخليفة، ففتحها ونظر إليها وقال: يا حكيم استنف هذه الشربة حتى نجرب فعلها. فنلوى من ذلك وقال: الله الله يا مولانا في؟ فقال له: الطبيب متى تعدّى حدّه وتجاوز طوره وقع في مثل هذا وليس لك من هذا خلاص إلا السيف. فاشتفت الحكيم الشربة التي ركبها. ثم خرج من دار الخليفة وكتب إلى الأمير قطب الدين يعلمه بالحال ويقول له: والانتقال من أمري إلى أمركم، ثم مات. أما قطب الدين فقد نهب أمواله وهرب من بغداد ومضى إلى الشام ليتقرّب من الملك صلاح الدين فرفضه. وفي طريق عودته إلى الموصل مرض، ثم دخل الموصل ومات فيها (عيون الأنبياء، ص ٣٤٧-٣٤٨).



يده في الأذية، خصوصًا على الأساقفة والمطارنة ومطالبتهم بالرشى وأخذ أموالهم. ولما خرج المنصور في بعض سفراته كتب عيسى إلى مطران نصيين<sup>١</sup> يتهدّده ويتوعّده أن منع عنه ما التمسه منه من آلات البيعة، وهي أشياء ثمينة، وكتب في كتابه إلى المطران: «أليس تعلم أن أمر الملك بيدي، وإن أردت أمرضته، وإن أردت شفيته». فلما وقف المطران على الكتاب أطلع عليه الربيع وأخبره بتصرفات الطبيب. فلما اطلع الخليفة على حقيقة الأمر أمر بنفي عيسى بن شهلا مصادرة جميع أملاكه<sup>٢</sup>.

## نوادير الأطباء وطرائفهم

كان بعض الأطباء مدينين بنجاحهم إلى الطرائف. فسهل بن الكوسج، غلب عليه هزله على جدّه وقد جعلته دعاباته محبًّا إلى قلوب معاشريه.

وقد اجتمع مع يوحنا بن ماسويه، وجيورجيس بن بختيشوع، وعيسى بن حكم وعيسى بن خالد، وزكريا الطيفوري، ويعقوب صاحب البيهارستان، والحسن بن قريش وعيسى المسلم وسهل بن جبير، وكان كل من هذه الطبقة من المتطّبين يخاف لسانه لبذاءته وكانت دعاباته أحيانًا تلحق الإهانة بالآخرين خصوصًا إذا كان الدافع لها هو الحسد. من ذلك أنه خرج في يوم الشعانين يريد دير الجائلق<sup>٣</sup>.

والمواضع التي تخرج إليها النصارى في يوم الشعانين، فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة خير من هيئته وعلى دابة أفرة من دابته، ومعه غلمان فحسده على الظاهر من نعمته فصار إلى صاحب مسلحة<sup>٤</sup> الناحية فقال له: «إن ابني يعقني وقد عجبته نفسه، وربما أخرجه العجب بنفسه، وبنعمته إلى جحود أبوتي، وإن أنت بطحته وضربته عشرين درّة<sup>٥</sup> موجعة أعطيتك

١. نصيين: مدينة على طريق القوافل بين الموصل والشام. (معجم البلدان، ٥: ٢٨٨).

٢. تاريخ الحكماء، ص ٢٤٨. عيون الأنبياء، ص ١٨٥.

٣. الجائلق: كلمة يونانية (كاثوليكوس) وتعني العام، الجامع، وهو مقدّم الأساقفة عند النصارى ورئيسهم. ودير الجائلق يقع جنوب بغداد قريبًا منها.

٤. مسلحة: هي كالنغر والمرقب، يكون فيها أقوام يرقبون العدو ويكون لديهم سلاح (لسان العرب ٢: ١٧٩-١٨٠).

٥. درّة: السوط. (عيون الأنبياء، هامش، ص ٢٢٩).

عشرين دينارًا، ثم اعتزل ناحية إلى أن بلغ يوحنا إلى الموضوع الذي هو فيه، فقدّمه إلى صاحب  
المسلحة، وقال: هذا ابني يعقبنني ويستخف بي، فجدد أن يكون ابني، فلم يكلمه صاحب  
المسلحة، حتى بطح يوحنا وضربه عشرين درّة ضربًا موجعًا<sup>١</sup>.

وقيل: «كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس مدينة السلام لمطبّب أو متكلم أو  
متفلسف، لأنه كان يجتمع فيه كلّ صنفٍ من أصناف أهل الأدب. وكان في يوحنا دعابة  
شديدة، يحضر بعض من يحضر من أجلها.

وكان من ضيق الصدر، وشدة الحدة على أكثر مما كان عليه جبرائيل بن بختيشوع  
وكانت الحدة تخرج منه ألفاظًا مضحكة، وكان أطيّب ما يكون مجلسه في وقت نظره قوارير  
البول. ومما حفظ من نوادره في وقت نظره القوارير: إن امرأة أتته فقالت له: إن فلانة وفلانة  
وفلانة يقرآن عليك السلام، فقال لها: أنا بأسماء أهل قسطنطينية وعمورية أعلم فيّ بأسماء  
هؤلاء الذين سمّيتهن، فاطهري بولك حتى أنظر فيه»<sup>٢</sup>.

ومن نوادره هذه في مجلس المتوكّل، إن الخليفة قال لخدم له: «خذ بول فلان في قارورة  
وائت به إلى ابن ماسويه، فأتى به. فلما نظر إليه قال: هذا بول بغل لا محالة. فقال له المتوكّل:  
كيف علمت أنه بول بغل؟

قال ابن ماسويه: أحضرني صاحبه حتى أراه ويتبيّن كذبي من صدقي.

فقال المتوكّل: هاتو الغلام.

فلما مثل بين يديه قال له ابن ماسويه، أيش أكلت البارحة؟

قال: خبز شعير، وماء قراح.

فقال ابن ماسويه: هذا والله طعام حماري اليوم»<sup>٣</sup>.

١. تاريخ الحكماء، ص ١٩٦-١٩٧، عيون الأنباء، ص ٢٢٩.

٢. تاريخ الحكماء، ص ٣٨٥. عيون الأنباء، ص ٢٤٧.

٣. تاريخ الحكماء، ص ٣٤٨. عيون الأنباء، ص ٢٤٧.

ويبدو أن حدة لسانه وحضور نكته، أو جد له كثيرًا من المبغضين بين زملائه ومرضاه، وحتى بين رجال الدين. فقد شكّا إليه يومًا رجل جربًا. وكان كلمًا ذكر له يوحنا دواء يجيبه بأنه استعمله من دون فائدة. فقال له يوحنا: «لم يبقَ شيء مما أمر المتطببون إلا وقد ذكرت أنك فعلته، وبقي شيء، مما لم يذكره أبقراط ولا جالينوس. وقد رأيناها يعمل على التجربة كثيرًا، فاستعمله فإني أرجو أن ينجح علاجك إن شاء الله. فسأله: ما هو؟

فقال: إبتاع زوجي قراطيس وقطّعها رقاعًا صغارًا وأكتب في كلّ رقعة: رحم الله من دعا لمبتلي بالعافية. وألّق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام، والنصف الآخر في المسجد الغربي، وفرقها في المجالس يوم الجمعة، فإني أرجو أن ينفعك الله بالدعاء إذا لم ينفعك العلاج»<sup>١</sup>.

وشكّا إليه رجلٌ آخر جربًا أصابه في أيام الشتاء فقال: «ليست هذه من أيام علاج ما تجد، وإنما علاج دائم هذا في أيام الربيع، فتنبك أكل المعفّنات كلّها، وطري السمك، ومالحه صغار ذلك وكباره، وكلّ حريف من الإبراز والبقول، ومما يخرج من الضرع. فقال له الرجل: هذه أشياء لست أعطي صبرًا على تركها. فقال له يوحنا: فإن كان الأمر على ما ذكرت فأدمن أكلها وحك بدنك، فلو نزل المسيح لك خاصة لما انتفعت بدعائه، لما تصف به نفسك من الشره»<sup>٢</sup>.

ومن نوادره مع رجال الدين، أنه اشتدت عليه علة حتى يئس منه أهله «ومن عادة النصارى إحضار من ئيس منه أهله جماعة من الرهبان والقسيسين والشمامسة يقرأون حوله، ففعل مثل ذلك بيوحنا، فجلس الرهبان حوله يقرأون، فقال لهم: يا أولاد الفسق ما تصنعون في بيتي؟ فقالوا له: كنا ندعو ربنا في التفضّل عليك بالعافية. فقال لهم: قرص ورد أفضل من صلوات جميع أهل النصرانية منذ كانت إلى يوم القيامة، أخرجوا من منزلي فخرجوا»<sup>٣</sup>.

١ . تاريخ الحكماء، ص ٣٨٦، عيون الأنباء، ص ٢٤٧.

٢ . عيون الأنباء، ص ٢٤٨.

٣ . عيون الأنباء، ص ٢٤٨.

وصار إليه يوماً قسيس الكنيسة التي يتقرب منها يوحنا وقال له: «قد فسدت عليّ معدتي. فقال له استعمل جوارشن<sup>١</sup> الخوزي. قال: قد فعلت. فقال يوحنا: فاستعمل السمقونيا<sup>٢</sup>. قال: قد أكلت منها أرطالاً، فأمره باستعمال المقداذيقون<sup>٣</sup>، فقال: قد شربت منه جرّة. قال له: فاستعمل المروسيا<sup>٤</sup> فقال: قد فعلت وأكثر. فغضب وقال له: إن أنت أردت أن تبرأ فاسلم، فإن الإسلام يصلح المعدة<sup>٥</sup>».

ولم يكن ابن ماسويه موفّقاً دائماً في تعليقاته، ومداعباته، فقد قال له مرّة ابن بختيشوع مازحاً وهم في مجلس أبي إسحق إبراهيم بن المهدي في معسكر المعتصم بالمدائن، وكان يداعبه كثيراً: «أنت يا أبا زكريا أخي لأبي، فقال يوحنا لأبي إسحق: أشهد أيها الأمير على إقراره فوالله لأقاسمته ميراثه من أبيه. فقال له بختيشوع: إن أولاد الزنا لا يرثون وقد حكم الإسلام للعاهر بالحجر والهجر. فانقطع يوحنا ولم يجر جواباً<sup>٦</sup>».

وقد تهادى يوحنا بن ماسويه بجرأته إلى درجة إظهار عيوب مريضه معها علّت منزلته، فقد اعتل محمد بن سليمان بن الهادي، المعروف بابن مشغوف علةً تطاولت به.

وكان ابن مشغوف ربما يزيد في الحديث أشياء لا تنطلي على سامعها... فاستشار يوماً يوحنا بن ماسويه في ما يأخذ. فقال يوحنا: قد كنت أشير عليك بما تأخذ في كل يوم وأنا أحسبك تحب الصحة والعافية فأما إذا صحّ عندي أنك تكره العافية، وتحبّ العلة فلست استحلّ أن أشير عليك بشيء. فقال له ابن مشغوف: يا جاهل من يكره العافية ويحبّ العلة؟ فقال له

١. جوارشن الخوزي، قال عنه ابن سينا، «نافع من ضعف الكبد والمعدة وهو جيد للطحال مدر للبول (أخلاطه) يؤخذ قسط وقرنفل وحب البلسان، وسيلخة وجوزبوا والقافلة والقرنفل والأنيسون الخ... كلّها تسحق كالكحل وتعجن بعسل الطبرزد». (القانون ج ١، ص ٢٨١ و ٤١٧، وج ٣، ص ٣٥٠).

٢. السمقونيا: عرّفها ابن سينا بما يلي: «وهو نبات له ثلاثة أغصان كبيرة مخرجه من أصل واحد، وله ورق شبيه بورق البلاب إلا أنه ألين منه، وله ثلاث زوايا. زهره أبيض مستديراً أجوف، ثقل الرائحة له أصل طويل غليظ ممتلئ لبناً. ويؤخذ لبنه من رأسه الأعلى من أصله». (القانون، ج ١، ص ٣٨٥-٣٨٦).

٣. المقداذيقون: لم أجد هذه اللفظة لا في كتاب القانون ولا في كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، وقد وردت عند الفطحي، ص ٣٨٦.

٤. المروسيا: لم أجد هذه اللفظة في أي مصدر من المصادر والقواميس، ولكن ورد لفظه مرو، وهو نوع من الرياحين (القانون، ج ١، ص ٣٦٢). وورد عند ابن سينا وابن البيطار لفظه أمروسيا، وهي نافعة من ضعف الكبد والطحال وصلاتها. وتفتت الحصى في الكلي ومنفعتا في ابتداء الاستسقاء (القانون، ج ٣، ص ٣٢٧). وعند ابن البيطار تنفع المعدة (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ١، ص ٥٥).

٥. تاريخ الحكماء، ص ٣٨٦-٣٨٧. عيون الأنبياء، ص ٢٤٧-٢٤٨.

٦. تاريخ الحكماء، ص ٣٨٧. عيون الأنبياء، ص ٢٤٨.

يوحنا: أنت، والبرهان على ذلك أن العافية في العالم تشبه الحق والسقم يشبه الكذب، وأنت تتكلم أكثر دهرك بالكذب، فيكون كذبك مادة لسقمك، فمتى تبرأ أنت من علة متطاوله، وأنت تمدّها أكثر دهرك بالكذب الزائد فيها. فالزم الصدق ثلاثة أيام ولا تكذب فيها، فيوحنا برئ من دم المسيح، إن لم تخرج من هذه العلة قبل انقضاء هذه الثلاثة أيام<sup>١</sup>.

وكانت الكتابة متبادلة بين الطبييين ابن رضوان وابن بطلان وكلاهما أديب طريف. وقد خرجت بينهما وقائع كثيرة ونوادير ظريفة لا تخلو من فائدة، وقد تضمن كثيرًا من هذه الأشياء كتاب ألفه ابن بطلان بعد خروجه من مصر واجتماعه بابن رضوان. ولا ابن رضوان كتاب في الردّ عليه. وكان ابن بطلان أعذب ألفاظًا وأكثر ظرفًا وأميرًا في الأدب وما يتعلق به. وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق به وكان ابن رضوان أسود اللون، قبيح الصورة، وله مقالة في ذلك يردّ فيها على من عيرّه بقبح الخلقه. وقد بيّن فيها بزعمه أن الفاضل يجب ألا يكون وجهه جميلًا. وكان ابن بطلان أكثر ما يقع في علي بن رضوان من هذا القبيل وأشباهه.

وفي ذلك يقول فيه:

فلما تبدى للقوابل وجهه      نكصن على أعقابهن من الندم  
وقلن وأخفين الكلام تسترًا      ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم

وكان يلقبه بتمساح الجن<sup>٢</sup>. وقد جرت مناظرة قوية بين ابن التلميذ عميد أطباء بغداد وأبي البركات هبة الله الطبيب اليهودي، وكانت بينهما عداوة، وكان أبو البركات لما أسلم يتنصّل كثيرًا من اليهود ويلعنهم ويسبهم. فقد حضر يومًا مجلس أحد الزعماء، وجرى ذكر اليهود. وقال أبو البركات اليهودي الأصل: لعن الله اليهود. فقال أمين الدولة المسيحي، نعم وأبناء اليهود. فوجم أبو البركات وعرف أنه عناه بالإشارة ولم يتكلم<sup>٣</sup>.

١. عيون الأنباء، ص ٢٥١.

٢. عيون الأنباء، ص ٣٢٦.

٣. عيون الأنباء، ص ٣٧٦.

## نكبات الأطباء

لم تخلُ حياة الأطباء، بالرغم من المجد الذي عاشوا فيه من نكبات وكوارث. فمهنة الطبيب كانت محفوفة بالأخطار، لأن الخلفاء كلّفوا الأطباء المحافظة على حياتهم، فقتلوا كل من برع في شفائهم من الأمراض التي انتابتهم أو أَلّت بأسرهم وخاصتهم. فويلٌ للطبيب الذي كان يخفق في معالجة الخلفاء والوزراء والأمراء والسلاطين أو أنسابهم وبطانتهم. فإنه يورد نفسه موارد التهلكة ويذهب ضحية صناعه. وهنئاً لمن ينجح في معالجتهم فإنه ينال خيرهم الوافر، وصلاتهم الغزيرة وعله المنزلة لديهم.

لما مرض الخليفة الهادي (٧٨٥-٧٨٦م) أمر بقتل جميع الأطباء وهم: أبو قريش عيسى، وعبدالله الطيفوري، وداود بن سراييون، الذين أخفقوا بمعالجته. ولكن موت الخليفة حال دون تنفيذ القتل<sup>١</sup>.

ومثل ذلك جرى للطبيب جبرائيل بن بختيشوع مع هارون الرشيد فإنه حكم عليه بالقتل لأنه نسب انتكاساته إلى جهل طبيبه نفسه. ولم ينقذه من القتل إلا موت الرشيد<sup>٢</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن الوزراء كانوا يحولون دون تنفيذ حكم الإعدام الفوري، ففي المرّة الأولى لعلم الربيع باختلال عقل الخليفة من شدة المرض. وفي الحالة الثانية لأن الفضل بن الربيع يئس من حياة الرشيد فاستبقى جبرائيل.

قال فثيون الترجمان: لما ملك الواثق... كان محمّد بن عبدالمملك الزيّات وابن أبي داود يعاديان بختيشوع، ويحسدانه على فضله، وبرّه ومعروفه وصدقاته وكمال مروءته. فكانا يغريان الواثق<sup>٣</sup> عليه... فسخط عليه الواثق وقبض على أملاكه وضياعه، ونفاه إلى جنديسابور<sup>٤</sup>.

١. عيون الأنباء، ص ١٧٦. تاريخ الطبّ عند العرب، ص ١٥.

٢. عيون الأنباء، ص ١٨٩. تاريخ الطبّ عند العرب، ص ١٥.

٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٨٧. (كان القاضي بن أبي داود والوزير الزيّات يعملان ضده عند المتوكّل).

٤. عيون الأنباء، ص ٢٠١-٢٠٢.

وكانت نكبات الأطباء تحدث في بعض الأحيان على سبيل الردع للحدّ من نفوذهم، إذ أن الخلفاء لم يلبثوا بعد نفيهم لأطبائهم أن يستدعوهم لتطبيهم ويغدقون عليهم الرتب والأموال، فنرى ببختيشوع بن جبرائيل، بعد أن نُكِبَ في زمن الوثائق، قد حسنت أحواله أيام الخليفة المتوكّل، حتى بلغ من الجلالة والرقة وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخلافة في الزيّ واللباس والطيب والفرش والصناعات والتفسيخ والبذخ في النفقات، مبلغاً يفوق الوصف فحسده المتوكّل وقبض على أملاكه ونفاه<sup>١</sup>.

وتحكي لنا المصادر هذه الحادثة كما يلي: ... قال المتوكّل لبختيشوع «ادعني»، قال: «عم وكرامة».

فأضافه وأبدى له من الاعتزاز والكرم ما أعجب الخليفة والحاضرين. فاستكثر إذ ذاك المتوكّل ما شاهده من نعمة وغناء. فحقد عليه ونكبه بعد أيام سيرة. ولما ملك المهتدي<sup>٢</sup> عام (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) أذن له بالعودة إلى وطنه وردّ عليه ما ابتزّه المتوكّل منه وأكرمه كثيراً<sup>٣</sup>.

ويعدّ ببختيشوع أول من استعمل طريقة تكييف الهواء والحرارة كما حدّث جدّ أبي محمّد بدر إذ قال: «دخلت إلى ببختيشوع في يوم شديد الحرّ وهو جالس في مجلس مخيش بعدة طاقات وعليه جبة يمانى سعدي مثقلة ومطرف من التحف، فعجبت من زيّه. فحين حصلت معه في القبة، نالني من البرد أمر عظيم فضحك وأمر لي بجبة ومطرف وقال: «يا غلام إكشف جوانب القبة. فكشفت وإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان إلى مواضع مكبوسة بالثلج وغلمان يروحون ذلك الثلج فيخرج منه البرد الذي لحقني...»

ولما كان في صلب الشتاء دخلت عليه يوماً والبرد شديد وعليه جبة محشوة وكساء وهو جالس في طارحة من الدار على بستانٍ في غاية الحسن. وبين يديه كانون فضة مذهب محرق وخادم يوقد العود الهندي وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة. فلما حصلت معه في الطارحة وجدت من الحرّ أمراً عظيماً فضحك وأمر لي بغلالة قصب وتقدّم يكشف جوانب

١. عيون الأنباء، ص ٢٠١. الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٨٧.

٢. المهتدي بالله (٨٦٩-٨٧٠م) وُلد في سامراء. الخليفة العباسي الرابع عشر. سعى عبثاً إلى إصلاح أخلاق البلاط الفاسدة. عجز عن دفع مرتبات الجنود فقتل.

٣. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٩-٢٥٠. تاريخ الأمم والملوك للطبري، ١١: ٥٦ و ٦٠.

الطارحة فإذا مواضع لها شبابيك خشب بعد شبابيك حديد وكوانين فيها فحم العضا  
وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق كما تكون للحدادين»<sup>١</sup>.

وكان من عادته يجلس في عربة من الإبنوس ويخرج من القصر وبين يديه ألف من  
الرجال. ويمضي الوقت من المساء حتى منتصف الليل بكل ضرب من ضروب المتعة.  
ثم يقوم للصلاة ومن حوله خصيانه السود الذين كان شديد الولع بهم. وبعد الفراغ من  
الصلاة يجلس للحديث، ويظل يقرأ الإنجيل حتى يتنفس الصباح<sup>٢</sup>.

ولما عرض للمتوكل بعد مصادرة أملاك بختيشوع القولنج، فاستحضره المتوكل  
واعتذر إليه، وعالجه وأبرأه. فأنعّم عليه ورضي عنه وأعاد ما كان له<sup>٣</sup>.

وقد يكتفي الحكام أحياناً بحبس الطبيب، أو إبعاده عن الخدمة مع تخفيض راتبه،  
وهذا ما جرى لبعض أطباء المأمون، فعند تسلّمه الخلافة أمر بحبس جبرائيل بن بختيشوع  
لأنه التحق في خدمة أخيه الأمين... وكفّ يد طبيبه جبرائيل الكحالي، لأنه أعلن عن نومه  
من دون إذنه.

فعندما علم المأمون بتصرّف كحاله غضب عليه وقال: «يا جبرائيل اتخذتك كحالا  
لي أو عاملاً على الأخبار عني؟ أردد عليّ مكاحلي وأخرج من داري» ثم قال: «إنه له حرمة،  
فليقتصر على إجراء مائة وخمسين درهماً في كلّ شهر ولا يؤذن له في الدخول». وكان راتبه  
قبل ذلك ألف درهم في كلّ شهر<sup>٤</sup>.

وكثيراً ما كان إخلاص الطبيب لولي نعمته يجرّ عليه ويلات المتآمرين على الخلافة، من  
ذلك ما جرى لبختيشوع بن جبرائيل، فبعد أن رضي الخليفة، واعتذر إليه، أوغر المتآمرون  
صدر المتوكل عليه، فنكبه بمصادرة جميع أملاكه ونفيه إلى البصرة. وكان سبب ذلك: إن  
عبدالله استكتب أبا العباس الحصيني وكان رديئاً، فاتفقا على قتل المتوكل واستخلاف

١. عيون الأنبياء، ١: ١٣٩-١٤٠. الطبّ العربي، ص ٥٩-٦٠.

٢. أهل الذمة في الإسلام، ص ١٧١.

٣. عيون الأنبياء، ص ٢٠١-٢٠٢.

٤. عيون الأنبياء، ص ١٨٩.

٥. تاريخ الحكماء، ص ١٥٢. عيون الأنبياء، ص ٢٤١-٢٤٢.



المنتصر. وقال بختيشوع للوزير: كيف استكثبت المنتصر الحسيني وأنت تعرف رداءته؟ فظنَّ عبدالله أن بختيشوع قد وقف على التدبير، وكان يعمل مقدار محبته للخليفة المتوكل. فسعى مع المنتصر<sup>١</sup> (٢٤٧-٢٤٨هـ / ٨٦١-٨٦٢م) إلى نكبته هذه حيث أبعده عن بغداد، وقتل المتوكل<sup>٢</sup>.

وحدث، مثل ذلك فيما بعد في أيام الناصر، وكان في آخر أيامه قد ضعف بصره وأدركه سهو، فاستحضر امرأةً بغدادية، تعرف (بست نسيم) وجعلها بين يديه تكتب الأجوبة والرقاعن وشاركها في ذلك خادماً اسمه تاج الدين رشيق. وصارت المرأة تكتب الأجوبة بما تراه ويشاركها الخادم في مثل ذلك. وعندما اطلع وزير الناصر القومي المدعو بالمؤيد على ما يجري، استدعى طبيب الخليفة صاعد بن توما وأخبره بذلك. فعرفه الطبيب ما عليه الخليفة من ضعف البصر والسهو الطارئ في أكثر الأوقات. وما تعتمد المرأة والخادم من الأجوبة. وعندما علم هذان الأخيران بموقف الطبيب تربصا له وهو في طريقه إلى دار الخلافة ووثبا إليه بسكينيهما وقتلاه<sup>٣</sup>.

وكثيراً ما أدى غلط العلماء وسوء تصرفهم في حضرة الملوك إلى هلاكهم، فقد دخل دانيال المتطبّب يوماً إلى معزّ الدولة. فقال له: يا دانيال.

فقال: لبيك أيها الأمير.

قال: ليس عندكم أن السفرجل إذا أُكِل قبل الطعام أمسك الطبع، وإذا أُكل بعد الطعام أسهل؟

قال: بلى.

قال: فأنا أكلته بعد الطعام وعصمني.

١. المنتصر بالله (٨٦١-٨٦٢) الخليفة العباسي الحادي عشر. تأمر مع وصيف على قتل أبيه المتوكل في القصر «الجعفري» في سامراء لأنه قدّم عليه أخاه المعتز في ولاية العهد (٩ كانون الأول ٨٦١) قتله الأتراك بالسّم بعد ستة أشهر.

٢. عيون الأنبياء، ص ٢٠٢.

٣. تاريخ الحكماء، ص ٢١٣-٢١٤. عيون الأنبياء، ص ٤٠٥-٤٠٦. فوات الوفيات، ص ١١٥-١١٦.

قال دانيال: ليس هذا الطبع للناس، فلكنه معز الدولة بيده في صدره وقال له: قم تعلم أدب خدمة الملوك وتعال. فخرج من بين يديه ونفث الدم ولم يزل كذلك مدة حتى مات<sup>١</sup>. وقد ذكر في كتاب محنة الأطباء أنه قد أصاب معز الدولة فالج فعالجه دانيال وشفى. وبعد مدة أصابه سرسام<sup>٢</sup> حاد، فقال له الحمقى من الأطباء: هذه تأثيرات الأدوية التي عالج بها دانيال دفعًا للفالج، فقبل المعز ذلك الكلام وغضب على دانيال ونكبه. فقال: من خدم السلطان قاس في ساعة واحدة، من الأذى والخوف، ما لا يقاسيه في زمن طويل<sup>٣</sup>.

## تنافس الأطباء

لما اتسع نطاق التأليف في الطب، وأصبحت الطبابة صناعةً نبيلة، جرت بين الأطباء منافسة، أفضت في بعض وجوهها إلى الجدل الحاد تارة وإلى التهاجي والتلاحي تارة أخرى. قال الطبيب سلمويه متهكمًا على الطبيب يوحنا بن ماسويه: «يوحنا آفة من آفات من اتخذ لنفسه طبيبًا، واتكل على علاجه وكثرة حفظه للكتب، وهو أجهل خلق الله بمقدار الداء والدواء معًا... فصاحبه أبدًا عليل إما من حرارة وأما من برودة. والأبدان تضعف عن احتمال هذا التدبير. وإنما الغرض من اتخاذ الناس المتطببين لحفظ صحتهم في أيام الصحة ولخدمة طبائعهم في أيام العلة. ويوحنا لجهله بمقادير العلل والعلاج غير قائم بهذين البابين ومن لم يقم بهما فليس بمتطبب»<sup>٤</sup>.

ومن المستغرب حقًا أن يكون هذا رأي سلمويه بيوحنا بن ماسويه، ثم ينصح المعتصم بأن يتخذ طبيبًا خاصًا له بعد وفاته (أي وفاة سلمويه) ولعدم ثقة سلمويه بيوحنا،

١. عيون الأنبياء، ص ٢٣٠.

٢. السراسم: قال ابن سينا: «أما علاماته المشتركة لأصنافه الحقيقية فحمى لازمة تشتد في الظهر على الأكثر وهذيان يفرط أو ينقطع أخرى كراهة للكلام وكسل عنه ويختلط العقل... وعبت الأطراف ونفس مضطرب غير منتظم... وربما كان معه نوم مضطرب وينتهون عنه فيصبحون وتارة ينامون وتارة يسهرون ويكون نومهم... مع خيالات وأحلام فاسدة وانتباه مشوش مع صياح ويكون هناك قاحة وجسارة وغضب فوق المعهود. (القانون لابن سينا، ج ٢، ص ٤٥-٤٦).

٣. تاريخ حكماء الإسلام، ص ٨١-٨٢.

٤. تاريخ الحكماء، ص ٣٨٥. عيون الأنبياء، ص ٢٣٧.

يعود ويحذر المعتصم منه قائلاً: «إذا شكوت إليه شيئاً، فقد يصف فيه أوصافاً، فإذا وصف، فخذ أقلها إخلاطاً»، وما لبث المعتصم أن ذهب ضحية جهل يوحنا بن ماسويه في العلاج، وذلك بعد عشرين شهراً من وفاة سلمويه.

ويبدو من خلال كتابي القفطي وابن أبي أصيبعة، أن يوحنا بن ماسويه قد تسبب في مقتل خليفتين. الأول: المأمون، وذلك بإشارة من المعتصم، ثم المعتصم بحجة سوء تدبير العلاج. ثم نرى أن أبي أصيبعة ينعته بأوصاف تتنافى وقدسية مهنة الطب، فيقول فيه بعد مقتل المأمون: «إنما فعل ابن ماسويه ذلك لكونه عديم المروءة والدين، والأمانة، فكان على غير ملة الإسلام، ولا تمسك بدينه أيضاً. ومن ليس له ديناً يتمسك به، ويعتقد فيه بالواجب أن لا يدانيه عاقل ولا يركن إليه حازم»<sup>١</sup>.

ويشترك المصدران السابقان باتهام يوحنا بن ماسويه بقتل ابنه عمداً. فقد اعتل ماسويه ابنه يوماً، فرأى يوحنا فضده فعارضه الطيفوري جدّه لأمه وابناه زكريا ودانيال. لم يقتنع يوحنا وقصد ابنه وخرج إلى الشام تلبية لدعوة المعتصم له. وتوفي ماسويه بعد خروج أبيه بثلاثة أيام، فكان الطيفوري جدّه وولده يخلفون بالله في جنازته أن يوحنا تعمّد قتله ويستدلون بما صرح به يوحنا سابقاً. فقد كان ماسويه بن يوحنا بليداً أبلهاً وكان يوحنا يريد التخلص منه فقال: «لولا كثرة فضول السلطان ودخوله في ما لا يعنيه لشرحت ابني هذا مثل ما كان جالينوس يشرح الناس والقروود فكنت أعرف بتشريحه الأسباب التي كانت لها بلادته وأربح الدنيا من خلقتة وأكسب أهلها بما أضع في كتابي من صفة تركيب بدنه ومجاري عروقه وأوراده وأعصابه علماً ولكن السلطان يمنع من ذلك»<sup>٢</sup>.

فكل هذه الأمور باعتقادي تثير الشكوك والتساؤلات حول شخصية هذا الطبيب ودوره، على الصعيدين الاجتماعي والسياسي. فهل يعقل أن يجحد طبيب كابن ماسويه فضل خلفاء أنعموا عليه ومنحوه الثقة والاحترام والإكرام، أم أن هذه الأمور تدخل في باب المنافسة بين الأطباء!

١. عيون الأنباء، ص ٢٥٤-٢٥٥.

٢. تاريخ الحكماء، ص ٣٩٠-٣٩١. عيون الأنباء، ص ٢٥٢.

قد نجد بعضًا من جوابٍ عند هاشم الوتري في كتابه: «تاريخ الطب في العراق» وهو ينفي هذه التهم عن يوحنا بن ماسويه قائلًا: «ونحن نعتقد أن في ذلك تحاملاً كبيرًا على رجلٍ خدم الطبَّ العربي بذكاءٍ وخبرة، وقد كان ابن ماسويه فاضلاً مبعجلاً وله تصانيف وتراجم مشهورة»<sup>١</sup>.

وقد جلب نجاح حنين بن إسحق الفريد له عداوة الكثيرين ولا سيّما بين زملائه الأطباء الذين كانوا يضطهدونه ويتآمرون على حياته، فقال متألمًا: «إنه لحفني من أعدائي ومضطهدي الكافرين بنعمتي الجاحدين لحقّي، الظالمين لي، المتعديين عليّ من المحن والمصائب والشورور وما منعني من النوم وأسهر عيني وأشغلني عن مهماتي وذلك من الحسد لي على علمي وما وهبه الله عزّ وجل لي من علو المرتبة على أهل زماني، وأكثر أولئك أهلي وأقربائي، فإنهم أول شروري، وابتداء محنتي، ثم من بعدهم الذي علمتهم وأقرأتهم وأحسنّت إليهم وأرقدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة، وقربت إليهم علوم الفاضل جالينوس، فكافأوني عوض المحاسن مساوي بحسب ما أوجبه طباعهم. وبلغوا بي إلى أقبح ما يكون من إذاعة أو حش الأخبار، وكتبان جليل الأسرار، حتى ساءت بي الظنون وامتدّت إليّ العيون، ووضع عليّ الرصد حتى أنه كان يُحصي عليّ ألفاظي، ويكثر اتهامي... فأوقعوا بغضي في نفوس سائر أهل الملأ فضلًا عن أهل مذهبي، وعملت لي المجالس بالتأويلات الرذلة، فألت القضية بي إلى أن بقيت بأسوأ ما يكون من الحال من الإضافة والضرّ، محبوبًا مضيّقًا عليّ مدة من الزمان لا تصل يدي إلى شيء من ذهب ولا فضة ولا كتاب. وبالجملة ولا ورقة أنظر فيها... أما هؤلاء الأطباء النصارى الذين أكثرهم تعلّموا بين يديّ ونشأوا قدامي هم الذين يرومون سفك دمي، على أنهم لا بدّ لهم مني... فإن الحسد لم يزل بين الناس... وما لم يزل قديمًا فليس بعجبٍ أن أكون أنا أيضًا أحد من يؤذى بسببه. وقد يقال كفى بالحاسد حسده، إن الحاسد يقتل نفسه قبل عدوه...

١. تاريخ الطب في العراق، ص ١٩.

وقد أكثر العرب ذكر الحسد في الشعر ونظموا فيه الأبيات، منها قول بعضهم:

إن يحسدوني فلإني غير لائمهم  
فدام لي ولهم ما بي وما بهم  
أنا الذي يحسدوني في صدورهم  
قبي من الناس أهل الفضل قد حسدوا  
ومات أكثرنا غيظًا بما يجد  
لا أرتقي صعداً منها ولا أردا

## محنة حنين ونكبتة

أرى توضيحاً لأمر الرسالة التي ذكرنا ملخصاً لها هنا أن نبيّن سبب كتابتها بقلم حنين نفسه، أسبابها ونتائجها فتقول: إن أكبر مأساة تعرض لها حنين بن إسحق هي تلك التي وقعت له إبان خلافة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م) وكتب التراث على اختلافها، قديمة وحديثة، تروي لنا واقعتين لحنين مع المتوكل.

الواقعة الأولى فيذكرون فيها أن المتوكل حين قرّبه أراد امتحانه حتى يتأكد أنه ليس من بين أعدائه، وأما الواقعة الثانية والتي ذكرها حنين نفسه في رسالة له دوّنها، وما يرويه ابن جُلجل وابن أبي أصيبعة، فهي تشير إلى نكبتة الحقيقية، على يد المتوكل، ولكنه صبر عليها، حتى كشف الله الغمّة وزالت الشدّة، وسوف نذكر الواقعتين وما جرى لحنين حتى يتبيّن للقارئ أي محنة حاقت بهذا الرجل.

## المحنة الأولى:

يقول مؤرّخنا السرياني المفريان ابن العبريّ: «... ولم يزل أمر حنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل»<sup>٢</sup>.

واتصل خبره بالخليفة المتوكل، فأمر بإحضاره، فلما حضر أقطع إقطاعات حسنة، وقرّر له جار جيد، وكان يشعره بزبور الروم. وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى شاور به غيره، وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظناً منه أن ملك

١. تاريخ الحكماء، ص ١٧٢. عيون الأنباء، ص ٢٦٤-٢٧١.

٢. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٤.

الروم ربما كان عمل شيئاً من الحيلة به. فاستدعاه يوماً بأن يخلع عليه، وأحضر توقيماً فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم، فشكر له حنين هذا الفعل، ثم قال بعد أشياء جرت أريد أن تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله، ولم يمكن إشهاره ونريده سراً. فقال حنين: يا أمير المؤمنين، إنني لم أتعلّم إلا الأدوية النافعة وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها. فإن أحبّ أن أمضي وأتعلّم فعلة ذلك. فقال هذا شيء يطول، ورغبه وهدّده وهو لا يزيد على ما قاله إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يوصل خبره إليه وقتاً بوقت ويوماً بيوم. فمكث سنةً في حبسه. دأبه النقل والتفسير والتصنيف. وهو غير مكترث بما هو فيه. فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره، وإحضار أموال يرغبه فيها، وأحضر شيئاً ونطعاً وسائر آلات العقوبات. فلما حضر قال هذا شيء قد كان، ولا بدّ مما قتله لك فإن أنت فعلت فقد فزت بهذا المال، وكان لك عندي أضعافه، وإن امتنعت قابلتك بشرّ مقابل وقتلتك شرّ قتلة.

فقال حنين: قد قلت لأمر المؤمنين إنني لم أحسن إلا الشيء النافع ولم أتعلّم غيره.

فقال الخليفة فإني أقتلك.

قال حنين: لي ربُّ يأخذ حقِّي غداً في الموقف الأعظم. فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل.

فتبسّم الخليفة وقال له: يا حنين طب نفساً وثق إلينا. فهذا الفعل كان منّا لامتحانك، لأننا حذرنا من كيد الملوك، وأعجبنا بك، فأردنا الطمأنينة إليك، والثقة بك لنتفجع بعلمك.

فقبل حنين الأرض وشكر له.

فقال الخليفة: يا حنين، ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في

الحالين؟

فقال حنين: شيئان يا أمير المؤمنين.

قال وما هما؟

قال: الدين والصناعة قال فكيف؟

قال الدين، يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقائنا، ويبعد ويجرم من لم يكن كذا. والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم. ومع هذا، فقد جعل الله في رقاب الأطباء عهدًا مؤكدًا بإيوان مغلظة أن لا يعطوا دواءً قتالًا، ولا ما يؤذي فلم أود أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين. ووطنت نفسي على القتل فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه في طاعته وكان يشينني.

فقال الخليفة إنها لشريعتان جليلتان. وأمر بالخلع فخلعت عليه، وحمل المال بين يديه، وخرج من عنده وهو أحسن الناس حالًا وجاهًا.

### نكبة حنين

يذكر مؤرخنا ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول قوله: «وكان الطيفوري النصراني الكاتب يحسد حنينًا ويعاديه. واجتمعوا يومًا في دارٍ لبعض النصاري ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديلٌ يشتعل بين يدي الصورة. فقال حنين لصاحب البيت: لم تضيّع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وإنما هي صور.

فقال الطيفوري: إن لم يستحقوا الإكرام فأبصق عليهم. فبصق فأشهد عليه الطيفوري ورفعته إلى المتوكّل فسأله إباحة الحكم عليه لديانة النصرانية. فبعث إلى الجاثليق والأساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا حرم حنين. فحُرم وقطع زناره وانصرف حنين إلى داره ومات مع ليلته فجأة وقيل أنه سقى نفسه سمًا».

هذا هو ما يذكره ابن العبري عن نكبة حنين، وهي رواية تتفق مع ما أورده ابن أبي أصيبعة<sup>٢</sup>، نقلًا عن ابن جلجل.

وقال سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل: إن حنين بن إسحق مات بالغم ليلته في أيام المتوكّل. قال حدّثني بذلك وزير أمير المؤمنين الحكم المنتصر بالله قال: قال كنت مع أمير المؤمنين المستنصر فجرى الحديث فقال أتعلمون كيف كان موت حنين بن إسحق؟

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٦١.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٦-٤٧.

قلنا: لا يا أمير المؤمنين.

قال: خرج المتوكل على الله يوماً وبه خمار فقعد مقعده فأخذته الشمس، وكان بين يديه الطيفوري النصراني الطيب وحنين بن إسحق. فقال له الطيفوري: يا أمير المؤمنين الشمس تعز بالخمار.

فقال المتوكل لحنين ما عندك في ما قال؟

فقال حنين: يا أمير المؤمنين الشمس لا تضر بالخمار.

فلما تناقضا بين يديه كشفهما عن صحّة أحد القولين. فقال حنين: يا أمير المؤمنين الخمار حال للمخمور، والشمس لا تضر بالخمار إنما تضر بالمخمور.

فقال المتوكل لقد أحرز من طبائع الألفاظ وتحديد المعاني ما فاق به نظراته فوجم لها الطيفوري. فلما كان في غد ذلك اليوم أخرج الطيفوري من كمّه كتاباً فيه صورة المسيح مصلوباً، وصور ناس حوله.

فقال له الطيفوري: يا حنين هؤلاء صلبوا المسيح؟

قال: نعم.

فقال له: إبصق عليهم.

قال حنين: لا أفعل.

قال الطيفوري: ولم؟

قال: لأنهم ليسوا الذين صلبوا المسيح إنما هي صور<sup>١</sup>. فاشتد ذلك على الطيفوري ورفع إلى المتوكل يسأله إباحة الحكم على ديانة النصرانية.

فبعث إلى الجاثليق والأساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا اللعنة لحنين فلعن سبعين لعنة بحضرة الملاء من النصارى، وقطع زناره، وأمر المتوكل أن لا يصل إليه دواء من قبل

١. يقول ماكس مايرهوف في تحقيقه لكتاب العشر مقالات في العين «والظاهر أن حنين من أنصار الحركة التي اتسع نطاقها في ذلك الوقت ونعني بها حركة مانعي الإكرام للصور ومخاربتها»، ص ٢٩.



حنين حتى يستشرف على عمله الطيفوري، وانصرف حنين إلى داره فمات في ليلته. فيقال مات غمًا وأسفًا.

ويذكر ابن أبي أُصَيْبَةَ أن هذه الرواية تتفق مع ما ذكره أحمد بن يوسف بن إبراهيم في رسالة في المكافأة، لكن يبدو أن أبي أُصَيْبَةَ لم يقتنع بهذه الرواية، فعقّب عليها بقوله: «والأصح في ذلك أن بختيشوع بن جبرائيل كان يعادي حنين بن إسحق، ويحسده على علمه وفضله، وما هو عليه من جودة النقل وعلو المنزلة. فاحتال عليه بخديعة عند المتوكّل وتمّ مكره عليه حتى أوقع المتوكّل به وحبسه. ثم أن الله تعالى فرّج عنه وظهر ما كان احتال به عليه بختيشوع بن جبرائيل، وصار حنين حفيظًا عند المتوكّل وفضله على بختيشوع وعلى غيره من سائر المتطّيبين، ولم يزل على ذلك في أيام المتوكّل إلى أن مرض حنين فيما بعد المرض الذي توفي فيه، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين هجرية (٨٧٧م). وتبيّن لي جملة ما يحكى عن حنين من ذلك. وصحّ عندي من رسالة، وجدت حنين بن إسحق قد ألّفها في ما أصابه من المحن والشدائد من الذين ناصبوه العداوة من أشرار أطباء زمانه المشهورين»<sup>١</sup>.

### نكبة حنين من خلال رسالته

قال حنين بن إسحق<sup>٢</sup>... وهذه قصّة المحنة الأخيرة القريبة وهي: «إن بختيشوع بن جبرائيل المتطّيب، عمل عليّ حيلة تمّت له عليّ وأمكنته مني، إرادته فيّ. وذلك أنه استعمل قونة (أيقونة) عليها صورة السيدة مارت مريم، وفي حجرها سيّدنا المسيح والملائكة قد احتاطوا بها، وعملها في غاية ما يكون من الحسن وصحّة الصورة، بعد أن غرم عليها من المال شيئًا كثيرًا. ثم حملها إلى أمير المؤمنين المتوكّل، وكان هو المستقبّل لها من يد الخادم الحامل لها، وهو الذي وضعها بين يدي المتوكّل، فاستحسنها المتوكّل جدًّا، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مرارًا كثيرة. فقال له المتوكّل: لم تقبلها؟

فقال له: يا مولانا إذا لم أقبل صورة سيّدة العالمين فمن أقبل؟

فقال له المتوكّل: وكلّ النصارى هكذا يفعلون؟

١. عيون الأنبياء، ص ٢٦٤.

٢. عيون الأنبياء، ص ٢٦٤ وما بعدها.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وأفضل مني، لأني أنا قصّرت حيث أنا بين يديك.

ومع تفضيلنا معشر النصارى فإني أعرف رجلاً في خدمتك، وأفضالك وأرزاقك جارية عليه من النصارى يتهاون بها ويبصق عليها، وهو زنديق ملحد، لا يقرب بالوحدانية ولا يعرف آخرة، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب الرسل.

فقال له المتوكل: من هذا الذي هذه صفته؟

فقال له حنين: المترجم.

فقال المتوكل: أوجه أحضره، فإن كان الأمر على ما وصفت، نكّلت به وجلدته وأودعته المطبق (السجن) مع ما تقدم به في أمره من التضييق عليه وتجديد العذاب.

فقال: أنا أحبّ أن يؤخر مولاي أمير المؤمنين إلى أن أخرج وأقيم ساعة، ثم تأمر بإحضاره.

فقال: إني أفعل ذلك.

فخرج بختيشوع من الدار وجاءني، فقال يا أبا زيد، أعزّك الله، ينبغي أن تعلم أنه قد أهدي إلى أمير المؤمنين القونة قد عظم عجبها، وأحسبها من صور الشام، وقد استحسناها جداً، وإن نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه تولّع بنا بها في كلّ وقت، وقال هذا ربكم وأمه مصورين وقد قال لي أمير المؤمنين أنظر إلى هذه الصورة ما أحسنها وايش تقول فيها؟

فقلت: له صورة مثلها يكون في الحمامات وفي البيع وفي المواضع المصورة، وهذا مما لا نبالي به ولا نلتفت إليه.

فقال: وليس هي عندك شيء؟

قلت: لا.

قال: فإن تكن صادقاً فابصق عليها، فبصقت وخرجت من عنده وهو يضحك وعطعط بي. وإنما فعلت ذلك ليرمي بها ولا يكتر الولع بنا بسببها، ويعتبرنا دائماً، ولا سيّما إن حرد أحد من ذلك فإن الولع يكون أزيد، والصواب إن دعا بك وسألك عن مثل ما سألتني

أن تفعل كما فعلت أنا، فإني قد عملت على لقاء سائر من يدخل إليه من أصحابنا، وأتقدم إليهم أن يفعلوا، مثل ذلك.

فقبلتُ ما وصّاني به وجات عليّ سخريته وانصرف.

فما كان إلا ساعة حتى جاءني رسول أمير المؤمنين فأخذني إليه، فلما دخلت عليه إذ القونة موضوعة بين يديه، فقال لي يا حنين ترى ما أحسن هذه الصورة وأعجبها؟

فقلت: والله إنه لكم ذكر أمير المؤمنين.

فقال: فإيش تقول فيها؟

فقلت: مثلها مصور في الحمامات وفي الكنائس وفي سائر المواضع المصورة كثيرًا.

فقال: أوليس هي صورة ربّكم وأمه؟

فقلت: معاذ الله يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى صورة أو يصوّر؟ ولكن هذا مثال في سائر المواضع التي فيها الصور.

فقال، فهذه إذن لا تنفع ولا تضرّ.

فقلت: هو كذلك يا أمير المؤمنين.

فقال: إن كان الأمر على ما ذكرت فابصق عليها، فبصقت عليها.

فللوقت أمر بحبسي، ووجه إلى ثوذسيس الجاثليق<sup>١</sup> فأحضره، فلما دخل عليه ورأى القونة موضوعة بين يديه وقع عليها قبل أن يدعو له فاعتنقها، ولم يزل يقبلها ويبكي طويلاً، فذهب الخدم ليمنعوه فأمر بتركه. فلما قبلها طويلاً على تيك الحالة أخذها بيده وقام قائماً فدعا لأمر المؤمنين وأطنب في دعائه، فردّ عليه وأمره بالجلوس. فجلس وترك القونة في حجره.

فقال له المتوكّل: أي فعل هذا، تأخذ شيئاً كان بين يدي وتتركه في حرك عن غير إذني.

١. ثوذسيس (ثاذاسيس، ثيودسيوس): كان أسقفاً لمدينة الأنبار، ثم مطراناً على جنديسابور. ولما توفي، سلفه إبراهيم. نصب جاثليقاً عام ٨٣٥م، وتوفي عام ٨٦٠م.

فقال له الجاثليق: نعم يا أمير المؤمنين أنا أحق بهذه التي بين يديك، وإن كان لأمر المؤمنين أطال الله بقاءه أفضل الحقوق. غير أن ديانتني لم تدعني أن أدع صورة ساداتي مرمية على الأرض. وفي موضع لا يعرف مقدارها، بل لعلّه أن يعرف لها قدر، لأن هذه حقها أن تكون في موضع يعرف فيه حقها، ويسرج بين يديها أفضل الأدهان من حيث لا تظفأ قناديلها مع ما تبخر به بين يديها من أطايب البخور في أكثر الأوقات.

فقال أمير المؤمنين: فدعها في حجرك الآن.

فقال الجاثليق: إني أسأل مولاي أمير المؤمنين أن يجود عليّ بها، ويعمل على أنه يقطعني ما مقدار قيمة مائة ألف دينار في كلّ سنةٍ حتى أقضي من حقها ما يجب عليّ. ثم يسألن أمير المؤمنين ما أحبّ بعد ذلك في ما أرسل إليّ بسببه.

فقال له: قد وهبتها لك، وأنا أريد أن تعرّفني ما جزاء من بصق عليها عندك؟

فقال له الجاثليق: إن كان مسلماً فلا شيء عليه، لأنه لا يعرف مقدارها، أما إذا كان يعرف ذلك، فيُلام ويوبّخ على مقدار ما فعل، حتى لا يعود إلى مثل ذلك مرّةً أخرى. وإن كان نصرانياً وكان جاهلاً لا يفهم ولا معرفة عنده فيُلام ويزجر بين الناس، ويتهدّد بالجروم العظيمة ويُعدّب حتى يتوب وبالجملة إن هذا فعل لا يقدم عليه إلّا جاهل لا يعرف مقدار الديانة. فإن كان عاقلاً وقد بصق عليها فقد بصق على مريم أم سيّدنا وعلى سيّدنا المسيح.

فقال له أمير المؤمنين: فما الذي يجب على من فعل ذلك عندك؟

فقال: ما عندي يا أمير المؤمنين إذ كنت لا سلطان ليّ أن أعاقبه بسوط أو عصا، ولا لي حبس ضنك، بل أحرمه وأمنعه من الدخول إلى البيع، ومن القربان، وأمنع النصرارى من ملامسته وكلامه، وأضيق عليه ولا يزال مرفوضاً عندنا إلى أن يتوب ويقلع عما كان عليه وينتقل ويتصدّق ببعض ما له على المساكين والفقراء مع لزوم الصوم والصلاة، فحينئذٍ نرجع إلى ما قال كتابنا وهو: إن لم تعفوا للخاطئين لم يغفر لكم خطاياكم. فنحلّ حرم الجاني ونرجع إلى ما كنا عليه.

ثم إن أمير المؤمنين أمر الجاثليق بأن يأخذ القونة، وقال له: إفعل بها ما تريد، وأمر له معها ببدره دراهم، وقال له أنفق ما تأخذه على القونتك. فلما خرج الجاثليق لبث قليلاً يتعجب منه ومن محبته لمعبوده وتعظيمه إياه. ثم قال: إن هذا الأمر عجيب.

ثم أمر بإحضاري فأحضرت إليه، وأحضر السوط والحبال وأمر بي فشددت مجرداً من يدي، وضربت مائة سوط، وأمر باعتقالي والتضييق عليّ. ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل وأثاث وكتب وما شاكل ذلك. وأمر بنقض منازلني إلى الماء، وأقمت في داخل داره معتقلاً ستة أشهر في أسوأ ما يكون من الحال، حتى صرت رحمة لمن رأني. وكان أيضاً في كلّ سير من الأيام يوجه يضربني ويجدد لي العذاب.

فلم أزل على ما شرحتة إلى أن اعتلّ أمير المؤمنين، وذلك في اليوم الخامس من الشهر الرابع من يوم حسي، وكانت علته صعبة جداً فأقعد ولم تمكنه الحركة وأيس هو أيضاً من نفسه. ومع ذلك فإن أعدائي الأطباء عنده ليلاً ونهاراً، ولا يزالونه ساعة واحدة، وهم يعالجونه ويداؤونه ويسألونه في كلّ وقت في أمري ويقولون له: لو أراحنا مولانا أمير المؤمنين من ذلك الزنديق الملحد لأراح الدنيا، وانكشف عن الدين منه محنة عظيمة.

فلما طالت مسألتهم له في أمري، وكثر ذكرهم لي بين يديه بكلّ سوء، قال لهم: فما الذي يسرّكم أن أفعل به؟

قالوا: تريح العالم منه، وكان مع ذلك كلّ من سأل في أمري أو تشفّع فيّ من أصدقائي، يقول بختيشوع: يا أمير المؤمنين هذا بعض تلاميذه وهو يعتقد اعتقادهم. فيقل المعين لي ويكثر المحرّك عليّ، وآيست من الحياة فقال لهم: أمير المؤمنين وقد لجوا عليه في السؤال فإني أقتله في غد يومنا هذا وأريحكم منه، فسّر بذلك الجماعة وانصرفوا على ما يحبون.

فجاءني بعض الخدم وقال لي أنه جرى في أمرك العشية كذا وكذا فسألت الله عزّ وجلّ التفضّل بما لم تزل أياديهِ إليّ بأمثاله، ومع ما أنا فيه من كثرة الاهتمام وشغل القلب مما أخاف نزوله بي في غدٍ بغير جرم استوجبه، ولا جنانية جنيتها، بل بحيلة من احتال عليّ وطاعتي من اغتالني وقلت اللهم إنك عالم براءتي فأنت أولى بنصرتي وطال بي الفكر إلى أن حملني النوم،

فإذا بهاتف يجرّكني ويقول لي: قم فاحمد الله واثن عليه فقد خلّصك من أيدي أعدائك، وجعل عافية أمير المؤمنين فطّب نفسًا.

فانتبهت مرعوبًا، ثم قلت كلّما كثر ذكره في اليقظة لم تنكر رؤيته عند النوم. فلم أزل أحمد الله وأثني عليه إلى أن جاء وجه الصبح، فجاءني الخادم ففتح عليّ الباب ولم يكن وقته الذي كان يقيّني فيه فقلت: هذا وقت منكر، جاءني ما وعدت به البارحة. فقد جاء وقت رضاء أعدائي وشهاتهم بي. واستعنت بالله.

فما جلس الخادم إلّا هنيهة إذ جاء غلامه ومعه مزّين، ثم قال: تقدّم يا مبارك ليؤخذ من شعرك. فتقدّمت فأخذ من شعري ثم مضى بي إلى الحّمّام، فأمر بغسلي وتنظيفي، والقيام عليّ بالطيب كما أمره مولاي أمير المؤمنين، ثم خرجت من الحّمّام فطرح عليّ ثيابًا فاخرة، وردّني إلى مقصورته إلى أن حضر سائر الأطباء عند أمير المؤمنين وأخذ كلّ واحدٍ منهم موضعه، فدعاني أمير المؤمنين وقال: هاتوا حينئذ فلم تشك الجماعة إنه إنما دعاني لقتلي فأدخلت إليه فنظر إليّ ولم يزل يدين إلى أن أجلسني بين يديه وقال لي: قد غفرت لك ذنبك، وأجبت السائل فيك، فاحمد الله على حياتك، وخذ مجستي وأشر عليّ بما ترى، فقد طالت علّتي، فأخذت مجسته، وأشرت بأخذ خيار شنبّر منقّى من قصبه وترنجبين، لأنه شكا اعتقالات مع ما كان يوجبه الصورة من استعمال هذا الدواء.

فقال الأطباء الأعداء نعوذ بالله يا أمير المؤمنين من استعمال هذا الدواء إذ كان غائلة ردية. فقال لهم إمسكوا فقد أمرت أن أخذ ما يصفه لي ثم أنه أمر بإصلاحه، فأصلح وأخذ لوقته. ثم قال لي يا حنين إجعلني من كلّ ما فعلته بك في حلّ فشفيعك إليّ قوي. فقلت له مولاي أمير المؤمنين في حلّ من دمي فكيف وقد منّ عليّ بالحياة. ثم قال تسمع الجماعة ما أقوله فنصتوا إليه، فقال إعلموا أنكم انصرفتم البارحة مساءً على أن أبكر قتل حينئذ كما ضمنتم لكم فلم أزل أقلق إلى نصف من الليل متوجّعًا. فلما كان ذلك الوقت أغفيت فرأيت كأني جالس في موضع ضيق وأنتم معشر الأطباء بعيدون عني بعدًا كثيرًا مع سائر خدمي وحاشتي، وأنا أقول لكم ويحكم ما تنظرون إليّ في أي موضع أنا هذا يصلح لمثلي، وأنتم سكوت لا تجيبونني عما أخاطبكم به. فإذا أنا كذلك حتى أشرق عليّ في ذلك الموضع ضياءً عظيم مهول حتى رعبت منه.

وإذا أنا برجلٍ قد وافى جميل الوجه ومعه آخر خلفه عليه ثياب حسنة فقال السلام عليك فرددت عليه فقال لي تعرفني؟

فقلت: لا.

فقال: أنا المسيح.

فقلت وتزعزعت وقلت: من هذا الذي معك؟

فقال: حنين بن إسحق.

فقلت: إعدروني فلست أقدر أن أقوم أصافحك.

فقال: إغف عن حنين واغفر ذنبه، فقد غفر الله له، واقبل ما يشير به عليك فإنك تبرأ من علّتك.

فانتبهت وأنا مغموم بما جرى على حنين مني ومفكر في قوّة شفيعه إليّ وإن حقه الآن عليّ واجب. فانصرفوا ليلزمني كما أمرت وليحمل إليّ كلّ واحد منكم عشرة آلاف درهم لتكون دية من سأل على قتله. وهذا المال يلزم من حضر المجلس البارحة وسأل في قتله ومن لم يكن حاضرًا فلا شيء عليه. ومن لم يحمل ما أمرت به بحمله من هذا المال لا ضربن عنقه.

ثم قال لي اجلس أنت والزم ربتك. وخرج الجماعة فحمل كلّ واحدٍ منهم عشرة آلاف درهم. فلما اجتمع سائر ما حملوه أمر بأن يضاف إليه مثله من خزائنه، فكان زائدًا عن مائتي ألف درهم وأن يسلم إليّ ففعل ذلك. فلما كان آخر النهار وقد أقامه الدواء ثلاثة مجالس أحسّ بصلاحٍ وخفّ ما كان يجده، فقال يا حنين أبشر بكلّ ما تحب فقد عظمت ربتك عندي وزادت طبقتك أضعاف ما كنت عليه فسأعوّضك أضعاف ما كان لك، وأحوج أداك إليك، وأرفعك على سائر أهل صنعتك.

ثم أنه أمر بإصلاح ثلاث دور من دوره التي لم أسكن قط منذ نشأت في مثلها ولا رأيت لأحد من أهل صناعتي مثلها، وحمل إليها سائر ما كنت محتاجًا من الأواني والفرش والآلة وما يشاكل ذلك بعد أن أشهد لي بالدور وتوثق لي بشهادات العدول، لأنها كانت

خطيرة في قيمتها، لأنها تقوم بألوف دنانير، فمحبته لي وميله إليّ يجب أن تكون لي ولعقبتي ولا تكون عليّ حجة لمعترض.

فلما فرغ مما أمر به من الحمل إلى الدور، وجميع ما ذكر وتعليقها بأنواع الستور، ولم يبق غير المضي إليها أمر بحمل المال الضعف الكثير بين يدي، وحلني على خمسة رؤوس من خيار بغلاته الخاصة بمواكبها، ووهب لي ثلاثة خدم روم، وأمر لي في كلّ شهر بخمسة عشر ألف درهم، وأطلق لي الفئات من رزقي وفي وقت حسي، فكان شيئاً كثيراً وحمل من جهة الخدم والحرم وسائر الحاشية والأهل ما لا يمكن أن يحصى من الأموال والخلع والإقطاع وحصلت وظائفني التي كنت آخذها خارج الدار من سائر الناس آخذها من داخل الدار، وصرت المقدّم على سائر الأطباء من أعواني وغيرهم، وهذا تمّ لي لما لحقتني السعادة التامة، وهذا ما جرى عليّ بعداوة الأشرار<sup>١</sup>.

وربما أفضت المنافسة بين الأطباء إلى الجدل، فالعداوة أحياناً. ففي سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م، جرت المناظرة بين الطبيبين ابن رضوان المصري وابن بطلان البغدادي النصراني حول الحرارة الطبيعية للفراريج وصغار الطير التي تستطيع الطيران وهاجم ابن بطلان في هذا الموضوع، أطباء القاهرة، وقصد إلى ابن رضوان، فسارع هذا إلى مدافعته، واستمر النزاع بينهما، حتى اضطر ابن بطلان إلى مغادرة مصر غاضباً، وتمت هذه المناظرة الحادة في خمس رسائل تبودلت بينهما<sup>٢</sup>.

وقد حدثت بين ابن التلميذ وأبي البركات هبة الله بن علي بن ملكا عداوة، فأثار ابن ملكا نقمة الخليفة على ابن التلميذ المسيحي، وبعد التحقيق تبين كذب الأول فعفى عن الثاني<sup>٣</sup>. وعندما أصاب الصاحب بن عبّاد مرضٌ شديد، أمر عضد الدولة بجميع الأطباء البغداديين وغيرهم وشاورهم في من يصلح أن ينفذ إلى الصاحب، فأشاروا عليه بإرسال جبرائيل بن عبيدالله أبعاداً من بينهم حسداً منه<sup>٤</sup>.

١. راجع التفاصيل لدى د. ماهر عبد القادر محمّد، حنين بن إسحق، ص ٥٤-٧٥.

٢. خمس رسائل...، ص ٣٤-٨٣.

٣. عيون الأنبياء، ص ٤٥٣.

٤. تاريخ الحكماء، ص ١٤٨-١٤٩. عيون الأنبياء، ص ٢١١.



وكانت حلقات الأدباء، تعتبر أن السخرية من الأطباء، تأتي بنتائج مثمرة أكثر من مدحهم. وكانوا يجدون لذّة في التهكم الخبيث، ولا سيّما، إذا كان تهكمهم لا يشكّل خطراً عليهم. من ذلك أن طبيباً اسمه عيسى، نصراني المذهب، لم يرض في علاجه مريضاً، فاستلهم الشاعر هذه الحادثة ليقول هاجياً الطبيب، بما معناه: «أظهر بعض الشفقة يا طبيب عيسى، فأنت طوفان نوح المميت، ما فصل الروح عن الجسد إلا الغاية الوحيدة من علاجك، فليس بين عيسى الطبيب، ويسوع المسيح، جامع يجمعهما، فالمسيح كما يقول الإنجيل كان يُحي الأموات، أما أنت يا عيسى فتقتل من هم في تمام العافية»<sup>١</sup>.

ومن المؤسف أن اهتمام الشعراء، كان موجّهاً بصورة خاصة إلى الطبقة العليا من الأطباء والمتنفذين وذوي الثروة منهم، وقد أهملوا الإشارة إلى الأطباء المشعوذين والدخلاء، فقليل في يوحنا بن ماسويه:

لا يستطيع دفاع أمر قد أتى	إن الطبيب بطبه ودوائه
قد كان برئ منه فيما مضى	ما للطبيب بالداء الذي
جلب الدواء وباعه ومن اشترى <sup>٢</sup>	مات والمداوي والمداوي والذي

وعلى الرغم مما تقدّم ذكره من تحاسد و منافسة و ذمّ للأطباء، فقد شاعت الثقافة الطبيّة، وأقبل الناس على مطالعة الكتب الطبيّة وتجروا على نقد الأطباء بمنطق معقول، وكانوا يمدحونهم أحياناً. فقد عالج إبراهيم بن ثابت بن قره السري الرفاء الشاعر<sup>٣</sup>، فشفي فقال فيه شعراً وهو أحسن ما قيل في طبيب<sup>٤</sup>:

بعد الإله، وهو له من كافي	هل للعليل سوى ابن قرّة شافي
أودى وأوضح رسم طب عافي	أحيا لنا رسم الفلاسفة الذي
يهب الحياة بأيسر الأوصاف	فكانه عيسى بن مريم ناطقاً

١. حنيفة الخطيب، الطبّ عند العرب، ص ١٣١.

٢. بروان، الطبّ العربي، ص ٢٥.

٣. السري الرفاء (ت ٩٧٦) شاعر موصل. مدح سيف الدولة الحمداني. إنتقل إلى بغداد بعد وفاة سيف الدولة فمدح الوزراء والأعيان إلى أن تصدّى له الخالديان فكانت بينه وبينها مهاجاة فأذياه وأبعاده عن مجالس الوزراء.

٤. وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٤. معجم الأطباء، ص ٥٦.

ما اکتنّ بين جوانحي وشفافي  
للعين رضراض الغدير الصافي

مثلث له قارورتي فرأى بها  
يبدو له الداء الخفي كما بدا

وله فيه أيضًا:

فراح يدعي وارث العلم  
ما زال فيهم دارس الرسم  
يجول بين الدّم واللحم  
أصلح بين الروح والجسم

برز إبراهيم في علمه  
أوضح نهج الطب في معشره  
كانه من لطف أفكاره  
إن غضبت روح على جسمها

ومدح الشاعر عبدالرزاق بن أحمد العامري موقّ الدين بن المطران بعد إسلامه  
بقصيدة مطلعها:

ينهي إليك وليس عنك بمنته  
قلب على صاب<sup>٢</sup> الصباية مكرمي<sup>٣</sup>

## دخل الأطباء

### أولاً: الأطباء العاديون

إن المصادر والمراجع التي أشارت إلى ما كان يتمتع به الأطباء من مكانة بارزة في المجتمع العباسي من قبل الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء والأغنياء، زودتنا بتفاصيل دقيقة عن المبالغ الخيالية التي كان يتقاضاها بعض الأطباء، فضلاً عن نفقاتهم اليومية الخاصة، وطعام مطياتهم. غير أنها لا تعطنا صورة واضحة عن أوضاع الطبيب العادي، ولكن يمكننا أن نستنتج بعضنا من أخباره من إشارات متفرقة هنا وهناك في بطون الكتب،

١. وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٤.

٢. صاب: مرّ.

٣. عيون الأنباء، ص ٦٥٧.

إذ نلاحظ أن أجور الأطباء كانت تختلف، نظرًا لأهمية الطبيب ومهارته ودرجة نجاحه والبلد الذي قدم منه.

ويلاحظ أن سيرَ أنجح الأطباء في أغلب الأحيان نذكر أنهم بدأوا حياتهم الطبيّة فقراء قبل أن يتوصّلوا إلى الشهرة والثروة.

فماسويه أبو يوحنا عمل ثلاثين سنة في بدء عمله في دقّ الأدوية في بيهارستان جنديسابور، ثم انتقل إلى بغداد وعمل صيدلانيًا على باب الحرم عند قصر الفضل بن الربيع وزير الرشيد. وكان يكسب شيئًا فشيئًا حتى حسنت حاله، ولم يزل حتى اكتشفه خادم الفضل فطبّب له عينه، ثم شفّى عين الفضل بن الربيع نفسه وأصبح طبيبه الخاص، ومن ثمّ حالفه الحظ إلى أن صار من أطباء الرشيد<sup>١</sup>.

والمعلومات التالية هي أبرز ما لدينا لتقدير الوضع المادي للطبيب العادي. فقد روي أنه كان جبرائيل بن عبيدالله يحصل من عضد الدولة على رزقين وهما برسم خاص ثلاثمائة درهم شجاعية<sup>٢</sup>. وفي سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، مرض الخليفة الناصر لدين الله من حصاة في المثانة. ولما تمكّن أبو نصر المسيحي من شفائه من غير عملية جراحية، حظي عنده وأمر أن يدخل أبا نصر إلى دار الضرب ويحمل من الذهب ما يمكنه حمله، ففعل. ثم أتته الخلع والدنانير من أم الخليفة وولديه الأميرين محمّد وعلي، والوزير نصيرالدين الرازي، ومن سائر كبار الأمراء في الدولة. وبلغ ما حصل عليه من هذه الهدايا والعطايا عينًا ودنانير عشرين ألف دينار، وكمية كبيرة من الثياب والخلع، وألزم الخدمة وفرضت له الحامكية السنوية والراتب والإقامة<sup>٣</sup>.

١. عيون الأنباء، ص ٥٦٣.

٢. قيل لعلها منسوبة إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي لأنه صار وزيرًا كبيرًا. (تاريخ البيهارة، ص ٢٩).

٣. عيون الأنباء، ص ٤٠٤.

وحظي صاعد بن هبة الله بن توما، أبو الفرج عند الناصر، ووجد عنده بعد مقتله ثمانمائة وثلاثة عشر ألف دينار، هذا عدا الأثاث والأموال مما يقارب المليون دينار<sup>١</sup>.

### ثانيًا: مشاهير الأطباء

لقد أثرى بعض الأطباء العصر العباسي المسيحيين ثراءً فاحشاً، وباروا الخلفاء في الزيِّ واللباس، مما جرَّ عليهم حسد أقرانهم ونقمة بعض الخلفاء عليهم. فضلاً عن المناصب الكبرى التي كان يتوصَّل إليها الأطباء أصحاب الجاه والثروة، فيكون لهم السلطة والنفوذ وما يتبع ذلك من ثراء كبير. ومهما يكن فإن قصص الأطباء والأموال التي كانت تغدق عليهم، تدل على تقدير الإسلام واحترامه للمعرفة الطيبة.

فجبرائيل بن بختيشوع مثلاً حصل من جهة الخلفاء من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء<sup>٢</sup>. فقد وجد في خزانة بختيشوع بن جبرائيل مدرج فيه عمل بخط كاتب جبرائيل بن بختيشوع الكبير وإصلاحات جبرائيل لما صار إليه في خدمته للرشد يذكر: أن رزقه من رسم العامة في كلِّ شهرٍ عشرة آلاف درهم، أي مائة وعشرين ألف درهم في السنة.

وفي مدة ثلاثٍ وعشرين سنة، وهي خدمته للرشد استوفى مليونين وستمائة وثمانين ألف درهم. ونزله في الشهر خمسة آلاف درهم، أي ستون ألف درهم في السنة. ففي مدة ثلاثٍ وعشرين سنة يبلغ مليوناً وثلاثمائة وثمانين ألف. ويستوفي من رسم الخاصة في المحرم في كلِّ سنة: من الورق خمسين ألف درهم، فيكون قد حاز في ثلاثٍ وعشرين سنة مليوناً ومائة وخمسين ألف درهم. ثم خمسين ألف درهم من الثياب، فيكون ماله في ثلاثٍ وعشرين سنة قد بلغ مليوناً وخمسون ألف درهم. وبذلك يبلغ مجموع ثروته كالتالي:

$$٢٦٨٠٠٠٠ + ١٣٨٠٠٠٠ + ١١٥٠٠٠٠ + ١١٥٠٠٠٠ = ٦٠٣٦٠٠٠٠ \text{ درهم.}$$

أي ستة ملايين وثلاثمائة وستين ألف درهم.

١. عيون الأنباء، ص ٤٠٥.

٢. عيون الأطباء، ص ٢٠٢.

تفصيل ذلك: القصب الخاص الطرازي عشرون شقة، الملحم الطرازي عشرون شقة، الخز المنصوري شقاق، الخز المبسوط عشر شقاق، الوشي اليماني ثلاثة أثواب، الوشي النصيبي ثلاثة أثواب، الطيالسة ثلاثة طيالس، والسّمور<sup>١</sup>، والفنك<sup>٢</sup> والقماقم<sup>٣</sup> والدلق<sup>٤</sup> والسنجاب للقبطين<sup>٥</sup>.

وكان يدفع إليه في مدخل صوم النصارى في كلّ سنة من الورق خمسون ألف درهم أي مليون ومائة وخمسون ألف درهم في مدة ثلاث وعشرين سنة. وفي يوم الشعانين في كلّ سنة ثياب من وشي وقصب وملحم وغيره بقيمة عشرة آلاف درهم، أي مائتا ألف وثلثون ألفاً في مدة ثلاث وعشرين سنة.

وكان يهدى إليه يوم الفطر في كلّ سنة من الورق خمسون ألف درهم أي مليون ومائة وخمسون ألف درهم في ثلاث وعشرين سنة وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم، أي مائتا وثلثون ألف درهم، ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، فيكون قد استوفي في ثلاث وعشرين سنة مليونين وثلثمائة ألف درهم. فيكون قد أصاب في ثلاث وعشرين سنة مليونين وثلثمائة ألف درهم.

ومن أصحاب الرشيد أربعمائة ألف درهم في السنة أي تسعة ملايين ومائتا ألف درهم ثلاث وعشرين سنة وتفصيل ذلك في السنة.

عيسى بن جعفر	٥٠٠,٠٠٠ درهم
زبيدة أم جعفر	٥٠,٠٠٠ درهم
العبّاسة أخت الرشيد	٥٠,٠٠٠ درهم
إبراهيم بن عثمان	٣٠,٠٠٠ درهم

١. السّمور: حيوان برّي لونه أحمر مائل للسود، عيون الأنباء، ص ١٩٩.

٢. الفنك: نوع من الثعالب فروته من أجود أنواع الفراء، لسان العرب، ج ٢، ص ١١٣٧. وعيون الأنباء، هامش ١٩٩.

٣. القماقم: صغار القردان. والمقصود هنا جلودها، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٩٩.

٤. الدلق: قريب من السّمور، أصفر اللون، بطنه وعنقه مائلان إلى البياض. عيون الأطباء، ص ١٩٩.

٥. القبطين: يظن أنها أم جعفر البرمكي زوجة يحيى بن خالد، عيون الأنباء، ص ١٩٩.

الفضل بن الربيع	٥٠,٠٠٠ درهم
فاطمة أم محمد	٧٠,٠٠٠ درهم
كسوة وطيب ودواب	١٠٠,٠٠٠ درهم

وتغلّ ضياعه بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد في كلّ سنةٍ ما قيمته بعد المقاطعة ورقاً ثمانمائة ألف درهم فيكون المجموع في مدة ثلاثٍ وعشرين سنة ثمانية مليون ومائة ألف درهم.

وكان يصير إليه من البرامكة في كلّ سنة من الورق مليونان وأربعمائة ألف درهم، ويكون المجموع مدة ثلاث عشرة سنة (٣١,٢٠٠,٠٠٠ درهم).

وتفصيل ذلك في السنة:<sup>١</sup>

يحيى بن خالد	٦٠٠,٠٠٠ درهم
جعفر بن يحيى	١,٢٠٠,٠٠٠ درهم
الفضل بن يحيى	٦٠٠,٠٠٠ درهم

فيكون قد آل إليه في مدة خدمته للرشيدي وهي ثلاثٌ وعشرون سنة ومدة خدمته للبرامكة وهي ثلاث عشرة سنة، سوى الصلوات الجسام التي لم تذكر في المدرج من الورق ثمانية وثمانون ألف مليوناً وثمانمائة ألف (٨٨,٨٠٠,٠٠٠ درهم)<sup>٢</sup>.

وكتب جبرائيل قبل وفاته وصيته إلى ابنه بختيشوع، وجعل الوصي فيها المأمون فسلمها إليه. ولما توفي جبرائيل كان المأمون وبختيشوع في بلد الروم، فدفنه صهره في دير مار سرجس بالمدائن. ولما عاد ابنه بختيشوع من بلد الروم جمع للدير رهباناً وأجرى عليهم جميع ما يحتاجون إليه<sup>٣</sup>.

١. عيون الأنبياء، ص ١٩٨-٢٠٠. تاريخ الحكماء، ص ١٤٢-١٤٣.

٢. تاريخ الحكماء، ص ١٤٣. عيون الأنبياء، ص ٢٠٠.

٣. تاريخ الحكماء، ص ١٤٢، عيون الأنبياء، ص ١٩٨.

وعن مقتنيات جبرائيل النادرة وبعض موارد دخله، فقد ورد في كتاب الجماهير: «إن المتوكل جلس يوماً لهدايا النيروز فقدم إليه كلّ علقٍ نفيس، وأن طيبه بختيشوع بن جبرائيل دخل عليه... ثم أخرج من كمّه درج إبنوس مضبّب بالذهب، وفتحه عن جريرٍ أخضر انكشف عن ملعقة كبيرة من جوهر لمع منها شهاب... فرأى المتوكل ما لا عهد به بمثله وقال: من أين كلّ هذا؟»

قال: من الناس الكرام، ثم تحدّث: أنه صار لأبي من أمّ جعفر زبيدة في ثلاث مرّات ثلاثمائة ألف دينار بثلاث شكايات عاجلها فيها: وأحدتها أنها شكت عارضاً في حلقتها منذرة بالخناق فأشار إليها بالفصد والتطفئة والتغذي بحشوٍ وصفه، فأحضر على نسخته في غضارة صينية عجيبة وفيها هذه الملعقة، فغمرنى أبي على رفعها ففعلت ولففتها في طيلسانى وجاذبيتها الخادم.

فقال له: لاطفه ومره بردّها، وعوّضه منها عشرة آلاف دينار. فامتنت.

وقال أبي: يا ستي إن ابني لم يسرق قط فلا تفضحيه في أول كراته<sup>٢</sup> لئلا يكسر قلبه. فضحكت ووهبتها له. وسئل عن الأخرتين.

فقال: إنها اشتكت إليه النكهة<sup>٣</sup>، بأخبار إحدى بطانتها إياها، وذكرت أن الموت أسهل عليها من ذلك فجوّعها إلى العصر، وأطعمها سمكاً ممقوراً<sup>٤</sup>، وسقاها دردى<sup>٥</sup> نبيذ دقل فغثت نفسها وقذفت وكررت ذلك عليها ثلاثة أيام ثم قال لها: تنكهي في وجه من أخبرك بذلك واستخبريه هل زال؟ والثالثة أنها أشرفت على التلف من فواقٍ شديد يسمع من خارج الحجرة فأمر الخادم بإصعاد خوابي على سطح الصحن وتصفيفها حوله على الشفير وملاها ماء، وجلس خادمٌ خلف كلّ جب حتى إذا صفق بيده على الأخرى دفعوها دفعة إلى وسط الدار، ففعلوا وارتفع لذلك صوت شديد أزعجها، فوثبت وزايلها الفواق<sup>٦</sup>.

١. العلق، النفيس من كلّ شيء، لسان العرب، ج ٢، ص ٥٩٨.

٢. كراته: أمره، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٨٨.

٣. النكهة: رائحة الفم، لسان العرب، ج ٣، ص ٧٢٠.

٤. سمك ممقور: أي منقوع بالخل والملح، لسان العرب، ج ٣، ص ٥١٢.

٥. دردى: عكر النبيذ، الومخشري، أساس البلاغة، ص ١٢٨.

٦. عيون الأنباء، ص ٢٠٧-٢٠٨. وراجع الوافي بالوفيات، ج ١، ص ٧٧-٧٨.

وروى جبرائيل بن بختيشوع أن الرشيد أعطاه ألف ألف درهم بعد أن شفاه من وعكةٍ صحية: «كنت مع الرشيد بالرقّة ومعه المأمون ومحمّد، وكان أي الرشيد رجلاً كثير الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، ودخل المستراح فغشي عليه، وقوي عليه الغشي ولم يشك غلّمانه أنه قد مات وحضر ابنه وشاع عند العامة والخاصة خبره، فأرسل إليّ فحضرت، وجسست عرقه، فوجدت نبضاً خفيفاً وقد كان قبل ذلك بأيام يشتكي امتلاءً وحركة الدم، فقلت لهم: لم يمّت والصواب أن يحجم الساعة... فقلت للحجّام ضع محجّمك، ففعل... ثم قلت إشرط، فشرط فخرج الدم... وكلّمنا خرج الدم يحرك رأسه... إلى أن تكلم... وتراجعت إليه قوّته... فلما خرج من علّته دعا بصاحب حرسه وصاحب شرطته وحاجبه فسأل صاحب الحرس عن غلّته في كلّ سنة فعرف أنها ألف ألف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلّته فعرف أنها خمسمائة ألف درهم. ثم قال: يا جبرائيل كم غلّتك؟

فقلت: خمسين ألف درهم.

فقال: ما أنصفناك حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني ويحجبوني عن الناس على ما هي عليه وتكون غلّتك على ما ذكرت، وأمر بإقطاعي ما قيمته ألف ألف درهم فقلت: يا سيدي، ما لي حاجة إلى الإقطاع ولكن تهب لي ما اشتري به الضياع ففعل وتقدم بمعاونتي على ابتياعها فابتعت بهباته وصلاته ضياعاً غلّتها ألف ألف درهم. فجميع ما أمّلكه ضياع لا إقطاع فيه.<sup>٢</sup>

وتطلّعنا هذه الأرقام الواردة في المدرج على ما كان يتمتع به جبرائيل بن بختيشوع من مكانةٍ رفيعة في البلاط العباسي، وكانت فاتحة خيرٍ على من تعاقب من أطباء هذه الأسرة

١. يستخرج الدم من قفا العنق بالمحجم، بشرط الحجّام بموساه ثم يضع المحجم، وهي أداة كالكأس، فيمتص الدم ويمتدبه، والحجامة، أحد ثلاثة أشياء كان الأطباء القدماء يوصون بها في كلّ سنة وهي: الحجامة، والفضد، وتناول المسهل. وكان الناس يعتبرون القيام بهذه الثلاثة من الواجبات ويكون تحت إشراف الطبيب ويمتفلون بذلك وإذا حجّم الإنسان أو اقتصد أو تناول مسهلاً، جاءت الهدايا من أصحابه ومعارفه (الفرج بعد الشدة) ج ٤، ص ٢٢١، فقد روي أن المتوكّل اقتصد يوماً فقال لخاصته وندمائه إهدوا لي يوم فصدي، فاحتفل كلّ واحدٍ منهم في هديته (راجع عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ص ٢٥٣).

٢. الفرّج بعد الشدة، ج ٤، ص ٢١٩-٢٢٠. عيون الأنبياء، ص ١٩٤.



على خدمة الخلفاء والعظماء، وعلى الرغم من أنهم لم يضاهاوا جبرائيل في غناه الفاحش، فإن منزلة كلّ منهم في زمانه لم تكن تقلّ احتراماً وإكراماً لدى أرباب الدولة.

وقد قيل في بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع إنه: «كان سريانياً نبيل القدر، وبلغ من عظم المنزلة والحالة وكثرة المال، ما لم يبلغ به أحد من سائر الأطباء الذين كانوا في عصره؟ وكان يضاهي الخليفة في اللباس والفرش»<sup>١</sup>.

وقيل في ترجمة جبرائيل بن عبيدالله بن بختيشوع: «وكانت أجداده في هذه الصناعة كلّ منهم أوحد زمانه وعلامة وقته»<sup>٢</sup>.

وهنا يكمن سرّ بروز هذه العائلة وتعلّق الناس بها، إذ أنهم وُجدوا في حقباتٍ زمانية لا يضاهيهم فيها في صناعتهم أحد والأمثلة على ذلك كثيرة. هذا من جهة، أما من جهة ثانية، فإن من المؤكّد أن الخلفاء كانوا يدركون صدى تعلّق أطباء آل بختيشوع بمستشفاهم في جنديسابور، وأنجح وسيلة لاستقدامهم والاحتفاظ بهم هي إغراقهم بالغنى ومنحهم التقدير والتبجيل. وقد قال الورتري في كتابه تاريخ الطب في العراق: «ويظهر من حكايات الكتب التاريخية أن اهتمام هذه الأسرة بجمع المال كان يفوق اهتمامها بخدمة المهنة والقيام على أعمال البيمارستان»<sup>٣</sup>.

وأعتقد أن هذا القول مبالغٌ فيه إذا قارنناه بما قاله فثيون الترجمان: «إن جنس جورجيس وولده كانوا أجمل أهل زمانهم، بما خصّهم الله من شرف النفوس، ونبيل الهمم، ومن البرّ والمعروف والإفضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والأخذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على ما يتجاوز الحدّ في الصفة والشرح»<sup>٤</sup>.

١. عيون الأنباء، ص ٢٠١.

٢. عيون الأنباء، ص ٢١٠.

٣. هاشم الورتري، ومعتز خالد الشاندر، تاريخ الطبّ في العراق، ص ٣٠-٣١.

٤. عيون الأنباء، ص ١٩٨.

وفي مختلف الأحوال فإن ثروة جبرائيل بن بختيشوع الخيالية، وهي حال فريدة في نوعها حتى بين أطباء القصور. فقد اشتهر ماسويه، أبو يوحنا الذي عمل أولاً كحالا للوزير الفضل بن الربيع وكان يتقاضى شهرياً ستمائة درهم (٦٠٠) وعلوفة دابتين ونزل وخمسة غلمان، وأعطاه نفقة واسعة ليستحضر أسرته من جنديسابور. وعندما أصبح كحال الرشيد كان يتقاضى شهرياً ألفي (٢٠٠٠) درهم، ومعونة في السنة بقيمة عشرين ألف (٢٠,٠٠٠) درهم ونزل، وألزم بالخدمة مع سائر من كان في الخدمة من الأطباء وصار نظيراً لجبرائيل وكان يحضر بحضوره<sup>١</sup> وقد بلغ مدخوله السنوي عشرين ألف (٢٠,٠٠٠) درهم<sup>٢</sup>.

وكان جبرائيل كحال المأمون يتقاضى شهرياً ألف (١٠٠٠) درهم<sup>٣</sup> وتقاضى حينئذ بن إسحق من المتوكّل شهرياً ألفاً وخمسمائة (١٥٠٠) درهم<sup>٤</sup>. ومما يحكى أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله ويترجمه من الكتب. وكان بنو شاكر له في الشهر خمسمائة (٥٠٠) دينار للنقل والملازمة<sup>٥</sup>.

ويوم موت عبيدالله بن جبرائيل طبيب المقتدر، أنفذ الخليفة ليلة موته ثمانين فراشاً حملوا الموجود من أثاث وآنية. وبعد دفنه اختفت زوجته، فقبض على والدها بسببها وطلب منه ودائع بنت بختيشوع وأخذ منه أموالاً كثيرة<sup>٦</sup>.

وخلف أمين الدولة بن التلميذ نعماً كثيرة، وأموالاً وافرة، وكتباً لا نظير لها في الجودة. وقيل أن كتبه نقلت على إثني عشر جملاً إلى دار المجدد بن الصاحب<sup>٧</sup>.

١. عيون الأنباء، ص ٢٢٣.

٢. حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ص ١٥٠.

٣. تاريخ الحكماء، ص ١٥٢. عيون الأنباء، ص ٢٤٢.

٤. حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ص ١٥١.

٥. عيون الأنباء، ص ٢٦٠.

٦. عيون الأنباء، ص ٢٦١.

٧. عيون الأنباء، ص ٣٥٥.

وكما ذكرنا سابقاً كانت دار القوارير حجرة في إقطاعه<sup>١</sup>، وقيل أن مرسومه ببغداد، كان يزيد في كل سنة على عشرين ألف دينار (٢٠,٠٠٠)<sup>٢</sup> وكان ينفق جميع ذلك على صلاح العلم والغرباء وغيرهم، ومن حكمه «العالم الذي هو غير معلّم كمتمولٍ بخيل»<sup>٣</sup>.

ولم تكن منزلة الأطباء اجتماعياً ومالياً في ظلّ الحكم العبّاسي في مصر أقل مما كانت عليه في بغداد. فقد كان أحد الأطباء والمشهورين يتقاضى شهرياً راتباً قيمته ألف (١٠٠٠) ديناراً<sup>٤</sup> وعندما تمكّن بليطيان من شفاء إحدى محظيات الرشيد وهبه مقابل ذلك مالاً كثيراً وكتب له منشوراً في كل كنيسة في يد اليعقوبية<sup>٥</sup> مما أخذها أن ترد إليه. ولما عاد بليطيان إلى مصر استردّ من يد اليعقوبيين جميع الكنائس<sup>٦</sup>.

## خاتمة

بهذه المكانة الرفيعة تنعم الأطباء المسيحيين في المجتمع العبّاسي الإسلامي حيث قرّبهم الخلفاء والأمراء والوزراء وشاورهم وأغدقوا عليهم هباتهم لما كانوا يقدمونه من جهد وخدمات لهم ولأبناء المجتمع في مساهماتهم بعمل الإحسان.

ومما سبق فإن هذا العدد الكبير من الأطباء الذين ظهرُوا في العصر العبّاسي، يدل على أن الحياة الاجتماعية قد وصلت إلى درجة عالية من الرقي، وأن الطب كان يمارس باعتباره حاجة من حاجات تلك الحياة الراقية، وأنه لا يمكن أن يقال: إن الخلفاء قد استخدموا هذا

١. عيون الأنباء، ص ٣٥١-٣٥٢.

٢. تاريخ حكماء الإسلام، ص ١٤٥. معجم الأطباء، ص ٨٦. تاريخ الطب العراقي، ص ٣٣.

٣. تاريخ حكماء الإسلام، ص ١٤٥. معجم الأطباء، ص ٨١.

٤. حنيقة الخطيب، الطب عند العرب، ص ١٥١.

٥. اليعقوبية: عرّفهم محقق كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، في هامش ص ٥٤٠، من المصدر نفسه بأنهم طائفة من النصارى قالت بالطبيعة الواحدة يسمّون اليوم السريان القديم أو الأرثوذكس تمييزاً عن السريان الكاثوليك. بينما الصواب: أن كلمة اليعاقبة في العصر العبّاسي كانت تشير إلى الأقباط.

٦. عيون الأنباء، ص ٥٤٠.



\*\*\*\*\* الفصل الثاني عشر \*\*\*\*\*

دور الأطباء السُريّان الاجتماعي  
والسياسي في العصر العباسي  
(٧٥٠-١٢٥٨)

## مقدمة

أيدت كتب التاريخ، أن مسيحي العراق أسهموا في حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية وشاركوهم في الحياة الاقتصادية، بل سكنوا بينهم وشادوا الكنائس والأديار بين ظهرانيتهم، وهم يتعاطون بحرية تامّة أشغالهم اليومية ويزاولون معاملاتهم التجارية.

إن التشريع الإسلامي لم يغلق أمام المسيحيين أي باب من أبواب العمل، ولهذا كثر منهم الأطباء والصيدالة والمهندسون والمترجمون والتجار والموظفون في دواوين الدولة العربية الإسلامية. فقاموا بتأدية واجباتهم خير قيام حتى أضحوا من المتقدمين لما اتصفوا به من الأخلاق العالية والفضائل السامية والتضحية الغالية.

فكان إبراهيم أخو سلمويه بن بنان طبيب المعتصم خازن بيوت الأموال في البلاد. ولم يكن عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في المنزلة. وصار إبراهيم بن هارون المسيحي قهرمانًا لمحمّد بن عبدالله بن طاهر.

وفي سنة ٨٤٩م، بعدما شاد المتوكّل قصره الجعفري وأجلّ إليه نهرًا صير النفقة عليه إلى دليل بن يعقوب النصراني، وأضحى عبدالله شمعون كتومًا، أي أمين السرّ في ديوان الخليفة المكتفي (ت ٩٠٨م).

وفي سنة ٩٢٥م، أصبح بنان النصراني كاتبًا لصاحب الديوان. وأسند إلى مالك بن الوليد النصراني ديوان الدار، كما أسند ديوان الخاصة وبيت المال إلى نصرانيين هما ابن القناني وأخوه. ولا ريب أن هؤلاء وغيرهم قد جدّوا كلّ الجدّ وأخلصوا كلّ الإخلاص في إنجاز ما عهد إليهم.

وكان وزير الخليفة المقتدر (ت ٩٣٢م) أبو الحسن ابن الفرات يدعو كل يوم أربعة من النصارى إلى طعامه. وهؤلاء من جملة الكتاب التسعة الذين اختص بهم.

وكان أبو الجمال الحسين بن القسام ابن عبيدالله بن سليمان بن وهب يسعى لطلب الوزارة ويتقرب إلى مؤنس وحاشيته وإلى النصارى الكتاب، ويقول لهم: «إن أهلي منكم، وأجدادي من كباركم، وإن صلياً سقط من عبيدالله بن سليمان جدّي في أيام المعتضد، فلما رآه الناس قال: هذا شيء تبرّك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم».

وكان النصارى يُقسمون اليمين لدى تسلّمهم المناصب الرفيعة وتولّيهم المدن والقرى التي أكثر سكانها نصارى. وقد تقلّد ديوان جيش المسلمين رجل نصراني مرتين في أثناء القرن الثالث الهجري. ولما لام الناس ابن الفرات ورموه بالكفر لسوقه الجيش إلى أحد المسيحيين دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء السابقين الذي ولّوا المسيحيين وظائف الدولة.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، اتخذ عضد الدولة البويهى (ت ٩٨٢م) في بغداد وزيراً نصرانياً وهو نصر بن هارون. وقد أذن له في عمارة البيع والديارات وإطلاقه الأموال لفقراء المسيحيين. ودخل في بغداد أحد الوزراء المسيحيين اسمه عبدون بن صاعد على القاضي إسماعيل بن اسحق بن إسرائيل (ت ٨٩٥م)، فقام ورحّب به فرأى إنكار اليهود ومن حضره. فلما خرج قال لهم: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم». وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفيرٌ بيننا وبين خليفتنا وهذا البرّ. فسكتت الجماعة.

ولما كان موضوع النصارى في العصر العباسي: خاصتهم وعامتهم، أحوالهم الاجتماعية ودورهم السياسي طويلاً، لا يتسع هذا البحث المتواضع، لذا فضّلت أن أتطرّق إلى موضوع خاصٍ جداً - دور الأطباء المسيحيين السياسي والاجتماعي في العصر العباسي ما بين عامين ٧٥٠-١٢٥٨م، فأقول<sup>١</sup>:

حظي الأطباء المسيحيون بشكلٍ عام بالاحترام والثقة، ونالوا المكانة التي لا يمكن للوصف أن يفياها حقها من قبل الخلفاء والوزراء والعامّة والأمراء، تقديرًا لجهودهم في

١. للتفاصيل عما ورد في المقدمة أعلاه، راجع كتابنا «لمحات من تاريخ نصارى العراق» بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٨٢.

السهر على راحة الخاصة والعامة من المجتمع، والعناية بصحتهم آنذاك<sup>١</sup> وقد كان ذلك واضحاً في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، إذ كانت ساحةً لتجمع الأطباء من مختلف أقاليم الإسلام. فمنهم من تلقى دراسة الطبّ ومنهم من درّسه. ونتيجة لهذه المنزلة ارتفعت مكانة الأطباء إلى أعلى المراتب، ومن خلال ذلك مارسوا نشاطاتهم السياسية والاجتماعية<sup>٢</sup>.

وبحثنا المتواضع هذا، ما هو إلا محاولة للكشف عن ذلك النشاط السياسي والاجتماعي الذي بقي بعيداً عن أيدي الباحثين، حيث انصبّ جلّ اهتمامهم على العلوم الطبية، وتاريخها وذكر أشهر الأطباء، ونشاطاتهم الطبية ونتائجهم الفكرية. ولكننا وجدنا الحاجة ماسة لأن نكشف عن النشاط السياسي والاجتماعي لهذه الفئة العلمية.

## أولاً: النشاط السياسي

للكشف عن نشاط الأطباء المسيحيين السياسي، يقتضي أن نبحث في علاقتهم بالمسؤول عن إصدار القرار السياسي وهو الخليفة، وما يدور في البلاط وعلاقة ذلك بالوزراء.

لقد عدّ الخلفاء وجود الأطباء إلى جانبهم من مستلزمات الحكم للإشراف على صحتهم وصحة أسرهم وحواشيهم<sup>٣</sup> وجندهم، أو ليكونوا مثل سائر موظفي البلاط أداة للفخر وإظهار الملك، إذ كان بلاط الخليفة يضمّ عدداً غير قليل من العلماء والأدباء وكذلك الأطباء الذين هم وسيلة لتزيين وتجميل بلاط الخليفة وإظهار عظمتهم<sup>٤</sup>. فعندما يعدّد نظامي عروضي أهمّ خواص الملك نجد أن الطبيب جزء أساسي من خواص الخليفة لرعاية صحة بدنه فيقول: «الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب من خواص الملك ولا غنى للملك عنهم، فقوام الملك بالكاتب، وتخليد الاسم بالشاعر، ونظام الأمور بالمنجم، وصحة البدن بالطبيب»<sup>٥</sup>.

١. د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام في جزئين، بغداد ١٩٨٤، ج ٢، ص ٤٤٨.

٢. محمد مرسي عرب، التراث الطبي العربي بين الأصالة والتجديد، مجلة «المؤرخ العربي»، بغداد ١٩٧٨، العدد ٩، ص ٩٩.

٣. الففطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٥٣، ص ٢٣٢.

٤. د. السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ٢، ص ٤٤٨.

٥. السمرقندي، جهاز مقالة (المقالات الأربع في الكتابة والشعر والنجوم والطب) ترجمة عبدالوهاب عزام، بحى الحشّاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٩م، ص ٢٠-٢١.



وقد بلغت مرتبة الأطباء -ولا سيّما المسيحيين منهم- عند الخلفاء، من الحبّ والإكرام مقاماً رفيعاً على نحو ما قام به الخليفة هارون الرشيد<sup>١</sup> عندما ذهب للحجّ، إذ دعا الله أن يحفظ طبيبه جبرائيل<sup>٢</sup>، فكان بذلك أول صنيع يقوم به خليفة. وعندما استغرب بنو هاشم الأمر قائلين: «يا سيّدنا، جبرائيل ذميّ، فقال نعم، ولكن صلاح بدني وقومته به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائه. فقالوا صدقت يا أمير المؤمنين»<sup>٣</sup>. وهذا دليل على أن الخلفاء كانوا يدركون أهمية الطبيب، بل إن الخليفة كان يعي أهميته وهو إمام المسلمين، وأن بقاء الأمة الإسلامية (الدولة الإسلامية) رهناً بوجود الخليفة وقيام الخليفة بتأدية مهامه ومسؤولياته مرهون بصحته<sup>٤</sup>، وللطبيب دورٌ مهمٌ وحاسمٌ في الحفاظ على سلامة الخليفة وصحته. ومن هنا تأتي أهمية الطبيب للحفاظ على أحد الأسس التي تقوم عليها الملة الإسلامية، هو الإمام. ولهذا لا نستغرب عندما يصف الخليفة المعتصم<sup>٥</sup> طبيعة العلاقة بينه وبين طبيبه سلمويه<sup>٦</sup> بقوله: «سلمويه طيبي أكبر عندي من قاضي القضاة لأن هذا يحكم في نفسي، ونفسي أشرف من مالي وملكي»<sup>٧</sup>.

١. هارون الرشيد، الخليفة العبّاسي الخامس (١٧٠-١٩٣هـ/٧٩٦-٨٠٩م)، ابن المهدي والخيزران، ولد بالريّ وتوفي بسندباد من قرى طوس بإيران. جاء إلى الخلافة بعد اغتيال أخيه. حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكماً على المقاطعات الغربية، وبلغ أبواب القسطنطينية. ثم حل عليهم مرات بعد خلافته، وأقر الأمن في المقاطعات الفارسية وبين البربر (شمال أفريقيا). إتصل بملك فرنسا شارلمان. وازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم، ولعب البرامكة دوراً هاماً قبل أن يوقع بهم.

٢. جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس (+٢١٣هـ/٨٢٨م). كان مشهوراً بالفضل، جيّد التصرف في المداواة، سعيد الجّد، حظياً عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، كثيري الإحسان إليه. وحصل عند الخلفاء من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ١: ١٢٧-١٣٨).

٣. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العبّاس أحمد بن القاسم السعدي الخرزجي (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥، ص ١٩٢. د. خليل إبراهيم السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٣، ص ٣٠٩.

٤. والذي يتغيّر به حالة فيخرجه عن الإمامة شيثان: أحدهما جرح في عدالته، والثاني نقص في بدنه، نقص الحواس والأعضاء. الماوردي، أبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠، ص ١٧-١٨.

٥. المعتصم بالله (محمّد بن هارون الرشيد) الخليفة العبّاسي الثامن (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) ولد سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م، كان أمياً تولى الحكم في مصر قبل خلافته. إستعان بالجنود الأتراك. قضى على الزط الذين عاثوا فساداً بين البصرة وبغداد، وأجلاهم إلى قيليقية. كما قضى على حكم بابك الخرمي في أذربيجان بفضل قائده الأفشين. أنزل بالبيزنطيين هزيمة نكراء واحتل عمورية. بنى سامراء.

٦. سلمويه بن بنان (٨٤٠+) كان طبيباً فاضلاً في وقته. خدم المعتصم وخصّ به حتى إن المعتصم قال لما مات سلمويه: سألخق به لأنه كان يُمسك حياتي ويدبّر جسمي. وكان عالماً بصناعة الطّب. ولما مرض عاهه المعتصم وبكى عنده. ولما مات امتنع المعتصم عن الأكل في ذلك اليوم وأمر بإحضار جنازته إلى دار الخلافة وأن يصلّ عليها بالشمع والبخور على رأي التصاري. ففعلوا ذلك وهو يراهم (القفطي، ص ٢٠٧).

٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

ومعنى ذلك أن أهمية الأطباء لم تأت من مجرد أهميتهم في الحفاظ على صحّة الإنسان (الخليفة) أو المسؤولين الآخرين، بل إن محتوى المهنة هو أشرف من محتوى ما تنطوي عليه المهن الأخرى، لأن الطبيب يهتم بالنفس (الروح) الإنسانية. وهذه من حيث المنزلة أشرف من المال (المادة) فكيف إذا كانت هذه النفس نفس أمير المؤمنين (الإمام)؟ وعندما يقارن الخليفة هارون الرشيد بين من يجرسه من الناس (كصاحب الحرس والحاجب) وبين من يجرسه من الأمراض والأسقام (الطبيب) يفضّل الخليفة الرشيد الطبيب عليهما، ويأمر بزيادة تخصيصاته<sup>١</sup>. وقد وصف الخليفة المتوكل<sup>٢</sup> طبيعة العلاقة، أو المنزلة، بينه وبين الطبيب بختيشوع<sup>٣</sup>، قائلاً لوزيره: «أكتب في ضياع بختيشوع فإنها ضياعي وملكي، فإن محله منا محل أرواحنا من أبداننا»<sup>٤</sup>.

ولم يقتصر دور الأطباء على حدود المعالجة والتطبيب بل كان عليهم أن يلازموا الخلفاء ويرافقوهم في الأسفار، سواء أكانت للحجّ أم للنزهة أو للحرب بل حتى عند تناولهم الطعام<sup>٥</sup>.

وكان للأطباء طرقٌ متعدّدة للتدخل أو ممارسة التأثير السياسي: فأحياناً يحصل التقرب عند شفاء الخليفة أو إحدى نساء الحاشية من مرض، ويكون ذلك مجالاً لبروز الطبيب. وهذا ما حصل للطبيب جبرائيل بن بختيشوع من الخليفة الرشيد: «وجعله رئيساً على جميع الأطباء»<sup>٦</sup>. وفي أحيانٍ أخرى، يحصل التأثير عن طريق الاتصال بأحد الأمراء المسجونين حيث يقيم الطبيب معه علاقة قوية وعند إطلاق سراح الأمير وتنصيبه خليفة

١. المصدر السابق، ص ١٩٤.

٢. المتوكل على الله (جعفر بن محمد المعتصم) (٢٠٦-٢٤٧هـ/٨٢١-٨٦١م) الخليفة العباسي العاشر (٢٣٢هـ/٨٤٧م) ابن المعتصم من جارية فارسية، حارب المعتزلة. حاول نقل عاصمته إلى دمشق غير أنه عاد إلى سامراء حيث اغتاله القادة الأتراك بالاشتراك مع ابنه الأكبر المنتصر. كان موته بداية انحطاط الخلافة العباسية.

٣. بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس (+٢٥٦هـ/٨٦٩م) طبيبٌ معروف مشهور. متقدّم عند الملوك. خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. وكسب بالطب ما لم يكسبه مثله. وكان الخلفاء يثقون به على أمهات أولادهم. وأخباره مشهورة (ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٦).

٤. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

٥. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٤٠٥، يُنظر، الصابن، أبو الحسن هلال بن الحسن (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عزاد، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٤. ق ٢، ص ٨٦. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٢٤ و ٤٧٥-٤٧٦.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ٢٩٥.

يزداد نشاط الطبيب السياسي. ومن الأمثلة التي يدونها لنا التاريخ، ما يلي: «إنَّ الموقَّع لما غضب على ابنه أبي العباس المعتضد بالله<sup>٢</sup> حبسه في دار إسماعيل بن بلبل وكان أحمد الحاجب موكلاً به، وتقدّم إسماعيل بن بلبل إلى ثابت بن قره<sup>٣</sup> يدخل إلى أبي العباس يؤنسه. فأنس أبو العباس بثابت بن قره أنساً كثيراً. وكان ثابت يدخل إليه إلى الحبس في كل يوم ثلاث مرّات يحادثه ويسلّيه، ويعرّفه أحوال الفلاسفة وأمر الهندسة والنجوم وغير ذلك. فشفغف به ولطف منه محلّه. فلما خرج من حبسه قال لبدر غلامه: يا بدر، أي رجل أفادنا بعدك؟ فقال: من هو يا سيدي؟ فقال: ثابت بن قره. ولما تقلّد الخلافة أقطعه ضياعاً جليلاً وكان يجلسه بين يديه كثيراً بحضرة الخاص العام. ويكون بدرٌ غلام الأمير قائماً والوزير وهو جالس بين يدي الخليفة»<sup>٤</sup>.

ولم تقتصر طرق اتصال الأطباء برجال السياسة إلى معالجة الأمراض البدنية بل يكون الاتصال أحياناً أقوى تأثيراً عندما يكون الإشراف الطبي على الأمراض العصبية والنفسية. وهذا ما حصل للطبيب سنان بن ثابت<sup>٥</sup>، مع الأمير أبي الحسين بجكم<sup>٦</sup>.

قال ثابت بن سنان: «لما مات الراضي بالله<sup>٧</sup> استدعى الأمير أبو الحسين بجكم والدي سنان بن ثابت وسأله أن ينحدر إليه إلى واسط... فانحدر إليه والدي...

١. الموقّع بالله (طلحة بن جعفر المتوكّل) (ت ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) أمير عباسي، كان ولياً للعهد في خلافة أخيه المعتضد على الله. وكان الحاكم الفعلي إذ ظهر ضعف المعتضد في القيام بأعباء الدولة. قضى على ثورة الزنج بمعاونة لؤلؤ سنة ٨٨٣ م.

٢. المعتضد بالله (أحمد بن طلحة أبو العباس) الخليفة العباسي السادس عشر (٢٧٩-٢٨٩ هـ / ٨٩٢-٩٠٢ م) وُلد في بغداد عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٧ م، أقام العدل وأصلح أمور بيت المال. عقد صلحاً مع خماويه الطولوني واقرن بانبته. أخضع الخوارج الشيبانيين وقضى على الدلفيين. أوقع الجنابي هزيمة بجيشه. توفي ببغداد.

٣. ثابت بن قره (٨٣٦-٩٠١) وُلد في حرّان. رياضي وطبيب وفيلسوف صابني. عاش في ظل الخليفة المعتضد في بغداد. نقل إلى العربية وشرح المؤلفات اليونانية في الرياضيات والفلك، له «الذخيرة في علم الطب».

٤. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

٥. سنان بن ثابت بن قره (أبو سعيد) (ت سنة ٩٤٣) طبيب صابني من أصل حرّاني. نشأ ببغداد. رئيس الأطباء في عهد المقتدر العباسي، عمل في خدمة القاهر أيضاً.

٦. بجكم (ت ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م) قائد تركي من المالك في عهد الخليفة الراضي. فتح بغداد عام ٩٣٩ م، ولقّب بأمر الأُمراء. وكان مع ابن رائق الساعي في تدبير الأمور لحساب خليفة بغداد وقع الفتن في الأقاليم. حارب البريدي. مات قتيلًا.

٧. الراضي بالله (محمد بن جعفر المقتدر) الخليفة العباسي العشرون (٣٢٢-٣٢٩ هـ / ٩٣٤-٩٤٠ م) وُلد عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م، عجز عن إصلاح أمور الدولة وأضحى العنوية في يد وزرائه، ولا سيما أمير الأُمراء ابن رائق الذي ولّاه قيادة الجيوش، فلم تعد له أية سلطة ما عدا الزعامة الدينية مما جعل أموي الأندلس يتخذون لقب خليفة.

وقال له: أريد أن أعتد عليك في تدبير بدني وتفقد النظر في مصالحه، وفي أمرٍ آخر هو أهمُّ إليّ من أمر بدني، وهو أمر أخلاقي، لثقتي بعقلك وفضلك ودينك ومحبّتك. فقد غمّني غلبة الغضب والغيط عليّ، وإفراطهما بي حتى أخرج إلى ما أندم عليه عند سكونها من ضربٍ وقتل<sup>١</sup>.

وهذا يشير إلى أن الطبيب قد أعطي صلاحيةً أوسع في الإشراف على بعض القرارات التي يتخذها الأمير، والقدرة على منعه في أثناء غضبه من اتخاذ ما يضرّ بمصالح الناس، مما كان يفسح المجال لأن يصبح الطبيب مرشدًا سياسيًا ينبّه الأمير إلى مواطن الخطأ والصواب.

يقول الأمير بجكم: «وأنا أسألك أن تتفقد ما أعمله. وإذا وقفت لي على عيبٍ لم تحشم أن تصدقني عنه وتذكّره لي وتنبّهني عليه، ثم ترشدني إلى علاجه ليزول عني».

ويواصل ثابت بن سنان قوله: «وما زالت أخلاقه تصلح ووالدي ينبّهه على شيءٍ مما ينكره منه من أخلاقه وأفعاله، ويرشده إلى طريق إزالته، إلى أن لانت أخلاقه، وكفّ عن كثيرٍ مما كان يُسرّع إليه من القتل والعقوبات والغليظة»<sup>٢</sup>.

وتأكيدًا لما سبق بلغ الأمر بالأطباء أن يكونوا عند الخلفاء بمنزلة تعلقو القادة والأمراء، وأصبحوا هم الوساطة التي من خلالها يصل الآخرون بها إلى الخليفة. فنرى الخليفة هارون الرشيد يوجّه أصحابه قائلًا: «كلّ ما كانت له إليّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأنني أفعل كلّ ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القواد يقصدونه في كلّ أمورهم»<sup>٣</sup>.

وفي حالاتٍ أخرى كانت المراسيم الخلافية (التواقيع) لا تصدر إلّا بخطّ بعض الأطباء.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٠٢.

٢. المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

٣. المصدر نفسه، ص ١٨٨-١٩٠.

وهذا ما حصل عندما اختار المعتصم طبيبه سلمويه ابن بنان إذ «كان يرد إلى الدواوين وتوقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخط سلمويه، وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين فبخط سلمويه»<sup>١</sup>.

ولم يقتصر الأمر على الأطباء في المنزلة، بل ذهب إلى أن مارس أقارب الأطباء كإخوتهم، شأنًا في ذلك. فنجد إبراهيم بن بنان أخ الطبيب سلمويه قد وُلِّيَ «خزن بيوت الأموال في البلاد وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين. ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في المنزلة»<sup>٢</sup>.

كما أناط الخلفاء بالأطباء مهمات ذات طابع سياسي: فقد كان بعضهم مستشارًا ومعلمًا للخليفة، ومنهم من كُلف مهماتٍ سياسيةٍ أخرى كالسفارة أو رئاسة الوفود والوجاهة. وهذا ما حصل للطبيب فثيون<sup>٣</sup> الذي كان هو السفير بين بختیار<sup>٤</sup> والخليفة<sup>٥</sup>.

ولم يقتصر الأمر على هذه المهمات، بل وصل بعضهم إلى منزلة الوزير في الموقع كالطبيب صاعد أبو الفرج<sup>٦</sup> الذي «تقدم في أيام الخليفة الناصر<sup>٧</sup>، إلى أن كان بمنزلة الوزراء واستوثقه على حفظ خواصه».

وكان يودعها عنده ويرسله في أمورٍ خفيةٍ إلى وزرائه ويظهر له في كل وقت. وكان حسن الوساطة فُضيت على يده حاجات واستكفيت بواسطته شرور<sup>٨</sup>. وقد وصلت مرتبة

١. المصدر نفسه، ص ٢٣٤ و٣١٦. أمين أسعد خير الله، الطب العربي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٤٦، ص ٥١.

٢. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

٣. فثيون (القرن العاشر) طبيبٌ وناقل. وهو أصح الناقلين نقلًا وأحسنهم عبارة ولفظًا (الفهرست ص ٢٤٤). وابن أبي أصيبعة يقول: «وجدت نقله كثير اللحن، ولم يكن يعرف علم العربية أصلًا» (عيون الأنباء، ص ٢٠٤).

٤. بختيار أبو منصور، عز الدولة ابن معز الدولة أحمد بن بويه (ت ٣٦٧هـ/٩٧٨م، أحد الأمراء البويهيين ديلمي الأصل). (الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم (٨ أجزاء)، ط ٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٤). ينظر ابن الأمير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) الكامل في التاريخ (١٢ جزءًا)، دار صادر، بيروت ١٩٦٥، ج ٨، ص ٥٧٥.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٢١ و٢٣٥.

٦. صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما النصراني. من أهل بغداد. وكان من الأطباء المتميزين والأكابر المتعنين. حظي عند الناصر الحظوة التامة. وسلم إليه عدة جهات يخدم بها. وكان بين يديه عدة دواوين. قُتل سنة ٦٢٠هـ (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٠٢).

٧. الناصر لدين الله (أحمد بن المستضيء) الخليفة العباسي الرابع والثلاثون (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) قضى على نفوذ قادة الجيش في بغداد وأعاد للخلافة هيبتها منهيًا تسلط السلاجقة. بلغت جيوشه خوزستان (١١٩٦) وأذربيجان (١٢١٤) شيد باب الطلمس في بغداد، اشتهر بحزمه ودهائه.

٨. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢١٢-٢١٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٥٥.

الأطباء إلى مستوى أجلاء القواد، فبعضهم أصبح موكبه أشبه بموكبهم، ومن الأمثلة على ذلك الطبيب إسرائيل بن زكريا الطيفوري<sup>١</sup>، وكان إذا «ركب إلى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الأمراء، وأجلاء القواد، وبين يديه أصحاب المقارع»<sup>٢</sup>.

سبق أن أشرنا إلى أن الطبيب هو أحد خواص الملك، ومعنى ذلك أن يختص طبيباً بخليفة أو أمير ويلازمه، ولا يجوز أن يتصل بالآخرين إلا بعد موافقة سيده واستئذانه، خشية أن يستغل الأطباء للمؤامرات والدسائس أو أن تمر من خلاهم، خاصة إذا ما اشتركوا بمعالجة أكثر من واحد في البلاط، وعلى الرغم من التخصص كان التبادل قائماً بين طبقة الأعيان، وبخاصة في الحالات الصعبة العلاج.

وهذا ما حصل مع إحدى نساء بلاط الخليفة هارون الرشيد عندما مرضت. فقال جعفر بن يحيى<sup>٣</sup> البرمكي للرشيد: لي طبيب ماهر، جبرائيل بن بختيشوع يشفيها.

وقد تحقق لها الشفاء، بعد أن عاجلها.

وهنالك إشارات تاريخية في فترة الخليفة المنصور، تؤكد أن بعضاً من الأطباء أدركوا خطورة شأنهم فمارسوا نشاطاً سياسياً سلبياً، ولذلك يقول الطبيب عيسى بن شهلاتا<sup>٤</sup> مخاطباً في كتابه أحد المطارنة: «ألست تعلم أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته»<sup>٥</sup>.

١. زكريا الطيفوري، صيدلاني (القرن التاسع). ولد إسرائيل مططب الفتح بن خاقان وكان في خدمة الأفشين (الفطحي، ١٨٧).

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٢١ و٢٣٥.

٣. جعفر بن يحيى البرمكي، قربه الرشيد وفضله على أخيه الفضل وسماه الوزير الصغير. ولآه مصر وخراسان وحرايسة الجيش وديوان الخاتم. قتل في النكبة الشهيرة للبرامكة، العام ١٩٧هـ/ ٨٠٣م.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٨.

٥. المنصور (عبدالله بن محمد أبو جعفر) الخليفة العباسي الثاني (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م) ولد في الحميمة سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م، خلف أخاه السفاح. انتصر على عمه عبدالله ابن علي المطالب بالخلافة، ثم أطاح بقائده أبي مسلم الخراساني. أخضع ثورات العلويين كما قضى على ثورة المقتع في فارس، والبربر في شبالي أفريقيا، بني بغداد ودعاها «دار الإسلام». نظم الشؤون الإدارية والمالية والبريد. توفي محرمًا بالحج.

٦. عيسى بن شهلاتا الجنديسابوري، تلميذ جيور جيس بن بختيشوع. طبيب نسطوري، عاش في منتصف القرن الثامن. كان شماساً، وكان يعطي يده إلى الأساقفة حتى يقبلوها. تولى خدمة المنصور، سنة ٧٧٠م.

٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٥.

ويفعل النتائج السلبية الناجمة عن تدخّل بعض الأطباء في الشؤون السياسية ومسائل التأمّر ظهر تيّاراً آخر من الأطباء أحجم عن التدخّل في شؤون الدولة أو استخدام نفوذه لأموارٍ سياسيّة، ولم يتجاوز حدود المهنة.

ومثال ذلك الطبيب ابن التلميذ<sup>١</sup> الذي اقتصر أمره على المداواة وعدم تجاوز وظيفته الطبيّة. فعندما حضر السلطان محمّد بن محمود<sup>٢</sup> خوارزمشاه إلى بغداد، مرض عندما كان عسكره بظاهر بغداد فكان الطبيب ابن التلميذ يعالج الخليفة المقتفي (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)، داخل بغداد، ويعاود السلطان بظاهر بغداد. «فقال له الوزير، وزير السلطان، أيها الرئيس إنني قد كنت عند السلطان وذكرت له من فضلك وأدبك ورأسك، وقد أمر لك بعشرة آلاف دينار.

فقال: يا مولانا قد أمر لي من بغداد بإثني عشر ألف دينار. أفيأذن لي في قبولها السلطان»<sup>٣</sup>. وهذا يشير إلى محاولة استدراج طبيب الخليفة للتأمّر عليه من خلال منحه مبالغ من المال، فكان جواب الطبيب ابن التلميذ: «يا مولانا، أنا رجل طبيب لا أتجاوز وظائف الأطباء وما يلزمهم ولا أعرف إلّا ماء الشعير والنقوع وشراب البنفسج والنيلوفر. ومتى أخرجت عن هذا لا أعرف شيئاً».

ونقل عنه قوله: لا ينبغي للطبيب أن يداخل الملوك في أسرارهم... ولا يتجاوز حدون الطبّ، فإن تجاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه. وكان ينشد:

وإذا أنبت المهيمن للنمل  
ولكلّ امرئٍ من الناس حدّ  
جناحاً أطارها للترديّ  
وهلاك الفتى جواز الحدّ

١. ابن التلميذ (هبة الله بن صاعد موقّ الملك أمين الدولة) طبيب وقته وفاضل زمانه وعالم أوانه. خدم الخلفاء من بني العباس وتقدم في خدمتهم وكان موقّاً في المباشرة والمعالجة عالماً بقوانين هذه الصناعة وصنّف فيها عدة مؤلفات وانتهت إليه رئاستها (القنطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٤٠).

٢. ابن ملكشاه (ت عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م) محمّد بن محمود بن محمّد بن ملكشاه، سلطان سلجوقي، كان في همدان وحاصر بغداد فامتنعت عليه (الزركلي، الأعلام، ٧: ٨٦).

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٤٨.

٤. المصدر نفسه، ص ٣٤٨-٣٤٩.

وإذا أردنا أن نستكشف أو نبحث عن دوافع هذا التيار لوجدناها تكمّل في إجابة الطبيب حنين بن إسحق<sup>١</sup> عندما استفسره الخليفة المتوكل سبب امتناعه تحضير سُم يقتل به عدوًّا.

يحدّثنا ابن القفطي في «تاريخ الحكماء» وابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء» ما ملخصه: إن الخليفة المتوكل لما سمع بعلم حنين كان لا يأخذ منه أن ملك الروم قد اتفق معه على المكيدة بالخليفة.

فاستدعاه وأسرّ إليه بحاجته إلى دواءٍ يريد به قتل عدوّه له، فقال حنين: «يا أمير المؤمنين لم أتعلّم إلاّ الأدوية النافعة، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحبّ أمضي وأتعلّم فعلت».

وكان بهذه الحجّة يريد التملّص مما طُلب إليه، فلمّا علم الخليفة نيّته قال له: «هذا شيء يطول». ورغبه وهدّده وهو لا يزيد على ما قاله، إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يوصل خبره إليه وقتًا بوقت، وهو هادئ ساكن في حبسه، دأبه النقل والتفسير والتصنيف غير مكترث بما هو فيه.

«ثم أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أمواله يرغبه فيها، وأحضر سيفًا ونطعًا وسائر آلات العقوبات وهو مع ذلك مصرّ على رأيه، والخليفة يقول له: «هذا شيء لا بدّ منه، فإن أنت فعلت قد فزت بهذا المال، وكان لك عندي أضعافه، وإن امتنعت قابلتك شرّ مقابلة، وقتلتك شرّ قتلة».

وحنين يجيبه: «قد قلت لأمر المؤمنين إني لم أحسن غير الشيء النافع ولم أتعلّم غيره». فقال له الخليفة: «فإني قاتلك».

قال حنين: «لي ربُّ يأخذ حقّي غدًا في الموقف الأعظم، فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل».

١. حنين بن إسحق (٨٠٨-٨٧٣) طبيب سرياني وشيخ أسطوري من قبيلة عبّاد العربية. ولد في الحيرة. درس الطب في بغداد وتخلّص باليونانية. عينه المأمون على «بيت الحكمة» انصرف إلى الترجمة فنقل إلى السريانية والعربية بعض كتب أفلاطون وأرسطو. له كتاب «عشر مقالات في العين» و«المدخل في الطب».



فتبسّم الخليفة وقال له: «يا حنين طِبْ نفسًا وثبْ إلينا، فهذا الفعل كان لامتحانك لحدّرنّا من كيد الملوك وإعجابنا بك. فأردنا الطمأنينة إليك والثقة بك لنتنفع بعلمك».

ولما سأله الخليفة عن سبب إصراره على امتناع تقديم السمّ قال له: شيّان، يا أمير المؤمنين.

قال: وما هما؟

قال: الدين والصناعة.

قال: فكيف؟

قال: الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا، فكيف أصحابنا وأصدقائنا، ويُبعد ويُجرّم من لم يكن كذلك. الصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس البشريّ لأنها موضوعة لنفعهم، ومقصورة على مصالحهم<sup>١</sup>. ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الأطباء عهدًا مؤكّدًا بإيمان مغلظة أي يعطوا دواءً قتالًا أو مؤذيًا. فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين، ووطّنت نفسي على الموت، ما كان الله ليضيع من بذل نفسه في طاعته. ولسوف يثيبني».

فقال الخليفة: إنهما الشريعتان الجليلتان، وأمر له بهال<sup>٢</sup>.

إننا نرى في هذه الحادثة عبرة كبرى، نرى فيها منتهى الإخلاص للمهنة إلى درجة تفضيل الموت على خيانة العهد، وفهمًا عميقًا لجوهر الدين. فالدين يريد الخير للبشر دونها تمييز بين عباد الله.

هكذا فهم حنين بن إسحق الدين، وهكذا وقف في سبيل مبدئه ووقف الأبطال الذين يستخفّون بكلّ شيء حتى بحياتهم في سبيل مبادئهم. وإننا لنقف أيضًا مطأطي الرأس

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٦١. إدوار براون، الطبّ العربي، ترجمة داود سليمان علي، بغداد ١٩٨٦، ص ٢٨.

٢. وعكس هذا الموقف ويدلّ على تجاوز الأطباء، ما حصل للطبيب ابن صفيّة المسلم، فعندما اطّلت الخلافة على تجاوزه لم تتأخر عن رده فاستحضره الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ / ١١٧٠-١١٨٠م) ليلاً وقال له: يا حكيم، عندي من أكره رؤيته وأريد إبعاده بوجه لطيف غير شفيح. فقال له: نرتّب له شربة قويّة يشربها، وقد حصل الإخلاص منها كما تؤثر. فمضى وركب شربة، كما وصف وأحضرها ليلاً ودخل بها عند الخليفة ففتحها. ونظر إليها، وقال: «يا حكيم، استق هذه الشربة حتى تجرّب فعلها، فتلوى من ذلك. وقال: الله، الله، يا مولانا في؟ فقال له: الطبيب من تعدّى حدّه وتجاوز طوره وقع في مثل هذا وليس لك من هذا الإخلاص إلا السيف. فاستقى الحكيم الشربة التي ركبها وفرّ من الهلاك إلى الهلاك» (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٤٨).

أمام ذلك الخليفة العباسي الذي شاء كخليفة وأمير المؤمنين وإمام لجميع المتديّنين بشرع محمد، أن يقدر حيناً كمسيحي ملتزم قد احترم دينه، ولم يقف اختلاف المذهب حاجزاً بين خليفة المسلمين والعلماء المسيحيين. إنّ فخورون بتلك النواحي المجيدة من تاريخنا العربي في التعاون العلمي والتسامح الديني.

ولعلنا لا نغفل موقف الدولة عندما كانت تشعر أن بعض الأطباء يقومون باستغلال بعض الناس أو يتدخلون في الشؤون السياسيّة، فلم تكن تتوانى عن ردعهم كالذي حدث للطبيب عيسى بن شهلانا - المارّ ذكره - حيث نفي وصدورت جميع أملاكه<sup>١</sup>.

## ثانياً: النشاط الاجتماعي

كان للأطباء نشاطات اجتماعية جليّة واضحة، وإذا أردنا أن نعرف دوافع تلك النشاطات الاجتماعية فيمكن أن نرجعها إلى ما يأتي:

### ١ - علاقتهم بالسلطة:

تحدّثنا سابقاً عن العلاقة السياسيّة للأطباء برجال الدولة، والتي نتج عن بعضها علاقات اجتماعية حميمة، أدت إلى تقريب الطبيب من أسرة الخليفة، كونه مشرفاً على صحته، على نحو ما جرى للطبيب جيورجيس بن جبرائيل<sup>٢</sup> إذ أمر الخليفة المنصور أن يدخل جيورجيس إلى نساء حاشيته ويخدمهن<sup>٣</sup>.

١. خلف جيورجيس تلميذه عيسى في خدمة المنصور، فبدأ يسيطر به في الشاور والأذية خاصة على الأساقفة والمطارنة ومطالبتهم بالرشى وأخذ أموالهم، وكان فيه شرارة وطمع. ولما خرج المنصور في بعض سفراته وصل إلى قرب نصيبين فكتب عيسى إلى مطران نصيبين يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمس. وكان عيسى قد التمس إليه من آلات البيعة أشياء جليّة ثمينة لها قدر، وكتب في كتابه إلى المطران: أليس تعلم أن أمر الملك في يدي، إن أردت أمرضته وإن أردت شفيتها؟ فلما وقف المطران على الكتاب احتال في التوصل إلى الربيع (بن الفضل، وزير المنصور وكاتم أسراراه) وشرح له صورة الحال وأقرأه الكتاب، وأوصله الربيع إلى الخليفة وأوقفه على حقيقة الأمر. فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى المطب وتأديبه ونفيه مع زوجته إلى الهند، ففعل به ذلك ونفي أقبح نفي، وهذه ثمرة الشّر (القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٤٨).

٢. جيورجيس بن جبرائيل من آل بختيشوع. كان فاضلاً وله كتب كثيرة. كان رئيس أطباء جنديسابور، وكان له خبرة بصناعة الطب ومعرفة بالمداداة وأنواع العلاج. وخدم بصناعة الطب المنصور. وكان حظياً عنده رفيع المنزلة، ونال من جهته أموالاً جزيلة.

٣. أجازه المنصور بثلاثة آلاف دينار وثلاث جوارٍ رذهن إلى الخليفة بقوله: «لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء في منزلي لأننا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة، ما دامت المرأة حيّة لا نأخذ غيرها». فحسن موقع هذا من الخليفة وأمر له في الوقت أن يدخل جيورجيس إلى حظاياها وحرمه بلا إذن، وزاد موضعه عنده. وهذا ثمرة العفة» (القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٥٨ - ١٦٠).

وقد بلغت العلاقة الاجتماعية بين الأطباء والخلفاء، أن يحضر الطبيب موائد الخليفة لاهتمامه بغذائه، وكان الطبيب باستمرار أحد المدعوين إلى الأكل، بل وفي بعض الأحيان لا يأكل الخلفاء إلا بحضور الأطباء.

فعندما قدمت الموائد «بين يدي الرشيد في بعض الأيام وجبرائيل بن بختيشوع غائب... طلب جبرائيل ليحضر أكله على عادته في ذلك»<sup>١</sup>.

فضلاً عن ذلك، فإن جعفر بن يحيى بن برمك كان «لا يصبر ساعة عن الطبيب جبرائيل ومعه يأكل ويشرب»<sup>٢</sup>.

وأكثر من ذلك، نجد الخليفة الأمين<sup>٣</sup> «لا يأكل ولا يشرب إلا بإذنه»<sup>٤</sup>. وهنا تصبح الثقة مطلقة.

ومن الأمثلة التاريخية الأخرى ما حصل زمن الطبيب يوحنا بن ماسويه<sup>٥</sup>، إذ كان ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم<sup>٦</sup>، إلا بحضوره. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني والجوارشات<sup>٧</sup> الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء، وفي الصيف الأشربة الباردة والطابخة المقوية والمعاجين<sup>٨</sup>.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٧٥-٤٧٦، ١٨٨، ١٩١.

٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٨.

٣. الأمين (١٧٠-١٩٨ هـ/ ٧٨٧-٨١٣ م) الخليفة العباسي السادس (١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م) ابن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور. قام بينه وبين أخيه المأمون نزاعٌ حول الخلافة قتل خلاله.

٤. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٩.

٥. يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م) هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه. وكان فاضلاً طبيباً مقدّماً عند الملوك، عالماً مصتقاً. خدم المأمون والمعتمد والوائق والمتوكل. وولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة. ترك كتباً عديدة في الطب والعلاج.

٦. «بل بلغ الاهتمام بغذاء الخليفة إلى الحد الذي يؤلف له كتابٌ في (الطبخ)، وكثيراً ما يُصار إلى تنظيم قائمة طبخ تراعي التبدلات الجوية التي لها علاقة بتأثر البدن في التقلبات والمواسم كـ «كتاب الطبخ» الذي ألفه الطبيب أحمد بن الطيب السرخسي على الشهور والأيام للخليفة المعتضد» (ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٤).

٧. الجوارش: القميخة، وهي كالسفوف يتخذ للهضم وهو الجوارش.

٨. ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي)، (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م) طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٥٥، ص ٦٥، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨٠، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٤٦.

وبحكم تقدّم العلاقة الاجتماعية<sup>١</sup> بين الأطباء والخلفاء كانوا لا يرضون أن يقوم الخليفة بأيّ عمل طبيّ لنفسه دون أخذ شورتهم، وإذا ما حصل ذلك، كان الأطباء يظهرّون عدم ارتياحهم للخلفاء. وكان الخلفاء حِرَاصًا على رضا أطبائهم.

ومن الإشارات التي تؤكد ذلك غضب الطبيب إسرائيل بن زكريّا الطيفوري على الخليفة المتوكّل عندما احتجم بغير إذنه<sup>٢</sup>.

وكان الخلفاء يتابعون أطباءهم ويهتمّون بسكنهم ومشرّبهم ومأكلهم حتى وصل الأمر إلى أن يهتمّ المنصور بسكن الطبيب جيورجيس إذ قال للربيع: «أنزله في منزلٍ جليل من دورنا وأكرمه كما تكرم أحصّ الأهل... وأمر أن يُجاب إلى كلّ ما يسأل»<sup>٣</sup>.

ولم يقتصر الحال على ذلك بل وصل الاهتمام إلى حدّ أن يتفقد الخلفاء الحالة الاجتماعية لأطبائهم، كالزواج مثلاً<sup>٤</sup>.

ومن اهتمام الخليفة بغذاء الأطباء ومشرّبهم، استفسار الخليفة المنصور من الربيع عن أحوال جيورجيس إذ قال له: «أرى هذا الرجل قد تغيّر وجهه، لا يكون قد منعتّه ممّا يشربه على عادته؟

قال له الربيع: لم نأذن له أن يدخل إلى هذه الدار مشروبًا.

فأجابه بقبيح العبارة وقال له: لا بدّ أن تمضي بنفسك حتى تُحضر من المشروب كلّ ما يريده.

فمضى الربيع إلى قظرّبل<sup>٥</sup> وحمل منها غاية ما أمكنه من الشراب الجيّد<sup>٦</sup>.

١. راجع كتابنا «لمحات في تاريخ نصارى العراق»، بغداد ١٩٨٢.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٢٥.

٣. المصدر نفسه، ص ١٨٤.

٤. راجع الحاشية رقم ٥٤ من هذا البحث.

٥. قظرّبل، قرية بين بغداد وعكبرا، وقيل هو اسم الطسوح من طساسيج بغداد، فما كان من شرقيّ الصراة فهو بادورياً. وما كان غربيّها فهو قظرّبل: الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)، راجع معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٥، ج ٤، ص ٣٧١.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٤.

ويذكر عن الطبيب يوحنا بن ماسويه، أنه كان من مجلس الخليفة الواثق<sup>١</sup> وقدم له الساقبي «شرباً غير صافٍ ولا لذيذ... فوجه أمير المؤمنين كلاماً في السقاة وقال: يسقطون أطبائي وفي مجلس مثل هذا الشراب؟!»<sup>٢</sup>.

وكان للأطباء مجالس خاصة، أحياناً ما تعقد مع الخلفاء، كالذي حصل مع الطبيب سلمويه بن بنان الذي كان يصل الخليفة المعتصم في مجالس جدّه وهزله<sup>٣</sup>. وفي أحيانٍ أخرى يعقد الأطباء مجالس للظرف والمنادمة يجتمع فيها أكابر العلماء والأطباء. ومن أمثلة ذلك مجلس الطبيب سهل بن كوسج<sup>٤</sup> الذي كان يجتمع فيه مع الطبيب يوحنا بن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى بن حكم<sup>٥</sup> وزكريا بن الطيفوري وغيرهم، وكانوا يهابون سهلاً لكبر سنّه وطول لسانه وسلطته<sup>٦</sup>.

ويروى أيضاً في إطار احترام الأطباء وارتفاع منزلتهم كعلماء ذوي مكانة مرموقة لدى الدولة والمجتمع ما حصل للطبيب أبي الحسن ثابت بن قرّه الحراني عندما كان يمشي مع الخليفة المعتضد في بستان دار الخليفة: «وكان الخليفة فيها متكئاً على يد ثابت، فنثر يده عن يد طبيبه وقال: «يا أبا الحسن... سهوتُ ووضعتُ يدي على يدك واستندتُ عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يعلون ولا يُعلون»<sup>٧</sup>.

إن طبيعة العلاقة قد تجاوزت حدود فحوص الخلفاء ومعالجتهم إلى الحدّ الذي كان فيه الطبيب للخليفة، صديقاً وندياً وسميراً وعشيراً حميماً<sup>٨</sup>، بل تصل العلاقة أحياناً إلى حدّ

١. الواثق لله (هارون بن محمد المعتصم) تاسع الخلفاء العباسيين (٢٧٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) ولد في بغداد، العام ٢٠٠هـ/٨١٥م، ومات بسامراء. شغل يعلم الكلام والاختلافات الكلامية.
٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٣٦.
٣. المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
٤. سهل بن سابور (الكوسج) (٨١٣+) كان بالأهواز ومات قبل وفاة المأمون بأشهر. صاحب الأقباض. كثير الهزل، غلب هزله على جدّه وكلهم كان يخاف لسانه (القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٩٦، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ١: ١٦٩).
٥. عيسى بن الحكم الدمشقي (القرن التاسع) والمشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير الذي يعرف به (قصة معالجته لفضيض أم ولد الرشيد) كان خبيراً بالطب، حسن المباشرة والمعالجة (القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٤٩).
٦. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩، السامرائي، مختصر الطب العربي (٤٥٢:٢).
٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٩٦، العلوجي عبد الحميد، تاريخ الطب العراقي، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٦٧، ص ٣٦.
٨. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٤٩. القس سليمان صانع، تاريخ الموصل، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٢٨، ج ٢، ص ٤٦.

أنهم ينادون الطبيب بـ(أبي) على نحو ما جرى بين الطبيب سلمويه والخليفة المعتصم<sup>١</sup>، بل كان يكتني الأطباء ولا يسميهم إكرامًا وإكبارًا<sup>٢</sup>.

وكان الخلفاء يتابعون أطباءهم عندما يمرضون ويعودونهم إما شخصيًا أو بإرسال الكتاب والحجاب إليهم.

وهذا ما حصل عند مرض الطبيب جيورجيس سنة ١٥٣هـ/ ٧٦٩م، طبيب الخليفة المنصور. وكان يتفقّد أوضاعه الصحيّة بإيفاد خدّمه كلّ يوم للاطلاع على حاله، وعندما اشتدّ مرضه أمر الخليفة أن يُحمل على سرير إلى دار العائّة، وتوجّه إليه ماشيًا، واطّلع على خبره، وأذن له بالانصراف إلى بلده نزولًا عند رغبته<sup>٣</sup>.

وكذلك عندما مرض سلمويه بن بنان طبيب الخليفة المعتصم، عاده الخليفة شخصيًا وبكى عنده، وعند وفاته امتنع الخليفة عن الطعام بعد أن أحضر جنازته إلى دار الخلافة وتمت الصلاة عليها بالشموع والمجامر<sup>٤</sup>.

وقد حصل ذلك أيضًا في زمن الخليفة المتوكّل عندما مرض طبيبه إسرائيل بن زكريا الطيفوري. عاده الخليفة «يومًا وقد غُشي عليه، فصيرّ يده تحت رأسه مخدّة، ثم قال للوزير: يا عبدالله، حياتي معلّقة بحياته، إن عدمته لا أعيش. ثم اعتلّ فوجّه إليه سعيدًا ابن صالح لحاجبه، وموسى بن عبدالمكّ كاتبه يعودانه»<sup>٥</sup>.

وفي المجتمع عندما يكون الانتماء الديني أو المذهبيّ أساسًا في تصنيف الفئات الاجتماعية وتحديد منزلتها ومقامها في بلاط الخليفة والتزامها بمراسيم ذلك البلاط، يؤثّر ذلك على منزلة الأطباء بسبب انتماهم الدينيّ.

١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٢٣٤، ١٩٠.

٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٠. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٦.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٥. عبد الحميد العلوجي، تاريخ الطبّ العراقي، ص ٣٥.

٤. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٣٤.

٥. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

وهذا ما لوحظ على الطبيب أوحد الزمان وقد كان في خدمة المستنجد بالله<sup>١</sup>، أبي البركات (توفي حوالي ٥٦٠هـ/ ١١٧٢م).

وقد قيل إن سبب إسلامه أنه دخل يومًا إلى الخليفة فقام جميع من حضر إلا قاضي القضاة فإنه كان حاضرًا ولم ير أنه يقوم مع الجماعة لكونه ذميًا.

فقال: يا أمير المؤمنين إن كان القاضي لم يوافق الجماعة لكونه يرى أني على غير ملتة: فأنا أسلم بين يدي مولانا، ولا أتركه يتقصني بهذا، وأسلم<sup>٢</sup>.

كما كان للأطباء نشاط اجتماعي يوازنون من خلاله علاقتهم مع الفئة التي ينتمون إليها دينيًا وغيرها. فوازنوا المسألة الاجتماعية بين علاقتهم مع المسلمين من الخلفاء وبين علاقتهم فتتهم.

وهذا ما يلاحظ في إهداء الطبيب قسطا بن لوقا البعلبكي<sup>٣</sup> كتاب في «معرفة الخدر وأنواعه وعلله وأسبابه وعلاجه» إلى قاضي القضاة أبي محمد الحسن بن محمد، لتمتين علاقته، في حين أهدى بطريق البطارقة، أبي غانم العباس بن سنباط<sup>٤</sup> كتاب في الأغذية على طريق القوانين الكلية<sup>٤</sup>.

## ٢- الشراء:

لا شك أن المردودات الاقتصادية التي كان يحصل عليها الأطباء، عند معالجة الخليفة أو إحدى نساء بلاطه، كانت أحد الأسباب التي زادت من أهمية الطبيب ومنزلته اجتماعيًا.

١. المستنجد بالله (يوسف بن المقتدي) الخليفة العباسي الثاني والثلاثون (٥٥٥-٥٥٦هـ/ ١١٦٠-١١٧٠م). وُلد سنة ٥١٠هـ/ ١١٦م، قطع دابر الفساد وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع رعيتيه.

٢. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٧٥-٣٧٦.

٣. قسطا بن لوقا البعلبكي (٨٢٠-٩١٢) رياضي. ناقل طبيب، فيلسوف فلكي، كان يجب أن يُقدم على حنين لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب. وقد ترجم بعض الكتب القديمة، وكان بارعًا في اللغة اليونانية، جيد العبارة بالعربية. توفي بأزمينا عند بعض ملوكها (ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٥).

٤. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

فقد كان مجمل الإيراد السنويّ لبعضهم، مثل الطيب جبرائيل بن بختيشوع<sup>١</sup>،  
(٤,٩٠٠,٠٠٠ درهم) على الوجه الآتي<sup>٢</sup>:

(أ) من رسوم العامة: (في كلّ شهر)

١٠,٠٠٠ درهم (عن الورق)

٥,٠٠٠ درهم (نزل في الشهر)

(ب) من رسوم الخاصة:

٥٠,٠٠٠ درهم (في كلّ سنة من الورق)

١٠,٠٠٠ درهم (ثياب)

١٠٠,٠٠٠ درهم (بدفعتين بالسنة لفصد الخليفة الرشيد)

١٠٠,٠٠٠ درهم (بدفعتين بالسنة لشرب الدواء)

٤٠٠,٠٠٠ درهم (كلّ سنة من الورق من أصحاب الرشيد عن قيمة الكسوة

والطيب والدواب) وعلى النحو التالي:

٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من عيسى بن جعفر)

٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من زبيدة أم جعفر)

٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من العباسة)

٧٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من فاطمة أم محمّد)

٣٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من إبراهيم بن عثمان)

٥٠,٠٠٠ درهم (يؤخذ من الفضل بن الربيع)

١٠٠,٠٠٠ درهم (كسوة وطيب ودواب)

١. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٢-١٤٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ١٩٨-٢٠٠.

٢. هو بختيشوع (جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس) (٢١٣هـ/٨٢٨م) طبيب ومنظي. قال ابن أبي أصيبعة عنه في «عيون الأنباء» ١٢٧-١٣٨: «كان مشهوراً بالفضل. جيد التصرف في المداواة، سعيد الجَدّ حظياً عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، كثيري الإحسان اليه. وحصل من جهته من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء... أحبه جعفر البرمكيّ مثل نفسه وكان لا يصبر عنه ساعة، ومعه يأكل ويشرب... أمر له الرشيد بخمسة آلاف درهم فأحبه مثل نفسه رئيساً على جميع الأطباء...».



(ج) من أملاكه في جنديسابور:

٨٠٠,٠٠٠ درهم (في كلّ سنة غلّة ضياعه بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد)

٧٠٠,٠٠٠ درهم (من فضل مقاطعته)

(د) ومن البرامكة:

٦٠٠,٠٠٠ درهم (في كلّ سنة تؤخذ من يحيى بن خالد)

١,٢٠٠,٠٠٠ درهم (في كلّ سنة تؤخذ من جعفر بن يحيى)

٦٠٠,٠٠٠ درهم (في كلّ سنة تؤخذ من الفضل بن يحيى)

وعلى الرغم ممّا يلاحظ من المبالغة التي كان يتقاضاها الطبيب جبرائيل إلا أنها تشير إلى أعظم الثراء الذي كان عليه، وإلى تنوّع الجهات لتلك المبالغ<sup>١</sup>.

ومن التخصيصات التي حدّدت للأطباء، وكانت مجالاً للثراء، ما أجراه الفضل على ماسويه في كلّ شهر ستمائة درهم، وعلوفة دابّتين، ونزل خمسة غلمان<sup>٢</sup>.

وغالبًا ما ترتفع هذه التخصيصات بفعل نشاط الطبيب وجهوده. وهذا ما حدث عندما عالج الطبيب ماسويه عيون الخليفة هارون الرشيد وبرئت، «فأمر بأن يجرى عليه ألفا درهم في الشهر، ومعونة في السنة عشرون ألف درهم، وعلوفة ونزل»<sup>٣</sup>.

ومما يذكر بهذا الصدد أن الطبيب أبو نصر المسيحي<sup>٤</sup>، طبيب الخليفة الناصر لدين الله، حصل من أجل الشفاء، العين من الدنانير عشرين ألف دينار، ومن الثياب والخلع جملة

١. مؤيد عيدان طاطع، الخدمات الصحيّة في العراق خلال العصر العباسي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الموصل ١٩٨٥، ص ٩٦.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٤٣.

٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٤٣. فرات فائق خطّاب، الكخّالة عند العرب، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرّية للطباعة، بغداد ١٩٧٥، ص ٣٤-٣٥.

٤. هو سعيد بن أبي الخير بن عيسى (بدء القرن الثالث عشر) كان من المتميّزين في صناعة الطبّ والأفاضل من أهلها والأعيان من أربابها. مات وقد قارب مائة سنة (ابن أبي أصيبعة) عيون الأنباء، ص ٣٠١.

وافرة وألزم الخدمة، وفُرضت له الجامكيّة السنّيّة والراتب والإقامة<sup>١</sup>. وذلك بعد أن عالج الخليفة الناصر لدين الله وشفاه من حصاة في مثانته<sup>٢</sup>.

ودليلٌ آخر على ثراء الأطباء ما ذُكر عن الطبيب أبي الفرج صاعد بن هبة بن توما<sup>٣</sup>، من أهل بغداد، بعد أن قُتل سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢١م، «أنه حمل من داره إلى الخزانة من الدنانير العين ثمانمائة ألف وثلاثة عشر ألف دينار، وبقي الأثاث والأموال بما يقارب تتمة ألف ألف دينار فترك لولده»<sup>٤</sup>.

وبالرغم من المجد التي توصل إليه الأطباء وعاشوا تحت كنفه لم تخل حياتهم من نكبات أو أحداث، لأن العلاقة بين الأطباء والخلفاء مهما تكن راسخة وقوية، إلا أنها تبقى قلقه، ومتعلّقة بنجاح الأطباء بالشفاء أو إخفاقهم.

فالتبيب مُلزمٌ أن يهب السلامة لكي يحافظ على نفسه. وحين أخفق الأطباء في علاج الخليفة موسى الهادي<sup>٥</sup>، قال لهم: «أنتم تأخذون أموالي وجوائزي وفي وقت الشدة تتقاعدون بي» فأمر بمعاقبتهم<sup>٦</sup>.

وهناك حالة أخرى تمثّل موقفين نقيضين من خليفة واحد إلى طبيب واحد: فعند مرض إحدى نساء حاشية الخليفة الرشيد عالجها الطبيب جبرائيل وبرئت فأمر الخليفة له بخمسمائة ألف درهم، وأحبّه وجعله رئيساً لجميع الأطباء<sup>٧</sup> ولكننا نجد الخليفة الرشيد أيضاً يسأل طبيبه في مرضه: «لم لا تُبرئني؟»

١. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٤. د. السامرائي، المصدر نفسه، (٤٢١:٢).

٢. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٤. د. السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، الجزء الثاني، ص ٤٢١.

٣. صاعد بن هبة بن توما (+٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) جاء عنه في تاريخ ابن العبري، ص ٤٢١: «وفي السنة ٦٢٠ في ٢٨ جمادى الأولى ليلة الخميس قُتل أبو الكرم صاعد بن توما النصراني الطبيب البغدادي ويلقب بأمين الدولة. كان فاضلاً، حسن العلاج كثير الإصابة وكان من ذوي المواء تقدم في أيام الناصر إلى أن صار في منزلة الوزراء على حفظ أمواله وخواصه. وكان يودعها عنده...».

٤. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٥.

٥. موسى بن محمد المهدي، الخليفة العبّاسي الرابع (١٦٩-١٧٠هـ/ ٧٨٥-٧٨٦م). وُلد بالريّ سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١م، حاول إكراه أخيه الرشيد على التنازل عن الولاية، ولاية العهد، فقتل في دار الحرّيم بالموصل بتحريض من أمه الخيزران.

٦. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

٧. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٥.

فيجيب جبرائيل: «إني نصحتك بالامتناع من التخليط بالطعام، وتخفيف الجماع، وأن تعود من طوس، وأرجو أن يمن الله بعافيتك».

فأمر بحبسه<sup>١</sup>.

وهذا ما بيّن درجة الثقة القائمة بين الخليفة وطيبه، بحيث أنه مهما يكن المرض، فعلى الطبيب أن يشفيه ويمنحه السلامة. ولدى أية صعوبة تواجه الطبيب، وتحول دون شفاء المريض أو أن يردّ بجواب موضوعي عن سبب المرض يغيظ الخليفة مثلاً، فإنه يعرّض نفسه للخطر.

إلا أن أهمّ حدث في هذا المجال ذلك الذي جاء في عهد الخليفة الناصر لدين الله، إذ اشتدّ مرضه وطال أمده وزاد ألمه.

وعندما لم يوفق طبيبه أبو الخير المسيحي في معالجته، دعا الطبيب أبا نصر بن المسيحي، «فقال الخليفة: هذا الشيخ أخطأ، ولا بدّ من صلبه.

فقام أبو نصر بن المسيحي وقبّل الأرض وقال: يا مولانا، بحق نعمة الله عليك، وبمن مضى من أسلافك الطاهرين لا تسنّ على الأطباء هذه السنّة، وأما الرجل فلم يخطئ في التدبير، ولكن لسوء حظه لم ينته المرض»<sup>٢</sup>، فعفا عنه الخليفة.

وأحياناً تكون المظاهر الاجتماعيّة غير العاديّة سبباً آخر في نكبة الأطباء وتعرّضهم للخطر. وهذا ما حصل للطبيب بختيشوع بن جبرائيل في زمن الخليفة المتوكّل، «إذ بلغ في الجلالة والرفعة، وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال، وكمال المروءة ومباراة الخلافة في الزيّ واللباس، والطيب، والفرش والصناعات والتفسيح، والبذخ في النفقات مبلغاً يفوق الوصف فحسده المتوكّل وقبض عليه»<sup>٣</sup>.

١. القفطي، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

٢. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٤.

٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥. أنظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٨٥.

ومن الأطباء من أدركوا مخاطر هذه العلاقة وقلقها، فحافظوا على علاقتهم وصوّلوا إلى استقرارها وإبعادها عن المخاطر وأحكموا الموازنة بدقّة وتواصلوا مع سلسلة من الخلفاء كالطبيب يوحنا بن ماسويه «الذي خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل»<sup>١</sup>.

---

١. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م)، الفهرست، مكتبة خيّا، بيروت ١٩٦٤، ص ٤١١. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨١.

\*\*\*\* الفصل الثالث عشر \*\*\*\*

دور أهل الذمّة  
في الحضارة العربية الإسلامية  
(في العلوم والآداب والفنون)

كان لقدوم العرب المسلمين إلى بلاد الرافدين أثرٌ كبيرٌ في تغيير الحياة الفكرية لديهم كما وأحدث توسعاً ثقافياً وحركةً علمية كبرى من تمازج الأفكار وتزواجها، أفكار الجيش الفاتح والشعب المفتوحة بلاده مما جعل سكّان العراق يقبلون على دراسة اللغة العربية وآدابها وعلى المراجع الإسلامية (القرآن والحديث) لشرحها وتوضيحها.

فأنشئت المدارس التي بدورها تركت نتائج عظيمة انعكست على المسلمين والنصارى على حدٍّ سواء حيث برز الكثير من العلماء، واشتغلوا بالثقافة العربية على مستوى رفيع، فلمعت أسماءٌ كثيرة منهم في كتب التاريخ والطبقات<sup>١</sup>.

لقد أقبل أهل الذمة بعد الفتح الإسلامي للعراق على تعلّم اللغة العربية ودراسة آدابها، وأخذوا يصوغون أفكارهم، وعلومهم وآدابهم بما ينسجم والدين الإسلامي والتقاليد العربية، فأصبحت اللغة الحضارية السائدة في العراق هي العربية، ولذلك فإن الشعوب غير الإسلامية (غير العربية) فقدت ذاتيتها اللغوية<sup>٢</sup> وأخذ العرب من ثقافات البلاد المفتوحة، ما يتلاءم ودينهم الإسلامي، وتقاليدهم العربية، فأخذوا من اليونان الرياضيات والحساب والهندسة والفلسفة والطب، وقليلاً من الثقافة الهندية، وتأثروا بالتقاليد الفارسية ونظام الحكم ونظام الطبقات<sup>٣</sup>.

وفي الحياة السياسية والاجتماعية فيقول الجاحظ<sup>٤</sup> (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): «وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان وحوّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن

١. ابن النديم، الفهرست، البلاذري، فتوح البلدان، ابن سعد، الطبقات.

٢. Goitein, *Jews and Arabs*, p. 127.

٣. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١، ص ٣٧٧.

٤. الجاحظ: البيان والتبيين، الجزء الأول.

مع أنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم»<sup>١</sup>.

إن إقبال أهل الذمة على تعلّم اللغة العربية للتقرّب من الفاتحين وقد أدّى انتشارها إلى شعور المجتمع العراقي بالانسجام والتجانس على اختلاف قومياتهم وأديانهم. فوحدت اللغة شعورهم وأهدافهم وكان لها أثرٌ في إقبال الكثير من أهل الذمة على الدخول في الإسلام<sup>٢</sup>.

لم يكن إقبال أهل الذمة على دراسة العربية بسبب الإكراه أو الإجبار وإنما كما يقول المستشرق بارتولد<sup>٣</sup>: إن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسُلطان الحكومة، وإن تسامح العرب المسلمين أدّى إلى انتشار العربية، فدرس حنين بن اسحق<sup>٤</sup> في مدرسة الخليل بن أحمد الفراهيدي<sup>٥</sup>، وسيبويه<sup>٦</sup> حتى أصبح حجّة في العربية<sup>٧</sup>. وتلمذ يحيى بن عدي<sup>٨</sup> في المنطق على يد الفارابي<sup>٩</sup> حتى أصبح أفقه رجال عصره<sup>١٠</sup>.

١. الجاحظ، كتاب الحيوان، ج ١، ص ٣٨.

٢. ديموجين، النظم الإسلامية، ص ١١.

٣. بارتولد، النظم الإسلامية، ص ٣٠.

٤. حنين بن اسحق (٨٠٩-٨٧٣م) طبيب مسيحي نسطوري من قبيلة عبّاد العربية. وُلد في الحيرة/العراق. درس الطب في بغداد وتصلّع باليونانية. عينه الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣م) على بيت الحكمة. إنصرف إلى الترجمة فنقل إلى السريانية والعربية بعض كتب أفلاطون وأرسطو وديوسقوريدس وجالينوس. له كتاب «عشر مقالات في العين».

٥. الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت نحو ٧٨٦م) أشهر علماء اللغة العربية واضع علم العروض من أهل البصرة، معلم سيبويه والأصمعي، له كتاب «العين» أول معجم عربي على الحرف.

٦. سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) (ت ٧٩٦م) نحوي، وُلد في البيضاء قرب شيراز ونشأ في البصرة، تعلّم على الخليل بن أحمد. إن مذهب البصريين وكتابه في النحو هو «الكتاب» شرحه ابن السراج والسيرافي والزّمانى.

٧. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٨٥ و ١٨٩.

٨. يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٤م) منطقي تكريتي مسيحي. تلميذ أبي بشر والفارابي، نقل إلى العربية كتاب النس لأرسطو.

٩. الفارابي (أبو نصر محمد) وُلد في فاراب (تركستان) وتوفي في دمشق عام ٨٥٠م، من أعظم فلاسفة الإسلام. درس في بغداد وحرّان ثم أقام في حلب في بلاط سيف الدولة الحمداني (٩٤٤-٩٦٧) حاول التوفيق بين الفيلسوفين أرسطو وأفلاطون من جهة، وبين الدين والفلسفة من جهة أخرى. لقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو وكان متضلّعاً من الرياضيات والموسيقى. أهم مؤلفاته: رسالة نصوص الحكم وآراء المدينة الفاضلة.

١٠. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٩٦.

و درس ثابت بن قره<sup>١</sup> على يد محمد بن موسى، وتلقّى بن جزلة<sup>٢</sup> على يد الوليد من رجال المعتزلة<sup>٣</sup>.

يقول الخربوطلي<sup>٤</sup>: «كان أهل الذمة مضطرين إلى تعلّم العربية لصلتهم بالعرب في شؤون الزراعة والصناعة والتجارة، كما أدّى تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان<sup>٥</sup> وتعريب الثقافة إلى انتشار العربية على نطاق واسع بين أهل الذمة فقد كان عليهم اتقانها حتى يحتفظوا بوظائفهم في الدولة».

## الترجمة

بعد أن قطع أهل الذمة مرحلة كبيرة في تعلّم العربية وآدابها أخذوا ينقلون علومهم إلى العربية، فاستطاعوا بذلك إضافة علومهم وأفكارهم إلى ما عند العرب المسلمين، فتكوّن من ذلك مزيجٌ من الحضارات أصبح في ذاته يختلف عن غيره من الحضارات السابقة مصوغة بالطابع العربي، والأسلوب الإسلامي، فسُمّيت بالحضارة العربية الإسلامية التي أخذت تنمو وتزدهر منذ العصور الإسلامية الأولى، وأتت ثمارها في العصر العباسي الأول حيث أصبحت بغداد حاضرة الإمبراطورية العباسية، فتهافت عليها رجال العلم والثقافة والأدب والاقتصاد والمال، لما كانت تتمتع به من المركز الثقافي والعلمي والسياسي والاقتصادي.

١. ثابت بن قرّة (٨٣٦-٩٠١م) كان طبيبًا حاذقًا وأديبًا بارعًا وله كتاب التاريخ الذي ابتداء به أيام الخليفة المعتذر. كان صيرفيًا بحرّان قصد بغداد فاشتغل بالفلسفة والطب وبرع فيها. صنف مائة وخمسين كتابًا للمعتضد منها الذخيرة في الطب.

٢. أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة (ت ١١٠٠م) كان مسيحيًا طبيبًا فاضلاً وقد قرأ الطب على مسيحي الكرخ الذين كانوا في زمانه. ومن تصانيفه: كتاب المنهاج الذي جمع فيه الأدوية والأغذية المفردة والمركبة. ورسالة في الردّ على النصراني ومدح فيها الإسلام.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٩٢.

٤. الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، ص ١١٦.

٥. عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) الخليفة الأموي الخامس، وتحد الإمبراطورية بعد أن قضى على مصعب بن الزبير عام ٦٩١م، وأخيه عبدالله منافس البيت الأموي على الخلافة عام ٦٩٢م. حارب الخوارج وأوقع بهم عام ٦٩٩م. أخضع ثورة عبدالرحمن بن الأشعث في دير الحجاجم، انصرف إلى تدعيم أسس الإمبراطورية. أنشأ البريد، عزّب دواوين الدولة وصكّ النقود الذهبية.



فنبغت أعداداً كبيرة من الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة، وكان أبرزهم في هذه الميادين المسيحيون والفرس<sup>١</sup>. وأهم ما برزوا فيه الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية. أما اليهود والصابئة فكان نصيبهم ضئيلاً جداً من الحضارة لانعزالهم إلى حد كبير عن المجتمع العربي، ويؤيد ذلك ما رواه المستشرق لوبون عن اليهود قبل الإسلام فيقول: «لم يكن لليهود علوم، ولا فنون، ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة»<sup>٢</sup>.

## الأدب العربي والشعر

نعم المسيحيون بعد الفتح الإسلامي بنوع من التسامح الديني وحرية المعتقد، ولما كانوا عرباً أو سرياناً، فقد التفوا حول المسلمين للروابط القومية واللغوية التي تربطهم بإخوانهم العرب المسلمين. فأقبلوا على بعث التراث العربي وذلك بالناية باللغة العربية وآدابها فأخذوا ينقلون من اللغة السريانية إلى العربية. ولأن اللغة العربية أوسع من السريانية بدليل ما فيها من أسماء كثيرة ليس عند السريان ولا عند غيرهم إلا اسم واحد فقط<sup>٣</sup>.

كما عني المسيحيون بدراسة الأدب العربي.

فلما أقامت الدولة العربية في العصر الأموي، وقبض الأمويون على مقاليد الأمور، اعتمدوا على الأحزاب السياسية لضرب خصومهم، فقرّبوا الشعراء والأدباء، وأغدقوا عليهم الأموال مدحهم ولتأييد حقهم في الخلافة، ومن مشاهير شعراء المسيحية في العصر الأموي الأخطل<sup>٤</sup> الملقب (بذي الصليب) لأنه كان يعلّق صليبا على صدره<sup>٥</sup>. من أهل الحيرة، وموضعه من الشعر كبير، أكبر من أن يحتاج إلى وصف. فهو وجريز والفرزدق طبقة واحدة.

١. روفائيل بابو إسحق، أحوال نصارى بغداد، ص ١٣٥.

٢. لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٢٥-٣١.

٣. إيليا برشينايا، المجالس السبعة (مخطوط) ورقة ٢٨.

٤. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٩٥.

٥. الأخطل (غياث التغلبي) (٦٤٠-٧١٠م). هكذا لقب لطلول لسانه أو لارتخاء أذنيه. كان مسيحياً من بني تغلب المنتمين إلى الكنيسة السريانية الأرثوذكسية. وهو ابن غوث بن الصلت بن طرفة التغلبي الحيري (الأصفهاني، الأغاني، ج ٧، ص ١٦٢).

٦. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٩٥.

وقد لقبه عبد الملك بن مروان بـ(شاعر العرب) وقال فيه الخليفة أيضًا: «لكل قوم شاعر، وإن شاعر بني أمية الأخطل»<sup>١</sup>.

وقد هجا أعداء الأمويين من قيسيين وزبيريين فقبل فيه: يا عجب للأخطل النصراني يهجو المسلمين. وكان يدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان بغير إذن، وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب وتنفض لحيته خمرًا<sup>٢</sup>.

وقال حماد الراوية فيه: حينما سُئل عن الأخطل: ما تسألونني عن رجلٍ حبَّب إلى شعره النصرانية<sup>٣</sup>.

واشتهر من شعراء النصرانية في العصر الأموي أعشى بني تغلب<sup>٤</sup> وكان مكرّمًا من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك<sup>٥</sup> وأقام مع قومه بنوحي الموصل وديار ربيعة<sup>٦</sup>.

واشتهر أعشى ربيعة<sup>٧</sup> (أبي ربيعة) وهو من ساكني الكوفة، وكان مرواني المذهب شديد التعصّب لبني أمية. رحل إلى الشام ومدح الخليفة عبد الملك، والخليفة سليمان ابن عبد الملك، ونال صلاتهم<sup>٨</sup>. ومنهم مرقس الطائي واسمه عبدالرحمن ظهر أيام الدولة الأموية<sup>٩</sup>. ومنهم أيضًا حنين الحيري الشاعر المغني، وكان من نصارى الحيرة ويعتبره صاحب مسالك الأبصار من مشاهير أهل الموسيقى ومن سرارة أهل الغناء<sup>١٠</sup>. ذكره ابن النديم في الفهرست وإليه تنسب الحنينيات التي

١. الأصفهاني، الأغاني، ج ٧، ص ١٦٢-١٦٧.

٢. الأصفهاني، الأغاني، ج ٧، ص ١٦٩.

٣. المدور، حضارة الإسلام في دار السلام، ص ٣٦.

٤. قبل اسمه ربيعة وقيل النعمان بن يحيى بن معاوية بن تغلب، الأصفهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ٩٣.

٥. الوليد بن عبد الملك، الخليفة الأموي السادس، (٧٠٥-٧١٥م) في عهده نعمت الإمبراطورية بالاستقرار بعد الحروب الداخلية المنهكة وبلغت أوجها. مدّ حدود الإمبراطورية فتوغلت الجيوش العربية بقيادة قتيبة بن مسلم في الشرق واحتلت بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة (٧٠٦-٧١٢) بينما فتح محمد بن القاسم الهند واجتاز السند واحتل دلتاه وبلغ حيدر آباد. أما في الغرب ففتح موسى بن نصير طنجة عام ٧١٠ واحتل قائده طارق بن زياد الأندلس (٧١١-٧١٤) سيّد الجامع الأموي في دمشق وأعاد بناء جامع المدينة. توفي في الأربعين من عمره.

٦. الأصفهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ٩٣.

٧. الأصفهاني، الأغاني، ج ١٦، ص ١٦٠.

٨. الجاحظ، التاج، ج ٤، ص ١٦٣.

٩. شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام.

١٠. العمري، مسالك الأبصار.

ورد ذكرها في شعر دعبل الخزاعي<sup>١</sup>. وذكر الأصفهاني<sup>٢</sup> حينئذٍ بأنه كان شاعرًا ومغنيًا. أما شعره فلم يبقَ منه إلا القليل، وأما غناؤه فكثير، وله الأصوات المتعددة<sup>٣</sup>. ومنهم الشاعر القطامي، التغلبي، ابن أخت الأخطل، كان أبوه من أصحاب خالد القسري<sup>٤</sup> والي الكوفة.

وقال الأصفهاني<sup>٥</sup> كان القطامي نصرانيًا، وهو شاعر إسلامي (عاش في العصور الإسلامية) وذكر ديوانه حاجي خليفة (١٠٦٨هـ/١٦٥٦م)<sup>٦</sup> في كشف الظنون ومات سنة ١٠١هـ.

وكان الشاعر كعب بن جعيل التغلبي موليًا لبني أمية، كالأخطل وحارب مع قومه في صفين<sup>٧</sup>. واتصل كعب بسعد بن العاص، وكان أمير الكوفة لعثمان بن عفان<sup>٨</sup> وامتدحه بشعر. وعاصر الدولة الأموية إلا أنه كان حسنًا أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد وقد ضاع ديوان شعره<sup>٩</sup>. وروى الجاحظ<sup>١٠</sup> أن يزيد بن معاوية طلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار فقال له كعب: أرادتي أنت إلى الكفر بعد الإسلام، لا أهجو قومًا نصرًا رسول الله وآووه ولكني سأدلك على غلام في الحي كافر كان لسانه الثور، يعني بذلك الأخطل.

١. شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام.

٢. الأصفهاني، الأغاني.

٣. الأصفهاني، الأغاني.

٤. القطامي (عمير بن شبيب بن عمر) من قبيلة تميم بن أسامة التغلبي. شاعرٌ عاصر الأخطل ساهم في النضال بين تغلب وقيس عيلان. وصف مغامراته في شعره. توفي سنة ٧١٠م، والقطامي لقب غلب عليه وهو من اساء الصقر.

٥. خالد بن عبدالله القسري، من قبيلة بجيلة حاكم مكة في عهد الوليد سنة ٧٠٩م، عهد إليه هشام بن عبدالمك بحكم العراق عام ٧٢٤، اشتهر بحزمه وانصرف إلى الإصلاحات الاقتصادية فشجّع الزراعة وجفّف المستنقعات ووطّد السلام شيّد كنيسة في الكوفة إكرامًا لوالدته المسيحية وأظهر تسامحًا كبيرًا. توفي ودفن في الحيرة علم ٧٤٣م.

٦. الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٠، ص ١١٨.

٧. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٣، ص ٣٠٢.

٨. صفين: موضع على الحدود السورية على شاطئ الفرات الأيمن بين الرقة وبالس، عنده تلاحم جيشا علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان عام ٦٥٧م. وبعد هدنة مؤقتة استؤنف القتال الذي انتهى بتحكيم القرآن بين المحاربين.

٩. عثمان بن عفان: ثالث الخلفاء الراشدين (٦٤٤-٦٥٦م) قريشي من عائلة أمية وأحد تجار مكة الكبار. إعتنق الإسلام باكراً تزوج برقية بنت محمد ثم بأم كلثوم. بويع له بالخلافة بعد عمر. عُهد إلى أفراد عائلته بالمناصب القيادية. جمع القرآن قتل في داره وهو في الثامنة والثمانين من عمره دافعت عنه زوجته نائلة بن القرافصة الحيرية المسيحية.

١٠. لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢، ص ٢٠٣-٢٠٨.

١١. الجاحظ، البيان والبيان، ج ١، ص ٦٣.

ومن شعرائهم العدليل بن الفرغ البكري، وكان نصرانيًا عاصر حكم الحجاج الثقفي<sup>١</sup> بواسط<sup>٢</sup>، وعاش في البصرة وكان ينادم الفرزدق ويصاحبه<sup>٣</sup>.

وأما العجاج بن رؤبة، وهو عبدالله بن رؤبة بن تميم عاش في البصرة منذ أيام الراشدين والأمويين ومدح من خلفاء بني أمية يزيد بن معاوية، وسليمان بن عبد الملك وبشر بن مروان. ومدح عاملهم في العراق الحجاج الثقفي. وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك، ومات سنة ٩٠هـ<sup>٤</sup>.

## العلوم والآداب في العصر العباسي

وقد ازدهرت العلوم والآداب والفنون في العصر العباسي (٧٥٠-١٢٥٨م) وشجّعهم على ذلك خلفاء بني العباس كما اهتموا أيضًا بدراسة اللغة العربية وآدابها وأدى هذا الاهتمام إلى ظهور جمهرة من الكتاب تنافسوا في صناعة الإنشاء العربي وتفننوا في أساليبه ومقاصده ومعانيه<sup>٥</sup>.

فعرف من شعراء النصرانية في العصر العباسي:

أبو قابوس عاش في عهد الرشيد<sup>٦</sup>، وكان منقطعًا إلى شعراء البرامكة كالرقاشي، وأشجع السلمي، جحظة البرمكي. وتقرّب بهم إلى الرشيد فقال فيه البغدادي (ت ٤٦٣

١. الحجاج بن يوسف الثقفي: ولد في الطائف واشتهر بولائه للبيت الأموي. حارب عبدالله بن الزبير منافسهم في الخلافة، وحاصر مكة، والمدينة والكعبة، عينه عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) واليًا على العراق (٦٩٤-٧١٤). أسس مدينة واسط في العراق ووسّع حدود الإمبراطورية العربية حتى آسيا الوسطى. قضى على الخوارج عام ٦٩٧، عني بشؤون الري والإصلاح النقدي. اشتهر بالخطابة.

٢. واسط: مدينة في العراق بين البصرة والكوفة، أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٠٢-٧٠٥) كانت قاعدة العراق الجنوبي في العهد الأموي. أخذت بالانحطاط في العهد العباسي.

٣. الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج ٢٠، ص ١٩.

٤. لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢، ص ٢٢٨-٢٢٩.

٥. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٩٦. لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢، ص ٢٤١.

٦. هارون الرشيد، الخليفة العباسي الخامس (٧٨٦-٨٠٩) ابن المهدي والخيزران. جاء إلى العرش بعد اغتيال أخيه المهدي (٧٨٥-٧٨٦) حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكمًا على المقاطعات الغربية (٧٩٧-٨٠٢) وبلغ أبواب القسطنطينية، حمل مرات على البيزنطيين بعد خلافته وأقر الأمن في أفريقيا. ازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم. لعب البرامكة دورًا هامًا قبل أن يوقع بهم عام ٨٠٣، توفي في طوس بإيران. قبره في المشهد الرضوي.

هـ/ ١٠٧٠م<sup>١</sup>: «دخل أبو قابوس على جعفر البرمكي في يوم بارد خاصًا به برد فقال جعفر: يا غلام إطرح عليه كساء، فطرح عليه كساء من خز قيمته ألف دينار».

ومن أشهرهم أبو تمام الطائي، وهو حبيب بن أوس الطائي، ويكنى بأبي تمام. وتَمَّام ابنه كان يعمل بدمشق عند حائك. ثم رحل إلى العراق وبلغ الخليفة المعتصم<sup>٢</sup> خبره فحمل إليه فمدحه أبو تمام بقصائد عدة فأجازته المعتصم وقدمه على شعراء عصره<sup>٣</sup>.

وظهر شعراء وأدباء آخريين من النصارى بعد عصر المتوكل<sup>٤</sup> منهم: ثابت بن هارون، وبشر بن هارون، وعيسى بن فرخنشاه الذي اشتهر في أيام الخليفة المستعين والمهتدي والمعتز والمعتمد، واسمه يدل على أن أصله من نصارى العجم<sup>٥</sup>. وابن بطريق، وقد تسمى غير واحد بابن بطريق كسعيد ابن بطريق صاحب التاريخ، ويحيى أو يوحنا بن بطريق، وعيسى بن بطريق، وكلهم نصارى عاشوا في القرن الثالث الهجري، والأرجح أن أحدهم هو الشاعر وغيرهم كثيرون ممن عاشوا في القرن الرابع والخامس الهجريين.

## النساطرة ودورهم الثقافي

ولقد قام النساطرة في العراق بدور كبير في نشر الثقافة بين الفرس قبل الفتح الإسلامي، وبين العرب المسلمين بعده، فأنشأوا مدرسة طيبة في الرها<sup>٦</sup>، وبعد خرابها،

١. البغدادي، تاريخ بغداد، ص ٨٣. عن نسخة باريس.

٢. المعتصم بالله: الخليفة العباسي الثامن (٨٣٣-٨٤٢م) ابن هارون الرشيد من جارية تركية. تولى حكم مصر قبل خلافته. قضى على الزط الذين عاثوا فسادًا بين البصرة وبغداد وأجلهم إلى قليقية. كما قضى على حكم بابك الخرمي في أذربيجان بفضل قائده الأفشين عام ٨٣٧م. أنزل بالبيزنطيين هزيمة نكراء واحتل عمورية، بنى عاصمة جديدة له في سامراء.

٣. لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢، ص ٢٥٧.

٤. المتوكل على الله (٨٤٧-٨٦١م) الخليفة العباسي العاشر. ابن المعتصم من جارية فارسية. سعى إلى إعادة السلطة للخلافة وحارب المعتزلة. حاول نقل عاصمته إلى دمشق ليتخلص من تأثير القادة الأتراك غير أنه عاد إلى سامراء حيث اغتاله القادة الأتراك بالاشتراك مع ابنه الأكبر. كان موته بداية انحطاط الخلافة العباسية.

٥. لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢، ص ٢٦٤.

٦. الرها (أورفا-إديسا) مدينة بين النهرين في تركيا. اشتهرت بمدرستها اللاهوتية، التي انتقلت إليها من نصيبين عام ٣٦٣م، بعد فتح الفرس لهذه المدينة، فأصبحت الرها عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع الميلادي. من أشهر أساتذتها مار أفرام السرياني ورايولا الراوي. فتحها العرب المسلمون عام ٦٣٩م.

انتشر النساطرة في بلاد فارس ونالوا نفوذًا سياسيًا فيها، وأسّسوا في جنديسابور<sup>١</sup> من أعمال خوزستان كلية طبّيّة جديدة<sup>٢</sup>.

وأول من علّم الطبّ فيها أطباء من الروم. وقد روي أن الحارث بن كلدة الثقفي<sup>٣</sup> طبيب العرب، تعلّم قبيل الإسلام في مدرسة جنديسابور<sup>٤</sup>. وكانت تدرّس فيها الثقافة الهندية بجانب الثقافة اليونانية، واشترك بعض الهنود في التدريس بها باللغة الفهلويّة<sup>٥</sup>.

يقول المستشرق ديورانت<sup>٦</sup>، كان بنو أميّة حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحيّة أو الصابئيّة أو الفارسيّة قائمة خاصة في حرّان<sup>٧</sup> ونصيبين<sup>٨</sup> وجنديسابور وغيرها، ولم يمّسوها بأذى. وقد احتفظت هذه المدارس بأمّهات الكتب الفلسفية والعلمية ومعظمها في ترجمته السريانيّة. وما لبث أن ظهرت ترجماتها إلى العربية على أيدي النساطرة المسيحيين، وقد بقيت هذه المدارس تؤدي عملها في العصور الإسلامية. وزاد اتصالها بالمسلمين في العصر العبّاسي، وذلك منذ عهد الخليفة المنصور<sup>٩</sup> حيث تعذّر على أطبائه علاج معدته، فدّلّوه على جيورجيس بن بختيشوع<sup>١٠</sup> رئيس أطباء مدرسة جنديسابور<sup>١١</sup>.

١. جنديسابور: مدينة إيرانية في خوزستان. أسّسها سابور الأول وأسكن فيها الشعوب اليونانية التي أسرها. فتحها موسى الأشعري سنة ٦٤٨م، في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب. اشتهرت بمدرستها الطّبيّة ولغتها الآرامية (السريانية).

٢. سيديو، تاريخ العرب العام، ص ٢٨٦.

٣. الحارث بن كلدة.

٤. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٦١.

٥. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١، ص ٢٥٦.

٦. ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٧٧.

٧. حرّان: مدينة قديمة في ما بين النهرين. قاعدة بلاد مضر. فتحها العرب المسلمون على يد عياض بن غنم عام ٦٣٩. اشتهرت بالفلاسفة والعلماء وأعظمهم ثابت بن قرّه وأولاده والبناني. ذكرت التوراة أنها كانت موطن أسرة إبراهيم الخليل بعد هجرته من أور. كانت مركزاً هاماً على طريق التجارة بين نينوى إلى كركميش. دعاها الرومان كارهاي، فيها سقط كاسيوس قاتل قيصر في معركة ضد الفرثيين.

٨. نصيبين: مدينة في ما بين النهرين على نهر جعجغ، اشتهرت قديماً بمدرستها السريانية.

٩. المنصور أبو جعفر: الخليفة العبّاسي الثاني (٧٥٤-٧٧٥) خلف أخاه السّفّاح. إنتصر على عمه عبدالله بن علي المطالب بالعرش عام ٧٥٤. ثم أطاح بقلانده أبي مسلم الخراساني. أخضع ثورات العلويين: ثورة عمّد الملقب بالنفس الزكية في المدينة عام ٧٦٢، وثورة إبراهيم أخي محمّد في الكوفة التي انتهت بمقتله في باخري كما قضى على فتنة المقتع في فارس عام ٧٧٠م، والبربر في شمالي أفريقيا. بنى بغداد ودعاها دار السلام. نظّم الشؤون الإدارية والمالية والبريد. توفي بعد عودته من الحج عام ٧٧٥م.

١٠. جيورجيس بن بختيشوع: عالج الخليفة المنصور منذ عام ٧٦٥م، وله معه أخبار كثيرة وكلمة بختيشوع عبد يسوع، وخلفه أولاده وأحفاده في معالجة البلاد العبّاسي نحو ثلاثة قرون.

١١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٧٥. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٨. وكتابه أحوال نصارى بغداد.

وتعاقب غيره من خيرة أطباء مدرسة جنديسابور على الانصراف لعلاج خلفاء بني العباس، وكانوا جميعاً مسيحيين.

أما في العراق فقد أنشأ المسيحيون فيه خمسين مدرسة وكانت تدرّس فيها العربية وآدابها السريانية واليونانية والفارسية. وكانت تقام في الكنائس والبيع والديارات<sup>١</sup>.

وقد درّس في هذه المدارس المختلفة العلوم العقلية واللغوية والنحو والشعر والتاريخ والجغرافيا والموسيقى والهندسة والفلك والطب والمنطق والفلسفة والرياضيات والدين (اللاهوت) بالإضافة إلى اللغة العربية والسريانية واليونانية والهندية<sup>٢</sup>. وقد ألحق بهذه المدارس خزائن لكتب والمكتبات<sup>٣</sup>.

شجّع الأمويون حركة الترجمة إلى العربية وأول كتابٍ طبّي ترجم إلى العربية كان في خلافة مروان بن الحكم<sup>٤</sup> وهو كتابُ أهرون القس بن أعين، وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها من السريانية إلى العربية ماسرجويه الطبيب البصري<sup>٥</sup>، وزاد عليه مقالتين<sup>٦</sup>.

وقد أقام الرهبان المدارس والأديرة، فكانت في دير مار فتيون مدرسةً كبيرة، وقال المؤرخ ماري بن سليمان: «لما بنى الخليفة المنصور مدينةً في الكرخ، ونزلها الناس، هدم سبريشوع (جاثليق النصارى) وجدّد بناء بيت الأشهاد (الشهداء) والأروقة ونصب إسكولا (مدرسة) وجمع المتعلّمين بها<sup>٧</sup>».

١. روفائيل بابو إسحق، مدارس العراق قبل الإسلام، ص ٣٧.

٢. إدي شير، تاريخ كلدو وآثور، ص ٧.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٤٣. روفائيل بابو إسحق، أحوال نصارى بغداد، ص ١٣٧.

٤. مروان بن الحكم، الخليفة الأموي الرابع (٦٨٣-٦٨٥م) به انتقلت الخلافة من الفيايين إلى المروانيين. دافع عن عثمان بن عفان واشترك في معركة الجمل ببيع بالخلافة في مؤتمر الجابية ثم في دمشق عام ٦٨٤م. إنتصر على القيسيين الذين أيدوا ابن الزبير في معركة مرج رهط شبالي دمشق واستولى على مصر مات بالطاعون.

٥. كتابُ جمعها كتابُ كنشاش وهي أوراق تجعل كالدفتري يقيد فيها الفرائد والشوارد (تاج العروس، ج ٤، ص ٣٤٧، مصر ١٩٤٨).

٦. ماسرجويه أو ماسرجيس: طبيب يهودي، نقل من السريانية إلى العربية عند طلب الخليفين: مروان وابنه عمر بن عبدالعزیز (٦٨٢-٦٧٢م) «كتاب الطب» للقس هارون وهو من أقدم التأليف العربية الطبية.

٧. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٨.

٨. ابن القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٩.

وكان للمسيحيين في الكرخ مدرسة أخرى، فذكر ابن القفطي<sup>١</sup> (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، أن ابن بطلان الطبيب البغدادي قرأ الطبّ على علماء زماه من نصارى (الكرخ).

وذكر ابن العبري<sup>٢</sup>: (أن الطبيب البغدادي يحيى بن عيسى بن جزلة درس الطبّ لدى نصارى الكرخ الذين كانوا في أيامه)<sup>٣</sup> ودرب القراطيس<sup>٤</sup>، وبيعة الكرخ<sup>٥</sup>، ودرب دينار<sup>٦</sup>، وسوق الثلاثاء<sup>٧</sup>، مدارس واسعة تضمّ بين جدرانها مئات من الطلاب.

وأكبر هذه المدارس: مدرسة مار ماري التي تقع بعيداً عن بغداد في دير قني<sup>٨</sup> وقد نبغ فيها أعظم مشاهير علماء النصارى<sup>٩</sup>.

ويبدو أن هذه المدارس كانت دينية خاصة بالنصارى وتدرّس فيها بالإضافة إلى العلوم الدينية اللغة السريانية واليونانية، لذا أصبحت من مراكز الثقافة اليونانية والسريانية حتى الفتح الإسلامي.

## مدارس الموصل

واشتهرت الموصل بمدارسها. منها مدرسة دير مار كبرييل المعروف بالدير الأعلى على نهر دجلة في جوار الطابية العليا (باشطابية)<sup>١٠</sup>، ومدرسة مار إيليا الجزري (الخيرى) في غربي الموصل<sup>١١</sup>.

١. القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي) (١١٦٧-١٢٤٨م). ولد في قفط، سمع الحديث في مصر وحلب. وزير الملك العزيز (١٢٣٥م) جمع من الكتب ما لا يوصف فأوصى بها للناصر صاحب حلب. له: «أخبار أو تاريخ العلماء بأخبار الحكماء». طبع في لايبزك عام ١٩٠٤م.
٢. ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج) (١٢٢٦-١٢٨٦م) ولد في ملطية وتوفي في مراغة (أذربيجان) من ألمع رجالات الأدب والعلم لدى السريان. هاجرت عائلته إلى أنطاكية بعد الغزو المغولي (١٢٤٣م) درس الطب والفلسفة في طرابلس. أسقف حلب السرياني ثم مغربان تكريت (١٢٦٤م) كتب في اللاهوت والفلسفة والنحو والعشر له: «مختصر تاريخ الدول» و«التاريخ الكنسي» و«تاريخ الأزمنة».
٣. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٣٩.
٤. بطرس نصري، ذخيرة الأذهان، ج ١، ص ٣٩١.
٥. يقع في غرب الكرخ ببغداد، وكانت فيه مدرسة (أخبار فطارة كرسي المشرق، ص ٨٥).
٦. راجع المجلد، ص ١١٩.
٧. أخبار فطارة كرسي المشرق، ص ١٣١.
٨. دير قني: موضعٌ في العقار جنوبي بغداد، كان فيه ديرٌ عظيمٌ في العهد العبّاسي، اشتهر بكرومه. إندرث قبل القرن الثالث عشر، مسقط رأس الكثيرين من الرجالات الذين لعبوا دوراً كبيراً في البلاط العبّاسي.
٩. مجلة المشرق، ج ١، ص ٤٤٥.
١٠. باشطابية: لفظة تركية تعني التل الرئيسي وهو بقايا آثار قلعة الموصل. راجع بطرس نصري، ذخيرة الامان، ج ١، ص ١٩١.
١١. سليمان صانغ، تاريخ الموصل، ج ١، ص ٩٣، ج ٢، ص ٤٤.



وكانت تدرس في هذه المدارس مختلف العلوم والفلسفة واللاهوت واللغات.

ومن المدارس التي أسسها المسيحيون في العراق مدرسة قطسيفون<sup>١</sup> أو طيسفون أو المدائن. وفي أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنشرين<sup>٢</sup> على الفرات بتعليم فلسفة اليونان.

وأبرز تلامذتها الأسقف ساويرس الذي نقل بعض علوم الفلسفة واللاهوت إلى السريانية، وبرز من تلامذته يعقوب الرهاوي<sup>٣</sup> واضع علم النحو السرياني، وجورجيس المعروف بأسقف العرب، فقد ترجم بعض كتب أرسطو<sup>٤</sup>.

### أثر المدارس السريانية في الثقافة العربية

وكان لهذه المدارس أثر كبير في نشر الثقافة، وبما أنجبت تلك المدارس من العلماء والأدباء والمؤلفين. وكان أبرزهم في العصر العباسي يوحنا بن ماسويه<sup>٥</sup> رئيس أعظم مدرسة في بغداد في العصر العباسي. ويعقوب الكندي<sup>٦</sup> فيلسوف العرب، وحنين بن إسحق<sup>٧</sup>، شيخ ترجمة عصره ورئيس الفلاسفة والأطباء.

١. قطسيفون أو طيسفون: أنقاض مدينة جنوبي بغداد هي اليوم سلمان باك. دعاها العرب «المدائن» شيدها الفريثيون وجعلوها مع الساسانيين العاصمة الشتوية عقد فيها مجمع سلوقية-قطسيفون (٤١٠م) أهم آثارها طاق كسرى.

٢. قنشرين: قرية في سوريا تعرف بأسكي حلب. حصنها سلوقس نيكاتور ودعاها كالسيس ادبيوم. كانت على طريق القوافل بين حلب وأنطاكية. فتحها أبو عبيدة الجراح عام ٦٣٧م.

٣. يعقوب الرهاوي (نحو ٦٣٣-٧٠٨م) ولد في أنديا (مقاطعة أنطاكية) ودرس في دير قنشرين لاهوتي وفيلسوف ومؤرخ سرياني مونوفيزي. تلمذ لساويرس وشايخت أسقف الرها. أعاد النظر في ترجمة العهد القديم (البيسطة) له تاريخ ينتهي بعام ٦٩٢م، ومؤلفات طقسية ومواعظ (طرازي، عصر السريان الذهبي، ص ٧).

٤. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ١٥٠.

٥. يوحنا بن ماسويه: طبيب سرياني مسيحي. عهد اليه الرشيد ترجمة الكتب الطبية. طبيب البلاط العباسي منذ عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣م) حتى أيام المتوكل (٨٤٧-٨٦١م) توفي بسامراء عام ٨٥٧م.

٦. أبو يوسف الكندي: من كبار مفكري التاريخ. لقب بـ«فيلسوف العرب» مارس نشاطه الفلسفي والعلمي في بغداد على عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣) عني بالرياضيات والمنطق والعلوم الطبيعية والموسيقى. إقتبس ونقل إلى العربية مؤلفات اليونان الفلسفية والعلمية، توفي نحو عام ٨٧٠م.

٧. حنين بن إسحق (٨٠٩-٨٧٣) طبيب مسيحي نسطوري من قبيلة عباد العربية. ولد في الحيرة/العراق. درس الطب في بغداد وتصلع باليونانية. عيّنه الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣) على بيت الحكمة. إنصرف إلى الترجمة، فنقل إلى السريانية والعربية بعض كتب أفلاطون وأرسطو وديوسقوريدس وجالينوس. له كتاب «عشر مقالات في العين».

وقد تأثر هؤلاء إلى حدّ كبير بتشجيع العرب المسلمين لهم في ميادين العلوم والمعارف ويؤيد ذلك المستشرق ديورانت بقوله: (كان المسلمون شديداً التحمّس بتوسيع ونشر علوم الطبّ والعلوم الصيدلانية فأنشأوا مدارس للطبّ والصيدلة وأنشأوا المستشفيات (المارستانات) ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستان كانت قائمة في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت).

## المدارس والترجمة

وقد كانت هذه المدارس لا تقوم فقط بمهمّة التعليم لمختلف صنوف العلم والمعرفة وإنما كانت دوراً للترجمة والتأليف، فعتبر الفترة الواقعة بين ظهور الفرق المسيحية وبين الفتح الإسلامي للطرق غنية بالترجمة من اليونانية إلى السريانية لتأييد معتقداتها، وكانت الترجمة منصباً على علم اللاهوت والدراسات الدينية.

وبعد الفتح الإسلامي حيث ابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية وذلك منذ العصر الأموي بتأثير المسيحيين في القرن الأول الهجري، فإن خالدًا بن يزيد الأول<sup>١</sup> (ت ٨٥هـ) كان أول المحبّين لعلوم اليونان، فأمر بترجمة الكتب في علم الهيئة والطبّ والكيمياء حتى يروى أنه وجد الحجر الفلسفي الذي يصنع به الذهب الاصطناعي<sup>٢</sup>. ومن أشهر ما نبغ في العصر الأموي من المترجمين يعقوب الرهاوي الذي ترجم كثيراً من كتب الإلهيات اليونانية إلى العربية<sup>٣</sup> ودخلت علوم اليونان وفلسفتهم إلى العرب في العصر العباسي منذ خلافة المنصور حيث كان شغوفاً بالطبّ والهندسة والفلك والنجوم، وهو أول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس<sup>٤</sup>، وبعض كتب الطبيعيات<sup>٥</sup>.

١. خالد بن يزيد.

٢. بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٦٩.

٣. أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٦٢.

٤. إقليدس (القرن الثالث قبل الميلاد) علم الهندسة في الإسكندرية، على أيام بطليموس الأول، ووضع مبادئ الهندسة المسطحة.

٥. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٦٧٩.

وجمع حوله صفوةً مختارة من العلماء في مختلف نواحي المعرفة. وشجّع على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى. وترجم يحيى بن بطريق<sup>١</sup> كتاب المجسطي، وترجم كلٌّ من جورجيس بن جبرائيل الطبيب، وعبدالله بن المقفع<sup>٢</sup> كتب المنطق لأرسطاطاليس<sup>٣</sup> وأفلاطون<sup>٤</sup>.

واعتنى يوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش، وباسيل المطران بكتب الطب<sup>٥</sup>.

وقد زادت عناية الرشيد<sup>٦</sup> واهتمامه بترجمة الكتب فأمر بترجمة جميع ما وقع في حوزتهم من الكتب اليونانية.

كما وسّع ديوان الترجمة الذي كان قد أنشأه المنصور لنقل العلوم إلى العربية وزاد عدد موظفيها<sup>٧</sup> (١٠٩).

فولّى الخليفة تعريب الكتب إلى الطبيب يوحنا بن ماسويه وعيّن له كتابًا حُدّاق يشتغلون بين يديه ويساعدونه في عمله<sup>٨</sup>.

١. يحيى (يوحنا) بن البطريق: ولد نحو سنة ٨١٥م. إنصرف إلى ترجمة المؤلفات الغربية، أهم ما نقله إلى العربية «السياسة» و«المقولات العشر» لأرسطو، وكتاب «الأربعة» لبطليموس.

٢. عبدالله بن المقفع: مؤلف عربي من أصل فارسي. لقب أبوه بالمقفع لأنه اهتم باختلاس مال الخراج فضرب على يده فتفتّعت أي تشجّت. أمر المنصور والي البصرة بقتله لأسباب سياسية. وكان الوالي يكرهه فاغتاله وأماته شرّ ميتة عام ٧٥٩م، نقل من البهلوية إلى العربية كتاب «كليلة ودمنة» وله من الكتب المنقولة التي وصلت إلينا «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير».

٣. أرسطو (أرسطاطاليس) (٣٨٤-٣٢٢ ق.م). مرّبي الإسكندر. فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية. تأثرت بوادر التفكير العربي بتأليفه التي نقلها إلى العربية النقلة السريان وأهمهم إسحق بن حنين، مؤسس مذهب «فلسفة المشائين». مؤلفاته في المنطق والطبيعات والإلهيات والأخلاق. أهم «المقولات» «الجدل» «الخطابة» كتاب ما بعد الطبيعة «السياسة».

٤. أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م). من مشاهير فلاسفة اليونان. تلميذ سقراط ومعلم أرسطاطاليس. درّس في بستان أكاديموس في أثينا. أساس فلسفته «نظرية الأفكار» فالحقيقة ليست في الظواهر العابرة والزائلة ولكن في الأفكار السابقة لوجود الكائن والتي هي مثال له. من مؤلفاته: «الجمهورية» أو «السياسة»، «المحاورات» «كريتون»، «فيدون»، «تييه»، «الوليمة»، «الشرائع». وقد وصلت نصوصها في الغالب إلى العرب ملخّصة أو مجرّاة ما عدا «الشرائع» التي أحرزت التأثير البالغ.

٥. رفاعي، عصر المأمون، ج ١، ص ٣٧٩.

٦. هارون الرشيد: الخليفة العبّاسي الخامس (٧٨٦-٨٠٩م) ابن المهدي والخيزران. جاء إلى العرش بعد اغتيال أخيه المهدي (٧٨٥-٧٨٦م) حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكمًا على المقاطعات الغربية (٧٩٧-٨٠٢م) وبلغ أبواب القسطنطينية. حمل مرات على البيزنطيين بعد خلافته وأقر الأمن في المقاطعات الفارسية وبين البربر (شمالًا أفريقيا). ازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم، ولعب البرامكة دورًا هامًا قبل أن يقع بهم عام ٨٠٣م. توفي في طوس بإيران، قبره في المشهد الرضوي.

٧. رفاعي، عصر المأمون، ج ١، ص ٣٧٩.

٨. ابن القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٤٩. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٧٥. خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٦٨.

ولما تولى المأمون<sup>١</sup> الخلافة، اهتم بالترجمة والتأليف وأخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة. فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث أن ينزله له (المأمون) عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية وكان بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس<sup>٢</sup> في الفلك، فأمر المأمون بنقله إلى العربية وسماه المجسطي<sup>٣</sup>.

وأنشأ المأمون في بغداد بيت الحكمة، وهو مجمع علمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة وأقام فيه طائفة من المترجمين من أهل الذمة وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال<sup>٤</sup>.

وأرسل المأمون بعد ذلك بعثة علمية لشراء كتب من بلاد الروم مكونة من الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلّم صاحب دار الحكمة، (ت ٢١٥هـ / ٨٣٠م) فأخذوا مما اختاره عددًا كبيرًا وحملوه إلى بغداد فأمرهم المأمون بنقلها إلى العربية. فاجتمع عند المأمون في دار الحكمة مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة والمنطق والموسيقى والفلك وغيرها.

## السيان والترجمة

ازدهرت الترجمة على أيدي أهل الذمة (السيان) في الفترة الواقعة بين العام ٧٥٠-٩٠٠م، فقد عكفوا على ترجمة أمهات الكتب السريانية واليونانية والفهلوية والهندية (السنسكريتية) إلى العربية، وكان على رأس أولئك المترجمين في بيت الحكمة: حنين بن إسحق الطيب النسطوري، فقد ترجم إلى اللغة السريانية مئة رسالة من رسائل جالينوس<sup>٥</sup>، وإلى العربية تسعًا وثلاثين رسالة أخرى. وترجم أيضًا كتب المقولات الطبيعية والأخلاق

١. المأمون (٨١٣-٨٣٣م) ابن هارون الرشيد من جارية فارسية. عهد إليه أبوه بالقسم الشرقي من الإمبراطورية، احتل بغداد وقتل أخاه الأمين عام ٨١٩م. قضى على الخوارج في خراسان. حارب الإمبراطور البيزنطي تيئوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) وأجبره على قبول الصلح عام ٨٢٠م. عني بالثقافة والأدب والفلسفة والعلوم. فأنشأ «بيت الحكمة» ازدهرت في عهده حركة النقل والترجمة. انحاز إلى المعتزلة. توفي بالقرب من طرسوس.

٢. بطليموس (كلود) فلكي وجغرافي يوناني (نحو ٩٠-١٦٨م). ولد في مصر ونشأ في الإسكندرية. أشهر مؤلفاته «المجسطي» و«جغرافية بطليموس» وله النظرية البطليموسية في هيئة الأفلاك القائلة أن الأرض لا تتحرك والفلك يدور حولها.

٣. المجسطي: ومعناه الترتيب الكبير في علم الفلك. وكان المرجع المهم في الفلك عند المسلمين وعند الأوروبيين في القرون الوسطى (جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٣٥٤).

٤. ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣، ص ١٧٨.

٥. جالينوس (نحو ١٣١-٢٠١م) طبيب يوناني. له اكتشافات خطيرة في التشريح من أكبر مراجع أطباء العرب.

الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية وطيباوس والقوانين وكتاب السياسة لأفلاطون<sup>١</sup>. فكان المأمون يعطيه ذهبًا زينة ما ينقله من الكتب<sup>٢</sup>.

وقام ابنه إسحق<sup>٣</sup> في أعمال الترجمة أيضًا فنقل إلى العربية من كتب أرسطو الميتافيزيقيا أو النفس، وفي توالد الحيوانات وفسادها. كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسي<sup>٤</sup> وهو كتاب كان له أثرٌ كبيرٌ في الفلسفة الإسلامية<sup>٥</sup>.

وكان يعمل معه نقلًا مجيدين أمثال إسطفان بن باسيل، وموسى ابن شاكر<sup>٦</sup>، ويحيى بن هارون، وحبش بن الأعسم، وعيسى بن يحيى بن إبراهيم<sup>٧</sup>.

وكان قسطا بن لوقا<sup>٨</sup> يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية إلى العربية. كما كان يحيى بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية إلى العربية<sup>٩</sup>.

وقد أقام المأمون يوحنا بن البطريق الترجمان أمينًا على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية إلى العربية وتولّى ترجمة كتب أرسطو وأبقراط<sup>١٠</sup> في الفلسفة وغيرها<sup>١١</sup>.

١. ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٧٨.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٩-٤١٠. القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٧-١٢٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٠٠.

٣. إسحق بن حنين. توفي في بغداد عام ٩١١م. طبيبٌ وفيلسوف مسيحي. نقل إلى العربية عن اليونانية، أو عن ترجماتها السريانية. كتب الفلسفة والرياضيات منها: «أصول الهندسة» لإقليدس و«المجسطي» لبطليمس و«الكرة والأسطورة» لأرخميدس.

٤. إسكندر الأفروديسي. (القرن الثاني الميلادي) فيلسوف يوناني. لنظريته في العقل الفعّال تأثير لا ينكر. من أهم شراح أرسطاطاليس. عرف العرب مؤلفاته وقَدروها حق قدرها. نعته ابن سينا بأفضل المتأخرين واعتدَّ بآرائه اعتدًا كبيرًا. وقد خالفه ابن رشد.

٥. ديورانت، قصة الحضارة، ص ١٣، ص ١٧٨.

٦. اشتهر مع أخويه بعلم الحساب والهينة والآلات من عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣) إلى عهد المتوكل (٨٤٧-٨٦١) وساهموا في حركة الترجمة وجمع المخطوطات.

٧. عيسى بن يحيى بن إبراهيم. تلميذ حنين بن إسحق (٨١٠-٨٧٣م) نقل إلى العربية «الخصائص» لديوسقوريدس و«تدبير الأمراض الحادة» و«الاحلاط» لأبقراط، و«الأوراق الذوارب هل يجري فيها الدم بالطبع أم لا» لجالينوس.

٨. قسطا بن لوقا البعلبيكي (٨٢٠-٩١٢م) طبيب ومنطقي مسيحي. نقل إلى العربية مؤلفات اليونان واشتغل في صنع الآلات الفلكية. له مؤلفات عديدة منها: «المرآة المحرقة» و«الفلاحة اليونانية».

٩. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢، ص ٢٩٩.

١٠. أبقراط (نحو ٤٦٠-٣٧٧ق.م.) ولد في جزيرة كوسى (اليونان) أشهر الأطباء الأقدمين. جعل للأمراض مصدرين: الهواء والغذاء. دعاه أرتمحشتا لمعالجة الربو المتفشي في بلاده فأبى أن يخدم أعداء وطنه. نقلت بعض مصنفاته إلى العربية منها: «تقدمة المعرفة» و«طبيعة الإنسان».

١١. ابن القفطي، أخبار العلماء، ص ٢٤٨. ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٥.

ولم يكن الخلفاء وحدهم يهتمون بالترجمة والنقل إلى العربية بل نافسهم الوزراء والأمرء والأغنياء، وأخذوا ينفقون الأموال الطائلة عليها، فيقول ابن الطقطقي: (إن البرامكة أشجعوا تعريب صحف الأعاجم حتى قيل إن البرامكة، كانت تعطي المعرب زنة الكتاب المعرب ذهباً)<sup>٣</sup>.

وبالغ الفتح بن خاقان في إنفاق الأموال على الترجمة والتأليف وكان عبدالمملك بن الزيّات لا يقل عنه سخاء في هذا المجال.

ومن اشتهر من الأغنياء بتشجيع حركة الترجمة والتأليف محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم الذين أنفقوا الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وكانت لهم آثار قيّمة في الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أنفذوا حنين بن إسحق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات<sup>٤</sup>.

## السريان والطب

ولم يقتصر اهتمام النصارى بالترجمة ولا سيّما ترجمة فلسفة اليونان بل تعداها إلى غيرها من العلوم، فقد اهتموا بالطب، وأشادوا قبل الإسلام المستشفيات في العراق وأقاموا المدارس الطبيّة واعتنوا بصناعة الأدوية.

ولما جاء الإسلام اهتم الخلفاء عامة برعاية الطب والأطباء قبل غيرهم من العلوم. ففي العصر الأموي (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) استخدم الخلفاء الأطباء النصارى في بلاطاتهم.

١. ابن الطقطقي محمد، (١٢٦١-١٣٠٩م) مؤرخ ولد في الموصل ونشأ فيها. وله «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» طبع في غوطا (١٨٦٠) وباريس مع ترجمة فرنسية (١٩١٠) ومصر (١٩٢٦).

٢. البرامكة أو آل برمك: أسرة فارسية تقلدت الوزارة في عهد العباسيين (٧٥٠-٨٠٩) منهم: خالد: عهد إليه السفّاح بديواني الجند والخراج ثم بالوزارة. لعب دوراً كبيراً في عهد المنصور. ويحيى: ابنه وزير الرشيد. كان قبل ذلك حاكماً على أذربيجان ثم أصبح مؤدباً لهرون. لعب دوراً في إبعاد الهادي عن الخلافة. الفضل بن يحيى: أخو الرشيد بالرضاعة ومؤدب الأمين. عيّن والياً على أقاليم إيران الغربية، ثم على خراسان. أغاظ الرشيد فنزع عنه وظائفه. توفي عام ٨٠٨، وجعفر ولأه الرشيد على مقاطعات إيران الغربية دون مغادرة البلاط. أصبح ناظرًا للبريد والنقود، مؤدب المأمون. قتل في النكبة الشهيرة عام ٨٠٣، التي لا تزال أسبابها الحقيقية مجهولة.

٣. ابن الطقطقي، الفخري، ص ٢٣٥.

٤. الفتح بن خاقان: وزير المتوكل. كان أثيراً لدى الخليفة فناصر ابنه الأصغر المعتز على ابنه الأكبر المنتصر. قتل مع المتوكل عام ٨٦١م.

٥. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٤٠.

وقصورهم. ومن هؤلاء ابن آثال وكان طبيباً مسيحياً للخليفة معاوية بن أبي سفيان ويقول ابن أبي أصيبعة<sup>٢</sup>: إن الخليفة عمر بن العزيز<sup>٣</sup> أمر بنشر كتاب الطب الشرعي الذي نقله إلى العربية ومنتطب البصرة ماسرجويه في عهد الخليفة مروان بن الحكم، وقد وجدته في خزائن الكتب بالشام<sup>٤</sup>.

ومن أشهر أطباء النصارى في العراق في العهد الأموي تذاوق، وكان طبيباً فاضلاً وله نوادر في صناعة الطب، وكان مشهوراً عند الأمويين بالطب، صحب الحجاج الثقفي في العراق، وخدمه بصناعة الطب، وكان الحجاج يعتمد عليه ويثق بمداواته<sup>٥</sup>. ولتذاوق من الكتب كتّاش كبير ألف لابنه وكتاب إبدال الأدوية وكيفية صنعها وإذابتها، وشيء من تفسير أسماء الأدوية<sup>٦</sup>.

وقد دأب خلفاء بني أمية على رعاية الأطباء وتشجيع دراسة الطب، فأنشأوا لأجل ذلك المستشفيات لمعالجة المرضى من الناس، وأول مستشفى شاده الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ لمعالجة المجذومين<sup>٧</sup>، كما اتخذوا لأنفسهم الأطباء من النصارى للإشراف على علاجهم.

وفي العصر العباسي أكثر الخلفاء من إنشاء المستشفيات واختاروا لها الأماكن التي تمتاز بالهدوء والهواء العليل والماء النقي<sup>٨</sup>. وجعلوا فيها أماكن خاصة للرجال وأخرى للنساء وخصّصوا لكلّ مرضٍ قاعات خاصة ووضعوا للإشراف عليها أطباء متخصصين ومن أشهر

١. معاوية بن أبي سفيان، زعيم بني أمية. حاكم سوريا في عهد عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤) وعثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٦). عارض علياً وقاتله في صفين (٦٥٧) فانتهت المعركة بقبول التحكيم الذي انتهى بانتقال الخلافة إليه. حارب البيزنطيين وأتم فتح شمالي أفريقيا. إشتهر بدهائه. (راجع أيضاً أحمد أمين، فجر الإسلام) (ص ٢٠٠).

٢. ابن أبي أصيبعة (١١٩٩-١٢٩٦م) ولد في دمشق وتوفي في صرخد. تعلم الطب على أبيه ثم كمل في المارستان الناصري في القاهرة. له: «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء».

٣. عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦٨٢-٧٢٠م) ولد بالمدينة. أمير الحجاز (٧٠٦م) خليفة أموي (٧١٧-٧٢٠م) اشتهر بتقواه وتمسكه بالسنّة، انصرف إلى الإصلاح الداخلي والمالي وأظهر تسامحاً مع العلويين والنصارى والموالي.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ج ١، ص ١٦٣.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ج ٢، ص ٣٢.

٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ج ٢، ص ٣٥.

٧. الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٦٦.

٨. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ج ١، ص ٣٠٩-٣١٠.

المستشفيات في العصر العباسي الأول مستشفى العميان الذي أنشأه المنصور<sup>١</sup>. ومستشفى الرشيد التي أنشأها سنة ١٧٠هـ، ومستشفى علي ابن عيسى الوزير، وأخذ الخلفاء فيما بعد ينشئون المستشفيات بأسمائهم لعلاج العامة، ويوقفون لها الأموال الطائلة، ويشرفون أحياناً بأنفسهم على رعيتهما<sup>٢</sup>. فكان الأطباء والصيادلة، خاضعين للامتحان ليحصلوا على إجازة الطب والتطبب، وكان في كل مدينة مفتش خاص للصيديات وتحضير الأدوية<sup>٣</sup>.

## الأطباء والأسر الطبية

ومن أبرز الأسر المسيحية التي اشتهرت بالطب وبقي أحفادها يتوارثون معالجة خلفاء بني العباس هي أسرة بختيشوع، فكانوا أطباء ومترجمين وفلاسفة، وعالجوا المنصور والرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والواثق والمتوكل. كما عالجوا الوزراء والأمراء والقواد، وقال فيهم ابن أبي أصيبعة<sup>٤</sup>: (إن جور جيس وولده كانوا من أجل أهل زمانهم بما خصهم الله من شرف النفوس ونبل الهمة، ومن البر المعروف والإفضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والأخذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على ما يتجاوز الحد من الصفة والشرح).

وقد كان الخليفة المنصور قد استقدمه من مدرسة جنديسابور، وكان رئيس الأطباء فيها. وعينه طبيبه الخاص<sup>٥</sup> ومنذ ذلك الوقت توارث الأطباء النساطرة وظيفة التطبب في قصور الخلفاء العباسيين، وأسسوا مدرسة للطب في بغداد، وكان بينهم ابنه بختيشوع الذي استقدمه المهدي من جنديسابور أيضاً، فظل في خدمة ولده الهادي والرشيد إلى أن توفي عام ٨٠٩م<sup>٦</sup>، وقد قرّبه الرشيد إليه كثيراً وقال له: تكون رئيس الأطباء ولك يسمعون ويطيعون<sup>٧</sup>.

١. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢، ص ٣٦٦.

٢. روفائيل بابو اسحق، أحوال نصارى بغداد، ص ١٥٦.

٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٣٣.

٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٣٦.

٥. ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٦٤.

٦. ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٦٤.

٧. ابن القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٠٠.



واشتهر من هذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م) الذي كتب مدخلاً لعلم المنطق ورسالة للمأمون في التغذية والمشاريب وكتب في وصايا طبيّة كثيرة وفي الروائح<sup>١</sup> وقد بلغت مقادير ثروته خلال عهود الرشيد والمأمون تسعة وثمانين مليون درهم<sup>٢</sup>.

واشتهر منهم أيضًا بختيشوع بن جبرائيل (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) وقد تنعم بعطف المتوكّل حتى أنه كان يضاھيه في ملابسه، وحسن الحال وكثرة المال والمروءة، ومباراته في الطيب والجواري والعبيد<sup>٣</sup>.

ومنهم أيضًا يوحنا بن بختيشوع، وبختيشوع بن يوحنا (ت ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م).

واشتهر من أطباء المنصور أيضًا عيسى بن شهلا، وهو تلميذ جورجيس بن جبرائيل<sup>٤</sup> ومن أطباء المهدي<sup>٥</sup> أبو قريش ويعرف بعيسى الصيدلاني ولم يذكر في جملة الأطباء لأنه كان ماهراً بصناعة الأدوية<sup>٦</sup>.

ومن أطباء الهادي<sup>٧</sup> المتطبّب الطيفوري، نقل له حين عدة كتب في الطبّ، وكان أحظى الناس عند الهادي<sup>٨</sup>.

ومن الأطباء الكحالين جبرائيل الكحال، وقد اختصّ بخدمة الخليفة هارون الرشيد، وكانت وظيفته في كلّ شهر ألف درهم<sup>٩</sup>، ووضع المأمون رئيساً لبيت الحكمة، وله مقالة في الحميات أصبحت المعول عليها في دراسة الأمراض. ونقلت من بعد إلى اللاتينية والعبرية<sup>١٠</sup>.

١. إساعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٧.

٢. ديورات، قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٩٠.

٣. الخربوطي، الإسلام وأهل الذمة، ص ١٤٥-١٤٦.

٤. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ١٢٤.

٥. المهدي: (٧٧٥-٧٨٥م) ثالث الخلفاء العباسيين ابن المنصور وخلفه. أنشأ الطرق العامة وحسّن جهاز البريد فازدهرت التجارة في عهده. تعقب الخوارج في خراسان ولاحق الزنادقة. حارب البيزنطيين فتوغّلت جيوشه حتى أنقرة والبوسفور.

٦. ابن الففطي، أخبار الحكماء، ص ٤٣٠.

٧. الهادي موسى: الخليفة العباسي الرابع (٧٨٥-٧٨٦م) ابن المهدي، حاول إكراه الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) على النزول عن ولاية العهد فقتل في دار الحريم بالموصل بتحريض من أمه الخيزران يوم ١٥ أيلول عام ٧٨٦م.

٨. ابن الففطي، أخبار الحكماء، ص ٢١٩.

٩. ابن الففطي، أخبار الحكماء، ص ١٥٢.

١٠. إساعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ٤٧.

ويذكر ابن جلجل (٣٨٤هـ/٩٩٤م): (أن له ثلاثون كتابًا منها كتاب البرهان وكتاب الكمال والتمام، وكتاب في الفصد والحجامة، وفي الأدوية والجذام، والأغذية وفي علاج المعدة، وفي الطب النسائي، وتركيب الأدوية)<sup>١</sup>.

واشتهر منهم ماسويه بن يوحنا وقد رأس مدرسة الطبّ في بغداد، وله مترجمات ومؤلفات، ويوحنا بن ماسويه الذي اشتهر بالطبّ والصيدلة واستخضه المأمون لمهارته.

وكان سلمويه بن بنان طبيب المعتمصم، وقد قرّبه إليه، وكان يرد إلى الدواوين توقيعات في السجلات وغيرها بخطه، وكان كلّ ما يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر، وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين فبخط سلمويه<sup>٢</sup>. ولما مرض سلمويه بعث المعتمصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يُصلّى عليه بالشموع والبخور جرياً على عادة النصارى، وامتنع المعتمصم يوم موته عن أكل الطعام<sup>٣</sup> وقال المعتمصم سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبّر جسمي<sup>٤</sup>. وله عشر مقالات في طبّ العين<sup>٥</sup>، وفي الأغذية، وفي تدبير الناقهين، وفي الأدوية<sup>٦</sup>.

ومن أطباء النصارى المشهورين أيضاً حنين بن إسحق العبّادي، وقد برز بالإضافة إلى الطبّ بالفلسفة وقد جعله المأمون رئيساً لدار الحكمة ومشرفاً على المترجمين فيها، وفي خلافة المتوكّل قرّبه إليه واقطع له الإقطاعيات<sup>٧</sup> واشتهر ابن أخته حبيش بن الأعمس وابنه إسحق (٢٩٨هـ/٩١١م) بالطبّ.

١. ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٥. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٥.

٢. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ١٦٤.

٣. الخروبوطي، الإسلام وأهل الذمة، ص ١٤٥.

٤. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٦.

٥. ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٩٠.

٦. ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٩.

٧. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥١.

فقال ابن القفطي عن إسحق (كان أبو يعقوب النصراني في منزلة أبيه في الفضل، وصحة النقل من اللغة اليونانية والسريانية، وكان فصيحاً يزيد على أبيه في ذلك<sup>١</sup> وقال فيه ابن خلكان (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)<sup>٢</sup>: (كان أوحده عصره في علم الطب ويلحق بأبيه في النقل وفي معرفته باللغات، وفصاحته فيها، وكان يعرب كتب الحكمة التي بلغة اليونان إلى العربية، كما كان يفعل أبوه. وله من الكتب: كتاب الكناش، وكتاب تاريخ الأطباء، وكتاب الأدوية المفردة<sup>٣</sup>.

وألف بعض النصارى كتباً طبية بالعربية وهم: إبراهيم بن بكّوس، ويحيى بن عدي<sup>٤</sup> وعيسى بن زرعة، والبيوردي، والفضل بن جرير، ويحيى بن جرير<sup>٥</sup>، وقسطا بن لوقا، وكان حاذقاً في الطب والفلسفة، والتنجيم والهندسة والحساب، وله تأليف في الطب منها الفرق بين النفس والروح وكتاب بين الناطق والصامت وكتاب في غلبه الدم<sup>٦</sup>.

وقد لازم هؤلاء الأطباء النصارى الخلفاء في قصورهم وبلاطاتهم ويجلسون إلى موائد طعامهم ويسامرونهم ويعالجون مرضاهم ويرافقونهم أحياناً في حروبهم وأسفارهم<sup>٧</sup>. وكان الخلفاء بدورهم يجلوهم، ويرحّبون بهم، ويمنحونهم العطايا السخية ويعودونهم في منازلهم حين مرضهم، ويحضرون أحياناً الصلاة عليهم بالشمع والبخور في جنازاتهم<sup>٨</sup>.

## الفلسفة والفلك

أما في الفلسفة فلم يكن للمسيحيين فلسفة أصلاً، وإنما جاءت إليهم عن طريق النقل والترجمة عن اليونانية، وبعد الفتح الإسلامي للعراق وفارس والشام نقلت من السريانية

١. ابن القفطي، أخبار الحكماء، ص ٥٧.

٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٨٥.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٨.

٤. يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٤م) منطقي تكريتي مسيحي. تلميذ أبي بشر يونس بن متى والفارابي. نقل إلى العربية كتاب «النفس» لأرسطو.

٥. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص ٢٠٣.

٦. ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٧٦.

٧. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٦-٢٦٥.

٨. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٣. طرازي، عصر السريان الذهبي، ص ٢١.

إلى العربية. وقد قام السريان بتدريس الفلسفة اليونانية في مدارسهم، وعلّقوا عليها، وشرحوها ولا سيّما فلسفة أرسطو وأفلاطون. وأبرز الفلاسفة السريان القس سرجيوس الراسعيني، وراهبان دير قنسرين الذين تعلّقوا بدراسة فلسفة فيلوفوس فيلون الإسكندري الذي عاش في أواسط القرن السادس الميلادي.

كما ترجم السريان الكتب الفلسفية التي تناولت حِكم فيثاغورس في الفضيلة وحدود أفلاطون وحكمه التي كتبها إلى تلاميذه، والحدود عن الله والإيمان والمحبة والعدل وحِكم الفلاسفة في النفس ونصائح الفلاسفة<sup>١</sup>.

ولقد اهتم النصارى بدراسة علم الفلك وعلم التنجيم<sup>٢</sup>، لأنها تصلح في ما يهّم كلّ أحد، مثل الكسوفات، والخسوفات، وتغيير الأزمنة والأهوية، والحرّ والبرد، وغير ذلك مما يتعلّق بقرب الشمس وبعدها واتصال القمر بالكواكب وإن هذا العلم مبني على جميع ما يجري في العالم من حركة الكواكب، ويتعلّق هذا العلم بالحساب وعلم الهيئة<sup>٣</sup>.

وأول من عنى بدراسة علم الفلك والتنجيم الخليفة العبّاسي المنصور، فقد كان شغوفاً به، وقد تابع الخليفة المأمون ما بدأ به جدّه المنصور، فأقبل على طلب العلم، وأرسل إلى ملوك الروم الذين بعثوا إليه منها فاستجاد لها مهرة الترجمة، وشجّع الناس على قراءتها ورغّبهم فيها وفي تعليمها، ومن أوائل المنجمين في أيام الخليفة المهدي ثيوفيلس بن توما المسيحي المنجم الرهاوي وكان رئيساً للمنجمين في عهد المهدي<sup>٤</sup>.

ومن مشاهير المنجمين في عهد المأمون حبش الحاسب الروزي، وله ثلاثة أزياج أولها المؤلّف على مذهب السند هند، والثاني الممتحن، والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاه. وعبدالله بن سهل بن نوبخت كبير المنزلة في علم النجوم، وله الأسطرلاب سفرا أودعه في علم الكواكب وسيرها وحركاتها، ويعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار، ويرجعون إليها

١. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص ١٩١-١٩٩.

٢. وهو ما يعترّ عنها بعلم الهيئة الذي يعرف بأسماء مختلفة مثل علم التنجيم أو الأفلاك، وإن كانت كلمة التنجيم قد انحصرت في قراءة الطالع في التنبؤ بالحوادث المستقبلية. وهذه أطلق عليها صناعة وبذلك فصل بين علم الهيئة والتنجيم. وعلم الهيئة نظري وعملي يرمي إلى رصد حركات الكواكب لأهميتها في تحديد الوقت والمواقيت وفي الحياة العملية مثل السير في الصحاري والبحار.

٣. إيليا برشينايا، المجالس السبعة، مخطوط، ورقة ٣١-٣٢ و ط.

٤. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ١٢٧.

في علم التنجيم والفلك. وكان في عهد الرشيد بدار الترجمة وقام بتعريب الكتب والتي تبحث في علم الأفلاك<sup>١</sup>.

وفي الوقت الذي جدّ المسيحيون واجتهدوا في ترجمة كتب اليونان في مختلف العلوم، انكبّ فريقٌ آخر على تأليف الكتب في صفوف المعرفة. وقد قام الرهبان بالدرجة الأولى بهذا المجهود فقد تركوا هذه الكتب المترجمة والمؤلفة في مكاتب الكنائس والأديرة بالإضافة إلى الكتب التي ترجمت في عهود الخلفاء، والتي أودعت المكتبات، وبيوت العلم، خاصة والعصر العباسي، وقد أحصى الأب شابو المستشرق الفرنسي كتب النصارى سواء كانت دينية أو علمية أو أدبية والتي كانت في البيع والأديرة حوالي نيفاً وثلاثة آلاف في سبع خزائن من مكاتب أوروبا<sup>٢</sup>. وقد امتازت هذه الكتب بنقوشها وزخارفها وخطوطها الرائعة.

## الموسيقى والغناء

ومن المآثر الفنيّة عند المسيحيين الموسيقى والغناء. ويرجع ازدهار الموسيقى إلى أنها جزءٌ من الطقوس الدينية عند المسيحيين، وكانوا يطلقون عليها اسم (الموسيقى الكنسية)<sup>٣</sup> فقد استعملوا آلات الطرب في ألحانهم الدينية، ووضع أدباؤهم أناشيد البيع، ونظموا الموشحات الموزونة والمضبوطة القياس فضلاً عن الطقوس الأخرى التي تتلى صباحاً ومساءً في كنائسهم ذات أنغام شجية تسمّى بالليتورجيات أو النافورات<sup>٤</sup> والحسايات<sup>٥</sup>.

ولم يقتصر استعمال الموسيقى للأغراض الدينية فقد استعملها أول الأمر نصارى الحيرة في أعراسهم ومجالسهم ومآدبهم، وشملت فيما بعد نصارى العراق، وتعداها إلى عامة الناس في مختلف الأديان.

١. المدوّر، حضارة الإسلام في دار السلام، ص ١٧٨.

٢. طرازي، عصر السريان الذهبي، ص ٩٢-١٠٨. مجلة المشرق، ٢٢، ص ٤٢٣.

٣. مجلة المشرق، ج ١، ص ٨٤٥. برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص ٤١١. عصر السريان الذهبي، ص ٥٦-٥٧.

٤. روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٦.

٥. الليتورجيا، أو النافور، كلمتان يونانيتان ومعناها خدمة أو صلوات القداوس (روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٦).

وقد استعمل نصارى الحيرة الطبول والدفوف والصنج والجلجل والأبواق والنواقيس، واقتبسوا من البيزنطيين الأرغن والبريط<sup>١</sup> والسنتور والقانون والقيثارة، وأخذوا من الحجازيين المزهر والمعزف والقصبة<sup>٢</sup>.

وقد دُرِّس فنّ الموسيقى في مدارس الحيرة، وأرسل بهرام جور<sup>٣</sup> إليها وبرع في العلوم العربية والموسيقى، وتعلّم في الحيرة النضر بن الحارث الموسيقى، وأجاد في الضرب على العود<sup>٤</sup>.

---

١ . البريط، آلة تشبه العود والمزهر .

٢ . الحسايات، مفردتها الحساية، كلمة آرامية يراد بها صلاة الاستغفار أو الدعاء (روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٦).

٣ . روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٨ .

٤ . روفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٥٣ .

\*\*\*\* الفصل الرابع عشر \*\*\*\*

يحيى بن عدي التكريتي

(٨٩٣-١٠٧٤م)

إمتاز القرن العاشر المسيحي بنضوج العقل العلمي عند العرب، فنال الأدب أكبر نصيب من النضوج، وارتقى الفكر الأدبي إلى مستوى الفلسفة فظهر فيه الطبري +٩٢٣ والرازي +٩٣٢ والفارابي +٩٥١ والمسعودي +٩٥٦ وأبو فراس الحمداني +٩٦٨ وابن العميد +٩٩٧ وغيرهم كثيرون.

من هنا نعلم أن عصر يحيى بن عدي عصر نور. فلا غرابة إن تجلّت فيه عبقرية هذا الفيلسوف السرياني المسيحي بين معاصريه العلماء المسلمين الذين درس عليهم وأخذ منهم وأعطاهم في ميدان العلم والأدب.

## نسبه ونشأته

هو أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي. نزيل بغداد<sup>١</sup>. أبصر النور في تكريت<sup>٢</sup>. وقد رزق ذكاءً وقادراً. وهمةً بعيدة، وطموحاً إلى العلم والعلو عظيمًا. فلم تكف تكريت لتغذية عبقريته، فتركها إلى بغداد.

وفيها قرأ على أبي بشر مّتي بن يونس وأبي نصر الفارابي الفيلسوف الكبير، وغيرهما من مشاهير فلاسفة بغداد وكبار علمائها وأدبائها<sup>٣</sup>.

ثم توغّل في المسائل اللاهوتية فأتقنها وتضلع بالأدب العربي ولغة الضاد. فتعاطاها زمنًا طويلاً ونال منها حظاً وافراً فنبغ وفاق أهل زمانه بتضلعه من المنطق خاصة، حتى

١. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٣. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٣٦١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣١٧. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٩٦. شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، ص ٢٥٤. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٤٤٤.

٢. خير الدين الزركلي، الإعلام، ج ٦، ص ١٩٤.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٣. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٣٦١. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣١٨. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٩٦. شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، ص ٢٥٤. برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٤٤٤.



أصبح من أكبر كتبة بغداد وفلاسفتها يوم كان الكتاب والأدباء فيها يعدّون بالألوف وإمامًا لحكائها الذي لا ينازع في إمامته منازع، ولا يطمع في مجاراته طامع. وبعد جهود جبارة أصبح أوحد دهره وإليه انتهت رئاسة أصحابه المنطقيين<sup>١</sup> فأكبرت قدره محافل بغداد العلمية والأدبية ورفع منزلته الوزراء والأعيان والعلماء.

كان جيد النقل من السريانية إلى العربية<sup>٢</sup>، ملازمًا النسخ بيده. كتب الكثير من الكتب بخط قاعد بين، وكان يكتب في النهار والليله مائة ورقة وأقل. اشتهر يحيى بن هدي بشدة تعلقه بأهداب الدين فدافع وناضل بقلمه عن أيان الكنيسة السريانية اليعقوبية<sup>٣</sup> والمعتقدات النصرانية ولا سيما في ما يتعلق بالتثليث والتوحيد؛ براهين قاطعة وحجج دامغة فنّد بها آراء من تعرض لها. ومما يجدر بنا ذكره - من باب الفكاهة - في هذا الصدد: أن أبا الحسن علي بن عيسى الجراح<sup>٤</sup> وزير الخليفة المقتدر استحضر أبا مسلم محمد ابن بحر الأصبهاني ليوافقه على ما كان يتولاه من الأعمال. فجرى بينهما خطاب اختلفا في ما يجب فيه الحكم، واتفقا على أن يرجعا فيه إلى من يوثق ببصيرته بأحكام الديون من كتاب الحضرة.

فذكر الوزير أبو الحسن رجلاً من وجوه النصارى. فقال أبو مسلم: لا يرضى به لأنه لا يحسن الحساب. فقال الوزير منكرًا عليه: أتقول في يحيى بن عدي أنه لا يحسن الحساب؟ قال: نعم! لأن الواحد عنده ثلاثة والثلاثة واحد<sup>٥</sup>.

وكان مع وسع علمه ورسوخ قدمه في علوم عصره، قليل الادعاء يؤيده لنا هذا ما رواه عنه جمال الدين القفطي حيث قال: «سمعت أن يحيى بن عدي حضر مجلس بعض

١. المصادر السابقة عدا القفطي.

٢. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأبناء، ص ٣١٨. نقلًا عن القفطي، أما ابن العربي فينفرد بالقول (مائة ورقة وأكثر).

٣. اليعقوبية: طائفة السريان الأرثوذكس اليوم نسبت إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها (٥٤١-٥٧٨) لأنه قضى حياته عاملاً على إقرار هذا المذهب في سوريا. كما وأن جميع المؤرخين يؤكدون أن مذهب يحيى بن عدي هو اليعقوبية حتى أن ابن العربي يقول: «وكان نصرانيًا يعقوبيًا النحلة» مختصر الدول، ص ٢٩٦.

٤. اشتهر يحيى بدفاعه الشديد عن أن الله ثلاثة أقانيم وهي إله واحد. وقد نشر قسماً من مقالاته بهذا الصدد (أنظر مقالات دينية قديمة لمشاهير كتبة النصارى) عني بنشرها الأب لويس شيخو في مجلة ابن الفرات.

٥. تولى الوزارة في محرم سنة ٣٠١هـ، حتى ذي الحجة سنة ٣٠٤هـ إذ تولاه ابن الفرات.

٦. يقصد أن يحيى يؤمن بإله واحد في ثلاثة أقانيم وهو إيمان المسيحية كلاًها.

الوزراء ببغداد في يوم هناء. واجتمع في المجلس جماعة من أهل الكلام، فقال لهم الوزير تكلموا مع الشيخ يحيى فإنه رأس متكلمي الفرقة الفلسفية، فاستعفاه يحيى فسأله عن السبب فقال يحيى: هم لا يفهمون قواعد عباراتي وأنا لا أفهم اصطلاحهم. وأخاف أن يجري لي معهم ما جرى «للجباء»<sup>١</sup> في كتاب التصفّح. فإنه نقض كلام أرسطاطاليس. وردّ عليه ما تحيّل له من فهمه ولم يكن من فهمه ولم يكن عالماً بالقواعد المنطقية، ففسد الردّ عليه وهو يظن أنه قد أتى بشيء ولو علمها لما تعرض لذلك الرد. فأعفاه لما سمع من كلامه واعتقد فيه الإنصاف<sup>٢</sup>.

وحكى ابن النديم في الفهرست (... وكان أوحد دهره، ومذهبه من مذاهب النصارى اليعاقبة. قال لي يوماً في الورّاقين، وقد عاتبته على كثرة نسخة فقال: من أي شيء تعجب في هذا الوقت؟ من صبري! قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتها إلى ملوك الأطراف. وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في النهار واللييلة مائة ورقة وأقل.

وقال لي: مولدي... (كذا) وتوفي سنة... «كذا»<sup>٣</sup> وقد أورد عنه هذه الرواية القفطي<sup>٤</sup> وابن أبي أصيبعة وغيرهما.

ويقول البيهقي في كتابه (صوان الحكمة): (أبو زكريا يحيى بن عدي كان حكيماً كاملاً، وهو أفضل تلامذة أبي نصر، وله تصانيف كثيرة وكان يشرح أرسطو ويلخص تصانيف أبي نصر ومن كلماته: العاقل مع خشونة العيش عند العقلاء أسر منه مع تلين العيش مع السفهاء. العاقل لا يغتر بالمرتقى السهل إذا كان المنحدر وعرا لم يعرف من لم يفصله من الباطن<sup>٥</sup>).

١. الجباني أبو هاشم عبد السلام، من المعتزلة، إليه تنتمي فرقة الجبانية. قال: إن صفات الله هي عين ذاته، تو ٩٩٣ م.

٢. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٣٧.

٣. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٣.

٤. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٣٦١.

٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣١٨.

٦. البيهقي، صوان الحكمة، ص ٩٠.

وقد جاء في ترجمة الحكيم أبو سهل المسيحي بذات المصدر (صوران الحكمة) ما يلي (...). وقال كيف أعدل عن حكم المسيح والنار نازلة في كنيسة القيامة في المسجد الأقصى (وقصة) تلك النار إن الليلة التي رفع فيها عيسى (المسيح) إلى السماء ليلة النصف من نيسان. وفي هذه الليلة كلّ (سنة) تنزل نارٌ من الأثير بحيث يراها الناس تشتعل قناديل القيامة من غير أن يكون كوة ولا فرجة في سقف ذلك البيت بل تغوص الناس في السقف من غير أن تحرق الخشب ثم توقد السرج والمشاعل فإذا طلع الفجر انطفأت.

وقد صنّف أبو زكريا يحيى بن عدي تلميذ أبي نصر الفارابي في ذلك كتابًا وبين الأمر الطبيعي في ذلك<sup>١</sup>.

وهاك ما كتبه شهاب الدين العمري في كتابه (مسالك الأبصار) في طبقات الأطباء. (...). ومنهم يحيى بن عدي أبو زكريا المنطقي، حكيم علمه والودق شيان، وقلمه والبرق شيان، كان أول حاله علمًا في ملته، ومعلمًا لأهل قبلته، وعرف بالمنطق مع أنه بعض علومه ومن جملة ما دخل من الخصائص في عمومته. وأضاءت له من الأدب لمع نمت فضائله وأتمت هلاله والبدور الكوامل متضائلة<sup>٢</sup>. وما هذا الكلام إلا إطراء من العمري على يحيى لنبوغه الأمر الذي يدل على سمو منزلته في قلوب القوم.

أما أبو حيّان التوحيدي فيقول في كتابه «الامتاع والموانسة»<sup>٣</sup>: (...). وأما يحيى بن عدي ذاته كان شيخًا لين العريكة، فروقه مشوه الترجمة رديء العبارة، لكنه كان متأنيًا في تخرّيج المختلفة. وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة، ولم يكن يلوذ بالإلهيات. كان ينهر فيها ويضلل في بساطها، ويستعجم عليه ما جل فضلًا عما دق منها، وكان مبارك المجلس). وكان يحيى بن عدي شاعرًا مجيدًا، غير أنه لم يترك إلا القليل من الشعر، ومما قاله في أسرار الدين وعدم فهمها (من البسيط):

١. البيهقي، صوران الحكمة، ص ٨٨-٨٩.

٢. عن نسخة المكتبة الخديوية، ص ٣٣٦-٣٣٧.

٣. التوحيدي، الامتاع والموانسة، ج ١، ص ٣٧.

أعمت فحص المعاني عن حقائقها فلم يبين لك إذا لم تحسن النظر  
فالشمس تخفى على من ليس ذا بصر وليس تخفى على من أعطى البصرا

بلغ يحيى من العمر عتياً -الحادية والثمانين- وتوفي سنة ١٢٨٥ يونانية/ ٩٧٤ ميلادية  
في الثالث عشر من شهر آب.

يقول القفطي: «مات الشيخ أبو زكريا يحيى بن عدي الفيلسوف يوم الخميس لتسع  
بقيين من ذي القعدة سنة ٣٦٤هـ، وهو لثلاث عشرة من آب سنة ١٢٨٥ للإسكندر. ورأيت  
في بعض التعاليق بخط من يعنى بهذا الشأن. وفاته كانت في اليوم المقدم ذكره من الشهر  
المقدم ذكره من سنة ٣٦٣هـ»<sup>١</sup>.

قال الأمير أبو الوفاء بن فاتك: حدّثني شيخو أبو الحسن المعروف بابن الأمدى أنه  
سمع من أبي علي عيسى بن زرعة يقول: إن أبا زكريا يحيى بن عدي أوصى إليه أن يكتب  
على قبره حين حضرته الوفاة هذين البيتين (من الخفيف):

رب ميت قد صار بالعلم حيا ومبقى قد مات جهلاً وعيا  
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلودا لا تصدق الحياة في الجهل شيا

ووفى التلميذ الوعد لأستاذه فنقش البيتين على ضريحه، وقد دفن في كنيسة مار  
توما ببغداد<sup>٢</sup>.

### آثاره ومؤلفاته:

كانت حياة يحيى بن عدي كما رأينا إذن سلسلة جهود متواصلة في سبيل العلم  
والفلسفة. فنقل كتباً كثيرة من السريانية إلى العربية يوم كانت لغة الضاد في أوج مجدها. وكان  
يكتب وينسخ بيده، عدا ما وضعه هو من كتب ومقالات بالعشرات فقد معظمها كما سنرى.

١. شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، ص ٢٥٦، والقفطي، أخبار الحكماء، ص ٢٥٦.  
٢. بيعة مار توما في باب المحول من جانب الكرخ وهي كاتدرائية وتسمى أيضاً كنيسة قطيعة الدقيق. وكانت مجاورة لدار الروم. (أنظر لمحة تاريخية  
عن الكنيسة السريانية في العراق، لأفرام برصوم).

في أوائل القرن العشرين، اهتم بعض الذين يعينهم أمر الكتبة النصارى القدماء في نفص الغبار عن تصانيف هذا الفيلسوف السرياني وفي مقدمتهم المستشرق الأب أوغست بره من أساتذة المعهد الكاثوليكي بباريس<sup>١</sup>، فقد نشر ثنائي مقالات ليحيى بن عدي مع ردوده على عبدالمسيح الكندي<sup>٢</sup> عن عقيدة الثالوث. ونصّها العربي ينشر لأول مرّة متناً وترجمة<sup>٣</sup>. ثم ألفت كتاباً تحت عنوان (يحيى بن عدي) بحث فيه عن حياة يحيى وذكر مؤلفاته وشرح آراءه في الفلسفة. وقد قدّم الكتاب المذكور سنة ١٩٢١ إلى جامعة باريس (السوربون) للحصول على شهادة الدكتوراه. ومن الذين اهتموا بيحيى بن عدي أيضاً الأب لويس شيخو اليسوعي إذ كتب عنه في كتابه الشهير - شعراء النصرانية بعد الإسلام - ثم نشر قسمًا من مقالاته في مجلته (المشرق) البيروتية<sup>٤</sup>. وكذلك درسه وأحصى مؤلفاته في ترجمة له العلامة البطريك مار إغناطيوس أفرام الأول برصوم ونشر كتابه «تهذيب الأخلاق» مع شرح وتعليق<sup>٥</sup>.

وأخيراً ترجم له ترجمة بسيطة مع تعليق الأستاذ مراد فؤاد جقي حيث نشر هو الآخر كتاب يحيى «تهذيب الأخلاق»<sup>٦</sup>، وإليك جدولاً بتصانيف ونقول وشروح مترجمنا هذا على الوجه التالي:

## أولاً: ما نقله من السريانية إلى العربية:

١. كتاب النواميس لأفلاطون<sup>٧</sup>.

٢. كتاب ثاورنوسطس.

١. له أيضاً الحجّاج بن يوسف الثقفي (باريس ١٩٠٢) وقواعد العربية الجديدة ١٩١١، والكندي باريس ١٩٢٠.

٢. عبدالمسيح الكندي كاتب نصراني، نسبت إليه رسالة إلى عبدالله الهاشمي يدعوه بها إلى المسيحية، عاش في القرن التاسع.

٣. أنظر: مجلة المشرق المسيحي ١٩٢٠-١٩٢١، مقالة الأب جان فييه.

٤. منها مقالته في التوحيد، ومقالته في صحّة اعتقاد النصارى في الباري (المشرق ٣٦٨:٥).

٥. نشره في مجلة «اللغات السامية» سنة ١٩٢٨ في شيكاغو. كما كتب عنه في كتابه اللؤلؤ المنشور ص ٤٤٤-٤٤٥.

٦. نشرة بالقدس سنة ١٩٣٠.

٧. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٧٠.

٣. كتاب ما بعد الطبيعة<sup>١</sup>.
٤. كتاب تفسير كتاب الجدل.
٥. الكلام على سوفسطيقا.
٦. الكلام عن الشعر.
٧. المقالة في البحوث الأربعة.
٨. المقالة الثانية من كتاب السماع الطبيعي وحرف (مو).
٩. كتاب الإلهيات لأرسطو.
١٠. الكلام على الآثار العلوية<sup>٢</sup>.

### ثانياً: ما أصلحه من النقول المترجمة:

١. كتاب تفسير الإسكندر لكتاب السماء والعلم، نقل بشر بن متى<sup>٣</sup>.
  ٢. المقالة الأولى من كتاب السماع الطبيعي، نقل أبي روح الصابئي.
  ٣. كتاب الحروف لأرسطو.
  ٤. قولٌ لأفلاطون سمّاه طيماوس<sup>٤</sup>، وهو الكتاب الذي نقله ابن البطريق وأصلحه حنين بن إسحق أيضاً.
- ثالثاً: ما صنّفه من التأليف على شكل كتبٍ أو مقالاتٍ في الدفاع عن العقائد النصرانية في التثليث والتوحيد والتجسد، أو الردّ على بعض النساطرة دفاعاً عن مذهبه اليعقوبي.

١. المصدر السابق، ص ٣٧٠.

٢. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٩٣. ومصباح الظلمة لابن القفطي، باب ٧، وابن النديم في الفهرست.

٣. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٣٦٣.

٤. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٣.

تشهد ببعد نظر صاحبها وغازة علمه ووفور فضله وعلو طبقته لم يسلم من آفات الزمان إلا اليسير منها وهي<sup>١</sup>:

١. كتاب نقض حجج القائلين بأن الأفعال خلق الله واكتساب للعبد.
٢. كتاب تفسير طويقا لأرسطاطاليس.
٣. كتاب في تبيين الفصل بين صناعتي المنطق الفلسفي والنحو العربي.
٤. كتاب في فضل صناعة المنطق.
٥. كتاب هداية من تاه إلى سبيل النجاة.
٦. كتاب في تبيين أن العدو والإضافة ذاتين موجودتين في الاعداد.
٧. كتاب جواب يحيى بن عدي عن فصل من كتاب أبي الحبش. (وقيل الحسن) النحوي في ما ظنه أن العدو غير متناه.
٨. كتاب أجوبة بشر اليهودي عن مسائله.
٩. كتاب شرح للإسكندر في الفرق بين الجنس والمادة.
١٠. كتاب إثبات طبيعة الممكن وأقوى الحجج على ذلك والتنبيه على فسادها.
١١. كتاب الشبهة في أبطال الممكن.
١٢. كتاب في منافع الباه ومضاره وجهة استعماله<sup>٢</sup>.
١٣. كتاب الشذور الذهبية في مذهب النصرانية.
١٤. مقالة<sup>٣</sup> في البحوث الخمسة عن الرؤوس الثمانية.
١٥. مقالة<sup>٤</sup> في استخراج العدد المصخر.

١. إعتدنا في ترتيب جدولنا هذا على: ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٣. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٣١٨. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٩٣، وص ٢٩٦-٢٩٧. شيخو، شعراء النصرانية، ص ٢٥٤-٢٥٦. برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٤٤٤-٣٣٥. مقدمة تهذيب الأخلاق لبرصوم أيضًا. مقدمة تهذيب الأخلاق لحقي، ص ٩-١٦. إسحق أرملة، الطرفة في مخطوطات الشرفة، ص ٣٥٤-٣٤٦. شيخو، المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، ص ٨٣٣. بطرس نصري، ذخيرة الأذهان، ج ١، ص ٤٤٩. الزركلي الاعلام، ج ٦، ص ١٩٤.

٢. كتبه بحسب اقتراح الشريف أبي طالب ناصر بن إسماعيل صاحب السلطان المقيم في القسطنطينية.

١٦. مقالةٌ في ثلاث بحوث غير المتناهي.
١٧. مقالةٌ في أن كلَّ متصلٍ إنما ينقسم إلى منفصل.
١٨. مقالةٌ في الكلام في أن الأفعال خلق الله واكتساب العبد.
١٩. مقالةٌ في غير المتناهي.
٢٠. مقالةٌ في أن حرارة النار ليست جوهرًا للنار.
٢١. مقالةٌ في الرد على من قال بأن الأجسام مجبلة على طريق الجدل.
٢٢. مقالةٌ في أنه ليس شيء موجود غير متناه لا عددًا ولا عظمًا.
٢٣. مقالةٌ في تزييف قول القائلين بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ.
٢٤. مقالةٌ في تبين ضلالة من يعتقد أن علم الباري بأمر الممكنة قبل وجودها.
٢٥. مقالةٌ في أن الكم ليس فيه ضاد.
٢٦. مقالةٌ في أن القطر غير مشارك للضلع.
٢٧. مقالةٌ في أن الشخص اسم مشترك.
٢٨. مقالةٌ في الكلّ والأجزاء.
٢٩. مقالةٌ في الحاجة إلى معرفة ماهيات الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض في معرفة البرهان.
٣٠. مقالةٌ في الموجودات.
٣١. مقالةٌ في أن كلَّ متصلٍ إلى أشياء ينقسم دائمًا بغير نهاية.
٣٢. مقالةٌ في التوحيد.
٣٣. مقالةٌ في أن المقولات عشرة لا أقل ولا أكثر.
٣٤. مقالةٌ في أن العرض ليس جنسًا للتسع المقولات العرضية.
٣٥. مقالةٌ في تبين وجود الأمور العامة.
٣٦. مقالةٌ في قسمة الأجناس الستة التي لا يقسمها أرسطاطاليس إلى أجناسها المتوسطة وأنواعها وأشخاصها.



٣٧. مقالةٌ في البحوث العلمية الأربعة عن أصناف الموجود الثلاثة الإلهي والطبيعي والمنطقي.

٣٨. مقالةٌ في نهج السبيل إلى تحليل القياسات.

٣٩. مقالةٌ في أن الجسم جوهر وعرض<sup>١</sup>

٤٠. مقالةٌ في جواب إبراهيم بن عدي الكاتب.

٤١. مقالةٌ في صحّة اعتقاد النصارى في الباري عزّ وجلّ أنه جوهر واحد ذو ثلاث صفات.

٤٢. مقالةٌ في تمثيل النصارى الابن بالعاقل دون المعقول والروح بالمعقول دون العاقل وحل الشك في ذلك.

٤٣. مقالةٌ في تبيين الوجه الذي عليه يصح القول في الباري أنه جوهر واحد ذو خواص تسميها النصارى أقانيم.

٤٤. مقالةٌ في وجوب التأنس.

٤٥. مقالةٌ في غلط من يقول أن المسيح واحد بالعرض.

٤٦. مقالةٌ في إثبات صدق الإنجيل بالبرهان والدليل.

٤٧. مقالةٌ في سياسة النفس.

٤٨. مقالةٌ في تثبيت ضلالة النسطوري المعجب بكلام أبي الحسن المعروف برمق الذي قاله في نصره النسطوري.

٤٩. مقالةٌ عنوانها دليل عقلي في أن الله تعالى يعلم الجزئيات والكليات والفرق بين العلمين.

٥٠. تفسير الألف الصغرى من كتب أرسطو فيما بعد الطبيعة.

٥١. تفسير فصل من المقالة الثامنة من السماع الطبيعي لأرسطاطاليس.

١. كتبها بينه وبين إبراهيم عدي الكاتب حيث ناهضه فيها رأيه.

٥٢. تعليقٌ في بحث غير المتناهي.
٥٣. تعليقٌ في بيان ضلالة من يعتقد أن علم الباري بالأمر ممكن قبل وجودها.
٥٤. تعاليقٌ عدة عن أبي بشر متى في أمور جرت بينه وبين يحيى في المنطق.
٥٥. تعاليقٌ عدة في معان كثيرة.
٥٦. قولٌ في الجزء الذي لا يتجزأ.
٥٧. قولٌ في تفسير أشياء ذكرها عند ذكره فضل صناعة المنطق.
٥٨. قولٌ في أن النصارى يطلقون لفظ آلة.
٥٩. جواب الدرامي وأبي الحسن المتكلم عن المسألة في إبطال الممكن.
٦٠. جوابٌ عن مسألة جرت بين يدي علي بن عيسى بن الجراح في التثليث والتوحيد.
٦١. جوابٌ عن مسائل سأل عنها سائل في الأقانيم الثلاثة الإله الواحد.
٦٢. جوابٌ عن مسألة سأل عنها مخالفاً النصارى في نقضهم أوصاف المسيح من جهة التأنس.
٦٣. أجوبةٌ عن ثلاث مسائل سأل عنها صديقه أبو علي سنة ٣٥٨هـ.
٦٤. رسالةٌ كتبها لأبي بكر الأدمي العطار في ما تحقق من اعتقاد الحكماء بعد النظر والتحقيق.
٦٥. رسالةٌ في الرد على النسطورية ومن جملتها إحدى عشرة مسألة لهم وعليهم تليها إضافة أخرى في ذلك<sup>١</sup>.
٦٦. رسالةٌ في تهذيب الأخلاق<sup>٢</sup>.
٦٧. حل حجة من أراد أن يلزم اتحاد الكلمة بالإنسان في حال موته غير ممكن.
٦٨. ردٌّ على أبي يوسف يعقوب بن إسحق الكندي وهو دفاع عن عقيدة التثليث<sup>٣</sup>.

١. سأله وضع هذه الرسالة أبو القاسم (القاسم) حبيب وقيل (بن الحسن) ذكرها السمعاني في المكتبة الشرقية، مجلد ٢، ص ١٥٣-١٥٤. واستشهد بها البطريرك يوحنا الأنطاكي في رسالته إلى البطريرك خرسطودولس الإسكندري.

٢. ذكرها في السمعاني في المكتبة الشرقية، ج ٢، عدد ١٥٣، المخطوطات العربية في الفاتيكان.

٣. نشر في مجلة الشرق المسيحي، عدد ١، سنة ١٩٢٠، وطبع الأب بيريه ترجمته إلى الفرنسية في كتاب مقالات يحيى.

٦٩. إحتجاجٌ إلى محمّد بن هرون بن عيسى الورّاق في صحّة النصرانية وردّ اعتراض المسلمين على التثليث والتجسد وعدم تحريف الإنجيل في جزئين.  
٧٠. المسائل، وهو سبع عشرة مسألة<sup>١</sup>.

## كتاب تهذيب الأخلاق

لهذا الكتاب قيمةٌ لا تذكر، فهو من عيون مؤلفات أبي زكريا يحيى بن عدي حجة دين النصرانية. وأحد فلاسفة القرن العاشر الميلادي الذي انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وقد خلف هذا الفيلسوف زهاء مائة من المصنّفات والتفاسير والنقول والتعليق بين مختصر ومطول في المنطق والفلسفة واللاهوت والطب.

غير أن يد الغير قد لعبت بمعظمها ولم يبقَ منها الآن سوى بقية قليلة جدًّا، مبعثرة في بعض مكاتب أوروبا أخصّصها المكتبة الوطنية في باريس والمكتبة الفاتيكانية في روما. ومصنّفاتة كلّها من الأهمية بمكان ولا عجب في ذلك فقد كان إمام المتكلمين في زمانه ونابغة الموجودين من النقلة والمؤلّفين ولم ينشر حتى الآن بالطبع من مصنّفاتة الممتازة بجلال أسلوبها وجمال تأليفها سوى ثماني مقالات لاهوتية مع ترجمتها الفرنسية. وكتابه هذا الذي نشر مرارًا، مع صغر حجمه عبارة عن كنز حكمة وبحر أدب يغترف منه العاقل والجاهل وقد حوى من أنواع التعليم والإرشاد والنصح ما لا يستغنى عنه أرباب الطبقات في المجتمع الإنساني.

وفي وسع كلّ فردٍ مهما كانت حرفته في المجتمع أن يسترشد بها جاء فيه ويجنى منه في الوقت ذاته فوائد جمة وفقًا لسبيله في الحياة. أما إنشاء الكتاب فعلى جانب عظيم من البلاغة قد تجلّت فيه روح البيان والذي يتفحصه ويتبيّن مغازيه ومراميه يشعر وكأنه يقرأ كتابًا عصريًا لأحد فلاسفة الأخلاق الأخصائيين في عصرنا الحالي ويكاد المطلع لا يجد فيه مسألة تناقض ما قرره علماء الأخلاق في عصرنا مع ما بيننا وبين عصر المؤلف من البعد الشاسع.

١. نسخة في مكتبة دير الشرفة ببلبنان، والمخطوطة هذه تبدأ بالمسألة السابعة. ونسق الكتاب نسق سؤال وجواب بين المؤلف وبين عمار البصري.

طبع هذا الكتاب في مصر أربع طبعات، الطبعة الأولى نشرتها إدارة المطبعة القبطية الأهلية منسوبة إلى الفيلسوف أبي زكريا يحيى وذلك سنة ١٨٧٢م، وكان باكورة مطبوعاتها. وقد دعي الكتاب بتهذيب الأخلاق. وقد أعاد نشر هذه الطبعة للمرة الثانية جرجس فيلوثاوس عوض الكتاب القبطي سنة ١٩١٣، بمقدمة ذكر فيها ترجمة المؤلف باختصار مع أسماء مؤلفاته. ودعى بذات الاسم، وأما الطبعتين الثالثة والرابعة فقد نشرت في سنتي ١٩٠٧م و١٣٣٢هـ منسويتين إلى محيي الدين بن عربي. ودعى الكتاب في الثالثة باسم كتاب الأخلاق وفي الرابعة بـ (فلسفة الأخلاق).

كما طبع أيضًا في آخر كتاب «تحفة الزمان في أدب الفتیان» وكذلك طبع قسم كبير منه في كتاب «مقالات لمشاهير العرب على الجزء الثاني من علم الأدب» للأب شيخو اليسوعي سنة ١٨٨٧ في بيروت منسوبًا إلى صاحبه الحقيقي يحيى صاحب الترجمة.

ونشر الكتاب يوسف شلفون في بيروت أيضًا نبذة مقتضبة منه، ثم نشره أيضًا سنة ١٩٢٤، في دمشق العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي الأسبق منسوبًا للجاحظ مستندًا إلى مخطوطة قديمة دخلت حديثًا مكتبة المجمع العلمي وقد عدل بعدئذ عن نسبه للجاحظ، ونشره أيضًا العلامة الباحثة المطران سويريوس (البطريك) أفرام برصوم سنة ١٩٢٨، في شيكاغو في مجلة (اللغات السامية) الأميركية مستندًا إلى مخطوطة المكتبة المرقسية منسوبًا إلى يحيى ابن عدي. وقد امتازت هذه الطبعة الأخيرة عن شقيقاتها الطبعات السابقة بإبصارها عدد مصنّفات المؤلف عند ذكر ترجمته إلى السبعين، ونشره أخيرًا الأستاذ مراد فؤاد جقي رئيس تحرير مجلة «مجلة الحكمة» سنة ١٩٣٠، في المطبعة المرقسية بالقدس وقد قدمه بترجمة مختصرة عن المؤلف مع ذكر جدول بمؤلفاته.

تقدّم معنا القول أن في بعض الطبعات نسب الكتاب غلطًا إلى محيي الدين ابن عربي شيخ المتصوفة (توفي عام ١٢٤٠م) وإلى الجاحظ شيخ المعتزلة (توفي عام ٨٦٨م) وقد عدل العلامة كردّ على ناسب الكتاب إلى الجاحظ عن رأيه بتنبية السيد غريغوريوس الرابع

١. مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الرابع، ونشره تبعًا ١٩٣٠، والنص من ص ١٧ إلى ص ٦٠.

الحدّاد ورَجَّح نسبته إلى يحيى بن عدي استدلالاً بعبارة لا يقول مثلها الجاحظ أو ابن عربي وخاصة عند ذكر الرهبان والنسّاك.

كذلك رجّح المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشفوفسكي نسبة الكتاب إلى يحيى استناداً إلى رأي الأب أوغست بيريه الذي أثبت صحّة نسبة الكتاب إلى يحيى في مؤلفاته وقد نشر في مؤلفاته المذكور مختصر ترجمة تهذيب الأخلاق إلى الفرنسية إذ ذكر الأب بيريه في كتابه هذا أنه وجد في مكتبة الفاتيكان مجموعة خطية فيها كتب ليحيى بن عدي تقع في ١٦٥ صحيفة وفي كلّ صحيفة (١٢ سطرًا) قد حوت كتاب تهذيب الأخلاق من ص ١٤٧ إلى ص ١٥٣.

وقد صدر الكتاب بهذه الجملة (هذا كتاب تهذيب الأخلاق تأليف الحكيم الأجل الأفضل أبي زكريا يحيى بن عدي) وأكد في ص ١١٩، من مؤلّفه أن نسبة الكتاب إلى يحيى صحيحة لا ريب فيها لأن النسخ المخطوطة التي تنسب له كثيرة في الشام ومصر.

وذكر أيضًا ناشر الكتاب الطبعة الثالثة في مصر تجاهل مؤلفها الحقيقي يحيى ونسبها إلى ابن عربي عمدًا.

فكلّ ما تقدّم يؤكد لنا بصورة لا تترك مجالاً للريب في صحّة نسبته إلى يحيى بن عدي. توجد نسخ كثيرة مخطوطة لهذا الكتاب منبثة في مكاتب أوروبا والشام ومصر. نخص بالذكر منها:

- ١- نسخة مكتبة دير مار مرقس في القدس. وهي موسومة بالرقم ٢٧٢ كتبت سنة ١٢٧٣ م.
- ٢- نسخة في خزانة البطريرك غريغوريوس الحدّاد. ذكر فيها أن مؤلّفها يحيى بن عدي وهي مضبوطة بالشكل الكامل ويظن أنها نسخت في القرن التاسع عشر.
- ٣- نسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت منسوبة إلى يحيى صاحب بحثنا ذكرها العلامة الأب لويس شيخو في كتابه (المخطوطات العربية لكتبة النصرانية).
- ٤- نسخة في مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق وهي التي استند إليها السيّد العلامة محمّد كرد علي في نشره الكتاب في المجلّد الرابع من مجلّة المجمع

المذكور وقد كتبت بخط جميل وجاء في آخرها أن ناسخها يدعى يوسف معتوق الخواجا تاج الدين البعلبكي وقد فرغ من نسخها في أواخر جمادى الإخوة من شهور سنة ١٠٤٧هـ والنسخة على ما روى السيد كرد علي قليل تحريفها تغلب عليها الصحة. وفي كل صحيفة منها (١٤ سطرًا) وفي كل سطر نحو (١٠ كلمات).

٥- نسخة في مكتبة أحمد تيمور باشا في مصر منسوبة إلى يحيى بن عدي ذكرها العلامة عيسى إسكندر المعلوف في مقاله (من نفاث الخزانة التيمورية) المنشور في المجلد الثالث من مجلة المجمع العلمي العربي.

٦- نسخة الفاتيكان وقد ذكرها السمعاني في مكتبته الشرقية والأب بيري في كتابه (يحيى ابن عدي) وهي موسومة بالرقم (١٥٣) وقد صدرت بهذه العبارة (كتاب تهذيب الأخلاق الحكيم الأجل الأفضل أبي زكريا يحيى ابن عدي).

## فصل من كتاب تهذيب الأخلاق:

بين أيدينا النسخة التي نشرها الأستاذ مراد فؤاد جقي<sup>١</sup>، مقسمة إلى سبعة أبواب هي:

- ١- تمهيد.
- ٢- في تعريف الأخلاق.
- ٣- في العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق.
- ٤- في الأخلاق الحسنة.
- ٥- في الأخلاق الرديئة التي تعد نقائص ومعايب.
- ٦- في بعض الأخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة.
- ٧- أوصاف الإنسان التام.

١. كتاب تهذيب الأخلاق، مطبعة دير مار مرقس للسريان بالقدس.

وزيادة في التعريف بالكتاب، ولكيما يقف المطالع -ولو عن كُتب- على سمو تفكير يحيى صاحب الترجمة، وفهمه لفلسفة الأخلاق، وقوة سبكه للجمل بوضوح العبارة ومثانة الأسلوب، ورفعة الإنشاء، أجد من الضرورة أن نبسط أمامك عزيزي القارئ ولو فصلاً من هذا الكتاب الثمين وليكن الفصل الثاني الموسوم بـ«في تعريف الأخلاق».

يقول يحيى بن عدي (وهذا حين ابتدأنا بذكر الأخلاق فنقول: إن الخلق هو حال النفس به يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختبار. والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً. وفي بعض الناس لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد. وقد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمّد، كالشجاعة والحلم، والعفة، والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة. وكثير من الناس من يوجد فيهم ذلك، فمنهم من يصير إليه بالرياضة ومنهم من يبقى على عادته ويجري على سيرته).

أما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والتشرد. فإن هذه العادات غالبية على أكثر الناس، مالكة لهم، بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ويسلم من جميع العيوب ولكنهم يتفاضلون إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً والمبغضين لها كثيرون.

فأما المجبولون على الأخلاق السيئة. فأكثر الناس لأن الغالب على طبة الإنسان الشر، وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه، ولم يستعمل الفكر ولا التمييز والحياء، ولا التحفظ.

كان الغالب عليه أخلاق البهائم، وذلك لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم بالفكر والحياء غائب عنه. والغضب يستنفره والسكينة غير حاضرة له، والحرص والاحتشاد ديدنه، والشر لا يفارقه.

إذا فالناس مطبوعون على الأخلاق الرديئة، منقادون للشهوات الدنيئة ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن والسياسات المحمودة، وعظم الانتفاع بالملوك الحسنى السيرة ليردعوا الظالم عن ظلمه ويمنعوا الغاصب عن غضبه. ويعاقبوا الفاجر على فجوره، ويقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره.

فالأخلاق المكروهة في طباع الناس إلا أن يفهم من يتظاهر بها، وينقاد إليها، وهم أشرار الناس، وفيهم من يتنبه بجودة الفكر، وقوة التمييز على قبحها، فيأنف منها ويتصنع لاجتنابها، وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة وفيهم من لا يتنبه لذلك إلا أنه أذنبه عليه حس بقبحه فربما حمل نفسه على تركه. ومنهم إذا تنبه إلى ما فيه من النقائص أو نبه عليها وزرام العدول عنها تعذر عليه ذلك ولم يطاوعه طبعه.

ولو كان مؤثراً للعدول عنها مجتهداً في ذلك. وهذه الطائفة تحتاج إلى أن ترشد إلى طريق التدريب والتعمل للعادات المحمودة حتى تصير إليها على التدريج. ومن الناس من إذا ينتبه على الأخلاق الرديئة أو ينبه عليها فلا يجن إلى تجنبها ولا تسمح نفسه لمفارقتها بل يؤثر الإصرار عليها مع علمه برادعتها وقبحها وهذه الطائفة ليس إلى تهذيبها طريق إلا بالقهر والعقوبة إن لم يردعها التخويف والترهيب.

فأما الأخلاق المحمودة، فإنها وإن كانت في بعض الناس غريزة فليست في جميعهم، وأن الباقيين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرّب والرياضة ويترقّوا إليها بالاعتیاد والألف.

ومع هذه الحال فقد يكون في بعض الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة، وله الخلق الجميل وذلك يكون لرداءة جوهره وخبث عنصره. وهذه الطائفة من جملة الأشرار الذين لا يرجى صلاحهم وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة وينبو طبعه عن بعضها وليس بعد هذا شريراً بل تكون رتبته في الخير بحسب محاسنه.



\*\*\*\*\* الفصل الخامس عشر \*\*\*\*\*

أيوب الأبرش الرهاوي

## أيوب الأبرش الرهاوي

أيوب الأبرش أو أيوب الرهاوي عالمٌ جليل من صنف أولئك الذين لم تحصل لهم شهرة واسعة هم أهل لها. فقد كان حقًا من الأساطين التي قام عليها صرح حضارة عربية زاهرة في القرنين الثاني والثالث للهجرة/ الثامن والتاسع للميلاد وفي ما تلته من عصور.

### حياته وعصره:

ورد ذكره في المصادر السريانية والعربية باسم أيوب (ܐܝܘܒ) واختلف المؤلفون القدامى والمحدثون، حول شخصيته، فجاء خبره لدى المؤرخين العرب تحت اسم (أيوب الرهاوي) تارةً، وأخرى تحت اسم (أيوب الأبرش). وجمع بعضهم الاسمين في شخصٍ واحد، بينما ميّز غيرهم ذلك، فاعتبروا أيوب الرهاوي شخصًا، وأيوب الأبرش شخصًا آخر. ولا بدّ من تفصيل الأمر ليتسنى للمعنيين الوقوف على بيّنة الأمر، فيحسموا معنا قضية نظنها واحدة من عداد جملة قضايا حجت شمس علم أيوب وراء غيوم ملبّدة. فكان من المنسيين المهملين بينما يظل فضله كبيرًا.

أيضًا «أيوب المعروف بالأبرش» لكنه يذكر بعد ذلك بقليل «أيوب الرهاوي» ويقول ما نصّه: «ليس هو أيوب الأبرش المذكور أولًا».

وعلى الرغم من أننا نجلّ ابن أبي أُصَيْبَةَ ونعتبر سفره النفيس في تاريخ الطبّ والأطباء من أوسع ما سجّله القدامى في هذا الباب، إلّا أننا لا نوافق هذه المرّة على تمييزه أيوب الرهاوي عن أيوب الأبرش، فهو شخص واحد، وذلك استنادًا إلى شهادة من هم أقدم منه عهدًا، ولا سيّما حنين بن إسحق الذي عاش في فترةٍ قريبة جدًّا من فترة أيوب، بل عاصره. هذا بالإضافة إلى شهادات آخرين.

ويتبدد الشك فنقنع بتأكيد حنين، أن أيوب الرهاوي وأيوب الأبرش شخص واحد، من أبي أُصْبَيْعَة نفسه يجعل إبراهيم بن أيوب الأبرش معاصرًا للخليفة العباسي المعتز بالله (٨٦٦-٨٦٩م)، ويعني ذلك أنه معاصر لحنين بن إسحق لذا قال أولمان: بأن وفاة أيوب الرهاوي بعد سنة ٨٣٢م، مستشهدًا في ذلك بابن المطران، ويعتبر سيزكين علمنا هذا ممن عاشوا في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. وكان منكانا قد اقترح سنة ٧٦٠م لولادته، كما يذكر له حادثة جرت مع المأمون أفادنا بها ياقوت الحموي في معجم الأديباء، وذلك سنة ٨٣٢م، الأمر الذي يؤكد بأن وفاته ليست قبل التاريخ الأخير.

أما لكليرك فكان قد قال: بوفاة أيوب سنة ٧١٠م، لكنه تاريخ لا يستقيم إلا إذا ميّزنا بين أيوب الرهاوي وأيوب الأبرش، لكننا ميّالون إلى جمع الإثنين في شخص واحد، كما أسلفنا.

فتكون ولادة أيوب الرهاوي في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد، ووفاته في النصف الأول من القرن التاسع. يتفق ذلك مع قول ابن العبري: إنه اشتهر في أيام البطريك طيمثاوس الأول (٧٨٠-٨٢٣م).

وقد قال ليفن: إنه طبيب من أطباء الخليفة المأمون، وإنه كتب موسوعته الفلسفية العلمية في أوائل القرن التاسع، أو في أواسطه، مستندًا في ذلك إلى استنتاجات بينس. وقد حدا الأمر بفايزر أن يضع سنة ولادة أيوب وسنة وفاته بكل بساطة على النحو التالي ٧٦٩-٨٣٥م.

وأيوب معاصر لجبريل (جبرائيل) بن بختيشوع، إذ يذكر حنين أنه ترجم لجبريل مقالات من كتاب النبض وعلاج التشريح، كما أنه معاصر لابنه بختيشوع فقد ترجم له كتاب جالينس في المرة السوداء.

وهو قبل حنين بقليل كما يتضح من كل ما أوردنا من بينات.

### ثقافته:

لا ندري أين تلقى أيوب العلم، لا سيّما الطبّ والفلسفة. لكن يبدو بأن مدرسته الأولى تلك الرقعة التي كانت يومًا محطّ أنظار المتعلّمين ومركز إشعاع من المراكز الثقافية

المرموقة، نعني بها الرها (أورفا) ومنها اتخذ عالمنا كنيته. ومما لا ريب فيه أيضًا أن أيوب أكمل تعليمه، أو مارس علمه وعلم وألف على الأقل، في عاصمة الحضارة عهد ذاك، بغداد مدينة الرشيد والمأمون والعباسيين.

ولعلّه انتقل إليها بانتقال الخلافة العربية الإسلامية من سوريا إلى العراق وتشيد بغداد عام ٧٦٢م، واستقطاب هذه العاصمة الجديدة العديد من رجال العلم والأدب والحرف، نظرًا لتشجيع الخلفاء الحركة الثقافية بشكلٍ منقطع النظير، وعلى رأسهم الرشيد والمأمون.

فكان أيوب واحدًا من احتضنتهم الحركة الفكرية التي نشطت ببغداد في عصر الترجمة والحضارة، شأنه في ذلك شأن آل بختيشوع وآل ماسويه، وآل حنين، وغيرهم كثيرين من ناطقين بالسريانية كانوا ضليعين باليونانية والسريانية علاوة على العربية، ويعملون يدًا بيد مع الكثيرين من شتى الملل والنحل، في المدارس وبيوت الحكمة والبيهارستانات والقصور.

كان أيوب طبيبًا ومترجمًا. ولا يبدو أنه كان طبيبًا ماهرًا، إذ لا يرد ذكره في جملة الأطباء الذين اشتهروا بهذه الصناعة ويكتفي ابن أبي أصيبعة بالقول إنه «كان له نظر في صناعة الطب»، ولعل أمره لم يشتهر كثيرًا لأنه لم يكن طبيب بلاط.

يذكره حنين بن اسحق (المتوفى سنة ٨٧٣م) ٣٧ مرة في رسالته إلى علي بن يحيى (في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم)، ويتعرض للجهد العلمي الكبير الذي بذله أيوب في ترجمة كتب جالينوس، ويقول صريحًا: إنه «أيوب الرهاوي المعروف بالأبرش».

أما ابن النديم فيضعه في جملة «النقالة من اللغات إلى اللسان العربي» ويسمّيه: «أيوب الرهاوي».

لكن ابن أبي أصيبعة هذه المرّة من أوقع المؤلفين في الارتباك والحيرة، فهو يعقد كلمة قصيرة لأيوب «المعروف بالأبرش»، وذلك في «طبقات الأطباء السريانيين الذين

كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس». وكلمة متوسطة الحجم لإبراهيم بن أيوب الأبرش طيب إسماعيل أخي المعتز، والمعتز بالله، ووالدته قبيحة. ثم يذكره في باب «طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب للطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم، ويسميه هنا.

لكنه اشتهر بالترجمة، حتى قال صاحب عيون الأنباء إن «ما نقله في آخر عمره يضاهي نقل حنين»، لكنه كان «متوسط النقل»، وقد «نقل كتباً من مصنفات اليونانيين إلى السرياني وإلى العربي»، ويذكره علي بن رضوان في جملة النقلة من اليونانية إلى السريانية والعربية دون أن يوضح الأمر.

ولم يترك لنا الدهر أيّاً من آثار أيوب الترجمة إلى العربية، ولعل سبب ذلك عدم جودة نقوله العربية، فإن ابن أبي أصيبعة يفيدنا بأنه «ناقل جيد عالم باللغات، إلا أنه بالسريانية خير منه بالعربية».

بل نعرف من رسالة حنين بأن نقوله كانت ضعيفة، ولا يذكر الأخير له سوى نقول من اليونانية إلى السريانية، لكننا نقبل بملاحظة صاحب عيون الأنباء بأن «ما نقله في آخر عمره فهو أجود مما نقله قبل ذلك». وقد قسا حنين على أيوب فوضعه أكثر من مرة بضعيف النقل وردئه، ولئن انطبق قوله على النقول، فأيوب مؤلف له وزنه وأسلوبه جيد. نستدل على ذلك من كتابه الكبير في الطبيعيات الذي سماه (كتاب الكنوز). فهو موسوعة فلسفية علمية ذات قيمة يحق لها وحدها أن تضع صاحبها في عداد أكابر العلماء، يمكننا منها أن نستدل على علو أيوب وسعة علمه، كما أنها إشارة جديدة إلى المستوى الثقافي الرفيع الذي كان سائداً في بغداد في ذلك العصر.

وأيوب على ما يبدو، واحد من العلماء الذي يشكّلون حلقة الوصل بين الطب القديم الذي عاش أبداً في بلادنا وبين الحدث الجديد الذي ولد مع ازدهار العلوم في العصرين الأموي والعباسي وانتقال الكتب اليونانية والسريانية إلى العربية.

نأتي أولاً على ذكر نقوله ثم على تأليفه، ويعود الفضل في تسجيل نقوله إلى حنين وذلك في رسالة هذا الأخير إلى يحيى بن عدي.

نقل أيوب كتب جالينوس الطبيّة التالية:

١- كتاب جالينوس المسمّى (فينكس) وفيه ذكر كتبه، وهو مقالتان، تشتمل الأولى على كتبه الطبيّة، والثانية على كتب المنطق والفلسفة والبلاغة والنحو، والفهرس هذا غير كامل، كما يقول حنين، ويضيف في رسالته إلى يحيى بن عدي «وقد سبقني إلى ترجمته إلى السريانية، أيوب الرهاوي المعروف بالأبرش...».

٢- كتاب جالينوس في الصناعة الطبيّة، مقالة واحدة. يقول حنين: «وقد كان ترجم هذه المقالة، أعني الصناعة الطبيّة، عدة: منهم سرجس الراس عيني قبل أن يقوى في الترجمة» ومنهم ابن سهدا، ومنهم أيوب الرهاوي».

٣- كتاب جالينوس في النبض، وهو في ست عشرة مقالة، «وقد كان سرجيوس ترجم من هذا الكتاب إلى السريانية سبع مقالات، من كلّ واحد من الثلاثة الأجزاء الأولى مقالة مقالة... وأربع مقالات الجزء الأخير... ثم أن أيوب الرهاوي ترجم لجبريل بن بختيشوع المقالات السبع الباقية».

٤- كتاب جالينوس في علاج التشريح وهو خمس عشرة مقالة. وقد كان ترجم هذا الكتاب إلى السرياني أيوب الرهاوي لجبريل بن بختيشوع.

٥- كتاب جالينوس في ما وقع من الاختلاف في التشريح، وهو مقالتان «وكان ترجم هذا الكتاب أيوب الرهاوي فأعياني إصلاحه، فأعدت ترجمته ليوحنا بن ماسويه إلى السريانية».

٦- كتاب جالينوس في تشريح الحيوان الميت، وهو مقالة واحدة «وقد كان أيوب ترجمه، وأعدت ترجمته مع الكتاب الذي قبله إلى السرياني».

٧- كتاب جالينوس في تشريح الحيوان الحي، وهو مقالتان، «وترجم أيوب الرهاوي أيضًا هذا الكتاب، وأعدت أنا ترجمته مع الكتاب الذي قبله إلى السريانية».

٨- كتاب جالينوس في علم أبقراط بالتشريح، وهو خمس مقالات، «وقد كان ترجم هذا الكتاب إلى السريانية أيوب، ثم ترجمته أنا مع الكتاب التي ذكرتها قبله».

٩- كتاب جالينوس في تشريح الرحم، مقالة واحدة صغيرة. «وقد كان ترجم هذا الكتاب أيوب، ثم ترجمته أنا مع سائر ما ترجمته من كتب التشريح إلى السريانية».

١٠- كتاب جالينوس في تشريح العين، مقالة واحدة، ولعله لروفس أولمن هو دونه «وقد كان أيوب ترجم هذا الكتاب، ثم تلخصته بالمساعدة ليوحنّا بن ماسويه».

١١- كتاب جالينوس في علل التنفس، ومقالتان، «وكان أيوب ترجمه ترجمة لا تفهم، وترجمه أيضًا إسطفان إلى العربية لمحمّد بن موسى، وسألني محمّد فيه قبل الذي سألني في الكتاب الذي قبله (في حركة الصدر والرئة) وأمر إسطفان بمقابلتي، فأصلحت السرياني بكلام مفهوم مستقيم لا ينكر منه شيء لأنني أحببت أن أتخذ نسخة لولدي، والعربي أيضًا كمثلته على أنه قد كان في الأصل أصلح من السرياني بكثير».

١٢- كتاب جالينوس في قوى الأدوية المسهّلة، وهو مقالة واحدة «ترجم هذه المقالة إلى السريانية أيوب الرهاوي، ونسختها عندي باليونانية وقد ترجمها إلى السريانية».

١٣- كتاب جالينوس في آراء أبقراط وأفلاطون، كتبه في عشر مقالات «وكان ترجم هذا الكتاب إلى السريانية أيوب، ولم يترجمه إلى هذه الغاية أحد غيره... ثم ترجمته من بعد إلى السريانية».

١٤- كتاب جالينوس في الحركات المعتاصة المجهولة، مقالة واحدة، «ترجمها أيوب... ثم إنني ترجمتها بعد إلى السريانية».

١٥- كتاب جالينوس في سوء المزاج المختلف، مقالة واحدة، «وقد ترجمه أيوب... ثم ترجمته أنا إلى العربية».

- ١٦- كتاب جالينوس في الأدوية المفردة، في إحدى عشرة مقالة، «وقد كان ترجم الجزء الأول، وهو خمس مقالات إلى السريانية يوسف الخوري ترجمة خبيثة رديئة، ثم ترجمه بعد أيوب أصلح مما ترجمه يوسف ولم يتخلصه على ما ينبغي، ثم ترجمته إلى السريانية لسلمويه».
- ١٧- كتاب جالينوس في أوقات الأمراض، مقالة واحدة، «وقد ترجم هذا الكتاب أيوب... ثم اني ترجمته إلى السريانية».
- ١٨- كتاب جالينوس في الأورام، مقالة واحدة، «وأحسب أيوب كان ترجمه».
- ١٩- كتاب جالينوس في الأسباب الباردة وهي الأول التي تحدث من خارج البدن، مقالة واحدة، «وقد ترجمه أيوب».
- ٢٠- كتاب جالينوس في الأسباب المتصلة بالمرض، مقالة واحدة... «وقصتها مثل قصة المقالة التي قبلها» وليس واضحًا ما يقتصده حين بقوله هذا.
- ٢١- كتاب جالينوس في المرة السوداء، مقالة واحدة. «وقد كان ترجمه أيوب منذ قريب لبختيشوع بن جبريل».
- ٢٢- كتاب جالينوس في رداءة التنفس، ثلاث مقالات، «وكان ترجمه إلى السريانية أيوب، وقابلت به أنا اليوناني وأصلحته لولدي وترجمته أنا إلى العربية».
- ٢٣- كتاب جالينوس في نواذر تقدمة المعرفة (لأبقراط)، مقالة واحدة، «وترجمته إلى السريانية أيوب... ثم اني ترجمته إلى السريانية».
- ٢٤- كتاب جالينوس في الذبول، مقالة واحدة، «وأظن أن أيوب قد ترجمه... ثم اني ترجمته إلى السريانية».
- ٢٥- كتاب جالينوس في قوى الأغذية، ثلاث مقالات، «وقد كان ترجمه سرجيوس ثم أيوب وترجمته أنا لسلمويه في المتقدم من نسخه...».
- ٢٦- كتاب جالينوس في الترياق إلى فيسن، مقالة واحدة. «وقد ترجمه أيوب إلى السريانية».



٢٧- تفسير جالينوس لكتاب الفصول (لأبقراط)، سبع مقالات، «وقد كان ترجمه أيوب ترجمة رديئة ورام جبريل بن بختيشوع اصلاحه فزاده فسادًا، فقابلت به اليوناني وأصلحته اصلاحًا شبيهاً بالترجمة».

٢٨- تفسير جالينوس لكتاب تدبير الأمراض الحادة (لأبقراط) خمس مقالات «وبلغني ان أيوب ترجمه، وقد ترجمت أنا هذا الكتاب كله».

٢٩- تفسير جالينوس لكتاب جراحات الرأس (لأبقراط)، مقالة واحدة، وأحسب أيوب قد ترجمه، ونسخته اليونانية في كتيبي، وترجمته أنا إلى السريانية».

٣٠- تفسير جالينوس لكتاب أيديميا (أي الأمراض الوافدة لأبقراط)، «أما المقالة الأولى من هذا الكتاب ففسرها (جالينوس) في ثلاث مقالات وترجمها أيوب إلى السريانية، وترجمتها أنا إلى العربية... وأما المقالة الثانية ففسرها أيضًا في ثلاث مقالات، وترجمها أيوب إلى السريانية وترجمتها أنا إلى العربية... فأما المقالة السادسة ففسرها في ثماني مقالات، وقد ترجمها أيوب إلى السريانية».

٣١- كتاب جالينوس في أن الطبيب الفاضل فيلسوف، مقالة واحدة، وقد ترجمه أيوب إلى السريانية، ثم ترجمته أنا من بعد إلى السريانية لولدي وإلى العربية.

٣٢- كتاب جالينوس في ما يعتقد رأيًا، مقالة واحدة «وقد ترجمه أيوب إلى السريانية، وترجمته إلى السريانية لاسحق ابني».

٣٣- كتاب جالينوس في البرهان، جعله في خمس عشرة مقالة، «وترجم له أيوب ما وجد. وأما أنا فلم تستطع نفسي بترجمة شيء منها...».

٣٤- كتاب جالينوس في الأخلاق، أربع مقالات، «وقد ترجم هذا الكتاب إلى السريانية رجل من الصابئين يقال له منصور بن اثناس، وذكروا ان أيوب الرهاوي أيضًا ترجمه. وأما ما ترجمه منصور فقد رأيتُه وما رضيتُه، وأما ما ذكروا ان أيوب ترجمه فما رأيتُه، ولست أعلم أيضًا هل ترجم شيئًا أم لا».

٣٥- كتاب جالينوس في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن، مقالة واحدة، «وقد كان ترجمه أيوب إلى السريانية ثم ترجمته أنا إلى السريانية لسلمويه».

أما ما وضعه أيوب نفسه من مؤلفات فكما يلي:

٣٦- كتاب الكنوز بالسريانية (كثاوا دسيبانا) موسوعة في الفلسفة والعلوم الطبيعية، ألقها في بغداد حوالي سنة ٨١٧م، وقد نشره منكانا في كمبردج بترجمة انكليزية عام ١٩٣٥. وستناول هذا السفر المهم مفصلاً.

٣٧- كتاب في داء الكلب بالسريانية (كلبا بقرا). ورد ذكره في كتاب الكنوز<sup>١</sup> وهو محفوظ في مخطوطة كتاب الكنوز عيّنهما، منكانا رقم ٢٥٥٩ وما يزال غير منشور ونعمل على تحقيقه ونقله إلى العربية لغرض نشره قريباً.

٣٨- كتاب في البول بالسريانية (تفشورتا) ورد ذكره لدى أبي الحسن الطبري في رسالته في ذكر القارورة (مخطوطة دانيشكاه ٨، ١٠٥، رقم ١٥٣٥)<sup>٢</sup>.

ويذكره أيوب نفسه في كتاب الكنوز<sup>٤</sup> وفي كتابه السابق<sup>٥</sup>.

٣٩- كتاب في علل الحميات بالسريانية (عللاثا دشتوانا) يذكره في كتاب الكنوز عدة مرات<sup>٦</sup>.

٤٠- كتاب في النفس بالسريانية (نفشا) يذكره في كتاب الكنوز<sup>٧</sup>.

١. فييه، جان موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، دار المشرق، بيروت ١٩٩٠م، ص ٧٣.

٢. فييه، المرجع ذاته، ص ١٢٤، ج ٥٦.

٣. المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٠٨.

٤. عقيقي، الدكتور أبو العلاء، التصرف-الثروة الروحية في الإسلام، دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٦٣م، ص ٨٢.

٥. الطواسين، ص ١٣٤.

٦. الطواسين، ص ١٦٥، ١٧٥، نقلاً عن الكتاب والمرجع المذكورين، ص ٨٣.

٧. ابن القيم الجوزية، المرجع المذكور، ص ٢٥٥-٢٢٦.

٤١- كتاب في علّة حدوث الكون من العناصر بالسريانية، وعد أيوب بتدبيجه ولا نعلم ان فعل أم لا<sup>١</sup>.

٤٢- كتاب في الحواس الخمس بالسريانية (حمشا رغشي) ورد ذكره في كتاب الكنوز<sup>٢</sup>.

٤٣- كتاب في الجواهر بالسريانية (أوسياس، كما باليونانية) ورد ذكره في كتاب الكنوز أيضًا<sup>٣</sup>.

٤٤- كتاب في الإيوان بالسريانية (هيانوثا) مذكور في كتاب الكنوز<sup>٤</sup>.

٤٥- كتاب البراهين العشرة بالسريانية (عسرا سولوكيسمي) وموضوعها لاهوتي، يذكره أيوب في كتاب الكنوز كذلك<sup>٥</sup>.

١- ولم يبق لنا الدهر على مصنفات أيوب هذه ما خلا (كتاب الكنوز) المطبوع، وكتاب (داء الكلب) المخطوط، غير ان معظم آرائه معروضة ولو بإيجاز في كتابه الموسوعي الجدير بالاهتمام.

## كتاب الكنوز

يقترح منكانا، ناشر الكتاب ومترجمه إلى الإنكليزية، سنة ٨١٧م، كتاريخ لتدبيج هذه الموسوعة الفلسفية العلمية من قبل أيوب الرهاوي أو الأبرش، وذلك بسبب تطرق المؤلف إلى ذكر اضطرابات وقلقل حدثت في بغداد أيام وضع هذا السفر، وذلك في الباب السادس عشر من المقالة الثالثة، ويشخص هذه الأحداث بالرجوع إلى تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير<sup>٦</sup>، ويدعم رأيه بالقول إن أيوب لا علم له بترجمة المصنفات الفلكية لبطليمس، التي

١. اللزوميات، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م، ج ٢، ص ٤٥٧.

٢. المرجع ذاته، ص ٣٤٣-٣٤٤، ح ٨.

٣. شيخو، شعراء النصرانية، ص ٢٥٤-٢٥٦.

٤. شعراء النصرانية بعد الإسلام، ج ٣، ص ٣١١-٣٩٤.

٥. إذا رغبت في المزيد من الأبيات الشعرية فراجع: شعراء النصرانية بعد الإسلام، ٣: ٣١٩-٣٣٤. وفيات الأعيان، ٥: ١١٩-١٢٤، وعبون الأنبياء، ج ١، ص ٢٦٢-٢٧٦.

٦. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ٢، ص ١١٧.

تمت ترجمتها سنة ٨٢٨م. ومهما يكن من أمر، فإن كتاب الكنوز يرجع إلى الثلث الأول من القرن التاسع الميلادي.

وكتاب الكنوز موسوعة علمية فلسفية ضخمة، جاء في ديباجتها أنها من وضع فيلسوف الروح والجسد أيوب الرهاوي في معرفة الموجودات وسبب انقسامها إلى أجناس وأنواع وأفراد، وتكوّن هذا العالم من العناصر. وفي طبيعة الأفعال ويقسم المؤلف موسوعته إلى ست مقالات طويلة، والمقالات إلى أبواب أو فصول.

تتكوّن المقالة الأولى من ٣٣ بابًا وتبحث في علل العناصر البسيطة والمركّبة، وكلّ ما هو موجود أو يقع تحت الحواس أو يدرك بالفكر والعناصر الأربعة البسيطة، والأخلاق، وتركيب الأجسام، والعظام والأعصاب والأوردة والشرين والمرّة السرداء والمرّة الصفراء، وحركة الأحياء، كما في الرأس والأرجل والأصابع والشعر والدغدغة.

وتشتمل المقالة الثانية على ٢٣ بابًا في الحرارة والبرودة، والدغدغة والنوم، والذكور والإناث والشعر واللحي، والرحم والحيض، والأسنان، وطول الأجسام، وقصرها وألوانها، وأنواع الحيوانات واختلافها وأجناسها، واختلاف الإنسان عن الحيوان، وأنواع الحيوانات البرية والبحرية والجوية، والأذنان والقرون، واختلاف أقداء، والطيور والأسماك.

وتضمّ المقالة الثالثة ٢٠ بابًا في أجناس الطعوم، والألوان والبصر، والشم، والسمع، والنطق، والروح، والنفس، واللمس، والسبب الذي من أجله كانت الحواس خمسًا، واللون والصوت والطعم، ولم الروائح ليست جواهر، كما في حاسة الطعوم والروائح والأصوات، وتفنيدي رأي القائلين: بنظرية أخرى في الإعراض والجواهر.

وتتألف المقالة الرابعة من ١٨ بابًا في المعادن كالذهب والفضة، والنحاس والحديد والقصدير، والكبريت، والزرنيخ والقيرو والشب، كما في الجبال والصخور والسهول، والبلدان الشمالية والجنوبية، والعيون والثلج، وفصول السنة، وحركة الأرض والرياح والبحار والحمامات.

وتحتضن المقالة الخامسة ٢٦ بابًا في السُحب والأمطار، والثلج والبرد، والرعد والبرق، وقوس قزح، والزوابع والأعاصير، والصواعق والشهب، والمجرّة، وهالة الشمس والقمر، وطبيعة الشمس والكواكب وحدوثها من العناصر خارجًا عن عالمنا، وحركة

عالمنا والعالم العلوي، والأبراج الإثني عشر، والكواكب السيّارة السبعة، ونور الكواكب، وموقعها، وحركتها وكبر الشمس، واستمداد القمر نوره من الشمس، ولون السماء، وعدم عاقلية الأجسام السماوية.

أما المقالة السادسة والأخيرة ففيها ١١ بابًا في الملائكة ومراتبها، ونهاية العالم، وتجدد العناصر وتغيّرها، والقيامة وكيفيتها، وانحلال الجسم إلى العناصر، واختلاف عالمنا هذا عن العالم الآتي، كما في وجود ملكوت وجحيم، وعدم وجود نهاية العالم الآتي، ولم يجعل الله حدًا لعالمنا هذا بينما لا حدّ للعالم الآخر.

وقد درس قضية مصادر هذا الكتاب الموسوعي منكانا بشكلٍ مقتضب في مقدمته<sup>١</sup>، كما أنه يشير أحيانًا إلى بعض كتب أبقراط وجالينوس وأرسطو وفردوس الحكمة لعلي بن ربن، ثم قام بدراسة هذه القضية المهمة كل من ليفين<sup>٢</sup> وفايزر<sup>٣</sup>.

يستشهد أيوب صراحة بأبقراط مرّة واحدة، وبجالينوس مرّتين، ويذكر أرسطو عدة مرّات، وينوّه بعلماء ومفكرين آخرين سبقوه، ويشنّ حربًا شعواء على معاصرين تحاملوا -حسبه- على نظرية العناصر الأربعة الثابتة. لكننا نعرف بأن أيوب مطلع على كتب أبقراط وجالينوس، كما يتّضح من الكتب التي قام بترجمتها. وهو مطلع بما فيه الكفاية على كتب أرسطو الصحيحة أو المنسوبة كالأثار العلوية، والطبيعة، والعالم، والنفس، والشباب والشيخوخة، والحس والنوم والسهر، والسماء، والولادة والزوال، وما بعد الطبيعة.

ويتفق مؤلّفنا عادة مع آراء أرسطو وجالينوس وغيرهما. كما ينحو منحى خاصًا في أمورٍ تتعارض وإيمانه بالله الواحد، كما بشأن الهيولي وقدمها، والعناصر السماوية الخمسة، وتأليه الكواكب، وأزلية حركة العناصر الأولى، وطبيعة الأثير...

ويرى ليفين -مستندًا إلى ما قاله بينس (Pines)- مطابقة آراء لآراء إبراهيم النّظام من المعتزلة (المتوفى حوالي سنة ٨٤٠م)، لا سيّما في ما يخص خلق العالم ودحضه آراء الفلاسفة

١. عيون الأنباء، ص ٢١٠.

٢. عيون الأنباء، ص ٢٠٠-٢٠٥.

٣. دعوة الأطباء، ص ٦٥-٦٦.

اليونان الذين قالوا بقدم العالم. ولا عجب فإن أيوب ينوّه في الأبواب ١٦-٢٠ من المقالة الثالثة إلى آراء معاصرين له. ويظل ثمة فارق واضح بين الإثنين قائم في أن أيوب بمثل النزعة الأفلاطونية المحدثة التي عمّدها مؤمنون مسيحيون، بينما يمثل إبراهيم النظام جانباً من الفكر الإسلامي المتطور<sup>١</sup>.

ويبدو أن أيوب اجتمع بالنظام وأتباعه وناقش بعض آرائه مع جماعة المعتزلة دون الرجوع إلى كتبهم<sup>٢</sup>.

ويأخذ ليفن أيضاً برأي بول كراوس<sup>٣</sup> القائل بأن مواضيع أيوب تنطبق تماماً ومواضيع بليناس الحكيم المعروضة في كتابه المنسوب إليه والمعروف بعنوان (سرّ الخليفة)<sup>٤</sup>، ويقدم كراوس نماذج تبيّن مدى التطابق الكبير<sup>٥</sup>، ومنها تمييز الذكور عن الإناث (الباب ١٤ من المقالة ٢).

ويشير ليفن أيضاً إلى التوافق الحاصل بين أفكار أيوب وأفكار بركليس في كتابه (المسائل الطبيعية) ترجمة إسحق بن حنين<sup>٦</sup>، بينما اختلف أيوب عن بركليس في قضية قدم العالم<sup>٧</sup>. ولعل كتاب بركليس هو ما ذكره ابن النديم بعنوان (العشر مسايل)<sup>٨</sup> ولعل أيوب استعان بترجمة سريانية تسبق العربية.

١. وهذا ما جرى لابن صفيّة الطيّيب المسلم، لغده وحياتته، فقد سعى بالاتفاق مع قطب الدين قايباز إلى مقتل الخليفة المستنجد بالله العباسي واستخلاف ابنه المستضيئ (عيون الأنباء، ص ٣٤٧) وكان الخليفة يعلم ما جرى لوالده على يديه ومن استمراره في سوء الأمانة، فاستحضره ليلاً وقال له: يا حكيم عندي من أكره رؤيته وأريد إبعاده بوجهٍ لطيف غير شفيع. فقال له: ترتب له شرية قوية بالغة بشرتها، وقد حصل الخلاص منه كما تؤثر، فمضى وركب شربة كما وصف وأحضرها ليلاً ودخل إلى الخليفة، ففتحها ونظر إليها وقال: يا حكيم استنف هذه الشربة حتى نجرب فعلها. فتلوى من ذلك وقال: الله الله يا مولانا في؟ فقال له: الطيب متى تعدى حدّه وتجاوز طوره وقع في مثل هذا وليس لك من هذا خلاص إلا السيف. فاشتفت الحكيم الشربة التي ركبها. ثم خرج من دار الخليفة وكتب إلى الأمير قطب الدين يعلمه بالخال ويقول له: والانتقال من أمري إلى أمركم، ثم مات. أما قطب الدين فقد نهبت أمواله وهرب من بغداد ومضى إلى الشام ليقرب من الملك صلاح الدين فرفضه. وفي طريق عودته إلى الموصل مرض، ثم دخل الموصل ومات فيها (عيون الأنباء، ص ٣٤٧-٣٤٨).

٢. تاريخ الحكماء، ص ١٧٢. عيون الأنباء، ص ٢٦٤-٢٧١.

٣. بروان، الطبّ العربي، ص ٢٥.

٤. صاب: مرّ.

٥. وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٤.

٦. عيون الأنباء، ص ٦٥٧.

٧. عيون الأنباء، ص ١٩٨-٢٠٠. تاريخ الحكماء، ص ١٤٢-١٤٣.

٨. راجع مقالة الأب يوسف حبي في مجلة بين النهرين، الموصل، ص ٢٠٤-٢٢٢.

وأيوب كجابر بن حيّان يعتمد على كتاب تيموس (في طبيعة الإنسان).

وبشأن النوم يتفق رأي أيوب (الباب ٣ من المقالة ٢)، مع ما جاء لدى أرسطو في كتابه (في السهر والنوم)، وبشأن الشعر ونموه في اللحي لدى الذكور (البابين ٥ و٦ من المقالة ٢)، مع ما لدى أرسطو (في طول الحباء وقصرها، الفصل ١٤)، وبشأن حركة القلب مع ما قاله جالينوس في كتابه (منافع الأعضاء، الفصل ٧)، وبشأن تمييز الذكور عن الإناث (الباب ١٤ من المقالة ٢) مع تعليم أبقراط إلى غير ذلك من اتفاق آراء وانسجام تعليم.

ولا غضاضة في ذلك، فقد كان الكثير من هذه التعاليم والآراء إراثًا حضاريًا شائعًا، ولم يدع أيوب ابتكارها أو تسجيلها للمرة الأولى، بل نراه على العكس يعيد إلى الأذهان بإلحاح ذكر من سبقوه من علماء ومفكرين أفاضل، بينما يلوم بعض المتحذلقين ممن خرجوا على تعاليم سائدة لم يكن له أن يرى عكسها يومذاك، كما يصحح سابقه في ما يتعارض مع مبادئه.

ليس أيوب بناقلٍ وناسخٍ وجامعٍ وحسب، إنما هو مؤلف بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ، لذا كان عمله جهدًا شخصيًا يستحق عليه كل التقدير ولا بدّ أن يذكر إلى الأبد في جملة الذين صبّوا تراثًا علميًا وفكريًا مبيّنًا في لها وزنها ونفعها.

وقد قال كراوس بأن «أيوب صاحب أصالة لا تنكر» فنحن نرى مؤلفنا يصرح في موضع ما (الباب الثامن من المقالة الثانية) أنه لم يقرأ ما سيذكره في أي من الكتب القديمة، وهو الأول الذي استخدم أسلوبًا استدلاليًا مبيّنًا على الظواهر الطبيعية بشأن أصل الكون، كما بشأن أصل الأجسام، وتبدو سعة تفكيره علاوة على سعة اطلاعه، من مناقشة الرأي الفاسد القائل إن الحواس والألوان جواهر، بينما حسية أعراض وكذلك من طريقة معالجته الموضوع في الفصول الأخيرة من المقالة الثالثة وتفنيده آراء بعض المتحذلقين، هذا بالإضافة إلى قناعاته بشأن حدوث العالم وقيامه الموتى والعالم الآخر في المقالة الأخيرة.

ولغة أيوب السريانية صعبة، لكنها بليغة وجميلة، فقد تتعبك قراءته، لكنك متى أمعنت القراءة استطبتها، إذ أنها تقرّب إلى النظم أحيانًا.

وقد نقل الرازي في كتاب الحاوي عن أيوب بعربيةٍ تؤكد لنا شيئاً من آثار الرهاوي العربية وذلك في الأجزاء: ١٥/٧٢، ١٩/٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٧، ٦٩، ١٠٧.

ولا ينبغي أن نغفل ذكر بعض التشويش الحاصل في تنسيق فصول أو أبواب من هذه الموسوعة المحكمة التركيب ككلّ، والمفكّكة أحياناً، أو المتضمنة شيئاً من التكرار أو النقصان. وهي هنات لا تجيز لنا أن ننقص من قيمة عمل أيوب العظيم هذا، فهو مفكر وعالم جليل.

#### تنبية:

إقتبسنا الموضوع وبتصرّف عن مقالة الأب الدكتور المرحوم يوسف حبّبي (مجلة-بين النهرين) الموصل، (ص ٢٠٤-٢٢٢).



## كلمةٌ أخيرة

بحمد الله وعونه أنجزنا التجوّل في غابة الأعلام السريان التي زرعتها وجمعناها بين دفتي هذا الكتاب المتواضع: أدباء وشعراء، مؤلّفون ومترجمون، أطباء وحكّماء وكحّالون، علماء الفلك والفلاسفة، مع النقلة والنسّاحون... وغيرهم من عظماء الحقول الإنسانية الذين تركوا لنا إرثاً خالدًا في ميادين المعرفة القديمة وتجاوزوها إلى مراقي الأمم الأولى كاليونان والرومان والفرس والهنود.

وقد أوردنا على الأسطر والطرّوس جيشًا من الأسماء، ابتداءً بالطبيب جيورجيس عميد آل بختيشوع وأولاده، ومرورًا بحنين بن إسحق وابنه إسحق، وابن أخته حبّيش بن الأعسم، إضافة إلى ابن جزلة، وابن ماسويه مع ابن الطيب، وابن قرّة وانتهاءً بابن التلميذ، وقسطا بن لوقا، ويحيى بن عدي...

وما عملنا هذا، إلاّ إضاءة جديدة بعد أن سلّطنا على المفكّرين السريان بمجهر الحق والحقيقة لإبراز ما تركوه في ميدان المعرفة الإنسانية التي خدموها بكلّ إخلاص وإيمان ومثابرة، فاستحقوا عن جدارة لقب «أعمدة الحضارة الإسلامية» و«أساطين التقدّم والرقّي» في سلّم الخدمات التي قدّموها لأبناء جلدتهم على اختلاف مذاهبهم وأديانهم دون تمييز، لأنهم كانوا متمسّكين بخدمة الله في خدمة الإنسان المحتاج إليهم دون تمتّع أو اعتذار.

عملنا هذا، يأتي تاجًا لم تقدمناه سابقًا من بحوث ودراسات حول أجدادنا السريان الميامين. وما زالوا، وما زلنا بهذا الميدان الجريء كشفًا للحق والحقيقة. فما خفي إلاّ سيظهر، وما مكتوم إلاّ سيعلن، ونعتذر من أجدادنا السريان الذين عملوا وفعّلوا بالإيمان والرجاء والمحبة. ونحن على خطاهم ماضون بالصبر والثبات والإقدام. رجاؤنا أن نبني إلى جانب من سبقونا في بناء الحضارة البشرية على مدى عشرين قرنًا. والله وليّ التوفيق.

دير الصليب للراهبات/ برمانا

٣ آب ٢٠١٧

## مصادر الحديث والفقہ والأحكام

### أولاً: المخطوطات

إبن زير (أبي محمد عبدالله بن أحمد بن زير القاضي):

١- شروط النصارى (الشروط العمرية على أهل الذمة) - دار الكتب/ المكتبة التيمورية برقم ٢٢٥٢ تاريخ. تاريخ النسخ سنة ٨٥٩ هـ/ ١٤٥٤ م. إبن المخلطة (عزيرالدين بن محمد بن محمد بن محيي بن المخلطة) وُلد عام ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١ م، وكان موجودًا عام ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٠ م.

٢- العزيزي المحلي - دار الكتب/ المكتبة التيمورية برقم ٦٨٢ أدب. إبن النقّاش (شمس الدين أبي أمانة محمد بن علي بن عبدالواحد المغربي النقّاش المصري).

٣- المذمة في استعمال أهل الذمة - دار الكتب المصرية برقم ١٦٩٣ فقه شافعي. إبن شينايا (إيليا - مطران نصيبين).

٤- كتاب المجالس السبعة - من مقتنياتنا بخزانتنا. الخونكي (الشيخ محمد بن عمر) (من علماء القرن الحادي عشر).

٥- مجموع - دار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية برقم ٥٤٤ أدب. الرازي (الشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان) (ت ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م).

٦- كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية - مكتبة كلية الآداب/ جامعة عين شمس. صبري (أيوب صبر عبدالله) (ت ١٣٣٠ هـ/ ١٩١١ م).

٧- رسالة في الردّ على النصارى - دار الكتب المصرية/ المكتبة التيمورية برقم ١٠٥ عقائد. الحنفي (كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الغزّي).

٨- جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة - دار الكتب المصرية/ المكتبة التيمورية برقم ٣٢٤ عقائد، ألفه عام ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧ م، باسم السلطان عبدالحميد. الحنبلي (الشيخ

عبدالله محمد بن الشيخ مفلح المقدسي) (ت عام ٧٦٣هـ / ١٣٦١م).

٩- الآداب الشرعية والمصالح المرعية - دار الكتب المصرية/ المكتبة التيمورية برقم ٢٢٢  
أخلاق. مجهول (مؤلف).

١٠- مرسوم بعض الملوك الصلاحية في إلزام أهل الذمة بالشروط العمرية-معهد  
المخطوطات في الجامعة العربية، تاريخ النسخ سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م.

### ثانيًا: الكتب المطبوعة:

١- إين إدريس الحنبلي (منصور بن ادريس) (١٠٥١هـ / ١٦٤١م).

٢- كشاف القناع عن متن الإقناع - المطبعة الشرقية بمصر ١٣١٩هـ / ١٩٠١م. إين آدم  
(يحيى القرشي) (ت ٢٠٣هـ / ٨١٨م).

٣- الخراج - المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م. إين حزم (أبي محمد علي  
الأندلسي الظاهري) (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م).

٤- المحلى - المطبعة المنيرية - القاهرة (١٣٥٠هـ / ١٩٣١م). إين حنبل (الإمام أحمد بن  
محمد بن حنبل من هلال بن أسد الشيباني الروزي البغدادي) (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م).

٥- سند الإمام - المطبعة اليمنية - القاهرة بمصر (١٣١٣هـ / ١٨٩٥م). إين البديع (الإمام  
عبدالرحمن بن علي المعروف بابن الربيع الشيباني الزبيدي الشافعي) (ت ٩٤٤هـ /  
١٥٣٧م).

٦- تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول - المطبعة السلفية بمصر  
١٣٤٦هـ. إين عابدين (محمد أمين الشهير بابن عابدين) (٢٥٢هـ / ٨٦٦م).

٧- ردُّ المختار على الدرِّ المختار - شرح تنوير الأبصار - المطبعة العثمانية ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م.  
إين قدامه (أبي محمد عبدالله بن أحمد المقدسي) (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م).

٨- المغني - الطبعة الثالثة، طبع إدارة المختار، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م. إين قيم الجوزية  
(شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر) (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م).

٩- أحكام أهل الذمة (جزءان) تحقيق الدكتور صبحي الصالح، مطبعة جامعة دمشق  
(١٣٨١هـ / ١٩٦١م). إين ماجة (الإمام محمد بن يزيد أبو عبدالله القرويني)  
(٢٧٣هـ / ٨٨٦م).

- ١٠- سنن المصطفى - المطبعة النازية/ بمصر ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م. إبن داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني) (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).
- ١١- مختصر وشرح وتهذيب سنن ابن داود للمنذري، والخطابي، وابن القيم الجوزية - مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م. أبو عبيدة (الإمام القاسم بن سلام) (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م).
- ١٢- الأموال - تحقيق خليل هراس محمد نشر مكتبة الكليات الأزهرية، بلا تاريخ. أبو علي (محمد بن الحسن الفراء الحنبلي) (٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).
- ١٣- الأحكام السلطانية - القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م. أبو يوسف (القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري) (١٨٢هـ/ ٧٩٨م).
- ١٤- الخراج - المطبعة السلفية/ القاهرة، ط ٣، (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م). أنس (الإمام مالك بن أنس) (١٧٩هـ/ ٧٩٥م).
- ١٥- المدونة الكبرى - برواية سحنو بن سعيد التنوخي عن عبدالرحمن بن قاسم. مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م. الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى) (٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م).
- ١٦- صحيح الترمذي - بشرح الإمام ابن العربي المالكي، المطبعة المصرية بالأزهر - القاهرة بلا تاريخ. جماعة العلماء (جماعة من علماء الهند).
- ١٧- الفتاوي العالمانية المعروفة بالفتاوي الهندية - المطبعة الأميرية بولاق، مصر ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م. الحصكفي (علاء الدين محمد) (ت ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م).
- ١٨- الدر المختار، شرح تنوير الأبصار - مطبوع على هامش كتاب رد المختار لأبي عابدين. الخرشبي (ابن عبدالله محمد) (١١٠١هـ/ ١٦٨٩م).
- ١٩- شرح الخرشبي - مطبعة بولاق - القاهرة، ط ٢، ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م. الزيلعي (فخر الدين عثمان بن علي) (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م).
- ٢٠- تبين الحقائق، شرح كنز الدقائق - المطبعة الأميرية، بولاق، مصر ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م. الرملي (شمس الدين بن شهاب الدين أحمد) (١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م).
- ٢١- نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج - شرح على المنهج للنووي، مطبعة بولاق، مصر، بلا تاريخ. السرخسي (أبي بكر محمد) (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م).
- ٢٢- المبسوط - مطبعة السعادة - مصر، ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م.

- ٢٣- شرح السيّر الكبير - مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، ١٣٣٥هـ/١٩١٦م. الشافعي (الإمام محمد بن إدريس) (٢٠٤هـ/٨١٩م).
- ٢٤- الأّم - (برواية الربيع بن سليمان المرادي) مطبعة بولاق، مصر، ١٣٢١-١٣٢٥هـ/١٩٠٣-١٩٠٧م.
- ٢٥- أحكام القرآن - (جمعه أبو بكر أحمد بن السحين) البهقي النيسابوري، (٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، ط ١، القاهرة، ١٩٥٢م/١٣٧٢هـ. الشربيني (الشيخ حمد بن أحمد الخطيب) (٩٧٧هـ/١٥٦٩م).
- ٢٦- معنى المحتاج إلى معاني ألفاظ المنهاج - شرح على متن (المنهاج) للنووي. مطبوع على متن المنهاج. الشعاريني (محمد الحنبلي).
- ٢٧- غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب - مطبعة النجاح، مصر، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م. الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (١٣١٠هـ/١٩٢٢م).
- ٢٨- إختلاف الفقهاء - طبع ليدن - ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م. العروسي (الشيخ السيد العروسي) (١٢٠٨هـ/١٧٩٣م).
- ٢٩- محاضرة الأوائل - القرطبي (أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) (٧٦١هـ/١٣٥٩م).
- ٣٠- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن - مطبعة دار الكتب المصرية، ج ٥، طبع ١٣٥٢هـ، ج ٢، طبع ١٣٥٧هـ، ج ٨، طبع ١٣٥٨هـ. الكاساني (علاء الدين أبي بكر بن مسعود الحنفي الملقّب بملك العلماء) (٥٨٧هـ/١١٩١م).
- ٣١- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٨هـ/١٩١٠م. كاشف الغطاء (أحمد آل كاشف الغطاء).
- ٣٢- سفينة النجاة - المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، ١٣٣٨هـ/١٩١٩م. الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي) (٤٥٠هـ/١٠٥٨م).
- ٣٣- الأحكام السلطانية والولايات الدينية - مطبعة البابي الحلبي، مصر ط ٢، ١٩٦٦م/١٩٨٦م المارغيتاني (برهان الدين علي بن بكر) (٥٩٣هـ/١١٩٦م)، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣١٥-١٣١٨هـ/١٨٩٧-١٩٠٠م.
- ٣٤- مسلم (الإمام مسلم أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري) (٢٦١هـ/٨٧٩م).
- ٣٥- صحيح مسلم (شرح النووي) - مطبوع على حاشية إرشاد لشرح صحيح البخاري المطبعة اليمنية بمصر، ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م.

## المصادر الأصلية

### أولاً: المصادر القديمة:

- الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد).
- القرآن الكريم.
- إبن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي) (٦٦٨هـ / ١٢٧٠م).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار الفكر، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، وطبعات أخرى. إبن الأثير (أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ابن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين) (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).
- الكامل في التاريخ المطبعة المنيرية، مصر، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م. إبن بطريق (البطريك أفتيشوع المكنى بسعيد البطريق) (ت ٣٢٨هـ / ٩٣٩م).
- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م. إبن جبير (أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي) (٦١٤هـ / ١٢١٧م).
- رحلة ابن جبير (٥٧٨-٥٨٠هـ / ١١٨٢-١١٨٤م) نشر سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١١م. إبن جلجل (أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي) (ت بعد ٣٨٤هـ / ٩٩٤م).
- طبقات الأطباء والحكماء (ألفه عام ٣٧٧هـ / ٩٨٧م) تحقيق فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م. إبن حزم (أبي محمد علي بن حزم الأندلسي) (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م).
- الفصل في الملل والأهواء والنحل - طبع مطبعة المتنبى ببغداد والخانكي بمصر بلا تاريخ. إبن حوقل (أبي القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبيني) (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م).
- صورة الأرض - مطبعة نيبان، بيروت، بلا تاريخ. إبن خرداذبه (أبي القاسم عبيدالله بن عبدالله) (ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م).
- المسالك والممالك - طبع بمكتبة المتنبى ببغداد عن طبع أبريل ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م. إبن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون المغربي) (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م).
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم ذوي السلطان الأكبر - المطبعة الباسيلية - نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

- المقدمة - مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، بلا تاريخ. ابن رُستَه أحمد.
- الأعلام النفسية - أُلّفه نحو ٩٠٣هـ نحو ١٤٩٧م. طبع ليدن، ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م.
- ابن خلكان (شمس الدين أبي العباس أحمد) (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - المطبعة اليمنية، القاهرة، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م. ابن الساعي (أبي طالب علي بن أنجب تاج الدين الملّقب بابن الساعي) (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م).
- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير - تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م. ابن إسحق عبدالمسيح الكندي (القرن التاسع الميلادي).
- رسالة - طبع لندن، ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، وطبعات أخرى. ابن الطقطقي (فخرالدين محمد بن علي بن طباطبات) (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م).
- الفخري في الآداب السريانية - مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، بلا تاريخ. ابن عبدالحكم (أبي محمد عبدالله بن عبدالحكم) (٢١٤هـ/ ٨٢٩م).
- سيرة سيدنا عمر بن عبدالعزيز - المطبعة الرهبانية القاهرة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م. ابن العبري (غريغوريوس يوحنا بن هارون بن توما الملطي) (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦).
- تاريخ مختصر الدول - المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ١، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ط ٢، سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.
- تاريخ كنيسة المشرق (بالسريانية) طبعة لوفان ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م. ابن عساكر (أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله) (٥٧١هـ/ ١١٧٥م).
- التاريخ الكبير - تحقيق عبدالقادر بدران، مطبعة روضة الشام، ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م. ابن قتيبة (أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) (٢٧٦هـ/ ٨٨٩م).
- عيون الأخبار - مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م. ابن القفطي (جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف) (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م).
- تاريخ الحكماء - ويسمى (مختصر الزوزني) من كتاب «أخبار العلماء بأخبار الحكماء»، طبع لبيك، ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م. ابن كثير (أبي الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي) (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

- البداية والنهاية - طبع مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر الرياضي، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- الفهرست - سلسلة روائع التراث العربي، نشر مكتبة خياط، بيروت. أبي الوردى (زين الدين عمر بن الوردى) (١٧٥هـ/٦٩٤م).
- مختصر تاريخ الدول - طبع القاهرة، ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م. الأصفهاني (الإمام أبي الفرج عباد) (٣٥٦هـ/٩٦٦م).
- الأغاني - تصحيح أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم بمصر، بلا تاريخ. البغدادي (ابن المنصور عبدالقاهر بن طاهر) (٤٢٩هـ/١٠٣٧م).
- الفرق بين الفرق - طبع مؤسسة نشر الثقافة الإسلامية بمصر (١٣٦٨هـ/١٩٤٨م). البغدادي (أبي بكر أحمد بن علي الخطيب) (٤٦٣هـ/١٠٧٠م).
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام - دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ. البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) (٢٧٩هـ/٨٩٢م).
- فتوح البلدان - نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، بلا تاريخ. البيروني (أبي الريحان محمد بن أحمد الخورزمي) (٤٤٠هـ/١٠٤٨م).
- الآثار الباقية من القرون الخالية - مطبعة لايبزيك، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م. التطيلي (بنيامين بن يونه التطيلي الأندلسي) (٥٦٩هـ/١١٧٣م).
- رحلة بنيامين - ترجمها عن الأصل العبري وعلق حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م. الجاحظ (أبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري) (٢٥٥هـ/٨٦٨م).
- التاج في أخلاق الملوك - تحقيق أحمد زكي، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م.
- البيان والتبيين - تحقيق عبدالسلام هارون، نشر مكتبة المتنبي ببغداد والخانجي بمصر. ١٩٦٠.
- الحيوان - مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.
- ثلاث رسائل وتسمى رسائل الجاحظ - باعثناء فنكل ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، طبع القاهرة. الجهشياري (محمد بن عبدوس) (٣٣١هـ/٩٤٢م).



- الوزراء والكتّاب - مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.
- خليفة (مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة) (١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م).
- كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون - طبع دار المعارف التركية ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م.
- الدميري (جمال الدين) (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م).
- حياة الحيوان الكبرى - القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م. الدينوري (أبي حنيفة أحمد بن داود) (٢٨٢هـ / ٨٩٥م).
- الأخبار الطوال - دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م. الذهبي (الحافظ شمس الدين) (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م).
- العبر في خبر من غير طبع دار المطبوعات، الكويت ١٣٨١هـ / ١٩٦١م. الرازي (الإمام فخر الدين) (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).
- إعتقادات فرق المسلمين والمشركين - راجعه علي سامي النشار، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م. السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر) (٩١١هـ / ١٥٠٥م).
- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة - المطبعة الخيرية، مصر. السخاوي (شمس الدين محمد بن محمد بن عبدالرحمن) (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م).
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - تحقيق أحمد تيمور، مطبعة الترقّي، دمشق ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م. الشابشتي (أبي الحسن علي بن محمد) (٣٨٨هـ / ٩٩٨م).
- الديارات - تحقيق كوركيس عواد، ط ١، بغداد ١٩٥١، ط ٢، نشر مكتبة المتنبي ببغداد. الشهرستاني (أبي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد) (٥٤٨هـ / ١١٥٣م).
- الملل والنحل - تحقيق محمد سيد كيلاني نشر مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٨١هـ / ١٩٦١م. الصابئ (أبي الحسين هلال بن المحسن الصابئ) (٤٤٨هـ / ١٠٥٦م).
- رسوم دار الخلافة - تحقيق ونشر ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء - مطبعة البابي الحلبي، مصر، بلا تاريخ. الصولي (أبي بكر محمد بن يحيى) (٣٣٥هـ / ٩٤٦م).

- أدب الكتاب - تصحيح وتعليق محمد بهجة الأثري. الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) (٣١٠هـ/٩٢٢م).
- تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٠-١٩٦٣، الحسينية القاهرة. الطرطوشي (أبي بكر محمد بن الوليد الفهري) (٥٢٠هـ/١١٢٥م).
- سراج الملوك - مصر، ١٣١١هـ/١٨٩٣م. العمري (ابن فضل الله) (٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
- مسالك الأبصار في الممالك والأمصار - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م. الغزالي (أبي حامد الطوسي) (٥٠٥هـ/١١١١م).
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة - تعليق مصطفى القباني الدمشقي، مطبعة الترقى، مصر، ١٣١٩-١٣٢٥هـ/١٩٠١-١٩٠٧م. القزويني (زكريا محمد بن محمود) (٦٨٢هـ/١٢٨٣م).
- آثار البلاد وأخبار العباد - طبع دار صادر ببيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م. القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي) (٨٢١هـ/١٤١٨م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا - المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ/١٩١٣م. الكندي (أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري) (٣٥٠هـ/٩٦١م).
- الولاة وكتاب القضاة - تصحيح كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م. المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين بن علي) (٣٤٦هـ/٩٥٧م).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر - مطبعة دار الرجاء، القاهرة، بلا تاريخ.
- التنبيه والإشراف - ليدن، مطبعة بريل، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م. مسكوية (أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب) (٤٢١هـ/١٠٣٠م).
- تجارب الأمم - طبع مكتبة المتنبي، بغداد، بلا تاريخ. المغربي (السموأل بن يحيى بن عباس) (ومن أخبار اليهود قبل إسلامه).
- بذل المجهود في إفحام اليهود - مطبعة الفجالة بمصر، بلا تاريخ. المقدسي (المطهر بن طاهر) (٣٨٧هـ/٩٩٧م).

- البدء والتاريخ - المنسوب تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي. عُني بنشره كلمان هوار، طبع باريس ١٩٠٣م، مطبعة المتنبى ببغداد. المقدسي (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المعروف بالبشاري) (٣٧٥هـ/٩٨٥م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ليدن - مطبعة بريل، ج ١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالله عبدالقادر بن محمد) (٨٤٥هـ/١٤٤١م).
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - طبع بولاق القاهرة، ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م. مجهول (مؤلف).
- العيون والحدائق في أخبار الحقائق - طبع مكتبة المتنبى، بغداد، بلا تاريخ. مجهول (مؤلف).
- التاريخ السعدي - نشره المطران إدي شير (ت ١٩١٧م)، طبعة باريس ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م. مجهول (مؤلف - الرهاوي).
- تاريخ الرهاوي المجهول - تعريب ونشر الأب ألبير أبونا، مطبعة شفيق، بغداد، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م. ميخائيل (البطريك ميخائيل الكبير).
- تاريخ ميخائيل الكبير - تعريب المطران غريغوريوس صليبا شمعون، حلب، دار الرها/١٩٩.
- تاريخ اليعقوبي - (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح الأخباري) (٢٨٤هـ/٨٩٧م) مطبعة الغري، النجف، العراق، بلا تاريخ.

#### ثانيًا: المراجع العربية الحديثة

- أبو زهرة (محمد شاهين حمزة) محاضرات في النصرانية - مطبعة يوسف، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- أصول الفقه الإسلامي - المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. بلا تاريخ. إسحق (روفائيل بابو).
- تاريخ نصارى العراق - مطبعة المنصور، بغداد، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.
- مدارس العراق قبل الإسلام - بغداد ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية - مطبعة شفيق، بغداد، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م. الألوسي (محمود شكري البغدادي) (١٢٧٠هـ/١٨٥٣م).

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - شرح وتصحيح محمد بهجت الأثري، المطبعة الرحمانية، مصر، بلا تاريخ. أمين (أحمد).
- فجر الإسلام - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٣، القاهرة، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.
- ضحى الإسلام - نشر دار الكتاب العربي، ط ١٠. بدوي (عبدالرحمن).
- تاريخ الإلحاد في الإسلام - نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م. بولص (الراهب بولص أسقف صيدا).
- اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية - طبع في حمص، ١٩٤٣. برصوم (البطريك إغناطيوس أفرام الأول) (١٩٥٧م).
- الفرق النصرانية - مقالة نشرها الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٤م. الجومرد (الدكتور عبدالجبار).
- هارون الرشيد - مطبعة دار الكتاب، بيروت، ١٩٥٦م. جوهرى (طنطاوي).
- براءة العباسية - مطبعة الباى الحلبي، مصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م. حتي (الدكتور فيليب).
- الدولتان الأموية والعباسية - مطبعة التقيص، بغداد، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م.
- تاريخ العرب (المطول) - مطبعة التقيص، بغداد ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م. حسن (حسن إبراهيم).
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - مطبعة مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٥٣م.
- التاريخ الإسلامي العام - القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م. الحبابي (محمد عزيز).
- الشخصية الإسلامية - نشر دار المعارف، مصر، بلا تاريخ. الحيدر آبادي (محمد حميد الله).
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، القاهرة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م. الخربوطلي (علي حسني).
- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي - دار المعارف بمصر ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.
- الإسلام وأهل الذمة - مطابع شركة الإعلانات الشرقية ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م. الخشّاب (يحيى).

- إلتقاء الحضارتين العربية والفارسية - المطبعة العالمية، القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م. داود (الخوري يوسف السرياني) (١٨٩٠م).
- مختصر المختصر في تاريخ الكنيسة - طبع بدير الآباء الدومنيكان، الموصل، ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م. الدوري (الدكتور عبدالعزيز).
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري - مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م.
- العصر العباسي الأول - مطبعة النفيض الأهلية، بغداد ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م.
- الجذور التاريخية للشعبوية - دار الطليعة، بيروت، ١٣٨٢هـ/ ١٩٢٦م. الرافعي (مصطفى).
- الإسلام نظام إنساني - نشر مكتبة الحبال، بلا تاريخ. الراوي (ثابت اسماعيل).
- العراق في العصر الأموي في الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية - مطبعة الإرشاد بغداد، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م. رحمه الله (الدكتورة مليحة).
- الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين - مطبعة الزهراء، بغداد، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. رفاعي (أحمد فريد).
- عصر المأمون - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م. الرئيس (محمد ضياء الدين).
- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية - دار المعارف بمصر، ٣، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م. زيدان (عبدالكريم).
- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام - مطبعة البرهان، بغداد، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م. (زيدان جرجي).
- تاريخ التمدن الإسلامي - مراجعة وتعليق حسين مؤنس، طبع دار الهلال، القاهرة، بلا تاريخ. سالم (إبراهيم علي).
- النفاق والمنافقون - مطبوعات دار الشعب، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. السامرائي (الدكتور عبدالله سلوم).
- الفرق الغالية في الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري حتى القرن الخامس - رسالة دكتوراه غير مطبوعة بمكتبة كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م. سرور (محمد جمال).

- الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة - نشر دار الفكر العربي، ط ٣، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م. شيخو (الأب لويس اليسوعي).
- النصرانية وآدابها بين الجاهلية - طبع بيروت ١٩١٩م.
- شعراء النصرانية بعد الإسلام - المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٢٤م. شير (المطران أدي) (١٩١٧م).
- شهداء المشرق - طبع الموصل للآباء الدومنيكيين ١٩٠٠م.
- تاريخ كلدو وآثور، الجزء الثاني - بيروت ١٩١١م. شلبي (أحمد).
- المجتمع الإسلامي أسس تكوينه، أسباب تدهوره - دار الطباعة الحديثة بمصر، ط ٢، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م. القس (سليمان صانع الموصل) (١٩٦١م).
- تاريخ الموصل - المطبعة السلفية، مصر، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م. الصالح (الدكتور صبحي).
- النظم في الإسلام، نشأتها، تطورها - دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م. عبدالغني (محمد).
- صراع العرب خلال العصور - طبع مؤسسة المطبوعات الحديثة، مصر، بلا تاريخ. العدوي (إبراهيم أحمد).
- المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية - طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.
- حركات التسلل ضد القومية العربية - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، مصر ١٩٦١م. العقاد (محمود عباس).
- أبو الأنبياء الخليل إبراهيم - سلسلة كتاب اليوم، مطابع دار أخبار اليوم، ١٩٥٣م. علي (الدكتور جواد).
- تاريخ العرب قبل الإسلام (ثانية أجزاء) - شركة الرابطة للطبع والنشر، بغداد، ١٩٥٣م. علي (محمد كرد).
- الإسلام والحضارة العربية - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م. العلي (الدكتور صالح أحمد).
- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري - دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩م. الغزالي (محمد).
- نظرات في القرآن - مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣م. الفيّاض (عبدالله).

- تاريخ البرامكة - مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٤٨ م. قطب (سيد).
- مشاهد القيامة في القرآن - دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م. كاشف (سيرة إسماعيل)
- الوليد بن عبد الملك - سلسلة أعلام العرب، عدد ١٧، نشر المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٢ م. الليثي (سميرة مختار).
- الزندقة والشعبوية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما - طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م. ماجد (عبد المنعم).
- التاريخ السياسي للدولة العربية - طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، ١٩٦٠ م.
- التاريخ السياسي للدولة العربية - طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣ م. محمود (حسن أحمد).
- الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي - نشر دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧ م. المدور (جميل نخلة).
- حضارة الإسلام في دار السلام - مطبعة الاعتماد، مصر ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م. مظهر (إسماعيل).
- تاريخ الفكر العربي - نشر مجلة العصور لنشر المعرفة والآداب، القاهرة، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م. نافع (محمد مبروك).
- عصر ما قبل الإسلام - القاهرة، ط ٢، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م. النجار (عبد الوهاب).
- قصص الأنبياء - ط ٤، مطبعة مصر، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م. نصري (القس بطرس الكلداني).
- ذخيرة الأذهان في تواريخ المشاركة والمغاربة من السريان - طبع دير الآباء الدومنيكان بالموصل، ١٩١٣ م. يعقوب (البطريك إغناطيوس) (١٩٨٠ م).
- تاريخ كرسي بطاركة المشرق - طبع دمشق ١٩٦٩ م. اليوزبكي (الدكتور توفيق سلطان).
- الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة الإسلامية العباسية - مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٠.
- تاريخ أهل الذمة في العراق (١٢-٢٤٧ هـ) - طبع في جامعة الرياض، السعودية، ١٩٨٠ م.

## ثالثاً: المراجع الأجنبية المترجمة

- آرنولد (توماس) الدعوى إلى الإسلام - ترجمة حسن إبراهيم حسن، مطبعة مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٤٧ م. بارتولد (ف).
- تاريخ الحضارة الإسلامية - ترجمة حمزة طاهر، ط ٣، طبع دار المعارف بمصر، بلا تاريخ. بخشى (خودا).
- الحضارة الإسلامية - ترجمة وتعليق علي الخربوطي، نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة، بلا تاريخ. ترتون (أ. س.).
- أهل الذمة في الإسلام - ترجمة حسن حبشي، مطبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٧ م. جلوب (جون).
- إمبراطورية العرب - تعريب وتعليق خيري حمّاد، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٦ م. جولدتسهير (اجناس).
- العقيدة والشريعة في الإسلام - ترجمة علي حسن عبدالقادر ورفاقه - مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ط ٢، بلا تاريخ. دوزي (ر. ب. أ.).
- نظرات في الإسلام - ترجمة كامل كيلاني، مطبعة الحلبي، ١٩٣٣ م. ديموجين (موريس غود فروا).
- النظم الإسلامية - ترجمة صالح الشّماع، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٥٢ م. ديورانت (ول).
- قصّة الحضارة - ترجمة محمّد بدران، طبع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، بلا تاريخ. ريسلر (جاك. س.).
- الحضارة العربية - ترجمة غنيم عبدون، طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦ م. سيديو (ل. أ.).
- تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعيتر، نشر البابي الحلبي، مصر، ١٩٤٨ م. الشلبي (الشيخ نعمان).
- حكومة عمر - ترجمه عن التركية العميد الركن طه الهاشمي، نشره الدكتور سهيل الهاشمي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦ م. علي (شير أمير).
- مختصر تاريخ العرب والتمدّن الإسلامي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٨ م. فارمر (هنري جورج).



- تاريخ الموسيقى العربية - ترجمة جرجيس فتح الله المحامي، نشر مكتبة مصر، القاهرة، بلا تاريخ. لوبون (غوستاف).
- حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر، طبع دار إحياء الكتب العربية، ط ٣، القاهرة ١٩٥٦ م. منز (آدم).
- الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري - ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٧ م. ولهاوزن (يوليوس).
- الدولة العربية وسقوطها - ترجمة يوسف العث، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ١٩٥٦ م.

#### رابعًا: المعاجم والمجلات

- دائرة معارف البستاني - بطرس البستاني، م ١-٤، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٠ م.
- الإعلام قاموس وتراجم - خير الدين الزركلي، ط ٢، بلا تاريخ.
- القامون المحيط - مجد الدين الفيروزآبادي، ١٣٥٧ م.
- لسان العرب - ابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١ م).
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - أحمد المغربي الرافعي (٧٧٠هـ / ١٣٦٨ م).
- المطبعة الأميرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٢٨ م.
- معجم البلدان - شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي (٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م)، مطبعة السعادة، مصر.
- معجم الأدباء - ياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون، بلا تاريخ.
- معجم ما استعجم - أبي عبدالله بن مصعب البكري (٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م)، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٦ م.
- المنجد - لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٧ م.
- الموسوعة العربية الميسرة - محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٦٠ م.
- مجلة المسرة - سهيل قاشا، الطب في العصر العباسي، العدد ٥٩٨ و ٥٩٩، ١٩٧٤ م، ص ٧٥٤-٧٦٣، ٨١٩-٨٢٩.
- مجلة الفكر المسيحي - سهيل قاشا، حنين بن إسحق، العدد ٢٢، شباط ١٩٧٤ م، ص ٥٨-٦٤.
- مجلة المسرة - الأب سمير خليل.

- مجلة المسرة - سهيل قاشا، دور الأطباء المسيحيين الاجتماعي والسياسي، العدد ٨١٧، ١٩٩٥ م، ص ٤٨١-٥٠٦.
- مجلة بين النهرين - سهيل قاشا، يحيى بن عدي التكريتي، العدد ١١، ١٩٧٥ م، ص ١٨٣-٢٠٢.
- مجلة المشرق البيروتية - أعداد متفرقة لسنوات عديدة بأقلام كتّاب عديدون سيما الأب لويس شيخو اليسوعي، لم نحصرها في حينه، إنما هي مذكورة في حواشي الكتاب.
- مجلة البطريركية - سهيل قاشا، الطب والترجمة في العهد الأموي، عدد ١١٨-١٢٠، ١٩٧٤ م، ص ٥٤٩-٥٥٩.
- مجلة الجامعة - سهيل قاشا، أثر العرب في الحضارة الإنسانية، عدد خاص، ٢ حزيران ١٩٧٤ م، ص ٦٨-٧٥.
- كرنيب (الدكتور حسين) - الدولة العباسية وعلاقتها بالديانات الإسلامية، دار اليوسف، بيروت، ١٩٨٧ م.
- محمد (الدكتور ماهر عبد القادر) - حنين بن إسحق، العصر الذهبي للترجمة، دار النهضة العربية، بيروت.
- قنواتي (الأب الدكتور جورج) - المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة ودار نوبار للطباعة، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- غزال (الدكتور موسى يونان مراد) - حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، مطبعة مار أفرام، العطشانة، بيروت، ١٩٧٣ م.
- قاشا (الأب سهيل بطرس) - لمحات من تاريخ نصارى العراق، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٨٢ م.
- الامراي (الدكتور كمال) - مختصر تاريخ الطب العربي، جزآن، منشورات دار النضال، بيروت، ط ١، ١٩٨٩-١٩٩٠ م.
- زغلول (الدكتور الشحات السيد) - السريان والحضارة الإسلامية، مصر، ١٩٧٥ م.
- حافظ (الدكتورة شادية توفيق) - السريان وتاريخ الطب، مصر، ١٩٩٣ م.

## الفهرس

هل يدرك المسلمون تاريخهم؟	٥
شكرٌ وتقدير.....	٧
الإهداء.....	٩
المقدمة.....	١١
الفصل الأول: السريان وحركة الترجمة في الدولة العربية الإسلامية.....	١٥
الفصل الثاني: السريان وتعريب التراث اليوناني أيام الدولة العباسية.....	٤٧
الفصل الثالث: الكتاب والوزراء السريان في ديار الإسلام.....	٦٩
الفصل الرابع: الطبّ والترجمة في العهد الأموي.....	١٠٥
الفصل الخامس: السريان في أيام العباسيين.....	١٢٥
الفصل السادس: كنيسة أنطاكية للسريان الأرثوذكس في أيام العباسيين.....	١٩٥
الفصل السابع: السريان والنهضة العلمية في الدولة الإسلامية.....	٢١٧
الفصل الثامن: الأطباء وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين.....	٢٢٩
الفصل التاسع: أحوال السريان في الدولة العباسية.....	٢٦٩
الفصل العاشر: حياة السريان الاجتماعية.....	٢٨٩
الفصل الحادي عشر: الأطباء السريان في المجتمع العباسي الإسلامي.....	٣٢١
الفصل الثاني عشر: دور الأطباء السريان الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي.....	٣٧٥
الفصل الثالث عشر: دور أهل الذمة في الحضارة العربية الإسلامية.....	٤٠١
الفصل الرابع عشر: يحيى بن عدي التكريتي.....	٤٢٩
الفصل الخامس عشر: أيوب الأبرش الرهاوي.....	٤٤٩

# السريان أعمدة الحضارة الإسلامية

يسلّط هذا الكتاب الضوء على الدور الثقافي والفكري الكبير الذي لعبه مسيحيو الشرق عمومًا، والسريان خصوصًا، في العصور الأولى للدولة الإسلامية، وبالتحديد في عهد الخلفائين الأموية والعباسية. فقد رقدوا الدولة الصاعدة الخارجة من الجزيرة العربية بخلاصات الفكر الإنساني اليوناني، وفنون الإدارة وتنظيمها، عبر ترجمة أمّهات كتب الحضارة الإغريقية العريقة إلى اللغة العربية، وكتابة العديد من المؤلفات في حقل الطب بشكل خاص، مؤدّين بذلك دورًا مهمًا في تكوين ثقافة الشرق العربي، وفي إرساء القواعد التي بنيت عليها الحضارة الإسلامية.

يكشف الكتاب أيضًا عن المكانة البارزة والثقة غير المحدودة التي أولاها الخلفاء للسريان بحيث أسكنوهم في بلاطهم بشكلٍ شبه دائم، واثمنوهم على صحتهم الشخصية وصحة عائلاتهم، وعلى أموالهم وعلى الكثير من أسرار الدولة.

غير أن تغلغل العناصر غير العربية، من فرس وترك، في الدولة الإسلامية، انعكس سلبيًا على دورهم النهضوي فانكفأوا، وتراجعت معهم العديد من نواحي الحياة المشرقة في العالم العربي.

\*\*\*\*\*

## الأب سهيل قاشا:

باحث موسوعي وعالم دين مسيحي عراقي سرياني، ولد في بخديدا شرق الموصل عام ١٩٤٢. سيم كاهنًا السريان الكاثوليك في الموصل. ناهزت كتبه الـ٧٧ مؤلفًا، دارت أغلبها حول تاريخ العراق القديم والحوار الإسلامي-المسيحي.

## الأب جورج رحمة الأنطوني:

من مواليد دير الأحمر في العام ١٩٤٠. دبلوم دراسات عليا في الحضارات المشرقية. دكتور دولة في الفلسفة. مدير كلية التربية في الجامعة اللبنانية، الفرع الثاني، ١٩٨٦-١٩٩١، وعضو اتحاد اللاهوتيين الكاثوليك في لبنان، وأمين عام مساعد للمجلس العالمي للتعاون الإسلامي-المسيحي ١٩٨٥-١٩٨٨.

ISBN: 978-614-451-108-4



9 786144 511084